نري بيريس

الشعر الأندلسي

في عصر الطوائف

ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكي

ار المعارف

هنرى بيريس

الشعر الأندلسى

فى عصر الطوائف

ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم

جامعة القاهرة



دار المعارف



رقم الإيداع		١٩٩٠ / ٩٠٩١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3153 - 3	ISBN

٣ / ٨٨ / ٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

١

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

○ كلمة المترجم:

بين يدى القارئ كتاب يراه الأوربيون أفضل دراسة لموضوعات الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف، وأعتقد أن القارئ العربى عندما ينتهى من قراءته سوف ينتهى إلى قريب من هذا الرأى أيضًا، فهو يؤرخ لإسبانيا الإسلامية، فى هذه الفترة من جوانبها المختلفة، مادية ومعنوية، من خلال الشعر، ويراه وثيقة بالغة الأهمية، جديرة بالثقة، حتى عندما يتجاوز الشاعر بإبداعه خط الصدق إلى الجانب الآخر، فيبالغ أو يغالى، لأنه يفعل ذلك مستجيبًا لضواغط اجتماعية، شخصية أو عامة، مادية أو فكرية.

والفكرة نفسها ليست جديدة علينا، أو على جيلى فى القليل، وأذكر أن أستاذنا الجليل المرحوم إبراهيم مصطفى كان يدرس لنا فى قسم الليسانس الممتازة مادة «نصوص من الأدب القديم»، ويرى أننا استخلصنا تاريخ مصر الفرعونية، على امتداد قرون طويلة، من نقوش على الأحجار ظنيّة القراءة والدلالة، وأننا نستطيع أن نعتمد على الشعر فى التأريخ لحياة العرب قبل الإسلام، ولم يتركوا لنا غيره وثائق ذات أهمية، وفعلاً قرّر علينا دراسة ديوانين كانا حتى ذلك الوقت مجهولين لجمهرة الدارسين، هما ديوانا: عمرو بن قميئة و المتلمس ، مكتوبين على الآلة الكاتبة، الأول نقلاً عن طبعة المستشرق الإنجليزى ليال، ونشره فى كمبردج عام ١٩١٩، والثانى عن طبعة المستشرق الألمانى فولرز ونشره فى ليبزج عام ١٩٠٣، درسنا موضوعاتها، ودلالاتها، بقدر ما تسمح به إمكانات طالب، ومن بعد جاء أستاذنا المرحوم أحمد الحوفى، وطبق هذه النظرية، فى كتابه: الحياة العربية من الشعر الجاهلى.

●●●

بدأت معرفتى بالكتاب وصاحبه حين رأت مصر أن تعين الجزائر فى معركتها القاسية من أجل تأكيد هويتها العربية، بعد أن خاضت حربًا ضروسا من أجل استقلالها السياسى، وأمدتها بآلاف من مدرسى التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى، وعدد من أساتذة الجامعة، تدفع لهم مصر مرتباتهم كما لو كانوا يعملون فيها، وتدفع الجزائر شيئًا رمزيًا ومكمّلاً. ولم يكن العمل خارج مصر محببًا إلى نفسى، ولكن الحصار العنيف الذى ضربته الدولة يومها على المصريين، بعد الانفصال السورى، ثم هزيمة ١٩٦٧ نفسها، جعلت الذين ضاقوا بالأمر الواقع ولايستطيعون تغييره، والذين كانوا على صلة مستمرة بسير الحضارة فى العالم ويودون ألا تنقطع صلتهم به، يؤثرون الخروج إلى أى بلد يعملون فيه، وكانت الجزائر رغم تفاهة العائد المادى من الرحلة إليها ترضى فى نفوس الراغبين فيها مشاعر عارمة بأنهم يؤدون واجباً قومياً، وبالنسبة لى شخصيًا، فإن المغرب، فى مفهومه العريض، والأندلس يمثلان مجال الدرس المحبب إلى نفسى، ومشاهدة الواقع عيانا، أرضا وبشرا، خير من الاعتماد على الكتب وحدها، وأشهد أن الرحلة بهذا الفهم كانت بالنسبة لى أكثر من رائعة، ولم ينقطع ترددى على شتى أقطار المغرب وأوربا، ولشهور طوال، خلال تلك السنوات.

الصدفة وحدها جعلت من مكتب هنرى بيريس مكتبى، وفى بقايا الأوراق الرسمة التى تركها بداخله كان خطه وتوقيعه، وبدأت أسمع من طلابه الجزائريين، كم كان قاسيا معهم فى اللغة العربية، يحاول فى كل خطوة أن يوهمهم أنها ليست لغتهم، وأنهم لن يجيدوها مهما طال بهم الزمن، وفى المقابل كان يظهر لهم الفرنسية سهلة ميسرة، كما لو كانوا قد ولدوا لآباء فرنسيين ويعيشون فى فرنسا نفسها.

كان هنرى بيريس أستاذ الأدب العربى فى كلية الآداب فى جامعة الجزائر، وهى جامعة أقامها الفرنسيون لأبنائهم فى بلد يستعمرونه واعتقدوا أنهم لن يغادروه إلى الأبد، فجاءت شيئًا رائعًا فى نظامها وتقاليدها ومكتبتها، وتضم مكتبة القسم كل ما يحتاج إليه الباحث من ديوان أعظم شاعر عرفه الشعر العربى إلى أصغر ديوان لشاعر مجهول لا يعرفه أحد، ومن روايات أعظم الكتاب إلى من يتحركون فى خطواتهم الأولى مبدعين.

وبدأت أتردد على مكتبة الجامعة نفسها، وكانت شيئًا لا أعرف له شبيهًا فى بلادنا العربية، بما فيها جامعة القاهرة العريقة، من حيث الثراء فى المصادر والمراجع والدوريات، فى مختلف اللغات، وفى التنظيم والتبويب والفهرسة، واحترام وقت القارئ وراحته، فهى مكيّفة كلها، ومفروشة «بالموكيت» يستوى فى ذلك قسم الأساتذة وقسم الطلاب، وحين رجعت إلى نفح الطيب فى طبعته الأوربية وجدت آثار بيريس واضحة فيه، وكل صفحة منه تنطق بجهده ومثابرته، وتشى بأنه قرأ الكتاب عشرات المرات، واستوعبه تمامًا، فالهوامش مليئة بتصويباته وتعليقاته، إذا مرّ بجملة مضطربة قومها، أو بيت شعر لمجهول نسبه لقائله، أو بقرية أو مدينة كتب اسمها بالإسبانية أيضًا، أو بمعلومة ناقصة أو متناقضة أحالنا على المكان الذى يصوّبها أو يكملها. وكانت هذه بداية التعرف على تراثه ومؤلفاته، وشدنى من بينها أكثر فأكثر كتاب الشعر الأندلسى، فقد كان الرجل دون أن ينسى أنه كاثوليكى أوربى صاحب منهج علمى سار عليه، وارتضى النتائج التى انتهت إليها المقدمات، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن كل ما جاء فى الكتاب صحيح ونوافقه عليه، لأن المقدمات نفسها قد تكون خاطئة أحيانًا، وتؤدى بالتالى إلى نتائج خاطئة أيضًا.

ومع الأسف الشديد فإن هذا العالم الموضوعى أعماه التعصب عن استكناه الغد واستشرافه، فأخذ جانب غلاة الاستعماريين حين قامت الثورة الجزائرية، وبعد انتصارها، وتجاوز دوره فيها يبدو المشاركة الوجدانية إلى الدعم العملى، وحين انتصرت الجزائر واستقلت رحلوا، ولم يستطع أن يبقى بعدهم، وحين رحل لم يستطع أن يواجه المثقفين فى وطنه، واعتزل الحياة فى دير من منطقة جبال البرانس، آوى إليه، وأسدل الستار على أمسه بخيره وشره، وانتهى عالمًا وإنسانًا!

وعبثًا حاولت أن أعثر له على خبر بين زملائه فى باريس، حتى أنهم لا يعرفون إن كان قد رحل عن الدنيا أو لمّا يزل باقياً على قيد الحياة.

● ● ●

حين قرأت الكتاب أخذت به، وقر رأيى على ترجمته، فهو نموذج يحتذى فى الجهد والصبر والمنهج والجدية، وكان دون تحقيق أمنيتى أهوال، فقد استوعب الرجل الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف تمامًا، وأحاط بكل مصادره مخطوطة ومطبوعة، فى مكتبات عديدة، وطبعات فى بلاد مختلفة ولأمانة المنهجية

تقتضي أن نرد النصوص إلى أصولها، شعرا كانت أم نثرًا، والوصول إليها فى القاهرة صعب وعسير إن لم يكن من المحال، لأن الكثير منها طبعات أوربية نفدت منذ زمن بعيد.

لقد اقتضى تيسير الإفادة من الهوامش أمام القارئ العربي أن أحيله إلى ما صدر منها حديثا، أو كان ممكنا، كما هو الحال فى نفح الطيب للمقرى، إذ رأيت من العبث أن أحيله على الطبعة الأوربية كما صنع المؤلف، ولا يوجد منها فى القاهرة على امتدادها غير نسخة واحدة، وإلى ما طبع من المخطوطات كما هو الحال فى الذخيرة لابن بسام، أو أن الطبعة الحديثة هى الميسرة، أو المحققة، كما حدث فى بدائع البدائه لابن ظافر، أو ديوان ابن زيدون، أو ديوان ابن خفاجة، فإذا تعذر الوصول إلى ما أتى به فى هذه الطبعات تركت هوامشه على حالها وأشرت إلى ذلك، وكذلك تركت الهوامش على حالها فى المخطوطات التى لم تطبع، والكتب التى لم تحقق وترجمت الهوامش إلى العربية تسهيلا لأمور الطباعة، إلا فى حالات نادرة، وجئت بقائمة مصادر المؤلف فى لغاتها الأصية، كما هى فى كتابه، لمن يرغبون فى العودة إليها، ولما كانت فى لغات عديدة، وتجئ مختلطة، حتى العربية منها، وكتبها فى حروف لاتينية، أبقيت عليها كلّها، وقراءتها سهلة فيما أتصور لمن يعرف الأبجدية اللاتينية مجرد معرفة.

لقد استغرق منى هذا العمل سنوات طوال، لأن المصادر العربية القديمة، ومعظم الحديثة لا تعرف الفهارس المتنوعة، والأولى منها لا تخضع لمنهج، وإنما تجئ أخلاطا من المعارف والآداب متداخلة ومتراكمة، وتضطرب فيها الأسماء اضطرابا شديد . فالكتاب الواحد يجئ باسم الشاعر أو الأديب علما مرة، أو كنية أو لقبا أو منسوبا إلى بلده، أو مهنته، أو مذهبه، مرات أخرى، وقد تكتفى بواحد منها فقط، على حين يشترك فيه أكثر من شخص، هذا إلى جانب الأخطاء فى النسخ أو الطباعة.

لا يجيء المؤلف بالهوامش لمجرد التوثيق، أو مظهرا، أو شكلا، ليضفى على كتابه سمة علمية وجامعية، وإنما يتجاوز ذلك بكثير، فيجعلها نافذة يطل منها على قضايا كثيرة تتصل بالموضوع وليست من صميمه، من موازنات ومقارنات، بين عصر وعصر، أو بين الأندلس والمشرق، أو بين الأدب الأندلسي والآداب الأوربية، يلقى بذلك عجلا، فى إيجاز، ويحيلنا على المصادر التى تروى غليل الظامئ إلى المعرفة الواسعة، ومن ثم فهو يدفع فى أعماق قارئه بعشرات القضايا التى تصلح للبحث أو الدرس.

لا يختلف منهجى فى الترجمة هنا عما سرت عليه فى ترجمة كتب خلت، فأنا ألتزم بنص المؤلف ورأيه، مهما كان رأيى فيه، وبجمله وبنيتها إذا اتسعت لها العربية، وساغها الذوق العربي، ويمكن أن تفهم دون صعوبة، فلا حذف ولا تجاوز ولا تغيير، ولم أعلّق عليه إلاّ فى حالات قليلة جدا، ولكنّى صوبت الأخطاء التى وقع فيها وهى قليلة.

وفى إيراد الشعر التزمت بمنهجه، ولكن الضرورة كانت تتطلب أحيانا أن أزيد فى البدء بيتا تجاوزه المؤلف، لأن فهم ما أورده يتوقف عليه، وكنت أشعر أحيانا أن المؤلف يسقط بيتا أو بيتين وسط ما يأتى به، لصعوبة ترجمتها إلى الفرنسية، أو لأن الذوق الأوربي لا يسيغها، فأوردتها. وكذلك فى الفصل الخاص بالزهور، فقد خرج المؤلف على مألوف عادته، وارتضى أن ينثر الشعر، وأن يقتنع منها بما يصلح شاهدا، مكتفيا بالمضمون، دون أن يترجم الشعر كله، وأحسست أن وراء ذلك صعوبة نقل هذه الأبيات إلى الفرنسية، فجئت بأبيات الشعر نصا، لتكون أمام القارئ العربي، يفهمها ويتذوقها أيضا.

إجمالاً يستخدم الباحث دائما لفظ إسبانيا، أو إسبانيا الإسلامية، ويتحدث عن الإسبان أو الإسبان المسلمين، ويعنى بها الأندلس فى لغتنا العربية، ويصدر فى ذلك عن فكرة آمن بها عبر الكتاب كله، وحاول أن يبرهن عليها، وفى إطارها درس شعر هذا العصر، وهو أن الذين أبدعوا هذه الحضارة كانوا إسبانا يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام.

لا بأس! أنا لا أختلف معه فى هذا، وليته درس مأساة المسلمين الذين طردوا من إسبانيا بالملايين بعد سقوط غرناطة، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم بوصفهم غزاة عربا طارئين وليسوا من أهل الجزيرة!

وحين يأتى بكلمة الأندلس Andalucia، إلا فى حالات نادرة جدا، فإنما يعنى بها جنوب إسبانيا فحسب، وفيها تأصلت الحضارة العربية بعمق، وتضم الآن محافظات: إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وجيان وولبة وقادس، وكلها تتلاقى فى عادات وأمزجة وخصائص مشتركة، وتتمتع الآن بالاستقلال الذاتى فى نطاق الدولة الإسبانية.

وبعد.

فالكتاب بين يدى القارئ، ولن أتحدث عنه بأفضل مما يتحدث عن نفسه، جهدا فى الترجمة والنقل، ومعاناة فى تحديث المصادر والمراجع، وأملى أن تجد طبعته العربية ما وجده الأصل الفرنسى من الإقبال والرضى والرواج.

الطاهر أحمد مكى

٢٤ من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ
٢٦ من نوفمبر ١٩٨٧ م

٣ شارع مصدق – الدقى
القاهرة الكبرى
ت: ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢

إلى ذكرى:

رينيه باسيه

ومحمد بن شنب

فاتحة الطبعة الثانية

ظهرت هذه الدراسة عن الشعر الأندلسي ى القرن الحادى عشر الميلادى عام ١٩٣٧ م، ونفدت طبعتها منذ عام ١٩٤٧ م.

وإزاء إصرار الناشر، وموافقة مدير معهد الدراسات الشرقية فى الجزائر، اعتقدنا أن من الواجب إعداد طبعة جديدة تحتفظ فى جملتها بالخطوط العامة لطبعة ١٩٣٧.

وبدا لنا من الضرورى فى الحقيقة أن نعيد تحرير النص، رغم أن الدراسات التى نشرت خلال خمسة عشر عاما مضت لم تحمل أى شيء جديد يتصل بالعصر الذى نعرض له، والجانب الأكبر منها يتمثل فى نشر مخطوطات استخدمناها. ومع ذلك، كان من الضرورى أن نصحح نصوصا كانت موضع شك منا، أو أن نكمل بعض الفجوات.

فما نقدمه الآن ليس إلا طبعة «منقحة ومصحَّحة»، استكملت مصادرها لتلائم ما جد فى عالم النشر، وعُدِّلت إحالاتها أو أكملت، وزيدت فهارسها بشكل ملحوظ، وستظل – كما نؤمِّل – موضع اهتمام المستشرقين ومؤرخى الأدب العربى، وأيضا علماء الدراسات الرومانية، أولئك الذين يبحثون عن دراسة منهجية وموجزة، وشاملة ما أمكن فى الوقت نفسه، للموضوعات التى عرض لها شعراء العرب الأندلسيون فى القرن الذى سبق مولد شعراء التروبادور.

لإعطاء بعض التفصيلات مزيدا من الدقة، وبعض التأكيدات شيئا من الاحتمال، ندين بالكثير لرفاقنا وأصدقائنا الذين أبدوا لنا ملاحظاتهم، أو نشروها فى المجلات الفرنسية والأجنبية. وبهذه المناسبة نشكر من بينهم بخاصة: جورج مرسيه، ومرسيل بَتَّيلون، وليفى بروفنسال، وريجى بلاشير، وإ.س. علوش، وإميليو غرسيه غومث، وإجناس كراتشكوفسكى، و إ. ر. نيكل، وبشر فارس.

الجزائر، يناير ١٩٥٣ م



مقدمة

لا تشغل الحركة الأدبية فى إسبانيا الإسلامية على امتداد القرن الحادى عشر الميلادي، حتى يومنا هذا، إلاّ مكانا ضئيلا فى لوحة الأدب العربى، من بداية الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، إذا استثنينا بعض الدراسات المفردة، مفصلة أو ذات لمحات عامة. وعصر ملوك الطوائف، ويشغل كل القرن الحادى عشر الميلادى، ويقع بين انهيار الخلافة الأموية، ومجىء المرابطين، لا يبدو من وجهة النظر الأدبية غالبا إلاّ حادثا لا يكاد يستحق أن يذكر. ومع ذلك لم يزدهر الشعر فى أى عصر آخر، ولم يتدفق بمثل هذا الفَيْض، كما حدث فى هذا العصر، ورغم أنه يلتقى فى ملامح كثيرة مع الشعر المشرقى، ومع شعر إسبانيا نفسها فى المراحل التى سبقت، إلاّ إنه تميّز أيضا بطوابع أصيلة، أكثر من تلك التى تعود إلى الظروف التاريخية الخاصة التى سجلها القرن الحادى عشر. ذلك أن اختفاء الأسرة الأموية المالكة أدى إلى انهيار المركزية، وتضاعف عدد الإمارات الصغيرة، وفى كل إمارة بلاط، وأفسح كل واحد منها مكانا رحيبا للفنون الجميلة، طلبا للشهرة، وأصبحت الحياة الإقليمية نافقة بالنشاط، ونزع الإبداع المحلى إلى أن يأخذ مكانا مرموقا.

وثمة عامل آخر أسهم فى تطوير أدب الإبداع تطويرا كاملا، وهو التحرر من الضغط الدينى الذى أناخ على العقول فى القرن العاشر الميلادى، وبخاصة فى عصر المنصور بن أبى عامر.

وقد أدّى إنصهار العناصر الأصلية المختلفة فى وهج الأحداث السياسية إلى تكوين جنس أندلسى تدريجيا، يحاول أن يحقق ذاته بإعطاء كل شىء يتناوله طابعًا قوميا واضحا، وعكس الشعر، وهو أداته التعبيرية الأدق تصويرا، هذه الأمانى ، ولم يحدث فى أى عصر آخر أن قدّم الشعر هذا الجانب العنصري واضحا، ومتميزا عن الأدب العربى فى المشرق أو فى المغرب على السو ء، كما حدث فى هذا العصر.

لقد بدا لنا أن هذه «اللحظة» تستحق درسا متعمقا، ونعترف أن كل تحديد لموضوع العصر الذى نطلق عليه القرن الحادى عشر الميلادى يُعتبر نسبيا، لأن نهاية القرن العاشر إرهاص بالعصر الأدبى لملوك الطوائف، ولم تكن بداية القرن الثانى عشر إلا امتدادًا له، رغم أن النظام السياسى تغيّر تماما، ومن ثم لا يجب أن يندهش من يلتقى فى بحثنا بشعراء من أمثال ابن شهَيد، والرمادى، وابن خفاجة، وابن سارة، الذين عرفوا عصر ملوك الطوائف قليلا، ولكنهم بروح أعمالهم نفسها يعيشون دون أدنى ريب فى أعماق القرن الحادى عشر الميلادى.

وربما سألنا أحدٌ: لماذا وقفنا عند الشعر العربى الكلاسى وحده، أى الذى جاء فى اللغة العربية الأدبية، وفى قوالب العروض التقليدية؟ إنها مجرد ملاحظة، ونود أن نوضّح أننا لم نعرض عن ذكر الموشحات عندما تجىء المناسبة، وجاءت فى لغتها وعروضها تقليدية، رغم أن التشكل، وجاء فى أدوار، كان تجديدا. ذلك أن القصائد التى من هذا النوع، أعنى الموشحات، وجدت لها مكانا فى كتب المختارات

الأندلسية والمشرقية، وعلى النقيض منها، فإن الزجل، وتحرّر من إعراب أواخر الكلمات ابتعد منهجيا عن تلك الألوان من الإبداع، ومن الصعب أن تجد أزجالاً تنتمى إلى العصر الذى ندرسه، والقصائد الوحيدة التى تجدها مُدوّنة منه هى أزجال ابن قزمان، وعاش فى القرن الثانى عشر الميلادى خاصة.

وحرصنا على ألاّ ندخل المنظومات التعليمية فى الشعر الكلاسى، إذ ليس لها من الشعر إلاّ ما للأبيات التقنية التى نظمها جان لى نينيفيت Jean Le Ninivite، أو ما لبور رويال Port – Royal من أصول إغريقية.

واستبعدنا كذلك دراسة الشكل عمدا.

ونادرا ما ناقشنا القيمة التاريخية الذاتية لنصوص الشعر التى أوردناها، لأننا نرى فى الحقيقة أن هذه النصوص مادامت تعود إلى نفس العصر الذى ندرسه، فهى شواهد يجب أن نقبلها كما هى، لأنها تعبير مباشر عن الأفكار والمشاعر، إلى جانب أنها تتفق مع النصوص التاريخية الجديرة بالثقة، كتلك التى نجدها عند ابن حيان، والحميدى، وابن حزم، وابن بسّام.

بقى أن نضيف كلمات عن الطريقة التى فهمنا بها الشواهد الشعرية. أكان يجب علينا أن نترجم القصائد والمقطوعات المستقلة كاملة أم نختار منها ما تقتضيه المناسبة، فلا نذكر غير بيت واحد، أو حتى كلمة مفردة؟. لقد بدا لنا أنّ الاستشهاد المبتور خيانة فى أغلب الأحوال، ومن ثم حرصنا بعامة على أن نجيء بالبيت المستشهد به فى جملة الأبيات التى وردت معه كاملة، مع المجازفة بأن تبدو الأبيات أحيانا بالغة الطول.

وفيما يتصل بتقنية الترجمة نفسها لا أرى من الضرورى أن نؤكد على صعوبة نقل لغة أجنبية شاعرية، وغنائية فى جوهرها، إلى لغة أخرى، ومع ذلك حافظنا على الأصل، وعلى التركيب النحوى للغة العربية، حتى ولو كان ثمن ذلك جفاء التعبير فى لغتنا، وأبقينا على التشبيهات حرفيا، دون أن نستبدل بعض المصطلحات التى يرفضها ذوقنا بأخرى قد لا تعبر عن وجهة نظر الشعر، وبدا لنا ضروريا أن نحتفظ برونق اللغة الأصلية وألوانها.

ورغم حرصنا الشديد على الدقة، فهناك مقطوعات كانت صعبة الفهم إلى حد ما، ذلك أن الشعر العربى فى الغرب، عندما ينسخ الصور المشرقية، يقدّم لنا دائما هذا الجانب الغامض الذى لا يمكن التغلب عليه إلاّ من خلال ممارسة لغته طويلا، ولكنه حين يحاول أن يعبّر عن المشاعر والأفكار الخاصة بالإسبان المسلمين فإنه يصبح قريبا منّا تماما، ونقترب منه بلا صعوبة، ونشعر حقا بشيء فى نفوسنا من روح هؤلاء الأندلسيين الذين ليسوا بعيدين عنّا أيضا كما يبدو للوهلة الأولى. وإذا أسهمت دراستنا فى أن تكون نقطة انطلاق لنميّز بين ما هو غربى أساسًا وأصلا، وبين ما هو تقليدى لأنه مستورد، فسوف نشعر، ونجرؤ على أن نأمله، بأن لها ما يبررها بما فيه الكفاية.

ولا نودّ أن نختم هذه المقدمة دون أن نعبّر عن عميق شكرنا للسادة : ف. مرسيه، و. ماسينيون، وجو فروى – ديومبين، وج.مرسيه، وإ. ليفى بروفنسال، ور. بلاشير، وج. س. كولين وهـ. مسيه، الذين ساعدونا بنصائحهم وأعمالهم.

مدخل

عرفت إسبانيا الإسلامية منذ الفتح حتى نهاية القرن العاشر الميلادى نظاما سياسيًّا نزع إلى إخضاع كل عناصر السكان، سواء كانت من أصل مسيحى أم عربى أم بربرى، وإلى تركيز كل السلطات فى يد رجل واحد هو الخليفة، وعاصمته قرطبة، وكان المنصور بن أبى عامر آخر عملاق تركزت فى يده السلطات الدينية والدنيوية، وعندما توفى هذا الحاكم العظيم انهار فجأة العمل الذى تحقق طوال القرون الماضية.

وقد اتسمت بداية القرن الرابع الهجرى، التى تتفق مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، بأحداث كبيرة أدّت إلى تغييرات عميقة فى الوضع السياسى لشبه الجزيرة الإيبيرية. وكان الحدث الذى فجرّ سلسلة الاضطرابات، والذى أطلق عليه المؤرخون العرب اسم «فتنة» غير متوقع إلى حد بعيد. ذلك أن عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور بن أبى عامر، عيّن نفسه ولىّ عهد الخليفة الأموى هشام المؤيّد[1]، وكان المنصور بن أبى عامر قد وضعه تحت وصايته، وأصبح الحاكم الفعلى طوال فترة الحجابة، وبهذا العمل اطمأنّ عبد الرحمن شنجول إلى نوايا الأشخاص الذين يحيطون بالخليفة، فتحرك فى حملة ضد المسيحيين عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م. ومثل هذه الحملات كانت تحدث كثيرًا أيام المنصور وخليفته وابنه المظفر عبد الملك، وأحيانا كانت تخرج الحملة مرتين فى العام الواحد. وكان هؤلاء الوزراء العظام يعودون دائما فيجدون العاصمة خاضعة لإرادتهم، وتحتفل بهم مبتهجة، بوصفهم أبطال الإسلام. ولكن مع الابن الثانى للمنصور، وخليفته أيضا، تغيرّ الوضع نهائيًّا، إذ ما كاد شنجول يتوجه بحملة إلى شمال غرب إسبانيا، ضد سكان غاليسيا، حتى أطاحت مؤامرة بالخليفة هشام المؤيد فى قرطبة، وبايعت بالخلافة مكانه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، من الأسرة الأموية، والذى اختار لنفسه لقب المهدى.

والحدث فى حد ذاته تافه، فما أكثر ما شهدت قرطبة من مؤامرات فى القصر، وظن الناس فى البدء أنّ عودة شنجول كافية لتعيد الأشياء إلى نصابها، ولكن جنود المهدى اغتالوا الحاجب الجديد قريبا من قرطبة، وسجلت هذه الجريمة بداية عهد جديد حافل بالاضطرابات.

وتكونت أحزاب مختلفة، وفى البدء بدا أن المطامع السياسية هى التى أثارت الفتن، حتى أن المؤرخين العرب ردّوها فى بساطة شديدة إلى التنافس بين العرب المضرية والعرب اليمنيّة، فقد خضع الأوّلون لإرادة المنصور القوية، وكان يمنيًّا، وحين تغيّب شنجول عن العاصمة قرطبة تنفّسوا الصعداء بعض الشىء، واستغلوا الفرصة كى يعودوا إلى السلطة، ونادوا بخليفة جديد يكون مخلصًا لهم. وبدت الأحداث للمؤرخين العرب، فى الظاهر، ومن بعيد، على هذا النحو، ولكن الواقع أن كلمات مثل

(١) حرر وثيقة البيعة الوزير الكاتب ابن برد الأصغر. انظر: دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨٣.

«يمنى» و «مضرى» كانت قد فقدت كل قيمتها العنصرية والسياسية منذ زمن بعيد، وجرى فجأة على أقلام مؤرخى هذا العصر تعبير «أهل الأندلس»، ليشير إلى أنصار هذا التحوّل السياسى فى المجال الإسبانى، وهو تعبير مائع بما فيه الكفاية، ولكنه اكتسب كل الدقة بعد قليل من الزمن عندما ظهر على المسرح عنصر محدّد تماما، ليلعب دورًا بالغ الأهمية، نريد أن نقول: عندما ظهر العنصرُ البربرى.

نحن نعرف الدور الذى لعبه البربر، وجيء بهم من أفريقيا إلى إسبانيا فى اللحظة التى أُلغى فيها نظام «الجند»، ولعبوا فى سياسة المنصور دورا واضحا كقوة مسلّحة مخلصة لسيدها، ومن الطبيعى طبقا للتقاليد أن يظلّوا على ولائهم لخَلَف هذا الوزير، ولم يكن لعظمته مثيل. ولكنهم لم يكونوا راضين عن شنجول فتحالفوا مع المهدى، وبفضل تأييدهم أمكن لهذا الشخص المناهض للخليفة أن ينتصر على غريمه. ولكن الأحداث أظهرت أنّ اصطناع سياسة أموية لم يعد يتمشىّ مع الواقع، وأنّ لعبة الموازنة لإضعاف حزب على حساب آخر لم يعد ممكنا أن تكون من صنع إرادة رجل واحد. وقد لحظ البربر فى وقت مبكر أن المهدى يكرههم، شأنه فى ذلك شأن بقية سكان قرطبة، وترك التنافر بين العناصر المختلفة تأثيرا عميقا فى الحياة السياسية، وقد طلب البربر من الأموى هشام بن سليمان بن الناصر أن يبايع نفسه خليفة، ولكن شعب قرطبة ثار عليه، وقبض على هشام هذا المتواطئ مع البربر، وحملوه إلى المهدى، الذى خاف منه، دون أدنى شك، فأمر بقتله.

وهذا الاغتيال، وهو الثانى على امتداد بضع سنوات، يميز عصر الاضطرابات أكثر مما يميزه اغتيال شنجول الذى أدّى إلى سقوط الخلافة الأموية نهائيًا، وقيام إمارات تقاسمت شبه الجزيرة فيما بينها.

وأحسّ المؤرخون العرب كلهم بمسئولية المهدى عن النتائج التى أدّى إليها هذا العمل الطائش، ويقول ابن حيان عنه إنه «مفرّق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة»[٢]. وبالطريقة نفسها يعبرّ ابن الأبار: إنه «باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد»[٣]، «وأوّل من أرث نارها، وأورث شنارها»[٤].

ليس من غايتنا فى هذا الفصل التمهيدى عرض الأحداث المميزة فى تاريخ إسبانيا الإسلامية خلال القرن الحادى عشر الميلادى، فقد اضطلع بذلك آخرون فى كفاءة وذكاء يغنينا عن العودة إليه[٥]. ومن ثَمّ لن نتوقّف عند هذه الأحداث لحظة واحدة، لأنّ تتابعها متصلة فى بحث يجعل منها شيئا مملا للغاية، ويكفى أن نكشف عن الخيط الرئيسى، وأن نظهر الفكرة الأساسية التى تضفى عليها وحدة. وبهذا نستطيع أن نفهم على نحو أفضل إحدى الخصائص الجوهرية للشعر فى إسبانيا القرن الحادى عشر

(٢) ابن بسام، الذخيرة ٢٧/٢، ودورى، بنو عباد ٢٤٤/١.

(٣) الحلة السيراء ٥/٢.

(٤) المصدر السابق ٣٠/٢.

(٥) يكفى أن نشير على القارئ بكتاب دوزى الشهير: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٧٦ – ٣٤٦، و جـ ٣ ص ١ – ١٨٢. وليفى بروفنسال، تتف ففى أخبار ملوك الطوائف، والنص فى البيان المغرب ٢٨٩/٣، وترجمته فى تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٢١٥ – ٢٣٦. وبريتو بيبس، ملوك الطوائف. وانظر أيضا الصفحات الملهمة التى كتبها ج. مرسيه فى موجز الفن الإسلامى، جـ ١ ص ٢٩٣ – ٣٠٥، عام ١٩٢٦. وش. دييل وج. مرسيه، العالم الشرقى من عام ٣٩٥ إلى ١٠٨١ م، ص ٥٦٦ – ٥٦٧. وش. وهـ تراس، الفن الإسبانى العربى منذ البدء حتى القرن الثالث عشر ص ١٨٧ – ١٩٤ و ٢٠٩ – ٢١. وش. بيتى – ديتللى، ازدهار دول الغرب، ص ٢٩٤ – ٣١٤.

الميلادي، والتي يمكن أن تعود إلى الأصول السلالية للشعب الذى فهمه وعبّر عنه.

بعد أن أمر المهدى باغتيال هشام مرشح البربر للخلافة، تكوّن حزبان كبيران يتبادلان العداوة علنًا: الحزب البربرى والحزب الأندلسي، واختار كل حزب منهما شخصا بايعه بالخلافة، على حين أن هشاما المؤيد، الخليفة الحقيقى، كان يعيش حياة باهتة ومذعورة بين قاعات قصره فى قرطبة.

فى البدء ساند الحزب البربرى خليفة أمويا ضعيف الشخصية: سليمان بن الحكم، الذى تلقّب المستعين، وهو ابن أخ هشام بن سليمان الذى قتله المهدى. ولكن هذا المستعين قُتل فى عام ٤٠٧ هـ= ١٠١٦ م، ومن الآن فصاعدا آثر البربر أن يختاروا الخليفة من بنى حمود، أى من أسرة تنتسب فى الرسول، ولو أنها تبربرت إلى حد بعيد.

وفى مواجهة هذا الحزب الأفريقى الأصل، قام حزب آخر غير متجانس ظاهرا، ويؤلف بين أفراده كراهية البربر وبغضهم، ويجمع بين آخر أعضاء الأسرة الأموية، وبقايا العامريين، ومماليكهم من الخصيان والعبيد والصقالبة، وجمهرة العامة، وبخاصة فى المدن الكبرى مثل: قرطبة، وإشبيلية، والمرية، وسيرشحون بالاتفاق مع هشام المؤيد على التوالى: المهدى، ثم المرتضى، ثم المستظهر، ثم المستكفى والمعتدّ أخيرا، وتوفى هذا عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م، فى مدينة لاردة، مسجّلا نهاية حكم الأسرة الأموية فى إسبانيا. وهذا الحزب هو الذى سنطلق عليه اسم: الحزب الإسبانى، ولو أن المؤرخين العرب اكتفوا بأن يطلقوا عليه كلمة «الأندلسى» فحسب، رغم أن كلمة الأندلس التى أخذ منها الاسم تعنى إسبانيا الإسلامية، أكثر مما تعنى الأندلس.

بعد أن اختير شنجول وليا للعهد، إثر وفاة أخيه المظفر عبد الملك، حاول أن يدنى إليه الفريقين، ونادم وجوه الجنسين، ويحدّد المؤرخ الذى قدم لنا الخبر هذين الجنسين بأنهما: «البرابر والأندلس»[٦].

وفى بداية الفتنة فإنّ زاوى بن زيرى بن مناد، رئيس البربر، لم يضع قواته إلاّ فى خدمة أهل الأندلس، أى شعب إسبانيا، أو الشعب الأندلسى[٧].

وعندما هزم زاوى جيش أنصار الخليفة المرتضى، وقُتِلَ الخليفة نفسه، بلغ نبأ موته، وهزيمة الأندلسيين، فيما يقول المؤرخون العرب، أسماع القاسم بن حمود[٨].

إذن كلمة الأندلس، أو الأندلسيين، تعنى بعامة، كما ترى، كل الأحزاب التى تجمعت فى مواجهة البربر، وكل الجماعات التى التفت لتدافع عن أرض إسبانيا ضد الأجانب، مهما كان الجنس الذى تنتمى إليه.

ومع ذلك، عندما يريد المؤرخون مزيدا من الدقة يميّزون بين لعامريين والأندلسيين، فيقول صاحب «البيان المغرب»: «ووصل [إلى قرطبة] أبو العباس ابن ذكوان القاضى، ووجوه الصقالبة العامريين،

---

(٦) البيان لمغرب ٤٧/٣، وأعمال الأعلام ٩٤.

(٧) الذخيرة ٤٥٣/١، وبنو عباد ١٢٨/٣.

(٨) أعمال الأعلام ١٣١، وكما نعرف فإن هزيمة المرتضى تعود فى الجانب الأكبر منها إلى خذلان العامريين له بقيادة خيران الصقلبى.

ووجوه الأندلسيين، ويبقى شنجول فى نفر يسير من حرمه وحشمه، وابن غومس معه فى نفر من النصارى»[٩].

ومجموع شعب إسبانيا الذى تكتّل للدفاع عن وحدته القومية ضد البربر أُطلق عليه اسم «الجماعة»، وكان يطلق على هشام بن الحكم خليفة إسبانيا الإسلامية وبطلها لقب «صاحب الجماعة»، فى مواجهة سليمان بن الحكم، وحمل لقب «بطل البربر»[١٠].

وظهر هذا التناقض بين الإسبان والبربر بالدقة، وعلى نحو شرس، خلال معارك «الفتنة»، ولا يعرف التاريخ أبدا كراهية اتسمت بهذا اللون من الوحشية مثل الذى كان بينهما: حرب شعواء لا تحترم النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، واتجه الغضب الجامح إلى المبانى والمزارع، وإلى بداية هذا القرن الحادى عشر الميلادى يعود تاريخ التخريب فى إسبانيا، وفى الأندلس على نحو خاص، وسنعود إلى هذه القضية بمناسبة وصف الشعراء للمدن الخربة، وكان الرعب الذى يبثه الناس لبعضهم البعض متساويا، وقد دُفِنَ عالم قرطبى عام ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م، فى ميدان من قرطبة يدعى رحبة عزيزة، خشية ملاقاة البربر إذا حملوا جثمانه إلى المقبرة[١١]. ودُفن صنهاجى خلسة فى قبر عند لميت آخر، دون أن يغسّل أو يكفن، أو يصلى عليه[١٢]. وعندما استقبل القاسم بن حمود بعدد من البربر بالترحيب ثار عليه أهل قرطبة، وقتلوا هؤلاء الضيوف، وكان يجب طبقا لقوانين الضيافة أن تقدم لهم الحماية كاملة[١٣].

نستطيع تقديم الكثير من الأمثلة على هذا.

أخذ أفراد القوات المسيحية، وهم من القطلان عادة، بحظهم من هذه الكراهية، وكانوا يستجيبون لنداء هذا الحزب أو ذاك، ولكن نلحظ أنهم كانوا ضد البربر بخاصة، ويطلقون لأنفسهم العنان عندما يطلب الحزب الإسبانى التحالف معهم. وبعد معركة وادى آره هزم المستعين الإسبان، رغم مساعدة المسيحيين لهم، وتراجعوا إلى قرطبة، وقد بلغ منهم الحقد والرعب مبلغه، حتى أن المسيحيين القطلان أخذوا يثأرون لهزيمتهم من عامة الناس، فقتلوا كل متشبه بالبربر، وكل عدوى، ومن لم ير العدوة ولا سمع بها، إسرافا وتحاملا وجرأة على الله سبحانه، وطغيانا[١٤].

لا شىء يمكن أن يعبر بدقة عن هذا الحقد المتبادل مثل كلمة «عصبية» التى يستخدمها علماء الأنساب والمؤرخون العرب ليعبروا بها عن روح التضامن، والترابط القبلى الذى ترفع رايته القبائل ذات الأصول المضرية أو اليمنية، ولقد عرف مطلع القرن الحادى عشر الميلادى عصبيّة بربرية، كما يمكن أن نلحظ أن ثمة عصبيّة أندلسية أيضا.

---

(٩) البيان المغرب ٧١/٣.

(١٠) أعمال الأعلام ١٢٧، وانظر أيضا مدوّنة ملوك الطوائف لمؤلف مجهول، فى البيان المغرب ٣١١/٣، وترجمة ليفى بروفنسال لها فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ الملحق ٢ ص ٢٣١.

(١١) ابن بشكوال، الصلة ٢٥٧، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٠٩ همش ١.

(١٢) الإحاطة ٢٨٨/١، طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ، نقلا عن ابن حيان.

(١٣) أعمال الأعلام ١٣٥.

(١٤) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩٩، وأبحاث، ط ١ ص ٢٤٦، والبيان المغرب ٩٧/٣ و ١٠٣.

وقد استخدم المؤرخون العرب مصطلحا مميزا، وهو «النفرة الطبيعية»[١٥] للتعبير عن الكره الذى كان يفصل بين الحزبين، ويعطينا ابن حيان، بمناسبة أحداث باجة فى مقاطعة الغرب جنوبى البرتغال، مزيدا من الإيضاح عن معنى «العصبية الأندلسية»، فيقول: «العصبية بين العرب منهم والمولدين»[١٦]، أى بين العرب وبين الذين انحدروا من أصول مسيحية كانت قد اعتنقت الإسلام[١٧].

وعندما اختفى الأمويون من على المسرح عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م بموت المعتدّ فى لاردة، ركزت الكتلة الإسبانية كل جهودها على الأندلس، لكى تحتفظ بمدينتى قرطبة وإشبيلية، وواصلت الكفاح ضد الكتلة البربرية، ولكن مراكز المقاومة تضاعفت على امتداد كل إسبانيا الإسلامية، وبانتهاء عصر الفتنة تلاه ما اصطلح المؤرخون العرب على تسميته عصر الطوائف، أى الأحزاب التى تقسّمت إسبانيا فيما بينها، وحكمها الرؤساء، أو قدامى عمال المقاطعات، أو قواد الجيش.

ويقدم لنا صاحب «البيان المغرب»[١٨] تحت أحداث عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م، قيام الحزبين الكبيرين على هذا النحو:

١ - الحزب الإسبانى أو الأندلسى، ومثله: محمد بن جهور فى قرطبة، وابن عباد صاحب إشبيلية، وسليمان بن هود الجذامى فى سرقسطة، ومقاتل الصقلبى صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية، ومعن بن صمادح صاحب المرية، وسعيد بن رُقَيل صاحب شقورة، وأبو نور ابن أبى قُرّة صاحب رندة وتاكُرُنّا، وإسحاق بن محمد البرزالى صاحب قرمونة، وابن نوح صاحب مورون، وابن خزرون صاحب أركوش.

٢ - الحزب البربرى ويتألف من: إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وباديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة.

وثمة أمراء آخرون التزموا جانب الحذر والفطنة، وهم: ابن الأفطس صاحب بطليوس، ومجاهد العامرى صاحب دانية، ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة.

كان كلا الحزبين يناضل من أجل خليفة، ولكن الذى أراده الأندلسيون لم يكن غير نسيج من خلفاء، ليس إلّا صورة دقيقة من هشام المؤيد، ووضعه بنو عباد فى المقدمة ليخفوا به حقيقة نواياهم.

واختار البربر الإمام إدريس بن يحيى خليفةً ولم تكن سلطته الروحية والزمنية تتجاوز كورتى مالقة وغرناطة.

ليس ثمة شك فى أن اللوحة لا تقدم لنا قائمة كاملة بملوك الطوائف، أو صغار الأمراء الذين تقاسموا إسبانيا فيما بينهم بعد سقوط الخلافة الأموية، ولكن أهميتها بالنسبة لنا تتمثل فى تحديد سياسة أملتها الظروف منذ بداية القرن الحادى عشر الميلادى. أريد أن أقول تستند إلى سياسة إسبانية، أو أندلسية إذا شئت. وسيكون أبطال هذه السياسة هم: بنو عباد أصحاب إشبيلية، واستطاعوا أن يدفعوا

(١٥) أعمال الأعلام ٢٢٧.

(١٦) الذخيرة ١٩/٢.

(١٧) عن المولدين انظر فيما بعد ص ٢٣١ وما بعدها من هذا الكتاب.

(١٨) البيان المغرب ٢١٩/٣، ٢٢٠.

بحدود دولتهم بعيدا، بالحروب يديرونها بمهارة، وبالخيانة عندما تبدو لهم الحرب قاصرة، أو لوصول من طريقها يطول كثيرا، أو باستخدام لعبة التحالف مع أمراء آخرين، ويدعمونها بالهدايا والزيجات. وكانت دولتهم فى البدء ضيقة، ثم اتسعت على حساب أمراء زناتة فى الجنوب، والجنوب الغربى لشبه الجزيرة، وعلى حساب بنى برزال أصحاب قرمونة، وبنى إفرن أصحاب رندة، وبنى دمَّر أصحاب مورون، وبنى خَزَرون أصحاب أركوش، وبنى يحيى، وبنى بكر، وبنى مُزَين، وبنى هارون فى نبة، واولبة، وشلطيش، وشلب، وشنتمرية الغرب، وبنى حمود سادة مقاطعات غرناطة ومالقة، والجزيرة الخضراء بخاصة. وبنى صمادح أو بنى تجيب أصحاب المرية، وبنى جهْور أصحاب قرطبة، ولو أن قرطبة سقطت فيما بعد كاملة فى يدى بنى عبّاد، وبنى طيفور أصحاب مرتلة، وبنى طاهر أصحاب مرسية.

وهذه السياسة مازالت إسبانية، بمعنى أنها تقبل قيام رابطة بين المسلمين والمسيحيين، وفى بنو عبد، فى محاولتهم السيطرة على شبه الجزيرة، أنهم يعملون طيّبا حين يتابعون تقليدا يعود تاريخه إلى أيام «الفتنة»، ويساير الأمانى العميقة للشعب الإسبانى المسلم، ولكنها أدت إلى نتائج بالغة الخطورة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. وقد أخذ القشتاليون والقطلان بحظهم من هذا الصراع الدائر بين البربر والأندلسيين فى مطلع القرن الحادى عشر[19]. ولم يكن تدخلهم، إذا كان ضروريا، يتم إلا عبر تنازلات تُقدَّم لهم: أراض وقلاع يتنازلون لهم عنها، وإتاوات سنوية يأخذونها، وهذه التبعية لأمراء الشمال المسيحيين ضايقت ملوك الطوائف على نحو خطير، وبخاصة عند ما تضطرهم الأحداث أن يختاروا بين سياسة إسبانية صريحة، وبين خط أخلاقى يستلهم المصالح العليا للإسلام فحسب.

ولكن حتى عندما استدعوا المرابطين المسلمين، واصلوا إظهار كراهيتهم للبربر، وطبقا لتعبير مؤرخ عربى: «كرهوا أن يكونوا بين عدوين، الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم»[20].

وينسبون إلى المعتمد أنه قال: «لأن أرعى الجمال فى الصحراء خير من أن أرعى الخنازير فى قشتالة». وهذه الجملة وليس لها من الحقيقة أكثر مما لكل التعبيرات التاريخية، يجب أن تفهم فى ضوء بعض الغايات البالغة الدقة حقًّا. لأنها تصبح موضع ارتياب منا إذا أخذناها بالمعنى العام الذى تعطيه لنا الصيغة التى أوردها المؤرخون. وكل مافى الأمر أنها تعنى أن المعتمد، فى لحظة ذات خطورة استثنائية، كان يفكر فى نفسه فحسب، مضحيًا بزوجه اعتماد وأبنائه، وبخاصة ابنه الراضى، وقد تعلّق به وأحبه أكثر من كل الآخرين، وبلدِه، وأخيرًا بالتقاليد السياسية الأندلسية، أو الإسبانية، التى ورّثها لها أبوه

(١٩) تدخل سانتشو غرسيه ((فى المصادر العربية القديمة شانجه) كونت قشتالة فى معركة قنتيش. انظر: دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ص ٢٩٤ – ٢٩٥. ورامون مينندث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٩٤/١. وشارك القطلانى رايموند كونت برشلونة، والقطلانى إرمنجاود كونت أورجل، فى معركة عقبة البقر. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها. ويتحدث البيان المغرب ٨٦/٣ و ٩٠ عن قائد مسيحى يدعى ابن مامة النصرانى، أو القومس (كونت) ابن مامة، وساند الخليفة سليمان والبربر ضد الصقالبة والأمويين، ويقول عن القرطبيين إنهم قوم «لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم». انظر فيما بعد ص ٤٨ الهامش رقم ١٧ من هذا الكتاب.

(٢٠) نفح ٣٥٤/٤.

المعتضد، وهذه الكلمات جرت سريعًا على فمه فعلًا، لأننا نثق بالمؤرخين الذين أوردوها[٢١]. والرواية الأكثر احتمالاً، فيما يبدو لنا، تلك التى ضمّنها لسان الدين ابن الخطيب كتابه «أعمال الأعلام»، اعتمادا على مصدر قديم لم يذكره، ويمكن أن نستنتج من المحتوى أنّه ابن حيان أو ابن بّسام، يقول عن المعتمد: واستشار أولياءه فى ذلك (أى فى دعوة المرابطين إلى الأندلس لصد عادية ألفونسو السادس)، فقال له ولده الرشيد ما معناه: «حاول الأمر بجهدك مع النصرانى، ولا تستعجل بإدخال من يسلبنا الملك، ويشتّت الشمل، فالناس مَن علمت!». فقال المعتمد: «يا ولدى لأنْ أموت راعيًا بالمغرب خيرٌ عندى مِن أنْ أردّ الأندلس دار كفر، فتكون اللعنة علىّ من المسلمين أبدا الدهر!». فقال: «يا أبت افعل ما أراك الله»![٢٢].

لحظة عصيبة تواجه فيها مفهومان مختلفان: أحدهما يتمشى مع التطور البطئ لشعب يسير نحو قدره الطبيعى، والآخر محتار فى شبكة من الهموم، عقلية أكثر منها عاطفية. ولا يشغل الإسلام بينها إلاّ قليلًا.

وخطوة احتضان الحزب المسيحى سوف يحققها المعتمد بعد ذلك بأعوام حين بذل جهده، فى ردّ المرابطين البربر، إلى ماوراء المضيق، وكان قد دعاهم على مضض ليدافعوا عنه، غير أن المحاولة جاءت متأخرة كثيرًا، والقوات المسيحية التى أسرعت إلى تلبية ندائه[٢٣] كانت غير كافية لكى ترد قوات الملثمين، أعنى المرابطين.

والقرار الذى اتخذه قبل موقعة الزلاّقة كان مناقضًا لكل ما نعرفه عنه فيما يتصل بالبربر، وعن النهج الذى اختطه له والده المعتضد، والذى ركّز كل جهوده للنضال ضدّ أمراء زناتة وصنهاجة، وكانوا يضايقونه فى الجنوب، والجنوب الشرقى من مملكته[٢٤].

---

(٢١) انظر مثلا: ابن المواعينى، ت ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م فى كتابه «ريحان الآداب» فى «بنو عباد» ٢/٨٠، ونصها: «أولى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير». وابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة ٢/٣٦٦. وترجمة دى سلان له إلى الفرنسية ٤/٤٥٣، ونصها عنده: «لأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إلينا من أن يرعوا خنازير الإفرنج». والناصرى، الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ١/١١٣، وترجمة كولين له إلى الفرنسية فى «المحفوظات المغربية» المجلد ٣١ ص ١٦٤. والروض المعطار للحميرى ص ٨٥ و ١٠٦، وعنه نقلها المقرى فى نفح ٤/٣٥٩، وبنو عباد ٢/٢٤٠. وانظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٢٤. وعن أصل تعبير «رعى الخنازير»، انظر ص ٢١٩من هذا الكتاب.

● ينكر المستشرق الإسبانى أنخل جونثالث بالنثيا أن المعتمد قال الجملة أصلا. انظر مقاله فى كتابنا: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ١٧٧ و١٧٨ دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (المترجم)

(٢٢) أعمال الأعلام ٢٨١، والحلل الموشية طبعة تونس ص ٢٨، وطبعة علوش فى الرباط ٣٢، ونقلا عنها توجد فى «بنو عباد» ٢/١٨٩، والروض المعطار، مادة الزلاقة ص ٨٣ – ٩٥ و ١٠٣ – ١١٦.

(٢٣) انظر تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٤٥، وأعمال الأعلام ١٦٣. وحين حاصر القائد المرابطى سير بن أبى بكر أمير بطليوس المتوكل بن الأفطس قام هذا بالحركة نفسها، وسلّم لألفونسو مدينة شنترين، وحتى وعده بمدينة بطليوس نفسها. انظر: أعمال الأعلام ١٨٥.

(٢٤) انظر: ليفى بروفنسال، دائرة المعارف الإسلامية، مادة المعتضد، ٣/٨٣١، حيث يقول: «لم يكن للمعتضد من أعداء أكثر من البربر، مسلمون مثله نعم، ولكنهم أبعد عن مثله الأعلى كأسبانى من جيرانه المسيحيين فى الشمال، وفى أمكنة كانوا يسمونه Berbéreochone.

ألم يَشْكُ المعتمد، ولمّا يزل في شرخ شبابه، من البربر الذين كانوا يكوّنون جانبا من الجيش الذي قاده في حملته ضد مالقة، وكانوا سبب إخفاقه؟[٢٥].

ألم يكن بطل قصة رواها لنا الحجاري، وتُظهر في جانب منها بطريقة مدهشة مشاعر البربر والأندلسيين كل منها في مواجهة الآخر في عصر إمارة المعتمد نفسها، حين ابتدأت مطامع الأمير المرابطي، وقد انبلج صبحه في سماء شبه الجزيرة؟.

«قال الحجاري في «المسهب»: إنّ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنّية قد نشأت بالعدوة، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثّمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية، وقعد على ألواح، فخطر بفكرها أنْ غنّت عنده● تنشى هذه الأبيات:

حملوا قلوبَ الأُسْدِ بين ضلوعهم   وَلَوَوْا عمائمهمْ على الاقمارِ
وتقلّدوا يومَ الوغى هِندِيَّةً   أمضى إذا انتُضِيَتْ من الاقدار
إنْ خوّفوك لقيتَ كلَّ كريهةٍ   أو أمّنوكَ حَلَلْتَ دارَ قرارِ[٢٦]

فوقع في قلبه أنّها عرّضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر، فهلكت»[٢٧].

ليس ثمة شك أننا نحس بدهشة بالغة أمام هذه الحركة القاسية من أمير أندلسي، والنشوة وحدها لا تكفي لتفسيرها، فقد احتفظ الأمير على أية حال بقدر كاف من صحوة الفكر أتاح له أن يفهم معنى الأبيات. وأنّ كلمة واحدة رنّت في سمعه: «عمائم»، والبربر وحدهم يلبسونها، حرّكته، وأيقظت في أعماقه كراهية أهل العدوة الاخرى، والودّ العميق لعشيرته.

كذلك أتاح المعتمد فرصة أخرى للمؤرخين كي يظهروا لنا الكراهية الشديدة التي كانت سائدة بين البربر والأندلسيين، فنقل لنا المراكشي حديثا جرى بين المعتمد والمعتصم بن صمادح صاحب المرية، وموضوعه يوسف بن تاشفين، وفيه يقول المعتمد: أيّ شيء هذا المسكين وأصحابه؟، إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبةً، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم![٢٨].

ألم يظهر المعتصم نفسه أنه أندلسي، لمجرد أنه استقبل في أمارته الشاعر السميسر واحتفى به، حين لجأ إليه هربًا من ملاحقة جنود عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، لأنه هجا البربر في أبيات له؟:

رأيتُ آدمَ في نومي فقلت له: أبا البريَّة إنّ الناس قد حكموا
أن البرابر نسلٌ منك قال: إذن   حوّاءُ طالقةٌ إن كان مازعموا[٢٩]

(٢٥) عن هذه الواقعة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ جـ٣ ص ٦٨.

(٢٦) من بحر الكامل.   (٢٧) الحجاري. المسهب. في نفح ٢٧٥/٤.

(٢٨) المراكشي، المعجب ١٣٨. وبحاث ط ١ ص ١١٨. وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ١٣٩.

(٢٩) نفح ٤١٢/٣.

● أشار المؤلف إلى البيتين ولم يوردهما، وأتيت بهما ليكونا تحت عين القارئ (المترجم).

وثمة حادث أخير يظهر هذه العداوة لابين إسبان شبه الجزيرة وبربر المغرب فحسب، وإنما أيضًا بين أسرة عربية أندلسية من سرقسطة، وأسرة تنحدر من أصول بربرية وتقيم فى طليطلة. فقد بدأ هؤلاء فى نظر أولئكم أنهم لم يتطوروا بقدر كاف. ويروى لنا صاحب البيان المغرب أن منذر بن يحيى صاحب سرقسطة كان قد تزوج من ابنة عبد الرحمن بن ذى النون، وهى فى الوقت نفسه أخت المأمون أمير طليطلة، وأنجبت من هذا الزواج يحيى بن المنذر، فلما ورث هذا الإمارة، واعتلى العرش، احتقره بنو عمه بسبب أصله هذا، وتواطأوا على قتله[٣٠].

وأخيرًا، تحت حكم المرابطين، وفى أوج قوتهم فى إسبانيا، أنضم الكتّاب إلى غزاة شبه الجزيرة بعد سقوط ملوك الطوائف، ولكنهم رغم كل الأحداث ظلّوا على إسبانيتهم، ولم يترددوا فى التنديد بجنود البربر، وفى الرسائل التى توجهوا بها إلى سيدهم البربرى يوسف بن تاشفين. ويثأر منهم أديب أندلسى فى رقة حين يحتقر من أعماق قلبه هؤلاء الأفريقيين الغلاظ، الذين دنّسوا أرض إسبانيا[٣١].

هكذا كانت أحداث القرن الحادى عشر الميلادى، أشبه بمبارزة بين الإسبان المسلمين والأفريقيين البرابرة. وكما ترى لم يكن الأمر فى أية لحظة قضية عرب، ولم يكن استبعادنا لهذه الكلمة عملاً مقصودًا، ولم يستخدمها المؤرخون العرب، وفى المرّات القليلة التى ظهرت فى مؤلفاتهم لم يعلّقوا عليها إلاّ أهمية ثانوية تمامًا. وخلال «الفتنة» كان يوجد حزب أندلسى يجمع الأمويين والصقالبة والبربر الأندلسيين وحزب بربرى، وتحت حكم الطوائف كان هناك، كما يجب أن نميّز بحق، «طائفة بربرية، وطائفة أندلسية، وطائفة صقلبية، وليس ثمة طائفة عربية»[٣٢]. ويجب أن نلاحظ أن طائفة الصقالبة ترددت مدءا فى الانضمام إلى أى الحزبين، فهى تأخذ جانب الأندلسيين تارة، وجانب البربر تارة أخرى، حسب طموحها العابر، وعندما أصبحت قضية الخلافة غير ذات أهمية، بعد أن أصبح اختفاء آخر خليفة آمرًا مؤكدًا، تبنوا سياسة «إسبانية» مناهضة لتلك التى اتخذها أمراء الطوائف من البربر.

● ● ●

حاول امزرخون العرب تفسير أسباب انهيار الخلافة الأموية فى إسبانيا، فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، وقيام أسرات صغيرة حاكمة على أنقاضها. وقد اكتفى البعض بالموازنة بين وضع

---

(٣٠) البيان المغرب ٢٢١/٣.

(٣١) المعجب ١١٤، وترجمة فينان له إلى الفرنسية ص ١٥٢. وقد أخذت الكراهية بين البربر والأندلسيين فيما بعد طابعا أدبيا خالصا. وهى التى ألهمت ابن سعيد المغربى والشقندى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، ومطلع الثالث عشر، أن يكتبا رسالتيهما فى فضائل أهل الأندلس. انظر: نفح ١٧٩/٣ - ٢٢٤، وقد ترجم غرسيه غومث رسالة الشقندى إلى الإسبانية عام ١٩٣٤. أما رسالتا ابن حزم، أبو محمد الظاهرى، وأبو المغيرة الوزير، فقد جاءتا كلتاهما فى الحقيقة ردا على معايرة ابن الربيب التميمى القيروانى للأندلسيين «لتقصيرهم فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم». وقد أورد المقرى فى نفح الطيب ١٥٦/٣ - ١٧٩ رسالة أبى محمد بن حزم كاملة، ولم يبق من رسالة الثانى إلاّ فقرات فى الذخيرة ١٣٣/١ - ١٣٥. وكان ابن الربيب قد وجه رسالته إلى أبى المغيرة وليس إلى أبى محمد. انظر: نفح ١٥٦/٣.

فى القرون لتالية، وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م، فإن كتاب الغرب الإسلامى يطلقون على مسلمى إسبانيا اسم الإسبانيين أو الأندلسيين، وأحدهما كان يطلق على جيش بنى نصر ملوك غرناطة، وكان يتألف من صنفين: أندلسيين (أو إسبانيين) وبربر. انظر: ابن الخطيب، اللمحة البدرية ٢٧.

(٣٢) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن لعاشر الميلادى، ص ١٩ - ٢٠.

الممالك الأسبانية الصغيرة ووضع ملوك الطوائف فى فارس بعد موت داراين دارا. يقول المراكشى: «ولم يزالوا كذلك، وأحوال الأندلس تضعف، وثغورها تختل، ومجاوروها من الروم تشد أطماعهم، ويقوى تشوّفهم»[٣٣].

هذا التطابق الذى فرض نفسه على فكر المؤرخين الذين ذكرناهم حتى أنهم لم يجدوا تعبيرا آخر أكثر ملاءمة من قولهم «ملوك الطوائف»، ليشيروا به إلى كل هؤلاء الملوك الصغار الذين تقاسموا الدولة الإسبانية بعد فترة من الاضطرابات استمرت ما يقرب من أربعين عاما، ألا يستحق أن نتوقف عنده: أين نجد فى هذه الإمبراطورية الفارسية التى تناثرت إلى إمارات صغيرة يقوم على كل منها «مرزبان»، ما يعادل هذا الجنس الإسبانى فى تكوّنه، وهو يسلك وجهة مناهضة للأجانب بالنسبة لنا، نحن الأوربيين، فإن تعبير الطوائف، أو ترجمته الإسبانية، ليس له من قيمة، إلا إذا أردنا أن نعطيه معنى «ملوك الأحزاب».

لقد حاول ابن سعيد المغربى المتوفى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م، أن يبرئ وطنه من التهمة التى وجهها إليه الرحّالة الجغرافى ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى[٣٤]، فقد عجب من بقاء هذه الجزيرة «على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الانجاد والأبطال»[٣٥].

ويصرح ابن الوطواط، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى، المتوفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م، فى كتابه «مناهج الفِكَر» بأن «شبه الجزيرة لم يتوقف عن الحياة فى نظام، مقدما لعاهله طاعة يمليها الحب حتى يومنا هذا، رغم أن الإغراق فى الرفاهية يفتح أمام سكانها سبل التمرد والنفاق»[٣٦].

وعندما درس ابن خلدون، المتوفى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م، ترتيب القبائل العربية والإمبراطوريات الإسلامية، حاول أن يوضح سبب ما دعاه «سقوط الأسرة الأموية فى الأندلس» يقول:

«لمّا فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها، وتنافسوا بينهم، وتوزّعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان فى ولايته، وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك، ولبسوا شارته، وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره، لأن الأندلس ليس بعصائب ولا قبائل... فاستظهروا على أمرهم بالموالى والمصطنعين، والطرّاء على الأندلس، من أهل الأندلس من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة فى آخر أمرها، فى الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبى عامر على الدولة، فكان لهم دول عظيمة، استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس، وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التى اقتسموها،

(٣٣) المعجب ٩٣، وترجمة فينان له ص ٧٨. وانظر أيضا: أبو الفدا، المختصر فى تاريخ البشر ٤٦/١، طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ.
(٣٤) انظر: نفح ٢١١/١ وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦، وص ٤٨ فيما سيأتى من هذا الكتاب.
(٣٥) نفح ٢١١/١.
(٣٦) انظر: فينان، مقتطفات غير منشورة تتصل بتاريخ المغرب ص ٦٦.
● وقد ترجمت النص عن ترجمته الفرنسية لأنى لم أهتد إلى مكان مخطوطة مناهج الفكر (المترجم).

ولم يزالوا فى سلطانهم ذاك حتى جاز إليهم البحر المرابطون، أهل العصبية القوية من لمتونة، فاستبدلوا بهم، وأزالوهم عن مراكزهم، ومحوا آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم»[٣٧].

وفيما يبدو لنا لم يبعد ابن خلدون عن الحقيقة عندما تحدّث عن التغيير العميق الذى أصاب أسلوب حياة المسلمين الإسبان، وضَعْف روح العصبية عند القبائل العربية. ولكن القول بأن «روح العصبية قد انقطعت عن الوجود فى إسبانيا» ينفى وجود حزب أندلسى، أو إسبانى، وقد أظهرنا فيما سبق قوته النضالية التى أظهرها فى كفاحه ضد البربر.

وفى القرن الحادى عشر ظهرت فى إسبانيا عصبية جديدة، أو بتعبير أفضل روح جديد من التضامن القومى، يرجع إلى التحام العناصر الأصلية، وقد برزت فى القرن العاشر، وأكّدت وجودها فى عصر المنصور بخاصة، واتضحت نتائجها على نحو ملموس فى مطلع القرن الحادى عشر[٣٨].

عندما تحرّك المهدى لملاقاة أعدائه فى موقعة قنتيش لم يكن يعتمد فى جيشه على الفقهاء والبرجوازيين فحسب، وإنما تضمن أيضا طوائف من العنّازين والجزّارين والفحامين والزبّالين، ومن سائر غوغاء الأسواق[٣٩]. وإذا كان قد هُزِم فلأن جيشا وطنيا، مهما كانت مشاعره الوطنية، لا يستطيع أن يقاتل المرتزقة، والجنود النظاميين، إلاّ إذا كان مدرّبا، فى الأقل، على استخدام الأسلحة فى أبسط حالاتها، وعلى فن الحرب، وبقيادة ضباط مجربين.

ونجد الاهتمام نفسه من الاعتماد على كل قوات المملكة عند أبى القاسم محمد بن عبّاد، وابنه المعتضد من بعده، ولو أنهما لم يهملا الاستعانة بجنود من المرتزقة أيضا[٤٠].

ومن الأهمية بمكان أن نلحظ أن أحد المؤرخين حاول وصف المجتمع فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى فقسّمه إلى طبقات، لا تلعب العناصر السلالية فيها أى دور مهم[٤١]. ومن الملاحظ أنه فى

---

(٣٧) مقدمة ابن خلدون، ط كاترمير ٢٨٠/١، ترجمة دى سلان ٣٢٠/١، طبعة الدكتور عبد الواحد وافى ٦٦٣/٢، القاهرة ١٣٧٨ - ١٩٥٨.

(٣٨) ابن حزم، فى: ابن هذيل، تحفة الأنفس ص ١٩٩، طبعة جبرييل فران، باريس ١٩٢٥، وفى ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١٣٤ هامش رقم ٣.

(٣٩) ابن الرقيق فى نفح الطيب ٤٢٦/١، والبيان المغرب ٥٦/٣ - ٧٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا ٢٨٥/٢ - ٢٨٧، ٢٩٥، والذخيرة ٤٣/١، ويقول دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا: «كان كبار قواد هذا الجيش رجال من العامة أو الطبقة الوسطى، أطباء ونساجين وجزارين وسراجين، وبدت إسبانيا الإسلامية بلدا ديمقراطيا لأول مرة فى تاريخها، لقد أفلتت السلطة من يد العامريين ومن طبقة الخاصة على السواء».

(٤٠) الذخيرة ٢٣/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٢١/١، ونص العبارة: «أقبل القاضى أبو القاسم أول وقته يذم الرجال الأحرار من كل صنف». البيان المغرب ٢٠٥/٣، وأعمال الأعلام ١٥٣، والذخيرة ٤١/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٣/١، ونص العبارة فيها: «واقتنى المعتضد الغلمان، واتخذ الرجال، وانتقاهم من كل فرقة».

(٤١) يقول لسان الدين بن الخطيب:

«وكان الناس يومئذ - بل وفى كل زمان - أربعة:

«فصنف هم الدنيا التى ينالها بسبب الولد، هَبْهُ بالغا أو مراهقا أو طفلا فى المهد أو جنينا فى المشيمة، وهم صنائع الحكم وخدامه، وعماله وفتيانه ورجاله..

«وصنف مرتق من الديوان، مشهور العناية والمكان، أو مجهول الشان، راض بحظه من الزمان، لا يتشوق إلى المزيد، ولا يحذر من النقصان..

=

المجموعة التى يراها المؤلف «أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغض إسلاما»، يوجد «الأعاجم التى تُخاطب بالترجمان»، أى المستعربين المسيحيين.

نستطيع دون تعسّف إذن أنْ نتكلم عن شعب «أندلسى»، وأن نبحث بين مؤلفات من كتبوا بالعربية من الإسبان لكى نستخلص خصائصه العامة.

يرى ابن حزم أنه يستطيع أنْ يؤكد الواقع بطريقة أفضل حين يقوم بموازنات بين الأندلس وبقية شعوب الأرض، يقول: «إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية، تركيون فى معاناة الحروب، ومعالجة آلاتها، والنظر فى مهماتها»[٤٢].

وابن غالب، وهو عالم أندلسى بالأنساب، ومن رجال القرن الخامس الهجرى، الثانى عشر الميلادى[٤٣]، استخدم المقارنات أيضا، واهتم بها أكثر، لوصف الفروق الدقيقة التى تميّز على نحو أفضل خصائص تركيبة العناصر المتداخلة، التى يتكون منها الشعب الأندلسى فيما يرى: «أهل الأندلس عرب فى الأنساب والعزة والأنفة، وعلوّ الهمم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما فى أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم، وحبهم فيها، وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون فى ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم. ويونانيون فى استنبطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم البساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر. فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة»[٤٤].

= «وصنف يؤمل أمرا، ويسب بن قدر جمر ... ويرجو من القرابة الراجحة زيدا وعمرا، ومستحق يأسف لما خرج عن يده، أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى محل ولده.. وهذا الصنف المنازع المناصب بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهر بالمنازعة فينتهى إلى قدر الله وقضائه، وكان فى ذلك الوقت أضعف الأصناف..

«وصنف من أهل الدنيا والآخرة، قلدوا أهل الحل والعقد، والقبول والرد اجتهادُهم... واعتبروا عن رأس الأمة مسلمة فى أمهات البلدان، من الفتيان والغلمان، والطواشية والخصيان، والأعجام التى تخاطب بالترجمان، والصبية والنسوان، وهم أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغض إسلاما... وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء، والخاصة والدهماء..

«وصنف غارم، لا هم له إلّا فيمن يخفف أمره، أو يديل باليسر عسره، وأما هؤلاء فأوباش أسواق، وحمى مطهم من أخلاق..

«وصنف همه الآخرة، بعيد من تعريج على شىء من الدنيا، لا يتكلم فى مثل هذا، ولا يتكلم معه، ولا يفتح فيه بابا، إنما هو مشغول بربه خاصة، وهذا جيل قليل، وإنما ذكر مراعاة للتقسيم، ولا تخلو الأقطار منهم، فهم بركات الله بين عباده. وأولياؤه منهم»، أعمال الأعلام ٤٤ – ٤٨، وكتبها بمناسبة حديثه عن هشام المؤيد بن الحكم الثانى.

(٤٢) ابن حزم، رسالة فى فضل الأندلس، نفح ١٥١/٣، وأبو حامد الغرناطى، تحفة الأحباب، طبعة فران، فى المجلة الأسيوية عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويرى، نهاية الأرب ٣٤٥/١، ولير تشوندى وسيمونيت، منتخبات ٥°، وانظر فيما بعد ص ٢٩٤ من هذا الكتاب.

(٤٣) نفح ٣٨٦/٣.

(٤٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، فى نفح ١٥٠/٣، وهذه المقارنات منسوبة لابن حزم فى: أبو حامد الغرناطى، تحفة الأحباب، فى المجلة الأسيوية، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويرى نهاية الأرب ٣٤٥/١. وفى نفح الطيب ٢٤٤/١: «قيل إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أدمغة اليونان، وأيدى أهل الصين، وألسنة العرب»، وهو منقول عن: ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٣٦/٢، طبعة القاهرة، وفى ترجمة دى سلان ٤٧٧/٣. ويرد فى الخاطر هؤلاء الشياطين رعاة الشعوب، وبينهم إذا صدقنا أفلاطون، زحل الذى وزّع الشعوب عند بدء العالم فى اتجاهات مختلفة، انظر: Le Timee et les Lois.

ولكن هذه المقارنات ليست كافية فيما يرى ابن غالب، لكي نتعمق بقدر وافٍ فى وصف نفسية الأندلسى، فهو يغادر الأرض، ويحلق عاليا فى السماء، ويذكر بعد أن أثنى على الأندلس وأهلها «أن بطليموس جعل لهم - من أجل ولاية الزُّهرة لبلادهم - حُسن الهمة فى الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للهو والغناء، وتوليد اللحون، ومن أجل ولاية عطارد حُسن التدبير، والحرص على طلب العلم، وحب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف»[٤٥].

وهذه صفوة المواهب التى تتمناها الشعوب فى حرص، وليس ثمة شك أن الإسبان المسلمين تمتعوا بصفات تعود إلى ديو نيسوس بمثل ما تعود إلى أبولو، فكانوا فنانين وأظهروا عبقرية فذّة فى مجال الفنون والآداب، وثقافة عريضة فى مجال الفقه والعلوم.

غير أن استخدام النجوم، والمقارنة بالأمم الأخرى، إذا كان قد أيقظ بعض الأفكار المحدّدة عن ملامح الأندلسى، فإنه لم يستطع أن يحددها على نحو دقيق. ونشعر بقوة أن اللعبة يمكن أن تمتد إلا ما لانهاية، لأنها ترتبط بعلم البلاغة أكثر مما ترتبط بعلم الاجتماع[٤٦]، ومن ثَمَّ ليس صعبا أن نجد فى الأدب العربى أمثلة ونماذج لهذا الفن الخطابى[٤٧]. ولا مفر من الاعتقاد بأن هذه المرافعات الجميلة الزائفة أمتعت كسرى ملك فارس عندما سمعها من أفواه سفراء دول الأرض المختلفة[٤٨]، ودون شك ليس مستحيلا أن نبرهن على أن الجاحظ فى رسائله أمدّ المؤلفين الإسبان بعديد من هذه الأفكار[٤٩].

يقول المقَّرى: «ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة فى محاوراتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى فى صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم»[٥٠].

عبثا نبحث، دون أدنى شك، عن تحديد خصائص المسلم الإسبانى فى القرن الحادى عشر الميلادى فى عدد من الكلمات، ولكن ليس كل ما فى الصور التى سبقت مستبعدا أو مردودًا، لأنها تثبت فى كل الأحوال أن الأندلسى لم يكن عربيا خالصا حتى فى أعين الكتاب المسلمين، إنه عربى وشىء أكثر من هذا، يبحث عنه علماء النفس، والباحثون الاجتماعيون، فى مكان آخر وبعيد جدا، بين الهنود واليونانيين والصينيين والأتراك، وعندما تطوله أيديهم يبرز أمام أعينهم: الإسبانى المسلم، مزيجا من العربى والإيبيرى والقوطى والبربرى والفارسى (من بغداد) والصقلبى، إنه مزيج محظوظ من الساميين والآريين.

---

(٤٥) ابن غالب، فرحة الأنفس، فى نفح ٣/١٥٠. وانظر المقدمة التى كتبها ديجا باللغة الفرنسية للطبعة الأوربية لنفح الطيب ١/٧٢.

(٤٦) يمكن أن نجد الشىء نفسه عند المؤلفين الذين وصفوا إسبانيا، انظر فيما بعد ص ١٠٦ من هذا الكتاب.

(٤٧) يتحدث بول موران فى كتابه «لا شىء غير الأرض» عن أمريكا فيقول، «أصفياء فى قلوبهم، صقالبة فى إدراكهم، يونان فى عضلاتهم». طبعة مكتبة بلون ديلبيه ص ٢٣.

(٤٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/١٢٤ - ١٣٦.

(٤٩) انظر الجاحظ، مجموعة رسائل ٢/٨١ طبعة القاهرة، وطبعة فان فلوتن ١/٨٥.

(٥٠) نفح ٣/٣٨١، ونلحظ هنا إشارته إلى اليهود ويراهم المؤرخون جزءا من الشعب الأندلسى، على قدم المساواة مع بقية المسلمين من أى جنس.

وعندما ندرس الأدب الإبداعى للشعب الأندلسى سوف نلمس فى وضوح أن شعره أدق تعبيرا عن خصائصه، ويجب ألا نفكر دوما فى الأصول السامية لمن يعبر عنهم، وألّا ننسى أبدا أن الشعب الإسبانى المسلم فى القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن غير امتداد للشعب الأصلى القديم. والناقد الذى لا يود أن يرى فى الشعر الإسبانى إلّا ظلال الأدب العربى فى المشرق يخاطر بأنه لن يواجه إلّا الجانب الأقل أهمية فى هذا الشعر.

البـاب الأول

○ الشـاعر:

- تكوينه وظروفه الاجتماعية.
- الموضوعات الشعرية التى انبثقت فى حياة البلاط.

○ الفصل الأول:

مناهج نَشْر اللغة العربية بين الإسبان المسلمين

إذا كان الأندلسيون قد نزعوا شيئًا فشيئًا إلى تميّزهم فى صفاتهم العنصرية عن المسلمين الآخرين، بما فيهم المغاربة، فقد ظلوا مع ذلك شرقيين بعمق لا ستخدامهم اللغة العربية بعامة.

صحيح أنهم فى حياتهم اليومية، وأحاديثهم الودود، كانوا يستطيعون أن يستخدموا العامية العربية، أو البربرية، أو اللغة الرومانثية، ولكن فى العلاقات الرسمية، والمراسلات الإدارية، كان عليهم أن يستخدموا اللغة العربية الفصحى. فرجال الدولة من الأسرة الحاكمة، والولاة، والقوّاد، وغيرهم، يرونها مسألة نخوة أن يكتبوا بأسلوب مرض. على حين كان مطلوبًا من القضاة والوزراء والكتاب أن يكونوا متمكنين منها بعمق، وأن يستخدموها فى دقة متناهية. وكان أشباه الخلفاء فى فترة «الفتنة»، مثلهم فى ذلك صغار الملوك فى عصر الطوائف، ثم المرابطون من بعد، يحيطون أنفسهم بكتاب قادرين على تحرير الرسائل الرسمية فى لغة دقيقة مصقولة، كتلك التى شهر بها ابن العميد والصاحب بن عباد فى المشرق. ومن المثير أن نلحظ أن التنافس بين الأسر الحاكمة لا يقتصر على المجال السياسى فحسب، وإنما تحاول كل أسرة أن تتفوق على جيرانها ومنافسيها باختيار كتابها من بين الأدباء الأوسع شهرة، والأكثر تفوقًا على زملائهم فى البلاطات الأخرى، والأقدر على استعمال الكلمات القديمة المهجورة. وقد حاول المعتمد بن عبّاد أن يعقد صداقة مع الكاتب أبى الأصبغ عبد العزيز بن الأرقم، وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وأن يستبقيه عنده، وكان قد وفد على إشبيلية سفيرا للمعتصم، ولكن الوزير رفض فى أدب وفاء لأميره، «فاستحسن ذلك ابن عبّاد منه، وقال له: فاكتم علىّ»، فلما رجع إلى المرية قص فى صراحة رائعة المحاولة التى تعرّض لها[1].

وفى فصل أورده المقّرى فى «نفح الطيب» نجد كيف كان الناس ينظرون باحتقار إلى الحكام الذين يرضون بأن يكون كتّابهم يكادون يكونون مبتدئين[2]. وكل الروايات التى تتحدث عن الوزراء الكتاب، وعن أمرائهم، تحاول أن تُظهر أنّ تمكّنهم من اللغة العربية الفصحى يعود إلى متطلّبات الوظائف التى يتولونها، وأيضًا نتيجة تذوق حقيقى للثقافة الأدبية.

وازدهار الأدب الذى ميّز القرن الحادى عشر الميلادى لا يعود كثيرًا إلى الرعاية والحرية التى أضفاها صغار الملوك هؤلاء على كل المظاهر الثقافية بما فيها الفلسفة فحسب، وإنما يرجع إلى طريقة تعليم اللغة العربية الفصحى التى جرى عليها العمل فى إسبانيا، وسنرى فيما بعد مدى الصعوبات التى عاناها الشعراء، رغم أنهم كانوا يبدون الأطفال المدلّلين فى هذه البلاطات الصغيرة.

ولدينا معلومات كافية، ودقيقة، عن المناهج التربوية التى كان يجرى العمل عليها فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى، ويكفى أن نجمع الإشارات التى قدمها لنا المؤرخون

---

(١) نفح ٤٩٨/٣.

(٢) نفح ٥٦٠/٣.

العرب، ومدوِّنو السِّيَر والتراجم عن حياة هذا الشخص أو ذاك، فهم يؤكدون بخاصة على دراساته فى مرحلة الصبا والمراهقة، وغالبًا حتى فى سن النضج العقلى. ويجب أن نضم إلى هذه المعلومات المتفرقة الفصل الخاص الذى أوقفه ابن خلدون فى مقدمته على التعليم الإسلامى بعامة، وعن طرقه المطبقة فى المغرب وفى إسبانيا بخاصة، وإذا كانت أخباره لا تُحدّد عصرًا معينا طُبِّقت فيه، فهى على الأقل تنقل لنا آراء أبى بكر بن العربى، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨ م)، فى التربية ورأيه عنها، وبخاصة فى عصرى ملوك الطوائف والمرابطين. يقول:

«ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته إلى طريقة غريبة فى وجه التعيم، وأعاد فى ذلك وأبدأ، وقدّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو على تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى دَرْس القرآن، فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة»[٣].

وهكذا نجد أن نظام الإسبان المسلمين فى التربية يختلف تمامًا عما كان عليه الحال فى المشرق والمغرب. أليس منطقيًا إذن أن نحاول ردّ هذا المفهوم العقلى للتربية والتعليم إلى تأثير الجنس الذى تكوّن فى إسبانيا من انصهار العناصر المختلفة، والتى يغلب بينها العنصر الأيبيرى الرومانى؟. فبينما تحتل الاهتمامات الدينية والأخلاقية المكان الأول فى أى مكان آخر من العالم الإسلامى كله، وتصبح العلوم العقلية مكمّلة للعلوم النقلية وفى خدمتها، نزعوا هنا فى إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى إلى إعطاء المكان الأول للعلوم الثانوية، أو التى تدعى عقلية، دون أن نستبعد منهجياً فروع المعرفة التى أساسها القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهم يفكرون فى الإنسان قبل الدين، وتهدف التربية إلى تنمية كل القدرات على نحو منسجم، نتيجة الاستبطان الداخلى الذى أشاعه المجتهدون فى مجال الدراسات الدينية، والذى أدّى إلى هذين الأمرين من التطرّف، ولا تنقصهما فى الحقيقة نقط التلاقى: التصوف من جانب، والنزعة الإنسانية من الجانب الآخر.

والحق أن القرن الحادى عشر فى إسبانيا بدأ والنزعة الإنسانية، أو المذهب الإنسانى إذا شئت الدقة، مزعزع فى غايته، ولكنه محكم فى مناهجه، وسجّل أهم حدث فى التاريخ الفكرى للغرب الإسبانى الإسلامى. أكان ذلك عودة للفكر القديم، وقد واصل سيره متخفيا فى روح الإسبان، ولم يؤثر فيها العنصر العربى كثيرا، أم كان ظهورًا عفويا جاء ليعبر عن الرغبات العميقة لهذا الجنس؟. لا أحد يعرف، ومن الجائز أن نجد فى ذلك تأثيرا واضحا للروح اليهودى المسيحى، وللفكر اليونانى، ويدفعنا إلى هذا الفيلسوف الإسبانى ابن مَسرَّة، من القرن الحادى عشر الميلادى، ويقدم لنا أسبابًا معقولة[٤].

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣/٢٦٣، التجارية بالقاهرة ٥٣٩، وترجمة دى سلان ٣/٨٩. وفيما يبدو طبق الأندلسيون نصيحة عبد الحميد الكاتب، المتوفى ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م إلى الكتاب فى رسالته الشهيرة: «... فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين على ما تسمو إليه هممكم»، ابن خلدون، المقدمة، كاترمير ٢/٣٦، وترجمة دى سلان ٢/٣٠، وطبعة القاهرة ٢٤٨، وأحمد فريد رفاعى، عصر المأمون ٢/٥٤.

(٤) عن ابن مسرة انظر: أسين بلاثيوس، ابن مسرة ومذهبه: أصول الفلسفة الإسبانية الإسلامية، ودائرة المعارف الإسلامية، الملحق ص ٩٩ - ١٠١، وكتب المادة بلا ثيوس أيضا، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ و ٢٧٧.

وعلى كل حال لا يبدو أن هذه النزعة الإنسانية الثقافية نتيجة الفكر الإسلامي، وبخاصة فى الغرب، وعندما يقول علماء النفس الإسبان الذين كتبوا فى اللغة العربية، إن الأندلس يملك العقل اليونانى إلى جانب اللغة العربية لم يكن يدور بخلدهم أن من الأوفق القول بأنه العقل الإغريقى الرومانى، ليصبح أكثر إقناعا. وعبثا نبحث فى أدب المشرق العربى عن فكرة إنسانية واحدة كتلك التى عبّر عنها الزُّبيدى، أبو بكر محمد بن الحسن، المتوفى عام ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م، وهو شاعر ونحوى إسبانى، وكان مؤدب الحكم الثانى:

والأرضُ شيءٌ كلّها واحدٌ والناسُ إخوانٌ وجيرانُ[٥]

وهذه الفكرة نفسها نجدها عند تيرنس، وهو كاتب لاتينى من القرن الثانى قبل الميلاد، فهو يقول فى بيت له:

«كل ما هو إنسانى ليس غريبا عنى»[٦]

ونحن ندرك تماما، فى سهولة، أن التعليم فى إسبانيا الإسلامية أفسح منذ البدء مكانا لنوع من العلوم الإنسانية، تعين على تكوين روح إنسانى فى نفوس الشباب، وهم فى أول سنى حياتهم، فهم يدرسون أولا الشعر الجاهلى، وشعر صدر الإسلام من العصور القديمة، ثم يواصلون دراسة المحدثين، أى الشعراء والأدباء فى العصر العباسى.

ولم تكن الدولة تنفق على التعليم ، وليست لها أية صلة بمناهجه[٧]، وكان منتشرا فى كل مكان، فالضياع والقرى بها مدارس ابتدائية، والمراكز الهامة بها مدارس ابتدائية وثانوية. أما المدن الكبرى مثل إشبيلية وقرطبة وطليطلة وسرقسطة فكانت تضم كل أنواع التعليم: الابتدائى والثانوى والعالى، ولم تكن ثمة خطوط فاصلة وواضحة، غالبا، بين التعليمين الثانوى والعالى، وكل شيء فيه يتوقف على الأساتذة الذين يضطلعون به. وفى البدء لم يكن المدرسون يتقاضون أجرا، وإنما يتلقون، غالبا، إعانات مالية وعينية يدفعها لهم الحاكم أو الأمير، ولم تكن بذات أهمية عموما[٨].

وفيما يتصل بالجامعات لم تعرف إسبانيا شيئا من نوع المدرسة النظامية التى أُنشئت فى بغداد عام

---

(٥) من السريع، نفح ٧٤/٣، والمقدمة التى كتبها ديجا للطبعة الأوروبية من النفح ٦٧/١. و L. Ecker, Arabischer... Minnesang, 224 وسوف يعبر أبو الصلت الدانى، المتوفى ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م عن الفكرة نفسها فى بيت من بحر الطويل:

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

انظر: نفح ١٠١/٢، وينسب هذا البيت أيضًا لأبى العرب الصقلى فى نفح ٥٧٠/٣.

(٦) Terence, Héautontimorouénos, acte I,vers 25

● تيرنس، ١٨٥ - ١٥٩ ق . م.، كاتب لاتينى، ولد فى قرطاجة، وبيع رقيقا وهو صغير إلى عضو فى مجلس الشيوخ الرومانى، فأعطاه اسمه، وتربية مصقولة، والحرية، وكان من عظماء كتاب المسرح، ومات غريقًا وهو عائد من بلاد اليونان (المترجم).

(٧) خوليان ريبيرا، نبذ ومقالات ٢٥٠/١.

● وقد ترجمت كل دراساته عن التربية فى إسبانيا الإسلامية، وصدرت عن دار المعارف عام ١٩٨٠ تحمل عنوان: التربية الإسلامية فى الأندلس. (المترجم).

(٨) فيما بعد، سوف نشير فى ص ٣٨٣ من هذا الكتاب إلى المدرس الذى سأل حسام الدولة بن رزين أن يؤم الناس للصلاة فى مسجدين مختلفين وأن يعلم الأطفال.

١٠٦٥ م[٩]. وكانت قرطبة مركزا للدراسات العالية خلال العصر الأموى، على امتداد القرن العاشر الميلادى، ولكنها فقدت أهميتها فى القرن التالى له، لأن انتثار الخلافة، وتوزعها إلى دويلات صغيرة أدّى إلى لون من لا مركزية الحياة الثقافية.

صحيح أن صغار الملوك فى هذا القرن الحادى عشر اهتموا بتشجيع الدراسات الأدبية، ولكن ليس من المؤكد أنهم اضطلعوا بدفع رواتب للمدرسين ليقوموا بتعليم أبناء الفقراء مجانًا على نحو ما فعل الحكم الثانى[١٠]. وكان الوصول إلى أعلى المراتب يتم اعتمادا على القدرات الشخصية وحدها، فأدى هذا إلى إثارة روح المنافسة بين الريفيين وسكان المدن، ويستوى فى ذلك أبناء الحرفيين وأبناء كبار رجال الدولة، كلهم يحاول أن يتمكن فى دروسه، وأن يبلغ بدراسته أقصى ما يستطيع، ولم تكن ثمة عقبات تقف فى طريقه، لأن الإجازة، أو الشهادة إن شئت، ليست فى الحقيقة إلاّ اعترافا بالمثابرة والاجتهاد، ويستطيع الدارسون، أو الرجال الناضجون، أن يحصلوا عليها بسهولة، فى عالم يتمتع فيه الناس عادة بذواكر ممتازة. وكان الجزاء الحقيقى ينتظر المرء فى المجتمعات الأدبية: إمّا سخرية تأتى على ما يتمتع به من شهرة واسعة، أو إعجابا يوائم ما يتمتع به من عبقرية وموهبة.

---

(٩) بعد ذلك بكثير، فى القرن الثالث عشر الميلادى، شهدت مدينة مرسية أول جامعة أنشئت فى العصر الوسيط، أنشأها ملك مسيحى، ألفونسو العاشر الملقب بالعالم، وافتتح الدروس فيها عالم مسلم هو: محمد بن أحمد بن أبى بكر الرقوطى المرسى، وكان جمهور المترددين على المحاضرات يتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود. انظر: نفح ١٣٠/٤، وريبيرا، نبذ ومقالات ٦٨/١، والهامش ١ و ٢، وأنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ إسبانيا.

(١٠) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط١، جـ٣، ص١٠٩، وط٢، جـ٢، ص١٨٤-١٨٥ (نقلا عن البيان المغرب، جـ٢، ص٢٩٦-٢٩٧).

○ الفصل الثانى:

المواد والمؤلفات التى كانت تدرس فى القرن الحادى عشر

كانت دراسة الآداب القديمة فى القرن الحادى عشر الميلادى تهدف إلى تكوين رجال أدب أكثر، وأفضل، مما هم رجال قانون، ولقد رأينا، طبقا لابن العربى، أن دراسة الشعر الجاهلى، وفى صدر الإسلام، كانت تحظى بأهمية كبرى، يعرفه الصبيان قبل أن يقرأوا أو يحفظوا القرآن الكريم. ومنطقى إذن أن نعتقد أن الأندلسى حتى سن العشرين كان يهتم بالثقافة العامة، وعندما يبلغ سن النضج فحسب يتخصص فى العلوم الإسلامية، من تفسير القرآن، والسنة النبوية، وغيرها. مع الاحتفاظ دائما بشىء من تكوينه الأوّل، ويتمثل فى تذوّق الشعر والنثر الفنى.

وقد ترك لنا أبو بكر بن خير، وهو مؤلف من القرن الثانى عشر الميلادى، (٥٠٢ - ٥٧٥ هـ = ١١٠٨ - ١١٧٩ م)، وعاصر أبا بكر بن العربى فى النصف الثانى من حياته، وثيقة عظيمة الأهمية عن نوع الدراسات التى كانت تتم على أيامه فى إسبانيا، وهى: «فهرسة ابن خير فيما رواه عن شيوخه»[١]. وهى وإن كانت متأخرة بعض الشىء، نراها صالحة تماما للدلالة على العصر الذى ندرسه. ألا ينتمى أساتذة ابن خير إلى الجيل الذى ازدهر فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، حين كان ملوك الطوائف فى قمة توهجهم؟ نعم، يمكن القول فى أبعد الأحوال أن المرابطين أحدثوا ردّ فعل دينى أدّى إلى عودة مُتّهمة إلى العلوم الدينية، ونلمح صداها واضحا فى كتاب ابن خير، حين أفسح بين صفحات كتابه مكانا أكثر اتساعا للمؤلفات التقليدية.

ولكن القائمة المخصصة للمؤلفات الأدبية تعبّر بدقة كافية عن الدراسات الأعظم قيمة فى القرن الحادى عشر. وفى البداية يجب أن نلحظ أنه لا يوجد مؤلف يعود إلى ما قبل عام ١٠٥٠، وأقدم هذه الأعمال «زهر الآداب» للحصرى القيروانى المتوفى عام ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م، «وسقط الزند» وشرحه «ضوء سقط الزند» و«اللزوميات»، وكلها لأبى العلاء المعرى المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م.

وسنقف عند كتاب ابن خير فحسب، لأنه الوحيد الذى يمدنا بمعلومات عن التكوين الأدبى لشعر عصر ملوك الطوائف.

يمكن تقسيم هذه المؤلفات المختلفة إلى منتخبات ودواوين مستقلة، خالصة أو مع شرح لها، وطبقات الشعراء، وكتب الأدب الشاملة، والدراسات النحوية، والنوادر اللغوية.

---

(١) طبعة كوديرا وريبيرا، فى المكتبة العربية، المجلدان ٩و١٠، سرقسطة ١٨٩٤ - ١٨٩٥م.

● أهم كتب المنتخبات القديمة ما يلى:

١ - القصائد التسع الجاهليات، وهى التى يُطلق عليها اسم المعلقات، بشرح ابن النحاس النحوى، المتوفى عام ٣٣٧ هـ = ١٩٤٨ م[٢].

٢ - المفضّليات والأصمعيات، وهى مختارات من الشعر، الأولى من عمل المفضل لضبى المتوفى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م، والثانية من عمل الأصمعى المتوفى نحو عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م[٣].

٣ - الحماسة، لأبى تمام المتوفى عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م، ولها ثلاثة شروح: الأول لابن على النمرى، والثانى لأبى الحجاج الأعلم الشنتمرى، وهو من شنتمرية الغرب فى جنوب غربى إسبانيا، والأخير لأبى بكر بن أيوب[٤].

٤ - أشعار الهذليين[٥].

٥ - كتاب الشعراء الستة[٦].

٦ - النقائض بين جرير والفرزدق[٧].

● الدواوين المنفصلة الآتية:

١ - ديوان ذى الرمة[٨].

٢ - ديوان أعشى بكر[٩].

٣ - ديوان أبى تمام، المتوفى قريبا من عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م[١٠].

---

(٢) فهرسة ابن خير ٣٦٦، وقد تغير عدد المعلقات مع الزمن، كان سبعة عند أبى زيد القرشى المتوفى قريبا من عام ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م، فى كتابه «جمهرة أشعار العرب»، ونلحظ أنه قسّم القصائد الشهيرة إلى سبع طبقات، فى كل طبقة تسع قصائد. وفيما بعد، كما حدث فى إسبانيا فى القرن الحادى عشر، أصبحت المعلقات تسعا، وتبلغ العشر فى المنتخبات الحديثة.

(٣) ابن خير، ص ٣٩٠.

(٤) ابن خير، ص ٣٨٧ - ٣٨٨، وقد شرحها الأعلم الشنتمرى شرحا مطولا، ورتب كل باب منها على حروف المعجم. انظر: الصفدى، نكت الهميان ٣١٤، وألف الشرح للمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢٨٤/٣، نقلاعن ابن القطان. وألف ابن سيدة الدانى، وكان كفيفا، شرحا للحماسة أسماه «الأنيق فى شرح الحماسة»، انظر، الصفدى نكت الهميان ٢٠٥. وكان أبو الفتوح الغرناطى يشرح الحماسة فى غرناطة، انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا ط٢ ج٣ص ٣١. وجعل منها عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين كتابه المفضل، انظر: المعجب ٢٢٧، وترجمته الفرنسية ١٩٤، ومفاخر البربر ٦٥. وفيما بعد قلد الحماسة كثيرون فى الغرب الإسلامى.

(٥) ابن خير ٣٨٩.

(٦) ابن خير ٣٨٨، وقد قام الأعلم الشنتمرى بشرحها للمعتضد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢٨٤/٣ نقلاعن ابن القطان.

(٧) ابن خير ٣٨٣.

(٨) ابن خير ٣٩١، وكان أبو المتوكل الهيثم بن أحمد يحفظ ديوان ذى الرمة، انظر: نفح ٣٧٨/٣. ويقول أبو بكر بن زهر إن ديوان هذا الشاعر يمثل ثلث اللغة، انظر: ابن دحية، المطرب ٢٠٦، وفيه تكثر الإشارة إلى مىّ، وهى حبيبة ذى الرمة.

(٩) ابن خير ٣٩١، وديوان الأعشى الكبير وأعشى قيس كانا يدرسان أيضا فى القرن الحادى عشر، انظر: قلائد العقيان ١٩٨، فى أخباره عن ابن السيد البطليوسى.

(١٠) ابن خير ٤٠٢، ونفح ١٣٥/٣ و ١٦٢/٤.

٤ – ديوان أبي الطيب المتنبي، المتوفى عام ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م، مع شرحه أو بدونه[١١].

٥ – ديوان الصَنَوْبَرى، المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م[١٢].

٦ – ديوان أبي العلاء المعرى المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م، المسمى «سَقْط الزَّند»، وشرحه المسمى «ضوء الزند» واللزوميات[١٣].

٧ – ديوان أبي العتاهية، المتوفى عام ٢١٣ هـ = ٨٢٨ م، شعره وحياته[١٤].

● كتب طبقات الشعراء، وهى تتضمن مختارات من أشعارهم، مصحوبة بشروح موجزة، وهى ليست كثيرة:

١ – الشعر والشعراء لابن قتيبة، المتوفى قريبا من عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م[١٥].

٢ – طبقات ابن النحّاس، المتوفى ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م[١٦].

● أما الدراسات اللغوية فلم يكن يمثلها إلّا كتاب «الميسر والقداح» لابن قتيبة[١٧].

● وكانت كتب فقه اللغة نادرة، وتمثلها كتب النوادر[١٨] لمؤلفين مختلفين، مثل: على بن حازم اللحيانى، وأبى زياد الكلابى، والحصرى، وابن مُقْسم.

● وأخيرا كتب الأدب، وهى: زهر الآداب للحصرى[١٩]، وكتاب الآداب لابن المعتز[٢٠].

ومع ذلك فقائمة ابن خير أبعد ما تكون عن الكمال، وهى لا تقدم إلّا القليل من الكتب التى كانت تقرأ أو تدرس فى القرن الحادى عشر. وإذا لم تكن كل الكتب التى تجمعت فى مكتبة الحكم الثانى الشهيرة[٢١] تتداول فى نسخ كثيرة، فيمكن الظن على الأقل بأن بعض هذه النسخ كان معروفا

---

(١١) ابن خير ٤٠٣ و٤٠٥ و ٤١٥.

(١٢) ابن خير ٤٠٨.

(١٣) ابن خير ٤١١ و ٤١٢. وقد شرح ابن السيد البطليوسى سقط الزند، انظر: نفح ٦٤٣/١. وكان المظفر بن الأفطس يضع المتنبى والمعرى فى مقدمة الشعراء، انظر: أعمال الأعلام ١٨٤. وص ٥٠، الهامش ٢٧و٢٨ من هذا الكتاب.

(١٤) ابن خير ٤١٤. ومن الضرورى أن نشير بخاصة إلى الدواوين التى حملها معه أبو على القالى من المشرق إلى إسبانيا، وهى دواوين: ذى الرمة، وعمرو بن قميئة، والخنساء، والحطيئة، وجميل، وأبى النجم، وممن بن أوس، والنابغة الذبيانى، وعلقمة بن عبدة، والشماخ بن ضرار، والأعشى ميمون بن قيس، وعروة بن الورد، والمثقب العبدى، ومالك بن الريب المازنى، والنابغة الجعدى، وكثير عزة، وأوس بن حجر التميمى، والقطامى والأخطل، وعمرو بن شاس، وعدى بن زيد العبادى، وعبيدة بن الطبيب، والأفوه الأودى، وزهير بن أبى سلمى، وعبيد بن الأبرص، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر، وسلمة بن جندل، وقيس بن الحطيم الأنصارى، والطرماح، وامرئ القيس، ودريد بن الصمة، وأبى خلدة، ورؤبة، وعمر بن أبى ربيعة، وأبى نواس، وجرير، وطرفة بن العبد، وطفيل الغنوى، وأبو تمام. انظر: ابن خير ٣٩٥ – ٣٩٨.

(١٥) ابن خير ٣٧٨.

(١٦) ابن خير ٣٧٩.

(١٧) ابن خير ٣٧٨.

(١٨) ابن خير ٣٧٩.

(١٩) ابن خير ٣٨٠.

(٢٠) ابن خير ٤٠٥، ولم يذكر ابن خير ديوان ابن المعتز، ولكن هذه المجموعة يجب أن تكون معروفة. انظر: نفح ٦١٤/٣.

(٢١) الحلة السيراء ٢٠٠/١، ونفح ٣٨٥/١ و ٧١/٣، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ٢٣٣ – ٢٣٤.

للأدباء المقرّبين من البلاط الأموى، وأن سقوط هذه الأسرة لم يذهب بكل التراث الذى تركزّ فى قرطبة، غير أن لا مركزية السياسة أدت إلى لون من اللامركزية الأدبية أيضا، فتوزّعت المكتبات الشخصية لصغار الملوك، والمكتبات الخاصة لأولئك الذين يهتمون بالثقافة على نحو ما ، مكتبة الحكم الثانى(٢٢).

ويمكن أن نعتقد أيضا أن كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وحصل الحكم(٢٣) على إحدى نسخه الأولى، كان بعض الأساتذة يقرأونه فى محاضراتهم، ويروى لنا المؤرخون أنّ ابن عبدون الشاعر، كان يحفظه ويستطيع أن يمليه من الذاكرة وهو فى شيخوخته(٢٤). والحق أن كتاب الأغانى استطاع بمحتواه، شعراء وموسيقا، أن يستحوذ على أذواق الأندلسيين، وترك على الرغم من قلة نسخه المتداولة تأثيرا قويا وعميقا فى الأوساط الأدبية والراقية من سكان شبه الجزيرة(٢٥).

وثمة مؤلفات أخرى بالغة الأهمية فى دراسة اللغة العربية لا نجدها كذلك فى فهرسة ابن خير، وهناك وثائق هامة تشهد بوجودها. ومن بين هذه الوثائق رسالة ابن حزم فى «فضل أهل الأندلس»، وتذييل ابن سعيد عليها، وروايات عديدة أوردها المقّرى فى كتابه «نفح الطيب»، وسنكتفى بذكر أهمها فحسب:

النوادر لأبى على القالى، وألّفه فى إسبانيا نفسها، وقلّده أبو عبد الله بن أبى الخصال، من علماء القرن الحادى عشر، فى كتابه «سراج الأدب»(٢٦).

الأمالى، لمؤلف «النوادر» نفسه. وألّفه فى إسبانيا أيضا، وقلّده أبو عبيد البكرى، الجغرافى الأندلسى الشهير، فى كتابه «اللآلى»(٢٧).

وكان الكتاب لسيبويه موضع دراسة يقظة منذ زمن طويل، وفى عهد عبد الرحمن الناصر طالع الوزير عبد الوهاب بن محمد، وكان بصيرا بالعربية، «كتاب سيبويه، ونظر فيه، وكان ذا كِبْر عظيم،

---

(٢٢) انظر: صاعد الأندلسى، طبقات الأمم، طبعة شيخو، ص ٦٧، وترجمته الفرنسية التى قام بها بلاشير ص ١٢٦، وكترمير، دراسة عن حب الكتب عند المشارقة، ص ٧٢ - ٧٣، نقلاعن المنهل الصافى، ونفح ٣٨٦/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠٢.

● درس خوليان ريبيرا قضية الكتاب فى إسبانيا على نحو مستفيض، وترجمناها، فيما ترجمنا له، انظر: التربية الإسلامية فى الأندلس، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (المترجم).

(٢٣) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٨٤، والإحالات المذكورة فى الهامش رقم ١.

(٢٤) المعجب ٩٠، وترجمته ٧٥.

(٢٥) حاول يحيى الخدجّ المرسى أن يقلد الأغانى فى كتابه «الأغانى الأندلسية». نفح ١٨٥/٣، وقامت مواطنته فتحونة بنت جعفر، من أهل مرسية، وتكنى أم الفتح بتأليف كتاب فى قيان الأندلس عارضت به أبا الفرج الأصفهانى. انظر: بونس بويجيس، دراسة ص ٥١٣، وابن الأبار، تكملة الصلة، الترجمة رقم ٢٨٦٨، فى الفصلة التى نشرت منه فى مدريد عام ١٩٣٥. واختصر الأغانى أبو الربيع حاكم سجلماسة للأمير الموحدى: نفح ١٠٨/٣.

● قلت أورده المؤلف الخدج، وصحته الخدّوج كما ضبطه الرعينى فى برنامج شيوخه، ص ١٦٤، طبعة دمشق ١٣٨١هـ = ١٩٦٢م. وقد أتينا على هذه الدراسات، وعرّفنا بها، وبمنهج الأغانى تفصيلا، فى كتابنا «دراسة فى مصادر الأدب»، الفصل الخاص بكتاب الأغانى، ط ٦، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (المترجم).

(٢٦) نفح ١٨٤/٣.

(٢٧) نفح ١٨٤/٣.

وبأوٍ مفرط، ويُظهر مع ذلك زهدا، وولى الوزارة، فكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويص النحو، حتى برموا به، واستعفوه من ذلك[٢٨]» وكان ابن الأبرش، أبو القاسم بن خلف معجبا بكتاب سيبويه، حتى أنه يرفض أن يدرّس غيره[٢٩]. وفى دانية وجد سيبويه شارحًا مطنبا أحيانا فى شخص ابن المناصف، حتى أنه أملى «على قول سيبويه: هذا باب ما الكلم من العربية» عشرين كراسا، بسط القول فيها فى مائة وثلاثين وجها»[٣٠].

وكان لفصيح ثعلب، المتوفى عام ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م، معجبون أيضا. فدرّسه أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر، المتوفى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م[٣١]. وكان «إصلاح المنطق» لابن السكيت أقل قراءة، ولكن ابن سيدة كان يحفظه عن ظهر قلب[٣٢].

وقد تمتع كتاب «الغريب المصنَّف» لابن سلام الهروى، المتوفى عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م، بشعبية أكبر من أى عمل آخر، وبسببه تبادل منذر بن سعيد البلّوطى أبياتا من الشعر مع أبى على القالى يستعير منه كتاب الغريب[٣٣]. وكان ابن سِيدَه أعمى دانية يحفظه ظهر قلب، وأبو عمر الطلمنكى يدرّسه فى مرسية[٣٤]. واعتبره ابن حزم من أكمل المؤلفات التى توصّل إلى معرفة مفردات اللغة العربية[٣٥] ولما سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى، المعروف بالأبيض، عن لغة فعجز عنها بمحضر مَن خجل منه، أقسم أن يقيِّد رجليه بقيد حديد، كما فعل الفرزدق، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنف»، واتفق أن دخلت عليه أمّه فى تلك الحال فارتاعت[٣٦].

ولم يذكر ابن خير أيضا كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، ويعتبر موجزا ممتازا للغة العربية، وقد شرحه ابن السيد البطليّوْسى، من القرن الحادى عشر الميلادى، بعنوان «الاقتضاب من أدب الكتاب»[٣٧]، وكان أبو عمران موسى بن سعادة يدرّسه فى مرسية إلى جانب كتاب فصيح ثعلب[٣٨].

---

(٢٨) الحلة ١/٢٤١. (٢٩) نفح ٤/١١١.

● قلت: راجعت النفح كله فى طبعاته المشرقية فوجدته اقتصر فى ذكره لابن الأبرش على أبيات من الشعر رواها عنه، وحوار حول إعراب بيت من الشعر. واقتصر البلفيقى فى «المقتضب من تحفة القادم» ص ١٣ ط القاهرة ١٩٥٧ على ذكر: «تجول فى الأندلس وغيره معلما بالعربية». ولم يزد ابن بشكوال فى «الصلة»، ط القاهرة الترجمة ٤٠٣، على: «وكان عالما بالآداب واللغات مقدما فى معرفتها وإتقانها». وفى «بغية الملتمس»، ط مدريد الترجمة ٧٢٢: «كان وحيد عصره فى علم اللسان، ذا سبق فيه» (المترجم).

(٣٠) نفح ٤/١٤٠.

(٣١) نفح ٢/٢٢٠.

(٣٢) صاعد الأندلسى، طبقات الأمم ٧٧، وترجمة بلاشير ١٤٢.

(٣٣) نفح ٢/٢٠.

(٣٤) نفح ٣/٣٧٩، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم ص ٧٧، والترجمة ١٤٢.

(٣٥) مخطوطة القسطنطينية، وحللها أسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس، المجلد الثانى عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ١٣٠.

(٣٦) نفح ٣/٤٨٩، وانظر أيضا: دوزى، رسالة إلى فليشر ١١١ – ١١٦.

(٣٧) نفح ٣/١٨٤ و ٢٨٧.

● قلت: وقد قدم العالم الجليل الدكتور حامد عبد المجيد بتحقيقه، وصدر فى ثلاث مجلدات عن الهيئة العامة للكتاب فى مصر، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٧ (المترجم).

(٣٨) نفح ٢/٢٢١.

وثمة كتاب آخر يدرس النحو والتاريخ أكثر مما يعرض للغة والشعر، ولقى إعجاباً بالغاً، وأعنى به كتاب «الكامل» للمبرِّد، وجاء به من المشرق محمد بن أبي علاقة البوّاب، على أيام الحكم المستنصر[٣٩]، وكانت العروضية، مولاة أبى المطرِّف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب البلنسى، تحفظه عن ظهر قلب[٤٠].

وقد نال كتابا الكامل والنوادر شهرة عريضة، حتى أن علماء اللغة الإسبان، أو المهاجرين إلى إسبانيا، قلّدوهما: فألّف صاعد اللغوى كتاب «الفصوص»، وألّف أبو على إسماعيل بن القاسم القالى كتاب «النوادر»، «وهو مبار لكتاب الكامل»[٤٢].

ومن الواضح تمامًا أنّ ابن خير لا يدّعى لنفسه أنه أورد فى فهرسته كل المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس على أيامه، أو فى العصر الذى سبقه، وهو أبعد عن الشمول فيما يتصل بدواوين الشعراء، والكتب المتصلة باللغة، وعلينا أن نكمل وثيقته بالإشارات التى أمدّنا بها البلاغيون فى القرن الحادى عشر الميلادى، وبخاصة ابن رشيق القيروانى، وألّف كتاب «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» فى هذا القرن، وهو كتاب موجز وأساسى فى الدراسات الأدبية[٤٣].

يقول ابن رشيق: «وليس فى المولّدين أشهر اسمًا من الحسن أبى نُوَاس، ثم حبيب والبحترى، ويقال أنهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد. ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن فى المولدين، وامرئ القيس فى القدماء، فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد أن يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس[٤٤]..

يرسم لنا ابن رشيق، فى سطور قليلة، الطريق الذى سلكه الشعر العربى منذ الجاهلية حتى أيامه، وأعلامه المميزين، أولئك الذين اعتبرهم شعراء من الطبقة الأولى. نعم، إن ابن رشيق ومعاصريه، وما جاء به ليس إلّا صدى أفكارهم، يعتبرونهم عباقرة، لكن مع ذلك لا مفرّ من الظن بأن هذه القيم تغيّرت بمجئ المرابطين مع نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن الذى يليه، لأن هؤلاء لا يظهرون جميعا فى فهرسة ابن خير.

ومع ذلك فإن أبا نُواس الشاعر المحدث أكثر الشعراء قراءة، وأقربهم ذوقًا إلى الأندلسيين. وشاع الاعتقاد فى القرن العاشر الميلادى بأن شعره يضعف النفوس، كما نفهم من رواية أوردها لنا ابن القوطية، ومؤداها: أن أمية بن عيسى بن شُهَيد، وزير الخليفة محمد بن عبد الرحمن، «خطر بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة، ورهائن بنى قسى ينشدون شعر عنترة، فقال لبعض الأعوان إيتنى بالمؤدب، فلما نزل فى فراش المدينة وأتاه المؤدب فقال له: لولا أنى أعذرك بالجهل لأدّبتك، تعمد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم، فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة، كُفّ عن هذا، ولا تروّيهم إلّا خمريات الحسن بن هانئ، وشبهها من الأهزال»[٤٥].

---

(٣٩) نفح ٢/١٥٠.
(٤٠) نفح ٤/١٧١.
(٤١) نفح ٣/١٧٢.
(٤٢) نفح ٣/١٧٢.
(٤٣) عن ابن رشيق، المتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٢/٤٣٤، وكتب المادة ابن شنب.
(٤٤) ابن رشيق، العمدة ١/٦٤.
(٤٥) ابن القوطية، ط مدريد، ص ٩٤، وانظر: ريبيرا، نبذ ومقالات ١/٢٩٠.

وعن مشاهد مماثلة يروى لنا «المُغرب» أن الأمراء كثيرا ما كانوا يدعون شعراءهم إلى معارضة هذا البيت أو ذاك من شعر أبي نواس، وأن صاعدًا البغداديّ كان يحسّ بعجزه عن ذلك حتى مع الروية والتفكير الطويل(٤٦). ويروى عبد الرحمن بن شبلاق الحضرمى الإشبيلى أنه رأى فى النوم أنه مرّ على قبر، وقوم يشربون حوله، وسط أزاهر، فأمروه أن يرثى صاحب القبر، ولم يكن غير أبى نواس، فرثاه(٤٧). والدليل الأكثر إقناعًا على ذيوعه فى القرن الحادى عشر الميلادى أنّ عددًا كبيرًا من الشعراء كانوا يقلّدونه، فعارض ابن درّاج القسطلى رائيته الشهيرة فى مدح ابن الخصيب حاكم مصر(٤٨)، ونظم أبو عامر بن شهيد، وابن سارة، قصائد من نفس البحر، وفى نفس القافية، التى نظم فيها أبو نواس داليته الشهيرة(٤٩). وعارض أبو تمام غالب بن رباح الحجّام سينية أبى نواس فى الكئوس والحانة، ولكن فى قافية مختلفة(٥٠).

ورأى الإسبان فى ابن الرومى المتوفى ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م شاعرًا هجّاءً(٥١)، وعرفوا قصائده التى وصف فيها الطبيعة، ومن بينها تلك التى بيّن فيها تفضيله زهرة النرجس واحتقاره الورد، مما جعل كثيرين من الشعراء الأندلسيين يردون عليه(٥٢)، وأبياته الثلاثة التى يصف فيها خبازا ذات شهرة عالمية(٥٣).

أما البحترى المتوفى عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م، فكان مثل أبى نواس شاعرا عزيزا على الأندلسيين، واعتقدوه نبيًّا حيث يقول:

إنّ شعرى سارَ فى كلِّ بلدْ ... واشتهى رفقتَهُ كلُّ أحدْ
أهلُ فرغانة قد غنّوْا بهِ ... وقرى السوس(٥٤) وألطا وسَنَدْ
وقرى طنجة والسُّدُّ الذى ... بمغيب الشمس شعرى قد ورد(٥٥)

ولم تتوقف شهرة البحترى عند طنجة ولكنها عبرت المضيق، وكان الشعراء الإسبان يلتقون معه فى كثير من النقاط، حتى أنّ ابن بسام لم يجد ما يعبر به عن عبقريته أفضل من قوله: «ذلك هو

---

(٤٦) نفح ٩٧/٣.
(٤٧) نفح ٤٨٤/٣.
(٤٨) ابن خلكان، الوفيات ٤٢/١، ط. القاهرة، وزكى مبارك، الموازنة بين الشعراء ٢٢١ - ٢٥٢. وفون شاك، الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ٢٢٨/١.
● ترجمت كتاب شاك إلى اللغة العربية وصدر منه الجزء الخاص بالفن، بعنوان «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية» عن دار المعارف، طبعته ثانية، القاهرة ١٩٨٥، وسوف يصدر، وعن دار المعارف أيضا، القسم الخاص بالشعر. (المترجم).
(٤٩) نفح ٥٤٩/٣، والقلائد ٢٦١ - ٢٦٣.
(٥٠) نفح ٤١٦/٣
(٥١) نفح ٢٩٣/٣، وكان ذلك بمناسبة أبيات ماجنة لولّادة.
(٥٢) انظر فيما بعد ص ١٦٧ وما بعدها من هذا الكتاب.
(٥٣) نفح ١١١/٢. وقد اقتبس ابن خاقان الشطر الأول من البيت الثالث فى جملة له: القلائد ٢٧، ونفح ٢١٨/٤.
(٥٤) السوس تقع فى فارس. وانظر فيما يتصل بها دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٢/٤. والمادة كتبها شتريك.
(٥٥) من الطويل. ياقوت، معجم البلدان ٣٥٠/١ و ٨٨٠/٣.
● توجد أيضا فى ديوان البحترى، المجلد الثانى، القصيدة رقم ٣١٣، ص ٧٩٢، طبعة دار المعارف، القاهرة. (المترجم)

البحترى، طريقته فى الشعر نموذجية، لسلاسته وجزالته، ولطلاوته وقوته»[٥٦]. ولم يفلت البحترى من التقليد، ومن نسخ أبياته، وابن أخت غانم، العالم اللغوى أبو عبدالله محمد بن معمر، شاعر المرية، يهجو ابن شرف، أبا الفضل جعفر، من برجة فيقول:

قولوا لشاعر بِرْجَةٍ هل جاء من أرضِ العراقِ فحاز طبعَ البحترى
وأتى بأشعارٍ تضجُّ بكفِّهِ وتقول هل أعْزَى لمن لم يشعر
ياجعفرًا رُدَّ القَريض لأهلِهِ واتركْ مباراةً لتلك الأبحر
لا تزعمنْ ما لم تكن أهلًا له هذا الرُّضابُ لغير فيك الأبخر[٥٧]

وأخيرا يجيء المتنبى!

ويقول ابن رشيق بحق: إن هذا الشاعر «ملأ الدنيا وشغل الناس»، وعانى الغرب الإسلامى من سلطانه[٥٨]. وإذا لم يستطع أن يمحو ذكرى البحترى وابن المعتز من ذواكر الناس، فقد استطاع أن يحتكر العقول، لأنه جمع إلى طلاوة الشاعر فكر الفيلسوف. وقد شرح ديوانه الأعلم الشنتمرى[٥٩]، والإفليلى المتوفى عام ٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م[٦٠]، وابن سيده المرسى المتوفى عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م[٦١]، ووجد ابن بسام نفسه مضطرا لأن يلمع بيسير من أخباره فى الذخيرة، وكانت فى الحقيقة تاريخية أكثر منها أدبية[٦٢].

وفى مختاراته عَبْر كل كتابه، ذى المجلّدات الثلاثة الضخمة، لم يتوقف أبدا عن ذكر أى بيت للمتنبى وجد شبها بينه وبين أشعار الأندلسيين، وكان هذا التشابه فى الحق كثيرا إلى حد بعيد. وبين كل صغار ملوك إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى، كان المعتمد، فيما يبدو، أكثر من درس المتنبى وقدّره، غير أن هذا الإعجاب لم يبهر فيه روح النقد[٦٣]، مما أغضب الشعراء الذين كانوا يحيطون به، ويقص علينا المقّرى أن المعتمد استحسن يوما قول المتنبى:

إذا ظفرتْ منك المطىُّ بنظرة أثاب بها مُعْيى المطىِّ ورازمه

فارتجل ابن وهبون بديهة البيتين الآتيين، وفيهما يلتقى الغيظ والإعجاب:

لئن جاد شعرُ ابنِ الحسين فإنما تجيد العطايا واللُّها تفتح لُّها[٦٤]

---

(٥٦) الذخيرة، القسم الثانى، مخطوطة اكسفورد، الورقة ٧١ ب، وعنها نقله دوزى فى «بنو عباد» ٢٠٢/١، وترجمته ص ٧٠٦. ولم أهتد إلى النص فى النسخة المطبوعة، والتى نشرها الدكتور إحسان عباس (المترجم).

(٥٧) من الكامل، نفح ٣٩٧/٣، ودوزى فى أبحاث ط ٣ جـ ٢ ص ٢٥٠.

(٥٨) بلاشير، الشاعر العربى المتنبى والغرب الإسلامى، فى مجلة الدراسات الإسلامية، عام ١٩٢٩، العدد الأول، ص ١٢٧ - ١٣٥، وأبو الطيب المتنبى ص ٢٩٣ - ٢٩٩.

(٥٩) نفح ١٨٤/٣، والصفدى، نكت الهميان ٣١٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٠) الصفدى، نكت الهميان ٣١٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٦١) بلاشير، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٢) الذخيرة ٤٩٤/٣.

(٦٣) نفح ٢٦١/٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٥.

(٦٤) أى أن الذيوع والانتشار يطلق اللسان.

تنبأ عُجْبًا بالقريض ولو درى بأنك تَروى شعرَه لتألَّها![٦٥]

ولم تقف إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى عند المتنبى، وإنما استرعى انتباهها شعراء آخرون. وابن خفاجة، وأصبح أكبر مصوِّر للطبيعة، ولم يكن فى الحقيقة غير مقلّد ذكى، اعترف بأنه يدين بجانب كبير من إلهامه لشعراء من المشرق مثل: **الشريف الرضى** الموسوى، المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م[٦٦]، وعبد **المحسن الصورى**، المتوفى عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م[٦٧]، ومهيار **الديلمى**، المتوفى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م[٦٨]، وليس صعبا أن نظهر ما يدين به للبحترى، وعرضنا له من قبل، **وللصنوْبرى** المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م[٦٩]. ألَمْ يطلقوا عليه لقب صنوبرىّ إسبانيا؟[٧٠]. وأمّا مهيار الديلمى فكان موضع تقليد شعراء آخرين غير ابن خفاجة، فنحن نجد بين صفحات «نفح الطيب» للمقّرى مقطوعة، ميمية القافية، **ليحيى بن هذيل**، استلهمها على نحو واضح من ميمية مهيار[٧١].

وفيما يتصل **بأبى العلاء المعرى**، (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ – ١٠٥٧ م)، نفاجأ بعض الشىء حين نعرف أن من بين أعماله كلها لم يعرف الأندلسيون غير كتابين اثنين هما: **سقط الزند واللزوميات**، ومع ذلك نعرف أن ولد ابن عبد الغفور صنع رسالة سمّاها «الساجعة» ، حذا بها حذو أبى العلاء المعرى فى رسالته «الصاهل والشاحج»[٧٢]، ولكن من غير المعقول أن رسائله الأخرى لم تقع فى يد الإسبان، على الأقل فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر.

أمّا مسألة تأثير **«رسالة الغفران»** فى **«الكوميديا الإلهية»** لدانتى، وفجّرت منذ ثلاثين عاما، على نحو ما نعرف، أبحاثا مثيرة عن الصلة بين الآداب المشرقية والأعمال الأوربية الوسيطة، ذات الإلهام المسيحى، فقد ظهرت فى إسبانيا الإسلامية فى صورة مختلفة تمامًا، وربما يتوقف على حلها أن تأخذ مشكلة دانتى وأدب الآخرة الإسلامى وجهة جديدة، ومن المثير حقا أن نلحظ أن إسبانيا الإسلامية عرفت منذ نهاية القرن العاشر، أو بداية الحادى عشر على أكثر تقدير، أى قبل رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، عملاً كان موضوعه رحلة شاعر إلى الجنة. وهو **«رسالة التوابع والزوابع»** لأبى

---

(٦٥) نفح ١٩٤/٣ و ١٣٥، وغرسية غومث، ترجمته لرسالة فضائل الأندلس للشقندى ص ٥٥٩ – ٦٠، وبيت المتنبى يوجد فى شرح العكبرى ٢٣٣/٢، وفى ديوان المتنبى شرح البرقوقى ٢٣٥/٢، القاهرة ١٣٤٨ هـ – ١٩٣٠ م.

(٦٦) أورد عنه ابن بسام خبرا فى الذخيرة ٥٨٠/٤.

(٦٧) ديوانه مفقود فيما يبدو وعن الشاعر انظر: ابن خلكان، الوفيات ٣٠٨/١، وترجمة دى سلان ١٧٦/٢.

(٦٨) خصه ابن بسام بخبر فى الذخيرة ٥٤٩/٤.

(٦٩) أخبار الصنوبرى المتناثرة جمعها محمد راغب طباخ، بعنوان «الروضيات»، حلب ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م.

(٧٠) نفح ٤٨٨/٣.

(٧١) نفح ٣٥٧/٣، وقصيدة مهيار فى ديوانه ٣٢٧/٣.

(٧٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس ٢١٨، وعنه نقلها المقرى فى النفح ٥٥١/٣، ولا يوجد نص الساجعة إلا فى الذخيرة، مخطوطة تلمسان، الورقة ١٦٣ ب – ١٦٦ أ.

● قلت: هذا النص لا يوجد فى الذخيرة التى نشرها الدكتور إحسان عباس كاملة، وابن عبد الغفور هذا هو: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور. انظر: المغرب ٢٣٧/١. (المترجم).

عامر بن شُهَيد[٧٣]، الشاعر والناقد الذى سنعرض له فى مناسبات كثيرة. وفى هذه الرسالة يقدم لنا ابن شهيد قليلا من وصف الجنّة، وكثيرا من النقد، من وجهة نظر أدبية خالصة، ولكن بطريقة ساخرة، عن شعراء العرب فى الجاهلية والإسلام حتى المتنبى.

وبعد ذلك بقليل، فى بلاط المعتصم أمير المرية، عالج مؤلّف آخر يسمى ابن الشهيد أيضًا، ويكنى أبا حفص، الموضوع نفسه، ومن وجهة النظر ذاتها، فى مقامة أدبية[٧٤]، وتشبه كثيرًا رسالة «التوابع والزوابع»، ونميل إلى الأعتقاد بأن أبا حفص عمر بن الشهيد، وإن كتب مقامته فى فترة معاصرة لآخرة أيام أبى العلاء المعرى، أو بعد موته، إلّا أنه استلهم قريبه، وسلفه، أبا عامر ابن شهيد، وهذا الأخير لم يعرف رسالة الغفران، ولم يستلهم فكرته إلا من نفسه، أو من الوسط الذى عاش فيه. وهنا نخمّن بأن أبا عامر بن شهيد، وكان كثير الاختلاط بالمستعربين، وبالقسس المسيحيين، ويهود قرطبة، استطاع بتداخله معهم أن يقرأ ترجمة، غير كاملة دون شك، لكتاب محاورات لوسيان dialogues de lucien، أو كتاب Cratyle أو فيدون Phédon لأفلاطون[٧٥].

ونظن أن المصادر الأقل استبعادا لهذا العمل الأصيل، وهو الوحيد فى الأدب العربى حتى مطلع القرن الحادى عشر، يمكن أن نبحث عنها فى المناقشات التى كانت تجرى بين ابن شهيد المراهق وبين والده أو جده، أليس منطقيا أن نقبل أن الراهب نقولا، والذى أرسله إمبراطور بيزنطة الرومانية إلى عبدالرحمن الناصر ليترجم ويشرح كتاب ديوسقو ريدس Dioscorides فى الطب استطاع خلال إقامته فى قرطبة أن يوطّد علاقاته مع أحمد بن عبدالملك بن شهيد، والذى بلغ مكانة عالية، وله أنشأ عبد الرحمن الناصر رتبة «ذى الوزارتين» فى عام ٣٢٧ هـ – ٩٣٩ م[٧٦]؟ وأحمد بن عبد الملك هذا هو جد صاحبنا مؤلف «رسالة التوابع والزوابع»، وكان مغرمًا بالأدب، واستطاع أن يعرف جيدًا شيئًا عن بعض المؤلفات اليونانية القديمة الهامة، وعن لوسيان وأفلاطون. والحكايات التى جمعها لنفسه انتقلت مع هذا الطابع الساخر، وكان اتجاها مميّزا لأسرة بنى شهيد فى الأدب، إلى ابنه أوّلا، ثم إلى حفيده من بعد، مع التغيير الذى لا مفر منه، أو بالأحرى تطويرها لنوائم عبقرية لشخص الذى يرويها وهكذا خلال نيف وسبعين عامًا من الامتداد الزمنى يظهر الفكر اليونانى أو اللاتينى ثانية، بعد إعداد بطىء، خلال أشكال ليس فيها من الطابع العربى شىء، فى مثل رسالة أبى عامر بن شهيد هذه، والتى تجسّد المثل الأروع دقة فى الأدب الأندلسى.

هذه الافتراضات التى عبّرنا عنها، مهما كانت هشّة، تظهر فى احتمالاتها، أنّ دراسات الأدباء

---

(٧٣) الذخيرة ٢٤٥/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب فى الأندلس ٤٩، وابن شهيد الأندلسى، رسالة التوابع والزوابع، ط. ب. البستانى ص ١١٥ – ٢٠٩ (وزهير هو الذى قاد ابن شهيد). وفيما يتصل بسبق رسالة التوابع والزوابع لرسالة الغفران، انظر: زكى مبارك، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، باللغة الفرنسية ص٢٣٩٤، وفى النص العربى ٢٥٨/١.

(٧٤) الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها.

(٧٥) ألف ابن جبيرول فى عام ١٠٤٥ م فى سرقسطة أول كتاب له عن الفلسفة الأخلاقية، وهو «إصلاح الأخلاق»، ويضم آيات من التوراة، وأمثالا من التلمود، وخيطا من الحكم لسقراط وأفلاطون وأرسطو، والفلاسفة العرب وغيرهم. انظر: جريتز، يهود إسبانيا ص ١٥٠.

(٧٦) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ص ٦٨ و ١٠١ – ١٠٢.

الإسبان و «الإنسانيين»، كما نفهمهم، لا تقف عند دراسة المؤلفين العرب وحدهم، وشعراء المشرق من بينهم بخاصة، وإنما تمتد أيضًا إلى المؤلفين اليونان، وإلى اللاتين احتمالاً، عن طريق الترجمة.

والإشارة إلى الحكمة اليونانية والفارسية تتناثر بكثرة عبر أبيات الشعر العربي فى المشرق والمغرب، ويُعتبر المتنبى، ولا يزال، أكثر الشعراء فلسفة، وقد كتب الحاتمىّ رسالة ذكر فيها إلى جانب كل بيت من شعر المتنبى تضمّن حكمة جملة لأرسطو تلتقى، أو تتشابه على نحو واضح، مع فكرة البيت ومعناه[٧٧].

يقول الوزير أبو عامر بن ينّق، وينّق كلمة إسبانية أصلها Inigo، فى قصيدة يمدح بها المظفرّ بن جهور:

دعْ عنك ما خلّدت يونانٌ من حكمٍ	وسار فى حكماء الفرس من مثل
وانظر إليها تجدها أحرزت سبقاً	فى الجهد منها وحاز السبق فى مهل[٧٨]

ويقص علينا ابن الأبّار فيما يتصل بالدراسات التى أكبّ عليها أمراء أسرة بنى عباد أصحاب إشبيلية، أنّ الرشيد بن المعتمد طالع شيئًا من العلوم الرياضية، وكشف له غيب الأغانى، حتى قيل إنه أجاد الضرب على العود، وكان له أدب وشعر، وفى الفقه كان يطبق فى إشبيلية مذهب مالك وأصحابه[٧٩]. وهذا الاهتمام بالعلوم الخالصة لدى تلميذ مالك هذا يشير إلى لون من الفضول العلمى كان شائعًا بين الأندلسيين على نحو أكثر مما نظن.

وحالة الراضى، أخو الرشيد، نموذج أشد دلالة بكثير، لقد أظهر هذا الطفل المدلل لدى والده المعتمد ميلاً قويًا إلى القضايا الفكرية، وكان يؤثر دراسة النحو والفقه، ومجالسة الشعراء والفلاسفة، والرياضيين والفلكيين، على خوض معامع الحروب[٨٠].

كان ذلك أكيدًا التجسيد الأشد وضوحًا «للأنسية humanisme» كما كانت تفهم فى ذلك العصر، وثمة توازن منسجم بين العلوم والآداب، والفن يكمل الشعر، ويجئ البحث عن «الإنسان» فى أوج قدرته فى الخط الأول من اهتمامات العصر، ومن الآن فصاعدا أصبحت الاهتمامات الحربية غير ذات أهمية بالنسبة إلى القضايا الثقافية والتأملات الفكرية، ولكن الدراسة مع ذلك لم تأت على كل فضائل العمل.

لقد تميّزت إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى بمعرفة هذا الجانب الجديد من الفكر الإسلامى،

---

(٧٧) الحاتمى، المتوفى ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م، الرسالة الحاتمية فى التحفة البهية ص ١١٤ - ١٥٩، ط. بيروت ١٩٣١، وط. بلاشير فى مجلة إسلاميكا، المجلد الثانى ١٩٢٦، العدد ٣، من ٤٣٩ وما بعدها.

(٧٨) من البسيط. لقلائد ١٨٧.

(٧٩) الحلة السيراء ٦٨/٢، وبنو عباد ٧١/٢ - ٧٢.

((٨٠) يقول ابن الأبار: «كان الراضى من أهل العلم والأدب، كلفا بالمطالعة والدراسة، قرأ كتب القاضى أبى بكر بن الطيب، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى، فمهر فى الأصول، وذهب إلى النظر والاختيار». الحلة ٧١/٢، وبنو عباد ٧٥/٢. وفيما بعد ص ٣٨٠ و٣٨١ من هذا الكتاب.

وواصلت التقاليد الايبيرية الرومانية سيرها لاشعوريا، وتركت تأثيرًا واضحًا في الثقافة العربية الإسلامية، وحقق الأدباء الإسبان نتيجة الحرية التي تمتعوا بها بعث الفكر القديم، وأعطوه هذا اللون الخاص، الذي يعود إلى التأثير اليهودي المسيحي، وفيما يلي ستتاح لنا أكثر من فرصة لنشير إلى مظاهره الواضحة.

○ الفصل الثالث:

المشرق والمغرب

استنفدت «الإنسية» الإسبانية الجانب الأكبر من عناصر دراستها فى الأدب العربى فى المشرق، وكانت التقاليد التربوية فى القرن العاشر قوية جدا فأصبح من الصعب بعد ذلك التخلص منها.

وقد ترك المثقفون العرب المشارقة الذين وفدوا إلى إسبانيا تأثيرا عميقا بثقافتهم الواسعة، وبلغت استعداداتهم الذهنية حدا يصعب معه أن تكون على صورة أخرى. وكان الأمويون فى إسبانيا يتجهون بأبصارهم دائما إلى العباسيين فى بغداد. ولم يكن الظَّرْف والأدب اللذان سادا فى قرطبة، وفى البلاطات الصغيرة التى تكوّنت حول عمّال الولايات، إلاّ تقليدا لما يجرى فى العراق. وأخذ خلفاء قرطبة يغرون أدباء بغداد بالنزوح إلى عاصمتهم، على نحو ما حدث مع أبى على القالى، وكان لغويًّا أكثر منه شاعرًا[1]، وصاعد البغدادى، وكان شاعرًا ماهرًا، ولغويًّا جسورًا، وعرفنا تاريخه مفصلا من قريب[2]. وكان بجوار إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية لغوى من الحجاز يدعى أبا محمد العذرى[3]. وثمة تأثير آخر لا يقل أهمية مارسته الجوارى المغنيات، ونشأن وتربين فى المشرق، فى المدينة وبغداد، واشتراهن لأمراء والولاة فى إسبانيا، وأحيانا كانوا ينتزعوهن من بلاط بغداد بأسعار باهظة، واحتفظ لنا المقّرى بأخبار أشهرهن[4]، ومن بينهن: العجفاء من بغداد، وفتيات المدينة الثلاث: فضل وعلم وقلم، وهذه الأخيرة رغم أنها نشأت فى المدينة ليست مشرقية الأصل، وإنما بشكنسية، أسرت صغيرة فى حملة على نَبَرَّة، شمال شرقى الأندلس، ثم حُمِلت إلى المدينة، وفيها مرّت بكل مراحل التعليم التى يجب أن تجتازها من تعدّ نفسها لتكون مغنية، حتى إذا مهرت فى الغناء والأدب والخط، وفى حفظ الشعر بخاصة، اشتراها عبد الرحمن الثانى، أمير قرطبة الأموى، وكان دون أدنى شك يقدّرها كثيرًا،

---

(١) كان عبد الرحمن الناصر، المتوفى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م، هو الذى دعا أبا على القالى إلى إسبانيا، فوصل إلى قرطبة فى ٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م، وقد قام كاتب مصرى حديث هو عبد الرحمن البرقوقى بتصوير رحلة القالى من الإسكندرية إلى المرية فى شكل رواية تاريخية بعنوان: «حضارة العرب فى الأندلس»، القاهرة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م، متأثرا فيها بكتاب حضارة الإسلام فى دار السلام التى كتبها جميل مدوّر، وصدرت طبعتها الأولى فى بيروت عام ١٨٨٨، وطبعتها الثانية ١٩٠٥، والثالثة فى ١٩٣٢، [ثم توالت طبعاتها بعد ذلك فى القاهرة]، وكان جميل نخلة متأثرا بكتاب رحلة الشاب أنشرس فى اليونان، للقس برتيليمى. ولكن البرقوقى لم يكن يعرف أن القالى مر بأفريقية (تونس) انظر: نفح ٧٠/٣ وما بعدها، الذخيرة ١٤/١، وفى «بنو عباد» ٤١/٣، وابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس ٦٥/١، الترجمة رقم ٢٢١.

(٢) بلاشير، رائد الثقافة العربية المشرقية فى إسبانيا فى القرن العاشر للميلادى: صاعد البغدادى، فى مجلة هيسبيريس، ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦. صاعد وصل إسبانيا قريبًا من عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م.

(٣) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط جـ ٢ ص ٨٩، اعتمادًا على البيان المغرب ١٣٢/٢، ٢١١.

(٤) نفح ١٤٠/٣.

لأنها حتى مع إقامتها الطويلة فى المشرق احتفظت بلونها الأشقر صافيا جميلا، ونحن نعرف أن الأمويين بالأندلس كانوا مغرمين بالشقروات إلى حد بعيد[٥].

وقد اشترى الشريف العربى إبراهيم بن الحجاج اللخمى، والى إشبيلية، المغنيّة قمر الجارية، وهى تستحق منا وقفة خاصة، فقد كانت دون ريب إحدى هؤلاء النسوة اللائى حملن إلى بلاط إشبيلية اللطف والذوق، وتركت معاملتها الراقية تأثيرا طيبا فى أخلاق سيدها، والرجال الذين حوله، وكان فيهم شىء من جفاف ومن خشونة[٦]. وأسهمت بفصاحتها الفطرية، واستعدادها الطبيعى لقول الشعر، فى إشاعة تذوّق الأدب العراقى، وكانت تحفظ كل روائعه عن ظهر قلب.

ويجب ألّا ننسى فى هذه النظرة الخاطفة، ونحن نعرض لتأثير المشرق فى المغرب، فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، الدور الذى اضطلع به زرياب، المغنى الفارسى الشهير، وبنتاه عليّة وحمدونة، وتلميذته متعة[٧].

لكن الوافدين من المشرق على إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى لم يكونوا من المستوى الذى عرضنا له، كما أن إسبانيا نفسها بدأت تقلل شيئا فشيئا من نظرتها إلى المشرق، واحتذائها ما يجرى فيه، بعد أن أصبح عندها من الأدباء والشعراء والمفكرين والمغنين والموسيقيين من الجنسين من ليسوا فى حاجة لأن يحسدوا ما عليه زملاءهم فى بغداد أو المدينة على الإطلاق. وكانت الحياة فى البلاطات الصغيرة لملوك الطوائف تسبح فى مظاهر من الترف دونها مدن المشرق الكبرى. وإذا صح أنّ شخصا كأبى على القالى، أو قمر المغنية - مثلا - كانا أوسع ثقافة، وأرقى حضارة، من الوسط الأندلسى الذى أحاط بهما فى القرن العاشر الميلادى، فقد رجحت الموازين لصالح الإسبان المسلمين فى القرن الذى تلاه، وبدأ الناس يتساءلون: ماذا يستطيع أن يضيف واحد مثل هذا السفيه اللحوح، الهجّاء بلا حياء، أبى الحسن البغدادى، الملقّب بالفكيك، إلى بلاط المعتمد بن عباد فى إشبيلية، أو المقتدر بن هود فى سرقسطة؟ وأى مهرج فى البلاط الملكى يمكن أن يكون أكثر إضحاكا من هذا الشاعر الذى تنكرّ يوما فى شكل هدهد، فلبس «طاقا أحمر على بياض، وفى رأسه طرطور أخضر، عمّم عليه عمّة لا زوردية» وكل ذلك ليقول إنه الهدهد، ويشبّه المعتمد بأنه سليمان[٨]!.

ومثل أبى الفتوح الجرجانى، وعرفته بغداد عالما واسع الثقافة، ثم جاء ونزل ضيفا بعض الوقت فى بلاط مجاهد صاحب دانية، وارتحل إلى بلاط المنذر صاحب سرقسطة، ثم استقر أخيرًا فى غرناطة، أديبا

---

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة ٤٨ طبعة دار المعارف بتحقيق د. الطاهر أحمد مكى، وترجمة نيكل ٣٩، وترجمة برشيه ٢٦.

(٦) نفح ٣/١٤٠، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٨٩، والمصادر الواردة هناك.

(٧) عن زرياب وتأثيره فى إسبانيا فى عصر عبد الرحمن الثانى انظر: نفح ٣/١٢٢، وابن دحية، المطرب ١٤٧، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٣٠٩، ودوزى ص ١١٢، وهنرى تيراس، الفن الإسبانى العربى منذ بدايته حتى القرن الثالث عشر الميلادى ص٧١، وليفى بروفنسال، الحضارة العربية فى إسبانيا ص ٦٩ [وترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى له إلى العربية ص٦٥، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥]، وعنه فى تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ جـ ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢.

(٨) نفح ٣/١١٩، وخصه ابن بسام فى الذخيرة القسم الرابع بخبر.

● الحق أن ابن بسام أورد اسمه فى الفهرس لفصل الذى أورده فى مقدمة كتابه، وأنه سوف يتحدث عنه فى القسم الرابع، ولكنه واقعًا لم يعرض له فى هذا القسم ولا بكلمة واحدة، على الأقل فى طبعة إحسان عباس التى بين أيدينا، ولم يعرض له فى بقية الأقسام الأخرى، وكل ما هنالك أنه فى القسم الثالث، ص ٦٧٤، أورد له بيتين من الشعر. (المترجم)

حينا، ومحاربًا عندما تضطره الظروف، واشتهر بأنه مغامر مفسد، وانتهى به الحال أن قتله بيده باديس بن حبوس، وكل ما يستطيع الأندلسيون أن يذكروه له بالخير، أنّه درّس فى غرناطة حماسة أبى تمام(٩).

الشرقى الوحيد الذى استرعى اهتمامنا هو: أبو الفضل التميمى الدارمى البغدادى، وخرج من بغداد رسولا لأمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسى، إلى صاحب أفريقية المعز بن باديس، وعبر إلى إسبانيا بعد فتنة العرب، وأقام فى بلاط المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبقى هناك حتى توفى عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م، أو فى العام الذى بعده، وكان يجمع بين لطف التفكير، ولباقة الأسلوب، والتهذيب المصقول، وهى صفات أتاحت له أن يتعمق بسهولة فى المجتمع الأندلسى، لأن الظَّرف البغدادىٍ لم يجد منذ قمر رسولاً أقوى كما لا وأشد جاذبية منه. وقد لقى من قبل فى القيروان حفاوة بالغة، وفتن به المثقفون الذين كانوا يكوّنون إلى جانب الأمير المعز بن باديس، الوسط المثقف، الأكثر صقلا ورقة فى بلاد البربر الشرقية، ثم اضطرته الأحداث السياسية إلى أن يذهب إلى إسبانيا، وفى طليطلة منها وجد المناخ ملائمًا له، إلى جوار المأمون بن ذى النون، فتفتحت مواهبه، وأمضى بقية حياته يتغنى بالحب، ولم يحدث أن ازدهر شعره العاطفى إلا فى إسبانيا(١٠).

قبل أن يبحر أبو الفضل الدارمى إلى أفريقية اجتمع مع أبى العلاء المعرى فى معرة النعمان(١١)، ويمكن أن نتخيل الحديث الذى دار بين الرجلين: تحدّثا بالطبع عن بغداد، ثم التفتا دون شك نحو المغرب، وحولا مفكرين تخيّل ما يجب أن تكون عليه الحياة الفكرية هناك. وفى البدء تخوّف أبو الفضل شيئا من هذه الرحلة، رغم أن مهمته رسمية، ثم اطمأن سريعا عندما سمع حديث أبى العلاء، فقد كان شيخ المعرة على معرفة حقيقية بالإنتاج الأدبى فى بلاد البربر الشرقية وفى إسبانيا، وربما كان هذا هو الذى أقنعه بأن يتوقف قليلا فى القيروان. وأبو العلاء المعرى هو صاحب الرأى القاسى فى ابن هانئٍ الأندلسى، فقد وجد فى كلماته كثيرا من الخشونة، وقليلا من الفكر، فشبه أشعاره بأنها «مثل رحى تطحن قرونا»(١٢). ولكنه أحسّ بالشعر يغمره حين سمع أبيات الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد المؤدب(١٣)، من وادى آش، وحفظ المقطوعة عن ظهر قلب. آه!، ياللغضب الجميل الذى اجتاحه عندما جاءه الشاعر المُنازى، المتوفى عام ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م(١٤)، ليراه وينشده هذه الأبيات الجميلة، ترتجف راقصة، فى غنائية يجهلها المشرق، وكان رأيه فيها كذلك(١٥). ولم يكن المعرّى يجهل المغرب، وآخرون غيره دون شك كانوا على علم بما يحدث فى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ولابد أن التبادل الأدبى كان يتم فى سرعة فائقة، فقد ظن المنازى أنه يستطيع أن يسرق أبيات حمدة دون عقاب، ولكنه وجد أبا العلاء المعرى سبقه فى معرفة هذه الأبيات.

---

(٩) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٣٠ - ٣٥، وقائمة المصادر التى فى ص ٣١، الهامش رقم ١، وانظر فيما سبق ص ٣٤، الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب.

(١٠) نفح ١١١/٣، وسوف تتاح لنا الفرصة لنتحدث عن هذا الشاعر فيما بعد، انظر ص ٣٦٨ ومابعدها من هذا الكتاب.

(١١) نفح ١١٢/٣.

(١٢) ابن خلكان، الوفيات ٥/٢، وترجمة دى سلان ١٢٧/٣.

(١٣) حمدة، أو حمدونة، عاشت فى أواخر القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، وربما شهدت بداية القرن الذى يليه، وقد خصها المقرى بجملة أخبار فى نفح ٢٨٧/٤، وفيما بعد سوف نتحدث عن وصفها لوادى آش، ص ١٤٢ من هذا الكتاب.

(١٤) عن المنازى، انظر: وفيات الأعيان ٤٤/١، وترجمة دى سلان ١٣٦/١.

(١٥) نفح ٢٨٩/٤.

ويمكن أن نفترض أن أبا الفضل الدارمي فكرّ بعد زيارته لأبي العلاء المعرى أن يستغل مهمته فى بلاد البربر ويزور الأندلس بعدها، وآخرون قبله، على نحو ما رأينا، قاموا بهذه الرحلة الطويلة. وإذا كان المغاربة المسلمون يترددون كثير على المشرق للحج أو الدراسة، فإن المشارقة على الرغم من تقدمهم كانوا يترددون بعض الشيء فى الذهاب إلى بلد تصلهم عنه أخبار غير مرضية.

●●●

لقد أسماها الجاحظ «طينة حمقاء»[١٦]، وزارها الرّحالة ابن حوقل فى نهاية القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، وكتب عنها الفقرة التالية التى أثارت فيها بعد غضب ابن سعيد: «ومن أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها على مَن هى فى يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها، ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها»[١٧].

الصورة كما ترى غير جميلة فعلا، وقد وجدت الجارية المغنية قمر، وتعوّدت على ظَرف بغداد وأدبها حيث نشأت، كثيرا من الجفاء والخشونة فى بلاط إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية[١٨].

أما أبو على القالى، ومرّ ببلاد البربر الشرقية قبل أن يلبى دعوة عبد الرحمن الناصر فى أن يذهب إلى الأندلس[١٩]، فلاحظ فزعا أنه كلما ابتعد عن المشرق وجد من يمر به من أهل الأمصار «درجات فى الغباوة، وقلة الفهم، بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتى كأنّ منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم محاصة ومقايسة». فقال لنفسه: «إن نقص أهل الأندلس عن مقادر من رأيت فى أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان»[٢٠].

ومع ذلك لم تكن معرفة المغرب مغلقة تماما فى وجوه المشارقة، والفضل للرحلات، وقليلون جدا أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا بأشياء سمعوها فحسب. وقد التقى أبو نُوَاس بالشاعر الإسبانى عباس بن ناصح فى بغداد، وقال له: أنشدنى لأبى الأجرب فأنشده، ثم قال له: أنشدنى لبكر الكنانى فأنشده، وفعل ذلك كله عن طيبة خاطر[٢١]، وكما ترى فإن شهرة هذين الشاعرين الأندلسيين

---

(١٦) السندوبى، أدب الجاحظ ٦٩.

(١٧) ابن حوقل، المسالك والممالك، المجلد الثانى فى المكتبة الجغرافية العربية ص ٧٣، وعنه فى نفح ٢٦١/١، وترجم النص دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٢٥، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٣٥ يقول ابن مامة وهو قائد نصرانى كان خلال «الفتنة» مع البربر والخليفة المستعين ضد الصقالبة والأمويين، عن القرطبيين: «كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم». البيان المغرب ٩٠/٣. وانظر فيما سبق ص١٨ من هذا الكتاب، الهامش رقم ١٩، وقد ردّ ابن سعيد على ابن حوقل فى صفحة توجد فى نفح ٢١٢/١.

(١٨) البيان المغرب ١٣٢/٢ و ٢٦١، وابن الأبار، تكملة الصلة، رقم ٢١١٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٩٠.

(١٩) انظر فيما سبق ص ١٦ من هذا الكتاب.

(٢٠) الذخيرة ١٤/١، وبنو عباد ٤١/٣، وعنها فى نفح ١٥٤/٣.

(٢١) نفح ٢٢٤/٣. وعباس بن ناصح ثقفى النسب وشغل منصب القاضى فى الجزيرة الخضراء فى مطلع القرن التاسع الميلادى، نفح ٣٤٣/١، و ٢٦١/٢ و ٢٢٤/٣.

وأبو الأجرب عوانة بن الصمة الكلبى شاعر هجاء، عاصر جريرا والفرزدق، نفح ١٧٧/٣، أما أبو بكر الكنانى فلا نعرف عنه شيئا.

تجاوزت إسبانيا وبلغت العراق. ولكن شعراء العراق بعامة كانت فكرتهم سيئة عن الأندلسيين، ويروى أن الغَزَال «أقذع فى هجاء على بن نافع المعروف بزرياب، فذكر ذلك لعبد الرحمن فأمر بنفيه، فدخل العراق، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يومًا مع جماعة منهم فأزْروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

[ولمّا رأيتُ الشرْب أكدتْ سماؤهم ... تأبّطتُ زقّى واحتبست عنائى
فلمّا أتيت الحانَ ناديتُ ربّه ... فثابَ خفيفَ الروحِ نحو ندائى
قليلٍ هجوع العين إلاّ تَعِلّةً ... على وجلٍ منى ومن نظرائى
فقلتُ: أذقْنيها فلمّا أذاقها ... طرحتُ عليه رَيْطتى وردائى
وقلتُ: أعرنى بذلةً أستتر بها ... بذلتُ له فيها طلاق نسائى
فوالله ما برّتْ يمينى ولا وفت ... له غير أنّى ضامنٌ بوفائى
فأبتُ إلى صحبى ولم أكُ آيبا ... فكلٌّ يُفديني وحُقّ فدائى]

فأعجبوا بالشعر، وذهبوا فى مدحهم له، فلما أفرطوا قال لهم: خفِّضوا عليكم، فإنه لى، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التى أوّلها:

تداركتُ فى شرب النبيذ خطائى ... وفارقتُ فيه شيمتى وحيائى

فلما أتمّ القصيدة بالإنشاد خجلوا، وافترقوا عنه»[٢٢].

وكان المتنبى على شاكلة أبى نواس يعجب ببعض الشعراء الأندلسيين، وقد التقى فى مسجد عمرو بن العاص بمصر مع أبى الوليد بن عيال[٢٣]، منصرفا من الحج، ففاوضه قليلا ثم قال له: أنشدنى لمليح الأندلس، فأدرك ابن عيال أىّ شاعر أندلسى يريد المتنبى، فأنشده مقطوعة من أربعة أبيات لابن عبد ربه:

[يا لؤلؤًا يَسْبِى العقولَ أنيقًا ... ورشًا بتعذيب القلوب رفيقًا
ما إن رأيتُ ولاسمعتُ بمثلهِ ... درًّا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجههِ ... أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رِقّةٍ ... ما بال قلبك لايكون رقيقا]

فلما كمل إنشادها استعادها، ثم صفّق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبوا»[٢٤].

---

(٢٢) نفح ٢/٢٦٠ - ٢٦١، ودبجا فى مقدمة الطبعة الأوربية ٥٤، والمطرب ١٤٨.

(٢٣) اعتمد المؤلف رواية المطمح ص ٢٧٣، فذكر أنه أبو الوليد بن عباد، ولكن الرواية فى نفح الطيب ٣/٥٦٤ «ابن عيال»، وهى التى أخذنا بها، وفى طبعة الشيخ محمد محيى الدين «ابن عتال». (المترجم)

(٢٤) من الكامل، نفح ٣/٥٦٤.

وكلمة «حبوا» تكررت فى الحديث النبوى سبع مرات. انظر: ابن خلدون، المقدمة ٢/١٥٤، وترجمتها ٢/١٧٦، وعن هذه القصة انظر المطمح ٢٧٣، وعنه نقلها نفح ٣/٥٦٤، وأحمد ضيف، بلاغة العرب ٩٠ الهامش، وياقوت، إرشاد الأريب ٢/٧١، والثعالبى، اليتيمة ١/٣٦٤، ولكن المتنبى كان أقل إعجابًا بأبيات قالها الرمادى متوجهًا بها إلى أبى على القالى، نفح ٣/٧١.

إجمالاً كان المشارقة يحتفظون للمعاربة بكثير من الاحتقار والاستخفاف أكثر مما يحملون لهم من الإعجاب أوالتقدير. ترى أكانوا يحسون بشيء ما، غريب وغير عربي، في شعر هؤلاء الدس القريبين جدا من العجم، والمختلطين كثيرا بالمسيحيين؟ ألم يندهش شيشيرون كذلك في كتابه «دفاعا عن أرشيا Pro Archia» من رؤية مواطنيه قساة جدا مع هذا اليوناني، وعلى النقيض شديدى الترحيب بشعراء قرطبة، رغم أن أشعارهم كانت تنوه بكل غريب؟[٢٥].

وكانت تسيطر على المشارقة، دون أدنى شك، فكرة أن النور لايمكن أن يصدر إلاّ عن المشرق، ومع ذلك أشاد المتنبى بفضائل شخصيات وُلدتْ بعيدا عنه، يقول:

كبُــرتُ حــول ديــارهم لمـاّ بــدتْ منها الشموسُ وليس فيها لمشرقُ[٢٦]

ولكن هناك أوهاما ومزاعم من الصعب اقتلاعها، وبخاصة في مجال الأدب، ويجب ن نعترف فيما يتصل بالمغرب أن الإسبان مسئولون إلى حد كبير عن الاحتقار الذى كان يوجه إليهم. يقول ابن عبدون في رسالة توجه بها إلى ابن أبى الخصال[٢٧]:

«وما أنا وفلان، وهل هو إلاّ من الغرب، وإن كان بزعمه في الصميم من العُرْب، ومل الغرب في الأقطار، إلاّ كاللحق بين الأسطار؟»[٢٨] هل هذا تواضع من الكاتب أم إحساس حقيقى بقلة قيمته؟ إنّ الذى تلقّى هذه الرسالة يعرف جيدا أن ابن عبدون يتحدث على هذا النحو تواضعًا جميلا منه.

وعندما يقول عبد الواحد المراكشى إن الناس أُعجبوا كثيرا بابن هانى حتى أنهم شبهوه بالمتنبى، وهيهات[٢٩]، فإنّما يستجيب لفكرة مسبقة أكثر مما يقرر نتيجة لها مقدماتها. ونجد المظفر بن الأفطس صاحب بطلَيوْس «ينكر الشعر على قائله في زمانه، ويُفَيِّل رأى من ارتسم في ديوانه، ويقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت، ولا يرضى بدون ذلك»[٣٠].

● ● ●

بدأت الثقافة الأدبية في إسبانيا بالشعر المشرقى، على نحو مارأينا، وفرض نفسه نهرا على كل العقول، حتى أن الأندلسيين عندما يريدون وصف أديب أو شخص مثقف يبحثون فورا في ذو اكرهم عن المشرقى الذى يمكن أن يقرن إليه، فهم يشبهون المعتضد بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس[٣١]، والمعتمد بالواثق بالله، لذكائه الحاد، واتساع معارفه الأدبية[٣٢]، ولشاعر مروان الطليق، وينحدر من سلالة عبد الرحمن الناصر «في بنى أمية كابن المعتز في بنى العباس، ملاحة شعر

---

(٢٥) شيشرون، دفاعًا عن أرشيا ص ٢٦.

(٢٦) من الكامل، ديوان المتنبى، طبعة البرقوقى ٤٨٠/١، ونفح ٢٢٢/٣.

(٢٧) سها المؤلف، وأخال الأمر جاء عفوًا فجعل الرسالة موجهة من ابن أبى الخصال إلى ابن عبدون، فأصلحناها. (المترجم)

(٢٨) المعجب ١٦٩، وترجمته ١٤٥.

(٢٩) المعجب ١١٦، وترجمته ٩٤.

(٣٠) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٨٣ - ١٨٤، وانظر فيما سبق ص ٣٥، الهامش رقم ١٣ من هذا الكتاب.

(٣١) المعجب ٩٧، وترجمته ٨٢.

(٣٢) المعجب ١٠١، وترجمته ٨٦.

وحسن تشبيه»، [٣٣]. ويزهو الرمادى بأنه يركب فى الصباح جوادا جمع كل الصفات الحسنة التى جمعها شعراء المشرق: زيد الخيل، والغَنوى، والمربى، والملك الضليل، أى امرؤ القيس[٣٤]، مما يوحى بأن كل القراء يعرفون دواوين هؤلاء الشعراء المشارقة، ويذكر عبد الواحد المراكشى عن ابن زيدون أنه «كان إذا نسب أنساك كُثَيِّر عزة، وإذا مدح أزرى بزهير، وإذا فخر أناف على امرئْ القيس»[٣٥]. وابن بسام، وطالما أطرى مواطنيه فى كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» يثنى عليه أبو بكر ابن عبادة القزاز الوشّاح الشهير بهذه الأبيات من الشعر

يـــا مثيفًـا عـــلى السماكـيْن سـامِ ... حُـزْتَ خَصْـلَ السبـاق عن بـعـد
إنْ تَحُـكْ مِـدْحـةً فـأنت زُهـيرٌ ... أو تُـشَـبِّـبْ فـعُـروةُ بـنُ حـزام
أو تُبـاكِرْ صيدَ المهـا فـابن حُجْـر ... أو تُـمَـكْ الـديـار فـابن حـذام
أو تـذمَّ الـزمـانَ وهــو حـقـيـقٌ ... فـأبـو الـطيب البعيـدُ المـرامى[٣٦]

كما شبهوا ابن السقّاط بأبى تمام، وأبا عبد الله اللوشى بالبحترى[٣٧]، وعندهم أن ابن قزمان بين الزجّالين بمنزلة المتنبى بين الشعراء، على حين أن مَدْغَليس مدغليس أبى تمام، «بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ»[٣٨] وابن حزم فى رسالته عن «فضل أهل الأندلس» يرى أن ابن درّاج القَسْطلّى لا يتأخر «عن شأو بشار بن برد، وحبيب، والمتنبى»[٣٩] وابن طاهر المرسى، أبو عبد الرحمن، «يماثل الصاحب إسماعيل بن عبّاد وأمثاله فى الكَتْب عن نفسه»[٤٠]. وكان الخليفة المهدى يشبه الشاعرة الأندلسية مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى، بالخنساء، ويفضلها على الشاعرة المشرقية فيما يقال[٤١]. ويمكن أن نأتى بالكثير من الأمثلة ولكنى أرى الكفاية فيما ذكرنا.

ويتجلى إعجاب الأندلسيين بالمشارقة فى أنهم يحبون أن ينادوا مواطنيهم من الأدباء بأسماء لشعراء أو لغويين من المشرق، فالأصمعى يقصدون به فى إسبانيا محمد بن سعيد الزجالى، وهو من أصل بربرى[٤٢]، وخنساء المغرب حمدة، أو حمدونة، بنت زياد المؤدب من وادى آش[٤٣] وثمة شاعر من بطليوس لم يكن يُعرف بغير الكميت،[٤٤] وابن زيدون بحترى المغرب[٤٥]، وابن خفاجة يدعى

(٣٣) الحلة السيراء، نقلا عن ابن حزم، ٢٢١/١، ونفح ٥٨٦/٣.
(٣٤) المطمح ٣١٣.
(٣٥) المعجب ١٠٥، وترجمته ٩٠.
(٣٦) من الخفيف، نفح ٤٩٢/٣.
(٣٧) القلائد ٢٢٢.
(٣٨) نفح ٣٨٥/٣، وأنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب الأندلسى ١١٠.
(٣٩) نفح ١٧٨/٣، والثعالبى، فى يتيمة الدهر ٤٣٨/١، يقول: «ابن دراج بالصقع الأندلسى كالمتنبى بصقع الشام» نفح ١٩٥/٣، وابن خلكان فى الوفيات يطلق اسم المتنبى على ابن هانى والرمادى وابن دراج.
(٤٠) الحلة السيراء ١١٨/٢.
(٤١) نفح ٢٩١/٣.
(٤٢) نفح ٥٣٩/٣.
(٤٣) نفح ٢٨٧/٤.
(٤٤) نفح ٤٥٣/٣.
(٤٥) الصفدى، الوافى، فى نفح الطيب ٥٦٦/٣.

صنوبرى الأندلس[٤٦]، وأبو عبد الله الرصافى ينادي بابن الرومى[٤٧]، وكان ابن سعد المغربى يطلق على أبى بكر المخزومى لقب امعرى الثانى[٤٨] وأما الذين أطلق عليهم لقب المتنبى فكانوا كثيرين على نحو مارأينا.

وانتقلت المقارنات من دنيا الرجال إلى عالم المدن والأقاليم، يقول الحجارى فى «المسهب»: «الأندلس عراق المغرب عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالا بفنون العلوم، وافتنانًا فى المنظوم والمنثور»[٤٩]، كان العراق، مع بغداد، يمثل فى نظر الأندلسيين، المكان المثالى حيث العبقرية والموهبة معترفا بها من الجميع، ولها قدسية لا يمكن إنكارها. وهو لون من «البرناسية» مارس جاذبية طاغية على عقول المغاربة، ويراها الشعراء وكبار الرجال «عدنا» أخرى على الأرض، فبغداد والعراق وسورية موطن كبار الشعراء المجدّدين أمثال: بشار بن برد، وأبى نواس، وأبى تمام، والبحترى، وابن الرومى، وابن المعتز، والعباس بن الأحنف، والمتنبى نفسه، والشريف الرضى، ومهيار الديلمى والمعرى أيضًا.

يقول الحاجب المظفَّر، ابن المنصور وخليفته من بعده، «ما أحسن الذكر الجميل فى بطون الأوراق، والمحاسن تنشأ بالأندلس، ثم تطير إلى الشام والعراق!»[٥١]، فالقائد يدير عينيه نحو الحمدانيين فى حلب، والشاعر يحب أن تبلغ شهرته العراق. وأنشد أبو عبيد الله البكرى من قرطبة، يخاطب ابن السقاوزير● أبى الوليد جَهْور، وقد خرج رسولا إلى باديس بن حبوس فى غرناطة:

كذا فى بروج السعد ينتقلُ البدرُ	وتحسن حيث احتلَّ آثره القطرُ
وتقتسمُ الأرضُ الحظوظ: فبقعةٌ	لها وافر منها، وأخرى لها نَزْرُ
لَذَلَّ مكانٌ غابَ عنه مُمَلَّكٌ	وَعَزَّ مكانٌ حلّه ذلك البدر
فلو نقلتْ أرضٌ خطاها لأقبلتْ	تهنيه بغدادٌ بقربك أو مصر[٥٢]

ويقول ابن درّاج القسطلى فى قصيدة يمدح بها خيران الصقلبى صاحب المرية، عام ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م:

فإنْ غرَبتْ أرضُ المغارب موطنى	وأنكرنى فيها خليط وخِلَّانُ
فكم رحّبتْ أرض العراق بمقدمى	وأجزلت البشرى علىّ خراسان[٥٣]

(٤٦) نفح ٣/ ٤٤٨.
(٤٧) نفح ٣/٤٨٦.
(٤٨) نفح ١/١١٩١.
(٤٩) نفح ٣/١٥٥.
(٥٠) فيما يتصل بهذا الموضوع يمكن العودة إلى: غرسيه غومث، بغداد وملوك الطوائف، فى مجلة «الغرب»، العدد ١٢٧، يناير ١٩٣٤، ص ١ - ٢٢.
(٥١) أعمال الأعلام ٨٧.
(٥٢) الحلة ٢/١٨٦، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٩٦.
● فى الأصل الفرنسى ابن السقاط، وهو خطأ (المترجم).
(٥٣) من الطويل، أعمال الأعلام ٨٧.

وهذا الشعر واضح الدلالة. نعم كان الشعراء يطمحون فى الذهاب إلى العراق لأنهم يعانون من خيبة الأمل فى إسبانيا، فهل مردّ هذا أن الأضطرابات السياسية وحدها فى مطلع القرن الحادى عشر، حالت بينهم وبين أن يظهروا مزاياهم، وأن يتمتعوا بحريتهم كاملة فى إرضاء كبريائهم؟ نحن نميل إلى الاعتقاد بأن خيانة الأصدقاء، وتشهير الزملاء، أحرى بأن يكون سبب ضيق الكتاب النهمين إلى المديح، فوجدوا أنفسهم مكرهين على أن يرتدوا بأبصارهم نحو فردوس برئ من الحسد، وحيث الشعراء فى قامة الملوك.

ويؤكد لنا ابن حزم نفسه قلق إسبانيا المثقفة، فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، فالعراق فيما يرى «دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها»[٥٤]، ولكن ابن حزم يعبر عن أفكاره بطريقة أروع، خلال أبيات له، توجه بها إلى عبد الرحمن بن بشير أبي المطرّف، قاضي الجماعة فى قرطبة، وفيها يكشف لنا عن روح استبدت به الأمانى القلقة لا ترضى حتى ولو أتيح لها أن تذهب إلى العراق، وهو مايصبو إليه ويطمح فيه:

أنا الشمسُ فى جوِّ العلوم منيرة	ولكن عيبى أنَّ مطلِعَي الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالعٌ	لجدَّ على ما ضاع من ذِكْرِى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإنْ يُنزل الرحمنُ رَحْلِيَ بينهم	فحينئذ يبدو التأسُّف والكرب
فكم قائل أغفلتهُ وهو حاضرٌ	وأطلبُ ما عنه تجئُ به الكُتب
هنالك يدرى أنّ للبعد قصة	وأنّ كساد العلم آفته القرب[٥٥]
فيا عجبًا من غاب عنهم تشوّفوا	له، ودُنُوُّ المرء من دارهم ذنب
وإنّ مكانًا ضاق عنى لضيِّقٌ	على أنّه فيحٌ مهامهُه سُهْب
وإنّ رجالًا ضيَّعونى لضُيَّعٌ	وإنّ زمانًا لم أنَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ[٥٦]

ولم يسبق أن وصف ابن حزم نفسه أبدا بهذه الدقة كما وصفها فى هذه الأبيات، ونعتقد أنه لم يكن الوحيد الذى اجتاح داخله هذا القلق الروحى العميق.

نعم بعد ابن حزم، فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، قلّت الرغبة فى الرحلة إلى المشرق، أو الإقامة فى بغداد، ورغم ذلك ظل الناس يعتبرون العراق المكان المثالى الذى يشجع الشعراء على الإبداع.

---

(٥٤) ابن حزم، رسالة فضل أهل الأندلس، فى نفح ١٣٧/٣.

(٥٥) يمكن أن تقارن هذا بالمثل الأندلسي: «العالم كالحمّام، يأتيه البعيد، ويزهد فيه القريب»، اليكرى، كتاب الأمثال، نقلا عن الرحلة التيجانية، طبعة مرسيه ٩٧.

(٥٦) من الطويل، نفح ٨١/٢، المعجب ٤٨، وترجمته ٤١، والذخيرة ١٧٣/١، وياقوت، إرشاد الأريب ٩٦/٥. وأسين بلاثيوس، ابن حزم ٢٣٧/١.

● قلت: هذه القصيدة طويلة، جاءت فى أكثر من مئة بيت، كلها فى الفخر، وكانت ضائعة، ليس بين أيدينا منها إلا أبيات شوارد، تتبادلها المصادر المختلفة، ثم عثرنا عليها فى مخطوطة بدار الكتب المصرية، ونشرناها كاملة. انظر: الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣، ص ٤٠٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢. (المترجم).

وسوف نجد مثل شكوى ابن دراج وابن حزم بعد ذلك فى عصر المرابطين، عندما كان الشعراء يجوبون إسبانيا والمغرب طلبًا للهدايا، وتأمينًا للقمة العيش حتى لا يموتوا من الجوع. وقد كتب بن بقى إثر عودته من المغرب ولم يحسنوا استقباله هناك:

أنا امرؤ إنْ نَبَتْ بى أرضُ أندلسٍ   جئتُ العراقَ فقامت لى على قدم[٥٧]

وإذا كان ابن حزم، وهو فى النهاية عالم نفسى وذكى، استطاع أن يطل فى أعماقه، وأن يفهم روحه جيدًا، واعترف بأن العراق سوف يخيّب أمله، مثل إسبانيا، إلا أن بقية الشعراء والأدباء ظلوا على سنتهم فى التطلع إلى المشرق، لأن «كساد العلم آفته القرب» على مايقول ابن حزم، رغم أن الذين ذهبوا منهم إلى هناك عادوا غير سعداء. فالحسد والوقيعة ينتشران فى بغداد، كما هو الحال فى قرطبة، وفى بقية المدن الإسبانية الأخرى، وقد مرّ الغزال بهذه التجربة، وعاناها ابن عيشون أبو عامر كذلك، قريبًا من نهاية القرن الحادى عشر[٥٨].

* * *

كان ابن حزم حكيما عندما فكّر أنه ليست هناك فائدة فى الذهاب بعيدا للبحث عن شىء موجود تحت يده. غير أن الشغف بالمشرق لم يكن عاما كما يُظَن، لأن «الإنسيّة» الإسبانية أدركت أن دراسة الشعر المشرقى وحده ليست كافية لإعطاء معرفة كاملة عن الإنسان، وأن المبالغة فى عبادة المشرق تجعل الناس يجازفون بألّا يروا من الأشياء إلّا جانبا واحدا، ربما الأقل جمالا، وربما كان الحاسم فى تحديد الفكرة غيره. وعمّ الناس شعور قوى أنه إذا كان المغرب يدين للمشرق بالكثير فقد ظهرت هنا على أرضه قيم جديدة، لا نلقاها هناك إلا نادرًا، ويجب على الأديب الذى يهتم بالموازنة بين الكفاءات ألّا يتجاهلها.

ومن الملاحظ حقا أن إسبانيا فى القرن الحادى عشر تمتعت بمفهوم للثقافة واسع جدا، وكان هناك من يرى بأن يلتحق المغرب بالمشرق، ومن ينادى بوقف احتقار الأدب المغربى فى المشرق، والذى انساب، فى جانب منه، عبر برامج التعليم نفسها حتى بلغ إسبانيا، وأن يقرأ الأندلسيون ابن هانى الأندلسى ويدرسوه، كما يقرأون المتنبى ويدرسونه. وكان حسام الدولة بن رزين، صاحب السهلة، يقرأ ديوان ابن هانى، هذا الشاعر الذى حلّق فى سماء الشعر مبكرًا واعتبط شابا[٥٩]. ولم يأنف ابن البين البطليوسى من أن يستلهم ديوان ابن هانى فى بعض قصائده[٦٠]. وكان ابن عمّر، طبقا لعبد الواحد المراكشى «أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هانى الأندلسى»[٦١].

وقد أدى الكبرياء الأندلسى بأهله إلى منافسة المشارقة، ويقص علينا الحميدى: «أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق، وهى:

---

(٥٧) انظر: دراستى عن «الشعر فى فاس فى عصر المرابطين والموحدين»، مجلة هيسبيريس ١٩٣٤، المجلد ١٨ ص ١٤.
(٥٨) نفح ٢/٤٩٤.
(٥٩) نفح ٣/٤٠٧.
(٦٠) نفح ٣/٤٥٣.
(٦١) المعجب ١١١، وترجمته ٩٤.

وماذا عليهم لو أجابوا فسلّموا وقد علموا أنى المشوق المتيَّم
سروا ونجومُ الليلِ زُهْرٌ طوالعٌ على أنّهم بالليل للناسِ أنْجُم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم فنَمَّ عليها فى الظلامِ التبسُّم

فأفرط عض الحاضرين فى استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسى على مثله، وبالحضرة أبو بكر يحيى بن هذيل، فقال بديها:

عرفتُ بعَرْفِ الريحِ أين تيمّموا وأين استقل الظاعنون وخيّموا
خليلىَّ رُدّانى إلى جانب الحمى فلستُ إلى غير الحمى أتيَمَّم
أبيت سميرَ الفرقدين كأنما وسادى قَتادٌ أو ضجيعِىَ أرقم
وأحورَ وسنانِ الجفون كأنّه قضيبٌ من الريحانِ لَدْنٌ منعَّم
نظرتُ إلى أجفانِه وإلى الهوى فأيقنتُ أنّى لستُ منهن أسلم
كما أنّ إبراهيم أوّلَ نظرةٍ رأى فى الدرارى أنه سوف يسقم[٦٢]

ولم يعلق الحميدى، وروى لنا القصة، على ما حدث، ولو أنه تركنا نفهم فى وضوح أنّ أبيات الأندلسى، فى نظره، كانت فى مستوى الشاعر المشرقى المجهول، إن لم تفقها.

حتى القرن الحادى عشر يمكن القول أن ثمة أسبابا مادية، ربّما، أدت إلى عدم تقدير الإسبان لشعرهم ونثرهم، أهمها أن دواوين الشعراء لم تكن قد جمعت بعد، ولم تُؤلّف أية مختارات أدبية أندلسية. وقد حاول ابن فرج الجيانى أن يعوّض هذا النقص فألّف كتاب «الحدائق»، متأثرا بابن داود الأصفهانى و كتابه «الزهرة»، ولكن «الحدائق» ضاع، ولم يصلنا منه إلاّ النصوص التى احتفظت بها كتب التراجم والمختارات المتأخرة، التى نقلت عنه، وهى تسمح لنا بأن نقرر أن كل القطع التى وردت فيه كانت لشعراء أندلسيين[٦٣]. وكان الغرض منه تعريف الإسبانيين بأدبهم، وفيما يبدو لنا محاولة أولى، وجفلة فى الوقت نفسه، جاءت كرد فعل ضد المشرق. وبعد ذلك بأقل من نصف قرن[٦٤] أكمل أديب شاب من قرطبة، هو أبو الوليد الحميرى ابن حبيب، وزير القاضى أبى القاسم بن عبّاد صاحب إشبيلية، حدائق ابن فرج الجيّانى، بعنوان: «البديع فى وصف الربيع»، ولحسن الحظ وصلتنا هذه المختارات كملة[٦٥]، وأغلبها قطع شعرية تصف الربيع والحدائق والأزهار، وكلها لشعراء أو كتاب من

---

(٦٢) من الطويل، نفح ٣/١٥٣.

(٦٣) عن الحدائق لابن فرج الجيانى انظر: ابن بسام، الذخيرة ٢/١٤٢، والضبى، البغية ١٤١، وابن دحية، المطرب ٤، ونفح ١/٦٠٤ و ٢/٥٠١ و ٣/١٧٣ و ١٨٢ و ٤/٤٨ و ٢٨٦، وابن الأبار، الحلة ١/٣٩ وأمكنة أخرى كثيرة و ٢/٣٧٣. وعن كتاب الزهرة انظر: ماسنيون. مجموعة نصوص غير منشورة ص ٣٢ - ٢٤٠، ونيكل، مقدمته لطبعة الجزء الأول من كتاب الزهرة.

(٦٤) يشير نفح الطيب إلى اثنين من كتب المختارات ألفا فى القرن الحادى عشر الميلادى، وهما: «أخبار شعراء الأندلس» لعبادة بن ماء السماء، وكتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لأبى الحسن على بن محمد بن أبى الحسن الكاتب، انظر: نفح ٣/١٧٣.

(٦٥) مخطوطة الإسكوريال رقم ٣٥٣، وقد استخدمنا هذه المخطوطة أساسا عند دراستنا لزهور الأندلس.

● قلت: وقد نشر المؤلف هذه المخطوطة فيما بعد، وصدرت فى سلسلة مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السابع، فى الرباط عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م، وإليها نحيل فى الإشارات المتصلة بالكتاب. (المترجم).

إشبيلية، وأثار اتساع الكتاب يومها إعجاب الناس، فتساءلوا: كم مجلدًا يحتاج إليها الكاتب ليسجل جميع القصائد التي من هذا النوع في إسبانيا كلها.

وكانت مقدمة أبي الوليد الحميرى للكتاب إعلانا حقيقيا بمولد الأدب القومي: «وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقها منها العِلْق النفيس، مع أنى أستغنى عنها، ولا أحوج إليها، بما أذكره لِلأندلسيين من النثر المبتدع، والنظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصرى، إذا لم تغب نوادرهم عن ذكرى... ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم، وتدوين أخبار علمائهم، الفضل علينا، والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها، ويضيفون لحنها إلى لحنها لا قلة مَيْز بها، بل تحرجا عن تركها، ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة، لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت، وأضعاف ما اجتلبت، لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتثقيفهم لأخبارهم، مذ تكلمت العرب بكلامها، وشغلت بنثرها ونظامها، إلى هلمّ جرا. لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات، ما وجدته لأهل بلدى»[٦٦].

وفى نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن الذى تلاه، رأى كاتب آخر ضرورة تكرار المحاولة بالنسبة إلى القرن الحادى عشر كله، لكن القضية وإنْ أصبحت مفهومة لم يربحها الأندلسيون تماما. ولكى ينتصر فيها ابن بسّام نهائيا ألّف كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، ويعتبر بالنسبة لعصر الفتنة وملوك الطوائف وثيقة أدبية وتاريخية قيمة جدا. وفيه لم يقنع ابن بسام بذكر الأخبار ورواية الأشعار لكل من عرض لهم من الكتاب والشعراء، وإنما قدّم لهم، وأضاف إليهم، صفحات مطوّلة عن أحداث عصرهم التاريخية نقلها، أو الجانب الأكبر منها، من كتاب «المبين» لابن حيان، وهو لم يصلنا[٦٧].

وإذا كان ابن بسام لم يقدر أبا الوليد الحميرى، فإن هذا تجاهل أيضا ابن فرج فيما يظهر، ولقد نقل ابن بسام أفكارهما بعد أن أعطاها شكلا أكثر بريقا، لتتمشى مع ذوق العصر الذى يعيش فيه، فمن الأفضل أن يبلغ قلوب وعقول معاصريه بأسلحتهم نفسها: «نَثْرٌ لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه، ونَظْمٌ لو سمعه كُثَيِّر ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جَرْول ما عوى ولا نبح، إلاّ أن أهل هذا الأفق أبَوْا إلاّ متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيّة، ومُناخ الرذيّة،

---

(٦٦) أبو الوليد الحميرى، البديع ص ٢.

(٦٧) عن أهمية كتاب الذخيرة من الوجهة التاريخية انظر: بروفنسال، عن الجديد في مخطوطات الذخيرة لابن بسام، وهو بحث ألقاه في مؤتمر المستشرقين السابع عشر، الذى انعقد في أوكسفورد في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨، ونشر في مجلة هيسبيريس عام ١٩٣٣، المجلد ١٦ ص ١٥٨ - ١٦١.

● قلت: نشر الدكتور إحسان عباس الذخيرة كاملة، في ثمانية مجلدات، وألحق بها فهارس كاملة، وإن شاب النشر كثير من النقص في الضبط، ومتابعة كل النسخ المخطوطة، إلاّ أن العمل في جملته سدّ فراغًا هائلا في مجال الدراسات الأندلسية وقدم لجمهرة الباحثين خدمة مقدرة ومشكورة. وصدر الكتاب عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

وعن الذخيرة وصاحبها انظر الفصل الخاص بها في كتابنا دراسة في مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ (المترجم).

لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يُصرَّف فيها لسان ولا يد. فغاظنى منهم ذلك، وأنفتُ مما هنالك، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى، غَيْرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهِلّة، وتصبح بحاره ثمادًا مضمحلّة، مع كثر أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيّعوا العلم وأهله، ويارُبَّ محسن مات إحسانه قبله. وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟»[٦٨].

ولم يغفل ابن بسام على امتداد كتابه المطول أية فرصة تواتيه ليسجل تفوق الأندلسيين على المشارقة، وفيما يتصل بالعباسيين لم يتردد فى أنْ يُعلن، وهو بصدد الحديث عن بنى عباد، أن إقليم إشبيلية اجتمع فيه ما تباهى به الأقاليم العراقية، ويُنسى بلغاء الدولة الديلمية، «فقلّما رأيت فيه ناثرا غير ماهر، ولا شاعرا غير قاهر، دعوا حرَّ الكلام فلبَّى، وأرادوه فما تأبَّى، وطريقتهم فى الشعر الطريقة المثلى، التى هى طريقة البحترى فى السلاسة والمتانة، والعذوبة والرصانة»[٦٩].

وكان الفتح بن خاقان معاصرا لابن بسّام، وألّف فى الوقت نفسه كتابيه: «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس»، ووقفهما على القرن الحادى عشر والقرون التى سبقته[٧٠].

وفى هذا العصر جمع كبار الشعراء قصائدهم فى دواوين، فصنع ذلك المعتضد والمعتمد، وابن عمار، وابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حمديس، وآخرون. وكان واجبا على هذه الكثرة من الشعراء الممتازين فى القرن الحادى عشر أن تكرس جهدها لتظهر مكانة الشعر الإسبانى الإسلامى فى نطاق الأدب العربى.

وبعد ذلك بقليل سوف يبالغ ابن دحية، المتوفى عام ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م، دون شك، عندما يتحدث عن إحدى قصائد الغزال فيقول: «وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة، أو لبشار بن برد، أو لعباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له. وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا أنْ كان أندلسيا، وإلاّ فماله أُخمل، وما حَقُّ مثله أن يُهمَل»[٧١].

وماذا أيضا عن أبى جعفر أحمد بن طلحة، الوزير الكاتب، الذى أنّب مواطنيه فى عصر الموحدين قائلا: «تقيمون القيامة لحبيب والبحترى والمتنبى، وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه»[٧٢].

ولكن الشاهد على أن الشعر الإسبانى يمثل فى نهاية المطاف جانبا من عالم الأدب العربى يتجلى لنا فيما يرويه الصفدى فى كتابه «الوافى»: «قال بعض الأدباء: من لبس البياض، وتختّم بالعقيق، وقرأ لأبى عمرو، وتفقّه للشافعى، وروى شعر ابن زيدون، فقد استكمل الظَّرف»[٧٣].

---

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة ١٢/١، وبنو عباد ٣٩/٣، ونفح ٥٠٠/٢. تفسير بعض الألفاظ الواردة بالنص: الرذية: الناقة المزيلة المتروكة التى لا تقدر أن تلحق بالركاب، يعنى أن أشعارهم وأخبارهم منبوذة.
الأعلام: البديع الهمذانى وابن هلال من كتاب النثر فى العصر العباسى. وجرول، وهو الحطيئة، وكثير عزة، شاعران من العصر الأموى. وقتادة بن دعامة المتوفى ١١٨ هـ = ٧٣٦ م، كان من حفاظ أهل زمانه، ومن العلماء بالقرآن والفقه فى البصرة.

(٦٩) الذخيرة ١٢/٢، وبنو عباد ٢٠٢/١.

(٧٠) وألف الحجارى، المتوفى ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م كتابه «المسهب فى فضائل المغرب»، نفح ١٨٣/٣.

(٧١) ابن دحية، المطرب ١٤٥، تحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين، القاهرة ١٩٥٤..

(٧٢) نفح ٣٠٧/٣.

(٧٣) نفح ٥٦٦/٣.

○ الفصل الرابع:

شِعْرُ البلاط وشعراؤه

أحبَّ الأندلسيون الشعر مهما كانت طبقتهم ويمكن القول أنهم وُلدوا جميعا ينظمون الشعر، أو على الأقل يفتنون بالجمال الخفى الذى ينساب عبر أبياته المنغومة. ألم يقل ابن بسام فى مقدمة كتابه «الذخيرة» لا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر[1]؟. ويدعِّى مؤرخون وجغرافيون آخرون أنَّ الشعراء العظام كانو يوجدون أيضا فى أبعد الضياع النائية، على نحو ما هم عليه فى أكبر المدن المتميزة، مثل: شلب ووداى آش[2].

●●●

وهذا الازدهار لا يعود فحسب إلى الأمراء والأعيان والقضاة، وبعامة كل هؤلاء الذين أتاحت لهم طبقتهم الاجتماعية، ومركزهم المالى، أن يدرسوا الشعر فى سن الصبا والمراهقة، وإنما يعود أيضا إلى الفنانين الأشد بساطة فى الحياة، وعامة الشعب الأكثر حرمانا من الثقافة الأدبية بمعناها الدقيق.

ونلتقى فى كل مكان بالشعراء الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة، ولأن التعميم كان عاما وشائعا فإن التفسير الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه لأميتهم، أنهم تذوقوا الشعر والعلم فى سنٍ متأخرة، مستمعين إليه فى لحظات فراغهم، بعد أن تجاوزوا السن التى يمكن أن يذهبوا فيها إلى الكتَّاب. وكان الكتَّاب والأدباء يقبلون مغتبطين أن يكون فى صحبتهم أىّ شخص، شريطة أن يُظهر بعض الاستعداد لإلقاء بعض العبارات الأدبية، أو لإرتجال بعض أبيات الشعر، كما هو حال ابن جاخ البطليوسى الأمِّى، «وهو من أعاجيب الدنيا، لا يقرأ ولا يكتب»، وسنتكلم عنه فيما بعد، وكان ذلك أيضا حال ابن لَبَّال الأمِّى، والذى أصبح أستاذ ابن عبدون[3].

ويجب أن نذكر المكفوفين إلى جانب هؤلاء العلماء والشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وما أكثر الأدباء الذين حملوا فى إسبانيا الإسلامية صفة كفيف، أو أعمى، أو ضرير!. ويتحدث الصفدى فى كتابه «نَكْت الهميان فى نُكَت العميان»[4] عن كثير من الأندلسيين الذين تميزوا فى الأدب أو العلوم الإسلامية، رغم أنهم حرموا نعمة البصر منذ ولادتهم، أو خلال حياتهم. ويكفينا أن نذكر هنا، بالنسبة للقرن الحادى عشر، عالم اللغة ابن سيده المرسى، والأعمى التطيلى الشاعر.

---

(١) الذخيرة ٣٣/١، ونفح ١٥٤/٣.

(٢) انظر فيما سيأتى ص ١٣١ – ١٣٤ من هذا الكتاب.

(٣) ابن دحية، المطرب ١٨١.

(٤) الصفدى، نكت الهميان، طبعة القاهرة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١م، وانظر ترجمة أحمد زكى باشا له إلى اللغة الفرنسية، القاهرة ١٩١١م.

أما الفنانون المثقفون فكانوا كثيرين أيضا، وكان ابن عمّار، وهو من أسرة متواضعة للغاية، يعرف مدى الفائدة الكبرى التى يمكن أن تعود على المرء من مخالطة عامة الشعب، وبخاصة أولئك الذين يكدّون من أجل لقمة العيش، وكثيرا ما كان يرحل، قبل أن يرتبط بالمعتمد، طلبا لما يصدر عن أرباب المهن من نتاج أدبى، ولم يكن هؤلاء يأنفون، وجهدهم موزع بين عملين، أن ينظموا الأبيات فى موضوعات مألوفة لهم. ولقد أدرك ابن عمار واعيا ما يمكن أن يكسبه من صور جديدة، ومن تشبيهات دقيقة، يلتقطها من الواقع فى ألفاظ عذبة صحيحة، حين يتردد على هذه المهابط، وإليه يعود الفضل فى اكتشاف ابن جامع، وكان صبّاغًا فى بطليوس، ويحيى، وكان جزّارا فى سرقسطة[٥]، وأبى تمام غالب بن رباح، وكان حَجّاما فى قلعة رباح، واشتهر بأبياته الواقعية المنفرّة أحيانا، كأن يصف القروح المغطاة بالذباب، أو الأحشاء تلتهمها الطيور الجارحة[٦]. ويتحدث المراكشى عن أبى بكر الدانى، الشهير بابن اللبّانة، فيقول: «ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شاعرين، إلاّ أنّ عبد العزيز منهم لم يرض الشعر صناعة، ولا اتخذه مكسبا، وإنما كان من جملة التجار»[٧].

ولكن إضافة الفلاحين إلى الحياة الأدبية هى الأكثر أهمية، دون شك، فالحياة فى الحقول ليست دائما عملاً متصلا، إنها أيضا تدع للأحلام مكانا. ويمكن القول إن أعمق الشعر ذاتية هو ما تفجر من رجال ونساء التصقوا بالأرض والطبيعة عن قرب، وهم يصوّرونها لنا فى دقة وتنعكس المشاهد فى أبياتهم، خشنة أو رقيقة، وهؤلاء الشعراء هم الذين انغمسوا فيما بعد فى حياة المدن المرفهة، وعبّروا عن أقوى الأفكار، فى أحلى الصور نضارة وأزهاها لونا. وهم الذين أضفوا على الشعر الأندلسى هذه الظلال الريفية، أو لرعوية إن شئت، ويضارع أروع ما كان يكتب فى اليونان أو روما من أدب صادق، فى نطاق هذا الجنس الأدبى من اللون الزراعى، سواء عكس رقة أشعار أنا كريونت[٨] أم لا. ولقد أحسّ ابن عمار بعبقريته تتفتح فيما حول شلب من حقول، ومثله ابن شرف فى قرية بِرْجة أمّا ابن مُقانا، وهو من قرية القبذاق، بالقرب من شنترة، فقد اجتاحه الحنين إلى قريته فى أخريات حياته، فعاد إلى حقوله وزراعته[٩].

وكانت لطبقات العليا تتذوق الشعر بقوة وفى عمق، ووجد مروان الطليق، ذلك الأموى الإسبانى، مملكته الحقيقية فى الشعر، شأن ابن المعتز بين بنى العباس فى المسرق، ولم يبعد عن الحقيقة حين يقول فى قصيدة طويلة له، ذاعت شهرتها:

شَــرّفى نـفــسى وحَـلْيــى أدبى   وحُســامى مِقْـولى عنــد اللّقــا

---

(٥) ابن ظافر، بدائع البدائه ٧٤ – ٧٥، عنه نقله نفح ٦٠٨/٣. ولقد ترك يحيى الشعر وعاد جزارا فأرسل إليه ابن هود الحاجب أبا الفضل بن حسداى ليوبخه على ذلك، فرد عليه يحيى ببيت من الشعر:

تــركــت الـشــعــر مــن عــدم الإصـابــهْ   ومـلـت إلى الـتـجـارة والـقـصـابـه

وسنعرض له فيما بعد عند حديثنا عن المهن التى وصفها الشعراء. وانظر: نفح ١٥٢/٤.

(٦) نفح ٤١٥/٣.

(٧) المعجب ١٤٩، وترجمته ١٢٦.

(٨) أنا كريونت، ٥٦٠ – ٤٧٨ ق.م، شاعر يونانى غنائى شهير، تغنى بالمباهج الحسّية، وتميز باللطف والرقة، واشتقت منه صفة تطلق على الشعر الذى يحتذى نهجه (المترجم).

(٩) انظر فيما بعد ص ١٨١ – ١٨٢ من هذا الكتاب.

أنا فخر العبشميين وبى جَدٌّ من فخرهم ما أحققا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بحلى رونق شعرى رونقا[١٠]

وكان المظفَّر ابن المنصور بن أبي عامر يعجب كثيرا بالأبيات التى تصف الزهور، ويقترح على شعرائه فى بعض أوقات الربيع من دولته قطعا نوّارية، عن الحدائق والبرارى، ويحب أن تغنيها قيانه[١١].

ولم تشغل الحرب أو السياسة الأندلسيين عن اهتماماتهم المفضلة، فالخليفة الأموى المستظهر يتباحث، رغم أحداث الفتنة ومعارك البربر التى لا تنتهى، «فى الآداب، ونظم الشعر، والتمسك بتلك الأهداب» مع أبى عامر ابن شهيد، وأبى محمد ابن حزم، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم[١٢].

وكان المعتضد قاسيا وطموحا، وينظم الأبيات من الشعر يصف فيها نفسه، فكان أصدق من أى مؤلف أو مؤرخ أو كاتب آخر تحدث عنه، وتكشف لنا من حين لآخر عن نزوع إلى التعبير عن عواطفه بطريقة يغار منها أرق الشعراء العذريين، لأنه درس قبل أن يتولى الحكم بعد والده القاضى أبى القاسم دواوين الشعر المشرقى، على نحو ما يستطيع أن يفعله الأمراء الموهوبون. وكما لحظ ابن بسّام تأثّر من الشعر بما فيه الكفاية، إلى جانب ما يتمتع به من مواهب عقلية، ليصبح قادرا على نظم أبيات رائقة، دون أن يتعمق فى الأشياء[١٣]. وكانت قصائده الشعرية كثيرة حتى أن ابن أخيه إسماعيل استطاع أن يجمع منها ديوانا[١٤]. وله ألّف العالم النحوى واللغوى الشهير الأعلم الشنتمرى شروحه على المختارات الشعرية الكبرى، وهى: ديوان الشعراء الستة الجاهليين، وحماسة أبى تمام، وكلاهما قاعدة الدراسات الأدبية[١٥].

أما ابنه المعتمد فكان يمثل شخصية الشاعر الأندلسى النموذجى، وحاول خلال حكمه الطويل أن يجعل من إشبيلية مهوى الأفئدة، وأشد البلاد، إن لم تكن وحدها، جذبا للأدباء فى شبه الجزيرة، ونزعت عاصمة بنى عباد إلى أن تضيف التفوق الثقافى إلى ما تتمتع به من نفوذ سياسى. ويقرر المؤرخون العرب – وبحق! – مستخدمين صورة مؤثرة لوصف عصر المعتمد: «وكان له فى الأدب باع وساع، ينظم وينثر، وفى أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه، وتهافتوا عليه. وشعره مدوّن موجود بأيدى الناس، ولم يك فى ملوك الأندلس قبله أشعر منه، ولا أوسع مادة»[١٦].

---

(١٠) من الرمل، الحلة ١/٢٢٤.

● قلت: الدراسة الجيدة، وربما كانت الوحيدة، لهذا الشاعر الرقيق، قام بها المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث، ويجدها القارئ فى كتابه الذى ترجمناه إلى اللغة العربية بعنوان: «شعراء الأندلس والمتنبى» الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ (المترجم).

(١١) البيان المغرب ٣/١٨، ولم يترجمه دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣.

(١٢) نفح ١/٤٨٩.

(١٣) الذخيرة ٢/٢٨، وعنها فى «بنو عباد» ١/٢٤٥، وترجمته ص ٢٦٧.

(١٤) الذخيرة ٢/٢٩، وعنها فى «بنو عباد» ١/٢٤٥، وترجمتها ص ٢٦٨، والحلة ٢/٤٣، والبيان المغرب ٣/٢٨٤. وقد جمع كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة قصائد المعتضد أخيرا، فى آخر ديوان ابن زيدون، القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢م، ص ٣٧٠ – ٣٧٦.

(١٥) البيان المغرب ٣/٢٨٤، نقلا عن ابن القطان، وانظر فيما سبق ص ٣٤ من هذا الكتاب.

(١٦) الحلة ٢/٥٥، وفى «بنو عباد» ٢/٦٣.

وكان بلاط المرية، عدا بعض الفترات النادرة، مكانا محبَّبا إلى شعراء شبه الجزيرة، يترددون عليه، ويجئ فى مرتبة تالية لإشبيلية بنى عبّاد. ومع أن الشعراء الذين كانوا فى رعاية المعتصم درجوا على أن يغار بعضهم من بعض، إلاّ أن الأمير أصم أذنيه دون الغيبة والنميمة والوشاية، وظل يستقبل الجميع بنفس طيبة، وعرف كيف يعفو عن الإهانات عندما يعتذر عنها أصحابها بأبيات جميلة من الشعر[١٧]. وكان أولاده وبناته من حوله يظهرون الحلم والوداعة نفسها، ويتذوقون القضايا الفكرية إقبالاً وإبداعًا[١٨].

أمّا ملوك الطوائف الآخرون فكان شغفهم بالشعر أكثر من تذوقهم الحقيقى له، وقد أخمد قول المظفّر صاحب بطليوس إنه لا يرضى بشعراء دون المتنبى والمعرّى مكانة[١٩] همةَ أدباء بلاطه بخاصة وقلّل من رغبة هؤلاء الذين يريدون التقرّب والذهاب إليه بعامة، وقد استطاع بعضهم الوصول دون شك، ولكنهم دفعوا الثمن ملقًا خسيسًا! ومن بين هؤلاء هذا الذى يُدعى أبا الوليد بن ضابط النحوى، وترك مالقة إلى بطليوس بحثا عن الثراء. أليس هو القائل:

نظمنا لـك الشعرَ البـديعَ لأنّنـا ... علمنـا بأنّ الشعـر عنـدك ينفق
فـإن كنتَ منى بامتـداح مظفّـرا ... فإنّى فى قصدى إليـك موفق[٢٠]

ولكن ابن جاخ الصبّاغ، وهو أصلا من بطليوس نفسها، أعطانا فى قصيدته التى مدح بها المعتضد إيقاعا آخر مختلف النغم:

إنّ القـريضَ لكاسـدٌ فى أرضنا ... ولـه هنـا سـوقٌ بغـير كسـادِ
فجلبتُ من شعرى إليك قوافيًا ... يفنى الزمان وذكـرُها متمـادى[٢١]

وعاش الشعراء فى غرناطة فى رعب أكيد متصل فيما يبدو، على الأقل تحت حكم باديس بن حبوس، وحين كان يستقبل بعض الأدباء فى حفاوة، مثل غانم المخزومى[٢٢] فلأنه يعتبرهم دون شك فقهاء أولا، أكثر منهم لغويين أو شعراء، وكان يلاحق كل أولئك الذين يحاولون أن يحتفظوا بأى لونٍ من الاستقلال الفكرى. ولقد شجع غانم المخزومى أحد أبناء إخوانه على أن يترك دولة باديس قائلاً له: «رئيس غرناطة غير مأمون على الدماء، فكن أنت بالمرية، فإنْ قتلنى بقيت أنت، وأنت فى أوّل فتوتك، فأعطانى من كتبه جملة، وأقمت بها»[٢٣].

---

(١٧) انظر ما روى عن ذلك فى: نفح ٥٠٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٨٨، و ط ٣ ج ١ ص ٢٤٦.

(١٨) عفا رفيع الدولة بن المعتصم عن الشاعر الأخفش فى شعر مدح به ابن النغرلة اليهودى وزير أمير غرناطة. نفح ٣٨٧/٣. وعن ذكاء ابناء المعتصم فى قول الشعر انظر: الذخيرة ٧٢٩/١ وما بعدها، والحلة السيراء ٧٨/٢. وصفحات ١١٠ – ١١٢ و ١٢٠ – ١٢١ و ١٢٤ – ١٣٧ من أبحاث الطبعة الأولى، وص ٢٦٣ – ٢٦٥ و ٢٧٠ – ٢٧١ و ٢٧٣ – ٢٧٤ من أبحاث ط٣ جـ ١، ونفح ٣٦٦/٣ – ٣٦٨، وص ٣٨١ من هذا الكتاب.

(١٩) انظر فيما سبق ص ٥٠، الهامش رقم ٣٠ من هذا الكتاب.

(٢٠) من الطويل، نفح ٣٩٨/٣.

(٢١) من الكامل، نفح ٢٤٥/٤، وعنه فى «بنو عباد» ٢٣٠/٢، وص ٧٣ – ٧٤ من هذا الكتاب.

(٢٢) نفح ٢٦٥/٣.

(٢٣) السيوطى، بغية الوعاة ١١٧/١، ترجمة رقم ١٩٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م، ودوزى، أبحاث ط١ ص ٩٣ – ٩٤، وط٣ جـ ١ جـ ٢٦٩، وملحق ص ٥٢ – ٥٣.

ولكن خلفاء باديس، وكانو أندلسيين حقًا، أحاطوا أنفسهم بالشعراء والمفكرين، وأظهروا بعض الشغف بالفنون المختلفة، وإذا لم يكن أمراء البربر الآخرين قادرين على أن ينظموا الأبيات من الشعر، فعلى الأقل كانوا يظهرون سعادتهم الغامرة بالاستماع إليه. «وكان الناصر على بن حمود، على عجمته وبعده عن الفضائل يصغى إلى الأمداح ويثيب عليها» وحتى يشجع عليها من حوله[٢٤]. وثمة حكاية تظهر لنا قوة تأثير الشعر حتى على أشد القلوب قساوة، فقد كان الوزير الصهاجى سماجة، وعمل فى شيخوخته مربيًا لأمراء غرناطة، «حازما شديد السطوة، مرهوب العقاب. جوادا شجاعًا فاضلًا، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد فى منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتل غريمة، لم يحل عقدها، ولا نسخ حكمها، فبينما طائفة من أبناء الأعيان، وصدور الطلبة أولى الوجوه الحسان، على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبة، إذ أظلهم سماجة فجأة، فسقطَ فى أيديهم، وأيقنوا الهلكة، فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم، فأنشده:

بينما نحن بالمصلىّ نُسَقَّى وجناح العشىّ فيه جنوحُ
إذ أتانا سمجة يتلالا رُدَّ فى الشرق من تَجلِّيه نوح
فطفقنا نقول بعض لبعضٍ أغبوقٌ شرابُنا أم صَبوح

قال: فخجل سماجة، وأنس الصبىّ، ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه، إغضاء وتغافلًا[٢٥].

ترى هل كانوا يتذوقون الشعر كذلك، على هذا النحو الواضح، فى بقية الممالك الإسلامية الأخرى فى شبه جزيرة إيبيريا؟ ثمة شواهد تدعونا إلى تصديق ذلك. وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة عرفوا باهتماماتهم الخاصة بالفلك والريضيات، فقد شهروا أيضًا بحماية الأدباء والشعراء من بينهم بخاصة[٢٦].

أليس مدهشًا أن ينتشر الشعر على هذا النحو فى إسبانيا القرن الحادى عشر؟. من النادر أن تجد لهذا الواقع شبيهًا فى المشرق منذ أن أشرقت شمس الإسلام، ولا شىء منه فى الغرب الإسلامى فى القرون التى سبقت عصر ملوك الطوائف. ففى المشرق ظهر الشعر نتاجا أرستقراطيًا، أمّا فى إسبانيا القرن الحادى عشر فأخذ فى الحقيقة خطًا قوميًا كامل الوضوح، لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت مهيّأة على نحو رائع، والعصور الوسطى المسيحية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يمكن أن تقدم أيضًا مثلًا متشابهًا ومنهلًا فى شخص شعراء التروبادور.

كان الشعر بالنسبة للعامل وانفلاح أنشودة الجمام التى تنسيه مشقة التعب، ولكاتب والوزير انفلاتة من عبودية المهام والهم، وبالنسبة للشعراء المحترفين وسيلة لكسب لقمة العيش، ورغم ذلك

---

(٢٤) نفح ١/٤٨٣.

(٢٥) أعمال الأعلام ٢٣٤، وهذه القصة تشبه حكاية قديمة جدا تقول إن عامل الحجاج بن يوسف فاجأ ليلا ثلاثة شبان وعفاعنهم لارتجالهم أبياتا من الشعر، انظر: النواجى، حلبة الكميت ٤٦، ومشيل، المؤلفون العرب ١٦٥ – ١٦٦. وتذكر أن المستعين بالله، الخليفة الأموى خلال أيام الفتنة عفا عن أحد عمّاله لأنه تقدم إليه باعتذاره شعرا، الحلة ٢/١١.

(٢٦) ألف المؤتمن أمير سرقسطة كتابين فى العلوم الرياضية، وهما: كتاب المناظر وكتاب الاستكمال. انظر: نفح ١/٤٤١، وابن خلدون، العبر ٤/١٦٢، والقلقشندى، صبح الأعشى ٥/٢٥٥.

فإن ظاهرة البيع والشراء لم تأت على كل الاهتمامات الفنية، وكان بالنسبة للجميع موضع فخر ومباهاة، ومجالاً متسعًا لايحط من قدر أمير يقتحم عالمه، بل على النقيض، يعلى من شأنه ومقامه.

والأندلسيون يحبون الشعر لذاته، ولأنه كلام موزون مقفى، ينساب من الشفاه ألحانًا وأنغامًا، ولأنه كلام مجنح، وموسيقا قبل أن يكون خطبا، والناس يتغنون به أكثر مما يلقونه كلامًا مرسلاً[٢٧].

●●●

أحب الأندلسيون الشعر فى صدق وحرارة بلغت ببعضهم حد العشق، ويقول عجوز: «شيئان يقهرانى، ولا أملك نفسى عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع»[٢٨].

ومن حكاياتهم «أن القاضى أبا عبد الله محمد بن عيسى، من بنى يحيى بن يحيى، خرج إلى حضور جنازة، وكان لرجل من إخوته منزل بقرب مقبرة قريش، فعزم عليه فى الميل إليه، فنزل وأحضر له طعامًا، وغنّت جارية:

طابت بطيب لِثاتك الأقداحُ ... وزهتْ بحمرة وجهك التفّاحُ
وإذا الربيع تنسّمتْ أرواحه ... نمّتْ بعَرْف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادسُ ألبست ظَلْماءها ... فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى طربا على باطن كفه، قال الراوى: فلقد رأيته يكبرُ على الجنازة والأبيات على ظهر يده»[٢٩].

وترجمة الأبيات، على مافى الترجمة من خيانة، تعكس حقيقة الانفعال بالشعر، والتى نجدها عند كل الأندلسيين، وجاءت وليدة إحساس عميق بالطبيعة، يشوبه لون من عبادة مثالية للمرأة.

لقد استعار شعراء الأندلس من الطبيعة بخاصة أجمل مافيها من خطوط، لكى ينسجوا منها صورهم الشعرية.

فلنصغ إلى المعتمد فى بيتين يختم بهما قصيدته التى نظمها «يَستعطف بها أباه المعتضد، لما فرّط منه فى أمر مالقة، وخذله أصحابه فأخرج منها»:

إليكَ روضة فكرٍ جادَ منبتَها ... ندي يمينك لا طلٌّ ولا مطرُ
جعلتُ ذكرك فى أرجائها زَهَرًا ... فكلُّ أوقاتها للمجتنى ثمرُ[٣٠]

التكلّف بَيّن، ولكنّنا لا نستطيع غير الاعتراف بما فى البيتين من نضارة ريفية.

---

(٢٧) كثيرون من الشعراء كانوا فى الوقت نفسه ناثرين وموسيقيين، أمثال: أبى عبد الله بن الحداد من المرية، وابن باجة من سرقسطة، والراضى بن المعتمد بن عباد.

(٢٨) نفح ٤٠٣/٣. وعن معنى «الوجه الحسن» انظر، ماسينيون، الحلاج، ص ١٧٨ هامش ٣ و ٧٩٦ هامش ٧، وص ٣٦٧ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الكامل، نفح ٥٦٤/٣.

(٣٠) من البسيط، ديوان المعتمد ص ٤٠. جمعه وحققه أحمد أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥١. وخريدة القصر وعنها فى «بنو عباد» ٣٩٤/١. وأخذنا برواية الديوان. وهذه الأبيات قلّدفيها، دون أدنى شك، شاعرًا مشرقيا. انظر: دوزى، معجم الملابس ١٣٣.

وأبو العلاء بن صهيب يمدح صديقه أبا أمية يقول:

وعندى حديثٌ من علاك علقتُه يسيرُ كما سار النسيمُ على الزهرِ
فيبلغ أقصى الأرض وهى عريضةٌ ويهدى جَنىَّ النوْر من روضة لشعر
ففى كل أفقٍ من حديثك عاطرٌ يسير به لفظى ويطلعه فكرى
ودونك منى قطعة الروض قطعةً تحييك عن ودّى وتنفح عن شكرى(٣١)

وهذه النماذج من الأمثلة كافية لتصوير مفهوم الشعر عند الأندلسيين فى جانب منه، فهو بالنسبة لأرواحهم فنّانين لا يمكن أن يجيء، إذا أردنا له تجسيما رائع الجاذبية، إلّا فى صورة حديقة أرجة، تجذب البصر، وتمتع الشم فى الوقت نفسه.

ولكن الشعراء لم يتوقفوا عند هذا المفهوم، ويمكن أن نعتبره ملحة بارعة أكثر منها عميقة، وإذا لم يصلوا إلى تصوّر مجازى للشعر كما صنع اليونان حين رمزوا له بـ «ميز Muse» ربّة الفنون، فعلى الأقل كان لديهم مفهوم يقترب كثيرا مما لدى اليونان. وثمة صورة شاعت فى المشرق فى القرون التى سبقت، ونجدها فى تعبير قديم يصف لقصيدة بأنها عذراء. ولكن الأندلسيين بما جبلوا عليه من ميل طبيعى إلى تجسيد الأفكار المجرّدة، صنعوا من هذا التعبير المعاد صورة حيّة متوهّجة، فالشعر، وهو فن رفيع فى نظرهم، نجده مجسَّما عندهم فى صورة عذراء حقيقية، وتزف لزوجها ليلة عرسها، سكرى تجر ذيولها.

يقول أبو بكر، محمد بن أحمد بن رُحَيْم، من قصيدة طويلة يهنئ فيها أخاه أبا الحسن بمولود:

وإليْكها مثل العروسِ زففتُها سكرى تجرُّ ذيولها بتبَخْتُرِ
عذراءَ إلّا أنّنى حمّلتُها عُذْرَ التأخُّرِ ليت لم أتأخَّرِ(٣٢)

ويقول أبو محمد بن السِّيد لبطليوسى من قصيدة يجيب بها شاعرا قرطبيا مدحه:

للّهِ عذراءُ زُفّت منك رائحةً تختال من حبرها المرقوم فى حبر
صداقها الصدق من ودّى ومنزلها بصيرتى وسواد القلب والبصر(٣٣)

وعند شعراء آخرين لن تكون العذراء، ولكن المرأة يتألق جسمها كله جمالاً، وزينتها تجسّد الشعر، وعلى هذا النحو يصف ابن عمّار قصيدة تلقاها من أبى عيسى بن لبون:

للهِ درُّ عقيلةٍ برزتها من خدر فكرك فى حلى الإنشاد
فرعاءَ عاطرةِ الذوائب واللّمى غيداءَ حاليةِ الطلى والهادى(٣٤)

●●●

غير أن هذا التصور الرفيع للشعر، والتحمس لكل ما يتصل بالكلام المنظوم، يقابله من جانب آخر

---

(٣١) من الطويل، القلائد ٢٨٣.

(٣٢) من الكامل، القلائد ١١٨.

(٣٣) من البسيط، القلائد ١٩٦.

(٣٤) من الكامل، القلائد ٩٤.

تحفّظ عدد كبير من الأندلسيين، لأن اللعنة التى وسمه بها القرآن لا تزال قائمة أبدا[٣٥].

وأشد وأخطر ما وُجّه إلى الشعر من ملامة، اعتماده القوى، بعامة، على المشاعر والخيال، أى باختصار اتصافه بالكذب. يقول القاضى أبو عبدالله بن زرقون:

أسأل اللهَ عفوَهُ فلئن سا ... ءَ مقالى لقد تعفُّ القلوبُ
قد ينال الفتى الصغائر ظرفا ... لا سواها، وللذنوب ذنوب
وأخو الشعر لا جُناح عليه ... وسواءٌ صدوقُه والكذوب[٣٦]

ولكن أشد الأحكام قسوة على الشعر أورده ابن بسام فى مقدمة كتابه الذخيرة، ولو أن كل مختاراته من الشعر تشهد بحب واضح له، وبخاصة ما نظمه مواطنوه الأندلسيون. أما مقدمته فعلى النقيض، لقد كتبها فى لحظة كانت الأحداث السياسية فى وطنه، بعد سقوط ملوك الطوائف، تجعل حياة الأدباء غير آمنة، وتركت خيبة الأمل تَعمّ، وجعلت من ابن بسام أكثر نقّاد الحياة الأدبية مرارةً فى نهاية القرن الحادى عشر. يقول:

«ومع أن الشعر لم أرضه مركبا، ولا اتخذته مكسبا، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا، إنما زرته لماما، ولمحته تهمُّما لا اهتماما، رغبةً بعزة نفسى عن ذله، وترفيعا لموطئ أخمصى عن محله. فإذا شعشعت راحه، ودأبت أقداحه، لم أذقه إلا شميا، ولا كنت إلاّ على الحديث نديا، وما لى وله، وإنما أكثره خدعة محتال، وخلعة مختال، جدُّه تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم»[٣٧].

لقد أراد ابن بسام دون شك أن يلقى على مشاعره الحقيقية ستارا، لأن المرابطين أصبحوا سادة إسبانيا، فى اللحظة التى حرّر فيها كتابه، ورأى من واجبه أن يجامل أبطال العقيدة الجدد. و «حقائق العلوم»، أى تدريس العلوم الدينية، تجىء فى المقام الأول من اهتمامهم، واضطر، دون شك أيضا، أن يحكم على الشعر بهذه القسوة من خلال مشاهد الحياة الأدبية فى إشبيلية، على نحو ما عرضتُ له فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. لقد رأى الأدباء والشعراء والكتاب يهتمون فى المقام الأول بكسب المال عن طريق نظم الشعر، أكثر من اهتمامهم بالإلهام الصادق والإبداع الحقيقى، يقول فى المقدمة نفسها:

«الأدب بها [الضمير يعود على إشبيلية] أقلّ من الوفاء، حامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهّاله، حسب المرء أن يسلم وفره، وإن ثُلِمَ قدره، وأن تكثر فضّته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه»[٣٨].

---

(٣٥) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ – ٢٢٦. وكان هذا هو الرأى الشائع بين أوساط المسلمين التقاة فى العصور الأولى، وفى مقابله رأى آخر وضح فى القرن الحادى عشر الميلادى، وعرضه ابن رشيق تفصيلا فى كتابه العمدة جـ ١ ص ٤ – ٩ و ١٢ و ٢٨ – ٣٠.

(٣٦) من الخفيف، نفح ٣/٤٧٥.

(٣٧) الذخيرة ١/١٨، وعنها فى «بنو عباد» ٣/٤٣، والترجمة اللاتينية للنص ص ٦٣.

(٣٨) الذخيرة ١/٢٠، وعنها فى «بنو عباد» ٣/٤٥.

ولكن، ليست هذه المرة الأولى التى يتهم فيها الناس أدباء الأندلس بأنّهم يهتمون بالتفاهات، ويعيشون حياة منحلّة، على حين يفرض عليهم الدين أن يلتفتوا إلى الحياة الآخرة. وقد تعرّض ابن شُهَيْد لحملة تشهير لدى أمراء الشيعة الأندلسيين، فى بدء أيام الفتنة، وموجها الحديث إلى أحد أقربائه الذى وضعه فى السجن يقول:

وما ضرَّه إلّا مزاحٌ ورقّةٌ ... ثَنَتْهُ سفيهَ الذكرِ وهو رشيدُ
جنى ما جنى فى قبة المُلْكِ غيرُه ... وطُوِّقَ منه بالعظيمةِ جيدُ[٣٩]

وبعد هذين البيتين من الشعر يطالب الشاعر بحقه فى نظم قصائد رفيعة، حتى لو ظلت غير مفهومة من الجمهور. ويبين لنا ابن شهيد فى نبرة بالغة الحداثة تماما، كيف يستطيع الشاعر من خلال تفاهة فى الظاهر أن يقدّم نغما صادقا فى شعره، وكيف يخطئ الذين يرون فى هذا الجمع من الكلمات الموزونة، والقوافى البراقة مجرد تلاعب بالخيال:

وما فىَّ إلا الشعرُ أثبته الهوى ... فسار به فى العالمين فريدُ
أفوه بما آتيهِ متعرضًا ... لحسن المعانى تارةً فأزيد
فإن طال ذكرى بالمجون فإنّها ... عظائم لم يصبر لهن جليد
وهل كنت فى العشاق أوّلَ عاقلٍ ... هوت بحجاه أعينٌ وخدود
فراقٌ وشجوٌ، واشتياقٌ وذلّةٌ ... وجبّارُ حُفّاظٍ علىّ عنيد[٤٠]

فابن شهيد بروحه الحسّاس، وذكائه الحاد لا يرى الشعر إذن ملحة عابثة، ولكن ضرورة نفسية يلوذ بها، وتتيح له أن يهرب من البيئة حوله وقاسى فيها، كما حدث لابن بسّام عنده الكثير من الصدام والإهانات.

وتشعر بقوة أن الذى يرفضه المثقفون ليس الشعر فى ذاته، ولكنه النظم الذى يتكسّب به صاحبه، ويقصد من ورائه أن يربح لقمة العيش[٤١]. نهم يرون الشعر لعبة فكرية جليلة القدر، وحيلة روحية بالغة السمو، ومن الإساءة إليه أن نجعله يخدم أغراضًا وضيعة.

ويصف المعتمد الغربة، وهو يتحدث إلى رجل يعرف بابن الزنجارى، طلب منه إشعرًا يتزود بها فى غربته:

يا سائل الشعرَ يجتابُ الفلاةَ به ... تزويدك الشعر لا يغنى عن السغب
زادٌ من الريح لاريٌّ ولا شِبعٌ ... غدا له مؤثرًا ذو اللبِّ والأدب[٤٢]

ويبدو فقدان الثقة فى الشاعر المتكسب واضحًا فى الحكاية التالية، ويرويها عبد المجيد ابن عبدون عن نفسه، وجرت بينه وبين مؤدبه إبى الوليد ابن ضابط النحوى المالقى، وسن ابن عبدون إذ ذاك

(٣٩) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه فى نفح ٣٦١/٣، وانظر فيما سيأتى ص ٩٠ - ٩١ من هذا الكتاب.

(٤٠) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه فى نفح ٣٦١/٣.

(٤١) يروى أن بكّارا المروانى الزاهد، وهو أموى الأصل كما تهدى إليه نسبته قال ذات يوم: إن شابا من قرابته جاء يزوره، وصرّح له بأنه يرتزق بالشعر، فقال له: «إنه بئسما يرتزق به، ونعم ما يتحلى به إذا كان لغير هذا الوجه» نفح ٣٢٤/٣.

(٤٢) من البسيط، الذخيرة ٦٨/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣١٤/١، وترجمته ص ٣٥٦.

ثلاث عشرة سنة، وجرى بين يديه ذكر الشعر، فعنّ للمؤدب أن قال:

الشعرُ خُطَّة خَسْفِ

وجعل يردِّد هذا القول، فكتب ابن عبدون فى لوحه مجيزا، ومعرضًا به حين كان يستجدى بالنظم وهو شيخ:

لكلِّ طالب عُرْفِ

ثم خطرَ له بيت ثان وهو:

لـلـشـيـخِ عَـيْـبَـةُ عَـيْـبٍ ولـلـفـتى ظَـرْفُ ظَـرْفِ

«قال: فنظر إلىّ المؤدب وقال: يا عبد المجيد، ما الذى تكتب؟، فأريته اللوح، فلما رآه لطمنى وعرك أذنى، وقال: لا تشتغل بهذا! وكتب البيتين عنده»[٤٣].

ومن الحق أن نسأل عما إذا كان النقد الموجه للشعر يصدر عن فقهاء غلب عليهم الميل إلى الزهد، أو نحاة ساخطين لأن جراحًا مسّت كبرياءهم، أم أنه ارتبط بوضع الشاعر نفسه خلال الفترة التى ندرسها.

وعندما يقول ابن ضابط لتلميذه ابن عبدون: .. الشعر خطة خسف»، فإشارته هنا لا تنصرف لغير الشعراء المتكسبين، وهذه الطبقة الخاصة، وتتكون من عدد مدهش، تستحق منّا قبل كل شيء وقفة مستأنية، واهتمامًا أكبر[٤٤].

يجب أن نعترف بدءا بأن هذه الحركة لم تكن شائعة من قبل على النحو الذى حدث فى القرن الحادى عشر الميلادى، ويرجع هذا فى المقام الأول إلى الطريقة التى كان الناس يفهمون بها منهج الدراسة فى إسبانيا. لقد رأينا من قبل أنهم كانوا يبدأون بالشعر، وكان من الطبيعى، وساعدت البيئة فى ذلك، أن يندفع الطلبة أثناء دراستهم لإعطاء مكان راجح للعبة القوافى، والتى يمكنهم أن يروا فيها أرق فنون الكتابة والفكر وأسماها، وبالتالى يمكنهم أن يجدوا فى مهنة الشاعر الطريق الوحيد المحتمل الذى يمكن أن يُرضى كبرياءهم.. وأن يجلب لهم المال!. وكان النجاح البسيط فى محيط الأصدقاء حولهم، والحكايات الكثيرة، مشرقية أو مغربية، تعرض لما يلقاه الشاعر من مكافآة أو تدليل، مقابل جواب رشيق حاضر، أو قصيدة جيدة، تؤكد هذه القيم فى أعماقهم.

●●●

(٤٣) من المجنث، نفح ٣٩٧/٣، والقلائد ١٤٧، وابن زاكور الورقة ١٠١ب، والمعجب ٨٧، وترجمته ٧٤.

(٤٤) نحن مضطرون هنا إلى أن نترك جانبا الشعراء الذين لا يقولون الشعر إلاّ فى لحظات مباهجهم، إماّ لطبقتهم الاجتماعية أو لظروفهم المادية، وعندما يجدون أنفسهم مدفوعين لقول الشعر فحسب، كالأمراء وكبار الوزراء. فأبناء المعتمد، وأبناء شهيد، لا يقولون الشعر فى الحقيقة إلاّ استجابة لضواغط داخلية قوية، وقد رأينا كم هو سام ورفيع مفهوم الشعر عند ابن شهيد. وهذه الطبقة من الشعراء لا يمكن أن نتحدث ونحن بصددها عن التنافس من أجل لقمة العيش، أو مطالب احتراف الشعر، والنقد الوحيد الذى يمكن أن يوجّه إليها أنها أفسحت مكانا رحيبا للنزق والعبث والمزاح. وسوف تكتشف أن رجال الدين كانوا أكثرهم قابلية لقوله فى هذا المجال. والشىء الذى يمكن أن نصنعه معهم، أن نتناول شعرهم شكلا ومضمونا، ونرده إلى دوافعه، وأن نحدّد طبقتهم شعراء مطبوعين، وهو نقد لا يمكن أن يصدر عن شعراء آخرين مهما كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها.

من الخير إذن أن نبحث فى الطريقة التى يبدأ بها الشاعر، وكان عندما يصل أخيرًا يحافظ على مكانته، مهما تكن الوسائل التى استخدمها.

سنحاول أن نرسم صورة لحياة الشاعر الإسبانى، القادم من أصول متواضعة، ويمكن أن نوجزها فى كلمات بسيطة: الدراسة فى قرية صغيرة، ثم فى مدينة كبيرة، تتلوها حياة متشرِّدة، إلى اللحظة التى يجيئه فيها النجاح.

كثيرون من الشعراء كانوا ينحدرون من أصول ريفية، ويمكن الظن أن بعض رجال النحو من هواة الشعر، وممن وقفوا طموحهم على ممارسة مهنة «المؤدِّب» فى بعض الضياع المغمورة غرسوا فيهم صغارا تذوّق الشعر وحبّه، والقصص التى تُحكى عن ابن عمار تؤكد هذا. إنها تقدمه لنا وقد «ورد فى بعض سفراته شلب، لا يملك إلّا دآبة لا يجد علفها، فكتب بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أنْ ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها إليه»[٤٥]. وتقدمه لنا مرة أخرى، وقد قدم على أبى عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية، «فى فروة طويلة، وغفارة جبلية ضئيلة»، فكان منظره غريبًا مضحكًا[٤٦].

ووفد أبو الفضل ابن شرف من برجة على المرية، بحثًا عن الثروة، وقدم على المعتصم فى زى تظهر عليه البداوة، ويتناقض بشدة مع ما فيه حاشية الأمير من ملابس جميلة، فتنكر عليه أحد الحاضرين، وسأله فى وقاحة: من أى البوادى أنت؟، فجاء ردّ الشاعر عليه جارحًا ومحمًا، وأظهر أن الموهبة فى الحديث ليست وقفا على أبناء المدن وحدهم[٤٧].

---

(٤٥) المعجب ١١٤، وترجمته ٩٧، وقد عاد ابن عمار إلى شلب مرة أخرى، واليا عليها فى هذه المرة، وردّ إلى التاجر الذى أعطاه الشعير المخلاة مملوءة دراهم، وقال له: «لو كنت قد ملأتها لى قمحا لأعدتها لك الآن مملوءة ذهبًا». وتجد القصة فى المصادر نفسها، وانظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٣ و ٩٢.

(٤٦) الحلة ٢/١٢٠، وبنو عباد ٢/٨٨، ومعجم الملابس لدوزى ٣١٤ – ٣١٥، والذخيرة ٣/٢٦.

ذهب ابن عمار يحارب ابن طاهر لحساب المعتمد بن عبد، ولكنه هزم أخيرا، واعتقله ابن طاهر، فأرسل إلى ابن طاهر فى وقت القبض عليه يعرض عليه خلعة، فرد ابن طاهر: لا أختار من خلعه إلا «فروة طويلة وغفارة ضئيلة» يعرّض بزيه يوم قصده للمرة الأولى شاعرا مدّاحا. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١١٠ – ١١١.

وبعد ذلك بأعوام قدم من شلب الحجرى صاحب المسهب، وهو بربرى من صنهاجة، ووفد على عبد الملك بن سعيد، جد مؤلف المغرب فى حلى المغرب، فى قلعة بنى سعيد، فلما وقف على بابه وهو بزى بداوة ازدراه البوابون، فقال لهم: استخنوا لى على القائد، فضحكوا به، وقالوا له: ما كان وجد القائد من يدخل عليه فى هذه الساعة إلا أنت، فمد يده إلى دواة فى حزامه وسحاءة، وكتب بها: بباب القائد الأعلى – لازال أهلا بالفضيلة – رجل وفد عليه من شلب بقصيدة مطلعها:

عليك أحالنى الذكر الجميل   فصحّ العزم واقتضىَ الرحيل

ورغب إلى أحد غلمانه فأوصل الورقة، فلما وقف عليها القائد قال: من شلب، وهذا مطلع قصيدته، ما لهذا إلاّ شأن، ولعله الوزير ابن عمّار، عجّلوا له بالإذن». لا يمكن أن يكون هناك من هو أعرف بالتاريخ الأدبى لإسبانيا من قائد قلعة بنى سعيد: لقد رأى فى الطلب شاعرا، قد يكون ابن عمّار أو مثله، وزيه يجب ألّا يقف حائلا دون تقدير موهبته الشعرية. انظر: نفح ٤/١٢٢، والتيجانى، تحفة العروس، فى «بنو عباد» ٢/١٤١.

وقد ظهر ابن عبدون شيخا عند الوزير أبى مروان عبد الملك بن زهر، ويقص ولد أبى مروان أنه جاء إليه «يد الهيئة، عليه ثياب غليظة، أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية». انظر: المعجب ٨٩، وترجمته ٧٥.

(٤٧) أبحاث، ط ١ ص ٩١ و ٩٥، وط ٣ جـ ١ ص ٢٤٩، ونفح ٣/٣٩٣.

وكذلك وصل إلى المرية الشاعر أبو الوليد النحلى، أثناء تجواله، «فى أسمال دنسة، والناس قد لبسوا البياض»[٤٨].

عندما ينحدر الشخص من أصول متواضعة يحتاج، دون شك، إلى قدر كبير من الإرادة والثقة بالنفس، لكى يحقق مجدا، واحتمال أن يصبح المرء شاعرًا مشهورًا، وفى الوقت نفسه وزيرًا مقتدرًا، كان بلاشك يدفع الفلاحين والحرفيين الذين يتمتعون بشىء من الثقافة كى يجربوا حظهم، ومن جهة أخرى لم تكن الصعوبات التى تواجه أرباب هذه المهنة تخفى عليهم، فقد كان الشعراء كثيرين جدًّا، وكان النقاد غاية فى الذكاء والدقة، ولكن الموهبة وحدها لا تكفى، وإنما يحتاج الأمر معها لكثير من العمل والصلابة لتحقيق النجاح.

ولا ينبغى أن ندهش عندما نقع على إشارات عند الشعراء تُلمح إلى السهرات الطويلة التى كانوا يوقفونها على دراسة الشعر، لأنهم يشغلون سحابة نهارهم بالعمل اليدوى غالبا، حتى يضمنوا على الأقل ما يقيم أود حياتهم، والليل وحده يمكن أن يتيح للحرفى، إذا بقيت لديه فضلة من قوة، أن يكب على دراساته المفضلة، فيقرأ للشعراء وينظم الشعر.

وأحيانا كان الشاعر يفقد الأمل، يقول ابن الخَّاط الكفيف:

لم يخلُ مِن نُوَبِ الزمانِ أديبُ كلَّا فشأن النائبات عجيبُ
وغضـرةُ الأيامِ تأبى أن يُرى فيها لأبناء الذكاء نصيب
وكذاك من صَحِبَ الليالى طالبًا جِدًّا وفيها فاته المطلوب[٤٩]

وقد لعب ابن الخاط بلفظ «الليالى»، لأنه فى صورته جمعا يعنى «الكوارث» أيضا، وهو فى البيت الثالث يشير على التأكيد إلى عادة الطلاب الفقراء الذين يسهرون على وميض قنديل خافت. وكان ابن الزقاق، وأصبح مشهورا بين مواطنيه مثل ابن خفاجة وابن عائشة، «يسهر فى الليل، ويشتغل بالأدب، وكان أبوه فقيرا جدا فلامه، وقال له: نحن فقراء ، ولا طاقة لنا بالزيت الذى تسهر عليه. فاتفق أن برع فى الأدب والعلم ونظم الشعر»، فمدح أبا بكر ابن العزيز صاحب بلنسية، «فأطلق له ثلاث مئة دينار، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس فى حانوته، مكب على صنعته، ووضعها فى حجره، وقال: خذها فاشتر بها زيتا»[٥٠].

وإليك هذه الحكاية التى تضع اثنين فى موضع الخصام، فقيه وشاعر، وكلاهما من القرن الحادى عشر: أبا الوليد الباجى وابن حزم، وكانت ظروفهما متباينة جدا، على الأقل فى شبابهما، وهى أيضا بالغة الدلالة.

---

(٤٨) الحلة ٢/٨٨، والذخيرة، طبعة القاهرة، قسم ١، مجلد ٢، ص ٢٤٢، وسنعود إلى هذا الموضوع عند الحديث عن ألوان الملابس والحزن.

(٤٩) من الطويل، نفح ٣/٢٨٨.

(٥٠) نفح ٣/٢٨٩. لقد كان بوسع الأب، مغلوبا على أمره، أن يهتف بالمثل اللاتينى: ما أروع رائحة الدرس حين تتعبق بأريج الزيت!

● قلت: شك المستشرق الإسبانى إميليو غرسيه غومث – بحق! – فى هذه القصة، وناقشها فى دراسته لابن الزقاق. انظر ترجمتنا لكتابه «مع شعراء الأندلس والمتنبى» الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

«ناظر أبو الوليد الباجي ابن حزم فقال: أنا أعظم منك همة فى طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق»

«فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى، وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلّا علوّ القدر العلمى فى الدنيا والآخرة، فأفحمه»[٥١].

وعندما يحس الشاعر الناشئ بالثقة فى نفسه يرحل ليجرب حظه، ولم يعرف العالم الإسلامى أبدا مثل هذا العدد من الرحّالة، يذرعون الأندلس طولا وعرضا، على نحو ما سيفعل شعراء التروبادور بعد ذلك بقليل، يذهبون من بلد إلى بلد، وينتقلون من بلاط إلى بلاط، يعرضون أشعارهم، يمدحون بها تاجرا موسرا، أو موظفا كبيرا، أو أميرا سخيا، وغايتهم أن يحصلوا على الهدايا، عينا أو عرضا.

ومن الواضح تماما أن هذه الرحلات على الأرض الإسبانية كانت قاعدة وضرورة عند شعراء القرن الحادى عشر، ونجدهم خلال سنوات، وربما فى عدة أشهر، فى مدن مختلفة ومتباعدة، أحيانا فى الشمال وأخرى فى الجنوب، مرة فى الغرب وأخرى فى أقصى الشرق: فأبو المطرّف ابن الدبّاغ مثلا، عاش على التوالى فى سرقسطة وإشبيلية وبطليوْس، ثم رجع أخيرا إلى المدينة الأولى[٥٢]. وابن عمار جاء من «الغرب» فى الأندلس، وطالت به الرحلة حتى بلغ سرقسطة فى الثغر الأعلى[٥٣].

يمكن تفسير هذه الرحلات بأن مردّها فى المقام الأول الحصول على المال، وقد يملّ المحسن سماع الشاعر نفسه، عندما لا يعرف هذا كيف يجدد فى موضوعاته وصوره. الحاجة إذن هى التى كانت تدفع الشاعر إلى التنقل والترحال.

يقول ابن سارة:

مقامُ حُرٍّ بأرض هونٍ عجزٌ لعمرى من المقيم
سافرْ فإن لم تجد كريمًا فمن لئيمٍ إلى لئيم[٥٤]

ولا يمكن أن نتصور بلاطات الأمراء فى إسبانيا إلا لونا من المجامع العلمية، الشعراء فيها أطفال مدللون، وإن لم تكن تحسن استقبال الأدباء على الدوام، والشكاوى الكثيرة التى سجّلها المؤرخون وكتّاب التراجم والسِّيَر والمختارات تجعلنا نعتقد بأن هذه الثورات ضد مصير ظالم تنطوى على شىء من الصدق. ويغمر الشاعرَ، باستثناء بعض الحالات، إحساسٌ بالخيبة، لأنه غير مفهوم أينما ذهب.

يقول أبو بحر يوسف بن عبد الصمد:

فوصلتُ أقطارًا لغير أحبّةٍ ومدحتُ أقواما بغير صلات
أموال أشعارى نمتْ فتكاثرتْ فجعلتُ مدحى للبخيل زكاتى[٥٥]

---

(٥١) نفح ٧٧/٢، ودبيا، مقدمة طبعة نفح الطيب الأوربية، ٤٨/١، وأسين بلاثيوس، ابن حزم القرطبى ٢٠٦/١.
(٥٢) الذخيرة ٢٥١/٣، وعنها فى أبحاث ط ١ ص ١٦٣ – ١٦٨ و ١٧٠.
(٥٣) أشار ابن قزمان إلى رحلاته الكثيرة فى الزجل رقم ٧٤.
(٥٤) من مخلع البسيط، نفح ٦١/٤.
(٥٥) من الطويل، نفح ٥٣٤/٣.

وكانت الشكاوى تحت حكم المرابطين أشد مرارة، ولم يحدث أبدا أن صيغ قرار اتهام ضد لا مبالاة مجتمع القرن الحادى عشر إزاء قضايا الفكر بعامة، والشعر منها بخاصة، فى قسوة الذى وجهه ابن بقى وعنفه. ومن الواضح أن الشاعر، وهو فنان، بالغ وتَظَارفَ بعض الشىء ضرورةً، وأحسّ بأن إخفاقاته الصغيرة جراح قاتلة، وهو لا يرى فى أى مكان إلّا جهلةً وأجلافا، لأن قصائده لم تنل الإعجاب فورا، ولم يلق معها ما كان يتوقع من سخاء. ومع ذلك يمكن القول إن حياة شعراء التروبادور هؤلاء لم تكن بهيجة دائما، رغم أن شاغلهم الوحيد أن يغنوا للحياة.

يقول ابن بقى:

إلى اللهِ أشكو من نوىً أجنبيَّةٌ	لها من أبيها الدهر شيمة ظالمِ
إذا جاش صدرُ الأرض بى كنتُ منجدًا	وإنْ لم يجش بى كنت بين البهائمِ
أكلُّ بنى الآداب مثلى ضائع	فأجعل ظلمى أسوة فى المظالمِ
ستبكى قوافى الشعر ملء جفونها	على عربى ضاع بين الأعاجم[٥٦]

كان حَتْمًا أن يثبت ابن بقى على رأيه مع الزمن، لقد ذهب إلى المغرب فلم يجد غير اللامبالاة، ولأنه يدرك قيمة نفسه جيدا فكّر أن يترك المغرب ويذهب إلى العراق، وتصوّر أنهم سيلقونه هناك بالأحضان، وكان مخطئا دون شك[٥٧]. إنه العصر الذى أخذ فيه الحجارى حظه من البؤس شاعرًا جوّالًا، وشبه فيه نفسه متنقلًا مثل الحمام[٥٨].

وكان على الشاعر، حتى وهو متشرِّد أفاق، عندما يصل إلى مدينة يحكمها أمير، أن يخضع لبعض العادات التى وُجدت فى القرن الماضى تحت حكم الأمويين، وأصبح لها فى القرن الحادى عشر قوة القانون.

فى البدء على الشاعر الذى يطمع فى أن يكون له شرف لقاء الأمير، أو الحاكم، أن يسأل عن القلعة أو القصر الذى يسكنه، ولم يكن يجد فى هذا أية صعوبة. وعلى باب القصر يكفى أن يقول إنه شاعر، فيقوده فى الحل إلى الداخل موظف مسئول، كان يطلق عليه اسم «صاحب الإنزال»، وهى وظيفة تشير إليها بعض الفقرات فى كتاب «نفح الطيب» للمقرى، وكتابى «تحفة القادم» و «الحلة السيراء» لابن الأبار. ومهمة هذا الموظف أن يقوم على راحة الشعراء والمدعوين من ضيوف الأمير فى ملحقات القصر، وعندما يتعلق الأمر بإنزال الجنود فى بيوت الأهالى[٥٩]، على صاحب الإنزال، دون شك أن يعرف الحجرات الشاغرة، والأمكنة الصالحة والمعدّة، ببيان شفوى يتلقاه من المالك، أو طبقًا لتحريات الشرطة.

ولم يكن الشعراء راضين تمامًا عن إقامتهم هذه، وندرك هذا من التشكاوى التى ترد فى أشعارهم

---

(٥٦) من الطويل، القلائد ٢٨٠.

(٥٧) انظر دراستنا عن: الشعر فى فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ١٤.

(٥٨) نفح ٣١٥/٤.

(٥٩) نفح ٣٧٨/٣. وقد احتج الأديب أبو المتوكل الهيثم لدى صاحب الإنزال، لأنه أرسل إليه قوات تتألف من العبيد الأفارقة.

بخاصة، وجاءت فى نغم فكه وساخر، وعرفنا منها وجود وظيفة «صاحب الإنزال» هذه. ولابد أن أهميتها تلاشت من بعد، فلم نعد نسمع عن صاحبها شيئًا.

وأقدم قصة لدينا تتصل بهذا الأمر بطلها الشاعر الرمادى، أبو عمر يوسف بن هارون، وجرت مع فرحون بن عبد الله، ويُعرف بابن وَبلة، أى ابن المطر hijo de la lluvia وكان حاكمًا على شنترين بغربى الأندلس، فى نهاية القرن العاشر الميلادى، أو مطلع القرن الذى تلاه على أبعد تقدير. قدم عليه الرمادي منتجعا، فأمر الوالى بإنزاله، ولكن متولى الإنزال قصّر فى ذلك، فأنزله حجرة سفرة، سهوا منه أو إهمالًا، فوجه الشاعر شكواه إلى الوالى شعرا، فجاءته وهو خارج إلى غزو المسيحيين:

قـائـداً أفْـنَـتْ مـغـازيــ ـــه الـعـدا سَبْـيًـا وقـتـلا
إنَّ ضَـيْـفًـا قـاصـدًا قُـلْـ ـــتَ لـه: أهـلًا وسـهـلا
قـد تـوسّـعـتَ لـه فـيـ ـــها يَـسُـرُّ الـضـيـفَ نُـزْلا
مـالـه فـرشٌ عـلى الأرْ ضِ سـوى وجـه مُـصَـلِّ
فـأنـا لـولا اصـطبـارٌ ردّ مـنـه الـوعـرَ سـهـلا
لم تجـد عَـيْـنى لـنـومٍ بـبـيـت الـسـوء كـحـلًا[٦١]

كان العتاب حادًا، وحين قرأ فرحون الأبيات خجل من موقف موظفه، وردّ على الرمادى بأبيات من الشعر أيضًا، يعتذر فيها عن تقصيره، وأمر له بما طلب، وقرن ذلك بجارية، ورجاه قبولها هدية منه، ليتأكد من عفوه، فالشاعر لغاضب خطر دائمًا.

والشاهد الأكثر إقناعًا بوجود وظيفة «صاحب الإنزال» يقدمه لنا نص ورد فى نفح الطيب وفى «تحفة القادم»، وجرت أحداث قصته فى بطليوس، خلال إمارة المتوكل بن الأفطس، وكان ابن عبدون بادى الشدو فى دنيا الأدب، فقدم قصر الأمير، فعيّن له صاحب إنزال الدور دارا واهية البناء، وسقفها قديم ، فهطل عليه المطر منه، فلم يتوان ابن عبدون فى أن يحمل شكواه إلى الأمير مباشرة، فى أبيات من الشعر فكهة الأسلوب وهى تشطير لامية امرئ القيس، أعظم شعراء الجاهلية:

أيا ساميًا من جانبيه إلى العلا «سُموَّ حَباب الماء حالًا إلى حالِ»
لعبدك دارٌ حلّ فيها كأنّها «ديارٌ لسلمى عافيات بذى الخال»
يقولون لها لمّا رأى من دثورها «ألا عِمْ صباحًا أيها الطلل البالى»
فقالت: وما عيْثٌ جوابا بردّها «وهل يعمن من كان فى العصر الخالى»
فَمُرْ صاحب الإنزال فيها بفاصلٍ «فإن الفتى يَهْذِى وليس بفعّال»[٦٢]

ويتطلب إيواء الشاعر تحديد موعد لمقابلة الأمير ويحدث أن يطول به الانتظار كثيرًا، لأن الأمير نسى، أو لديه مشاغل تجعله يؤجل مقابلة الشعراء لوقت آخر. فإذا لم يكن الشاعر كريمًا على نفسه

---

(٦٠) لم يعد فى ذلك الوقت يسمى صاحب الإنزال، وقد التقط ابن الأبار هذه الرواية واكتفى بأن يقول: «متولى ذلك».

(٦١) من الرمل، الحلة ٢٨٠/١.

(٦٢) من الطويل، نفح ٢٩٣/٣، وابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ١١٩. والأشطار الأخيرة فى هذه الأبيات مأخوذة من قصيدة لامرئ القيس. انظر: أهلوارد، ستة دواوين، ص ١٥٦ – ١٥٣، القطعة رقم ٥٢. وديوان امرئ القيس، طبعة السندوبى، ص ١٠٥ – ١٠٨، القطعة ٥٢. وناشر تحفة القادم، فى مجلة المشرق عام ١٩٤٨، ص ٥٥٩ لم يضبط الديوان بالشكل.

رضى أن يصبر، سعيد النفس ربما، وبخاصة إذا جاءه الأمر بعد فترة من التجوال قليلة الفائدة، وحرصه على أن يجد المأوى، ويصبح خلىّ البال من مشاكل الغد. و «صاحب الإنزال» مسئول دون شك عن توفير كل ضروب العيش لجميع الضيوف.

ونعرف مثلاً أن ابن حمديس الصقلى ترك صقلية وقدم إلى إشبيلية، وأقام بها، والمعتمد لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، حتى يئس منه وفكرّ أن يرحل إلى ممالك أخرى أكثر تسامحًا وكرمًا[٦٣]. أهو إهمال عفوى أم اختيار مقصود؟ لا أحد يجزم بشىء. وأظهر المعتمد مع شاعر آخر تهاونًا أشد خطرًا، فقد نسيه تمامًا، ولم يستطع الضحية، أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقى، أن يمسك عنه سهامه البائرة، فى اللحظة التى ابتعد فيها عن إشبيليه:

تعزَّ عن الدنيا ومعروف أهلِها　　إذا عُدِمَ المعروفُ فى آل عبَّادِ
حللتُ ضيفًا ثلاثة أشهرٍ　　بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد[٦٤]

وعندما يسمح للشاعر بأن ينشد ماالديه، عليه أن يتقدم فى قاعة الأمير، فى يوم محدد، يختلف من مدينة لمدينة، ومن أمير لأمير، ونعرف أن هذا اليوم كان «الاثنين» عادة فى إشبيلية على عهد المعتضد، واحتفظ لنا المقرى بخبر أحدى هذه المقابلات، وفى أسلوب يتراوح بين الجد والهزل. وخير ما تفعله هنا أن ننقل النص كاملًا للمعلومات الدقيقة التى يقدمها لنا، بمناسبة حديثه عن بلاط كان القدوة المحتذاة فى العادات لكل شبه الجزيرة.

عندما وصل ابن جاخ الشاعر إلى إشبيلية قادمًا من بطليوس، دخل «الدار المخصوصة بالشعراء، فسألوه، فقال: إنى شاعر، فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال:

إنِّى قصدتُ إليك يا عبادى　　قَصْدَ القليِّق بالجرى للوادى

فضحكوا منه وازدروه، فقال بعض عقلائهم: دعوه فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويتدرج فى سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، وتنادروا على المذكور، فبقى معهم، وكان لهم فى تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيره، وربما كان يوم الاثنين فقال بعض لبعض: هذا شنعة بنا أن يكون مثل هذا البادى يقدم علينا، ويجترئ على الدخول معنا، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم فى اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسمًا لعلة إقدام مثله عليهم. فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان فى مجلسه، ونصب الكرسى لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم فى ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسى، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم فقال:

قطعت يايومَ النوى أكبادى　　وحرمتَ عن عينى لذيذَ رُقادى

---

(٦٣) نفح ٦٦٦/٣، ومشهد استقباله سيرد فى هذا الكتاب فيما بعد، ص ١٩٢.

(٦٤) من الطويل، القلائد ١٤٣، ونفح ٢٢٦/٤، وابن دحية، المطرب ١٧٧. ومن حق المسلم أن يستضاف ثلاثة أيام لا ثلاثة أشهر، ولهذا يبدو ابن الحاج مبالغا جدا. واحتج كثير من المؤلفين على هذا الكلام واعتبروه افتراء خالصا. انظر: نفح ٢٢٦/٤، والمطرب فى الصفحة السابقة نفسها.

وتركتنى أرعى النجوم مُسهَّدًا والنار تُضرم فى صميم فؤادى

....

يــ أيها الملك المؤمَّلُ والذى قُدُمًا سما شرفًا على الأنداد
إنّ القريض لكاسدٌ فى أرضنا وله هنا سوقٌ بغير كساد
فجلبت منْ شعرى إليك قوافيًا يفنى الزمانُ وذكرها متمادى
من شاعرٍ لم يضطلع أدبًا ولا خطّت يداهُ صحيفة بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاخ؟ فقال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن فى الكلام فى ذلك اليوم لأحد بعده»[٦٥].

ليس مبالغة إذن أن نقول إن المرشح يمر بتجربة حقيقية، ولكن فيما يتصل باللجنة المكلفة بتقدير موهبته، لم يكن لنظرائه دائما حق إبداء الرأى، وكان يكفى أن يقتنع رب البيت، لكى يُقبل على الفور. والحق يقال كان الأمير الذى يرأس هذه الاجتماعات الأدبية على قدر من الثقافة والـوق لا يقل عمّا عند هؤلاء الشعراء المحترفين، غير أنه لا يتأثر فى قراره بالغيرة التى تفسد أحكام الشعراء الحاضرين، القلقين، ويمكن أن ندرك سر هذ فى يسر، فإن صعود منافس جديد يمكن حتى لو كان القرار بلا جدوى، أن يصبح أنصف الآراء تقديرا لقيمة الوافد الجديد.

●●●

رأينا الطريقة التى كان الشعراء يقبلون بها رسميا فى حاشية أمير ما، أو حاتم قوى، وطبقا للشقندى كان من أعظم مباهاتهم أن يقال: «الشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى»![٦٦] وهو اعتراف مخلص وصادق فى تصوير حالة التبعية التى كان على الشعراء أن يحبوها فى مواجهة العظماء.

وكان الشعراء أبعد ما يكونون عن الصفوف الأولى، ويجىء ترتيبهم دائما فى المكان الأخير، طبقا لنظام المراسم[٦٧]. وفى حالات غير قليلة كانوا يقومون بدور الخدم فى القلاع أو القصور، فكان على الشاعر النحلى مثلا، وقد واتاه الحظ ونال إعجاب **المعتمد**، أن يقف ليل نهار بباب الجناح الخاص بالأمير ليستجيب لأول نداء[٦٨] وكان لدى **ابن الحدّاد** قَدْر كاف من الشجاعة لكى يقول **للمعتصم** صاحب لمرية، فى أبيات من الشعر:

(٦٥) نفح ٢٤٣/٤، وعنه فى «بنو عباد» ٢٢٩/٢، وترجمتها فى: تيجيق، شاعر ملك، ص ١٢٨، والكونير مرتينيث، نقابة الشعراء، ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٦٦) نفح ١٩٠/٣، وغرسيه غومث، ترجمة رسالة الشقندى ١٤٧.

(٦٧) البيان المغرب ٩/٣، وترجمة ليفى بروفنسال للنص فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ ص ١٩١.
خلال عصر الموحدين كان هناك «حسيب»، أى ينحدر من أسرة كانت تحكم مقاطعة، كُتب اسمه فى قائمة لشعراء الموصولين.
وثمة حسيب آخر هو أبو [محمد] القاسم بن مسعدة الأوسى مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن، فكتب الوزير اسمه فى جملة الشعراء، فلما وقف الامير على ذلك ضرب على اسمه وقال: إنما يكتب هذا فى جملة الحسباء، لا تدنسوه بهذه النسبة، فلسنا ممن يتغاضى على غمط حسبه، ثم أجزل صلته، وأمر له بضيعة، يعنى بذلك أنه من ذرية الملوك، لأن جده كان ملك وادى الحجارة. انظر: نفح ٤١٩/٣.
وفيما بعد، فى عصر ابن الخطيب، كان الشعراء يأتون أخيرا مع المغنين، وبعد لاعبى الشطرنج، ورؤساء الجنانين، والأطباء البيطريين، والأطباء، والمنجمين وغيرهم. انظر: المقرى، نفح الطيب ٢٤١/٤، طبعة محيى الدين، والإحاطة، فى «بنو عباد» ١٦٦/٢.

(٦٨) نفح ٢٣٤/٣.

رجـلٌ إذا أعطاك حبّةَ خَـرْدلٍ ألقاك فى قيد الأسير الطائح[٦٩]

وكان الشعراء يعتبرون، دون شك، وضعهم هذا، حتى فى حالة التبعية الوثيقة للأمير، مما يُحسدون عليه، ويتعرضون بسببه للهجوم الغادر من زملائهم، الذين لا ينكصون فى أن يقوموا بأية وشاية، ولا يترددون فى استخدام التشهير، وهو أشد الأسلحة خداعا وتأثيرا فى رجال الأدب، وذلك حتى يزيحوهم عن مكانتهم، وكأنّ الكفاح ضد الفقهاء ليس كافيا، وكان هؤلاء يرون الشعر أحد أسباب هلاك الناس، ويلعبون دورهم التقليدى فى الرقابة، وينذرون محبى الشعر بما ينتظرهم من هلاك فى الآخرة، معتمدين على بعض الآيات القرآنية، والكثير من الأحاديث النبوية التى تتفاوت صحتها[٧٠]. وكان على الشعراء أن يواجهوا النقاد الماكرين بخاصة، وهؤلاء قد يدفع بهم المنافسون إلى الانتقاص من مواهب الشاعر، وتسقط كل مواطن ضعفه.

ويوجه النقد عادة إلى الشاعر ليفقده مكانته فى ذهن الجمهور المثقف، وقبل كل شىء ليزيحه عن المكانة المفضلة التى يحتلها عند أمير جواد، أو شخصية ذات نفوذ، ويستهدف الشاعر فى إبداعه أكثر مما يتجه إلى سلوكه الخاص، فهو يتعقّب أتفه الأخطاء فى قصائده، ويدين فورا، وبلا رحمة، التقليد أو الاقتباس حين يأتى دون اعتراف به أو إشارة إليه. وهو يحلل الألفاظ فى أدق خصائصها، ويزن الصور البلاغية فى دقة متناهية، وكل ذلك يقدم لنا صورة واضحة عن أهمية الشكل عند شعراء الأندلس. ولن تجد أحدا يمكن أن يقول مثل ما قال الفرزدق، عن سبب خروجه على بعض قواعد الإعراب: «علىَّ أن أقول، وعليكم أن تحتجوا»[٧١].

ولم يحدث أبدا أن بلغت فكرة التشهير هذا القدر من الحدّة بين الشعراء العرب مثل ما كانت عليه فى الأندلس. فننصغ إلى ابن حزم، الرجل الذى شهد القرن الحادى عشر، وعاشه كأعمق ما يكون، يتحدث إلينا عن هذه القضية:

«وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر: [أزهد الناس فى عالم أهله]، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده»[٧٢]. وقد تيقنا ذلك بما لقى النبى ﷺ من قريش – وهم أوفر الناس أحلاما، وأصحهم عقولا، وأشدهم تثبّتا، مع ما خصّوا به من سكناهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه – حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التى أبانهم بها عن جميع الناس، والله يؤتى فضله من يشاء.

«ولا سيما أندلسنا فإنها خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير

---

(٦٩) من الكامل، نفح ٣/٥٠٥، وأبحاث، ط ١ ص ١٠٢، وط ٣ جـ ١ ص ٢٥٤.

(٧٠) فى المسهد الذى نقلناه فيما سبق، قال عدو الرمادى للمنصور بن أبى عامر: «إن هذا الصنف (يعنى الشعراء) صنف زور وهذيان، لا يسكرون نعمة، ولا يرعون إلّا ولا ذمة، كلاب من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجدب، وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ (الشعراء، الآية ٢٢٤)، والابتعاد عنهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلّا منهم؟»، انظر: نفح ٣/٣٦٤.

(٧١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١/٨٩، تحقيق احمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٨٦ – ١٩٦٦، ومقدمة جود فروى – ديومبين لطبعته وترجمته ص ٢٥.

(٧٢) نصه فى إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآية ٢٤: «إنه ليس نبيًّا مقبولًا فى وطنه».

ما يأتى به. واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما فى سائر البلاد، إنْ أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع، وإن توسّط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفى أى زمان قرأ؟ ولأمه الهبل!.

«وإنْ ولجت به الأقدار أحد طريقين إمّا شفوفا بائنا يعليه على نظرائه، أو سلوكا غير السبيل التى عهدوها، فهنالك حمى الوطيس على البائس، وصار عرضا للأقوال، وهدفا للمطالب، ونصبا للتسبب إليه، ونهبا للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نُحِل ما لم يقل، وطُوِّق ما لم يتقلّد، وأُلحق به ما لم يَفُه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحرَى وهو السابق المبرِّز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف، فإن تعرّض لتأليف غُمِز ولمز، وتُعُرِّض وهُمِز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، واستشنع هَيِّن سقطه، وذهبت محاسنه، وسُترت فضائله، وهُتِف ونودى بما أغفل، فتنكس لذلك همته، وتكل نفسه، وتبرد حميته.

«وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعرا، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذه النُّصُب، إلا الناهض الضائن، والمطفف المستولى على الأمد»[٧٣]

هذه الفقرة الحادة من كلام ابن حزم تثير فينا الإعجاب والدهشة، ومع أن ابن حزم كان يفكر فى نفسه خاصة وهو يكتبها، لأن آراءه تعرضت لهجوم شديد فيما نعرف، ودار حولها نقاش عنيف، إلا أن أفكاره فيها أخذت بُعدا عامًا لا يمكن تجاهله[٧٤].

ولم يكن الشعراء المحترفون وحدهم الذين يقومون بهذا النقد الدقيق، فأبو العرب الصقلى، وهو أصلا من صقلية، مثل ابن حمديس، حضر مجلس المعتمد يوما، ودفع له بورقة خط فيها قصيدة، ويقص الشاعر أن المعتمد «أخذ البطاقة وجعل يطيل النظر والتكر فى القصيدة، وأنا مترقب لنقده، لكونه فى هذا الشأن من أئمته، وكثيرًا ما كان الشعراء يتحامونْه لذلك، إلّا من عرف من نفسه لتبريزه ووثق بها[٧٥].

(٧٣) نفح ١٦٦/٣. ولم يكن ابن حزم الوحيد الذى لحظ ميل الأندلسيين إلى الذم والتشهير، فابن سعيد أيضًا لحظ أن أهل الأندلس كثيرو الانتقاد على كاتب لرسائل. نفح ٢١٧/١.

(٧٤) هذه الأفكار تجعلنا نفكر بالضرورة فى مونتسكيو الذى يقول فى كتابه «دفاع عن روح القوانين»: لناس الذين يريدون أن يتعلموا كل شيء يصعب عليهم كثيرً أن يتعلموا أى شيء، وليست هناك عبقرية لا تضيق إذا أحاط بها ملبون ريبة باطلة، وحتى لو حملت أفضل النوايا فى العالم سوف يضطرونك إلى الشك فيها، ولن يمكنكم أن تهتموا بالكلم الطيب فى الوقت الذى تخافون فيه أن تقولوا السيئ، وبدل أن تحتذوا أفكاركم لا يشغلكم غير الكلمات التى يمكن أن تفلت من فطنة النقاد. إنهم يضعون فى رؤوسنا جوقا يقول لنا مع كل كلمة: حاذروا السقوط! أنتم تريدون الحديث على طريقتكم، وأنا أود أن تخاطبونى على طريقتى، وإذا حاولنا أن نحلق شدونا من أذرعنا، وإذا كانت لدينا قوة الحياة انتزعوها منا بقوة الوخز، وإذا رفعتكم قليلًا حينئذ يظهر لناس الذين يمسكون تدمك وقامتك، يرفعون الرأس ويصيحون فيكم أن انزلوا ليتخذوا منكم وسيلة... ليس هناك علم ولا أدب يمكن أن يقاوم هذه الحذلقة» انظر: دفاع عن روح القوانين، القسم الثالث.

● قلت: ترجم الكتاب إلى اللغة العربية عادل زعيتر، ونشره بعنوان روح القوانين. (المترجم).

(٧٥) نفح ٣٨٧/٢ طبعة أوربا، والتيجانى، تحفة العروس، فى «بنو عباد» ١٤٨/٢، وانظر أيضًا: تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢، جـ ٣ ص ٩٣.

● قلت: وهم المؤلف فى نسبة هذه القصة لأبى العرب الصقلى، ومن ثم فهى تحتاج إلى فضل بيان.

الذى أورد القصة الحجارى فى «المسهب»، وعنه نقلها نفح الطيب ٥٧١/٣، عن عمه أبى محمد عبد الله بن إبراهيم ولهذا =

ويقول ابن زيدون فى قصيدة توجه بها إلى المعتمد إيضا:

قد كان هَجْرى الشعرَ – قَبْلُ – صريمةً حذرى لذاك النقدِ فيها عاذرُ[٧٦]

كان الشعراء إذن يستطيعون أن يلجأوا إلى فكر المعتمد المستنير، على حين أنهم لا يستطيعون أن يقتربوا من أبى الجيش مجاهد العامرى، صاحب دانية، دون أن يتغشاهم الرعب، لأنه «أزهد الأمراء فى الشعر، وأنكرهم على منشده»، وبخاصة فى فترات تشاؤمه، وكانت تضفى على أخلاقه أسلوبا متناقضا وقاسيا فى تعامله مع رجال حاشيته. وهو يتعقب قصائد الذين يتملقونه بالنقد الدقيق، ويكشف فى بهجة غامرة عن كل لفظة غير مناسبة، وكل تشبيه خاطئ، وكل سرقة أو إحالة[٧٧]. وفضلا عن هذا النقد الكثير، ومعظمه لا يقوم على أساس فيما نعتقد، كانت هداياه قليلة، ومحدودة القيمة[٧٨]، فكف الشعراء عن إنشاد الشعر لزوئيل Zoil المتوج هذا، إلا إذا تعرّضوا لضائقة شديدة[٧٩].

● ● ●

وإذا أخذنا فى الاعتبار كل شىء فإن الشاعر فى عصر الطوائف كان يتمتع بظروف أفضل شيئا مما كان عليه أيام لفتنة، فى مطلع القرن الحادى عشر. ويقول أحد المؤرخين: إن «شعراء العامرية والدولة الأموية، نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم، وحمت طباعهم، وكانوا كالبزاة الفذة الجياع، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبال صداهم، ولا شد خلتهم، لاشتغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه»[٨٠].

وكانوا يعتبرون أنفسهم سعداء حتى وهم فى وضع الخدم، وأقصى أمانيهم أن يلتحقوا بخدمة أحد الأمراء، وأن يُدرجوا فى قوائم المرتبات، أو الديوان إن شئت، وقوائم الديوان هذه كانت موجودة خلال الحكم الأموى فى إسبانيا[٨١]، ولم تكن إلا استمرارا لتقليد كان قائما فى المشرق؛ وبقى تكريما

= أشعار فى المعتمد وكان ممن زاروه فى منفاه فى أغمات، وأورد له المقرى أخبارًا كثيرة، نقلاً عن المسهب. وليس للقصة صلة بأبى العرب، ولم يشر دوزى إلى اسم معين عند حديثه عن المعتمد الناقد، وإنما قال بالحرف: «بدا أن المعتمد ووزيره (الضمير يعود على ابن عمار) كانا مغرمين بالشعر خاصة، فقد تحول بلاط إشبيلية إلى مهبط لخير الشعراء، ولم يكن أمام الصغار منهم أى احتمال لكى يصلوا ويحققوا حظاً وثروة، لأن المعتمد كان ناقدًا قاسيًا، يدرس بعناية تامة كل القصائد التى تقدم إليه، ويقف عند كل كلمة، ويتأمل كل بيت، وعندما يلتقى بشاعر موهوب فإن سخاءه يصبح بلا حدود».

(٧٦) من الكامل، ديوان ابن زيدون ص ٥٠٨، تحقيق علي عبد العظيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٦ – ١٩٥٧.

(٧٧) أعمال الأعلام ٢١٩، وفى الاحتفال المنوى بأمارى ١٣٠/٢.

(٧٨) لم يكن على التأكيد مستجيبًا للدوافع نفسها التى خضع لها شارل التاسع عندما كان يقول عن رونسار: «أخاف أن أفقد صديقى رونسار، فإن الكثير من الخير يجعله كسلان فى وظيفة ربات الشعر، والشاعر الجيد يجب ألا يسمن كثيرا، كالجواد الأصيل، وعلينا أن نطعمهم دون أن نشبعهم». انظر: ف. فونك – برنتانو، النهضة ١٤١.

(٧٩) وقد اشتهر أيضًا أبو مروان حسام الدولة بن رزين أمير السهلة بأنه قاس جدا مع الشعراء. انظر الحلة ١١٠/٢.

● قلت: زوئيل ناقد إغريقى من القرن الرابع قبل الميلاد، اشتهر بنقده القاسى والمريو والمتحامل على هومير، وأصبح اسمه مرادفًا لمعنى الناقد الحسود والمتحامل. (المترجم).

(٨٠) أعمال الأعلام ١٢٢.

(٨١) الإحاطة ٧١/٢ طبعة القاهرة وقد صحب المنصور فى إحدى حملاته «الشعراء المرتزقين بديوانه». ولما وقف الحكم الأول على شعر حسّانة التميمية استحسنه وأمر بإجراء مرتب لها. نفح ١٦٧/٤.

لدمشق[٨٢]. وتحت حكم ملوك الطوائف حرص كل واحد من هؤلاء الملوك الصغار أن يكون له ديوانه الخاص بالشعراء. وعندما قدِم ابن عمار، ولما يزل مغمورا، على المعتضد وأنشده رائيته الشهيرة، استحسنها «وأمر له بمال وثياب ومركب، وأمر أن يكتب فى ديوان الشعراء»[٨٣]. وتحت حكم المعتمد نعرف من شكوى لابن الحاج اللورقى أن القائم على دفع هذه المرتبات يدعى بن ماض[٨٤].

وأحيانا كانت المرتبات النقدية تستبدل بمحصول لأرض، أو بضيعة يمنحها الأمير للشاعر الذى يحظى بإعجابه، وكان ذلك شأن الشاعر أبى الفضل ابن شرف، حين قدم إلى بلاط المعتصم صاحب المرية[٨٥].

ولم تكن المرتبات التى يتلقاها الشعراء من رعاتهم الدخل الوحيد، ففى أوقات معينة من السنة: كالأعياد الدينية الكبرى، أو بمناسبة حدث هام، كعودة الجيش منتصرا، أو استقبال سفارة أجنبية، أو حفل إعذار، أو زواج أو غيرها، ينظم الشعراء قصائدهم، وينشدونها فى الحفل، وينالون عليها المنح والهدايا.

وهم يعترفون بلا حياء بأن مَن قُيدّ بالإحسان أُطلق لسانه بالشكر[٨٦]، ويمكنهم أن يفخروا بأن فقيها معروف فى هذا العصر، وهو ابن عبد البر، أباح قبول الهدايا، فقد بلغه وهو بشاطبة أنّ أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال:

قل لمن يُنكر أكلى لطعام الأمراء
أنت من جهلك هذا فى محل السفهاء

«لأن الاقتداء بالصالحين، من الصحابة والتابعين. وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين، فقد كان زيد بن ثابت – وكان من الراسخين فى العلم – يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما – مع ورعه وفضله – يقبل هدايا صهره المختار بن أبى عبيد، ويأكل طعامه، ويقبل جوائزه»[٨٧].

ولكن، هل كان ابن عبد البر يستطيع أن يتنبأ بأن بين الشعراء من سيبلغ حدّ السفه، فيلح فى طلب الهدايا حتى على التفاهات؟. فإذا أريد بقاؤهم يجب إذن أن تنهال عليهم الهدايا، بمناسبة أو بدونها، إلى جانب مرتباتهم الجارية، وكل ذلك من أجل كلمة طيبة، أو قصيدة، أو بيتين من الشعر، أو محاكاة بارعة.

يقول أبو مروان ابن سراج للمظفّر بن جَهْور:

أتعودُ دلوى من بحور سماحكم صِفْـرا وليست رثَّة الأشطانِ

(٨٢) انظر مقالى: استقبال الخليفة عمر بن عبد العزيز للشعراء، فى المجلة التونسية، عام ١٩٣٤، ص ٢٢٤ وما بعدها.
(٨٣) المعجب ١١٧، وترجمته ٩٩.
(٨٤) القلائد ١٤٣.
(٨٥) نفح ٣٩٦/٣، وأبحاث ط ١ ص ٩٥ و ط ٣ جـ ١ ص ٢٥٠.
(٨٦) نفح ١٩٩/٣، وانظر فيما سبق ص ٤٠ الهامش رقم ٦٤ من هذا الكتاب.
(٨٧) نفح ٢٣٥/٣.

ويكــون ربعى مستبينـا جـدبـه   حتى أهيم بـنـجـعـة الـسـدن
قِسْى بمن ينـأى بـرفْـع مكـانـه   بنـديـك العـالى وخَفْض مكـى
أمن الـسـويَّة أنْ يحلّوا بـالـربى   من أرضــهِ وأحــلّ بـالـغيــطان
إن ترخصوا خطرى فكم مُغْلٍ به   يَستـام فيـه بـأرفـع الأثمـان(٨٨)

وإذا لم ينالوا ما ينتظرون غضبوا ورحلوا. ويحدث أحيانًا أن يعاملوا فى مدينة أخرى بقسوة متناهية، فيصبح منتهى سعادتهم أن يستطيعوا العودة إلى راعيهم الأول. كتب أبو العلاء إدريس بن أزرق إلى ابن رشيق ملك مرسية، وقد طالت إقامته عند ابن عبد العزيز صاحب بلنسية:

ألا ليت شعرى هل أعود إلى الذى   عهدتُ من النعمى لديكم بلاجَهْدِ
فـوالله مـذ فـارقتكم مـاتخلَّصتْ   من الدهر عندى ساعةٌ دون ماكدّ
فمنّـوا بـإذن كى أطـيرَ إليكمُ   فلاعارَ فى شوقٍ إلى المال والمجد(٨٩)

بعد هذا المثال، ويمكن أن ندعمه بشواهد أخرى، نستطيع القول بأن الشعراء الذين كانت تجرى عليهم المرتبات ظلوا وحدهم أوفياء لراعيهم، أما الذين يعيشون على الهبات المتقطعة فيرحلون بلا انقطاع بحثا عن حظ أفضل.

وبعض الشعراء رغم أنهم يعيشون من سخاء رعاتهم، لم يكونوا ينظمون الشعر بقصد الفائدة. هل هم مخلصون حقا؟ يمكن أن نشك فى هذا، ويقول أبومحمد بن السِّيد البطليوسى:

جَفَتْنــا بـلاجـرم كــأنّ مــودّةً   ثنى نحـونـا منهـا الأعنَّـة شنـآنُ
ولو لم تُفِدْ منّا سوى الشعر وحده   لحقَّ لنـا بـرٌّ عليــه وإحســان
فكيف ولم نجعل بها الشعر مكسبًا   فيـوجبَ للمكدى جفـاء وحـرمـان
ولانحن ممن يرتضى الشعر خـطة   وإن قصرت عن شأونا فيه أعيان
ومن أوهمتــه غـيرَ ذاك ظنـونـه   فثَمَّ مجـال للمقــال ومـيـدان(٩٠)

وهذا الاهتمام الراسخ فى البحث عن المال، حتى لو صحبه احتجاج نزيه، يصدمنا بقوة، دون أدنى شك، فى مدائح شعراء العرب فى الغرب الإسلامى، وكنا نحب عفة أكثر. ولكن يبدو أن هذا الأمر كان يجرى وفقا لسلوك المجتمع وآدابه إذ ذاك، ولم يكن هذا الوضع يصدم أحدا فى هذا العصر، باستثناء رجال الدين.

وليس أقل أهمية أن نلحظ أن بعض الشعراء كانوا، بعيدا عن تسوّل أية مكافأة، يحدّدون مقدما ثمن قصيدة المديح من نظمهم، وكان الانحناء أمام إرادتهم لونا من التفضيل لمواهبهم. ألم يحك أبو على إدريس بن اليمانى أنه حلف ألاّ ينظم قصيدة مدح بأقل من مئة دينار؟ ألم يتراجع المعتضد، واشتهر بالنزوات الطاغية، أمام هذا الطلب؟(٩١).

---

(٨٨) من الكامل، قلائد ١٩٠.
(٨٩) من الطويل نفح ٣/٥٧٣.
(٩٠) من الطويل، نفح ١/٦٤٨.
(٩١) الذخيرة ٣/٣٣٦، ونفح ٤/٧٥، والشقندى، رسالة فضل الأندلس، فى نفح الطيب ٣/١٩٠، وترجمتها لغرسية غومث ٤٨.

وإذا بلغ القدر ببعض الشعراء أن يحدّدوا ثمن قصائدهم، فمن الضروري أن نشير إلى أن الهدايا التي كان يمنحها الأمراء لمنافقيهم أدت إلى الاضطراب والتشويش في خيال الشعراء وإبداعهم، فقد كانت أحيانا مفرطة باهرة، مبالغا فيها، ومعها يجد الشاعر نفسه وقد اغتنى بقية حياته. ومن هذا أن أبا بكر بن عبد العزيز نظم داليته في مدح المعتمد، إبّان معركة الزلاقة، وتلقى عليها هدية قدرا كبيرا من المال، سمح له أن يعيش هادئا في مدينة المرية، وكان يعجبه سكناها والتجارة بها[٩٢].

وكانت الظروف، فيما نعتقد، تلعب دورا هاما في الوصول إلى هذا السخاء، وليس من الصعب أن نشير إلى قصص أخرى، نرى فيها شعراء عباقرة في مستوى مادح المعتمد، يُكافَأون بعد فوات الأوان، أو يطردون دون أن يتلقوا شيئا، لسبب واحد فحسب، وهو أن الشخصية التي توجهوا إليها بشعرهم قد نَسِيتْ، أو كانت مشغولة عما تراه أهم، ويرد في الخاطر سوء حظ ابن الحاج للورقي، لأنه ترك إشبيلية. وحضر أبو جعفر بن الخرّاز البطرني، نسبة إلى بطرنة Paterna قريبا من بلنسية، جمعا للشعراء في مدينة المرية، وأحدهم أبو حفص عمر بن الشهيد الذي أنشد المعتصم قصيدته التي يقول فيها:

سُبْطُ البنان كأنّ كلَّ غمامةٍ قد رُكِّبَتْ في راحتيه أناملا
لا عيشَ إلّا حيث كنتَ وإنما تمضي ليالي العمر بعدك باطلا

فالتفت المعتصم إلى مَن حضر من الشعراء وقال: هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا؟ فقال ابن الخرّاز: نعم، ولكن للسعادة هَبّات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتاً أقول فيها:

ومازلتُ أجنى منك والدهرُ مُمْحِلٌ ولا ثمرٌ يُجْنى ولا الزرع يُحْصَدُ
ثمارُ أيادٍ دانياتٍ قطوفُها لأغصانها ظلٌّ عليَّ ممدَّد
يُرى جاريًا ماءُ المكارم تحتها وأطيار شكرى فوقهن تغرِّد

«فارتاح المعتصم، وقال: أأنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم، قال: والله كأنّها ما مرّت بسمعي إلى الآن، صدقت، للسعد هبّات، ونحن نجيزك عليها بجائزتين: الأولى لها، والثانية لمَطْل رجيها، وغمط إحسانها»[٩٣].

وقد جرى العرف على أن تُكافأ أية قصيدة بوجه ما، وقد تلقى ابن عمار في بدء حياته كيسا من الشعير مكافأة على قصيدة له. ودخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى، وكان من أعيان غرناطة، فمدحه بقصيدة، ثم بموشحة، ثم بزجل، فلم يعطه شيئا، بل شكا إليه فقرا، حتى أنه بكى، فأخذ الشاعر الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه:

شكا مثالَ الذي أشكوه من عدمٍ وساءه مثلُ ما قد ساءني فبكى
إن المقلَّ الذي أعطاك دمعتَهُ نعم الجواد فتىً أعطاك ملكا[٩٤]

---

(٩٢) نفح ٣/٥٧٠.
(٩٣) نفح ٣/٤٦٣، وأبحاث ط ١ ص ١٠٥ و ط ٣ جـ ١ ص ٢٥٧. وانظر فيما سيأتي من هذا الكتاب ص ٢٠٣، والأبيات الواردة في النص من الطويل.
(٩٤) نفح ٣/٣٤٤.

وكان بين السميسر الشاعر وبين بعض رؤساء المرية واقعٌ لمدحٍ مدحه فلم يجزه عليه، فقرر أن ينتقم منه، وحدث أن صنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية، واحتفل فيها بما يحتفل مثله فى دعوة سلطان مثل المعتصم، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان متوجها إلى الدعوة، فوقف له فى الطريق، فلما حاذاه رفع صوته بقوله:

يــاأيها الملكُ الميمــونُ طــائــرُهُ ومن لذى مَأْتَمٍ فى وجهه عُرُسُ
لا تقــربنّ طعــامًــا عنــد غيــركمُ إن الأسودَ علىً المـأكول تفتـرسُ

فقال المعتضم: صدق والله، ورجع من الطريق، وفسد على الرجل ما كان عمله[٩٥].

وكان الشاعر يقتصر غالبا على التذكير فى ذكاء بأنه فى انتظار هدية، ويعاتب ابنُ سارة القاضىَ أبا بكر ابن العربى على هذا النحو:

يــاكتــابِى بــاللهِ قَبِّــلْ يــديــه بــدلاً من فمى ففيــه احتشــامُ
ثــمّ بَــيِّنْ لــه بــأن ثــوانــى كــان عامًــا والآن قد جــاء عام
ولبيــد لم يشتــرط لبكــاءٍ غير حَوْلٍ مضى وقــال سلام[٩٦]

وقد مر ابن عمّار بقصر المعتصم بن صمادح، وحوله جماعة من الشعراء كانوا قد مدحوه، وأبطأ عنهم عطاؤه، وتعذّر عليهم القول فى استنجازه، فارتجل على ألسنتهم:

يـا أيُّها الملكُ الـذى شاد العـلا مَـعْنٌ أبـوه وخــالُــه المـنصـورُ
بفِنــاء قـصــرك عصبــةٌ أدبيــةٌ لا زال وهــو بجمعهم معمــور
زفّــوا إليـك بنــاتَ أفكــارٍ لهمْ واستبطأوك فهـل لهن مهـور؟[٩٧]

ولم تكن الهدايا التى يتلقاها الشعراء تدفع لهم عينًا أو عرضًا فحسب، وإنما كانوا يتلقونها فى شكل وظائف هامة يعهد بها إليهم، حيث تربطهم عادة بالبلاط، ويتلقون معاملة طيبة.

يقول عبد الواحد المراكشى: كان المعتمد «لا يستوزر وزيرًا إلاّ أن يكون أديبًا شاعرًا، حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء والشعراء مالم يجتمع لأحد قبلهُ»[٩٨].

ويظهر أن كلمة وزير وكانت فى الاستخدام الشائع تعنى «كاتبًا»[٩٩]، أصبحت ترادف فى القرن الحادى عشر كلمة «شاعراً» عرفا وتقليداً، لأن الشعراء وحدهم بثقافتهم الأدبية نثرًا وشعرًا، يستطيعون أن يملأوا هذه الوظائف العالية، التى تتطلب أيضًا من شاغليها، إلى جانب الذكاء السياسى، القدرة على أن يكتبوا بأنفسهم النصوص الأساسية لوزاراتهم، وندر بين الكتّاب من نال شهرة واسعة فى كتابة الرسائل خدمة لأمير ما.[١٠٠] ويذكرون كمثل فضيحة حفيد عيسى بن

(٩٥) نفح ٣٢٠/٣، والبدائع ٣٧٩، وأبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٦١.
(٩٦) من الخفيف، القلائد ٢٦٤.
(٩٧) من أنكامل، الحلة ١٦٥/٢.
(٩٨) المعجب ١٠٥، وترجمته ٩٠.
(٩٩) نفح ٣٢٣/٤، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ٦٥ - ٦٩.
(١٠٠) مثل أبى عمر بن القلاس، وأبى عبد الله بن مسلم، حيث تورد لها الذخيرة عدداً من الرسائل. انظر ٤١٨/٣ - ٤٢٦.

سعيد أبو الأصبغ، «هذا الرجل الضخم المراس فى آخر هذه «الفتنة»، المرتقى بغير أسباب متينة سماء العزة، حتى نال سامى ذروة خطة الوزارة من غير أدب ولا صنعة كتابة»[١٠١].

وكان رئيس الوزراء يحمل لقب «ذى الوزارتين» تمييزًا له عن بقية الوزراء، ويستطيع أن يخلف الأمير فى غيبته، وطبقًا لملاحظة ابن سعيد المغربى: «صار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً فى علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالمًا بأمور الملك خاصة»[١٠٢]. وطبقًا لملاحظة هذا المؤرخ نفسه «صار اسم الوزارة عامًا لكل من يجالس الملوك ويختص بهم»[١٠٣]، ويمكن الظن بأنه مادام الأمير يتذوق الأدب فلابد أن يتألف بلاطه من الشعراء بخاصة.

وثمة وظيفة أخرى يمكن أن تسند إلى الشاعر، وهى: «كاتب الزمام»، أى الشخص الذى يقوم على شئون الضرائب، وهى وظيفة دقيقة، تتطلب قدرًا عاليًا من حسن التصرف، وأمانة فوق كل الشبهات ولا يكون صاحبها «بالأندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديًا البتة، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى مصاحبة عظماء الناس ووجوههم»[١٠٥]. ولا يمكن أن يعهد بها إلى أدباء دون الوقوع فى خطر، لاشتهارهم بالعربدة والانغماس فى اللذات[١٠٦].

ولهذا السبب نفسه نفهم لماذا لم يكن يتم اختيار القائم على وظيفة صاحب الشرطة من بين الشعراء، وكان يطلق على هذه الوظيفة فى إسبانيا اسم «صاحب المدينة» و «صاحب الليل» أيضًا. لقد تغير الزمن، ولم يسجل القرن الحادى عشر، فيما يبدو، حالة تشبه تلك التى حدثت للشاعر أبى مروان عبد الملك بن إدريس الجَزيرى، فقد عيَّنه المنصور على الشرطة، لأنه ارتجل ثلاثة أبيات من الشعر أعجبته. ذلك أنّ صاعدا البغدادى دخل على المنصور فى يوم عيد، وعليه ثياب جدد، فازدحم على حافة الصهريج فسقط فى الماء، فضحك المنصور وأمر بإخراجه، وخلع عليه، وقال له: هل حضرك شيء، فقال:

---

(١٠١) البيان المغرب ٣٤/٣، وترجمة بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢١١. وهذا الوزير الذى «من غير أدب ولا صنعة كتابة» أمر المظفر ابن الحاجب المنصور بقتله. وقد انتقد أبو محمد بن جبُير (أو جُبير أو حبير) فى بعد الكتّاب فى عصر المرابطين. يقول:

رأيت الكتابة والجاهلو	ن قد لبسوا عزّها لامـ
فـلـت لـكـل فـتى كـاتـب	بديع الفصاحة علّامـ
إذا عـزّ غيـركـم بـالـداد	فلا أنبت الله أقلامـ

وهى من المتقارب، القلائد ١٥٦.

(١٠٢) ابن سعيد فى نفح ٢١٧/١.

(١٠٣) ابن سعيد، فى نفح ٢٦٦/١.

(١٠٤) ابن سعيد، فى نفح ٢١٧/١.

(١٠٥) ابن سعيد فى نفح ٢١٧/١.

● قلت: هذه الفقرة على أهميتها أتى بها المؤلف فى الهامش دون مبرر، مع أنها تكمل ما قبلها، وأوردها صاحب النفح فى فقرة واحدة، فرددناها إلى مكانها فى الأصل للتوضيح. (المترجم).

(١٠٦) ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٣ ب.

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضَرْط ابن وهب ثم وَقْعَةُ صاعدِ
فاستيردوا ما أتى به، فقال الجزيرى، هلاّ قلت:
سروري مبغرّتك المُشْرقة وديمة راحتك المغدقةْ
ثنائيَ نشوان حتى غرقـ ـتَ فى لجةِ البركة المطبقة
لئن ظلّ عبدُك فيها الغريق فجودُك من قبلها أغرقه
فقال المنصور: لله درّكَ يا أبا مروان!، قسناك بأهل بغداد ففضلتهم، فبمن تُقاس بعد؟، وأنهضه يومئذ للشرطة»[١٠٧].

ويمكن أن تؤدى الصداقة أيضًا إلى تعيين شاعر البلاط حاكمًا على مدينة، وذلك ما وقع لأبى الحسن ابن الربيع، فقد صحب المعتمد فى حملة له جنوب شرقي شبه الجزيرة، وذات ليلة استدعاه المعتمد ليعترف له بأشواق اجتاحته، وحنينًا نازعه إلى محظيته أم عبيدة، وأسمعه أبياتًا من الشعر أوحتها المناسبة، فكرّر أبو الحسن استجادتها، «فأمر له بخمس مئة دينار، وولاّه لورقة من حينه»[١٠٨].

وخارج نبلاط كان يعهد إلى الشعراء، فى حالات غير قليلة، بالسفارة للأمير، فأرسل زهير الصقلبى صاحب المرية وزيره أبا جعفر بن عباس، وفى رفقته عدد من الكتاب والشعراء بينهم ابن برد وأبو بكر المروانى، وابن الخياط، والطبنى، لمهمة سياسية فى قرطبة[١٠٩]. وبعد ذلك بقليل عهد المعتصم بن صمادح صاحب المرية لأبي الأصبغ ابن أرقم، يصحبه أبو عبيد البكرى، وأبو بكر ابن صاحب الأحباس، بمهمة سياسية شبيهة بهذه التى سبقت لدى المعتمد بن عبّاد[١١٠]. وطبيعى أن أولئك وهؤلاء أعلنوا عن وصولهم بأبيات من الشعر، وشعرًا ردّ عليهم الأمير، وحين وقع خلاف بين ابن ذى النون والمعتمد بن عباد، حاول أمراء بلنسية وسرقسطة والمرية أن يوفقوا بينهما، وأرسلوا إلى إشبيلية سفيرين ندرك من واقع اسميهما أنهما من المولّدين: أبا عثمان بن شنتفير Santa ver، وأبا عامر بن غند شالب Gundisalvo، ولن ندهش إذا عرفنا أن أوضح حليف لهم داخل القصر كان القائد ابن مرتين Martin. وهؤلاء أيضًا إذا كان لديهم التماس يتقدمون به، فسوف يصنعون ذلك شعرًا[١١١].

وهؤلاء الشعراء المسلمون لم يكونوا يُوَجّهون إلى الملوك المسلمين فحسب، ولكن أيضًا إلى بلاطات ملوك النصارى فى شمال إسبانيا، وهذا مايسمح لنا أن نعتقد أنّه كان عليهم أن يعرفوا الرومانثية، وأن يتكلموا بها على نحوما، قلّ أو كثر. ونعرف أنّ الكاتب أبا أمية ابن هاشم القرطبي، واتخذ من تطيلة مقاما أثناء «الفتنة»، أرسل فى مهمة إلى دون سانتشو (شانجه) ملك نبرة،[١١٢] وأنّ ابن عمّار كان عمل المعتمد عند ألفونسو السادس، لحل بعض المشاكل الخاصة بالجزية والحدود.[١١٣]

---

(١٠٧) القلائد ٩ – ١٠، وعنه فى نفح ٢٧٨/٤، وبنو عباد ٤٤/١، وترجمته ١٠١. ونضيف أن ابن اليسع كان يحمل لقب ذى الوزارتين.

(١٠٨) الذخيرة ٣٠٥/١.

(١٠٩) القلائد ٨، وعنها فى «بنو عباد» ٤٢، والترجمة ٩٥.

(١١٠) نفح ٤٠٥/٣. وأسفوا فى بيت من الشعر لأنهم حرموا من شرب النبيذ.

(١١٢) الذخيرة ١٨٣/١، ونعرف منه أنه وجد الأمير المسيحى يرتدى ثيابًا على الطريقة الإسلامية، ولكنه حاسر الرأس

(١١٣) الحلة السيراء ١٣٣/٢، وخريدة القصر فى «بنو عباد» ٣٨٦/١.

○ الفصل الخامس:

حياة البلاط فى نتاج الشعراء

عندما أضفى ملوك الطوائف حمايتهم، وقدموا مساعدتهم، لكل ذوى النباهة والذكاء، وللشعراء من بينهم بخاصة، لم يفعلوا أكثر من بعث، أو مواصلة، تقليد قديم، يقدر دور الشعراء فى المجتمع الإسلامى من كل جوانبه. ولقد ساعد الشعراء خلال الحكم الأموى فى المشرق الخلفاء السفيانيين. ومن بعدهم المروانيين، فى جعل فكرة الخلافة الوراثية مقبولة، وقاتل ضدها الخوارج والشيعة من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة[1].

وتحت الحكم الأموى فى إسبانيا أسهم الشعراء فى تثبيت الحكم الجديد وتقويته، وعندما أراد المنصور العظيم بدوره أن يثبت سلطته، عرف كيف يكسب الشعراء الإسبان إلى جانبه، ولم يتردّد فى أن يعلن رداً على انتقادات خسيسة وجهها إليه ناظمون غيورون: إن الشعر والأدب شوهد بليغة على عظمة أية حكومة[2].

وحين سقطت الدولة الأموية حاول الشعراء أن يبرّروا إدعاءات المطالبين بالخلافة من أوائل ملوك الطوائف، ممن هم من أصل بربرى أو أندلسى[3]. وعندما استبعد موضوع الخلافة نهائيًا اكتفوا بالإشادة بفضائل رعاتهم، والاحتفاء شعرًا بأمجادهم فى السلم والحرب، ولكن تناثر شبه الجزيرة مزقا جعل من هذه الأسر ممالك ذات سلطان مزعزع دائمًا، ولم تكن بلاطاتهم فى الحقيقة، وهى برّاقة فى الظاهر، غير ندوات تعيش فى رعب من الملك المسيحى، وله يدفعون الجزية سنويًا.

ومع ذلك، رسم الشعراء لهذه البلاطات لوحة زاهية من الثناء والإطراء، سواء فى مدائحهم أم فى مراثيهم، وكان دورهم يضطرهم، رغم كل شىء، إلى المجاملة دائمًا. ويمكن بهذه المناسبة أن نردّد هذه العبارة: «إن الغلوّ آفة المديح»[4]. وكان هناك تباين واضح بين الأشخاص والمديح الموجه إليهم، حتى أننا نسأل أى خداع بصرى هذا الذى استطاع أن يجد علاقة بينهما.

وهكذا أصبح شعر البلاط وسيلة لقتل الوقت بلا فائدة، وتفرغ له كبار الشعراء فى اجتهاد عظيم وجدية تامة، ولم يلمهم أحد على مافعلوا، لأنهم لم يصنعوا أكثر من الالتصاق ببدعة العصر الشائعة.

---

(١) انظر: هـ. لامنس، دراسات عن معاوية، فى «مجموعة مقالات الكلية الشرقية»، بيروت، المجلد ٢، عام ١٩٠٧، ص ١٥٨، وجودفروى - ديموبين، العالم الإسلامى حتى الحروب الصليبية، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ودييل وجورج مرسيه، العالم الشرقى من ٣٩٥ إلى ١٠٨١، ص ٣٤٤، ور. بلاشير، أبو الطيب المتنبى ٦ - ١٢.

(٢) نفح ٣/٣٦٤ - ٣٦٦.

(٣) بعد قليل سوف نقول كلمات بمناسبة دور الكتاب الذى لعبه الشعراء.

(٤) نفح ٣/٤٣٢.

ماذا يمكن أن تقول مثلاً فى ابن زيدون، وهو يتغنى بانتصارات بنى جَهْور على بنى ذكوان وبنى خِدام، ولم يكونوا غير جماعات تافهة تقيم حول قرطبة:

هُمُ الملوكُ، ملوكُ الأرضِ دونَهُمُ ... كمثل بيضِ الليالى دونها الدُّرَعُ

....

مُهذَّبٌ أخلصَتْهُ أوّليَّتُه ... كالسيف بالَغ فى إخلاصه الصَّنَعُ(٥)

ويُصدم المرء من المدح بالشجاعة والكرم يُوزَّعان بلا تمييز ولا حساب، وهم يصفون صغار الملوك جميعًا هؤلاء، بأنهم صواعق حرب، أو ينابيع سخاء لا تجف، وأصبحت الصور المشرقية قوالب يرددونها كثيرًا، حتى أنها فقدت تدريجيًا مابقى لها من معنى. ومع ذلك، بذل الشعراء الإسبان جهدهم، وهم يرددونها، فى تجديد التعبير، ولم يهربوا من التقليد حين يستطيعونه، اكتفاء بتعديلها قليلاً، أو المبالغة فيها شيئًا، عندما يسمح لهم بذلك معجمهم اللغوى، ولهذا يقول ابن عمار عن المعتضد:

عبّادُ المخضرُ نائلُ كفِّهِ ... والجوُّ قد لبس الرداءَ الأغبرا

يختارُ أن يهب الخريدةَ كاعبًا ... والطرفَ أجردَ والحسامَ مجوهرا

قدّاح زندِ المجد لاينفك عن ... نارِ الوغى إلاّ إلى نارِ القرا(٦)

ونجد الصورة نفسها تقريبًا فى مدح ابن زيدون لابن جَهْور:

وفى الرثاء ينادون السحب، كما هو الحال عند المشارقة، لتروى قبرا ضم أكرم الرجال، وخلفه الأمير الأكثر شجاعة على وجه الأرض، يقول ابن زيدون فى رثاء المعتضد:

وعاهَدَ ذاك اللحْد عهدُ سحائب ... إذا استعبرتْ - فى تُربه - ابتسم الزهرُ

ففيه علاءٌ لايُسامى يَفاعُهُ ... وقدْرُ شبابٍ ليس يعدلهُ قدرُ

وكيف نسيان وقد ملأتْ يدِى ... جسامُ أيادٍ منك أيسرُها الوفرُ

وبعد ذلك يتوجه إلى خليفته قائلاً:

هُمامٌ إذا لاقى المناجزَ ردّهُ ... وإقبالهُ خَطْوٌ، وإدبارُه حُضْرُ

عطاءٌ ولا منٌّ، وحكمٌ ولا هوى ... وحِلْمٌ ولا عجزٌ، وعزٌّ ولا كِبْرُ(٨)

وأضاف شعراء البلاط إلى وصف ممدوحيهم بالشجاعة والكرم صفة الأصل العريق أيضًا، وفى هذه الحالة قد تصبح المبالغة غشاً، لأننا نعرف كم هو قليل الدم العربى الذى يجرى فى عروق الإسبان المسلمين، ولو أن الأمراء أنفسهم كانوا يحبون أن يبحثوا عن أمجاد أسلافهم من العرب الخلّص، ولم يجد الشعراء بدا أن يُشبعوا فيهم هذه الرغبات. لقد مدح ابن اللبّانة بنى عباد بأنهم ينحدرون من نسل المنذر بن ماء السماء:

---

(٥) من البسيط، الديوان ٢٩٨، وكور، ابن زيدون ٩٣، والهامش ص ١٤١ - ١٤٣.

(٦) من الكامل، القلائد ٩٦، والمعجب ١١٥، وترجمته ٩٨.

(٧) من السريع، لديوان، وكور، ابن زيدون ٨١.

(٨) من الطويل، الديوان ٥٦٥ و ٥٦٨ و ٥٧٥ و ٥٧٦، وكور ص ١٤٦ - ١٤٨.

من بنى المنذرِ بن ماء السماءِ   زاد فى فخره بنو عبّادِ
فِتيةٌ م تلد سواها المعالى   والمعالى قليلةُ الأولاد[٩]

ولكن شاعرا قدم من تحت، من التسعب، لم ير نفسه ملزمًا فى لحظة فاض فيها غضبا وإحباطا أن يخفى أفكاره، فقال فى هجاء بنى عباد:

ألاَ حيِّ بالغرب حيًّا حِلالاَ   أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالا
وعرّجْ بيومين[١٠] أم القرى   عسى أن تراها هناك خيالا[١١]

إنّ أى شاعر آخر لا يستطيع أن يظهر سخافة اللعبة، التى سيقو إليها، وأُرغموا على القيام بها، بأوضح مما يظهرها هذا الشاعر!.

إن مطالب أمراء إشبيلية وقرطبة والمرية يمكن الدفاع عنها تمامًا من وجهة نظر مفهوم الأنساب العربية، ولكن ماذا نقول عن صغار الملوك الآخرين فى شبه الجزيرة ، ممن ينحدرون من أصول بربرية خالصة لاشبهة فيها، مثل بنى الأفطس فى بطليوس، وبنى ذى النون فى طليطلة، عندما يصفونهم بالعروبة ؟

لقد مدح ابنُ شرف القيروانى المظَفّرَ والد المتوكل، وهو من بنى الأفطس بهذين البيتين:

يا ملِكًا أمستْ تُجيبٌ به   تحسدُ قحطانَ عليها نِزارْ
لولاك لم تشرقْ معدٌّ بها   جلَّ أبو ذرٍّ فجلَّتْ غفار[١٢]

ولم يستطع ابن حيّان وأورد هذه الأبيات إلاّ أن يُعقّب عليها ملاحظا: «ومن النادر العريب انتماؤه فى تجيب»[١٣].

وسنرى فيما بعد، فى أحد الأبيات الثلاثة التى خص بها ابن الحاج اللورقى عزل ملوك الطوائف أن باديس أمير غرناطة، وذى النون أمير طيطلة اعتبرا من حِمْير[١٤]. وبعد ذلك بقليل، افتخر السقندى فى رسالته الشهيرة التى أشاد فيها بإسبانيا والأندلسيين، وحقّر البربر، بأن من الملوك العربية الذين عرفتم إسبانيا فى القرن الحادى عشر: بنو ذى النون وبنو هود![١٥].

---

(٩) من الخفيف، الحلة ٣٥/٢، وعنه فى بنو عباد ، ٤٧/٢، والمطرب ١٤.

● قلت: ورد البيت الأول فى الأصل على هذا النحو، وهو واضح الانكسار، وقد صوّبه دوزى على النحو التالى:

من بنى المنذرين وهو انتسابٌ   زاد فى فخره بنو عباد

انظر: بنو عباد ٤٧/٢ (المترجم).

(١٠) يُومين قرية فى مركز Tocina، على ضفاف الوادى الكبير. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا.

(١١) هذا الشاعر هو ابن عمار. انظر: الحلة ٦٣/١، والأبيات من المتقارب، ويفسرها دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١١٣، بأن ابن عمار يهجو بنى عباد بأنهم رغم كل شىء ليسوا إلا فلاحين من أصل مغمور، من قرية يومين، «أم القرى» تلك، كما يقول عنها ساخرا وانظر أيضا المصدر نفسه، ط ٢ جـ ٣ ص ٧.

(١٢) من السريع، أعمال الأعلام ١٨٣، والحلة ٩٧/٢، وعنها فى أبحاث، ط ١ ص ١٧٢.

(١٣) المصادر نفسها التى وردت فى الرقم السابق.

(١٤) انظر فيما سيأتى ص ٩٧ من هذا الكتاب. وقد احتفى الشعراء بالمرابطين على أنهم حميريون، والموحدين على النقيض، انتموا إلى قيس عَيْلان، وهم معديون، أى مضريون.

(١٥) الشقندى، رسالة فى فضائل الأندلس، نفح ١٩٠/٣.

○ الفصل السادس:

الشاعر مؤرّخًا

كان الشعراء شيئا أكثر من مجرد منافقين يبذلون جهدهم فى إبراز فضائل ومزايا ليست موجودة إلا فى خيالهم، فقد وجدت الأحداث التاريخية التى شاركوا فيها، أو شاهدوها، صدى فى قصائدهم، ومن هنا يصبح الشعر مساعدا قيما للتاريخ، وإذا لم يعرف، أو يهدف، إلى عرض كل شىء، أو شرح كل شىء، فهو يوضح، على الأقل، أحداثا كثيرة تبدو بدونه غامضة، وفى حالات أخرى يكشف لنا ردود فعل ذات طابع نفسى، تتركها المدوّنات التاريخية فى الظلام الدامس كلية.

هل يمكن أن نجد لوحة تصور لنا فى روعة لا يُعلى عليها، لا مبالاة أواخر خلفاء بنى أمية، خلال عصر «الفتنة»، أفضل من بيتىْ ابن أبى عَبْدة، وتولى الوزارة مع المستظهر:

إذا غبتُ لم أُحضر وإن جئتُ لم أُسَلْ ... فسيّانِ منّى مشهدٌ ومَغيبُ
فأصبحتُ تيميًّا، وماكنت قبلها ... لتيْمٍ، ولكنّ الشبيهَ نسيبُ[1]

ألا يظهر الشاعر قدرا من الشجاعة حين يدين العادات الواهية لمن بين أيديهم قَدَر الخلافة؟:

إذا كان مثلى لايُجازى بصبره ... فمن ذاالذى بَعْدى يُجازى على الصبر
وكم مشهدٍ حاربتُ فيه عدوَّكم ... وأمّلتُ فى حربى له راحةَ الدهرِ
أخوضُ إلى أعدائكم لُجَجَ الوغى ... وأسرِى إليهم حيث لاأحدٌ يسرى
وقد نامَ عنهم كلُّ مُستبطِنِ الحشا ... أكولَ إلى المُمْسَى نؤوم إلى الظهر
فمابالُ هذا الأمرِ أصبح ضائعًا ... وأنت أمينُ اللهِ تحكم فى الأمر[2]

ولكن أعنف ردود الفعل عند الشعراء نجدها ضد البربر، حتى لو كانوا أندلسيين، إرضاءً لطموحات سياسية قد تبرّرها الفوضى السياسية إلى حد ما، وقاموا بدور عدو الإسبان المسلمين. والشعراء فى هذه الظروف، حتى لو اضطروا إلى الاعتراف بأنهم كانوا مأجورين لهذا السيد أو ذاك من الرؤساء السياسيين، يعبرون بصدق عن رأى الشعب تقريبا. وأحدهم[3] رمى بهذه الأبيات فى وجه الخليفة سليمان المستعين، وكان يعتمد على البربر:

لا رحمَ اللهُ سليمانكم ... فإنه ضدُّ سليمانِ

---

(١) من الطويل، المطمح ٢١٤، وعنه فى نفح ٤٣٦/١ و ٥٤٩/٣.

● قلت: يشير فى البيت الثانى إلى قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود

(المترجم)

(٢) من الطويل، نفح ٤٣٧١، والأبيات لابن أبى عبدة أيضا.

(٣) يُدعى ابن خلدون طبقا لنفح الطيب ٤٢٩/١، وترجمها دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٣٠٩، وهى من الطويل.

ذاكَ بــه غُلّت شيــاطينُهــا   وحــلَّ هــذا كــلُّ شيــطن
فبــاسمه ســاحتْ على أرضنــا   بِهَــلْكِ ســكّــانٍ وأوطــن

ولم يكن لدى سليمان المستعين نمّامين مغتابين فحسب، وإنما عنده شاعره الرسمى أيضا: أبو عمرو بن درّاج القسطلى، وخص راعيه بقصيدة مدح تضم أكثر من خمسين بيتا من الشعر، ودافع عن حقه المشروع فيما يدعيه، وما هو أصعب من هذا، برّر تحالفه مع البربر، زناتية أو صنهاجيين[٤].

وقد عانى الخليفة المدّعِى، متألما دون شك، من قيود البربر، مما أثار ضده الكراهية وأحقادا جديدة، بما فيها من البربر أنفسهم، وبعد لحظة ضياع أحس على التأكيد أن مزاجه الإسبانى لا يمكن أن يسعد من خلال تحالفه مع أولئك الذين بسبب جنسهم كانوا ألدّ أعدائه وأكثرهم شراسة. لم يشرح لنا المؤرخون سبب كراهية البربر فجأة للمستعين، ولكن الشعر قدّم لنا مفتاح هذا التغيير المفاجئ: لم يصنع أكثر من تأكيد العداوة العنصرية التى أثارت عنصرا ضد آخر، أو إن شئت أثارت الأفارقة ضد الإسبان.

لقد نظم المستعين الأبيات التالية، مستريحا بها إلى جماعة من خواصه، جلّهم من البربر[٥]:

حلفتُ بمن صــلّى وصامَ وكبّــرا   لأغمــدهــا فيمن طغى وتجبّــرا
وأبصــر دينَ الله تحيــا رســومُــه   فيدّلَ مــاقــد لاح منها تغيّــرا
فــواعجبًــا من عَبْشمىٍّ مُمَلَّكٍ   بــرغمِ العــوالى والمعالى تَبَرْبــرا
فلو أنّ أمــرى بــالخيــارِ نبذتُهمْ   وحــاكمتهمْ للسيف حكمًا محــرَّرا
فــإمّــا حيــاةٌ تُسْتلذّ بفَقْــدهــمْ   وإمّا حِمامٌ لانــرى فيه مــاترى[٦]

ونظم المرتضى المروانى، الذى خلف على بن حمّود خليفةً على الأندلس الأبيات الهجائية المحرقة التالية ضد البربر:

قــد بلغَ البــربــرُ فينــا بنــا   مــا أفســدَ الأحــوالَ وانــتظما
كــالسهمِ للطائــر لــولا الــذى   فيــه من الــريش لمــا أصْمى
قــوموا بنــا فى شأنهم قَــوْمةً   تــزيــلُ عنّــا العــارَ والــرَّغْمــا
إمّــا بهــا نمــلك، أو لا نــرى   مــا يرجع الطرفُ به أعمى[٧]

الشعراء إذن يلقون المزيد من الضوء على بعض أحداث «الفتنة» السياسية، وكثيرون منهم يوضّحون الأسباب الخفيّة التى دفعت البربر والإسبان إلى اتخاذ موقف الخصومة المميتة، ولولاهم لبدت لنا الأحداث غامضة غير مفهومة.

● ● ●

أيضا يقدم لنا الشعراء معلومات عن هذا الجانب من الصراع الذى تواجه فيه البربر والأمويون،

(٤) أعمال الأعلام ١٢٣ – ١٢٥.
(٥) نفح ٤٢٩/١، وترجمها دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢، جـ ٣ ص ٣٠٩، ونسبها إلى الشاعر المذكور الذى أشرنا إليه فيما سبق، وهى من الطويل.
(٦) من الطويل، عن موت سليمان المستعين انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣١١ – ٣١٤.
(٧) من السريع، نفح ٤٢٩/١ – ٤٣٠.

والذى أهمله المؤرخون عربا وأوربيين، أو بالكاد رسموا له صورة مجملة، ونعنى به الجانب الدينى الذى التزمته القوت البربرية قريبا من نهاية خلافة المستعين.

●●●

وقد أدت الاضطرابات السياسية التى ميزت مطلع القرن الحادى عشر، فيما يبدو، إلى قيام البربر المنشقين عن الجماعة، بمحاولة بعث مذهب الخوارج، وكان قبلها، فى القرن الماضى، قد أغرق إفريقية فى بحر من الدماء، واستقر فيها حتى اليوم فى صورة الإباضية. واحتفظ لنا ابن بسّام بفقرات من رسائل كتبها فى العصر الذى نعرض له ابن بُرْد الأصغر على لسان سليمان المستعين، داعيا الشعب إلى الابتعاد عن اثنين من الخوارج الدسّاسين، يُسمّيان: المعَيْطِى والتاليسى[٨]، وأخرى باسم الخليفة نفسه إلى ابن صمادح السرقسطى يعرض عليه النتائج المترتبة على سوء سلوك الخوارج[٩].

أما سادة قرمونة: محمد بن عبدالله وابنه إسحاق، من بنى برزال، وهم من أصل زناتى، فقد اشتهروا بأنهم الوحيدون وقومهما من بين كل بنى برزال الذين اعتنقوا «مذهب الناكرين من فرق الإباضية الخوارج»[١٠]. ويضيف ابن الخطيب، وهو الذى ذكر هذه الوقائع نقلا عن ابن حيّان، وطبقا للمصدر نفسه، إن أعمال هؤلاء البربر وأقوالهم فيما يتصل بهذا الموضوع معروفة[١١]، ويؤكد ابن عمّار فى إحدى مدائحه للمعتضد هذه المعلومات:

تعـاطى الخــوارجَ حتى بــرزْتَ ... تقـوّم من خـدُهـا مـاصعَـر°[١٢]

ويعبر ابن الحدّاد بالطريقة نفسها، فى قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:

وكم قد رأتْ رأىَ الخوارجِ فرقةٌ ... فكنتَ عليًّا فى حروب شراتِها
بـعـزمٍ أبِىٍّ لايُـردّ مـضـاؤهُ ... وهل تُمسك الأفلاكُ عن حركاتها
هو الحاعلُ الهيجا حشًا وسنانـه ... هوىً فهو لايعدو قلوب كماتها[١٣]

والتزم المؤرخون العرب الصمت باتفاق عن كل ما يتصل بأخبار الشيعة تحيّزا ضدهم. ولقد خلف القاسم بن حمود أخاه عليًّا، المتوفى عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٧ م، ويقول عبد الواحد المراكشى: «وكان أسنّ منه بعشرة أعوام، وكان وادعًا، أمن الناس معه، وكان يذكر عنه أنه تشيّع، ولكنه لم يُظهر ذلك،

---

(٨) الذخيرة ١١٤/١، وفى طبعة القاهرة، وطبعة إحسان عباس «الطالبى» بدل التاليسى.

(٩) الذخيرة ١١٦/١.

(١٠) عن هذه الفرقة انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٧٢٢/٢، والمصادر المذكورة هناك، ورحلة التيجانى، النص العربى، طبعة وليم مرسيه ٨٧، وترجمة روسو فى المجلة الأسيوية السلسلة الرابعة، المجلد ٢٠، عام ١٨٥٢، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(١١) أعمال الأعلام ٢٣٧، ومن المحتمل أيضا أن بنى دمّر سادة مَوْرور كانوا من الخوارج الإباضية، لأن أصلهم من قابس. انظر: مدونة مجهولة عن ملوك الطوائف، ونصها فى البيان المغرب ٢٩٥/٣، وترجمة ليفى بروفنسال لها فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣١٩.

(١٢) من المتقارب، القلائد ٨٩، و «تقوم من خدها ما صعر» اقتباس من القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية ١٨، ووردت أيضا فى بيت للمتلمس، انظر ديوانه، طبعة فوليرز، ليبزيج ١٩٠٣، ص ٢٠، القطعة رقم ١، البيت ٧.

(١٣) من الطويل، الذخيرة ٧١٤/١.

● قلت: فى الأصل، فى البيت الثانى «وهل تلك الأفلاك»، ولا معنى له، وقد صوبته على النحو الذى هنا. (المترجم).

ولا غيّر على الناس عادة ولا مذهبا، وكذلك سائر من ولى منهم (الضمير يعود على بنى حمود) بالأندلس»[(١٤)].

ولكن الشعراء على النقيض من المؤرخين، ونفهم منهم أن حركة شيعية قوية إلى حد كبير، ظهرت أثناء الفتنة، وأن محرّكيها هم الأمراء العلويون، أى بنى حمّود، ويدّعون أنهم ينحدرون من نسل على بن أبى طالب، ابن عم الرسول وزوج ابنته، ويروى لنا ابن خاقان فى «المطمح» المضايقات التى عاناها أبو عامر بن شهيد من جانب العلويين، بسبب خلاعة شعره، وسخريته فى قصائده[(١٥)].

ويبدو الشعر الذى نظمه الشاعر بهذه المناسبة متناقضا مع ما أورده المراكشى، فقد ضغط بنو حمّود على الناس الذين يحيطون بهم لكى يغيّروا عاداتهم وأفكارهم التى لم تكن شيعية تماما. ولكن ليس من الضرورى، دون أدنى شك، أن نرى فى الاجراءات الجبرية التى اتخذوها ضد ابن شهيد أكثر من الرغبة فى إصلاح العادات، وأنها مجرد فصل فى الحملة الروحية التى يطلق عليها رجال الدين: «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، والتى تقع على عاتق الإمام بخاصة، بوصفه أمير المؤمنين.

كان المؤسس الحقيقى للمذهب الشيعى فى إسبانيا، كما نفهم من الشعراء، وعلى النقيض من تأكيدات عبد الواحد المراكشى، هو على بن حمود، وقد بايعه البربر بالخلافة بعد موت المرتضى، ولم تنقطع المدائح حارة وصادقة، ونعتقد أنهم كانوا مخلصين ونزهاء مثل خصومهم من دعاة الأمويين المروانيين، عن إظهار شرعية مطالبة الحموديين بحقهم فى الخلافة بوصفهم علويين.

ولقد عاد ابن درّاج القسطلى، وأسرنا إليه من قبل شاعرا بأجر عند سليمان المستعين، فى اللحظة التى رآها مناسبة له، يدافع عن الناصر على بن حمّود، وعن الحمّوديين[(١٧)].

ويجب أن نعترف، ونحن أكثر اقتناعا، بأن شاعرا آخر تميز بفضيلة الإخلاص، وظل وفيًّا للحمّوديين وللأفكار الشيعية طيلة حياته، ونعنى به: أبا بكر عُبادة بن ماء السماء،[(١٨)] إذ ارتبط بالمذهب الشيعى كلية، وكل مؤلفاته وقفها على الإشادة بالناصر على بن حمود، وما اتصل به من وقائع وأحداث، وتوفى قبل نهاية الفتنة، مما جنّبه أن يشهد فشل أفكاره، وكانت جدّ هامة بالنسبة له، وقد أهدى الأبيات التاليه إلى على بن حمود:

أبوكم علىٌّ كان بالشرقِ بَدْءَ ما ... ورثتمْ، وذا بالغرْبِ أيضًا سمّيهُ
فصلُّوا عليه أجمعون وسلِّموا ... له الأمرَ، إذْ ولّاهُ فيكم وليُّهُ[(١٩)]

ويقول فى قصيدة أخرى:

أبىَ لكَ أن تُهاضَ عُلاكَ عهدٌ ... هشامىٌّ وجدٌّ هتامىٌّ

---

(١٤) المعجب ٥٠، وترجمته ٤٣، ويرى دوزى أن إسبانيا لم تعرف المذهب الشيعى حتى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى، انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٢٤ - ١٢٨.

(١٥) المطمح ١٩٨، وانظر فيما سيأتى ص ١٠٠، الهامش رقم ٥٨.

(١٦) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه فى نفح ٣٦١/٣، وانظر فيما سبق ص ٦٦ من هذا الكتاب.

(١٧) من المتقارب، انظر: ر. بلاشير، حياة ابن دراج وشعره، فى هيسبيرس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، ص ١٢ - ١٣.

(١٨) توفى فى شوال ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م، طبقا لأبى عامر بن شهيد، أو بعد شتاء عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م، لمرعب، طبقا لابن حزم. ويجب ألّا نخلط بينه وبين آخر يسمى أيضا ابن ماء السماء، وعاش بعد ذلك بقليل، وارتبط بالمعتصم أمير المرية بخاصة. انظر عنه: الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(١٩) من الطويل، نفح ٤٨٤/١، ولم يذكر غير هذين البيتين وهما من قصيدة طويلة.

وما سُمّيتَ باسمِ أبيك إلّا ليحيا بالسميِّ له السميُّ
فإن قال الفخورُ أبي فلانٌ فحسبكَ أن تقول أبي النبيُّ[٢٠]

تبدو لنا الأفكار التى أثارها عبادة بن ماء السماء للدفاع عن بنى حمود واهية، وعبثا نفتش عند شاعرين شيعيين آخرين هما: ابن الحنّاط الكفيف القرطبى، وابن مقانا الإشبونى، عن حجج أكثر إقناعا.

لقد استخدم الأول[٢١] كلمة «فاطمى» فى إحدى قصائده، يصف بها الخليفة الحمودى[٢٢]، ونسأل: ألا يريد الشاعر بها أن يشير إلى أن الأمير يستلهم مبادئ الشيعة فى سلوكه السياسى والدينى، كما نمت وتطورت فى إفريقية[٢٣].

أمّا زيد بن مقانا الإشبونى فيستحق منا وقفة أطول، وتركيزًا أشد، للمدائح التى خص بها الأمير الحمّودى إدريس بن يحيى المعتلى، لا لأنه جاء بأفكار جديدة تدعم جانب العلويين، فهؤلاء الشعراء يكررون أنفسهم كما رأينا دون أن يملوا، وإنما لأنها تؤكد على تقليد هؤلاء الأمراء لمراسم البلاط المشرقية:

وكأنّ الشمسَ لمّا أشرقتْ فانثنتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وجهُ إدريسَ بن يحيى بن على بن حمّودٍ أميرِ المؤمنين

....

يا بنى أحمدَ يا خيرَ الورى لأبيكم كان وفدُ المسلمين
نزل الوحيُ عليه فاحْتَبى فى الدجى فوقهمُ الروحُ الأمين[٢٤]
خُلقوا من ماءِ عَدْلٍ وتُقىٍّ وجميعُ الناسِ من ماءٍ وطين
انظروا نقتبسْ من نوركمْ إنه من نور ربِّ العالمين[٢٥]

---

(٢٠) من الوافر، الذخيرة ٤٧٨/١.

(٢١) أصابه العمى فى باكر حياته، ومع ذلك نال شهرة واسعة، أديبا وطبيبا معالجا، وعاش فى الجزيرة الخضراء ومالقة بخاصة. وجاءه الموت عام ٤٣٧ = ١٠٤٥ فى اللحظة التى وضع فيها ملوك الطوائف الصغار حدا لقضية الخلافة، واقتسموا مقاطعات إسبانيا فيما بينهم.

(٢٢) ويصف الأديب غانم بن الوليد فى رسالة له إدريس العلى بالله: «الإمام الهاشمى، والملك الفاطمى، والفرع العلوى»، الذخيرة ٨٦١/١

(٢٣) استرعى اهتمامنا فى بيت من الشعر لابن شهيد، سوف نذكره فيما بعد، غموض كلمة «تمصّر» التى استخدمها الشاعر بمناسبة حديثه عن سكان قرطبة، وهذا الاستخدام الحديث للكلمة [فى تلك الأيام] يمكن أن يعنى: «أنهم أصبحوا يشبهون أهل مصر، ويمكن أيضا أن تعنى أنهم أصبحوا أنصار الأمراء الفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر». انظر فيما بعد ص ١١٢ هامش رقم ٣١ من هذا الكتاب، فهناك بيت الشعر الذى نشير إليه.

(٢٤) قارنه بما ورد عند ابن عبدون، البيت ٤١، فى المعجب ص ٨٤، وترجمته ٧١، والهامش رقم ١:

وأسبلت دمعة الروح الأمين على دمٍ بفخٍّ لآل المصطفى هدرُ

وانظر: دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٣٨، وقد ترجم «الروح الأمين» بالملاك جبريل. وعن «الروح الأمين» انظر: القزوينى، عجائب المخلوقات ص ٥٤، والقرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية ١٩٣.

(٢٥) من الرمل، نفح ٤٣٣/١، ويذكر النفح البيت ٢٠ أو ٢١ و ٣٠ مرة أخرى فى ٢١٤/١، وانظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٣٨ - ٣٩.

وهذه الأبيات الأخيرة أحدثت، فيما يزعم المقّرى، تأثيرًا قويا فى الحمّودى، الذى استمع لها من وراء ستار تقليدا للخلفاء العباسيين، حتى أنه أمر حاجبه برفع الستارة، ثم نهض واقترب من الشاعر، وواجهه دون أى فاصل، وأمر بأن يوصل بهدية عظيمة.

اختفت الاهتمامات الدينية تماما، مع ملوك الطوائف ومع أمراء غرناطة ومالقة من البربر، وورثوا الخلفاء الحموديين، ولو أنهم صنهاجيين، وليسوا موالين للشيعة كما كان سابقوهم هنا، و أسلافهم فى إفريقية[٢٦]، وإنما هم بربر فحسب، وقبل أى شيء، ولو أنهم - من جانب آخر - تأندسوا فى سرعة كبيرة جدا، وهكذا تبخر آخر عامل فكرى كان يمكن يُنهض المسلمين ضد المسيحيين، وفيما تلا ذلك، واصلت الصراعات سيرها دائما بين صغار الملوك فى جنوب إسبانيا وأمراء الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة على أرض عنصرية، ولم تظهر بينهم أبدا أية اهتمامات دينية، وكان عدم الاكتراث بالنواحى الدينية أكبر ما صدم المرابطين بعد تدخلهم الأول، وكان وراء قرارهم، بعد أن دفعهم الفقهاء إليه: الإطاحة بكل هؤلاء الأمراء الصغار فى إسبانيا.

● ● ●

فيما يتصل بعصر الطوائف سوف يكون عملًا، وذا أهمية قليلة ومحدودة أن نأتى على الأحداث السياسية الصغيرة التى أشار إليها الشعراء فى مدائحهم، ولم تدع الحروب، وهى كثيرة أثرا أكثر من أنها معارك بلا امتداد، حيث تتراجع الشجاعة فى كثير من الأحيان أمام الخبث والحيلة.

ولكن الحوادث لم تلبث أن أخذت طابعا خطيرا وجادا، وجاء إنذاران ليخرجا الأندلسيين من هدوئهم الحلو: هزيمة بطرنة وسقوط بربشتر.

فى عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م حاصر القشتاليون مدينة بلنسية، لكنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالقوة، فتظاهروا بالابتعاد عنها، حينئذ خرج أهالى المدينة فى أبهى ملابسهم ليلاحقوهم، فاندلعت المعركة قريبا من بطرنة، وانتهت كارثة بالنسبة للبلنسيين، ويقول أبو إسحاق بن معلىّ الطّرسونى بهذه المناسبة:

لبسُوا الحديدَ إلى الوغى ولبستُمُ ... حُللَ الحريرِ عليكُمُ ألوانا
ما كان أقبحهُمْ وأحسَنكُمْ بها ... لو لم يكن ببَطَرْنةٍ ما كانا[٢٧]

وفى العام التالى، ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م، سقطت بربشتر فى يد جيش النورمانديين، وأسلموا المدينة للنهب والسلب، وقص علينا ابن العسّال شعرا ما تعرّض له المسلمون من تعذيب وأهوال بهذه المناسبة:

ولقد رمانا المشركون بأسْهمٍ ... لم تُخْطِ لكنْ شأنُها الصماءُ

---

(٢٦) تعرف أن انتشار المبادئ الشيعية يعود فى الجانب الأكبر منه إلى صنهاجة التى تقطن بلاد البربر الشرقية، وساعدهم الزناتيون فى إسبانيا. انظر: أعمال الأعلام ٢٣٦، والبيان المغرب ٢٦٧/٣ - ٢٧٠.

(٢٧) من الكامل، نفح ١٨١/١ و ٤٤٨/٤. وعن المعركة انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨، والمصادر المذكورة هناك، والذخيرة ٢٦٤/٣، وأعمال الأعلام ١٩٥، وأبحاث ط ١ ص ٣١٥ - ٣١٦، وسيبولد فى مجلة ZDMG المجلد ٦٣، عام ١٩٠٩، ص ٣٥٥.

هتكوا بخيلهمُ قصورَ حريمِها ... لم يبقَ لاجبلٌ ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهمْ بها ... فى كلِ يوم غارةٌ شعواء
باتتْ قلوبُ المسلمين برعبِهمْ ... فحماتُنا فى حربِهمْ جُبناء
كم موضع غنموهُ لم يُرحم به ... طفلٌ ولا شيخٌ ولا عذراء
ولكم رضيع فرّقوا من أمّه ... فله إليها ضجّةٌ وبغاء
ولربَّ مولودٍ أبوهُ مجدَّلٌ ... فوق التراب وفَرشُه البيداء
ومصونةٍ فى خِدْرها محجوبَةٍ ... قد أبرزوها مالها استخفاء
وعزيزُ قوم صار فى أيديهمْ ... فعليهِ بعد العزَّةِ استخذاء
لولا ذنوبُ المسلمين وأنهمْ ... ركبوا الكبائر ماالهن خفاء
ما كان يُنصر للنصارى فارسٌ ... أبدا عليهمْ فالذنوب الداء
فشرارهمْ لا يختفون بشرهم ... وصلاح منتحلى الصلاحِ رياءُ[٢٨]

ولكن بربشتر[٢٩] بعيدة جدًا عن الأندلس فى الجنوب، ولم تُحدث أىّ قلق بين جمهرة المسلمين، ولم يشعر بهذه الضربة إلاّ مجموعة متميزة، وكان من الضرورى أن تسقط طليطلة فى يد ألفونسو السادس، فى ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م[٣٠]، حتى يجىء الإنذار بالخطر رادعًا، يقول ابن العسّال:

يا أهل أندلسٍ حُثُّوا مَطيَّكمُ ... فما المقام بها إلاّ من الغلطِ
الثوبُ ينسل من أطرافهِ وأرى ... ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسطِ
ونحن بين عدوٍّ لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيّاتِ فى سفطِ[٣١]

واتهم شاعر مجهول فى قصيدة طويلة، مثل ابن العسال، العادات الخبيثة السائدة بأنها سبب كل المصائب:

فإنْ قلْنا العقوبةُ أدركتْهمْ ... وجاءهُمُ من الله النكيرُ
فإنّا مثلُهمْ وأشدُّ منهمْ ... نجورُ وكيف يسلم مَن يجور
أنأمنُ أن يَحلَّ بنا انتقامٌ ... وفينا الفسقُ أجمع والفجور
وأكلٌ للحرام ولا اضطرارٌ ... إليهِ فيسهلُ الأمرُ العسير[٣٢]

---

(٢٨) من الكامل، الروض المعطار، رقم ٣٨ ص ٤٠ - ٤١ و ٥١ - ٥٢.

(٢٩) حول ستيلاء النورمانديين على المدينة انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ ص ٧٨ - ٧٩، والمصادر المذكورة هناك، والذخيرة ١٧٣/٣ وما بعدها، وأعمال الأعلام ١٧١.

(٣٠) عن سقوط هذه المدينة انظر: ليفى بروفنسال، ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة (١٠٨٥ م)، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٢ عام ١٩٣١، ص ٣٣ - ٣٩، والمصادر المذكورة هناك.

● قلت: ضم بروفنسال هذا المقال إلى مقالات أخرى، ونشرها فى كتاب بعنوان: «الإسلام فى الغرب»، وفيما بعدها ترجمها الدكتور السيد عبد العزيز ومحمد صلاح الدين حلمى، باسم «الإسلام فى المغرب والأندلس»، وصدرت فى سلسلة الألف كتاب عام ١٩٥٦، بإشراف إدارة الثقافة فى وزارة التربية فى القاهرة - مصر، والمقال فى هذا الكتاب ص ١١٩ - ١٥٠. (المترجم)

(٣١) من البسيط، نفح ٣٥٢/٤، والبيت الأول ترجمه دوزى فى: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ ص ١٢٣.

(٣٢) إشارة إلى ما ورد فى القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٦٨، وسورة الأنعام، الآية ١١٩، وسورة النحل، الآية ١١٦.

ولكن جُرأةٌ فى عُقر دار كذلك يفعلُ الكلبُ العقور
يزول السترُ عن قومٍ إذا ما على العصيانِ أُرخيتِ الستور[٣٣]

وقد قرر المعتمد، بعد أن اتفق مع المتوكل، أن يطلب مساعدة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ويؤكد المؤرخون[٣٤] أن ملك إشبيلية جاز فى ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م «بأسطول الأندلس جوازا فخما، واختار لمصاحبته فى سفره الخواص والأعيان، واستخلف ولده الرشيد بأشبيلية، وشيعه لتس إلى محل ركوبه البحر»، على ضفة الوادى الكبير، ولكنهم لا يشيرون، دون شك، إلى الجزيرة الخضراء، رغم أنها فى هذه الفترة كانت جزءاً من مملكة إشبيلية، وقد احتفى بهذا الحادث شاعران: عبد الجليل بن وهبون، وأبو عبيد البكرى، وقد هنأ الأوّل المعتمد، ووصفه بأنه،

عزْمٌ تجدّد فيه النصرُ والظفرُ وفكرةٌ خمدتْ من دونها الفكرُ[٣٥]

والثانى، واشتهر بأنه عالم جغرافى، يبدو لنا رجل بلاط حقيقى حين يقول

يهونُ علينا- مركبَ الفلكِ- أن يرى محيى العُلا لما نبا مرتّب الجدُ
فجزتَ أجاجَ البحرِ تبغى زلالَهُ وذقت جنى الأهوال تبغى جنى لشهد[٣٦]

ونعرف نتيجة المساعى التى قام بها المعتمد لدى يوسف بن تاشفين: لقد هبَّ المرابطون لنجدة الأندلسيين، وتقابل الجيش الإسلامى المتحد، وضم المرابطين وبعض ملوك الطوائف فحسب، مع الجيش المسيحى بقيادة ألفونسو السادس، فى مكان يطلق عليه المؤرخون اللاتينيون اسم «سجراخس Sagrajas» أو «سكرالياس Sacralias»، ويسميه المؤرخون العرب «الزلاّقة»، أما الشعراء فلم يعرفوه أبدا إلا باسم «وقعة الجمعة» أو «يوم العروبة»[٣٧].

كان عبد الجليل بن وهبون هو الذى أشاد ببطولة المعتمد فى هذه الوقعة التى لا تنسى، وأطرى مزايا يوسف بن تاشفين الحربية أيضًا:

أظنُّ خطوبها قالتْ سلامٌ فلم يعبسْ لها منك ابتسامُ
فثار إلى الطعانِ حليفُ صدق تثور به الحفيظة والذمامُ
نمى فى حِمْيرٍ وغمتكَ لخْمٌ وتلك وشائجٌ فيها التحام
نهجتَ لسيله نهجًا فوافى وفى آذيّه الطامى عرام
فهيلَ به كثيبُ الكفر هيلًا وكل رُفَيْقَةٍ منهُ ركام

---

(٣٣) من الوافر، نفح ٤/٤٨٣ - ٤٨٦، وتحتوى القصيدة كلها على اثنين وسبعين بيتا.

● قلت: حللت هذه القصيدة، وانتهيت إلى هوية قائلها فى كتابى «دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة»، ط ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩ (المترجم).

(٣٤) أعمال الأعمال ٢٤٦، والحلة ٢/٥٤ و ٥٥، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩، وترجمتها ص ٢٩٧، وانظر أيضا: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٣٣ و ١٢٤ هامش رقم ٣.

(٣٥) أعمال الأعلام ٢٤٦، وتضم المقطوعة ستة أبيات، وهى من البسيط.

(٣٦) من الطويل، الحلة ٢/١٨٦، وعنها فى أبحاث ٢٨٨، وترجمته ص ٢٩٧.

(٣٧) عن هذه المعركة انظر: ليفى بروفنسال وغرسية غومث وأوليفر أسين: الجديد حول المعركة المسماة الزلاقة (١٠٨٦ م)، فى مجلة الأندلس، المجلد ١٥، عام ١٩٥٠، العدد ٧ ص ١١١ - ١٥٥.

وصاروا فوق ظهر الأرض أرضًا ... كأنّ وهادها منهم إكام
عديدٌ لا يشارفه حسابٌ ... ولا يحوى جماعته زحام
تألفتِ الوحوشِ عليه شتى ... فما نقص الشرابُ ولا الطعام
فإن ينجُ اللعينُ فلا كحُرٍّ ... ولكنْ مثلها ينجو اللئام
فيا أدفنش يا مغرورُ هلا ... تجنّبتَ المشيخةَ ياغلام
ستسألكَ النساءُ ولا الرجالُ ... فحدّثْ ماوراءك يا عصام[38]
وراقبْها بأرضكَ طالعاتٌ ... كما تهدى صواعقها الغمام[39]

ونلحظ أن الشاعر يشير فى البيت إلى تلال جثث المسيحيين، ويقول المؤرخون إن المسلمين ابتدروا «بقطع رؤوس المشركين، وبنوها كالصوامع، فى صحون الجوامع، وقام المؤذنون فى أعلاها بالآذان ثلاثة أيام»[40]، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا فى الواقع أكثر من المبالغة فى الأخبار التى جاء بها الشعراء.

ومع ذلك، ورغم الشائع عن الشعراء أنهم كذابون يقولون ما لايفعلون، وأنهم يهوّلون فى رواياتهم، فقد أظهروا بخاصة فى الحالات المأسوية الجادة، دقة معلوماتهم، كالمؤرخين تمامًا، وتميزوا إلى جانب ذلك بأنهم عصروا لأحداث، واتخذوا منها موضوعا لقصائدهم. ولا يمكن أن نتجاهل رواية عبد الجليل بن وهبون عندما يقول عن موت ابن عمار، وفكره فى المعتمد:

عجبًا لمن أبكيهِ ملءِ مدامعي ... وأقول: لاشُلّتْ يمين القاتلِ[41]

هذا البيت الذين ندين به لقلم ابن وهبون يحمل دليلا لا يمكن دفعه، أو الشك فيه، على أن المعتمد قتل بيديه نفسها وزيره القديم.

وعندما أزاح المرابطون ملوك الطوائف عن عروشهم أثاروا بين شعراء شبه الجزيرة حزنًا عميقًا، سجّله المؤرخون ومصنفو المختارات بابتهاج واضح، ولكن هذا المديح المتبادل لا يجب أن نعيره اهتمامًا كبيرًا، ومع ذلك أمدنا ابن اللبانة. بمعلومات وفيرة عن رحيل المعتمد من إشبيليه، عاصمة ملكه، بعد

---

(٣٨) مثل عربى، انظر: فريتاج، الأمثال العربية ٥٨٩/٢ وما بعدها.

(٣٩) من الوافر، القلائد ١٤، وعنها فى «بنو عباد» ٥٠/١ و ١١٦ - ١١٧، والذخيرة ٢٤٥/٢، والمطرب ١٢٠.

(٤٠) انظر: خريدة القصر، مخطوطة باريس ٤١، وعنها فى «بنو عباد» ٣٨٤/١، وترجمته ٣٩٩، وكتاب الاكتفاء، فى «بنو عباد» ٢٣/٢، وريحان لأدب، فى «بنو عباد» ٨/٢، ويقول ابن زاكور، فى شرحه لقلائد العقيان، بمناسبة البيت السابع من قصيدة عبد الجليل، وهو فى «بنو عباد» ١١٧/١، الهامش رقم ٢٤٥: إنهم فقط وزعوا رءوس الكفار بين مدن الأندلس وبلاد العدوة، والقرطاس، طبعة تورنبرج ص ٩٦، وذكره فون شاك، وترجمة باليرا له، فى شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية ٦٤/١. وروى ابن قزمان أيضا، معتمدا على من شاهدوها، ولم يكن قد مضى على هذه المعركة أكثر من ست سنوات أو ثمان، شدة التحام الفريقين، والمجد الذى حققه المرابطون بهذه المناسبة. انظر: ديوان ابن قزمان، الزجل رقم ٣٨.

● قلت: من المخطوطات السابقة طبعت الخريدة ونشر المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ما بقى من كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس، عام ١٩٧١، مع نص آخر لابن الشباط. وترجمت كتاب فون شاك إلى العربية بعنوان «الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية»، وسيصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٩، والجزء الخاص منه بالفن صدر فعلا بعنوان «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية»، وظهرت طبعته لثانية عن دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٤١) من الكامل، الحلة ١٦٠/٢، وبنو عباد ١١٩/٢.

أن استولى عليها المرابطون فى رجب ٤٨٤ هـ.. أغسطس ١٠٩١ م، وصور المشهد فى روعة مؤثرة حتى أن وصفه شعرا، وكتب بعد الحدث بأعوام، يقدم اللوحة الأكثر رعبًا وفزعًا:

نسيتُ إلاّ غداة النهرِ كونهمُ ... فى المنشآت كأمواتٍ بألحادِ
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حُطَّ القناعُ فلم تُسْتَرْ مخدَّرة ... ومُزِّقت أوجُهٌ تمزيق أبراد
حان الوداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ من مُفَدَّاةٍ ومن فاد
سارتْ سفائنُهُمْ والنوْحُ يصحبها ... كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملتْ ... تلك القطائع من قطعات أكباد(٤٢)

قد يدهشنا أن نجد اسم المعتمد وذكراه فى كل الكتابات تقريبًا التى تشير إلى أحداث تاريخية وقعت فى عصر الطوائف، فقد كان يجسّم بحق نموذج الأمير الأندلسى أو الإسبانى، بثقافته وقوته، وكان الرمز الكامل للوطن الإسبانى الإسلامى فى اختلافه جوهريًا عن العنصر الأفريقى ذى الأصول البربرية، وقد اتجهت إليه كل الأنظار ربما لأنه الوحيد الذى كان قادرا على تحقيق الوحدة الأندلسية، والعثور فى هذه اللحظة الحرجة على وسيلة للتعايش مع المسيحيين.

لقد أنجز شاعر دينه إعجابا بالمعتمد، ومعرِّضا بناصر الدولة مُبَشِّر حاكم ميورقة، وكان زهْوًا بعزلته فى الجزيرة، التى ساعدته على أن يفلت من المرابطين، يقول:

ألاَ قلْ للذى يرجو مناما ... بعيدٌ بين جنبك والفراش
أبو يعقوبَ مَن حُدِّثتُ عنه ... فَرشْ سهمَ العداوة أو فَراشِ
إذا نَفَش القضاءُ جبالَ رضوى ... فكيف تراه يصنعُ بالفراش(٤٣)

وأمام سخط الشعب، واحتمال وقوع تمرّد أو أحداث خطيرة تأتى على ملوك الطوائف، أنشد السميسر شاعر غرناطة الأبيات التالية المتنبئة:

نادِ الملوكَ وقلْ لهم ... ماذا الذى أحدثتُمُ
أسْلمتُمُ الإسلامَ فى ... أسْرِ العِدا وقعدتُمُ
وجبَ القيامُ عليكم ... إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبى شققتم(٤٤)

وله هذه الأبيات أيضا:

رجوْناكم فما أنصفتمونا ... وأمّلناكمُ فخذلتمونا

(٤٢) من البسيط، القلائد ٢٣، وعنها فى «بنو عباد» ٥٩/١ – ٦٩، ونفح ٢١٤/٤، والذخيرة ٨٠/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣٢٢/١، والمعجب ١٤٨، وترجمته ١٢٥، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٦٨.

(٤٣) الذخيرة ٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٦، والترجمة ٣٤٩، وهذا الشاعر هو أبو الحسين بن الجد، والأبيات من الوافر.

● قلت: فى الأصل أبو الحسين حدواره، اعتمادا على مخطوطة الذخيرة فى جوته، وصححناه اعتمادا على النسخة المطبوعة. (المترجم).

(٤٤) من الكامل، الذخيرة ٨٨٥/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٣٦.

سنصبر والزمانُ له انقلابٌ ... وأنتم بالإشارة تفهمونا[٤٥]

ويمكن أن نشير إلى بعض الأشعار المتميزة عن سقوط ملوك الطوائف. يقول أبو تمام غالب بن رباح، المعروف بالحجّام، ملتقطا صورته من عادة تعدد الزوجات عند المسلمين:

كأنَّ بلادَهم كانتْ نساءً ... تطالبها الضرائرُ بالطلاقِ[٤٦]

ويشبههم ابن الحاج اللورقي بأبنية صلبة انهارت:

كم بالمغاربِ من أشلاء مُخْتَرَمِ ... وعاثرِ الجَدِّ مصبورٌ على الهونِ
أبناءُ مَعْنٍ وعبّادٍ ومَسْلَمةٍ ... والحِمْيَرِيَّيْنِ: باديسٍ وذى النونِ[٤٧]
راحوا لهم فى هضابِ العزِّ أبنية ... وأصبحوا بين مقبورٍ ومسجونِ[٤٨]

وابن الحاج الذى اشتكى من طريقة استقبال المعتمد له فى إشبيلية، وأشرنا إلى ذلك فيما سبق، ينسى هنا أحقاده، ويعرف مثل بقية الشعراء كم خسروا بانهيار هذه المملكة الصغيرة.

إنها ليست ساعة الأحقاد الشخصية!

إنها لحظة جد خطيرة، بلا شك، بالنسبة للمثقفين، أولئك الذين بينهم من أحنى رأسه للظروف، وهم الأغلبية، يبكون الأمراء الذين أُزيحوا عن عروشهم، ولكنهم فى نهاية قصائدهم يمدحون المرابطين. وهى حالة عبرّ عنها ابن عبد الصمد. وأمّا الآخرون فبسبب الألم الذى يشعرون به، عبّروا عن أحزانهم دون أن يفكروا فى الغد، وقد رأينا أى إيقاع مؤثر حزين عزف عليه ابن اللبّانة وهو يصف رحيل المعتمد، وبلغ به الأمر أن أراق دمعه خلال إقامته فى أغمات حين ذهب ليزور المعتمد، رغم الشكوك التى يمكن أن تحوم حوله عندما يعبر علانية عن إخلاصه للأمير المعزول.

● ● ●

على أن هذا الروح الشاعرى لم يكن عند الشعراء جميعا، لأنهم لم يكونوا يصدرون كافة عن اقتناع عميق، ولكن البلاغة لم تتوار عندهم نهائيا، وحين يشيدون بفضائل رعاتهم، وبخاصة الكرم والشجاعة فإنما يفكرون قبل أى شيء فى أسلوب مصقول، وذكريات تاريخية حاشدة، يلمعون خلالها، وتضفى عليهم شهرة وبريقا.

لقد تأثروا بفداحة الأحداث، ولم يكونوا من صناعها، وكانوا ضحاياها فى الوقت نفسه، فلم يترددوا فى أن يشبهوا دول الطوائف الذاهبة بأعظم الأمبراطوريات، وهى تشبيهات تأتى عند بعضهم موجزة، واكتفى ابن اللبانة، وأشرنا إليه من قبل أن يقول:

---

(٤٥) من الوافر، المصدر السابق نفسه.

(٤٦) من الوافر، الذخيرة ٢/٩٤، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٥، وترجمتها ٣٤٨، وقد ترجم دوزى كلمة ضرائر destin inexorable وهو خطأ ويبدو أن لسان الدين بن الخطيب، فى أعمال الأعلام ص ٢٤٤، يعلق على هذا البيت حين يقول: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات».

(٤٧) يبدو أن الشاعر يعتبر البربريين باديس وذا النون كيمنيين، انظر فيما سبق ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٤٨) من البسيط، الحلة ٢/١٠٢، وأبحاث ط ١ ص ١٧٥، وتصويبات ١٠١، والقلائد ١٤٣.

إنْ يُخْلعوا فبنو العبّاس قد خُلِعوا ... وقد خلتْ قبل حمص ٍ أرضُ بغدادِ[٤٩]

وتوسّع ابن عبد الصمد قليلا، سائرا على نهج تاريخى صاعد:

وإذا انقضتْ أيامُ مُلْكٍ فالعنا ... فى غايةِ الإكثارِ والإعدادِ
حازتْ بنو العباس مُلْكَ أميّةٍ ... وهمُ ذوو الأعداد والأمداد
ورأى معاويةُ عليًّا هالكًا ... وعلىٌّ الليثُ الهَزْبرُ العاد
والدهرُ أذهبَ تُبّعًا وجنودَه ... وأزال مُلْكَ الأرض ِ عن شدّاد[٥٠]

ونظم أبو طالب عبد الجبار المتنبى أرجوزته لغاية مختلفة: أن يؤرخ للعالم شعرا منذ بدء الخليقة إلى معركة الزلّاقة، دون أن يبلغ فى هذا العرض السريع إظهار كوارث متتابعة جديرة بأن تجعل الأجيال القادمة تفكر فيها[٥١]. ومع أبى محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى يبلغ هذا النوع المأسوى أقصى نموه وتطوره، ومرثيته لنهاية بنى الأفطس، المتوكل وأبنائه: الفضل والعباس، وقَتَلهم المرابطون، تضم أبياتا قليلة عن ملوك الطوائف[٥٢]. وكانت الأبيات الثمانية الأولى فيها تأملات عامة عن «الدهر» و «الليالى»، وتليها الأبيات، من التاسع حتى الواحد والعشرين، تعدّد سقوط عظماء الملوك، وكبار القبائل قبل الإسلام: دارا والإسكندر وساسان وبطليموس، وطسم وجديس وعاد وجرهم وتُبّع اليمنى، ومصر وسبأ وكليب ومهلهل، وأسد وذبيان وعبس والنعمان ملك الحيرة، وإبرويز ويزدجرد ورستم. وابتداءً من البيت الثانى والعشرين وحتى البيت الرابع والأربعين يقدم عرضا سريعا للاحداث الأليمة التى وقعت للمسلمين، مثل: جعفر وحمزة وخُبيب، وغيرها. ولا يبدأ تاريخ ملوك الطوائف حتى البيت الخامس والأربعين، وهو أيضا تاريخ العباسيين، فقد تقاسم أولئك وهؤلاء ألقاب الشرف نفسها:

وروّعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ ... وأسلمت كل منصورٍ ومنتصرِ
وأعثرتْ آل عبّادٍ لَعًا لهُمُ ... بذيْلِ زبّاء لم تنْفِرْ من الذُّعُرِ
بنى المظفّرِ والأيامُ - لا نزلتْ - ... مراحلٌ والورى منها على سفرِ

وهذه الأبيات الثلاثة فقط هى التى تشير إلى ملوك الطوائف، فقد حث ابن عبدون الخطى ليصل إلى بنى الأفطس، ولكن الأبيات الثمانية والعشرين التى خصهم بها لا يمكن أن نعرض لها هنا، فليس فيها شىء من التاريخ، وأسلوبها البليغ يحول دون تذوقنا العميق للتأملات الفلسفية المتناثرة فيها.

---

(٤٩) القلائد ٢٦، وانظر فيما سبق ص ٩٦.

(٥٠) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٦، الأبيات ٢٢ - ٢٥.

(٥١) الذخيرة ٩١٨/١ - ٩٤٤، والجزء الذى يتناول إسبانيا فى القرن الحادى عشر من صفحة ٩٤١ إلى ٩٤٠. وهذه القصيدة لا تكوّن ملحمة، كما يتبادر إلى الذهن دون معرفة محتواها انظر: خوليان ريبيرا، نبذ ومقالات ٢/٥-٦.

● قلت: أوردت رأى ريبيرا، وآراء أخرى، حول دور هذه المنظومات فى نشأة الملاحم الإسبانية، وتناولت القضية هناك من كل جوانبها. انظر: الطاهر أحمد مكى، ملحمة السيد، ط ٣ ص ١٧٩ وما بعدها، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣، وسوف تصدر الطبعة الرابعة فى بغداد فى أواخر عام ١٩٨٨ عن وزارة الثقافة العراقية. (المترجم).

(٥٢) من البسيط، النص الكامل للقصيدة قدمه لنا المراكشى فى كتاب المعجب ص ٧٦ - ٨٧، وترجمته ص ٦٥ - ٧٤، وبعض الأبيات لم تأت بها القلائد ٣٧ - ٤٠، وأعمال الأعلام ١٨٦ - ١٨٠، وكامل كيلانى وأ. خليفة، ديوان ابن زيدون ٣٤٦ - ٣٤٨ (فى تعليق).

لقد شعرت بعض الأرواح المتميزة فعلا بعمق تعاسة شبه الجزيرة، ولكن هذا الإحساس لم يلهمها أية قصيدة ملحمية حقا.

● ● ●

بوصول المرابطين ابتعد خطر حركة الاسترداد مؤقتا، وما أسرع ما التف الشعراء بأبطال الإسلام، وتوقفوا مع نهاية القرن الحادى عشر هذه عند تسجيل الأحداث التى أشرنا إليها فيما سبق، وبالطريقة نفسها، من الإشادة بالمزايا التى حققها المرابطون على المسيحيين، ولكن بلنسية التى يتصارع حولها فى ضراوة السِّيد وقواد يوسف بن تاشفين أثارت خيال الشعراء بقوة أكثر من غيرها، بسبب ما عانته من تخريب واسع.

لقد هاجمها السِّيد عام ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م، فنظم ابن خفاجة الأبيات التالية بهذه المناسبة، يبكى فيها مدينته التى أتت عليها النيران:

عـاثتْ بسـاحتـكِ الظُّبـا يـادارُ	ومحـا محـاسنَـكِ البِـلى والنـارُ
فـإذا تـردّد فى جنـانـك نـاظـرٌ	طـال اعتبـارُ فيـك واستعبـار
أرضٌ تقـاذفتِ الخطوبُ بـأهلها	وتمخّـضـتْ بخـرابهـا الأقـدار
كتبتْ يـدُ الحدَثـانِ فى عَرَصـاتها	لا أنتِ أنتِ ولاالـديـار ديـارُ[٥٣]

لقد استرد المسلمون مدينة بلنسية نهائيا عام ٤٩٥ هـ = ١١٠١ - ١١٠٢ م[٥٤]، وهكذا نجد القرن الحادى عشر يبدأ باضطرابات قرطبة، وأحداث تومئ إلى تفكك الخلافة، وانتهى بحملة حربية استرد فيها الإسلام صلابته مؤقتا، وأظهر حيويته فى مواجهة المسيحية.

● ● ●

---

(٥٣) من الكامل، الذخيرة ٣/١٠٠، ونفح ٤/٤٥٥، وأبحاث ط ١ ص ٣٤٠ و ٣٥٧ و ٣٨٠، وط ٣ جـ ٢ ص ٢٣، والملحق ص ١٥، والروض المعطار رقم٥١ ص٤٨-٦٠، وإسبانيا فى عصر السيد ٥٥٥، والشطر الأخير فى آخر هذه الأبيات أخذه ابن خفاجة من أبى تمام، المتوفى ٢٣١ = ٨٤٦، فى مطلع إحدى قصائدة التى من نفس البحر والقافية، انظر الديوان ص ١٤٤ (الطبعة القديمة - وصدرت للديوان أكثر من طبعة جديدة).

وقبل ذلك بعام، فى يناير ١٠٩٤، بكى الوقّشى مدينة بلنسية فى قصيدة لم يصلنا أصلها العربى، ولكننا نملك لها ترجمة إسبانية قديمة بفضل المدونة الأولى العامة، وعن هذه المرثية انظر: المدونة الأولى العامة فى «مكتبة المؤلفين الإسبان الجديدة»، مجلد ٥ ص ٥٧٦ - ٥٧٧، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٥٤٩ - ٥٥٣، ومالو دى مولينا، رودريجو الكمبيادور، الملحق ص ١٥٠ - ١٥٨، وشاك ترجمة باليرا، شعر العرب ١/١٩٢-٢٠٠، وريبيرا، نبذ ومقالات ٢/٢٧٥ - ٢٩١، وقد كتب البحث عام ١٨٨٧، ورامون مينينديث بيدال، عن الوقشى، فى تكريم كوديرة ٣٩٣ - ٤٠٩، وإسبانيا فى عصر السيد ٤٩٣ - ٤٩٥.

● قلت: درست تاريخ السيد، وهى أول دراسة مفصلة له فى اللغة العربية، وحصاره لمدينة بلنسية، وما عانته بسببه، وأبيات ابن خفاجة وتعليقى عيها فى كتابى: ملحمة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف بالقاهرة، وسوف تصدر طبعته الرابعة فى بغداد عن وزارة الثقافة العراقية.

وكذلك درست مرثية الوقشى وأتيت على ترجمتها الإسبانية القديمة، وترجمة النص الإسبانى إلى العامية الأندلسية، ثم ترجمتُها إلى العربية الفصحى، فى كتابى: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩. (المترجم).

(٥٤) أشاد ابن خفاجة بهذا النصر فى قصيدة له من ٢٧ بيتا، نظر: ديوانه ص ١٠٣، وترجمة تقريبية لها، قام بها مينينديث بيدال فى «إسبانيا فى عصر السيد» ٢/٦٢١، وانظر فيما سيأتى ص ٣١٤ - ٣١٥ من هذا الكتاب.

لم يسجل الشاعر فى دوره مؤرخا الأحداث السياسية فحسب، وإنما سجل أيضا الألقاب التى اتخذها الملوك رمزا لسلطتهم. ويجب أن تلحظ فى المقام الأول أن كلمة «ملك» أو «سيك» لا تعنى مفهومها الأوربى Roi، وإنما تعنى أميرا أو رئيسا يرتدى سلطة ملكية تقريبا، ويدعو ابن درّاج القسطلى أفكاره أن تعود إلى «الملكين الأكرمين»[٥٥]، وليسا إلّا الصقلبيين: «مبارك ومظفر». وقد وصف أبو عمر بن سعدون أمير السهلة ابن رزين بأنه «مليك الأرض»[٥٦]. وحاول أبو إسحاق الإلبيرى أن يثير بربر صهناجة فى غرناطة ضد اليهود، فوصف باديس بن حيوس:

على إنّك الملكُ المرتضى سليلُ الملوك من الماجدين[٥٧]

أمّا لقب أمير المؤمنين فاتخذه الخلفاء أيام الفتنة. وفى بداية عصر الطوائف ظن كل الملفاء، بحق أو بدونه، أن هشاما المؤيد قد توفى، فادعوا أنهم ورثته بوصية شرعية منه، وبما أن المدعين كانوا كثيرين، سواء من الحزب الأندلسى أم من الحزب البربرى، فلن يدهشنا أن نرى أبا عامر بن شهيد، وقد وجد نفسه فى السجن بسبب موقفه المناهض لمبادئ الشيعة، يدعو الخليفة الحمودى: أمير المؤمنين[٥٨]، وأن ابن عبّاد، وحمل فيما بعد لقب المعتضد ينادى والده القاضى أبا القاسم فى قصيدة له يترسل بها إليه: ملك وأمير المؤمنين[٥٩]. وهو نفسه أخذ هذا اللقب عام ٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م، عندما أعلن موت الخليفة هشام، وفى الحقيقة هشام المزيف بائع الحصر[٦٠]. وفى الوقت نفسه كانت تحة «سلطان» تستخدم فى القرن الحادى عشر مثل لفظ «ملك» وينصح ابن حزم الشعراء «أن يتعلقو من السلطان بحظ ليسلموا من المتالف»[٦١]. وكان ابن رزين أمير السهلة يفخر بسبب وفائه بأنه «هو السموأل فى هذى السلاطين»[٦٢]. وأطلق المؤرخون لقب السلطان على أمراء غرناطة من بنى زيرى[٦٣]، ولكنه لم يتطور مثل لقب «حاجب» ليطلق على الأسر المالكة فى القرن الحادى عشر[٦٤].

وفيما يتصل بألقاب التفخيم والتعظيم نعرف أن عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر، يخلف والده فى الحجابة، كان أول من اتخذ لنفسه لقبى المظفّر وسيف الدولة، إلى جانب أنه حاجب الخليفة هشام[٦٥]، وجريا على سننه قلّده ملوك الطوائف، وهكذا فإن بنى جهور فى قرطبة: الوليد بن جهور، وابنه عبد الملك الذى خلفه من بعده، اتخذا اللقبين: المنصور بالله والظافر بفضل الله[٦٦]. اتخذ عبّاد بن

(٥٥) أعمال الأعلام ٢٤٤.

(٥٦) القلائد ٥٢، وعنها فى نفح ٦٦٨/١.

(٥٧) من المتقارب، الديوان، القطعة رقم ٢٥، البيت ٢٤، وأعمال الأعلام ٢٣٢، وأبحاث ط ٣ جـ ١، ص ٢٣٦، والملحق ٦٥.

(٥٨) انظر فيما سبق ص ٩٠ من هذا الكتاب، والمطمح ١٩٩، وعنه فى نفح ٣٦١/٣، البيت ٦.

(٥٩) الحلة ٤٦، وبنو عباد ٥٣/٢، والذخيرة ٣٢/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٦/١. وانظر حول هذا الموضوع: أ. كور فى «نخب» فى تكريم رنيه باسيه»، المجلد ٢، عام ١٩٢٥، ص ٢٨ - ٣٠.

(٦٠) المعجب ٩٦، وترجمته ٨١.

(٦١) نفح ١٦٧/٣، وانظر فيما سبق ص ٧٧ وفيما يلى ص ٣٩٢، الهامش ٨٢ من هذا الكتاب.

(٦٢) القلائد ٥٤، وأبحاث ط ١ ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٦٣) انظر: ليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، المدخل ص ٢٥٢، رقم ٣٨ وفصلة مستقل ص ٢٠.

(٦٤) انظر: ليفى بروفنسال فى المصدر السابق، ونفح ٢١٦/١.

(٦٥) البيان المغرب ١٧/٣، وترجمة ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٩٨.

(٦٦) البيان المغرب ٢٥٩/٣.

محمد لقبي المعتضد بالله والمنصور بفضل الله، وتلقّب محمد بن صمادح قبل أن يحكم بسراج الدولة ومعز الدولة، فلما ارتقى العرش اتخذ لقبي: المعتصم بالله والواثق بفضل الله(٦٧).

هذه الأسماء والألقاب التي اتخذوها تقليدا خلفاء بني العباس، وأمراء بجاية في إفريقية، أو بني حمدان في حلب في المشرق، أثارت إلهام شاعر لا يتفق المؤرخون وأصحاب المنتخبات العربية على اسمه: هل هو ابن رشيق القيرواني، أو ابن شرف القيرواني، أو ابن عمّار؟ نحن نعتقد أن هذه المقطوعة الشهيرة، والتي جرت من فم لفم كانت عمل مجهول مستنير بما فيه الكفاية لكي يرصف في بيتين من الشعر اسمين علمين ومثلا، وللنحاة شيء من المهارة في مثل هذا اللون من التدريبات، ولكنه عميق في إسبانيته، وقريب إلى الشعب حتى يشعر بسخريته من هذه المسميات المضحكة(٦٨):

ممّا يزهّدني في أرض أندلسٍ	أسماءُ معتصمٍ فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضِعها	كالهرِّ يحكي انتفاخًا سَوْرة الأسدِ(٦٩)

هذا الحكم القاسي على ملوك الطوائف، من رجل مهما كان مجهولاً فهو إسباني في أقوى الاحتمالات، وعبّر بأسلوب عميق وحاد عن الشعور بأن الأمور في إسبانيا لا يمكن أن تقاس بما عليه الحال في المشرق.

خلال الحكم الأموي لم تكن سلطة الخليفة معترفا بها من الجميع، في كل الأنحاء، فهناك دائما مناطق منفصلة، نواة ضطرابات يصعب إخمادها، ولم تكن الحملات الحربية توجه فقط ضد المسيحيين في الشمال، وإنما أيضا ضد المتمردين المتناثرين في مختلف المناطق، سواء كانوا مستعرَبين مثل عمر بن حفصون، أو مسلمين من أصل عربي مثل بني حجاج في إشبيلية، أو بني تجيب في أرغون، ومع ذلك لم ينبثق في أية لحظة شاعر يسخر من ألقاب مؤيد ومستنصر وناصر التي كان يحملها خلفاء قرطبة، وليس لها أية صلة بالأمويين، وما كان يبدو طبيعيا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين لم يعد كذلك في القرن الحادي عشر، ذ وقع في هذا القرن حدث بالغ الأهمية: خليط من العناصر المختلفة حققت حيويتها وتماسكها أمام العنصر البربري، ومعها أصبح التمييز يزداد كل يوم وضوحا بين الأندلسيين وبين شعوب المشرق الإسلامية.

● ● ●

لقد برهن شعراء القرن الحادي عشر بما حملوه لنا من معلومات عن الأحداث التاريخية، ومن ردود

---

(٦٧) الحلة ٨١/٢، وأبحاث ط ١ ص ٨١، والهامش رقم ٢.

(٦٨) تجدها منسوبة لابن رشيق في نفح ٢١٣/١ - ٢١٤، وفي ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٣٥، وابن سعيد، في: فريتاج، منتخبات عربية نحوية وتاريخية ص ١٤٠، والمراكشي، المعجب ٧٠، وترجمته ٦١، وابن دينار، كتاب المؤنس، طبعة تونس ١٣٥٠ هـ ص ٩٢، وترجمة بلسييه وريميا ص ١٦٨ - ١٦٩، وإلى ابن شرف في: ابن خلدون، المقدمة ٢٢٩، وطبعة كاترمير ٢٨١/١، وترجمة دي سلان لها ص ١٣١/٣، وإلى مجهول في أعمال الأعلام ٤٤، ونفح ٢٥٥/٤، وابن المواعيني، المتوفى ٥٦٤ = ١١٦٨، ريحان الأدب، في «بنو عباد» ٥/٢. والرأي الأكثر قبولا بعامة، أن الأسماء التي ضرب بها الشاعر المثل هي التي حملها أمراء بني عباد الأوسع شهرة، مما يسمح لنا أن نستنتج أن ناظم الأبيات كان عدوا لهذه الأسرة، ومع ذلك من المحتمل أن نجد في المشرق يوما النموذج الذي صيغت على منواله هذه الأبيات. قارن هذين البيتين بما قيل ضد البربر في ص ٢٣٦ - ٢٣٧ من هذا الكتاب.

(٦٩) من البسيط.

الفعل التى عبّروا عنها بمناسبة أحداث معينة، على أنهم ليسوا جميعا ناظمى بلاط عاجزين عن التعبير عن مشاعرهم الحقيقية. وإذا كان الجانب الأكبر من أشعارهم، على الأقل من وجهة نظرنا نحن الغربيين، ذا أهمية أدبية موضع خلاف كبير، وأحيانا ليست لها أهمية على الإطلاق، فإن ذلك ليس مبررا لكى ندير ظهرنا لشعرهم كله. ونستطيع أن نجد فى شعر المناسبات، وحتى فى قصائد المديح، عناصر متناثرة، وذات أهمية كبرى فيما يتصل بالوسط الذى عاشوا فيه، والمجتمع الذى اندمجوا فى معامعه. وعندما نجمع هذه المعلومات ونرتبها فسوف نلحظ أن الشعر وثيقة له قيمة حقيقية، ومن ثم يمكن أن يقدم لنا مساعدة قيّمة فى المجالين التاريخى والاجتماعى.

البـاب الثـانى

الموضوعات العامة المستوحاة من الطبيعة

○ الموضوعات المفضّلة:

كانت ظروف الشاعر الأندلسى تضطره إلى الرحلة والتجوال كثيرًا، فأتاحت له الفرصة لرؤية مشاهد عديدة حوله، وكما أن رؤيته للعالم الخارجى لم تتأثر دائما بانشغاله بالرثاء والمديح، على نحو ما رأينا، كذلك فإن قدرته على المشاهدة، إن لم تكن قد انطفأت، لم تدع شيئا من مفهومه عن البيئة التى يعيش فيها ينعكس فى أبيات شعره. وما أوردناه قبلا عن تكوينه الأدبى يؤكد أن كل شىء فى إبداعه ليس أصيلا، وأن دراسة الشعر المشرقى على نحو ما كانت عليه فى إسبانيا تركت بصمات واضحة على نفس الأسلوب الذى يصب فيه الشاعر أفكاره.

وبدا كما لو أن كل شىء قالته العرب فى عصورها الأولى، ولكن من الأوفق أن نميزّ بالنسبة إلى الموضوعات التى يتناولها البحث بين العالم الخارجى والحياة الداخلية. ولقد عرف القرن الحادى عشر الميلادى ألوانا من الإحساس والفهم اختصّ بها الأندلسيون عن غيرهم من المشارقة. وفيما يتعلق بالطبيعة، جامدة أو متحركة، ألهمت شعراء الغرب الإسلامى موضوعات سبق أن تعرض لها الأدب المشرقى على نحو ما، وبعضها، وبدأ فى المشرق، نما هنا وتطوّر واكتسح كل الإبداع الشعرى، كالموضوعات الخاصة بالمدن والقصور والمتنزهات والوديان والجبال والحدائق والبساتين والمياه جارية وراكدةً والبحار والسفن، ويمكن أن نعتبر هذه الموضوعات، نظرا لأهميتها، أساسية فى إسبانيا، وعلى النقيض من ذلك، توجد موضوعات أساسية فى الأدب العربى كما هو كما ليه، كتلك التى تتصل بالتغيرات الجوية، من الغروب والليل والشروق والرياح والسحب والأمطار والبرد والثلوج وغيرها. أو تدخل فى دائرة الأجرام السماوية من الشمس والقمر والنجوم والكواكب. والحيوانات فى مختلف أنواعها، مفترسة ومستأنسة، موجودة على الأرض أو تسبح فى الهواء.

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات الأخيرة التى يتناولها الشعراء فى المشرق، وتُعتبر تقليدية نظرا لقدمها وكثرة دورانها فى الشعر، وجمود التعبير عنها، لم يأخذها الشاعر الأندلسى كما هى، وإنما عرف كيف ينفخ فيها من روحه، بتعبيره الأكثر تشخيصا للطبيعة، وتجسيده الدائم لها، وعودته إلى الواقع الذى يلمسه، واقع أندلسى وليس أسيويا، ومنه استمد صوره الشعرية، وهذا اللون هى الذى أضفى على الأدب الإبداعى فى إسبانيا الإسلامية ملامح خاصة تميزه عن الأدب المشرقى حتى فى الموضوعات التى تعتبر تقليدية.

○ الفصل الأول:

إسبانيا والمدن والمتنزّهات

إن ما يميز الشاعر الأندلسي، في الواقع، عن الشاعر المشرقي، نظرته إلى العالم المادي، والمكان البارز الذي تحتله الطبيعة المحيطة به من فكره[١].

ويرد الأدباء والنقاد غلبة الموضوعات المستوحاة من الطبيعة على غيرها في الشعر الأندلسي إلى خصوبة التربة الأندلسية النادرة، وهذا التعميم المبكر يدفعنا إلى ما يجب أن نفكر فيه، فلا يمكن عند ذكر لفظ الأندلس تحديد إقليم بعينه، كمقاطعات لأندلس المعاصرة مثلا، أو ما كانوا يسمونه قديماً «باطيقا Bétique»، لأن اسم الأندلس يشكل كل إسبانيا الإسلامية، على حين أن المؤرخين والأدباء عندما يتكلمون عن المياه الجارية، والحقول الخضراء، والبساتين النضرة، لا يفكرون إلا في المقاطعات التي تسمى الآن الأندلس L'Andalousie، وأقاليم الشرق أو الغرب التي تجاور المدن الكبرى مباشرة، حيث ينهض نظام الري المنتظم[٢].

وقد حاول أبو عبيد البكري، وهو من القرن الحادي عشر الميلادي، أن يحدد تنوّع أقاليم إسبانيا، وتعدّد مناخها، فاستخدم الأسلوب الأدبي الذي عرضنا له، حين ألمحنا إلى طباع الأندلسيين وأمزجتهم وملامحهم[٣]، يقول:

«الأندلس شامية في طيب هوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها»[٤].

وسنرى أن نظرة الشعراء إلى إسبانيا لم تكن تختلف عن هذا، يقول شاعر مجهول:

في أرضِ أندلسٍ تُلتذُّ نعماءُ ولا يُفارق فيها القلبَ سَرَّاءُ

---

(١) انظر قائمة بالموضوعات التي عالجها الأندلسيون في: الحجاري، المسهب، في نفح الطيب ١٥٥/٣.

(٢) يقول المراكشي، هي - أي الأندلس -: «أعدل الأقاليم هواء، وأصفاها جوا، وأعذبها ماء، وأعطرها نبتا، وأنداها ظلالا، وأطيبها بُكرا مستعذبة وآصالا». انظر: المعجب ١٦٣، وترجمته ١٠٤. وحاول لسان الدين بن الخطيب أن يكون أكثر دقة قائلا: «وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطتها، وأخذها من الأقاليم بحظوظ، فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل مائلا إلى البرد». وبقية وصفه تنطبق فيما يبدو على الأندلس Andalucia وحده. انظر: أعمال الأعلام ٤، وعنه في نفح ١٢٥/١ - ١٢٦. ويقول ابن سعيد إنه بعد رحلاته الواسعة لم ير «ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام». نفح ٢٠٩/١.

(٣) انظر فيما سبق ص ٢٢ - ٢٤ من هذا الكتاب.

(٤) البكري، في نفح ١٢٦/١، وترجمة ديجا في مقدمته لنفح الطيب في طبعته الأوربية ٢٨/١ - ٢٩، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٥٨، وينسب القزويني في آثار البلاد، في Kosmographie ٣٣٨/١ هذه العبارة إلى العذري (أحمد بن عمر) مؤلف المسالك والممالك الأندلسية، وانظر: أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب، طبعة فران، في المجلة الأسيوية، عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧، ص ٢٠٠ . وينسب النويري، في نهاية الأرب ٣٤٥/١، هذه الفقرة إلى ابن حزم في رسالته عن فضل أهل الأندلس.

وليس في غيرها بالعيش مُنْتَفَعٌ ولا تقوم بحقِّ الماءِ صهباء
وأين يُعدلُ عن أرض تحضُّ بها على الشهادة أزواجٌ وأبناء
وأين يُعدل عن أرض تحثُّ بها على المدامة أفياءٌ وأنداء
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتُها وكلُّ أرضٍ بها في الوشْيِ صنعاء
أنهارُها فضةٌ، والمسكُ تربتُها والخزُّ روْضتُها، والدرُّ حصباء
وللهواءِ بها لُطْفٌ يرقُّ به من لا يرقُّ، وتبدو منه أهواء(٥)

وكان ابن خفاجة شاعر جزيرة شقر أشدهم إعجابا بطبيعة بلاده، وعبّر عن مشاعره في مقطوعتين لا يمكن أن نمر بهما صامتين، الأولى:

يا أهلَ أندلسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّةُ الخُلْدِ إلاّ في ديارِكُمُ ولو تخيَّرتُ هذا كنتُ أختارُ
لا تحسبوا في غدٍ أنْ تدخلوا سَقَرًا فليس تُدْخَلُ بعد الجنةِ النارُ(٦)

وفي الأخرى يقول:

إنّ للجنةِ بالأندَلُسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وريَّا نَفَسِ
فَسَنا صُبْحَتِها من شَنَبٍ ودُجَى ليلتِها من لَعَسِ
وإذا ما هبّتِ الريحُ صبًا صحتُ واشَوْقِي إلى الأندلسِ(٧)

ولم يكن ابن خفاجة الشاعر الإسباني المسلم الوحيد الذي أطلق على إسبانيا «جنة الأرض»، والمرجح أن هذه التسمية تعود إلى مأثور شعبي اختفى أصله في ليل الزمان، ولعله يعود إلى أيام ما قبل الفتح الإسلامي. وتقول أسطورة إسبانية إن إسبانيا طلبت من الخالق عند بدء الخليقة أن يهبها سماءً صافية ونالتها، وبحرا جميلا، وفواكه عذبة، ونساءً حلوات، فكان لها ما أرادت، وأخيرا رجته حكومة صالحة، فرد الخالق: لا، هذا كثير، إذن ستكونين جنة الأرض(٨).

---

(٥) من الخفيف، نفح١/٢٢٧. ويذكر النفح فقرتين أخريين طويلتين يصفان إسبانيا، الأولى تنسب إلى شاعر لاحق للقرن الحادي عشر، هو: ابن سفر المريني، نفح ١/٢٠٩، والأبيات من البسيط، والثاني شاعر مجهول، ونستنتج من شكواه وتحسّره أنه لابد أن ينتمي في عصر متأخر، نفح ١/٢٢٨، والأبيات من الكامل.

(٦) من البسيط، ابن خفاجة، الديوان، وفيها بعد حين أنشدت هذه الأبيات في حضرة السلطان المريني أبي عنان فارس قال: كذب هذا الشاعر - يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خيّر لاختارها على ما في الآخرة - وهذا خروج من ربقة الدين. ولكن الأندلسي الذي أنشدها له عرف كيف يرد عليه في مهارة، قائلا: بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، ومقارعة للعدو وجلاد، والنبي يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف». انظر: نفح ١/٦٨١.

(٧) من الرمل، ديوان ابن خفاجة.

(٨) أ. فوييه، مجمل تاريخ نفسية الشعوب الأوروبية ١٦٧ - ١٦٨. ويقول ألفونسو العالم في المدونة العامة، معتمدا دون شك على نص عربي: «إسبانيا هذه جنة الله». انظر: مدونة إسبانيا الأولى العامة، طبعة ر. مينينديث بيدال، في مكتبة المؤلفين الإسبان الجديدة، المجلد ٥ ص ٣١١. ويعتبر الجغرافيون إسبانيا إحدى الجنان الخمس على الأرض، والأربعة الباقية: غوط دمشق، ونهر الابلة، وجنة صجد وشعب بوان. انظر: المقدسي، وصف العالم الإسلامي، ٢٣٤ - ٢٣٥، وياقوت معجم البلدان ١/٧٥١، والنويري نهاية الأرب ١١/٢٥٧ - ٢٦٢. ولكن من المحتمل أنهم يستخدمون هذا التعبير: «جنة الدنيا» صيغةً لا تعني عندهم أكثر من فكرة أرض وفيرة المياه والخضرة. وقد التقط الثعالبي في القرن الحادي عشر كل التعبيرات التي أصبحت عملة جارية على أقلام الأدباء، وتتضمن كلمة جنّة، وعد منها اثني عشر، انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٥٥٧ - ٥٥٩.

ولم يخطئ شعراء الأندلس حين شبهوا في قصائدهم البلد الذى أحسن استقبالهم يوما، ثم أُجبروا على تركه أخيرا لخطيئتهم، بالجنة التى طُرِد منها آدم. يقول النَّحْلى البطليوسى حين خاف من المعتصم بن صمادح أمير المرية، ففر منها:

رِضىً ابنِ صمادحٍ فارقْتُه   فلم يُرضِنى بعده العالَمُ
وكانت مريّتُه جنّةً   فجئتُ بما جاءه آدمُ[٩]

ويناجى ابن عمار مدينة بلنسية، وأرادها أن تنضم إلى جانبه فى كفاحه، فيقول:

بَشِّرْ بلنسيةَ وكانتْ جنةً   أن قد تدلّتْ فى سواء النار[١٠]

وقد أطلق الشعراء اسم الجنة على بعض المدن التى وجدوا فيها سعادة غامرة، يقول أبو جعفر بن مسعدة الغرناطى فى أبيات عن بلنسية:

هى الفردوْسُ فى الدنيا جمالاً   لساكِنِها وكارِهها البعوضُ

ولكن هذا الإعجاب ينقلب عند شاعر آخر إلى شىء من المرارة:

ضاقتْ بلنسيةُ بى   وذادَ عنىٌ غموضى
رَقْصُ البراغيثُ فيها   على غناءِ البعوض[١١]

وبعض الضياع التى تقع بين المزارع الخضراء، ويتناقض جمالها مع وحشة ما حولها، تثير فى خيال الشعراء الجوّالين ذكريات فردوسية، يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى فى مدينة بَرْجة:

إذا جئتَ برجة مستوفزًا   فخذْ فى المقامِ وخلِّ السَّفرْ
رياضٌ تعشّقَها سُندسٌ   ترشّتْ معاطفَها بالزَهَرْ
مَدامِعها فوق خدّىْ رُبىً   لها نضرةٌ فتنتْ مَن نظر
وكلُّ مكانٍ بها جَنّةٌ   وكلُّ طريقٍ إليها سقر[١٢]

والأرض التى وطئها الشاعر، وكانت معه سخية بلا حدود، لا يمكن أن تكون جنة، وإنما كما يصفها ابن اللبانة:

نزلتُ بكافورٍ وتبرٍ وجوْهرٍ   يقال لها الحصباءُ والرمْلُ والترْبُ[١٣]

---

(٩) من المتقارب، نفح ٩/٤، وأبحاث ط ١ ص ٨٩. وفى قلائد الأعيان ص ٢٥٢ تنسب هذه الأبيات إلى ابن اللبانة، وتوجه بها إلى المتوكل أمير بطليوس. انظر فيما سيأتى ص ١٣٥، رقم ١٥١ من هذا الكتاب.

(١٠) من الكامل، القلائد ٦١.

(١١) من الوافر، نفح ١٨٠/١. وقد اشتهرت بلنسية بأنها عامرة بالبعوض.

(١٢) من المتقارب، نفح ١٥١/١، الأبيات الثلاثة التى تلى البيت الأول تنسب لابن شرف، كما سنرى فيما بعد. وذكر نفح ٢٨٦/١ البيتين الأول والرابع مسبوقين بقال بعضهم. ويطلق ابن سعيد على قرية نارحة فى معاطمه مالقة اسم «جنة الفردوس»، نفح ١٧٨/١. ويعرف أبو بحر صفوان بن إدريس عن مرسية، وقد ولد فيها، إنها «جنة الأرض»، نفح ١٧٣/١.

(١٣) من الطويل، القلائد ٢٤٩. ونفح ١٣/٣.

ويقول ابن درّاج القسطلّى، وقد قدم على المنذر ملك سرقسطة عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م:

وحللْتُ أرضًا بُدِّلتْ حصباؤها ذهبًا يروقُ لناظرىَّ وجوهرًا[١٤]

ويقول ابن الحداد للمعتصم بن صمادح:

لعلّكَ بالوادى المقدّس شاطئٌ فكالعنبر الهندىّ ما أنا واطئٌ[١٥]

وهذه الأمثلة تكفى لإظهار مغالاة شعراء الأندلس فى قيمة أرضهم، وليس من العسير أن نجد نماذج لهذه الأمثلة فى الأدب الإسبانى العربى كما نجد لها شبيها فى الأدب المشرقى[١٦]، ولكن ليس ثمة شك فى أنه لا توجد طريقة أفضل من هذه للتعبير عن حبهم لوطنهم وإظهار مشاعرهم نحوه.

وأخيرًا، يمكن القول أن شعراء الأندلس ظلوا مولعين بالأرض التى وُلدوا عليها، رغم كل المعاناة التى تعرضوا لها فى شبه الجزيرة، ولعل ابن الحداد من بينهم خير من عبّر عن حبه لوطنه:

وكم خَطَبَتْنى مصرُ فى نَيْل نيلها ورامتْ بنا بغدادُ وِرْدَ فُراتِها

ولم أَرْضِ أرضًا غيرَ مَبْدإ نشْأتى ولو لحتُ شمسًا فى سماء وُلاتها

ولى أملٌ إنْ يُسعِدِ السعدُ نلْتُهُ ويفهمُ سرَّ النَّفس فى رمزاتها

وأسْنى المنى ما نيلَ فى مَيْعة الصِّبا وهل تحسنُ الأشياءُ بعد فواتها[١٧]

● ● ●

إن شعراء إسبانيا المسلمين فى القرن الحادى عشر لم يقفوا عند حد إظهار تعلقهم بإسبانيا بلدا متميزا عن بقية الإمبراطورية الإسلامية فحسب، ولكنهم أيضا وصفوا الأماكن التى أمضوا فيها زهرة شبابهم، أو عاشوا فيها أثناء تجوالهم رجالا ناضجين، وتتيح لنا أشعارهم أن نتصور كل مدن إسبانيا الإسلامية، وتعيد الحياة إلى بيوت الأمراء من القصور والمنيات[١٨] والمناظر الجميلة، والنزهات الريفية.

وكان الشعراء يشبهون المدن الكبرى فى إسبانيا، وبخاصة تلك التى تخترقها الأنهار، أو تقع على شاطئ البحر، بالعروس ليلة زفافها. يقول ابن حِصْن وكان يوما على شاطئ الوادى الكبير فى قرطبة، فى مجلس أنس، فتذكر إشبيلية، أو حمص كما يدعونها أحيانا:

ذكرتُكِ يا حمصُ ذكرى هوىً أماتَ الحسودَ وتَعْنِيتَهْ

كأنكِ والشمسُ عند الغروبِ عروسٌ من الحسنِ منحوتَهْ

(١٤) من الكامل، أعمال الأعلام ١٩٩، ونفح ١٤/٣.

(١٥) من الطويل، نفح ١٥/٣. وانظر أيضا: المطمح ٣٤٠، وابن خلكان، الوفيات، طبعة القاهرة، ٣٥/٢، وترجمة دى سلان ٢٠٠/٣.

(١٦) انظر: ابن هانى، الديوان، طبعة بيروت ٢٦، طبعة زاهد على ١١٣، وفى نفح ١٤٨/٢ طبعة أوروبا، وابن سارة فى نفح ٦٣٩/٢ طبعة أوروبا.

(١٧) من الطويل، الذخيرة ٧١٤/١.

(١٨) عن معنى هذه الكلمة، وهى جمع منية، وتوجد فى مصر من قديم، انظر: رينو، جغرافية أبى الفداء، الترجمة الفرنسية، المجلد ٢، القسم الأول، ص ١٥٨، رقم ١ (فى مصر) وص ٢٥٨، رقم ٢ (فى بلنسية)، وج. مسبيرو وفييت، مواد لخدمة جغرافية مصر، ص ٢٠٤ - ٢٠٥، وح. الزيات فى مجلة المشرق، المجلد ٤٥، يناير - مارس ١٩٥١، ص ٧ - ٩ (فى مصر قبل الإسلام وأثناءه، وفى إسبانيا).

غدا النهرُ عِقْدكِ والطوْدُ تاجَكِ والشمسُ فى أعلاه ياقوته[١٩]

وركب بعض أهل المرية فى وادى إشبيلية فمر على طاقة من طاقات شَنْتَبوس، وهو يغنىّ:

خَلِّين من واذْ ومن قواربْ ومن نزاها فى شَنْتَبوس
غرسُ الحبَقْ الذى فى دارى أحبُّ عندى من العروس

فأخرجت جارية رأسها وقالت له: من أى البلاد أنت يا من غَنَّى؟ فقال: من المرية، فقالت: وما أعجبك فى بلدك حتى تفضّله على وادى إشبيلية؟ وهو بوجه مالح وقفًا أحرش، وهذا من أحسن تعييب، وذلك أنها أتته بالنقيض من إشبيلية، فإن وجهها النهر العذب، وقفاها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب، لا تقع العين إلا على خضرة فى أيام الفرج[٢٠].

وقد وقف الشعراء بصورهم وتشبيهاتهم عند هذا الحد، وعبثا نبحث فى قصائدهم عن لوحة متكاملة تصوّر المدينة بضواحيها وحدائقها وجبالها، غير أنهم استطاعوا، كما سنرى، أن يرسموا ما رأت أعينهم أنه يمثل القيم الوحيدة التى تستحق التسجيل، وجديرة بالإعجاب: القصور والمنيات والمتنزهات العامة على شواطئ الأنهار أو فى الوديان الغاصة بالأشجار.

ويُنسب إلى عبد الرحمن الناصر هذين البيتين:

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بعدهم فبألسنِ البنيان
إنّ البناءَ إذا تعاظَمَ قَدْرُه أضحى يدلُّ على عظيم الشان[٢١]

والحق أن بناء مدينة الزهراء، وتكملة المسجد الجامع فى قرطبة وتوسعته، جعلته يدعى لنفسه هذه الصفة، ويردد هذين البيتين ويتمثل بهما، وهو على حق فيما أدعى.

كان الخلفاء والحكام يسرفون فى إقامة الأبنية الفاخرة لتخليد ذكراهم، وقد احتج الفقيه منذر بن سعيد البلوطي باسم الشريعة على جنون الخليفة عبد الرحمن الناصر بالبناء وإسرافه فى زخرفة مدينة

---

(١٩) من المتقارب، الذخيرة ١٦٦/٢، ونفح ١٧/٢، وبدائع البدائه ٣٦٧. ويذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام عن قرطبة، على لسان مؤرخ مجهول أنها «حيث الطود كالتاج، يزدان باللجين العذب لمجاج». ويقول زجّال من إشبيلية فى زجل يمدح به المعتضد:

إشبيليا عروسا وبعلها عباد
وتاجها الشرف وسلكها الواد

انظر: الشقندى، رسالة فضل الأندلس، فى نفح ٢١٣/٣، وترجمتها الإسبانية لغرسيه غومث ص ٩٦، ودوزى، مدخل للطبعة الأوربية من النفح ٨٠/١.

(٢٠) نفح ١٨/١ و ٣٨٩/٣. ونقلها وترجمها دوزى فى أبحاث، ط ١ ص ٨٣، وانظر ص ١٢٢ فيما سيأتى من هذا الكتاب. ويقول ابن مفلح عن إشبيلية: «إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس، لأن تاجها الشرف، وفى عنقها سمط النهر الأعظم، وليس فى الأرض أتم حسنا من هذا النهر، يضاهى دجلة والفرات والنيل» (نفح ٢٠٨/١). والكتاب الذين جاءوا فيما بعد ألحوا على استخدام اصطلاحات الكتاب التقنية، يقول ابن سعيد: «إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها، وفى اصطلاح الكتّاب أن للعروس الكاملة الزينة منصة، وهى مختصة بما يتعلق بذكر المدينة نفسها، وتاجا، وهو مختص بالإيالة السلطانية، وسلكا، وهو مختص بأصحاب درر الكلام من النثّار والنظّام، وحلّة، وهى مختصة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر، ولا يجب إهمال تراجمهم، وأهدابا، وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه (٤٥٧/١). وانظر أيضا وصف شاعر مدينة سمرقند بالأسلوب نفسه فى: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، فى مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٦، ص ١٧٢، والترجمة الفرنسية ص ١٣٣.

(٢١) من الكامل، نفح ٥٢٠/١، وسيمونيت، القرن الذهبى ١٨.

الزهراء[٢٢]، ولكن معارضته لم تلق منه استجابة، ولم تثنه عن حبه للأعمال العظيمة[٢٣].

وكان أهل الأندلس بعامة يحبون الأبنية الجميلة، وكل المؤلفين العرب الذين تحدثوا عن أهل إشبيلية ذكروا أن من بين الصفات التى تميز مزاجهم حبهم العيش فى مساكن فخيمة، ويصف الشقندى من أدباء القرن الثانى عشر الميلادى شرف إشبيلية قائلا: «وتزيد قراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها، وتهمم سكانها فيها، داخلا وخارجا، إذ هى من تبييضهم لها نجوم فى سماء الزيتون»[٢٤]

وقد عبّر الوزير ابن الحمّارة، محمد الغرناطى أبو عامر، عن هذا المعنى فى بيت من الشعر، يقول:

لاحتْ قُراها بين خُضرةِ أيْكِها ... كالدُّرِّ بين زَبَرْجَدٍ مكنونِ[٢٥]

●●●

قدم لنا الشعر معلومات كافية عن القصور والمنيات، والمتنزهات المتناثرة، ويمكن فى ضوئها أن نقوم بدراسة أية مدينة فى إسبانيا الإسلامية تختلف حجما وأهمية تبعا لواقع هذه المدن فى القرن الحادى عشر الميلادى. وحين نتأمل ما أوحت به كل مدينة إلى الشعراء تستحق قرطبة، العاصمة على أيام الأمراء والخلفاء، المكانة الأولى، رغم أنها فى القرن الحادى عشر الميلادى أصبحت العاصمة الثانية، وسبقتها إشبيلية.

وحين كانت هذه لا تعرف إلا قليلا فى إسبانيا، فإن شهرة قرطبة تجاوزت الحدود، ووصلت حتى ألمانيا، وقالت عنها الراهبة الشاعرة السكسونية روزفيتا من القرن العاشر الميلادى، فى قصيدة لها: «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة رائعة، فخورة بقوتها، شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير»[٢٦].

وقد احتفل بها شاعر مجهول على النحو التالى:

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قرطبةٌ ... منهنَّ قنطرةُ الوادى وجامعُها

---

(٢٢) وبمناسبة السقوف المذهبة التى كانت تغطى قاعات القصر فقد قرّع الفقيه منذر بن سعيد البلوطى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وذكره بالآية القرآنية: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾، سورة الزخرف، الآية ٣٣.

انظر: نفح ٥٧٤/١، والمطمح ٢٤٦، وليفى بروفنسال، إسبانيا فى القرن العاشر الميلادى ٢٢٩.

(٢٣) وقد انتقل هذا الحب إلى أمراء المغرب، وعندما عرض المهندس على أبى عنان نفقات المدرسة البوعنانية قال هذا له: ماهو جميل ليس غاليًا مهما كلف من ثمن، وليس كثيرًا ما تدفعه لكى تبهج الإنسان انظر: نفح ٣٠/٤ طبعة القاهرة، وليون الأفريقى، وصف أفريقيا، طبعة شيفر ٧٥/٢، أ. بل، النقوش العربية فى فاس، فصلة مستقلة، ص ٢٦١.

(٢٤) الشقندى، رسالة فضائل الأندلس، فى نفح ٢١٣/٣، وترجمة غرسية غومث لها ٩٧.

(٢٥) من الكامل، نفح ٢٠٥/١.

(٢٦) انظر: شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية لفون شاك، ترجمة خوان بالسيرا إلى الإسبانية ط ٣ جـ ١ ص ٥٧، وهو يعتمد على كتاب روزفيتا نفسها، طبعة شوز فليش ص ١٢٠، ورامون منينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٨٩/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٢٣٥، وتاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ جـ ٢ ص ٣، هامش ٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ١٧٤، وشارل منيين، روزفيتا، فى مجلة العالمين، ١٥ نوفمبر ١٨٣٩، وأ. زكى، مدن الفن فى بلاد الأندلس، مجلة الهلال، المجلد ٤٣، ديسمبر ١٩٣٤، العدد الأول، ص ١٣٢.

هاتان ثنتانِ، والزهراءُ ثالثةٌ والعلمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابعها[٢٧]

ومما يثير الدهشة أن شعراء القرن الحادى عشر الميلادى لم يصفوا المسجد الجامع، ولا قنطرة قرطبة الشهيرة، وفيما يبدو لم تلهمهم القنطرة فى حد ذاتها إلا القليل من الموضوعات، ويمكن الظن بأنها لو كانت مكانا للتنزّه لشدّت انتباههم، وأمّا المسجد الجامع فكان مكانا للصلاة والتعليم الدينى، وهما عمليا لم يكونا مناط اهتمام الشعراء. ويمكن أن نتساءل، إذا تركنا جانبا، مؤقتاً، مدينة الزهراء، ماذا قال شعراء القرن الحادى عشر فى قرطبة أو عنها؟.

لقد أخذت عاصمة إسبانيا الإسلامية تسترد قواها بعد الهزات العنيفة التى تعرضت لها فى بداية القرن الحادى عشر، أثناء الفتنة البربرية[٢٨]، وأشد مشاعر الألم حزنا عليها نجدها فيما خطه ابن حزم وابن شُهَيد.

يقول ابن حزم:

«ولقد أخبرنى بعض الورّاد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث[٢٩]، فى الجانب الغربى منها، وقد امحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيّرها البلى، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزّعة بعد الأمن..»[٣٠].

ونجد المشاعر نفسها عند ابن شهيد:

مـا فى الطلولِ من الأحبّةِ مُخْبِرُ	فمن الذى عن حالها نَسْتخبرُ
لاتسألنّ سوى الفراقِ فإنـه	يُنبيك عنهم أنْجدوا أم أغْوروا
جـار الزمـانُ عليهمُ فتفرّقـوا	فى كـل ناحيـةٍ وبـاد الأكـثر
جَرَت الخطوبُ على محلِّ ديارهم	وعليهـمُ فتغيّـرتْ وتغيّـروا
فَدَعِ الزمانَ يصوغ فى عرصاتهم	نـورا تكـاد لـه القلوبُ تنـوّرُ
فلمثلِ قرطبةٍ يقلّ بكاءُ مَن	يبكى بعينٍ دمْعها متفجّـرُ
دارٌ- أقالَ اللهُ عَثْرةَ أهلِها-	فتبربَروا وتغرّبوا وتمصّروا[٣١]
فى كـل نـاحيـةٍ فريقٌ منهمُ	متفطّرٌ لفراقها متحيّرُ

(٢٧) من البسيط، نفح ١/١٥٣، والأهمية التى يضفيها هذا الشاعر المجهول على العلم فى هذين البيتين تجعلنا نرجح أنه من عصر المنصور بن أبى عامر، ومع ذلك فإن المقرى فى مكان آخر من النفح، ١/٦٦٦، نسبها إلى محمد بن عطية المحاربى، من القرن الحادى عشر.

(٢٨) انظر فيما يتصل بالفتنة: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٧.

● قلت: ودرست أنا هذه الفتنة فى كتابى دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣. (المترجم)

(٢٩) عن هذا الحى من قرطبة انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٠٧ والهامش رقم ٣.

(٣٠) ابن حزم، طوق الحمامة ١٢٦، والترجمة الإنجليزية لنيكل ١٣٥، وطبعة برشية وترجمته ص ٢٤٠.

(٣١) يمكن أن نفهم البيت على النحو التالى: تبربروا، أى عادوا بربرا شرقيين، أى من صنهاجه، وتغرّبوا أى من بربر الغرب، أى من زناته، وتمصروا، أى اعتنقوا مذهب الفاطميين خلفاء مصر. وفيما يتصل بمعنى هذه الكلمة الأخيرة انظر فيما سبق ص ٩١ من هذا الكتاب.

عَهْدى بها والشملُ فيها جامعٌ ... مِن أهْلها والعيشُ فيها أخضر
ورياحُ زَهْرتِها تلوحُ عليهمُ ... بروائح يفترُّ منها العَنْبَر
والدارُ قد ضرب الكمالُ رواقَهُ ... فيها وباعُ النقص فيها يَقْصُرُ
والقومُ قد أمِنوا تغيُّرَ حُسْنِها ... فتعمَّموا بجمالها وتأزَّروا
ياطيبَهم بقصورها وخدورها ... وبُدُورُها بقصورها تتخدَّر
والقصرُ قصرُ بنى أميةَ وافرٌ ... مِن كل أمرٍ والخلافةُ أوفر
والزاهريَّةُ بالمراكب تُزْهِرُ ... والعامريَّةُ بالمواكب تُعْمَرُ
والجامعُ الأعلى يغصُّ بكل مَن ... يتلو ويسمع ما يشاءُ وينظر
ومسالكُ الأسواقِ تشهد أنَّها ... لا يستقل بسالِكيها المَحْشَر
ياجنّةً عصفتْ بها وبأهْلها ... ريحُ النوى فتدمَّرتْ وتدمَّروا
آسى عليك من المماتِ وحَقٌّ لى ... إذ لم نَزَلْ بك فى حياتك نَفْخر
كانتْ عِراصُك للميمِّم مكةً ... يأوى إليها الخائفون فَيَنْصَروا
يامَنْزِلاً نزلتْ به وبأهله ... طيْرُ النوى فتَغيَّروا وتنكَّروا
جادَ الفراتُ بساحتيْك ودِجلةٌ ... والنيلُ جاد بها وجادَ الكوثر
وسُقيت مِن ماء الحياةِ غمامةً ... تحيا بها منك الرياضُ وتزهر
أسفى على دارٍ عَهدْتُ ربوعَها ... وظباؤُها بفنائها تتبختر
أيّامَ كانتْ عَيْنُ كلِّ كرامةٍ ... من كل ناحيةٍ إليها تنظُر
أيامَ كان الأمرُ فيها واحدًا ... لأميرها وأميرِ مَن يتأمَّر
أيام كانتْ كَفُّ كلِّ سلامةٍ ... تسمو إليها بالسلام وتَبْدُر
حَزَنى على سَرواتها ورُواتها ... وثِقاتها وحُماتها يتكرَّر
نَفْسى على آلاتها وصفائها ... وبهائِها وسنائِها تتحسَّر
كَبِدى على علمائها حُلَمائها ... أدبائها ظُرفائها تَتَفطَّر[٣٢]

وعندما وضعت الفتنة أوزارها ضمَّدت قرطبة جراحها خلال حكم بنى جَهْور وبنى عبّاد. ويمكن أن نستنتج مما كتب المؤرخون ومن قصائد الشعراء أن الكثير من أنقاضها لم يرفع، وإذا كان القصر، واسمه عَلَم يدل عليه، لايزال قائما، فما هو مصير الأبهاء الواسعة، وقاعات الاستقبال الفخيمة التى تتوسطه، وقدم لنا ابن بشكوال المؤرخ تفصيلات وافية عنها[٣٣]. لقد اختفت نهائيا، ولا نجد لها أثرا

(٣٢) من الكامل، أعمال الأعلام ١٠٥، وتوجد أبيات أخرى عن تعاسة حظ قرطبة خلال الفتنة فى البيان المغرب ٣/١١٠ - ١١١.

● قلت حذف المؤلف الأبيات ١٠ و١١ و١٢ و١٣، ولم أر مبررا لذلك، ولعلها صعبت عليه فى الترجمة، أو أن الذوق الغربى لا يسيغها. (المترجم)

(٣٣) هذه القصور، أو القاعات، أو المجالس هى: الكامل، المجدَّد، قصر الحائر، الروضة، الزاهر، المعشوق، المبارك، الرشيق، قصر السرور، التاج، البديع. انظر: ابن بشكوال فى نفح ١/٤٦٤، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٢٢٢ - ٢٢٤، ويقدم لنا ابن خلدون قائمة أخرى، بقاعات بناها عبد الرحمن الناصر، وهى: المجلس الأزهر، البهو، الكامل، المنيف، دار الروضة. انظر: كتاب العبر ٤/١٤٤، وعنه نقلها نفح ١/٥٧٧ - ٥٧٨، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤، والهامش =

فيما خط المؤرخون أو أنشد الشعراء، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن قصور الزاهرة[٣٤] والحاجبية[٣٥].

أما مدينة الزهراء فمن الواضح أن مبانيها المختلفة، وأجنحتها العديدة، لم تعد صالحة للإقامة، بعد أن أتت عليها الحرائق والنهب والتدمير الذى قام به البربر فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى[٣٦]، وبعض الجدران والأسقف التى ظلّت قائمة فى الأدوار السفلى ولم يمسسها سوء أتاحت للسكان العابرين والزوّار القادمين من قرطبة أن يتخذوا منها ملاذا ومأوى. وفى عام ٤٥٥هـ=١٠٦٣م أنهض المعتضد نحوها ابنه اسماعيل، الملقّب بالمنصور ليحتل قرطبة، فنزل بزهرائها فوجد كل أسفلها معطل خاليا، ذهب كل بهائه[٣٧]. وقد اختفى من حديقة الحيوان ما فيها من «محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك»[٣٨].

ولكن بقيه أركان الحديقة ظلت تحتفظ بأشجارها وخضرتها، ونجد ابن زيدون فى قصيدة له سنعرض لها عند الحديث عن قرطبة يذكّر حبيبته ولّادة باللحظات الجميلة التى قضياها معًا فى مدينة الزهراء:

ألا هل إلى الزهراءِ أوْبةُ نازحٍ	تقضّى تَنائيها مدامِعُه نَزْحَا
مقاصيرُ مُلْكٍ أشرقَتْ جَنَباتُها	فَخِلْنا العِشاءَ الجَوْنَ أثناءَها صُبْحا
يمثّل قُرطَيْها لِيَ الوهمُ جَهْرةً	فقُبَّتَها فالكوكبَ الرحْبَ فالسطحا[٣٩]
محلّ ارتياحٍ يُذكِرُ الخلدَ طيبُهُ	إذا عزَّ أنْ يَصدى الفتى فيه أو يَضْحى[٤٠]
هناك الجِمامُ الزرْقُ تَندى حِفافَها	ظلالٌ عهدتُ الدهرَ فيها فتًى سَمْحا[٤١]

= رقم ٢. وبعض هذه الأسماء كانت تطلق أيضًا على بعض القاعات والقصور فى إشبيلية، (انظر ما سيأتى)، ولكن النفح لابد أن يكون أخطأ حين جعل مكان «المكرم» قرطبة (١٠٣/١ طبعة أوربا)، (انظر ما سيأتى)، والمكرم، بتشديد الراء أو بدونها، يطلق على قاعة فى قصر المأمون أمير طليطلة. (انظر ما سيأتى ص ١٣٦ الهامش ١٥٣).

(٣٤) عن تدميرها انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨٦، والبيان المغرب ٦٤/٣. وعن القصور ذاتها انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٢١ - ٢٢٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٤٠٦ وجـ ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٣ و٣٨٢، ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٣٥) انظر: البيان المغرب ٦٢/٣، وكان قصر الحاجب عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر.

(٣٦) عن تخريب الزهراء انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٨٨، ودائرة المعارف الإسلامية ٩٥/٣ وما بعدها، مادة مدينة الزهراء، وكتبها ليفى بروفنسال.

(٣٧) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٤ ومابعدها. والذخيرة ١٤٣/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٥٦/١، والترجمة ص ٢٦١.

(٣٨) أقام عبد الرحمن الناصر فى الحديقة منازل للوحوش والطيور، انظر: نفح ٥٧٨/١، نقلًا عن ابن خلدون فى العبر ١٤٤/٤.

(٣٩) لا نعرف عن القرطين شيئًا، أمّا القبة والكوكب فهما قاعتا استقبال فخيمتان، والسطح ويوصف عادة بالمشرف، فكان بهوا كبيرا مغطى، انظر ليفى بروفنسال، المصدر السابق ٢٢٩، ونفح ٥٢٦/١، ٥٦٦، وينبغى ألّا نخلط بينه وبين الصرح المردّ، انظر: أعمال الأعلام ٣٨، ونفح ٥٧٤/١، والمطمح ٢٥٧، وأقيم تقليدا للقصر الذى أقامه سليمان ليستقبل فيه الملكة سبأ، وكان ممردا من قوارير، انظر: سورة النمل، الآية ٤٤، وما سيأتى فى هذا الكتاب ص ١١٩.

(٤٠) إشارة إلى الآيتين القرآنيتين رقم ١١٨ و ١١٩ من سورة طه.

(٤١) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ١٦٠، والقلائد ٧٢، ونفح ٦٢٨/١، وبجيرس، Specimen de ibn Zeiduno ص ٢٢ و٧٤، وكور، ابن زيدون النص رقم ٢٧، والترجمة رقم ٧٥. ونختلف كثيرًا فى ترجمتنا للبيتين الأخيرين إلى الفرنسية مع كور.

لقد احتفظت مدينة الزهراء، كما يصورها لنا ابن زيدون بجمال بحيراتها، تظلها الأشجار السامقة، أما القصور نفسها، فى أجمل مشاهدها على أيام الأمويين، فلم يستطع أن يتصوّرها إلا خيالا، ويُظن أن أطلال مقر الخلافة القديم أصبحت، فيما يبدو، ملتقى مجتمع قرطبة الراقى، حيث يجدون الطعام والشراب فى سهولة، وينظمون الملتقيات، يروى الوزير الفقيه أبو الحسن ابن سِرّاج للفتح ابن خاقان، يوم البهجة الذى قضّاه فى الزهراء مرة، رفقة جمع من الوزراء والكتاب أيام المعتمد بن عباد، يوما «غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرْف، ولم يطرقه بصرْف، أرّخت به المسرّات عهدها، وأبرزت له الأمانى خدّها، وأرشفت فيه لماها، وأباحت للزائرين حماها، ومازالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، ويبتذلون الغصن بجنىً وهصْر، ويتوقّلون فى تلك الغرفات، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطارًا، وأوقروا بالاعتبار قطارًا، فحلّوا منها فى درانك ربيع مفوّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول والأنهار، والغصون تختال فى أدواحها، وتتثنىً فى أكف أرواحها، وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى يَنُحْن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهى بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلّصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرِجَتْ، أيام نزلوا خلالها، وتفيّأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجنّاتها، ونبّهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث فى آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعى تلفّع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نُؤىً وأحجار، قد وهتْ قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويَبْلى على طيّه الجديد، فبينما هم يتعاطونها صغارا وكبارا، ويديرونها أُنسًا واعتبارا، إذ برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب فيها:

حسدَ القصرُ فيكم الزهراءَ ولعَمْرى وعمْركم ما أساء
قد طَلَعْتم بها شموسا صباحًا فاطْلُعوا عندنا بدورًا مساء[٤٢]

ويصوّرها لنا السميسر شاعر المرية، ويجب أن يكون قد رأى هذه الأنقاض فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، كما لو كانت شيئا قد تلاشى تقريبا:

وقفتُ بالزهراء مُستعبِرًا مُعْتبِرا أندبُ أشتاتا
فقلت: يا زهرا ألا فارْجعى قالت: وهل يرجع مَن ماتا؟
فلم أزل أبكى وأبكى بها هيهاتَ يُغنى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثار مَن قد مضى نوادبٌ يندبنَ أمواتا[٤٣]

هذه الأشعار والرواية التى أوردها ابن خاقان فى كتابه القلائد تبين لنا بوضوح مدى ما كانت تثيره مشاهدة الأطلال التى خلّفتها حروب «الفتنة»، والصراعات الداخلية المستمرة، من شجن فى أعماق أهل الأندلس فى القرن الحادى عشر الميلادى[٤٤]، وكانوا يقيمون فيها الحفلات حيث تمتزج الأفراح

(٤٢) من الخفيف، القلائد ١٠، وعنها فى نفح ١/٦٢٣ - ٦٢٤، وفى «بنو عباد» ١/٤٥، وترجمتها ص ١٠٣، وفى مناهج الفكر، انظر : نفح ١/٥٠٠، وترجمها هنرى ماسيه، فى الكتاب التذكارى لرنيه باسيه ١/٢٥١.

(٤٣) من السريع، نفح ١/٥٢٧.

(٤٤) من المحتمل أن هجر الزهراء كان سببا من بين الأسباب الأخرى فى خرابها، إذ يكفى فى الحقيقة أن نترك قصرا مهجورًا، بدون رعاية أو عناية، لكى يسرع إليه الخراب.

بالأحزان، مما أضفى على وصفهم الأطلالَ إيقاعا حاصا بهم تماما، ظل مجهولا حتى أيامهم تلك. لقد كانوا يحاولون كما يقول ابن سراج، إثارة نفوسهم فى جو من الود والمرح، مطلقين العنان لتأمّلاتهم.

لقد وصف شعراء المشرق أطلال المخيمات المهجورة، غير أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى الحديث عن الحبيبة واقعا أو تخيلا، أى عن ماضيهم أنفسهم. والحق أن البحترى وحده نجح فى التعبير بصدق عن مشاعر الحزن التى اجتاحته أمام قصر القاطول لفقدان المتوكل[٤٥]، ولكن حتى هذا لم يكن سوى إحياء للماضى. أما الشاعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر الميلادى فقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا: لم يقف عند بعث الماضى فحسب، ولكنه حاول أيضا أن يستشف المستقبل، وكان بالنسبة لهم مليئا بالوعيد والنذير.

لقد اختفى ملوك الطوائف الصغار واحدا تلو الآخر، وكانوا يشجعون الأدب والفن ويرعون الشعراء والأدباء، وأشاع عبور المرابطين إلى الأندلس موجة من القلق على الغد، وغرسَ العذابَ فى قلوب الشعراء. وصاح السميسر فى صرخته وهو على أطلال الزهراء: «ألا فارجعى!»، ونحن ندرك كم كان مخلصا فى دعائه!.

ولم تكن الأطلال أبدا أكثر عددا ولا أطول حديثا عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر. ويقول ابن خفاجة واصفا دون أن يحدد المكان، ولعله فى بلنسية أو الأمكنة المحيطة بها:

وَمُرتَبِعٍ حططتُ الرحلَ فيه	بحيث الظلُّ والماءُ القراحُ
تخرَّمَ حُسْنَ منظره مليكٌ	تخرَّم مُلكَهُ القدرُ المتاحُ
فَجِرْيَةُ ماءِ جدولِهِ بكاءٌ	عليه، وشدْوِ طائرِهِ نُواح[٤٦]

وقد أذرف السميسر، أحمد بن فرج الإلبيرى، الدمع على أطلال يجب أن تكون فى غرناطة أو ما حولها، وبكى ابن الحناط الأعمى أطلالاً أخرى ربما كانت فى اشبيلية[٤٧]، وتذكر أبو الحزم ابن جَهْوَر أمير قرطبة المخلوع بهاء قصور الخلافة، وأصبحت على أيامه أطلالاً فصاح:

قلتُ يومًا لدار قومٍ تفانوْا	أين سُكّانكِ العزازِ علينا
فأجابت: هنا أقاموا قليلاً	ثم ساروا، ولستُ أعلم أينا[٤٨]

وقد زار ابن عربى مدينة الزهراء بعد القرن الحادى عشر بوقت قصير، بعد أن أصبحت خرابا، وصارت مأوى الطير والوحش، فخاطب منها طائرا شجنا يغرد على غصن:

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ	وما إنْ بها من ساكنٍ وهى بَلْقَعُ
ينوح عليها الطيرُ من كل جانبٍ	فيصمتُ أحيانًا وحينا يُرَجِّعُ
فخاطبتُ منها طائرًا متفرِّداً	له شجنٌ فى القلبِ وهو مروَّعُ
فقلت: على ماذا تنوح وتشتكى	فقال: على دهرٍ مضى ليس يرجع[٤٩]

(٤٥) البحترى، الديوان طبعة بيروت ص ٤٤، ونفح ٥٠٣/١ و ٥٠٤، وترجمة هنرى ماسيه، فى الكتاب التذكارى لرنيه باسيه ٢٥٦/١.

(٤٦) من الوافر، ابن خفاجة، الديوان، ونفح ٥٠٤/١، وترجمة هنرى ماسيه فى الكتاب التذكارى لرنيه باسيه ٢٥٧/١.

(٤٧) نفح ٤٨٣/١، وترجمة هنرى باسيه فى المصدر المذكور سابقًا ٢٥٥/١.

(٤٨) الخفيف، المطمح ١٨٦، وعنه فى نفح ٥٢٥/١.

(٤٩) من الطويل، نفح ٥٢٣/١.

وما كان بوسع شعراء الأندلس أن يعبّروا بأفضل مما قالوا عن مشاعر الندم العميقة التى أحسوا بها، لا حزنا على عهد الأمويين الذى ولىّ من زمن بعيد فحسب، ولكن أيضا على القرن الحادى عشر وأدركوا سحره واعين بعد أن فقدوه.

ونعتقد أن هذه الأطلال ليست بعيدة عن مشاعر الزهد التى تميزت بها حياة بعض شخصيات القرن الحادى عشر ممن اتخذوا الصوفية مذهبا، وكانت هذه قد وفدت على الأندلس من قريب[٥٠].

ثمة قصر واحد من بين القصور العديدة التى أقامها الأمويون نجا من كوارث القرن الحادى عشر، وكان يحمل اسما يومئ إلى خصائصه: «دمشق»، ويقول الفتح ابن خاقان إنهم شيّدوه «بالصفاح والعمد، وجروا فى إتقانه إلى غاية أمد، وأبدع بناؤه، ونمّقت ساحته وفناؤه، واتخذوه ميدان مراحهم، ومضمار انشراحهم، وحكوا به قصرهم بالمشرق، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق».

ولكننا نجهل موقعه، كما أن المؤرخين صمتوا عنه ولم يشيروا إليه، ولكن ابن عمار واتته الفرصة، فتوقّف به لحظة، ووضع بين حنياته حدا لحياته شريدا، وأمضى بين جنباته ليلة مع جماعة من أتباعه، وكانت فرحته غامرة حتى أنه لم يستطع أن يخفى تحمّسه:

كلُّ قصرٍ بعد الدمشقِ يُذمُّ ... فيه طاب الجنى ولذَّ المشمُّ
منظرٌ رائقٌ وماءٌ نميرٌ ... وثرىً عاطرٌ وقصرٌ أشمّ
بتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندى ... عنبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحمّ[٥١]

وثمة قصر آخر أشار إليه ابن خاقان فى كتابه القلائد أيضا، وهو الذى أقام فيه المعتمد عندما احتل قرطبة، وكان يحمل اسم قصر البستان، ويقع بجوار باب العطارين، وهو كما قال عنه الأمير: «حسد القصرُ فيكم الزهراء»[٥٢] ولكننا لا نجد له ذكرا فى أى مكان آخر[٥٣].

وكانت عائلة الزجّالى، وتنحدر من أصول بربرية، تملك من قديم أراضى شاسعة فى ضواحى قرطبة، فحوّلتها إلى حديقة عامة حملت اسم «حَيْر الزجّالى»، وهذه أول مرة فيما نعتقد تفتح فيها حديقة خاصة للجمهور، ويجدر بنا أن نشير إليها. إن تجميل المدن والاهتمام بها ليس وليد الماضى فحسب، ولا وقفا على الشعوب الأوربية وحدها، كما نرى، غير أن هذه الحديقة التى تطوّقها الأسوار العالية من كل جانب لم تكن دون شك مفتوحة للناس جميعًا وإنما كانت وقفا على المجتمع المثقف الراقى، وهو وحده الذى يستطيع أن يتردد عليها، كما هو الحال فى مدينة الزهراء. وكلمة «حَيْر»[٥٤] التى أطلقت

---

(٥٠) انظر ص ٣٩٦ و٣٩٧ فيما سيأتى من هذا الكتاب.

(٥١) من الخفيف. القلائد ٨٤، وعنه فى نفح ١/٤٧٠. وقد أوضح المقرى أن هذه المقطوعة تنسب أيضا إلى الحاجب أبى عثمان جعفر بن عثمان المصحفى، انظر: نفح ١/٤٧٦.

(٥٢) انظر ص ١١٥ فيما سبق من هذا الكتاب.

(٥٣) القلائد ١١، وعنها فى نفح ١/٦٢٥، وبنو عباد ١/٤٦ - ١٠٧، وعن باب العطارين انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٧٦ و٢٠٥ و٢٠٧.

(٥٤) رأينا أن كلمة «حير»، فى صورتها العملية الخاصة، تطلق فى العصر الأموى على قاعة داخل سور القصر (انظر فى ما سبق من هذا الكتاب ص ١١٣ الهامش رقم ٣٣) وهذه الكلمة نفسها، فى صورتها الإملائية ذاتها، وبالمعنى نفسه، أو بمعنى كشك، نجدها=

على حديقة، تعنى فى الوصف الذى قدمه لنا ابن خاقان قاعة، وهو وصف يستحق أن نورده: «الحير الذى ذكره هنا هو حير الزجالى خارج باب اليهود[٥٥] بقرطبة.. وهذا الحيرُ من أبدع المواضع وأجملها، وأتمها حسنا وأكملها، صحنه مرمر صافى البياض، يخترقه جدول كالحية النضْناض، به جابية، كل لجة بها كابية، قد قربصت[٥٦] بالذهب واللازورد سماؤه، وتأزَّرت بها جوانبه وأرجاؤه، والروض قد اعتدلت أسطاره، وابتسمت من كمالها أزهاره، ومنع الشمسَ أن ترمق ثراه، وتُعطِّرَ النسيم بهبوبه عليه وسراه، شهدت له ليالىَ وأيَّاما كأنما تصوّرت من لمحات الأحباب، أوقُدّت من صفحات أيام الشباب»[٥٧].

ولا ترجع شهرة الحير إلى أجنحته وقاعاته وبساتينه فحسب، وإنما أيضا إلى وجود الضريحين اللذين دُفن فيهما الصديقان اللذان لم يفترقا مدى حياتهما: أبو عامر بن شهيد،[٥٨] وعرضنا له من قبل، وأبو مراون الزجالى[٥٩] صاحب هذا المكان الفاتن، وكانا «أليفىْ صبوة، وحليفىْ نشوة، عكفا فيه على جرْيالها، وتصرّفا بين زهوها واختيالها، حتى ردَّاهما الردى، وعداهما الحِمام عن ذاك المدى، فتجاورا فى الممات تجاورهما فى الحياة». وقد أمضى ابن خاقان هناك لحظات سعيدة، وكان الوزير أبو بكر ابن القَبْطُرْنَة البطليوسى يحب أن يتذكر بعد أن عاد إلى بطليوس، حفلات البهجة التى نظمها مع أصدقائه الخلّص فى قرطبة:

واذكـرْ لهم زمنًـا يهبُّ نسيمـهُ	أُصـلًا كَنَفْثِ الـراقيـات عليـلا
مَـولىً ومُـولىً نعمـة وكـرامـةٍ	وأخـا إخـاءٍ مُخلصًـا وخليـلا
بـالحير مـا عبستْ هناك غمـامةٌ	إلّا تـضـاحـك إذخِـرًا وجليـلا
يـومًا وليـلًا كـان ذلـك كلُّه	سَحَـرًا وهـذا بكـرةً وأصيـلا
لا أدركـتْ تـلك الأهـلّةُ دَهْـرَهـا	نقصا ولا تلك النجـومُ أفـولا[٦٠]

●●●

وكانت توجد خارج قرطبة بعض المتنزهات التى ورد ذكرها فى عدد من قصائد ابن زيدون. يقول فى إحداها:

= عند أبى الوليد الحميرى، المتوفى نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، فى كتابه البديع فى وصف الربيع، ص ١٩، ولكنها تعنى قاعة خاصة فى بستان. ويبدو أن لفظى «حائر» و «حير» مترادفان، وأن الأول منها الأقدم فى الاستعمال. (انظر فيما سيأتى من هذا الكتاب ص ٢٢٠ و ٢٢٢).

(٥٥) عن هذا الباب، ويطلق عليه كثيرا اسم باب الهدى، لتجنب استخدام كلمة اليهود. انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٠٧، الهامش رقم ٣.

(٥٦) هذا الفعل مبنى للمجهول، ولكنه إملائيا موضع شك، فنحن نجده على النحو التالى: فى القلائد، طبعة باريس ومرسيليا، قُربص، وكذلك فى نفح ٦٣٥/١. وقُرنس فى القلائد، طبعة بولاق، ص ١٥٣. وانظر أيضا: دى خويه، معجم رحلة ابن جبير ٤٤، والذخيرة السنية ٥٥.

● قلت: لا أعرف فى اللغة «قربص» بهذا المعنى. وإنما هناك «قرنس» السقف والبيت، أى زينه بخوارج منه ذات تدريج متناسب. (المترجم).

(٥٧) القلائد ١٥٣، وعنها فى نفح ٦٣٥/١. وانظر أيضا: ياقوت، معجم البلدان ٣٧٤/٢، مادة حير الزجّالى.

(٥٨) أورد لنا القلائد ص ١٥٢، ونفح ٦٣٦/١. الأبيات التى أوصى ابن شهيد بأن تكتب على قبره.

(٥٩) طبقا لابن بسام فإن صديق ابن شهيد وصاحب البستان، كان يكنى أبا الوليد، الذخيرة ٢٣٣/١.

(٦٠) من الكامل. القلائد ١٥٢ - ١٥٣، ونفح ٦٣٤/١.

خليليَّ لا فِطْرٌ يسرُّ ولا أضحي ... فما حالُ من أمسى مشوقًا كما أضحى
لئن شاقني شرق العُقابِ فلم أزلْ ... أخصُّ بممحوضِ الهوى ذلك السفحا
وما انفكَّ جوفيُّ الرصافة مُشعري ... دواعِيَ ذكرى تُعقبُ الأسَفَ البَرْحا
ويهتاج قصر الفارسيُّ صبابةً ... لقلبيَ لا تألو زناد الأسى قَدْحا
وليسٍ ذميما عهد مجلسِ ناصحٍ[٦١] ... فأقبلَ في فرطِ الولوعِ به نُصْحا
كأنيَ لم أشهد لدى عَيْنِ شَهْدةٍ ... نزالَ عتابٍ كان آخره الفتحا
وقائعُ جانبها التجنيُّ فإنْ مشى ... سفيرُ خضوعٍ بيننا أكَّدَ الصلحا
وأيّامُ وَصْلٍ بالعقيق اقتضيتُهُ ... فإلّا يكنْ ميعادُهُ العيد فالفِصحا[٦٢]
وآصالُ لَهْوٍ في مُسَنَّاةِ مالكٍ ... معاطاةَ نَدْمانٍ إذا شئت أو سَبْحا
لدى راكضٍ تصبيكَ من صفحاتِهِ ... قواريرُ خُضْرٌ خِلْتَها مُرِّدَتْ صَرْحا[٦٣]
معاهدُ لَذّاتٍ وأمطارُ صبوةٍ ... أجَلْتُ المعالي في الأماني بها قَدْحا

....

أجل إنّ لَيلي فوق شاطئ نِيطةٍ ... لأقصرُ من ليلي بآنةَ فالبطحا[٦٤]

ويقول في مطلع قصيدة أخرى:

على الثغبِ الشرقيِّ[٦٥] مني تحيةٌ ... زكتْ وعلى وادي العقيق سلامُ
ولا زال نَوْرٌ في الرُّصافةِ ضاحكٌ ... بأرجائها يبكي عليه غمامُ[٦٦]

وفي موشّحة أطول من أن نأتي عليها هنا، يتحدث في الدور السادس منها عن «البُنْتي» على شاطئ الوادي الكبير، وفي السابع عن «جوفيّ الرصافة» و«روض الأقحوان»، وفي الثامن عن أيّام «العُقاب»، وفي التاسع، وهو الدور قبل الأخير، عن «العقيق» وجسره[٦٧]. وفي موشحة أخرى أطول من التي سبقت يذكر في الدور السابع «العقيق» و«الرصافة» و«الجعفرية»، وفي الثامن يأتي على ذكر «العقيق» ثانية، وفي التاسع يشير إلى «عين شهْدة»، وفي العاشر إلى «الجسر» و«الجوسق النصري» و«الوعساء»، وفي الحادي عشر إلى «مضيعة الدولاب» و«قصر ناصح»، وأخيرا في الدور الثاني عشر يشير إلى مدينة الزهراء[٦٨].

---

(٦١) يذكر الإدريسي في رحلته بالمركب من إشبيلية إلى قرطبة أن آخر مكان توقف به قبل أن يصل إلى المدينة «طواحين ناصح». انظر: وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٧ – ٢٠٨، والترجمة ص ٢٥٦، وكتاب فون شاك، ترجمة خوان باليرا، شعر العرب وفنهم ٨٣/٣، اعتمادا على ويجيرس Specimen de ibn Zeidumo، ص ٥٤٢.

(٦٢) عن الأعياد المسيحية التي كان يحتفل بها المستعربون والمسلمون. انظر ما سيأتي في هذا الكتاب ص ٢٧١ .

(٦٣) اقتباس واضح من الآية القرآنية رقم ٤٤ من سورة النمل. وانظر فيما سبق ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٤) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩.

(٦٥) رواية ياقوت في معجم البلدان، ٧٨٧/٢، «المنعت السعدي»، بدل «الثغب الشرقي».

● قلت: في الذخيرة ٤٢٢/١ «دارة الشرقي» وفي الديوان ص ١٥٢ «الثغب الشهدي» (المترجم).

(٦٦) من الطويل، الديوان ١٥٢.

(٦٧) الديوان ١٢٨ وما بعدها، وكور، ابن زيدون ص ١٥٢، وقرأ «العقاف» بدل «العقيق»، واعتبرها صفة.

(٦٨) الديوان ١٣٢ وما بعدها، وكور، المصدر السابق ١٥٣.

ويمكن أن نجمع أسماء كل هذه الأمكنة على النحو التالى:

الرصافة والعقيق والعقاب، أو شرق العقاب، وقصر الفارسي، ومحبس ناصح، أو قنطرة ناصح، وعين الشهد، ومُسنّاة مالك، ووادى نيطة والبطحاء، والجعفرية، والجسر، والجوسق النصرى(٦٩)، والوعساء، ومضيعة الدوالب. وباستثناء الأول والثانى منها فإن البقية لا نجد لها ذكرا عند غير ابن زيدون. أتراها كانت من اختراعه؟. الأقرب إلى المنطق فيما يبدو لى أن نفترض أن هذه الأمكنة كلها كانت توجد فى الفترة التى كان يتردد فيها عليها مع ولّادة، ولكنها منذ نهاية القرن الحادى عشر لم تعد تشد انتباه الفُرّاغ من شباب قرطبة.

أمّا الرصافة فاسمها خالد حتى يومنا هذا، وبقى فى اللغة الإسبانية فى صورة Arruzafa، وكان عبد الرحمن الداخل هو الذى أعد هذا المتنزه فى شمال غربى قرطبة لراحته الشخصة، وأطلق عليه هذا الاسم تيمُّنا بالرصافة فى سوريا، ولم يبق من هذه المُنية، بعد فترة الاضطرابات التى أتت على خلافة الأمويين فى القرن الحادى عشر، إلا بعض هياكل المبانى المنهارة، وقد قام أتباع واضح الصقلى عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م(٧٠) بتدمير الحديقة التى غرس فيها أول أمير إسبانى بعض الأشجار السورية، ومن بينها أشجار الرمّان، وتميزت بكبر ثمارها، ولذّة مذاقها(٧١)، ولاقت طبعا نفس مصير حديقة الزهراء.

ونعرف أن الزوّار كانوا يتردّدون على وادى العقيق الذى ذكره ابن زيدون، ولكننا لا نعرف أين كان موقعه بالدقة(٧٢).

أما منية الناعورة التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الوادى الكبير، وترويها ناعورة، فقد دمّرتها أيضا قوات واضح الصقلبى عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م فى نفس الوقت الذى أتت فيه على الرصافة(٧٣)، ولم يبق شيء من الزاهرة والعامرية، وقد بكاهما ابن شهيد(٧٤)، والمصير نفسه لاقته منية السرور(٧٥) ومنية نصر(٧٦).

---

(٦٩) تستخدم كلمة جوسق فى المشرق أيضا، وتطلق على القلاع، فهناك مثلا: الجوسق الجعفرى، وهو اسم لإحدى قلاع المتوكل فى سمراء (المسعودى، مروج الذهب ٢٧٦/٧ و ٢٩٠ و ٣٥٠)، والجوسق الحدث فى بغداد (آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٣٦٢، والترجمة الإسبانية لسلفادور فيلا ٤٥٩)، وانظر أيضا مصادر أخرى ذكرها ح. الزيات، فى مجلة الشرق، المجلد ٤٥، العدد ٦، يناير – مارس ١٩٥١، ص ٥ – ٦.

(٧٠) حول تدمير منية الرصافة انظر: البيان المغرب ٩٩/٣ و ١٠٢.

(٧١) فيما يتصل بمادة هذا الموضوع انظر: نفح ٤٦٧/١، وأيضا ليفى روفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤.

(٧٢) يذكرون فى القرن الثانى عشر أنه كان بجوار قصر الرصافة، وذلك فى زجل لأبى القاسم بن عبود الرياحى (انظر: نفح ٤٧٩/١)، وفى كنز الآداب، فى قصيدة لأبى القاسم عامر بن هشام القرطبى أورد فيها متنزهات قرطبة (نفح ٥٤٢/١).

(٧٣) انظر: البيان المغرب ٩٩/٢، ١٠٢، وانظر فيما سبق الهامش رقم ٧٠، وانظر أيضا: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٢٤، ونفح ٥٦٤/١، وأعمال الأعلام ٧٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٨٦. ومع ذلك يذكر القاسم بن عبود الرياحى فى زجل له مكانا يسمى النواعير، وهو مكان آخر مختلف عن الناعورة فيما يبدو.

(٧٤) انظر فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب، البيت رقم ١٥، وانظر أيضا: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٩ – ٢٣٠.

(٧٥) كان داخل نطاق الزاهرة حيث توجد منية السرور، انظر: نفح ٥٨٤/١.

(٧٦) أقامها الخليفة عبد الله بن محمد على شاطئ الوادى الكبير، شرقى قرطبة، إنظر: الروض المعطار رقم ١٨٠ ص ١٨٧ و ٢٢٦ – ٢٢٧.

غير أن المنية المصحفية، وبناها الحاجب جعفر المُصْحَفِى فى القرن العاشر الميلادى، ونُسبت إليه، ثم انتزعها منه المنصور بن أبى عامر نجت من الخراب، وبقيت قائمة إلى القرن الذى ندرسه، لأن حفيد جعفر المصحفى أبو بكر محمد بن أحمد بكاها فى أبيات له:

قِفْ قليلًا بالمصحفيّةِ وانْدُبْ ... مُقْلةً أصبحتْ بلا إنسانِ
واسألْنها عن جعفرٍ وسطاه ... ونداه فى سالفِ الأزمان
جعفرٌ مثلُ جعفرٍ حكْم الدهـ ... ـرُ عليه بعُسْرةٍ وهوان
ولَكَمْ حذَّر الردى فصِمْنا ... لا أمانٌ لصاحبِ السلطان
بينما يَحْتلى غدا خافضًا منـ ... ـهُ اكتسابٌ لَكفَّةِ الميزان(٧٧)

اختفت متنزهات كانت معروفة فى العصر الأموى، وظهر غيرها مما أنشأه المرابطون فى نهاية القرن الحادى عشر، مثل منية الزبير، التى بناها الزبير بن عمر بن الملثم والى قرطبة، واشتهرت بأن أشجار اللوز فيها تقوم أسطرا، وقد وصفها ابن بقى الشاعر لحظة تفتح نوّارها، فى أبيات من الشعر حفظها لنا المقرىّ فى نفح الطيب، وسوف نوردها عند حديثنا عن الأشجار(٧٨).

ولم تنتشر طريقة إعطاء مواعيد التلاقى عند الجسور إلّا ابتداء من القرن الحادى عشر، ويشير ابن زيدون فى بيتين من شعره، بمناسبة الحديث عن مُسَنّة مالك، إلى ما كانوا يبتغون ويفعلون بجوار البحيرات الصناعية: يشربون تحت المظلات المقامة على الشاطئ، ويأخذون بحظهم من متعة السباحة أو التجديف، وكان يطلق على هذه الجسور فى معظم الأحيان اسم «سُدّ» أو «أرحاء»، أى الطواحين، لأن المياه المحتجزة كانت تستخدم فى تشغيل طواحين القمح، ويجب أن يكون عدد هذه قد تضاعف فى القرن الثانى عشر الميلادى(٧٩).

وكانت قرطبة أكثر إقبالا على العلم ودراسة له من إشبيلية، وجذبت أشخاصا كثيرين للإقامة بها رغم أن مرورهم بها كان عابرا فى البدء، ولكنها استطاعت أن تغريهم بالكثير من المتع فى إطار من الطبيعة النضرة، وكان العلم أحد الأشياء الأربعة التى فاقت بها الأمصار قاطبة، ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة إلا فى القرن العاشر الميلادى. أما تحت حكم الطوائف فأصبحت الحياة فى العاصمة القديمة بعد سقوط الخلافة أشد صرامة، وأكثر تقشفا، مما كانت عليه فى بقية العواصم الأخرى، كإشبيلية مثلا، والتى كانت قد انفتحت على المرح والبهجة، والقرطبيون الذين اضطرتهم ظروفهم الصعبة إلى ترك مسقط رأسهم، ووطنهم المختار، عبّروا عن حسراتهم فى أشعار ذات مذاق خاص. ويُروى أن أبا بكر المخزومى، وكان لاجئا فى طليطلة، استقبل الشيخ أبى بكر بن سعادة مع أخيه، فسألها: من أين؟،

---

(٧٧) من الخفيف، نفح ٤٧١/١. «ومقلة بلا إنسان» أى «حديقة بلا صاحب».

(٧٨) انظر: نفح ٤٧١/١ و ٥٨٤. وسوف نذكرها بمناسبة الحديث عن الأشجار.

(٧٩) اشتهرت السدود والأرحاء فى قرطبة فى القرن الثانى عشر، انظر: نفح ٤٧٥/١ وما بعدها، ونشك فى أنَّ لها المعنى نفسه عند ابن زيدون. وسوف نعود للحديث عن السدود عند دراسة مدن أخرى فى إسبانيا الإسلامية. وبعض المتنزهات حول قرطبة لم تكن معروفة فيما يبدو حتى القرن الثانى عشر، مثل: فحص السرادق والمرج النضير (ويدعى أيضا مرج الخز)، ومرج الخصيب، والنواعير، والروض الشريق، ووادى الدير، وبطحاء عبدون (انظر: نفح ٤٧٢/١ – ٤٨١ و ٥٤١ – ٥٤٣). وقد اشتهر المرج النضير بالإوز الذى يسبح فيه، يمرح وينثر ما عليه من الماء فوق المرج، والمرج قد أحدق به الوادى. انظر: نفح ٤٧٣/١ – ٤٧٤.

فقالا: من قرطبة، فقال: متى عهدكما بها؟. فقالا: الآن وصلنا منها، فقال: اقربا إلىّ أشم نسيم قرطبة. فقربنا منه، فشمّ رأسي وقبّله، وقال لى: أكتب:

أقرطبةُ الغرّاءُ هل لىَ أوبةٌ إليك، وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربىَّ منك غمامةٌ وقَعْقَع فى ساحات دَوْحاتك الرعد
لياليكِ أسحارٌ وأرضُك رَوْضةٌ وتُرْبكِ فى استنشاقها عَنْبرٌ وَرْدُ[٨٠]

وقد غمرت ابن درّاج القسطلى مشاعر حيّة متوهجة، كما لو كان بصدد امرأة معبودة:

قلْ للربيع اسحبْ مُلاءَ سحائبٍ فاجررْ ذيولَكَ فى مَجَرِّ ذوائبى
وامزِجْ بطيب تحيّتى غَدِقَ الحيا فاجْعله سُقْيَ أحبّتى وحبائبى
عهدًا لَعهدِك من عِهادٍ طالما كسَت البرودَ معاهَدى وملاعبى
واجنحْ لقرطبةٍ فعانقْ تُرْبها عَنِّى بمثلِ جوانحى وترائبى[٨١]

●●●

وقد احتلّت إشبيلية فى القرن الحادى عشر المكان الذى كانت تحتله قرطبة فى القرن الذى قبله. وعرضنا فى المقدمة للدور السياسى الذى كان بنو عباد يؤمّلون أن تلعبه إمارتهم، وأصبحت عاصمتها إشبيلية أهم مركز للنشاط السياسى والثقافى فى جنوب إسبانيا كله، وجذبت إليها عددا كبيرا من السكان، وشجعهم على ذلك خصوبة تربتها، وسهولة المواصلات إليها بحرية وبرية[٨٢]، وكان يرويها الوادى الكبير، شأنها فى ذلك شأن قرطبة، ولكن النهر هنا يمتد إلى أعالى المدينة، ويهب أهلها جزرا صغيرة، وشواطئ أكثر ملاءمة للبهجة والمرح.

نعم إن الجبل بعيد، ولكن سلسلة جبال الشارات القريبة جدا من قرطبة تبتعد كلما اقترب الوادى الكبير من المحيط، وتتكون فى الأطارف بعض الوديان التى تؤدى إلى الشَّرَف تحت ظلال نضيرة. وعندما أخذ ابن الحِصن بجمال أشعة الشمس تتناثر وراء الشرف صاح:

ذكرتك يا حمصُ ذكرى هوىً أماتَ الحسودَ وتَغْنيتَهْ
كأنكِ والشمسُ عند الغروبِ عروسٌ من الحسنِ منحوتَهْ
غدا النهرُ عِقْدَكِ والطَّوْدُ تاجَكِ والشمسُ فى أعلاه يا قوتَهْ[٨٣]

---

(٨٠) من الطويل، نفح ١/١٥٥ و ١٧٦. وقد أشرنا فيما سبق ص ١١٨ من هذا الكتاب، كيف أن أبا بكر بن القبطرنة كان يتذكر اللحظات الخالية فى قرطبة ويحن إليها، وبخاصة ما كان منها فى حير الزجّالى. وفى مطلع القرن الثانى عشر عبّر القاضى عياض، بعد إقامة طويلة فى قرطبة عاد بعدها إلى المغرب، فى بيت من الشعر، عما أحسّ به من حزن ممض، لافتراقه عن أصدقائه القرطبيين، واعتبرهم أهله وأقاربه، والقطعة فى سبعة أبيات من بحر الطويل. القلائد ٢٢٤.

(٨١) ديوان ابن دراج، القطعة ٤٥، ص ١٣٨، وبلاشير، ابن دراج القسطلى، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، من ١١٤. وهى الأبيات: ١ و ٤ و ٥ و ٦.

(٨٢) انظر وصف إشبيلية عند وصول يوسف بن تاشفين إليها فى: نفح ٤/٣٦٢، وعنه فى «بنو عباد» ٢/٢٥٠.

(٨٣) انظر فيما سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

ومثل هذا التشبيه نجده فى موشحة أنشدها أحد الوشّاحين يمدح بها المعتضد بن عباد:

إشبيليا عروسًا وبَعْلُها عَبّاد
وتاجُها الشَّرَف وسلكُها الواد[٨٤]

وحتى القرن الحادى عشر لا يذكر لنا الشعراء شيئا عن قصور إشبيلية، رغم أن عددا من العائلات العريقة كان يسكنها، أمثال: بنى خلدون، وبنى حجاج، وكانوا فى نهاية القرن التاسع الميلادى ومطلع العاشر يعيشون حياة حافلة بالترف والبذخ. وبعد أن حقق الخليفة عبد الرحمن الناصر وحدة الدولة، وثبت دعائمها المنصور بن أبى عامر، اندثر أمراء الأقاليم ومعهم كل القصور تقريبا، وتحول عدد منها بكثر أو يقل إلى قلاع.

ويجب أن نبلغ عصر المعتضد إذا أردنا أن نجد عند المؤرخين، وجامعى المختارات الأدبية، ذكرا أو وصفا للقصور الملكية فى إسبانيا.

● ● ●

فى تاريخ المعتضد، وبخاصة عند الحديث على خلافه مع ابنه إسماعيل، نجد إشارة إلى قصر الزاهر أو حصن الزاهر، ولم يكن يقع داخل المدينة، وإنما خارجها، فى الجانب الآخر من النهر، على الشاطئ الأيمن، فى مواجهة القلعة والمراكب التى تنقل العابرين بين ضفتى الوادى الكبير[٨٥].

وعندما خلف المعتمد أباه المعتضد فكّر فى بناء قصر جديد لإقامته يختلف عن قصر أبيه، وكان البذخ الملكى يجعل من مثل هذه الأبنية ضرورة حتمية، ومن المحتمل أن يكون وراء ذلك صعوبة أن تقيم نساؤه فى نفس المكان الذى توجد فيه أصلا نساء الأمير المتوفى، مما يجعل انتقال الوارث إلى قصر آخر أمرا ضروريا.

وقد ذكر المعتمد نفسه عدد هذه القصور كاملا، وقاعات الاستقبال، فى أبيات تمتزج بالخواطر التنجيمية، نظمها أثناء أسره فى أغمات:

بكي المباركُ فى إثْرِ ابن عبّاد بكى على إثْرِ غزلان وآساد
بكتْ ثريّاه لاغُمَّتْ كواكبها بمثلِ نوْءِ الثريّا الرائحِ الغادى[٨٦]
بكى الوحيد، بكى الزاهى وقبّتُه والنهر والتاج، كل ذُلُّه بادى
ماءُ السماءِ على أفيائه دِررٌ يالجُةّ البحرِ دومى ذات إزباد[٨٧]

ونستطيع أن نكمل القائمة من أشعار المعتمد نفسه:

فياليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً أمامى وخلْفى روضةٌ وغديرُ

(٨٤) انظر فيما سبق ص ١١٠ والهامش رقم ١٩ من هذا الكتاب.

(٨٥) الذخيرة ١٦٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٥٧/١، والترجمة ٢٩٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٥.

(٨٦) يتلاعب الشاعر هنا بكلمة «الثريا»، فهى اسم القصر، وهى فى الوقت نفسه اسم نجم فى السماء. والنوء غروب النجم فى المغرب مع الفجر مع طلوع آخر يقابله فى المشرق. انظر: موتيلينسكى، المطالع القمرية ٤ رقم ١. ويؤثر هذا النجم فى الفترة بين شروقه وغروبه فى الظواهر المناخية: المطر، والعواصف، والبرد، والحر، وغيرها. نفس المصدر ص ٨.

(٨٧) من البسيط. القلائد ٢٤، وعنها فى نفح ٢٧٤/٤، وبنو عباد ٦١/١، والترجمة ١٤١ – ١٤٣.

بمُنْبتةِ الزيتونِ مورثةِ العلا	يُغنِّى حمامٌ أو تُدِنُّ طيورُ
بزاهرِها السامى الذى جاده الحيا	تشيرُ الثريَّا نحونا ونشيرُ
ويلحظُنا الزاهى وسعدُ سعودِه	غيورين والصبُّ المحبُّ غيورُ
تراه عسيرًا أو يسيرًا منالُهُ	ألاَ كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرُ(٨٨)

ونفهم من هذه الأبيات أن المعتمد كان يتردد على الزاهر قصر والده، ولكنه أقام قصرا صغيرا لاستعماله الشخصى على الضفة الأخرى من الوادى الكبير، أسماه الزاهى، ويقول الفتح بن خاقان إن المعتمد كان يفضل هذا القصر لأنه يطل على النهر(٨٩) والقصر الكبير، ويستطيع فيه أن ينطلق بلا حدود مع مباهجه المتنوعة. وحاول المؤرخ نفسه أن يعطينا فكرة عن ارتفاع قصر الزاهى، فوازن بينه وبين قلعة حلب التى عاش فيها بنو حمدان، وبينه وبين قصر غُمْدان، وتاريخ هذا غامض إلى حد ما، وإنما اشتهر لارتباطه بأسطورة سيف بن ذى يزن، ولا نستطيع الشك فى أن الزاهى كان يطل على الوادى الكبير، لأننا نتذكر فى الحقيقة قصة المعتمد حين ألقى من فوقه بالمطربة البربرية التى جرؤت على السخرية منه وهى تمدح المرابطين(٩٠).

كان قصر الزاهى يضم قبة مشهورة يُطلق عليها اسم «سعد السعود»، وذات يوم أنشد المعتمد شطر هذا البيت:

سعدُ السعودِ يتيه فوق الزاهى

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولده عبيد الله الرشيد:

وكلاهما فى حسنه مُتناهى

ومن اغتدى سكنًا لمثل محمدٍ	قد جلَّ فى العُليا عن الأشباهِ
لازال يبلغ فيهما ما شاءَه	ودهت عِداهُ من الخطوبِ دواهى(٩٢)

ويمكن القول إن المعتمد كان سعيدا بأن يسمع ابنه يشرك أمه اعتمادًا الرميكية فى بهجة هذا الاجتماع، ولكن ذلك لا يسمح لنا أبدا بأن نظن أن الملكة كانت تقيم داخل هذا القصر الصغير.

ولم يكن المعتمد يتردد على قصر الزاهى إلاّ فى الحفلات الخاصة به، التى يقيمها فيه، أما القصر

---

(٨٨) من الطويل، القلائد ٢٤ - ٢٥، وعنها فى نفح ٢٧٥/٤ - ٢٧٦، وبنو عباد ٦٣/١، والترجمة ١٤٥ - ١٤٦، والذخيرة ٧٥/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣١٨/١، والترجمة ٣٦٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٧٤. وبعد أن ذكر ابن بسام الأبيات فى المصدر المشار إليه آنفا، علّق عليها قائلا: «والثريا وسعد السعود والزاهى الذى ذكر فى هذا الشعر أسماء قباب ومصانع سلطانية كان تأنق فى بنيانها من قصور إشبيلية».

(٨٩) ربما كان موضعه مكان برج الذهب الحالى، ونحن نعرف أن برج الذهب لم يكن قد بنى حتى مستهل القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، حيث شرع فى بنائه حاكم إشبيلية أبو العلاء. انظر: روض القرطاس، نص تورنبرج ١٦١، وترجمة بوميه له ٣٤٥.

(٩٠) انظر فيما سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(٩١) نحن مرة أخرى بإزاء تنجيمات فلكية، فسعد السعود منزل القمر الرابع والعشرين، ويعتبره العرب مواتيا ومسعدا للغاية. انظر: موتيلينسكى، المطالع القمرية ٥٠، وأيضا فى أمكنة مختلفة فى: تالجرين، النجوم، ٣٠ رقم ٦ و ٣١ رقم ٨، و ٦٥.

(٩٢) من الكامل، البدائع ٨٦، وعنها فى نفح ٦١٢/٣، والحلة ٦٩/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٧٣/٢.

الذى اتخذه مقرا له مع نسائه وكل جهازه الإدارى فيقع فى نطاق الدائرة الحصينة التى كان الزاهى يشغل طرفا منها، وتحمل هذه القصور أسماء المكرم والمبارك[٩٣].

ولا نعرف عن المكرم إلا شيئا قليلا، يحكى ابن خاقان عن ذى الوزارتين أبى بكر ابن القصيرة، «أنه كان بغرفة القصر المكرم مقيما لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشئا لمخاطباته وعهوده، فى اليوم الذى خرج فيه ابن عمار إلى شلب معه، مفتقدا لأعمالها، مسدِّدا أغراض عمالها»[٩٤]. ونعرف أيضا من الذخيرة لابن بسام أن المعتمد فى عام ما ترك قصر المبارك لبعض الوقت، وأقام فى قصر المكرم، فأثار ذلك فى نفس الكاتب الوزير أبى جعفر بن أحمد أن ينشئ رسالة على لسان القصر الأول يناجى فيها القصر الثانى، وأخرى على لسان الثانى يرد فيها على الأول، ولكننا لا نخرج من هذا السجع إلا بمعلومة ضئيلة، وهى أن المكرم أحدث عهدا فى بنائه، وأن الحديقة التى تحيط به تغص بالأزهار من كل لون وصنف[٩٥].

أماّ المبارك فهو دون أدنى شك القصر الذى بقى حتى يومنا هذا بعد إصلاحه وترميمه، وحمل اسم القصرALCÁZAR عَلَمًا حتى فى اللغة الإسبانية ويرجع بناؤه إلى أيام المعتضد. ولو أن هذا كان يفضل عليه الزاهر، وقد خص المعتمد قصر المبارك بكل عنايته ليجعل منه قصرا رائع الجمال، جديرا بإقامته، ولكن المؤرخين الذين تحدثوا كثيرا عن قصور الأمويين فى قرطبة صمتوا عن القصر فى إشبيلية، ولم يقولوا عنه شيئا. ولا نجد عند مؤلفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلا فقرات قصيرة، نفهم منها أن ابن عمّار سجن بعد خيانته فى أحدى الغرف، فوق باب قصر المبارك، وأن جثته دفنت بجانبه[٩٦]، ويؤكد عبد الواحد المراكشى أن هذا القصر كان قائما على أيامه[٩٧]. ويروى ابن الأبار أنه عندما كان يطلب العلم فى إشبيلية عام ٦١٥هـ = ١٢١٨م كان أحد أحياء المدينة يسمى حومة قصر المبارك[٩٨].

ولكن الشعر لم يلزم الصمت لحسن الحظ، يقول ابن زيدون عندما كان وزيرا للمعتمد فى قصيدة توجه بها إلى الأمير:

أما «الثريَّا» فالثريا نِسْبةً	وإفادةً وإنافةً وجمالاَ
قد شاقَها الإغبابُ حتى إنَّها	لو تستطيع سرتْ إليك خيالا
رَفِّهْ ورُودَكَها لِتَغْنمَ راحةً	وأطِلْ مزارَكَها لتنعمَ بالا
وتَمَثّلِ القصرَ المبارك وَجْنةً	قد وشّطتْ فيها الثريا خالا
وأدِرْ هناك من المُدامِ أعَمَّها	أرجًا زكا، وأشفَّها جِرْ يالا
قصرٌ يُقرُّ العينَ منه مصنعٌ	بَهِجُ الجوانب لو مشى لاختالا

(٩٣) انظر: ملتشور م. أنتونيا: إشبيلية وآثارها العربية، الفصل الثامن ص ٦١ - ٨٣.

(٩٤) القلائد ٥، وعنها فى «بنو عباده» ٣٨/١، والترجمة ٨١.

(٩٥) الذخيرة ٧٥٩/٣، وبنو عباد ١٤١/١، الهامش رقم ٤٠٦.

(٩٦) المراكشى، المعجب ١٢٥، وترجمة فتيان له ١٠٩، والقلائد ٨٣، فى بدء تعليقه على ابن عمار.

(٩٧) المعجب ١٢٩، وترجمته ١٠٧.

(٩٨) نفح ٦٥/٣.

لازلْتَ تفترِشُ السرورَ حدائقًا ... فيهِ، وتلْتَحِفُ النعيم ظِلالا[٩٩]

ونفهم بوضوح من البيت الرابع من الأبيات التى أوردناها، أن الثريا كانت قاعة فخيمة تقع فى وسط المبارك مثل برج وإذا قارنا البيت السادس من هذه القصيدة بالبيت الثانى من قصيدة المعتمد التى ذكرناها فيما سبق (ص١٢٣) نفهم أن الثريـ كانت تحيط به كذلك قاعات صغيرة كما تلتف النجوم حول الثريا فى السماء.

وسنرى الآن كيف أن القصيدة التى وصف فيها ابن حمديس القاعة الرئيسية وقبّتها تمثّل وثيقة ذات أهمية بالغة:

ويا حبّذا دارٌ قضى اللهُ أنّها ... يُجدَّد فيها كلُّ عزّ ولا يبلى

مُقدّسةٌ لو أنّ موسى كليمَهُ ... مشى قُدُمًا فى أرضها خلَع النعْلا[١٠٠]

وما هى إلاّ خُطّةِ الملِكِ الذى ... يَحُط إليه كلُّ ذى أملٍ رجْلا

إذا فُتحتْ أبوابُها خلْتَ أنّها ... تقولُ بترحيب لداخِلها أهلا

وقد نقلتْ صُنّاعها من صفاته ... إليها أفانينًا فأحسنتِ النقلا

فمن صَدْره رَحْبا ومن نوره سَنًا ... ومن صيته فرعًا ومن حلمه أصلا

فأعلتْ به فى رُتْبة المُلْكِ ناديا ... وقلّ له فوق السماكيْن أن يُعلى

نسيتَ به إيوانَ كسرى لأنّنى ... أراه له مولىً من الحُسْن لامِثْلا

كأنّ سليمانَ بن داودَ لم تُبِحْ ... مخافتُه للجنّ فى صُنْعه مهلا

ترى الشمسَ فيه لِيقةً تستمدها ... أكفٌّ أقامتْ من تصاويرها شكلا

لها حركاتٌ أُودعتْ فى سكونها ... بها تبعثُ فى نقلهنّ يدٌ رِجْلا

ولما عَشِينا من توقّد نورها ... تخِذْنا سَنَاهُ فى نواظِرِنا كحلا[١٠١]

●●●

(٩٩) من الكامل. انظر: ابن زيدون، الديوان ٥٢٠ - ٥٢١. لم نلحظ أن الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القطعة، وتفسير كور وترجمته لها مما يمكن الدفع عنه فيما نرى.

(١٠٠) أشارة إلى الأسطورة الإسلامية التى تجعل موسى يصل إلى منطقة طنجة، وحيث يوجد جبل يحمل اسمه. جبل موسى.

(١٠١) من الطويل. انظر: ابن حمديس، الديوان، طبعة شيمبرللى القطعة ٢٤٨. الأبيات ٣٥ - ٤٣ و٤٨ - ٤٩ و٥٦، ونفح ٤٩١/١. وترجمة هنرى باسيه فى تكريم رينيه باسيه ٢٣٨/١، والنص وترجمته لإمبير فى «مختارات عربية» ٩٤ - ٩٧، والنويرى، نهاية الأرب، ط ٢ جـ ١ ص ٣٩٢.

يشير المؤرخون وجامعو المختارات إلى قصور ومنيات أخرى فى إشبيلية: دار المزينيّة، وكانت قصرا يلوذ به المعتمد للشراب. وكان ذخر الدولة أخوه من أمه يتردد عليه أيضا، ولا نجد لهذا القصر ذكرا فى غير القلائد (انظر: نفح ٢٧٨/٤ نقلا عن القلائد، وبنو عباد ٤٣/١ و الترجمة ٩٨). وبعض طبعات القلائد تورد الاسم فى صورة مزينة. وهناك منية الوزير أبى مروان بن الدب، صهر الفقيه أبى مأيوب بن أبى أمية، وتطل على الوادى الكبير، وفيها استقبل حماه عندما عرس بينته، ومثل بقية المنيات بها حديقة تشتمل على بدائع الزهر، وطرق تعبق بأريج العطر. (انظر: المطمح ٢١٧، وعنه فى نفح ٥٥٠/٣). وأنشأ المعتمد فوق مكان البحيرة الكبرى، بعد أن جفّفوها تماما، بساتين وحدائق مخضرة، وفى وسطها قاعة للراحة. وذات ليلة فاجأ ذخر الدولة أخاه فيها وهو «وجم، ودمعه منسجم، وزفراته تترجم عن غرام، وتجمجم عن تعذر مرام». (انظر فيما سيأتى ص٤٠٣ الهامش رقم١٥٦ من هذا الكتاب) وفى عهد الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف أقيم فى المكان نفسه قصر منيف، ونعتقد أن ترجمة دوزى لهذا التعبير بحمام عظيم غير مقبولة. (انظر: بنو عباد ٩٧/١ والهامش ١٢٦). وانظر: القلائد ٩ - ١٠، وعنها فى نفح ٢٨٠/٤، ولتشور م. أنتونيا، إشبيلية وآثارها العربية ٤٥-٤٦ و٧٣ و٧٥-٧٨ و٨١، وغيرها. وهو يعتمد على المؤرخ ابن صاحب الصلاة.

وكان فى ضواحى إشبيلية مثل ما كان فى ضواحى قرطبة أماكن للتنزه، يذهب إليها السكان طلبا للمرح والراحة، وفوق صفحة الوادى الكبير يتناثر عدد من الجزر الصغيرة تجذب إليها عشاق الحياة، وفوق أرضها أقيمت بعض المنشآت المؤقتة دون شك، ولكنها ثبتت مع الزمن، حيث يجد المترددون عليها الطعام والشراب.

وإحدى هذه الجزر كانت تدعى شَنْتَبُوس، وفوقها أقيم برج تنعكس أضواؤه ليلا على صفحة النهر، وحدث أن اقترب قارب من هذه الجزيرة، وفيه شخص من المرية كان لاجئا فى إشبيلية، وحين اجتاحه الحنين لبلده أخذ يتغنى بهذين البيتين من زجل:

خَلِّينِ من وادْ ومن قـواربْ ومن نَـزاهـا[١٠٢] فى شَنْتَبُـوسْ
غَرْسِ الحبقْ الذى فى دارى أحبُّ عندى من العروسْ[١٠٣]

وسمعته إحدى الفتيات فأطلت برأسها من النافذة وسألته مبدية دهشتها من أنه يفضل المرية على إشبيلية[١٠٤].

وكتب أبو على عمر بن أبى خالد إلى أبى الحسن على بن الفضل بهذه الأبيات:

أبـا حسنٍ وما قَـدِمتْ عهـودٌ لنـا بـين المنـارةِ والجـزيـرهْ
أتـذكـرُ أنسَنَـا والـليـلُ داجٍ بخمـرٍ فى زجـاجتهـا منيـره
إذا المـلاَّحُ ضَـلَّ رنـا إليـهـا فـأبصـرَ فى منـاحيـه مسيـره[١٠٥]

وكان مرج الفضة يقع خارج المدينة، بعيدا عنها، على شاطئ الوادى الكبير، ويجذب إليه كبار الشخصيات المعروفة، وتعوَّد المعتمد أن يذهب إليه كثيرا متخفيا رفقة ابن عمار الشاعر، وهناك التقى للمرة الأولى بالفتاة التى سوف تصبح الملكة فيما بعد، بعد أن خدمت جارية رقيقة عند بَغَّال، وكانت تُلقَّب الرميكية، ثم أصبح اسمها اعتماد أو أمّ الربيع، على حين تدعوها حاشية الملك السيدة الكبرى فحسب[١٠٦]. واستمر هذا المرج قائما يشد إليه صفوة المجتمع الراقى حتى القرن الثالث عشر الميلادى، وظل مورقا تغطيه الأنسام حتى أيام ابن سهل الإسرائيلى وابن سعيد الأندلسى[١٠٧].

ولم يعرف القرن الحادى عشر فيما يبدو المتنزه المسمى «السلطانية»، وكان قائما على ضفاف الوادى

---

(١٠٢) عن معنى هذه الكلمة وتعنى نزهة بقارب، أو حفلة بهجة فوق الماء، انظر فيما سيأتى ص ١٨٨ الهامش رقم ٣٥ من هذا الكتاب.

(١٠٣) انظر: ابن قزمان، الديوان، القطعة ٧٣، الدور الخامس، حيث تجد تعبير «غرس الحبق».

(١٠٤) نفح ٣٨٩/٣، وعنه فى أبحاث، ط ١ ص ٨٣، وانظر أيضا فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب. وعن شنتبوس انظر نفح ١٧١/١ و٢٨١/٢ و٣٨٩/٣ و١٩٨/٤، وأبو الفدا، جغرافية، ترجمة رينو المجلد الثانى، القسم الأول، ص ٢٣٧، ودوزى، رسالة إلى فلبشير ٩٩.

(١٠٥) من الوافر، نفح ٤٣١/٣.

(١٠٦) انظر: التيجانى، تحفة العروس فى «بنو عباد» ١٥١/٢، وترجمته فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٦، وليفى بروفنسال، النقوش العربية فى إسبانيا، ١ (النص) ص ١٩ و٤٠ - ٤١ (رقم ٣٢)، وعن تاريخ هذا اللقاء الأول انظر: نفح ٢١١/٤، وعنه فى «بنو عباد» ٢٢٥/٢. وسوف نعود إلى هذا الهامش بمناسبة الأبيات التى تصف المياه والبرك والأنهار.

(١٠٧) نفح ٣٠٧/٢.

الكبير، ووصفه لنا ابن سعيد[١٠٨]. ويمكن الظن بأن وادى العروس كان من هذا الطراز، مطابقا لذوق العصر، جاريا على العادة المتبعة[١٠٩]. وكان ابن سعيد الوحيد الذى حدثنا عن طريانة Triana وجزيرة القبطال دون أن يعطينا أية تفاصيل أو يأتى معها بأبيات من الشعر تصفها، كما هى عادته وهو يعرض للمتنزهات الأخرى المتناثرة هنا وهناك[١١٠].

وثمة واد آخر يوجد فى الشرف نفسه، فى الشمال الشرقى من إشبيلية، ونال إعجاب المعتمد وزوجته الرميكية مثل مرج الفضة، ويدعى وادى الطلح، وأكّد ذلك ابن سعيد على الأقل، وعاش فى آخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الذى يليه[١١١]. ومن المثير أن الإشارة الوحيدة عن هذا الوادى نلتقى بها عرضا فى بيت من الشعر لابن بقى، وهو شاعر أمضى حياته بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وذلك عندما اجتاحه اليأس وفكر أن يرحل إلى المشرق[١١٢].

ونذكر أخيرا «منظرة الفُنت» فى موقع ريفى من ضواحى إشبيلية، تطوقه المروج من كل جانب، وتكسوه الزهور خلال فصل الربيع[١١٣].

بعامة يمكن القول إن إشبيلية لم تثر إلا قليلا من الحسرة والألم فى نفس الذين رحلوا إليها، أو الذين تركوها مؤقتا أو بلا رجعة.

يقول ابن عمار:

فوحشْنِه لقد انتُدبتُ لوصفه ... بالنجل لولا أنّ حِمْصًا دارُه

بلدٌ متى أذكرْه هيّجَ لَوْعتى ... وإذا قدحتُ الزند طار شراره[١١٥]

●●●

أما المرية فلم تكن فى القرن العاشر الميلادى غير ضيعة صغيرة، تقع على مصب النهر الذى يمضى

---

(١٠٨) نفح ٣٠٦/٢، وهى أربعة أبيات.

(١٠٩) نفح ٣١٥/٢.

(١١٠) نفح ١٨٢/١.

(١١١) نفح ٦٩١/١ و ٢٨٥/٢. وقد وصف نور الدين بن سعيد هذا الوادى فى قصيدة من ثلاثة وثلاثين بيتا، بائية القافية، من بحر السريع، واتخذ الشاعر الحديث أحمد شوقى من هذا الوادى موضوعًا لنونيته الشهيرة انظر كتابنا: إسبانيا كما يراها الرحالة المسلمون، من ١٦١٠ إلى ١٩٣٠، ص ١٠٤ – ١٠٥.

(١١٢) من الوافر، القلائد ٢٨٣.

(١١٣) ابن ظافر، البدائع ٢٢٥، وعنه فى نفح ٢٤٢/٣ وترجمها إلى الفرنسية كور، فى ابن زيدون ص ١١٢ – ١١٣. وهو المكان الذى شهد جنديًا فارسًا يصدم خادمًا يحمل الشراب ووطئ عليه، وهشم أعظمه وأجرى دمه، وكسر قمصل (فى النفح أو قمعل فى البدائع) النبيذ الذى كان يحمله وجرى.

(١١٤) فى مستهل القرن الثانى عشر، خلال فترة الصراع التى كانت نذيرا بنهاية عصر المرابطين، قال النحوى المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم الأعلم البطليوسى عن إشبيلية:

يا حمصُ لا زلتِ دارًا ... لكل بؤس وساحة

ما فيك موضع راحة ... إلّا وما فيه راحة

وهى من المجتث، نفح ٤٥٢/٣.

(١١٥) من الكامل، القلائد ٨٧.

إلى بجانة، ولم تصبح مدينة غنية وهامة إلا فى القرن الحادى عشر على أيام أميريْها الصقْلَبيين: زهير و خيران، ومن جاء بعدهما، ثم أميرها المعتصم بن صُمادح المنافس اللدود للمعتمد بن عباد، وهى ميناء لا يقوم فى أرض خصبة وفيرة الثمار أو غنية بمعادنها النفيسة، وإنما تعتمد فى مواردها على ما يأتيها من الخارج، ويوم أغلق البحر فى وجهها انهارت ولم تقو على النهوض[١١٦].

وإذا صدّقنا قول ابن الخطيب المؤرخ فإن المدينة اتسعت كثيرا فى عهد خيران الصقلبى، وأصبحت تغص بالمبانى الجميلة الواسعة، وهو الذى أجرى إليها المياه، وأقام الحمامات الرائعة[١١٧]، وإلى عصره يرجع، دون شك، حفر العيون الشهيرة، ولا تزال أطلالها موجودة حتى الآن وقد وصفها ابن دراج القسطلى حين مر بها بحرا:

متى تلحظوا قصر المرية تنزلوا ... ببحر ندًى يُمناه دُرٌّ ومرجانُ
وتستبدلوا. من موج بحرٍ سجاكُمُ ... بموجٍ لكم منه لُجيْنٌ وعقيان[١١٨]

ونحن نعرف الكثير عن قصور المرية ومتنزهاتها فى عهد المعتصم، ويقول ابن خاقان عن هذا الأمير، بعد أن وصف شح الأراضى الزراعية فى أمارته: «فاقتصر على صمادحيته البديعة وقصبته المنيعة»[١١٩].

وقصة تشييد قصر الصمادحية وهم اسم مشتق من أحد أسلافه المسمَّى صُمادح، تذكرنا بالوساوس التى انتابت عبد الرحمن الناصر عند توسعته المسجد الجامع فى قرطبة.

ذلك أن المعتصم لما بنى قصوره المعروفة بالصمادحية غصبوا أحد الصالحين فى جنة وألحقوها بها، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه، فبينا المعتصم يوما يشرب على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع، فأمر من يأتيه به، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها: «إذا وقفت أيها الغاصب على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى: ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجةً ولى نعجة واحدة فقال أكْفِلْنيها وعَزَّنى فى الخطاب﴾. لا إله إلاّ الله، أنت ملك قد وسّع الله تعالى عليك، ومكن لك فى الأرض، ويحملك الحرص على ما يفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة لعظيمة قطعة أرض لأيتام حرّمتَ بها حلالها، وخبُثتَ طيبها، ولئن تحجبّت عنى بسلطانك، واقتدرت علىّ بعظيم شانك، فنجتمع غدا بين يدى من لا يحجب عن حق، ولا تضيع عنده شكوى».

فلما استوعب قراءتها دمعت عيناه، وأخذته خشية خيف عليه منها، وكانت عادته رحمه الله تعالى، وقال: علىّ بالمشتغلين ببناء الصمادحية، فأحضروا فاستفسرهم عمّا زعم الرجل فلم يسعهم إلا صدقه، واعتذروا بأن نقصها من الصمادحية يعيبها فى عين الناظر، فاستشاط غضبًا وقال: والله إن عيبها فى عين الخالق أقبح من عيبها فى عين المخلوق، ثم أمر بأن تصرف عليه، واحتمل تعويرها لصمادحيته.

---

(١١٦) عن المرية فى القرن الحادى عشر طبقًا للكتّاب الناثرين، انظر: أبحاث، ط ٣ جـ ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

(١١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٢.

(١١٨) من الطويل، انظر: ياقوت ٥١٧/٤، وابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٤، ويذكر ابن خلدون أيضًا فى «خطرة الطيف» عن خيران، انظر: موللر، Beitrage ص ٣٤. وتحت حكم زهير الذى خلف خيران فى عام ٤١٩ = ١٠٢٨، تم تشييد منشآت أخرى، فرمم المسجد الجامع، وزاد فيه من كل جوانبه باستثناء الجانب الذى فيه القبلة. انظر أعمال الأعلام ٢١٦.

(١١٩) القلائد ٤٧.

ولقد مرّ بعض أعيان المرية وأخيارها معاجماعة على هذا المكان الذى أُخرجتْ منه جثة الأيتام، فقال أحدهم: والله لقد عوّرت هذه القطعة هذا المنظر العجيب، فقال له: اسكتْ، فوالله ن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره.

«وكان المعتصم إذا نظر إليها قال: أشعرتم أن هذا المكان المعوج فى عينى أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية؟ ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضى بما اشتهوا من الثمن، وذلك بعد مدة طويلة، فاستقام بها بناء الصمادحية، وحصل للمعتصم حسن السمعة فى الناس»(١٢٠).

ليست لدينا أية تفاصيل عن هذا القصر، وكل ما نعرف عنه أنه كان يضم ناعتى استقبال، أو مجلسين بالتعبير القديم: مجلس الحاقّة ومجلس البهو(١٢١)، وذو مظهر نبيل من جانبيه، وشُيِّد من المرمر الخمرى(١٢٢)، وتجرى الجداول ثعبانية فى حديقته حول الاستراحات الموجودة بها، كما فى حير الزجّالى فى قرطبة، وقد وصف المعتصم هذه الجداول، حين جلس يومًا، ومعه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء، على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى فى مناحيه، وهو منشرح النفس، فقال:

انظرْ إلى حُسْن هذا الماء فى صَبِّهْ ... كأنه أرْقَمٌ قد جدّ فى هَرَبِهْ(١٢٣)

ويصف ابن الحداد شاعر بلاط المعتصم "قصرَ الصمادحية فى قصيدة يمدح بها الأمير، ولكن التفاصيل التى وردت فيها غامضة مع الأسف، ولا نستطيع أن نخرج منها بشىء(١٢٤).

وكانت الشخصيات الكبيرة تملك بيوتًا ريفية فى ضواحى المرية، يطلق عليها اسم «برج»، يذهبون إليها بعد يوم حافل بالمشاغل فى المدينة، وكان ابن عباس وزير زُهير الصقلبى قد رأى على برج زهير بيتًا من الشعر كتبه بعض الأدباء إشارة إلى أن صاحبه متهم بداء أبى جهل، فيما يـل، ويقول فيه:

خـلوت بـالبـرج فـما الـذى ... تصنع فيه يـاسخيفَ لزمـانِ

فأمر بأن يكتب:

أصنـعُ فيـه كـلَّ مـا أشتهى ... وحاسدى خـارجَه فى هَـوانِ(١٢٥)

ولم يبالغ ابن الحداد كثيرًا فى قصيدته التى مدح بها المعتصم حين قال:

ومـا كَـمِـثِـلـهِ الـفـراتُ ودجلةٌ ... وإنْ حكموا أنَّ المريـةَ بغـدانُ
بـه اعتـدلتْ أزمـانُها وهـواؤها ... فكـانونُ أيلولٌ وتُّـوزُ نَيسـانُ(١٢٦)

---

(١٢٠) نفح ٣٦٦/٣ – ٣٦٧، وأبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٤٥.

(١٢١) هذا المجلس الأخير يعود تاريخ بنائه إلى خيران، انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٢٩ الهامش ١١٨.

(١٢٢) القلائد ٤٧، وعن معنى كلمة «خمرى» انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية ٤٠٤/١.

(١٢٣) من البسيط، القلائد ٤٩، والحلة ٨٥/٢، ونفح ٦٦٦/١ و ٣٢٩/٣.

(١٢٤) من الكامل، خريدة القصر فى نفح ١٠١/٤.

(١٢٥) من السريع، نفح ٥٣٥/٣.

(١٢٦) من الطويل الذخيرة ٧٢٤/١، وانظر فيما سيأتى من هذا الكتاب ص ١٨٠ الهامش ١١٥. وعندما طرد ابن الحداد من المرية قال فيها:

وكما رأينا من قبل شبّه الشاعر النحلى المرّية بالجنة،[١٢٧] ولكن بعض الشعراء الآخرين يقضون على النقيض من هذا الاتجاه، ولم يتردّد السميسر مثلا فى أن يصيح:

بئس دارُ المريّةِ اليوم دارًا ... ليس فيها لساكنٍ ما يحبُّ
بلدةٌ لا تمارُ إلّا بريحٍ ... ربما قد تهبُّ أو لا تهبُّ[١٢٨]

وفيها أيضًا يقول شاعر مجهول:

قالوا المرّيةَ صِفْها ... فقلت: نَطٌّ وشيحُ
وقيل فيها معاشٌ ... فقلت: إن هبّ ريحُ[١٢٩]

وكلا الشاعرين يشير إلى صعوبة تموين المدينة، إذ لا تجد بغيتها، كما قلنا، فى الحقول المجاورة، وهى قليلة الخصب. ويقول المقرى فى نفح الطيب معلّقا على أبيات السميسر التى سبقت: «يشير إلى أن مرافقها مجلوبة، وأن الميرة تأتيها فى البحر من بر العدوة»[١٣٠]. وأما شح الأرض وقلة مواردها الزراعية فيؤكده ابن خاقان، يقول: إنها ولاية قليلة الجباية، شحيحة المطر، عزيزة المنابت، فسيحة المهامه لا تنبت فاكهة ولا تنتج قمحًا، والشيح وحده الذى ينمو فى أطرافها[١٣١].

● ● ●

وتقع بَرجة، وهى ضيعة فى إقليم المرية، فى الجنوب الغربى منه، على واد مبهج يُعرف بوادى عذراء، تحدق به الأزهر والأشجار، وتتناقض خصوبته مع قحط أطراف العاصمة، وقد تغنى بجمالها فى قصائده الشاعر أبو الفضل بن شرف، وإليها يرجع أصله، يقول فى أبيات له:

رياضٌ تعشّقها سندسٌ ... توشّتْ معاطفها بالزهَرْ
مدامعُها فوق خدَّىْ رُبىً ... لها نَضْرةٌ فتنتْ مَن نَظَر
وكلُّ مكانٍ بها جنّةٌ ... وكلُّ طريقٍ إليها سَقَر[١٣٢]

وفى أبيات أخرى يقول:

حُطَّ الرحال بِبَرجَةْ ... وارتَدْ لنفسِكَ بَهْجَةْ
فى قلعةٍ كسلاحٍ ... ودوْحةٍ مثل لُجّةْ

تركت قلبى وأشواقى تفطّره ... ودمع عينى وأحداقى تحدّره
لو كنت تبصر فى تدمير حالتنا ... إذن لأشفقت مما كنت تبصره

وهى من البسيط. انظر: ياقوت، معجم البلدان ٨٣٦/١ و ٥١٧/٤، وجود فروى- ديومبين فى: العمرى، المسالك، الترجمة الفرنسية ٢٣٨، هامش ١، ونفح ٤٨/٤، ودوزى، أبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٥٥.

(١٢٧) انظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

(١٢٨) من خفيف، نفح ٣٩٠/٣، وأبحاث ط ١ ص ٨٤.

(١٢٩) من المجتث، الروض المعطار، رقم ١٧٥ ص ١٨٣ و ٢٢١، ومن المثير أن تلحظ أن هذه الأبيات مع تغيير فى البداية توجد فى ألف ليلة وليلة فى الليلة ٨٧٠ من طبعة بولاق أو القاهرة و ٨٦١ من طبعة بيروت، ولكنها تقال عن الإسكندرية.

(١٣٠) نفح ٣٩٠/٣.

(١٣١) القلائد ٤٧، وأبحاث ط ١ ص ٢٤٢.

(١٣٢) من المتقارب، نفح ١٥١/١، وانظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

فحصنها لك أمن وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها كعمرة وهي حجه[١٣٣]

● ● ●

وتغنى الشعراء أيضا، وبخاصة أشاعرات[١٣٤]، بجمال وادى آش، وأسهم مظهره النضير على التأكيد فى إيقاظ إحساس سكان المنطقة بالطبيعة وتعميقه، وكانت المدينة نفسها من المدائن الغنية بالشعراء الذين أغرموا بالطبيعة[١٣٥].

● ● ●

ولم تثر غرناطة التى احتلت فى القرن الحادى عشر مكانة إلبيرة الانتباه إلا فى عهد ملوك الطوائف[١٣٦]، واستخدم أحد الشعراء فى وصفها المعجم الخاص بالمدن فى إسبانيا، والذى ذكرناه فى بداية هذا الباب:

غرناطة مالها نظير مامصر ماالشام ماالعراق؟
ما هى إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق[١٣٧]

ولم يكن قصر الحمراء قد وجد بعد، ولم تكن الحمراء نفسها غير برج قرمزى داخل القلعة[١٣٨]، وبنو زيرى الذين سوف يحكمون غرناطة حتى قدوم المرابطين لابد أنهم أقاموا فى قصر أقرب إلى القلعة منه إلى قصر ملكى، فى داخل الدائرة التى تعلو التل الذى يشرف على مجموع المدينة، ونعلم أن مؤملا مولى باديس بن حبوس قد زين المدينة وضواحيها، وأنفق جهدا كبيرا فى صيانة الشوارع والأبنية العامة، وأطلق اسمه على ممر أشجار الحور على الضفة اليمنى لنهر شنيل، فأصبح يعرف باسم «حور مؤمل»[١٣٩]، ونال شهرة واسعة منذ القرن الثانى عشر الميلادى لكثرة المواعيد الغرامية التى اتخذته مسرحا، ووصفها لنا الشعراء.

---

(١٣٣) من المجتث. نفح ١/١٥١.

(١٣٤) انظر فيما سيأتى ص ١٤٢ - ١٤٤ من هذا الكتاب.

(١٣٥) ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار فى صبح الأعشى للقلقشندى ٥/٢٢١، ترجمة جود فروى - ديومبين ص ٢٤٥ يقول: سكانها مشهورون بمواهبهم الشعرية. ويقول المقرى فى نفح الطيب ١/١٤٩: «وقد حبا الله أهلها بالأدب وحب الشعر».

(١٣٦) عن أصل غرناطة انظر: ل. إيجيلث وباتجواس، أصل مدن غرناطة وإلبيرة والحمراء، فى تكريم كوديرة، ص ٢٣٣ - ٢٣٨.

(١٣٧) من مخلع البسيط. نفح ١/٦٤٨

(١٣٨) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة، فى مذكراته، التى تحمل اسم التبيان، أن اليهودى، أى يوسف بن النغرلة، هو الذى بنى حصن الحمراء. نظر: ترجمته إلى الفرنسية لليفى بروفنسال ص ٦٨.

● قلت نشر ليفى بروفنسال هذا الكتاب بعنوان مذكرات الأمير عبد الله، فى القاهرة، وصدر عن دار المعارف عام ١٩٥٥، وتوجد الإشارة السابقة فيه ص ٥٤ (المترجم).

(١٣٩) هذا الاسم كثيرا مايصيبه التحريف فيصبح حوز مؤمل، وعن هذا المتنزه انظر: نفح ١/٤٧٥ و ٢/٢٨٢ و ٣/٢١٨ و ٥١٣ و ٥٠٧ و ٤/١٧٧، والإحاطة ١/٤٤٩ _ ٤٩٩ و ٣/٣٣٣. وعن المولى مؤمل انظر: ليفى بروفنسال مذكرات الأمير عبد الله فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، سنة ١٩٣٥، العدد ٢ ص ٢٥٨ (وفى فصلة مستقلة ص ٢٦)، وانظر فيما سيأتى من هذا الكتاب ص ١٧١.

وثمة متنزه آخر فوق تل فى ضواحى غرناطة، نال الشهرة نفسها فى القرن الثانى عشر، وهو متنزه «نجد»[١٤٥]، غير أن شعراء القرن الحادى عشر لم يكونوا قد عرفوه فيما يبدو.

وكان فحص غرناطة يتمتع بكل خصوبته منذ نهاية القرن الحادى عشر، ووصف لنا بعض الكتاّب حدائقه فإذا هى لا تقل فى جمالها شيئا عن حدائق قرطبة وإشبيلية، ويسهب ابن خاقان فى سجعه الفنى الرقيق الذى عُرف به، وليس إلاّ شعرا حرا فى الحقيقة، فى وصف ضيعة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى فى خَرج غرناطة[١٤١] ويقدم لنا ابن سارة أول وصف للفحص وهو يمدح الأمير المرابطى أبا بكر بن إبراهيم:

اليوم أخمدتِ الضلالةُ نارَها ... واسترجعتْ دارُ الهدى عُمَّارها
واستقبلتْ حَدَقُ الورى غرناطةً ... وهى الحديقةُ فُوِّفتْ أزهارَها
فكأنَّ بَشْرينَا بها نيسانُهُ ... يكسو رُباها وردَها وبهارَها
فى غبِّ ساقيةٍ ترقرقُ أدْمُعًا ... يحكي الجُمانَ صغارَها وكبارَها
ما شئتَ من نهرٍ كصدرِ عقيلةٍ ... شقّتْ أناملُها عليه صَدارَها
أو جَدْولٍ كالنصلِ فى يد ثائرٍ ... أمهى صحيفتهُ وهزَّ غرارَها
ما بينَ أشجارٍ تميدُ كأنّها ... شرَّابُ جريالٍ يديرُ عُقارَها
مترنّحون إذا لَحَاها عاذلٌ ... تركتْ سكونَ حلومِها ووقارَها[١٤٢]

● ● ●

وإذا كانت غرناطة تستقبل زوّارها مرحبة منذ القرن الحادى عشر فإن رندة على النقيض من ذلك، فهى مدينة كريهة إذا صدقنا فيها ما قاله شاعر مجهول:

قُبحًا لرندةَ مثلَما ... قَبُحتْ مُطالعةُ الذنوبْ
بلدٌ عليه وحشةٌ ... ما إنْ يفارقه القطوب
ما حلَّها أحدٌ فيـ ... ـنوى بعد بَيْنٍ أن يؤوب
لم آتِها عند الضحى ... إلاّ وخُيِّل لى غروب
أفقٌ أغمُّ وساحةٌ ... تملا القلوبَ من الكروب[١٤٣]

● ● ●

وتغنى المعتمد بمدينة شِلْب الغنية بالمواهب الشعرية[١٤٤]، فقد أقام فيها حاكما على أيام والده

(١٤٠) عن هذا التل الذى أصبح متنزهًا انظر: نفح ٦٧٧/٢ و ٦٧٨ و ٥١٣/٣ و ١٧١/٧ و ٢٤٢، والإحاطة ٣١٧/٢ و ٣١٨، ورحلة ابن بطوطة ٣٧٣/٤، ولوثيناء مصور غرناطة العربية (فى الشرق من المصور) وجود فروى - ديمومبين، مسالك الأمصار للعمرى، ص ٢٣٣ رقم ٢ وص ٢٣٤ رقم ٢.

(١٤١) القلائد ١٧٤ - ١٧٥، وعنها فى نفح ٦٧٦/١.

(١٤٢) من اكامل، القلائد ٢٦٤، وعن سيرا نيبادا (جبل شلير) انظر ما يأتى، ص ٢١١ من هذا الكتاب.

(١٤٣) من اكامل، نفح ١٣٢/٤ - ١٣٣.

(١٤٤) كان القزوينى، المتوفى ٦٨٢ = ١٢٨٣، سعيد. وهو يشير فى مؤلفه الجغرافى إلى أن من النادر أن نجد بين أهل شلب من لا ينظم الشعر أو لا يهتم بالأدب، وأى فلاح وراء محراثه يستطيع أن يرتجل الأبيات من الشعر فيما تشاء من الموضوعات. انظر: =

المعتضد، وعندما أصبح أمير إشبيلية وأوفد وزيره ابن عمار فى مهمة تفتيشية حمّله رسالة سلام وتحية إلى كل الأماكن التى أحب فيهـ وتنضح بكل مشاعر الشباب وحماسته:

ألاَ حَيِّ أوطانى بشلبٍ أبابكـر — وسلهنّ هل عهدُ الوصالِ كما أدرى
وسلِّمْ على قصر الشراجيبِ عن فتىً — له أبدًا شوْقٌ إلى ذلك القصرِ
منـازلُ آسـادٍ وبيضٍ نـواعـمٍ — فناهيكَ من غيلٍ وناهيكَ من خِدْرِ
وكم ليلةٍ قـد بتّ أنعم جُنْحهـا — بمخصبةِ الأردافِ مُجدبـةِ الخصْـر
وبيضٌ وسمـرٌ فـاعـلاتٌ بمهجتى — فِعْلَ الصفاحِ البيض والأسلِ السمر
وليـلٍ بسـدِّ النهـر لهوٌ قـطعتـه — بـذات سوارٍ مثـل منعطف البـدر
نضتْ بُرْدَها عن غصن بانٍ منعَّمٍ — نضيرٍ كما انشقَّ الكمامُ عن الزهر[١٤٥]

وتوضح لنا قصيدة المعتمد هذه مهابط الجمال والمجد فى شلب فى القرن الحادى عشر، فهى: قصر الشراجيب[١٤٦] وسد النهر، ونحن لا نعرف أى شىء عن قصر الشراجيب هذا، إلا أنه كان يضارع فى الفتنة أروع قصور بغداد وأجملهـ وظل قائما على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر[١٤٧].

أما سد النهر فوصفه شعراء آخرون، وهو يذكرنا بجسر قرطبة الذى كان قائما على الوادى الكبير، كما وصفوا النهر نفسه، ويقول ابن عمار وهو أصلا من قرية صغيرة تدعى شنتبوس على مقربة من شلب، فى قصيدة يمدح بها المعتمد:

كسـاها الحيـا بُرْدَ الشبـاب فإنها — بـلادٌ بها عقَّ الشبـابُ تمائمى
ذكرتُ بها عهـدَ الصِّبا فكـأنما — قـدحتُ بنارِ الشـوقِ بين الحيـازم
ليالىَ لا ألوى على رشْدٍ ناصحٍ — عنـانى ولا أثنيـه عن غىِّ لائم
أنالُ سُهادى من عيـون نواعسٍ — وأجنى مرادى من غصونٍ نـواعم
وليـلٍ لنـا بـالسـدِّ بيـن معـاطفٍ — من النهر ينساب انسياب الأراقم[١٤٨]

● ● ●

= آثار البلاد، طبعة وستنفلد ص ٣٦٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٤، ونيكلسون، تاريخ الأدب العربى ٤١٦، وانظر أيضًا الدمشقى، المتوفى ٧٢٧ = ١٣٢٧، نخبة الدهر، طبعة ميرين، الترجمة ٣٤٤، وميرين، موجز كوزموجرافيا العصر الوسيط ٢٤٨، وأبو الفدا، ترجمة رينو وجويار ٢٣٧، يقول: لقد اشتهر أهل شلب بحب الأدب مما جعلهم مضرب المثل.

(١٤٥) من الطويل، القلائد ص ٥ – ٦ وعنها فى «بنو عباد» ٣٩/١، والترجمة ٨٣، وص ٣٢ البيتان الأولان فقط، وصبح الأعشى ٢٢٦/٥ (البيت الثانى)، وأبو الفدا، جغرافية، النص ١٦٧، والترجمة الفرنسية ٢٣٧ (مع ترجمة البيت الثانى المشار إليه فيما سبق)، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٩١، والقلقشندى رسالة فضل الأندلس، فى نفح ١٩٣/٣، الأبيات ٦ و ٩، وترجمة غرسية غومث لها ص ٥٧، وانظر فيما سيأتى من هذا الكتاب ص ٣٩ وما بعدها.

(١٤٦) عن كلمة «شراجب» وجمعها «شراجيب» انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية ٧٤٢/١ و ٥٥٥/٢ والقلائد ٣٠، وابن حزم، طوق الحمامة ١٤٥، وترجمة نيكل ١٥٨ وطبعة برشيه ٢٨٤ و ٢٨٥، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣٢٨، والحلة ٢٠٠/٢.

(١٤٧) الحلة ٢٠٠/٢.

(١٤٨) من الطويل، نفح ١٩/١، وابن خلكان، وفيات، طبعة القاهرة ٦/٢، وقد أنشد ابن عمار بيتا من الشعر لحظة احتضاره، وقد ذكر كل أهله: =

وحاول بنو الأفطس فى عاصمتهم بطليوس، وتقع فى الجنوب الغربى من إسبانيا، وسط منطقة حرمتها الطبيعة من عنايتها، أن ينافسوا أمراء قرطبة وإشبيلية والمرية، ولأنهم كانوا يجاورون الامارات المسيحية جاءت بيوتهم فى جملتها قلاعا أكثر منها قصورا.

كانت قصبة بطليوس تشرف على وادى آنه، ويقول ابن خاقان، إنّ بيت عدىّ بن زيد فى صنعاء ينطبق تماما على وصفها:

فى قبابٍ حول دَسْكرةٍ حولها الزيتون قد ينعا[١٤٩]

وأقام المتوكّل فى ضواحى المدينة منية أسماها البديع، ودرج على أن يذهب إليها مع أصحابه، وخصوصا بنى القبطورنة للاستجمام والاستمتاع هناك، وسط أشجار الأزهار[١٥٠]. وقد أثارت بطليوس وضواحيها الحسرة والشجن فى نفوس كثير من الشعراء، عرفانا بجمائل الأمير المتوكل أكثر منها إعجابا بالمدينة والمناظر التى تحيط بها.

يقول الوزير أبو عمرو بن القلّاس يمدح مدينة بطليوس، وهو من أعيانها:

بطليوسُ لا أنساكِ ما اتصل البعدُ فللّهِ غورٌ فى جنابكِ أو نَجْدُ
وللّه دوْحاتٌ تحفّكَ بيتها تفجَّر واديها كما شُقّق البردْ[١٥١]

●●●

وكانت طليطلة مدينة رومانية قديمة، ثم قوطية، وانتهى بها الحال إسلامية، وأصبحت فى نهاية القرن الحادى عشر عاصمة مملكة، وحاول بنو ذى النون أمراؤها أن ينافسوا بشدة عظمة قرطبة وإشبيلية، وقد وصف شاعر مجهول موقعها الفريد فوق رابية عالية، يطوقها نهر تاجُه من ثلاث جهات:

زادتْ طُلَيْطلَةٌ على ما حدَّثوا بلدٌ عليه نضرةٌ ونعيمُ
اللهُ زيّنه فوشّح خَصْرَهُ نهرُ المجرّةِ والغصونُ نجومُ[١٥٢]

وقد أصبح قصر المأمون فيها مناط إعجاب السكان والزوّار على السواء، لأن بنى ذى النون قاموا

= تبكى عليهم شنّبوس بعبرةٍ كأنيُّها المتدافع التيار
البيت من الكامل، فى «بنو عباد» ١٥٥/٢، نقلا عن الحلة.

● قلت: فى الحلة ١٥٧/٢، طبعة القاهرة. البيت ليس لابن عمار، وإنما هو للمعتمد بن عباد فى قصيدة له جاءت تذييلا على قصيدة لابن عمار من البحر نفسه، والقافية نفسها، مطلعها:

خبِّرْ بلنسية، وكانت جنة أن قد تدلّت فى سواء النار

(المترجم)

وثمة رواية للمقرى عن شخصين من شلب تسمح لنا بأن نعتقد أن نهر شلب كان عامرا بالضفادع. انظر: نفح ٥٢٠/٣، وفون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب ٧٦/١.

(١٤٩) من المديد، القلائد ٤٣، وعنها فى نفح ٦٦٤/١.

● قلت: فى النفح ٦٦٤/١ طبعة إحسان عباس «قال عدى بن زيد يصف مصنعاه وخطؤه واضح (المترجم).

(١٥٠) القلائد ١٥١، وعنها فى نفح ٦٣٧/١.

(١٥١) من الطويل، نفح ١٨٦/١، وصبح الأعشى ٢٢٣/٥ و ٢٢٤. وقد رأينا أن مقطوعة للنحلى تنسب لابن اللبانة وفيها يشبه بطليوس بالجنة. انظر أيضا: أبو الفدا، جغرافية، النص ١٧٢، والترجمة ٢٤٧.

(١٥٢) من الكامل، نفح ١٧٠/١.

بتوسيع المقر القديم لحكام المدينة منذ أن تنصروا، واهتموا بتجميله ليجعلوا منه تحفة فنية بالغة الروعة[(١٥٣)].

وانصب إعجاب الشعراء كله على البحيرة المبتكرة التى أقامها الأمير وسط القصر، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلاها على جوانبها، محيطابها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سُكب خلف الزجاج من ماء لا يفتر من الجرى، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصله، وفى الليل توقد فيها الشموع، وتنعكس أضواؤها، فتكوّن مشهدا بالغ الروعة والجمال[(١٥٤)].

وقد نظم أبو محمد إبراهيم المصرى، وهو شاعر مصرى كان لائذا فى بلاط المأمون، مقطوعة شعرية عن البركة والقبة عليها:

شمسيّةُ الأنساب سدريّةٌ ... يحارُ فى تشبيهها الخاطرُ
كأنما المأمونُ بدرُ الدجى ... وهى عليه الفلكُ الدائر[(١٥٥)]

وثمة حكاية تقول إن المأمون كان جالسا فى القبة مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشدا ينشد:

أتبنى بناءَ الخالدين وإنما ... بقاؤك فيها لو علمتَ قليلُ
لقد كان فى ظل الأراكِ كفايةٌ ... لمن كلَّ يومٍ يقتضيه رحيلُ[(١٥٦)]

فنغص عليه حاله، وتشاءم من قوله كما تشاءم الخليفة عبد الرحمن الناصر من قبل من خطبة منذر بن سعيد البلوطى[(١٥٧)]، وهو يقرّعه على الإسراف فى بناء الزهراء، وأقسم ألّا يصلى وراءه فى مسجدها، وأخذ المأمون يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قرب، ولم يجلس فى تلك القبة بعدها، فقد وافاه الأجل بعد شهر فحسب.

كان المأمون مثل أمراء قرطبة وإشبيلية يملك قصرا للراحة والتنزه، وسط الحدائق على شاطئ نهر تاجُه، غير أننا لا نستطيع أن نحدّد موقعه بالدقة، ويعتقد دوزى أن هذه المنية كانت تقوم على الشاطئ الأيمن لنهر تاجه، أى على الجانب الذى توجد عليه طليطلة نفسها، بين جسرى القنطرة وسان مرتين[(١٥٨)]. على حين يرى المستشرق الإسبانى جيا نجوس أنها نفسها التى تُسمى اليوم قصور غليانة أو بيوت الملكة[(١٥٩)]، بالقرب من أسافل النهر، وبعيدا عن المدينة نفسها، على الضفة اليسرى لنهر

(١٥٣) الوصف الوحيد له وجدناه نثرا فى الذخيرة ١٣٢/٤ ويشير ابن بسام إلى أن المجلس الرئيسى كان يحمل اسم المكرم (بتشديدالراء أو بدونها)، كأحد مجالس المعتمد فى إشبيلية.

(١٥٤) انظر: ابن بدرون، شرح الرسالة العبدونية ٢٧٧، وعنها فى نفح ٥٢٨/١ و ٣٥٣/٤.

(١٥٥) من السريع، نفح ٥٢٩/١.

(١٥٦) من الطويل، نفح ٥٢٨/١، وابن بدرون، المصدر المذكور فيما سبق ٢٧٨.

(١٥٧) انظر فيما سبق ص ١١٠ من هذا الكتاب.

(١٥٨) أبحاث ط ١ ص ٥٩٨ رقم ١، وقد عتمد دوزى على فقرة فى كتاب الاكتفاء، والذى روى لنا خبر استيلاء المرابطين على طليطلة عام ٥٠٣ = ١١١٠، وانظر المصدر نفسه ص ٥٣٢ رقم ١.

● قلت: حقق الدكتور أحمد مختار العبادى نص ابن الكردبوس، ومعه نص ابن الشباط فى وصف الأندلس ونشرهما المعهد المصرى فى مدريد عام ١٩٧١، والخبر فى هذا الكتاب ص ١١٦ (المترجم).

(١٥٩) الدول الإسلامية فى إسبانيا ٤٥/٢ وانظر أيضا: رامون ميننديث بيدال، الأعمال الكاملة، المجلد ٦، تاريخ وملاحم ٢٧٦.

تاجه. وكان بهذه المنية قاعة استقبال تحمل اسما يومئ إلى طابعها المتميز: مجلس الناعورة.

وقد وصف لنا العالم اللغوى أبو محمد بن السيد البطليوسي المنية، وقاعة استقبالها، فى قصيدة أوردها لنا ابن خاقان، فقد قص الشاعر على مؤلف «قلائد العقيان» أنه حضر مع المأمون فى مجلس الناعورة بالمنية، ولكن ابن خاقان لم يستطع فى روايته لما سمع، وقد سجن نفسه فى سجعه الذى تميّز به، إلّا أن يقدم بعض جمل جاء بها مقدمة لأبيات الشاعر، فهى «التى تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتمنى، والمأمون قد احْتَبى، وأفاض فى الحُبا، والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه، والبدر كالتاج فى مَفرِقه، والنوْر عبِق، وعلى ماء النهر مُصطبح ومُغْتبق، والدولاب يئِنّ كناقة إثر الحُوار، أو كثكلى من حَرّ الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد رشّته أنداؤه، والأسْد قد فغرت أفواهها، وسجت أمواهها، فقال:

يــا منـظرًا إنْ نـظرتُ بهجتَهُ ... أذكـرنى حُـسنَ جـنـة الخـلْدِ
تُـرْبـةُ مسـكٍ وجـوُّ عَنْبـرةٍ ... وغـيـمُ نـدّ وطشّ مـا وَرْدِ
والماءُ كـالـلازوَرْدِ قـد نَـظمتْ ... فـيـه الـلآلى فـواغـرَ الأسْـد
كـأنما جـاثـلُ الحبـاب بـه ... يـلعبُ فى جـانـبيـه بـالـنّـرْد
تـراه يـزهـو إذا يحـلّ بـه الـ ... ـمـأمون زهْـوَ الفتـاةِ بـالعقْـد
تخـالـه إنْ بـدا بـه قمـرًا ... تمّـا بـدا فى مـطالـع السعـد
كـأنمـا ألـبسـتْ حـدائقُـهُ ... مـا حـاز من شيمـةٍ ومن مجْـد
كـأنمـا جـادَهـا فـروّضـهـا ... بـوابـل مـن يمـيـنـه رَغْـد
لا زالَ فى رفـعـةٍ مُضـاعـفـةٍ ... متممَ الـرِّفْـدِ وارىَ الـزَّنْـد[١٦٠]

ولا يفوتنا أن نلحظ أن الشعراء لم يتناولوا الآثار الأخرى ولا المبانى العظيمة التى كانت تحفل بها طليطلة، مثل القنطرة المقامة على نهر تاجُه، والناعورة التى بجانب انحدار النهر على الضفة اليمنى[١٦١]، ولا البليتين اللتين «خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم، فى الموضع المعروف بباب الدباغين»[١٦٢].

●●●

وكان فى سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى قصر شهير فى القرن الحادى عشر الميلادى يسميه الشعراء دائما قصر السرور، ولنا أن نتساءل عمّا إذا كان هو نفسه القصر الذى عرفناه طوال بداية القرن الثانى عشر باسم «الجعفرية»[١٦٣]، أم هما قصران مختلفان. ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المقتدر بن هود، وتولى الإمارة من ٤٤١ إلى ٤٧٤ هـ = ١٠٤٦ - ١٠٨١م، كان موضع التمجيد فيما يتعلق بقصر

(١٦٠) من المنسرح،القلائد ١٩٤، وعنها فى نفح ٦٤٤/١، وابن ظافر، البدائع ٣٠٩، وعنها فى نفح ٦٤٥/١.

(١٦١) نفح ٣٥٣/٤.

(١٦٢) نفح ٢٠٦/١.

(١٦٣) يذكر ابن عذارى لأول مرة قصر الجعفرية، فى أحداث عام ٥٠٣ = ١١٠٩ الخاصة باستيلاء المرابطين على مدينة سرقسطة، البيان المغرب ٥٤/٤. وعن هذا القصر انظر: تراس، الفن الإسبانى العربى منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ص ٢٠٠ - ٢٠٩.

السرور، وأن هذا الأمير كان يكنى أبا جعفر[١٦٤] فلا يجا في المنطق في شيء أن ننسب له بناء القصر، وأن نرى أن الاسمين كانا يطلقان على البناء نفسه وهو واحد[١٦٥].

وتردد كل كتب الأندلس، بلا توقف، أن المقتدر نظم الأبيات التالية في مبانيه:

قصرَ السرورِ ومجلسَ الذهبِ — بكما بلغتُ نهايةَ الأدبِ
لو لم يَحُز ملكي خلافَكما — كانت لديَّ كفايةُ الطلبِ[١٦٦]

وثمة نوادر عديدة تحكى عن حياة المقتدر، وكان مجلس الذهب مسرحًا لها[١٦٧].

●●●

أمّا متنزهات بلنسية فكانت الوحيدة التي توجد خارج المدينة: الرصافة ومنية ابن عبد العزيز[١٦٨].

وعن الرصافة لم يقل الشعراء شيئًا[١٦٩]، أما منية ابن عبد العزيز فقد داعبت خيالهم على نحو ما فعلت منية المأمون في طليطلة. وقد شيّد منية بلنسية المنصور بن أبي عامر، وينحدر من نسل المنصور العامري الكبير، وحكم بلنسية من ١٠٢١ إلى ١٠٦١ م، وأقام يوم افتتاحها حفلًا جمع كل زهور المملكة الرقيقة، ومئة خادم تتراوح أعمارهم بين عشرة وأربعة عشر عامًا، يقومون على خدمة المدعوين، يقدمون لهم الطعام والشراب، وقدم الأمير نفسه في ذلك اليوم عشرين ألف هدية، ووهب أملاكًا واسعة في شكل إقطاعات[١٧٠].

وكل الأمراء الذين حكموا بلنسية كانوا يقيمون في هذه المنية، وطلبها السِّيد القنبيطور لنفسه من القاضي ابن جَحاف لإقامته الشخصية، ثم عدل عن طلبه مخافة أن يقع في كمين[١٧١]. وفي عهد المرابطين سنحت الفرصة لمؤلف كتاب «قلائد العقيان» أن يزور هذه المنية عدة مرات، وكان الطريق إليها من بلنسية يمر بباب الحنش، وهي حديقة شاسعة، تغطيها أشجار الزينة والفاكهة والزهور، ويخترقها مجرى مائي، ويقع القصر في وسطها حيث توجد قاعة رائعة الزخرفة والفخامة، وكل أبوابها تؤدي إلى

---

(١٦٤) ثمة أمير آخر من بني هود يحمل هذه الكنية أيضا: عماد الدولة، ولكنه حكم عاما واحد بالكاد ثم عزله المرابطون. انظر: بريتوويبس، ملوك الطوائف ١٤٧، وليفي بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، فصلة مستقلة، ص ١٩٢، رقم ٦٦.

(١٦٥) نحن نعرف أن الجعفرية في ضوء زخرفتها تعود إلى القرن الحادي عشر دون شك. انظر: ج. مرسيه، موجز ٢٩٨/١ و ٣٦٣ - ٣٦٦، وهنري تراس، الفن الإسباني العربي ص ١٩٧ و ٢٠٠ - ٢٠٦.

(١٦٦) من الكامل، نفح ٤٤٦/١ و ٢ ٤، وصبح الأعشى ٢٣٢/٥.

(١٦٧) نفح ٥٣٤/١، والذخيرة القسم الثالث في: أبحاث ط ١ ص ١٦٦ في الهامش. وتحت حكم بني تجيب الذين خلفوا بني هود نهبت العامة قصر سرقسطة - هل هو قصر السرور نفسه؟ بعد أن قتل منذر بن يحيى معز الدولة رجل من بني عمه يدعى عبد الله بن حكم (أو حكيم) في محرم ٤٣١ = سبتمبر أو أكتوبر ١٠٣٩. انظر: البيان المغرب ١٨٠/٣، وأعمال الأعلام ١٩٦، والحلة ٢٤٦/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣.

(١٦٨) ابن سعيد في نفح ١٧٩/١، وصبح الأعشى ٢٣١/٥.

(١٦٩) فيما بعد سوف يتغنى بها الرصافي الشاعر، وكانت مسقط رأسه انظر نفح ١٨١/١ و ٩/٤ و ١٠.

(١٧٠) القلائد ٦٩، وعنها في نفح ٦٥٢/١ وما بعدها.

(١٧١) أبحاث ط ١ جـ ١ص ٥٤٣.

الحديقة، وقد أصبحت المنية مكانًا عامًا للتنزه، ويصف لنا أحد الشعراء المغمورين، واسمه على بن أحمد، هذا المجلس وحلّه مع طائفة من الوزراء، فى أربعة أبيات:

قُمْ فاسْقنى والرياضُ لابسةٌ ... وشْيًا من النوْر حاكه القطْرُ
والشمس قد عُصْفرتْ غلائلها ... والأرضُ تندى ثيابهَا الخضْر
فى مجلسٍ كالسماء لاحَ به ... مِن وجه مَن قد هويتُه بدْر
والنهرُ مثلُ المجرّ حف به ... من الندامى كواكبٌ زُهْر(١٧٢)

وتغنى ابن الزقاق أيضًا فى بلنسية، وعاش فى آخر القرن الحادى عشر وأول القرن الذى يليه، يقول:

بَلَنْسيةٌ إذا فكّرتَ فيها ... وفى آياتها أسْنى البلادِ
وأعظم شاهدِى منها عليها ... وأن جمالَها للعين بادى
كساها ربُّها ديباجَ حسْنٍ ... له علَمانِ من بحْرٍ ووادى(١٧٣)

وإذا كانت بلنسية قد اشتهرت بخصوبة أرضها، ووفرة منتوجها، وتنوع ثمارها، مثل الزعفران والكمثرى، وصفاء سمائها لا تعكرها سحب، وبهاء أضوائها(١٧٤)، فقد كانت أيضًا مدينة يغزوها الناموس، ويهاجمها الغلاء، مما جعل أهلها فى حالة حرب مستمرة، يقول الحصرى:

ضاقت بلنسيةٌ بى ... وذاد عنى غموضى
رَقْصُ البراغيثِ فيها ... على غناء البعوض(١٧٥)

ويقول ابن عيّاش:

بلنسيةٌ بِينى عن القلب سَلْوَةً ... فإنّك روْضٌ لا أحنُّ لزهْرِك
وكيف يحبُّ المرءُ دارًا تقسّمت ... على صارمىْ جوع وفتنةِ مُشرك(١٧٦)

ويردّ عليه ابن حريق:

بلنسيةٌ قرارةُ كل حُسْنٍ ... حديثٌ صحَّ فى شرقٍ وغَرْبِ
فإنْ قالوا محلُّ غلاءِ سِعْرٍ ... ومَسْقطُ ديمَتى طَعْنٍ وضَرْب
فقلْ هى جنّةٌ حُفّتْ رُباها ... بمكروهينِ من جوع وحرْب(١٧٧)

---

(١٧٢) من المنسرح، القلائد ٦٩، وعنها فى نفح ٦٥٨/١.

وتحت حكم المرابطين ذهب أبو عبد الله بن عائشة مع لمة من الأدباء والأصدقاء إلى هذه المنية ليقضوا وقتا تحت أدواحها. انظر: المطمح ٣٤٧.

(١٧٣) من الوافر، الديوان، رقم ٣١ ص ١٣٩، وابن دحية، المطرب ١٠٨.

(١٧٤) ابن سعيد فى نفح ١٧٩/١، وصبح الأعشى ٢٣١/٥.

(١٧٥) من المنسرح، نفح ١٧٩/١ و ١٨٠ و ٣٣٠/٣، وقد رأينا فيما سبق أن ابن مسعدة يعتبرها جنة لولا البعوض.

(١٧٦) من الكامل، نفح ١٧٥/١ و ١٧٩، وياقوت، معجم البلدان ٧٣١/١.

(١٧٧) من الوافر، نفح ١٨٠/١ – ١٨١. وفى القرن الثانى عشر ألف أبو بحر صفوان بن إدريس رسالة تتفاخر فيها مدن الأندلس بالهاء، وفيها عيّرت تدميرُ بلنسية بصعوبة تموينها، واستمرار حروبها وفتنها. انظر: نفح ١٧٤/١، وزاد المسافر ٩٤.

ويقول السميسر الشاعر من جانبه، مندهشًا لحالة القذارة المؤسفة التي عليها:

بلنسيةٌ بلدةٌ جنّة ... وفيها عيوب متى تُختبرْ
فخارجها زهرٌ كلّه ... وداخلُها بِرَكٌ من قَذَرْ[178]

● ● ●

كان الأمير مبشّر العامري، والذي تلقّب بناصر الدولة، يحكم دانية والجزائر الشرقية ويسخو على ابن اللبانة الشاعر، فرسم لنا هذا لوحة لجزيرة ميورقة:

بلدٌ أعارتْهُ الحمامةُ طوْقها ... وكساهُ حُلّةَ ريشهِ الطاووسُ
فكأنما الأنهارُ فيه مدامةٌ ... وكأنّ ساحاتِ الديارِ كؤوس[179]

وفي مدح الأمير يقول:

وغمرْتَ بالإحسانِ أرضَ مُيورقةٍ ... وبَنَيْتَ مالم يَبْنِهِ الإسْكَندر[180]

كان يسعدنا أن نعرف الكثير عن الأعمال المعمارية فيها، والتي تعود إلى عظمة أميرها مبشّر، غير أننا لا نعرف أي شيء آخر غير ما قالته لنا هذه الأبيات.

● ● ●

وقد رأت جزيرة شُقْر، أو الجزيرة دون إضافة، مولد شعراء كثيرين تأثروا بخضرة الإقليم الفخيمة، وجمال الجزيرة الفريد، وسد مياه النهر، فأصبحوا رسّامين ممتازين للطبيعة، ويكفينا أن نذكر من بينهم: ابن خفاجة وابن عائشة وابن الزقاق يقول ابن خفاجة:

بَيْنَ شُقْرةٍ وملتقى نَهرَيْها ... حيث ألقتْ بنا الأماني عَصاها
ويُغنّي المكّاءُ في شاطِئَيْها ... يستخفُّ النُّهى فحُلّتْ حُباها
عيشةٌ أقبلتْ يُشهّى جَناها ... وارفٌ ظِلُّها لذيذٌ كَراها[181]

● ● ●

وكان يوجد في شاطبة ثلاثة متنزّهات شهيرة: البطحاء والقدير والعين الكبيرة[182]. وقد مدح شاعر مجهول هذه المدينة وضواحيها:

نِعْمَ مُلْقَى الرحْلِ شاطبةٌ ... لفتىً طالتْ به الرِّحَلُ
بلدةٌ أوقاتُها سَحَرٌ ... وصَبًا في ذيْلهِ بَلَلُ

(١٧٨) من المتقارب، ياقوت، معجم البلدان ٧٣٢/١.

(١٧٩) من الكامل، نفح ٦٦٩/١، وأبو الفدا، جغرافية، النص، ١٩٠/٦، والترجمة ٢٧١/٢، وترجمة ديجا له في مقدمة طبعة نفح الطيب الأوروبية ٣٠/١، وكامبنير، مجمل ٣١١ - ٣١٢، وفنيان، فصول غير منشورة حول المغرب ١١٠. وهذان البيتان ينسبان أيضا لابن حمديس. انظر: الديوان، طبعة شيبرلي، الملحق ٤٨٨.

(١٨٠) من الكامل، نفح ٦٦٩/١.

(١٨١) من الخفيف، عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، رقم ٢، مادة شقر، ص ١٠٣ - ١٢٦، وعن نهر الجزيرة، انظر فيما سيأتي من هذا الكتاب ص ١٩٠ - ١٩١.

(١٨٢) القلقشندي، صبح الأعشى ٢٣٦/٥.

ونـسـيـمٌ عَـرْفَـهُ أرِجٌ ورياضٌ غـصـنـهـا ثَـمِـل
ووجـوهٌ كُـلُّـهـا غُـرَرٌ وكـلامٌ كـلّـه مَـثَـل[١٨٣]

●●●

هذا الاستعراض السريع للمدن فى إسبانيا الإسلامية غير كامل حتما، لأن القائمة التى يمكن أن نلتقطها من قصائد الشعراء لا تتضمن سوى المدن الهامة أو التى لها بعض الأهمية، حيث أدت الظروف السياسية إلى أن يحكمها أمراء أو حكّام فترة من الوقت سمحت لهم بتشييد المبانى الهامة فى عهودهم، سواء عاشت بعد عصرهم أم لا، وتناثرت هذه القصور والمنتزهات على امتداد كل الدولة، على نحو يظهر بطريقة مقنعة وواضحة لا مركزية الحكم الذى كان سائدا فى شبه الجزيرة نتيجة سقوط الحكم الأموى، ولم يعد الفن الأندلسى محصورا فى قرطبة العاصمة، وبدأ المهندسون والمزخرفون يجوبون كل إسبانيا، شأن الشعراء والأدباء، وتشهد لهم أعمالهم، ولم يبق منها غير القليل، ربما لأن تنفيذها تم فى عجلة خاطفة وبخامات ضعيفة، بذوق سليم رأى أن يستعيض عن البساطة الشديدة فى الفن القرطبى بالأناقة الرفيعة، وهو انعكاس صادق، لا يمكن إنكاره، للحياة الفنية فى مجتمع القرن الحادى عشر[١٨٤].

إن قصر المبارك فى إشبيلية، والجعفرية فى سرقسطة يعيشان فى الأطلال المتبقية منها، أمّا بقية القصور الملكية فأصبحت مجرد ذكرى يخلدها الشعراء فى قصائدهم، وضاعت تفاصيلها المعمارية تقريبا، باستثناء ما ورد منها فى شعر ابن حمديس، وبخاصة أن مناط التأثير كان يرتبط بالمناخ الذى يحاول الشعراء إضفاءه على أوصافهم.

ونلحظ، واقعا، أن إلهام الشعراء يكتسى عادة ثوب الأسى: فسحر الوطن يزيده البعد فتنة، والمدينة التى تبدو لهم أكثر إثارة للعواطف، وأجدر بالتغنى، هى التى فقدت زينتها من المبانى الجميلة وغيرها، وليست تلك التى تفيض بالحركة وتموج بالحياة، ومن ثم أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الإسلامية منهلا ثرًّا للشعراء فى القرن الحادى عشر، لأنها سقطت وفقدت امتيازاتها الملكية، وتحولت فى الجانب الأكبر منها إلى أطلال.

أما عن المدن نفسها فلا يقول لنا الشعراء شيئا عنها، وعبثا نبحث عن تفاصيل تحدد شارع[١٨٥] أو سوق أو باب، ولقد أثارتهم القصور لأنهم أحسوا فى جنباتها بالجمال المعمارى، تمازجه العظمة، ويخالطه الجلال، وربما أيضا لأن فى مدح القصر تكريما لسيده وإطراء. والحق أن المنيات كانت ملهمهم الأول، وضواحى المدن، وبخاصة حيث يجرى نهر فى حقل نضير.

إنّ الشاعر الأندلسى لا يستطيع أبدا أن يعشق مدينة مجردة من الخضرة والأشجار!

---

(١٨٣) من المديد، نفح ١٨٦/١.

(١٨٤) انظر: هنرى تيراس، الفن الإسبانى العربى من البدء حتى القرن الثالث عشر ٢٠١.

(١٨٥) ما عدا بيتا من الشعر يعطى فكرة قاتمة عن الطرق العامة فى بلنسية، انظر فيما سبق ص ١٤٠.

○ الفصل الثانى

الوديان والجبال

فى إسبانيا، والجنوب منها بخاصة، ودبان تظلّل طرقها الأشجار وتصلح للتجوال، وأنهار وقنوات ترحّب ضفافها بالمتنزهين. وقد ذكرنا عندما عرضنا للمتنزهات وادى الطلح فى إشبيلية، ووادى العقيق فى قرطبة[1]، ولم يكن أىٌّ منها موضوع وصف خاص. وهناك واد نال شهرة عريضة عند أدباء الغرب الإسلامى على نحو ما كان عليه شعب بوّان[2] عند المشارقة، وهو وادى آش وحملت اسمه بالإسبانية قرية Guadix.

كم ألهم هذا الوادى من شعراء وشاعرات!

وحفظت لنا كتب الأدب أجمل وصف قيلَ فيه، يراه بعضهم للشاعرة حمدة بنت زياد المؤدب، ويراه آخرون للشاعرة الغرناطية مهجة بنت عبد الرازق:

أباح الدمعُ أسرارى بوادى ... له للحسنِ آثارٌ بَوادى
فمن نهرٍ يطوف بكل روْضٍ ... ومن روْضٍ يرفّ بكل وادى
ومن بينِ الظباء مهاةَ إنسٍ ... لها لُبِّى وقد ملكتْ فؤادى
لها لحظٌ ترقّدُه لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعُنى رقادى
إذا سدلَت ذوائبَها عليها ... رأيت البدر فى جُنحِ الدآدى
كأنَّ الصبح مات له شقيقٌ ... فمن حُزنٍ تسرْبَلَ بالسواد[3]

وتقول فيه أيضا حمدة:

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ ... سقاهُ مُضاعفُ الغيثِ العميمِ
حَلَلْنا دوْحه فحنا علينا ... حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيم
وأرشفَنا على ظمإٍ زلالاً ... ألذَّ من المدامةِ للنديم
يصدُّ الشمسَ أنّى واجهَتْنا ... فيحجبُها ويأذنُ للنسيم

---

(١) من المناسب أن نضيف إليها وادى الزيتون فى ضواحى سرقسطة، ونجد له وصفا نثريا فى الذخيرة ٣/٢٨٢، وعنها فى نفح ١/٥٣٤.

(٢) عن هذا الوادى، ويقع فى غرب فارس، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٧٥١-٧٥٤، والمتنبى، الديوان، طبعة البرقوقى ٢/٤٨١-٤٩١، والأبيات من الوافر. وبر بيه ـى مينار، المعجم الجغرافى والتاريخى والأدبى لفارس وما يتاخمها ١١٠، وكارا دى فو، مفكرو الإسلام ٢/١٨، وبلاشير، المتنبى، مختارات بمناسبة عيد الألفى ٦٢.

(٣) من الوافر، نفح ٤/٢٨٨.

● قلت: الدآدى، فى البيت قبل الأخير، ثلاث ليال من آخر الشهر (المترجم).

يَروعُ حصاهُ حاليةَ العذارى ... فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيم[٤]

إنها أبيات تعبق بحنان حزين يلفه حب عارم للطبيعة، وكافية وحدها لتبرير الشهرة الطيبة التى يتمتع بها وادى آش مهبطا للشعراء الممتازين.

●●●

كما رأينا، كانت المناظر الريفية الجميلة، ومشاهد الأعياد فى القرى، والأماكن المنعشة من أنهار ووديان ظليلة، أشدّ ما يجذب انتباه شعراء الأندلس، ولم تكن الجبال تتمتع بأية جاذبية فيما يرون، وتبدو لهم لا أهمية لها، ولا تثير فيهم غير مشاعر الرعب، فإذا تحدثوا عنها لم يروها إلاّ من بعيد، وعندما يلتقطون من حجمه المستقر على الأرض فى قوة واقتدار بعض الصور البلاغية من تشبيه واستعارة، يكونون قد أوفوا على الغاية، واستنفدوا كل ما يمكن أن يوحيه إليهم من شعر. وهناك من يظن أن البلاد الإسلامية لم يكن بها سوى السهول والوديان، ومع ذاك تقدم إسبانيا الإسلامية للمشاهد فى الثغر الأعلى قمما ثلجية تعلو جبال البرانس، ومثلها كان يعلو رؤوس جبل شلير قريبا من غرناطة فى الأندلس، ورسم لنا أحد الشعراء صورة دقيقة للرعب الذى تثيره سلاسل الجبال العالية فى نفوس المسافرين الذين يسلكون الطرق تحت أقدامها، وكان هذا الشاعر هو ابن خفاجة الذى ترك لنا الأبيات الجميلة التالية:

وأرْعنَ طماّحِ الذؤابةِ باذخٍ ... يُطاول أعنانَ السماءِ بغاربِ
يسدُّ مهبَّ الريحِ عن كل وجهةٍ ... ويزحم ليلاً شُهْبَهُ بالمناكب
وقورٍ على ظهرِ الفلاةِ كأنه ... طوالَ الليالى مُطرِقٌ فى العواقب
يلوثُ عليه الغيْمُ سودَ عمائمٍ ... لها من وميضِ البرقِ حُمْرُ ذوائب
أصختُ إليه وهوَ أخرسُ صامتٌ ... فحدَّثنى ليلَ السُّرَى بالعجائب
وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ ... وموطنَ أوّاهٍ تبتّل تائب
وكم مرّ بى من مُدلجٍ ومؤوّبٍ ... وقَالَ بظلّى من مطىٍّ وراكب
ولاطَمَ من نُكْبِ الرياحِ معاطفى ... وزاحمَ من خُضر البحار جوانبى
وكم سفرتْ لى من شموسٍ وأقمرٍ ... وباتت تراءى من عيون كواكب
فما كان إلاّ أن طوتهم يدُ الردى ... وطارت بهم ريحُ النوى والنوائب
فما خَفْقُ أيْكى غيرُ رجفةِ أضلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرقى غيرُ صرخةِ نادب

....

فرحماكَ يا مولاى دعوةَ ضارعٍ ... يمدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغب
فأسمعنى من وعظهِ كلَّ عبرةٍ ... يُترجمها عنه لسانُ التجارب
فسلّى بما أبكى وسرَّى بما شجا ... وكان على ليلِ السّرى خيرُ صاحب[٥]

---

(٤) من الوافر، نفح ٢٨٨/٤. وهذه الأبيات هى التى نسبها الشاعر المشرقى المنازى لنفسه، ليرفع من قدر مواهبه عند المعرى، انظر فيما سبق ص ٤٧ من هذا الكتاب.

(٥) من الطويل، الديوان، والذخيرة ٥٨٧/٣، والنويرى، نهاية الأرب ٢١٧/١.

إن تشخيص الجبل متعاظما خالدً يأسى لبؤس البشر الذين يمرون بسفحه تعبير مؤثر وجديد فى الوقت نفسه، والبيت السادس الذى يذكر فيه أن الجبل مأوى الخارجين على القانون، وموطن المهموم الذى زهد فى الحياة، ورجع إلى الله، يوضح لنا بطريقة أفضل من أكثر الأبحاث طولا الدور الاجتماعى الذى يلعبه الجبل. ولم يكن نادرا أن يحتمى قاطع طريق بأحراش جبل شُلَير هربا من العدالة فى نهاية القرن الحادى عشر ولقد سنحت الفرصة لابن خفاجة نفسه كى يتحقق من خطر الطرق، فقد كان يوما راحلا رُفقةَ عبد الجليل بن وهبون، فهاجمهما قطّاع الطرق، وقضوا على صاحبه، ونجا هو بمعجزة[٦].

ويؤكد لنا هذا البيت أيضا أن النُسّاك والزاهدين فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الذى يليه تأثروا بالأفكار الصوفية التى كانت قد وفدت منذ مدة قليلة، فزهدوا فى الحياة الدنيا، وأحبوا عيش التأمّل[٧].

(٦) الذخيرة ٦٤٨/٣، ونفح ٣١٨/٣، ابن دحية، المطرب ١٢٢.

● قلت: فى الأصل الذخيرة القسم الثق، وأراه خطأ مطبعيا. (المترجم).

(٧) فى القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى تحدث شاعر إسبانى مسلم آخر عن الجبل، وهو ابن الحاج البلفيقى، ولكن لينتقد المبالغين فى الزهد، وقد لاذوا به. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ١١٧/٢، طبعة القاهرة.

○ الفصل الثالث:

الحدائق والبساتين

إذا كان أهل الأندلس يرون الجبل معديًا وغير إنسانى فإن أحب ألوان الجمال إليهم ماصنعته يد الإنسان، وتصوير الحدائق من أكثر الموضوعات الشعرية دورانا، فى الغالب، بين كل ما كتب الأدباء المسلمون فى إسبانيا.

وكان الفن الأدبى الذى حمل اسم الرْوضيات، نسبة إلى الروضة، يمثل وحده مادة مستقلة فى أكثر من كتاب، ويظنون أن الأندلس، وإسبانيا كلها، حديقة بديعة، واسعة الأرجاء، تتوزعها الزهور وتتناثر فيها الأشجار، وتتقاسمها الألوان الزاهية، والأوراق النضرة، وسوف نلحظ أن موضوع الحدائق مرتبط بالربيع، والأمطار فى أول موسمها، تدفع بالخصب، وتعلن نهاية الشتاء، وتبشر بمقدم الصيف، ويتضح لنا من بعض الأمثلة المحدّدة التى سنأتى بها أن شعراء الأندلس كانوا يكررون أنفسهم، ولا يستحقون أن يذكروا فى هذا الجانب فى عداد الأصلاء أو المجدّدين، فقد سبقهم الشرق فى تناول هذا النوع، ونجده عند معظم شعراء العصر العباسى، من القرن الثامن حتى العاشر، وبخاصة البحترى وابن المعتز والصنوبرى، والذين سبقوا ملوك الطوائف بقليل أو عاصروهم، مثل الشريف الرضى ومهيار الديلمى[1].

كان شعراء الأندلس فى حاجة إلى كثير من البراعة لكى ينشدوا أشعارًا جديدة فى هذا الجانب، ولم تكن الأفكار غايتهم فى هذا ولا طريقهم إليه، وإنما اختاروا الألفاظ الأكثر تعبيرًا، والكنايات الأشد حيوية، ولقّبوا بعضهم كابن خفاجة بالجنان، ولايعنى أن هؤلاء وحدهم يستحقون هذا اللقب، وكل ما هنا لك أنهم أكثر فنا من غيرهم، وهم يبحثون عن المستحدث من الكنايات. والحق أن شعراء نهاية القرن العاشر وبداية تاليه لم يكونوا أدنى منهم فى شىء، وإن كان حظهم من الحديث عنهم قليلاً، ربما لأن أشعارهم كانت أقل ذيوعًا وانتشارًا، فقد ضاعت دواوين شعرهم أثناء الفتن والاضطرابات التى حدثت فى مطلع القرن الحادى عشر ونهايته، والحروب المتصلة التى ميزت هذين العصرين.

● ● ●

يقول فضل بن الأعلم وتنزّه يومًا بحديقة من الحدائق الخضرة قد اطّرد نهرها، وتوقد زهرها، والريح يسقطه فينظم بِلَبَّة الماء، ويبتسم به فتخاله كصفحة خضرة السماء:

انــظر إلى الأزهـار كيف تــطلعتْ ... بسمـاوة الـروض المجـوُد نجـومـا
وتسـاقـطتْ فكـأن مسترقًـا دنـا ... للسمـع فـانقضّتْ عليـه رُجـومـا

(١) يكفى أن نقول أنه بطريقة غير مباشرة صاحب إلهام فارسى.

وإلى مسيل الماء قد رَقمتْ به صَنَعُ الرياحِ من الحباب رُقوما
ترمى الرياحُ لها نثيرًا زهرهُ فتمدُّه فى شاطئيه رقيما[٢]

ويصف أبو عامر بن مسلمة خميلة «والربيع قد نشر رداه، ونثر على معاطف الغصون نداه» فيقول:

وخميلةٍ رَقَمَ الزمانُ أديمَها بمفضَّضٍ ومُقَسَّمٍ ومُثَوبِ
رشفتْ قُبيْل الصبح ريق غمامةٍ رَشْفَ المحبِّ مراشفَ المحبوب
وطردتْ فى أكنافها ملكَ الصِّبا وقعدتْ واستوزرتُ كل أديب
وأدرتُ فيها اللهوَ حقَّ مداره مع كلِّ وضَّاحِ الجبين حسيب[٣]

ويثير تنَوع ألوان الزهور وأريجها الشاعرَ أبا القاسم البَلْمى:

انظر ونزِّه ناظريك بروْضةٍ غنَّاء مازالت تُراح وتمطرُ
لتريكَ من صنعاء صنعة وشيها بطارفٍ من تُسْتَرَ لا تُسْتَرَ
ألوانُها شتَّى وطيبُ نسيمها يُقْصى العبيرُ به ويُنْسى العنبر[٤]

وإليك أشعارًا أخرى تصف الحدائق دون أن تشير إلى دور الأمطار المفيد، يقول أبو محمد عبد الله بن السماك:

الروضُ مخضرُّ الرُّبى مُتجمِّلُ للناظرين بأجملِ الألوانِ
فكأنما بسطتْ هناك شوارها[٥] خودٌ زهتْ بقلائد العقيان
وكأنما فَتَقَتْ هناك نوافجٌ من مِسْكَةٍ عُجِنتْ بصرفِ البان
والطير تسجع فى الغصون كأنما نقر القِيَانِ حنت على العيدان
والماءُ مطَّرد يسيل عبابه كسلاسلٍ من فضة وجمان
بهجاتُ حُسْنٍ أكملت فكأنها حُسْنُ اليقين وبهجةُ الإيمان[٦]

وقد شخَّص أبو أيوب سليمان بن بطال المتلمِّس نباتات الحدائق، فى قوله:

تبدَّتْ لنا الأرضُ مزهُوَّةً علينا ببهجة أثوابها
كأنَّ أزاهرَها أكْؤسٌ حَدَتْها أنامل شرَّابها
كأنَّ الغصونَ لها أذرعٌ تُناوِلُها بعضَ أصحابها
وقد أعجبَ النوْر فيها الذبابَ فيهزَجُ من فرْط إعجابها
كأنَّ تعانُقها فى الجنوب تعانق خودٍ وأترابها

(٢) من الكامل، المطمح ٣٠٥، وعنه فى نفح ٣٣/٤.

(٣) من الكامل، المطمح ٢٠٦، وقد اعتمدنا رواية النفح ٥٤٥/٣/٣.

(٤) من الكامل، أبو الوليد الحميرى، البديع فى وصف الربيع ٢٩، وصنعاء فى اليمن، وتُستر فى فارس مدينتان اشتهرتا بأقمشتها الممتازة. انظر فيما سيأتى ص ٢٨٢ من هذا الكتاب. والعبير عطر مركب، ويدخل فى تركيبه الزعفران بخاصة.

(٥) ابن قزمان، الديوان، القطعة رقم ٨٨، الدور ٢٢.

(٦) من الكامل، القلائد ٢٠٥.

كأنّ ترقرُقَ أجفانها بُكاها لِفرْقةِ أحبابها[٧]

واتخذ أبو الحسن على بن حفص الجزيرى مادة صوره البلاغية من بعض أعضاء الجسم فشبّه الزهور بأجمل مافيه وأغلاه:

كم قد بكرتُ إلى الرياضِ وقُضبها قد ذكّرتنى موقفَ العشاقِ
يا حسنَها والريحُ يلحف بعضُها بعضًا كأعناقٍ إلى أعناقِ
والوردُ خدٌّ والأقاحى مبسمٌ وغدا البهارُ ينوبُ عن أحداق[٨]

واستخدم أبو مروان بن رزين الاستعارات بكثرة فى صوره:

وروضٍ كساهُ الطلُّ وشْياً مجدّدا فأضحى مقيلًا للنفوس ومُقعدا
إذا صافحتْه الريحُ خلتَ غصونَه رواقصَ فى خُضْر من العصْبِ مُيَّدا
إذا ما انسكابُ الماءِ عاينتَ خِلْتَهُ وقد كسرتْهُ راحة الريح مِبْردا
وإنْ سكنتْ عنه حسبتَ صفاءَه حسامًا صقيلًا صافىَ المتْنِ جُرِّدا
وغنّتْ به وُرْقُ الحمائم حولنا غناءً يُنسّيكَ الغريضَ ومعبدا[٩]

ونجد عند ابن خفاجة صورا مشابهة، ولكنها أطرف وأكثر، وأقرب إلى المخاطرة:

سُقيًا ليومٍ قد أنختُ بسرْحةٍ ريّا تلاعبها الرياحُ فتلعبُ
سكرَى يُغنّيها الحمام فَتنثني طربًا ويسقيها الغمامُ فتشرب
نلْهو فَتُرفَعُ للشبيبةِ رايةٌ فيه ويطلع للبهارةِ كوكب
والروضُ وَجْهٌ أزهرُ والظلُّ فَرْعٌ أسودُ والماءُ ثغرٌ أشْنَب
فى حيث أطربنا الحمامُ عشيّةً فشدا يُغنّينا الحمامُ المطرب
واهتزّ عِطْفُ الغصنِ من طربٍ بنا وافترّ عن ثغر الهلال المغرب
فكأنّه والحسن مقترنٌ به طوْقٌ على بُرْدِ الغمامةِ مُذهب[١٠]

ويقول الشاعر نفسه:

وكَمامةٍ حَدَرَ الصباحُ قناعَها عن صفحةٍ تندى من الأزهارِ
فى أبْطحٍ رضعتْ ثغورُ أقاحِهِ أخلافَ كلِّ غمامةٍ مدرار
نثرتْ بحجر الرْوضِ فيه يدُ الصبا دُرَرَ الندى ودراهِمَ النوّار
وقد ارتدى غُصنُ النَّقا وتقلدتْ حَلْيَ الحبابِ سوالفَ الأنهار
فحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحكٍ جَذْلٍ وحيث الشطُّ بدءُ عذار
والريحُ تنفضُ بُكرةً لِمَ الرُّبى والطلُّ ينضح أوْجهَ الأشجار

(٧) من التقارب، أبو الوليد، البديع ١٤.

(٨) من الكامل، نفح ٤/٦٨.

(٩) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها فى نفح ٦٦٩/١، والحلة ١١١/٢، وعن هؤلاء القيان المشهورات انظر فيا بعد ص ٣٣٥ و٣٣٦ من هد الكتاب.

(١٠) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٩٩، ص ٢٨٩، والذخيرة ٥٦٩/٣.

مُتقسَّمَ الألحـاظِ بيـن محـاسنٍ   من رِدْفِ رابيـةٍ وخَصْـرِ قـرار
وأراكـةٍ[١١] سجعَ الهـديلُ بفـرعها   والصبحُ يسفرُ عن جبينِ نهـار
هـزّت لـه أعـطافها ولـرُبّمـا   خلعتْ عليـه مُـلاءةَ النـوّار[١٢]

ونراه فى أبيات أخرى له، يمزج بين العَدّ المباشر والذكريات التقليدية:

وأراكـةٍ ضـربتْ سـماءً فـوقنـا   تنـدى وأفـلاكُ الكؤوس تُـدارُ
حفّتْ بـدوْحتها مجـرّةُ جـدْولٍ   نثـرتْ عليـه نجـومها الأزهـار
فكـأنّها وكـأنّ جـدولَ مـائهـا   حسنـاءُ شُـدَّ بخصـرهـا زُنّـار
زفَّ الـزجاجُ بهـا عروسَ مُدامةٍ   تجـلى ونُـوّارُ الـغصـونِ نثـار
فى روضةٍ جَنَحَ الدُّجى ظلًّا بهـا   وتجسّـمتْ نـوْراً بهـا لأنـوار
غنّـاءَ ينشر وشيـهُ البـزّازُ لى   فيهـا وَيـفتُقُ مسْكَـهُ العطّار
نامَ الغبارُ بها وقد نضحَ الندى   وَجْـهَ الثـرى واستيقظَ لـنـوار
والمـاءُ فى جَلى الحَبـابِ مُقلّدٌ   زرّتْ عليـه جيوبهَـا الأشجـار[١٣]

وأخيرًا نورد له هذه الأبيات:

حُثَّ المُـدامـةَ فـالنسيمُ عليـلُ   والـظلُّ خفّـاقُ الـرواقِ ظليـلُ
والنـورُ طـرْفٌ قـد تنبّـه دامـعٌ   والمـاءُ مـبتسمٌ يـروق صقيـل
وقد انتشى عطفُ الأراكـة فانثنى   سُكْـراً ورجّع فى الغصـون هديـل
وتـطلّعتْ من بُرْقـةٍ وعمـامـةٍ   فى كـلّ أفـق رايـةٌ ورعيـل
حتى تهـادى كـلّ خـوطـةٍ أيْكـةٍ   ريًّـا وغـصّتْ تَـلْعـةٌ ومسيـل
فـالروضُ مهـتزُّ المعـاطفِ نعمـةً   نشـوانَ تعطفـه الصَّبـا فيميـل
ريـانَ فضّضـه النـدى ثم انجلى   عنـه فـذهّبَ صفحتيْـه أصيـل[١٤]

كما رأينا، كان ابن خفاجة يُلقّب بالجنّان[١٥]، فقد وقف حياته على وصف أشجار الحدائق، وكان أشد ما يثيره من بينها منظر الأوراق الخضراء تتطاير فى الهواء، وتتناثر ظلالها على الأرض، على حين يعتبر الزهور عنصرًا مساعدًا لتكملة اللوحة ، فهو شاعر ريفى يرى الشجرة قبل أى شىء آخر، ودون أن يفرق بين هذه وتلك بصورة واضحة.

ولا تختلف نظرة بقية شعراء الأندلس عنه، فهم لا يقدمون لنا وصفًا محددًا، ولا تستشف منهم بوضوح أحواض الزهور أو أروقة الحدائق، وأبياتهم تذكرنا بجنة العريف حيث تأخذ الحديقة شكل

(١١) هذ الاسم ليس من الضرورى أن يعنى الشجرة التى تحمل الاسم نفسه فى الجزيرة العربية، وعبثا حاولنا أن نصل إلى حقيقتها.

(١٢) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٣٠ م ص ٣٣٦، والذخيرة ٥٦٨/٣، ونفح ٦٨٢/١ و ٢٠١/٣ (وفى هـ الأخير البيت السابع فقط)

(١٣) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٢١ م، ص ٣٥١، والذخيرة ٥٩٦/٣.

(١٤) من الكامل، الديوان، القطعة ٦٩٦ ص ٢٥٤، والذخيرة ٦١٠/٣، ونفح ٢٠١/٣.

(١٥) الديوان ٩، طبعة القاهرة ١٢٨٦ هـ وص ١٤٢ فيما سبق من هذا الكتاب.

روضة حقًا، فقد احتفظوا فيها بالمساحات الواسعة، تغطيها الأشجار الضخمة عالية ظليلة، وتجرى تحت أقدامها المياه موشوشة حلوة، وتغمر أحاسيسنا النضارة المنبعثة من تلك الحدائق، تمتزج فيها زقزقة العصافير بأريج الزهور.

● ● ●

وكانت الزهور، إلى جانب الحدائق من الموضوعات المفضلة لدى شعراء الأندلس، وانتشرت «النَّوْريات» مثل «الروضيات» تمامًا. وإذا لم يكن الغرب الإسلامى قد أبدع شيئًا فى هذا المجال فقد تميَّز على الأقل بتعبيرات أكثر جدية، وأقرب إلى ماهو طبيعي، فيما يتعلق بزخرفة الحدائق. ومن الحق أننا نجد فى إسبانيا فى القرن التاسع الميلادى شعراء وصفوا الزهور مثل ابن عبد ربه وصاعد البغدادى[١٦] وأبى بكر بن القوطية، غير أن أبياتهم، فيما نشعر، تغلب فيها البلاغة على المشاهد الحقيقية، والتظاهر على الإعجاب الصادق.

كان تذوق جمال الطبيعة صفة عامة فى القرن الحادى عشر عند كل طبقات المجتمع، وأدى انعدام مركزية السلطة، وماترتب عليه من قيام إمارات عديدة فى كل واحدة منها أمير مستقل، أو شبه مستقل، وله بلاطه الخاص، إلى إسراع كل من يملك ثروة إلى بناء القصور الفاخرة، وسط الحدائق الزاهرة، ولم يحدث أن كان فى إسبانيا أبدا مثل هذا العدد من المنيات والحدائق والمتنزهات كما كان فى القرن الحادى عشر، وأصبح من العادى أن تلتقى بالورود والأشجار فى كل مكان، وأصبح من أمانى كل فرد أن يملك قطعة أرض، وأن يغرسها زهورًا ورياحين !. وقد عبرّ رجل من المريّة عن حب الأندلسى بالفطرة لكل ماهو أخضر ومزهر، فقد تحسّر وهو فى إشبيلية على زهور الريحان التى خلّفها وراءه فى داره، وأنها أحب إليه من الجنة، فهو يقول:

غـــرس الحَـــبـــق فى داري ‏ ‏ ‏ أحبّ عنـدى من الفردوس[١٧]

أحب الأندلسى الزهور، ولكن حين نلقى نظرة على ما وصف منها فى شعره نجد أنها قليلة، وبعضها يتكرر بطريقة لا فتة، مثل زهرة الآس والأقحوان والبنفسج والبهار والنرجس وخرّم والخيرى الأصفر والخيرى النمّام والسوسن والنَّيْلوفر والورد والياسمين وأنواع أخرى تجئ عرضًا مثل الجلنار ونوْر الرمان وشقائق النعمان والزيان ونوْر الكتّان ونور اللوز والنرجس القادوسى ونور الباقلاء، أو نور الجرجير، والغالية[١٨].

وسنعرض كيف رأى شعراء الأندلس كل زهرة من هذه الزهور، غير أننا لن نترجم هنا أبياتًا كاملة من القصائد، وإنما سنكتفى بذكر الخطوط الرئيسية، ونحتفظ لنهاية الفصل بإيراد بعض

---

(١٦) عن هذا الشاعر الذى قدم الأندلس من المشرق انظر: ر. بلاشير، طليعة الثقافة العربية المشرقية فى إسبانيا فى القرن العاشر: صاعد البغدادى، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٠، عام ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦.

(١٧) نفح ٣٨٩/٣، وانظر فيما سبق ص ١٢٧ من هذا الكتاب.

● قلت: أخذ المؤلف هنا برواية دوزى لهذا البيت، والطبعة الأوربية من نفح الطيب، والبيت ينكسر معها، والرواية الثانية، وهى الأصح لأن الوزن يستقيم معها «العروس» بدل «الفردوس»، والعروس من متنزهات إشبيلية. (المترجم)

(١٨) من المثير أن أندلسيى القرن الحادى عشر لم يصفوا من الزهور القرنفل ولا الحبق، ولا الزهر ولا الياسمين ولا المردقوش ولا الدفلى، وكلها من زهور حوض البحر الأبيض المتوسط الشائعة.

المقطوعات الممتازة والمعبرة كاملة، ونرى أنه ليس من الضرورى أن نذكر مع كل وصف اسم شاعره، ويكفى أن نذكر هنا أننا اعتمدنا على كتاب «البديع فى وصف الربيع» لأبى الوليد الحميرى، المتوفى عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وسبق أن أشرنا إليه.

● زهرة الآس:

اسم الآس هو المتداول، وتسمى أحيانًا «الريحان»[١٩]، وهذا الاسم الأخير هو الذى دخل اللغة الإسبانية فى صورة Arrayan، وما جذب الشعراء إليها ألوانها المختلفة الأنواع، وأريجها العبق الرائحة، وتشبه ساقها الزهرة التى تزدهر فى كل الفصول، وخلوفها الصغيرة تشبه لِمة الشعر أو غدائره المتداخلة المتربة الشعثاء، وخضرة النبات الداكنة أوحت إلى الشعراء بصفات وتشبيهات تسيطر عليها فكرة السواد، وبخاصة أن الأوراق بها تجاعيد كثيرة، مثل زنجى مجعّد الشّعر أو مموج.

والثمرة بيضاء أولاً ثم سوداء عندما تنضج، تخالطها نقاط سوداء بين المرحلتين، يراها الشاعر سبجًا أو سندسًا زاهى اللون، وتذكرنا الثمار بالأزرار بيضاء أو سوداء تبعًا لدرجة نضجها، والمزن تغطى زهرة الآس بحلة خضراء لها أزرار من المسك الأسود والكافور الأبيض.

ولكنهم لم يحدّدوا العطر بوضوح، والشذا المنبعث منه يوحى بالهدوء وراحة النفس، مما يجعلنا نظن بانه قطعة من الجنة، ويستخدم الشاعر الأندلسى عادة لتسمية الأزهار التى تتلألأ أوراقها كالأنوار تلمع فى ظلمة الليل الداكنة، أو مثل النجوم تسطع فى سماء شهباء الأديم، كلمة «نَوْر» لتى تلتقى فى صوتياتها مع كلمة «نور» تلاعباً بالألفاظ، وتلتقى أحيانًا بكلمة دامشنه الفارسية مختصرة إلى رامشة[٢٠].

● زهرة الأقحوان:

تعنى كلمة أقحوان فى الغرب الإسلامى الأقحوان الأبيض، ويجذب الشعراء إليها تقابل ألوانها بين أصفر وأبيض أحدهما يتوسط الآخر، وهذا ما حاولوا أن يصوّروه فى تشبيهاتهم.

فالأقحوان كأس من الفضة يغطى قاعها الذهب النضار، أو كوكب من الذهب سقط فى مها أبيض، أوجام من المها تخلّف فيها نبيذ مذهب، ويراها شعراء آخرون نقر من التبر فى مداهن من الفضة، أو مداهن من الفضة فى مهد صُنعت بفن ومُلئت بالزعفران، أو هى در أبيض امتلأ عسجداً، أو لؤلؤ مرصوص حول فصوص من الياقوت الأصفر.

وأحيانا يوحى الشكل المدور لكتلة صفراء تتكون من جمع من الزهور الصفراء الصغيرة، وسط أوراق بيضاء، بصورة بلاغية، تُشبَّه فيها بالعيون المشدوهة، أو بعيون تذرف دموعا بيضاء، ولو أنها توحى عدة بالأفواه المبتسمة، أو كما قال أحد الشعراء بفم أسنانه الأوراق ولثته الكتلة الصفراء، وهى تشبيهات تتضمن دائما فكرة الضحك والمرح. وقطرات الطل وراء هذه السمة الضاحكة، فهى تروى

(١٩) انظر مثلا ص ٥٥ فيما سبق، وص ١٧٠ فيما سيأتى من هذا الكتاب.

(٢٠) عن هذه الكلمة انظر: دوزى، تصويبات ٨٦ - ٦٧ وإحالات الأغانى المذكورة هناك، والخفاجى. شفاء الغليل، طبعة القاهرة، ص ٩٤ حيث يذكر بيتا من الشعر لأبى نواس، معتمدا على الصولى، والفيروز ابادى، القاموس ٢/٢٧٥، مادة رمش، وابن زيدون، الديوان ص ١١٩، طبعة القاهرة، وتعليق الناشرين، والحلة.

تويجها بدموع الفرع، لأن مياه السماء تهب دائما الحياة وتجلب السعادة: «ثغرها يبتسم عند ما تبكى السماء، وتزرف الدمع غزيرا».

ومن النادر أن تقع على تشبيه بالأقمشة أي الملابس: «إنها برود بيضاء، وشّتها عيون الندى الغزير بالتبر». وفيما يبدو لم يجذب عطر الأقحوان الشعراء، وهو أمر طبيعى، لأن شذاه ضعيف أو غير مستحب.

باختصار، لم ير أهل الأندلس فى هذه الزهور إلّا الأفواه الضاحكة والجواهر الثمينة.

● البنفسج:

كانت زهرة البنفسج من بين ما عشق العامريون منذ المنصور بن أبي عامر حتى آخر ممثّل لهذه العائلة الكبيرة فى القرن الحادى عشر، وازينت حدائق العامريين القريبة جدا من قرطبة بالبنفسج والنرجس والسوسن والورود، وعرفنا هذه الزهور فى عهد أكبر وزراء بنى أمية من خلال قصائد صاعد البغدادى، وأبى مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى.

وفى القرن الحادى عشر انتشرت هذه الزهور فى كل مكان، ويصفها الشعراء مستقلة أو فى حدائق، ولم يحاولوا أن يكتبوا موضوعات متنوعة عن الكبريت يشتعل، فيضفى على الأوراق لونا أحمر مائلا إلى الزرقة، لأن هذا الباب أُغلق نهائيا فيما يبدو منذ أن تناوله أبو العتاهية المتوفى عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م، أو ابن المعتز، المتوفى ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م[٢١]، فبحثوا عن شىء آخر، ووجدوا العوض فى تشبيهها بآثار عضة على خد المحبوب، أو فى صدره، وتحيروا فى وصف اللون الذى يميز هذه الزهرة، وكلماتهم فى وصفها تذكرنا باللون الأزرق والفيُروذاج كقطعة من السماء، والأحمر والأصفر مثل الياقوت، والأسود كالمسك، والأحمر الداكن مثل الفِرصاد، أى التوت، واللَّعس الأحوى، مما يسمح لنا أن نعتقد أنّ هذا الوصف ينطبق على زهرة الثالوث وليس على البنفسج.

وأجمل الصور تشبيهها أجنحة الفراشة مصبوغة بلون توت البستان، ويقل عنها فى الجمال وصفها بخضر الحمام المطوّق. والأوراق الخضراء تمتد كبساط تقودنا إلى كلمة زمرد أو اللجّة، وتصبح الزهرة بتجميع هذه الأفكار جوهرة تصلح لتزيين قرط أو سوار كبير، ويسمونه الدُمْلُج، أما العطر فنادرا ما يتعرضون له.

● البَهار:

يتحدث الشعراء عن البهار، وهو تحريف للكلمة القديمة عبهر، ويقصدون بذلك النرجس الأصفر، أو جانبا منه وهو المصفّر، تمييزا له عن الأصفر العادى[٢٢]، أو النرجس القادوسى، والذى لا يوجد إلا فى إسبانيا، ويتضح التباين جليًا بين البهار، وهو نرجس الشعراء، وبين النرجس الأصفر، فى مقطوعات الشعر التى جمعها أبو الوليد الحميرى فى كتابه «البديع فى وصف الربيع».

(٢١) ابن المعتز، الديوان ٣٠٤، ومجموعة النظم والنثر ٤٧، والشريشى، شرح مقامات الحريرى ٥٤٨/٢، وحمزة فتح الله، المواهب الفتحية ٢٤٠/١، والغزولى، مطالع الورود ١٠٧/١ (وفيه منسوبة إلى مجهول).

(٢٢) الشريشى، شرح مقامات الحريرى ٣٢/١ أوضح ضاربا الأمثلة أن النرجس عند الشرقيين هو البهار عند الأندلسيين، والعكس صحيح.

وقد حاول شعراء الأندلس فيم يتعلق بنرجس الشعراء وصف ثلاثة ألوان منه: لون الساق والأوراق وهو أخضر، والجزء الأوسط من الزهرة نفسها وهو أصفر، وأوراق الزهرة وهي بيضاء. ويقول الشاعر: «النرجس غصن من الزمرد، به أوراق من الفضة، زهرتها من الذهب النضار». أو «البهار ياقوتة صفراء، تتزين بها أيد رقيقة بيضاء، أو ياقوتة صفراء أخفت معصميها خوفا من الحسود في مطارف خضراء، وأبدتْ الفضة». أو من شدة حيائها أخفت معصميها عن الحسود في أكمام خضراء».

وهي «مداهن من التبر، في أصابع من الفضة، لأفرع من زبرجد». وهذا الشاعر، كما ترى، يفرط في تشبيه أوراق الزهرة بالدر الأبيض، وقلبها بالياقوت، وساقها بالزبرجد». ويقول آخر: «إنها سبائك من الفضة وُضعت فيها كؤوس من الذهب الإبريز»، وقد يراها إنسانًا حيًّا، و «كأن الأرض خمار تظهر منه أيدي الكواعب الحسن القوية تمسك بكؤوس بيضاء تمتلئ بالنبيذ الذهبي». أو «أيدٍ من الكافور الأبيض تشير إلى الربيع بكأس من الذهب» أو «جذوة نار وسط ماء متجمد في ردائه الأبيض الناصع»، أو «درّة بيضاء وُضع في وسطها ياقوت أصفر فاقع»، أو «زمرد أغصانه كزهور اللؤلؤ، تتزين بياقوتة لونها أصفر فاقع كالذهب يسيل على اللجين». ويحدد أحد الشعراء أوراق الزهرة فيقول: «إنها غصن من الياقوت الأصفر، رصدت حوله ست درر»، ويصف النرجس القادوسي بأنه «مثل جيد من التبر يتحلى بطوق من الفضة».

وإلى جانب هذه التشبيهات المستمدة من الأحجار الكريمة والجواهر، والصناعات الفنية[٢٣]، فهناك من يشبهها بالعيون.

فهي «مقلة تبث الندى شكواها من السهاد» و «عيون تسلل النوم إلى أجفانها، تغوص في محجريها، ولا تعرف للراحة في الليل طعمًا»، و «عيون نظراتها متعبة، ورموشها دُرر، ومقلتها ياقوت أصفر» وعندما ننظر إلى النرجس حول: عيون خليعة، تتمايل ثملة وناعسة. وهذه الإشارة إلى وضع النرجس المائل نادرة.

و «سحر جفون النرجس مثل مقلة العين التي يداعبها النوم»، وكما أشرنا من قبل، نادرا ما نجد إشارة إلى وضع النرجس المائل، وهذه إحداها، ولكنها تبدو مريبة، «يُدلى من النرجس جماجم رقيقة.. كإنسان يدير وجهه عن متحدث لا يروقه».

وعلى النقيض، فإن تشبيه الأصفر والأبيض بالأحبة كثير، فالأبيض هو المحبوب جامد الشعور، والأصفر هو الحبيب الذي يعاني من قسوة المحبوب»، و «كأن النرجس بلونه الأصفر حبيب ارتدى ملابس الحداد البيضاء بسبب الفراق»[٢٤]، و «اجتمع الحبيب والمحبوب في لونيه الأبيض والأصفر، وتأخذه الشفقة بالحبيبين فيسرع بالإزهار في وسط الزهور».

(٢٣) وتوجد هذه الإشارة عند شاعر من القرن العاشر، هو ابن القوطية:

قد بعثنا إليك يا خيرَ ناسٍ ... بالدنانير فوق محضِ الدرهم
لم يسن طبع هذه جعفرٌ قـ ... ـطُ ولا ضَربَ تلك راحة قاسم

وهي من الخفيف، انظر: أبو الوليد الحميري، البديع ١٠٢.

(٢٤) عن الحداد والحزن في إسبانيا انظر ص ٢٦٦ فيما سيأتي من هذا الكتاب.

وتغنَّى الشعراء أيضا بالنرجس لأنه من الزهور التى تظهر قبل أن يخلى الشتاء مكانه للربيع. ويوصف عطر النرجس عادة، وهو نفّاذ، بالمسك والزعفران.

● النرجس الأصفر:

بالإضافة إلى البهار أعطى أهل الأندلس أهمية كبرى للنرجس الأصفر، وهو بالدقة أصفر فعلا، إلا فى حالات نادرة، ولا نعتقد أن من الخطأ تسميته بالنرجس الأصفر. وطبيعى أن يسود اللون الأصفر هنا، وسيرد أيضا ذكر الساق الأخضر، وهو تبر على أغصان من الزمرد، وقاعدته خضراء وأعلاها أصفر، ويراه الشاعر زمردا انتصب يحمل فوقه ذهبا، أو يقف على سيقان خضراء ترتدى معطفا من الحرير السندسى، أو زبرجدا فوقه ذهب نضار.

وتناول الشعراء اللون الأصفر لأنه سائد، ومن المتوقع أن نجدهم يتخذون من الحب مادة لصورهم، كما حدث فى نرجس الشعراء، فالنرجس الأصفر عين ذابلة، أو يدنو مرهقا، وهو ساهم النظرة كأنه يعانى من عذاب الحزن، ويغض ألحاظا مراضًا تحفّها الرموش، وتترقرق فيها دموع المحب» واستيقظ ليفتح عيونا متعبة لا ترمش، وعطره أشد نفاذًا من المسك، وتنبعث منه أجمل الروائح، وأريجه نفّاذ، وحين نشمه نشعر أنه مفعم بالمسك، ويستقبلك شذاه حتى قبل أن تراه.

● النرجس القادوسى:

هكذا تسميه العامة فى الأندلس، تشبيها له بالقادوس على لغتهم، وصوابه القَدَس، ولم يصفه إلاّ شاعر واحد هو أبو الحسن بن على:[٢٥]

فى النرجسِ القَدَسىِّ النوْر والقصب	حُسْنٌ يفوق به تِرْبيْهِ فى النسبِ
لـه من التبر كـأسٌ قـاعـهُ لجـجٌ	مُـوسَّـعُ العُلْوِ قـد أبـداهُ للعجب
مَشَمُّ طيبٍ إذا استنشيْتَ زهـرتـه	وظَـرْفُ أُنسٍ إذا ماشيْتَ للنخب
ومائلُ الجيدِ من سكْرِ النعيمِ بـه	حكى ثنى الثملِ المشغوفِ بـاللعب
كغـادةٍ ثـوبُهـا من سنـدسٍ طلعتْ	للشرْبِ فى كفّها كأسٌ من الذهب
فكيف يعقِ حظُّ النفسِ من طربٍ	من كان يلحظ هذا الحسن من كَثَبِ[٢٦]

● الخِرّم:

وهو السوسن الأزرق فيما يبدو، ولكن بعض الأوصاف التى تشير إلى أخاديد توجد فيه تثير الشك[٢٧]، وهو فى لون الكحل على ما يقول أبو بكر بن نصر:

ومـا الخِـرّمُ الكحْـلىُّ إلاّ كـأنّـه	من الحسْنِ طرف جال فى الجفن إثمده

ولونه كالفيروز الأزرق، جرى وسطه دهب مشرق، فى قول الوزير أبى عامر بن مسلمة:

---

(٢٥) يشير أبو الوليد الحميرى، فى البديع ص ١٧٠، إلى أن هذا النوع من النرجس لا يوجد فى إشبيلية.

(٢٦) منَ البسيط، المصدر السابق ١١٧.

(٢٧) دوزى فى تكملة المعاجم ٣٦٧/١ لم يترجم هذه الكلمة، ورينو وكولين، فى تحفة الأحباب، باريس ١٩٣٤، المجلد ٢٤ من P. I. H. E. M. ، ١٦، رقم ٢٨، يذكران: «iris azul : irisá أى السوسن الأزرق»، مما يؤكد ترجمتنا.

ألَا حبّذا السوسن الأزرقُ ويا حبّذا حُسنُهُ سَونقُ
حكى لونه لونَ بيروزجٍ جرى وسطَهُ ذهبٌ مُشرق

وتلمح في هذه الصورة الأخيرة المدققة والسداة عضوا التأنيث والتذكير في الزهرة. وتقابل الأبيات التالية بين السوسن الأزرق والزنبق الأبيض، فقد رمى بازدراء حلة أخيه البيضاء ليرتدى حلة زرقاء، بريقها مستعار من السماء، ولو ارتدها الطاووس هنأته باقي الطبور كما لو كان ملكها، وهي لأبي عامر أيضا:

بزَّ ثوبَ البهاءِ واللألاء زَهَرُ الروْضِ خُرَّمُ الصحراءِ
عافَ ثوبَ البياض لونِ أخيه وتردّى بحلّةٍ زرقاء
لتراه العيونُ في حُلّةٍ يَحْـ ـكِي سنا نورِها أديم لسماءِ
لوحواها الطاووسُ أصبح لا شـ ـكَ مُهَنًّا بملْكِ طيْرِ الهواء

● الخيرى الأصفر:

يمايز الشعراء بين الخيرى الأصفر[٢٨] والنمّام دون أن يستطيعوا تحديد الفرق بينهما تماما وبدقة، وحتى فيما يتصل بعطرها، وهو لا عبق إلّا ليلًا. فلنحاول أوّلا أن نرى كيف رأوا الخيرى الأصفر:

لقد صوّره يوسف الرمادى لصا يستيقظ الليل وينام آناء النهار:

وترى الخيريَّ مُكْتَتِبًا مثل لصٍ كاد أن يَنبا
فإذا ما الليل ستّره أظهر الفتكةَ واستلبا

ولونه أصفر كالذهب النضار، ولا ما يعبق به من أريج، ويرى الوزير أبو عامر بن مسلمة أن الأصفر منه أرفع أنواع الخيرى:

أصفرُ الخيريِّ عندى أرفعُ الخيريِّ قدرًا
فهو لا يمنع عَرْفًا وهو لا يُخْميك عطرا
مثل لونِ الذهبِ الخا لصِ لكنْ فاق نشرا

ويره أبو عمرو القسطلى أصفر قد استعار لونه من النرجس:

أعاره النرجسُ من لونه تفضُّلًا وازداد من عيبه

وفيما يتعلق بأريجه يبدو أن هناك لبسا بينه وبين النمام، فهو يخفى شذاه أثناء النهار ويرسله خلال الليل، يقول أبو عامر بن مسلمة:

والخيرُ في الخيريِّ إلّا أنه يُخفى النسيم نهاره بالمجلسِ
ويذيعه بالليل فهو بفعله وبصنعه هذا صديقُ الجندس

وإنه يبث أريجه ليلا لينعم به الساهرون فيما يرى أبو بكر بن نصر:

واعجبْ لخيريِّ الرياض فإنّما هو بين أنوارِ الرياضِ خيارُ

(٢٨) لفظ المنثور ويطلق أيضا على الحلى الأصفر قليلا ما يستخدمه شعراء القرن الحادى عشر.

بـالليـلِ للسمـارِ ينشر نشـرَهُ ... ليـنـالَ رِدْعَ نـسيمـه السُّمّـار
فـإذا أضاءَ الصبحُ أخفى نشْرَهُ ... وتمـزّقـتْ مِـن دونـه الأوطـار

ويرى ابن القوطية أنه يخفى شذاه مع إشراقة الصباح:

من أين للخيريِّ اللئيمِ طلاقةُ الـ ... ـسَّمحِ الكريمِ ولن يـزالَ بخيلا
مُتسـتِّرٌ طـولَ النهـارِ بعـرْفِـهِ ... كـي لا يُـرى لنـسيمـهِ مسؤولا
حتى إذا طـرقَ الظلامُ سخـا بِهِ ... إذ لا يُـرى إلاّ الـقليـلَ سؤولا

ويتمتع برائحة المسك النفيس فيما يقول الفقيه أبو الحسن بن علي:

أرى أصفرَ الخيْريِّ يبدى من الضنى ... تبـاريـحُ مكلومِ الفؤادِ سقيمـهِ
ويُكـذِّبُهُ سحـرٌ بـأعـينِ نَـوْره ... وقُضْبٌ لـه تندى بمـاء نعيمـه
وعَـرفٌ ذكيٌّ يقصر المسكُ دونـه ... ولا يبلغ الكـافـورُ طيبَ شميمـه

ويراه أبو عامر بن شهيد كالحبيب المهذّب، يهرب من حبيبته فى الصباح ليتقرب إليها فى المساء:

وكـأنما خيْـريُّهـا تحت الـدجى ... بـين الأزاهـيـر قـام كـالمتـطلّع
يـرجـو زيـارة من يحبُّ لـوعـده ... كَلَفًـا فبـات مـراقبـا لم يَهْجـع

ويصفه أبو الوليد الحميرى بأنه كالسكّير الحذر، يترك الكأس صباحا ويشربها على عمد مساء:

هـو أشهرُ الخيـريِّ حُسنًا فـاحبُهُ ... مـن بَيْنـهِ بـتـحـيّـةٍ وسـلام
متنـزِّهٌ عن أن يُـرى مُستهتـرًا ... إلاّ إذا اكتحـلَ الـورى بمنـامِ

أمّا ابن القوطية فيرد تفوّقه إلى عطره ينتشر آناء الليل وأطراف النهار، وفى المساء وفى الصباح:

وأصـفـرَ تـرجـسـيِّ الـلونِ غَـامٍ ... مُبـرّإٍ من صنـوف النقص والـذامِ
زهـا اعتـلاءً عـلى النمّـام يجمعـه ... بـه اسمُـهُ فِعْـلُ ذى لـبٍّ وإلهـام
فقال: لىَ الفضلُ إنى فى النهار وفى ... لـيـلى أنِمُّ وفى صـبُـحـى وإظـلامـى

وبعض التفاصيل النباتية أو الصيدلية المتصلة بتكوينه تستحق أن نقف عندها، فهو «كرنبىّ الخليقة»، ورائحته كريهة إذا قُطِفَ قبل تفتّحه أو عندما يذبل، أو هكذا يراه ابن القوطية:

مـا للكـرنبـيِّ الخليـقـة يبتغى ... فَضْـلَ الـرئيس المُنْتَـلِى تخييـلا
زَهِمُ المشمِّ إذا تقـادمَ قـطفُـهُ ... شيئًـا قليـلا أو أحسَّ ذُبـولا

وعندما نقرأ كتب الأطباء، أو الحكماء إذا شئت، بحثا عن منافع النوّار نجدها غير معروفة.

● الخيرىّ النمّام:

ويفوق الخيرىُّ الأصفرَ فى جماله وأريجه، ويقول أبو الوليد الحميرى، معلّلا صفرة الخيرى: إنها غيرة من النمّام وحسد له وكآبة:

اصفـرّ من حسدٍ لـه وكـآبـةٍ ... لمـآ شـآهُ بحسنِـهِ البسّـامِ

والشاعرُ نفسه يرى أن الخيريَّ الأصفرَ عشق الخيريَّ النمام حقا، حتى أصبح الذبول داءه، وكست الصفرة لون زهره:

كـأنمـا الخـيـريُّ مـسـتـهـترٌ   بـالحبِّ قـد أنحلَهُ الـعـشـقُ
صـفـرتُـه تنـطقُ عـن حـالِـهِ   وربَّ حـالٍ دونَها الـنّـطقُ

ما الصفات المميزة للنمام إذن؟. له لون النحاس عند ابن القوطية:

وإنّ لـوْنَكَ من لـونِ النحـاسِ ولَـوْ   نٌ في مـلاحته ضَـرْبٌ من الـسامى

ويراه أبو القاسم بن شبراق بنفسجيّ اللون:

وبـنفـسجـيّ اللونِ يـكتُـمُ طـيـبـهُ   عنـد الشروقِ وفى الـظلام ينمُّ بِهْ

ويعرض له ابن القوطية في أبيات أخرى، فيرى ملابسه مصبوغة باللون الأحمر ورائحته تعبق مسكا، وأخذ حلاه من ظلمة آخِر الليل، ويشبه البنفسج في لونه، وكأنه سرقه منه:

ومضـرَّجِ الأثـوابِ مِسكيِّ النفَسِ   فكـأنمـا اشتُقَّتْ حُـلاه من الغَلَسْ
شـرِكَ البنفسـجَ فى الأديمِ فلونُـهُ   من لَـوْنِـهِ فكـأنّـه منـه اختلس

ولون شفاهه أحمر داكن كأنّ الشمسَ قبّلته، أو هكذا يراه أبو علي إدريس بن اليماني:

مـراشـفُ الخـيـريِّ حـوٌّ لُعْسُ   كـأنـهُ قـد قـبّـلتْـهُ الـشـمسُ

وفيما يتصل بأريجه ليس ثمة فرق بينه وبين الخيريّ الأصفر، فرائحته ليست طيبة أثناء النهار، يقول أبو مروان المراديّ:

يَـنمُّ الإظـلام طـيـبُ نـسـيـمـهِ   ويخفى لـدى الإصبـاحِ كـالمتسـتّرِ

وخلال النهار كله لا تقربه أنف من يحب الروائح العطرة، أو الشمام كما يدعوه ابن القوطية:

وأتـتَ يامُدّعى اسمى طول يومك لا   تُـدنى اطّـراحًـا إلى خيشـومِ شَمّـامِ

وهذا العيب لا تجده في الخيريّ الأصفر، لأن هذا يعبق أريجه في الليل والنهار على السواء، كما يقول أبو الحسن بن علي:

وسِـيّـان طـيـبًـا لـيـلُه ونهارُهُ   وليس خصوصُ الخيرِ مثلَ عمومـهِ

وهو يبعث عطره فى الليل بسخاء، شأنه فى ذلك شأن الأديب، ليلُه نهارُه، فهو يعشق السهر، وينام الضحى، ويخاف الصبح كأنه رقيب عليه، وهو يخشى طلوع الرقيب، يقول أبو الوليد الحميري:

نهارُ خـيـريِّـكَ فى لـيـلـه   كـذالـك الـلـيـلُ نهارُ الأديـبْ
يـنـمُّ فـيـه ويـنـام الـضـحى   تصـاونًـا عنٍ كـل أمـرٍ مغيب
كـأنمـا الـلـيـلُ حـبـيـبٌ لـه   فهو إذا حلّ اكتسى كلَّ طيب
كـأنمـا الـصـبـحُ رقـيـبٌ لـه   فيرعـوى عنـد طلوعِ الـرقيب

وفى أبيات تنسب لعبادة بن ماء السماء يشبهه بفتيه من القرن الحادى عشر يرتدي ثوب النفاق، فيزهد نهارا، ويفتك ليلا، وهي تحمل نقدا اجتماعيا واضحًا:

وكـأنَّ الخيرىَّ فى كَتْمِـهِ الـطِّـيـ ـبَ فقيـهٌ مُغرى بـطولِ ريـاءِ
يُـظهـرُ الـزهـدَ بـالنهـارِ ويُمْسى فـاتكًـا ليلَهُ مـع الـظرفـاءِ[٢٩]

وليس من السهل تحديد طبيعة الخيرىّ النمّام، وهو ليس الزعتر وفقا لكل الاحتمالات وسنحاول أن ندعوه «الخيرى الأزرق»[٣٠]، وربما لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما رأينا فيه زهرة الثالوث Le Pensée.

● **السوسن الأبيض**[٣١]:

ويقال له أيضا السوسان، وتكررت فى الشعر الصورتان، وتردد الاسمان، بالألف وبدونه، والأبيات التى تصف السوسن الأبيض كثيرة جدا، فقد حاول الشعراء رسم لون هذه الزهرة بخاصة، وشكل التويج الأبيض، والمبسم الأصفر، وهو عضو التأنيث فيها، ونادرا ما يجئ ذكر الساق التى تحمل الزهرة فى وصفهم. وهم يصفونه بأنه «عيون من الذهب، وأجفانها من اللؤلؤ، فوق غصن من الزمرد الأخضر»، يقول أبو مروان عبد الملك بن سعيد المرادى:

كـأنّ جَنِىَّ الـوردِ أحـدقَ حـولـه جنى سوسنٍ مستطرفِ اللونِ أزهـرِ
خـدودُ العَذارى المخجـلاتِ تحفّهـا عـوارضُـهـا مُبيـضّـةٌ لم تُخـفَّـرِ
وأعـينُ عِـقْيـانٍ بـأجـفـانِ لؤلـؤ على كلّ فـرعٍ كالـزمـرُّدِ أخضـرِ

وهو ذهبٌ ينمو على كافور عند ابن عبد ربه:

وتـرى الـسـوسَنَ المـنَعَّمَ يحكـى ذهـبًـا نـابتًـا عـلى كـافـورِ

وشكل التويج المقطوع يوحى بمنظر ياقة قميص ممزقة فى يوم وداع، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى:

وكـأنّما الـسـوسـانُ صبٌّ مُـدْنفٌ لـعبتْ يـداه بجـيْبِـه المشقـوقِ
يـومَ الـوداعِ ومُـزِّ قتْ أثـوابُـه جـزعًـا عـليـه أيمـا تمـزيـق

ويراه أبو بكر بن هُذَيْل كئوسا من البلور امتلأت تبرا:

كـأنّ جَنِىّ سوسـانِها فى سنى الضحى كؤوسٌ من البلّورِ قـد حُشِيتْ تِبْـراَ

ويراه أبو الحسن بن على بن أبى غالب كؤوسا من فضة غير محلّاة بالحفر:

ومن سـوسنٍ غضِّ النبـاتِ كـأنـه كـؤوسُ لُجـيْنٍ لم تُشَـنْ بِنِـيـالِ
إذا مـابـدا فيهـا الحبـابُ حسبْتهـا سـوالـفَ غـيـدٍ قُـلِّدتْ بـلآلِ

(٢٩) من الخفيف، أبو الوليد الحميرى، البديع ص ١١١.

(٣٠) يؤكد هذا الفهم عالم مغربى فى النبات، أبو محمد القاسم بن محمد الغسانى، فى كتابه حدائق الأزهار، مخطوطة الرباط رقم ٧٦٠، وأيضا سراج القطرب يتحدث عن الحلى الأزرق والأصفر (الخيرى)، ويقول إن الأول يسمى «البنفسج الليلى لأن رائحته تنتشر خلال الليل». انظر: رينو وكولين، تحفة الأحباب، ص ١٦٣ رقم ٣٧٤، ويضيف هذان المؤلفان أن الحلى الأزرق نوع من Malthiola annua وأن الأصفر هو Cheiranthus Cheiri. ويرى بجودفروى – ديومبين فى كتابه سوريا، ص ٣٦ رقم ٥ أنه Thymus serpyllum.

(٣١) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٨/٤، وكتب المادة روسكا.

بينما يراه أحمد بن فرج الجياني كؤوسا من الفضة بها آثار لون خمر ذهبية:

بعثتُ بسوسنٍ نَضِر يَنمُّ كجونةِ المطرِ
كأكؤسٍ فضةٍ فيها بقايا شعْلةِ الخمر
أو الوجناتِ منك دنتْ إلى وَجناتِ الصفر

وقدّم لنا أبو عامر بن مسلمة صورة أكثر طرافة، فقد رآها كؤوسا من البلّور، سداسية الشكل، فى داخلها ألسنة متك، وهو عضو التذكير فى الزهرة، وفى الوسط ميسم اختير ملكا، وأخذ شكل «ميم» فى تقوّسه، وحبره من الذهب الذائب الذى يكسبه اللون الأصفر:

كأنّه أكؤسُ البلّوْرِ قد صُنعتْ مسدّسات تعالى الله مُظهِرُهُ
وبينها ألسنٌ قد طُرِّفتْ ذهبًا من بينها قائمٌ بالملك تؤثِرُه
كأنّها خَلْقُ ميمٍ فى تَعقُّفِهِ مدادُهُ ذوبُ عِقْيانٍ يُصفِّره

وهو عند ابن القوطية مداهن من فضة مزينة بالذهب:

مُدهَنةٌ من فِضَّةٍ بِتبْرِها مُلَبَّسهْ

ولها بياض اللؤلؤ، ومكوّنة من ألسنة تمجد الخالق الذى أجرى الذهب فى كؤوس من الفضة، فيما يرى ذو الوزارتين أبو عمرو عباد:

كأنّما السوسنُ الدرىُّ ألْسنةٌ تُمَجِّدُ الله مُجرى التبرَ فى غَرْبهْ

ويراه أبو جعفر بن الأبار مِدق فى هاوون من اللؤلؤ:

فِهْرٌ بهاوون درٍّ مُشَطَّبٍ قد تَعَضْعَضْ

وصوّره أبو على إدريس بن اليمانى برادة من الذهب فى أوراق من الفضة:

بين اصفرارٍ فاقعٍ على ابيضاضٍ يَقَقِ
كأنما كلاهما فى راحةٍ أو طبقِ
برادةٌ من ذهبٍ فى وَرَقٍ من ورِقِ

وشبهه أبو الوليد الحميرى بنافورة من الفضة، فى وسطها حارس لا يغفل لحظة:

وسوسنٍ يتهادى للأُنسِ بالراحتين
كأنما خَلْقُه الفذُّ خَسّةٌ من لُجَين
أو أنملُ بضّةٌ ما تَركَّبتْ فى يَديْن
وبينها حارسٌ لا ينامُ طرفةَ عَين

ويذكرنا بياض السوسن بوجنة المعشوق وجيده فى بياضها، فهى جيد قد استقامت لعابر، وألسنة من الدر، ورقبة بيضاء، وجيد امرأة ممشوقة القد رقيقة البشرة، دقيقة الخصر، تزدان بعقود من اللآلئ، وتظهر لمحب مولع بعشق حبيبته.

وتشبيه السوسن بالملابس يساعد الشاعر على تشخيص فكره، وقد رأينا قبل أن التويج المقطوع

يشبه جيب قميص تمزّق فى لحظة فراق، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى:

وكأنما السوسان صَبٌّ مُدْنَفٌ لعبتْ يداه بجيبه المشقوقِ
يومَ الوداع ومُزّقتْ أثوابُه جزعًا عليه أيما تمزيق

وقد يكتسى غلائل صُنعت فى بلاد السوس[٣٢]، هكذا يصفه ابن القوطية:

وردٌ كمثل دمِ الوريدِ وسَوْسنٍ غضٌّ بسوسىِّ الغلائل مُكْتسِ

ويراه أبو بكر بن نصر يرتدى أقباء ذات أكمام واسعة:

غلائلُ خيرىٌّ وأقباء سوسنٍ وقمصانُ نسرينٍ يروقُ توقُّدُهْ

وأن برودِه صُنعت من لجين صرف والتصقت به كأنها ملابس داخلية:

وكأنما صِرْفُ اللجينِ برودُهُ منه شعارٌ لاصقٌ ودِثارُ

وهو رفيع الجمال، مشقوق الجيوب، برىء الوجه من الذنوب، ينفرج القميص عن منكبيه مثلما تنفرج لوعة العاشق الكئيب، وصُبغتْ عمامته باللون الأصفر، ويقف ميسمه مستقيما مثل واعظ، ولكن بلا كلام:

مُهىٌّ الحسنِ مشقوق الجيوبِ له وجهُ البرىء من الذنوبِ
تفرّجَ عن مناكبِه قميصٌ تفوُّجَ لوعةِ الدنِفِ الكئيب
وقد عُلّتْ عمامتُه بورْسٍ فقام بلا خطابٍ كالخطيب

والمقابلة بين الأبيض والأصفر تجعلنا نفكر فى المحبوب وحبيبه.

ووصف الشعراء أيضا السوسن قبل أن تفتح، له مظهر السبيكة النقية البيضاء، يقف مستقيما فوق غصن من الزمرد، يلمع على خيط مثل اللؤلؤ، إنها يدٌ تطوى أصابعها فى انتظار هدية من الذهب، وهى، أيضا حق من العاج فوق غصن، فى أبهى الملابس، وأكثر المعاطف أناقة، وعندما تقترب لحظة النثار تنشق أوراق الزهرة لتفرج عن حلى جميلة، وهكذا تحتفظ علب الحلى جيدا بما فيها، لتخفيها من أعين الخائن الذى يباغتها، يقول أبو الحسن بن على:

أرى صفرةَ السوسانِ فوق بياضِهِ كصفو مُدامٍ فى إناء مفضَّضِ
بدا مثلُ حُقّ العاج فى فرع غصنه بأكرم ملبوسٍ وأجمل معرضِ
ولمّا دنا وقتُ النثارِ تشقّقتْ تواويرُه عن حَلْى حُسْنٍ له نضى

وأخيرا يذكرون أريج السوسن عنصرا من عناصر الوصف، ويشيرون عادة إلى حبوب اللقاح الصفراء التى تلتصق بأنف الشمّام الجسور.

وإليك مقطوعة مثيرة، نظمها ابن درّاج القسطلّى يمدح بها عبد الملك المظفر، ابن المنصور بن أبى عامر، ويشيد به بعد استيلائه على قلعة مسيحية فى أوائل القرن الحادى عشر، ولكن وصفه لها، والصور

---

(٣٢) انظر ص ٢٨٢ الهامش رقم ١٦٩ فيما سيأتى من هذا الكتاب.

التى تضمنتها، جاءت غامضة. ولعله يريد من الشرفات أوراق السوسن، ومن السيوف النواوير المصفرة فى أسفلها، والأمير القائم وسط السوسنة:

جهِّزْ لنا فى الروضِ غزْوةَ مُحتسبْ[٣٣] ... واندبْ إليها من يساعدُ وانتدبْ
واهززْ رماحًا من تباشيرِ المنى ... واسللْ سيوفًا من معتّقةِ العنب
وانصبْ مجانيقًا من النَبَمَ التى ... أحجارهنّ من الرواطمِ[٣٤] والنُّخَب
لمعاقلٍ من سوسن قد شيِّدت ... أيدى الربيعِ بناءَها فوق القضب
شرفاتُها من فضةٍ وحماتُها ... حول الأميرِ لهم سيوفٌ من ذهب
مترقّبين لأمره وقد ارتقى ... خَلَلَ البناءِ ومدّ صفحةَ مُرتقب
كأمير لونةَ[٣٥] قد تطلّعَ إذ دنا ... عبدُ المليك إليه فى جيشٍ لجب
فلئن غنمتَ هناك أمثالَ الدُّمى ... فهنا بيوت المسكِ فاغنمْ وانتهب
تحفًا لشعبانٍ جلالك وجهُهُ ... عوضًا من الوردِ الذى أهدى رجب
فاستوفِ بهجتها وطيبَ نسيمها ... فإذا دنا رمضانُ فاسجُدْ واقترب[٣٦]

● النَّيْلُوفَر:

كان النيلوفر يزين البحيرات وأحواض النوافير الموجودة فى بيوت الأمراء و المنيات فى الريف[٣٧]. ولم تكن أوراقه الخضراء الطافية على الماء مناط اهتمام الشعراء، وإنما كان يجذبهم إليه زهوره البيضاء، تتوسطها نقاط سوداء، تتفتح نهارًا، وتنطوى على نفسها فى المساء. وقد وصفه أبو عامر بن مسلمة بأنه مضارب من المها:

تخالُهُ مضاربا من المها تروقنا

ويراه ذو الوزارتين أبو عمر عباد مثل كأس من اللؤلؤ، أحكموا فى وسطه فصًّا من الخرز الأسود:

كأنّه جامُ درٍّ فى تألُّفِهِ ... قد أحكموا وسْطه فصًّا من السَّبجِ

وفى بيت آخر رآه خاتمًا من فضةَ وفصه من لسبج:

أوخاتمٌ من فضةٍ وفصُّهُ من السَّبَجْ

(٣٣) المحتسب هنا لا يراد به الموظف الذى يضطلع فى المدن الإسلامية الكبرى بمراقبة حركة الحياة فى المدينة، والحفاظ على العادات ونظام العمل فى الهيئات والمنشآت، والقضاء على غش الحرفيين، ومنع الجرائم فى الشئون التجارية (انظر كولين وليفى بروفنسال، موجز إسبانى فى الحسبة، رسالة السقطى، المدخل ص ١ وما بعدها)، وإنما يراد بها قائد الجيش والمسئول عن كل ما يتصل بالحرب. انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية، جـ ١ مادة حسب، وكاترمير، تاريخ السلاطين المماليك ١١٤/١.

(٣٤) روطم جمع روطمة، نحن بصدد كلمة إسبانية قديمة rotoma، وفى الإسبانية الحديثة redoma: «قارورة أو قنينة من الزجاج»، ولم يستطع دوزى وإنجلمان الوصول إليها وتحديد معناها فى كتابها: معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ٣٢٩ - ٣٣٠، مادة Redoma، ودوزى، تكملة المعاجم العربية ١٥٨/٢. وسجلها شتيجر مرتين فى صورة رضومة، انظر: إضافة إلى الصوتيات ص ١٦٣ و ٣٥٤.

(٣٥) عن تحديد هذا المكان انظر: ليفى بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨٧ هامش رقم ١.

(٣٦) من الكامل، البديع ١٢٣.

(٣٧) وأحيانا كانوا يستخدمون نيلوفرا صناعيا من الفضة، وقد وضع المنصور واحدا منها ضخم الحجم جدا فى لبركة الكبرى فى مدينة الزاهرة. انظر نفح ٨٥/٣.

ويصفه يوسف الرمادى بأنه كأس من فضة فُرش قاعة بالزمرد الأخضر:

كـأنها كـؤوسُ فضـةٍ فُـرشـتْ   قيعهـانُها بـالـزُمـرُدِ الأخضـرْ

وهو علبة من البلّور فى وسطها زمرّد برّاق، وحول هذا الزمرد ألسنة ستة من الفضة صنعها فنان بدقة، يقول أبو عامر بن مسلمة:

كـأنّـه مخـزنـةٌ مـن مهـيٍّ   فى وسـطهـا زُمـرّدٌ سـاطـعُ
وحـولـه ألـسـنـةٌ سـتـةٌ   من فضـةٍ أتـقنهـا صـانـع
كـلُّ لـسـانٍ أبيضٌ نـاصـعٌ   والـطرفُ منه أصفـرٌ فـاقـع

وعند أبي عمرو عباد أوراقه مثل كعبة من لجين يتوسطها الحجر الأسود:

وأوراقـهُ كـعـبـةٌ مـن لُجـينٍ   تـوسّـطهـا الـحـجـرُ الأسـودُ

وقد أدى وجود النقطة السوداء داخل النيلوفر إلى اعتباره يمثل العين الساحرة بأفضل مما يمثلها النرجس والنرجس الأصفر.

أثار الشعراء إنطواء أوراق زهرة النيلوفر فى المساء، فهم يرونها تسمح لزوارها بأن يروا محياها فى النهار، وتحول بينهم وبينه فى الليل، كبائع العطر يقف فى دكانه طالما كان النهار وبقى الضوء، فإذا جاء المساء أغلق حانوته، ووضع على بابه أقفالاً، هكذا يراه أبو الأصبغ بن عبد العزيز:

يُـبـيـحُ نهارًا لـزوّاره   مُحـيًّـا يُـرغـبُ فى وَصْـلِهِ
ويمنـعُ بـالليـل من وجـهـهِ   لـيـأخـذ بـالـحـزم فى فعْـلهِ
كـبـائـع عـطرٍ بحـانـوتـه   ضـيـاءَ الـنهـارِ إلى لـيـله
فـإذا جـاءه الليـلُ أفضى بـه   إلى سـدِّهِ وإلى قـفـلـه

وعندما يقبل الليل يبدأ النيلوفر فى الإظلام، ويراه أبو جعفر بن الأبار حينئذ رومية تضم طفلاً لها من الزنج:

كـأن نـيـلوفَـرَ الـريـاضِ إذا   مـا الليـل أدْجى أوهم أنْ يُـدجِى
رومـيـةٌ بـضـةٌ مـنـعـمّـةٌ   تضم طـفـلاً لـهـا من الـزّنـجِ

بينما يصفه أبو القاسم البلمىّ بأنه أحد ملوك الحبش، يقيم فى خيمة بيضاء، ويغلق عليه الباب عندما يرى الظلام:

ونـيلوفـر غـدا يُخجـلُ الـرا   ئى إلـيـه نـفـاسـةً وغـرابْـه
كملكِ الأحبـوشِ فى قبّـةٍ بيـ   ـضـاءَ يرنـو الدجى فيغلق بـابَهْ

وعندما ينطوى النيلوفر على نفسه يسجن النحل داخلة عادة، فلا يستطيع الفرار، ويموت فى سجنه الضيّق، ومن هنا جاءت تسميته بقاتل النحل، يقول أبو الحسن بن على:

أشْبـهَ الإنسَ فى تصـرُّفِ حـالَيْـ   ـهِ ووقْـتَيْ سُـهـادِهِ ومـنـامِـهِ
وتـوقّـيـهِ فى الـديـاجى بـإغـلا   قِ نـواويـره وضـمِّ كِـمـامِـه

لقَّبوه بقاتل النحلِ لمّا أبصروا النحلَ مقصدًا لسهامه
لم يَجُزْ فى القصاصِ إذ ذاك لصٌّ سارقٌ بالنهار شُهْدَ خِتامه

● الورد:

من أكثر الزهور انتشارًا[٣٨]، وكان يزرع فى قرطبة بكثرة، وحملت منطقة فى ضواحيها اسم «جبال الورد»[٣٩]. ويشير الشعراء كثيرًا إلى الورد المتفتح قبل أوانه فى بجانة وريُّه، وكان يجرى قطافه فى يناير، أما المتأخر فى تفتحه وقطافه فكان يظهر فى مهرجان ٢٤ يونية، وفيما يتصل بهذه لزهرة نحن فى حاجة إلى الاعتراف بأنهم لم يظهروا كثيرًا من الفن أو الخصوبة، لأنهم لم يكونوا يعرفون منها سوى نوع واحد، وهو الورد الأحمر، وانحصر وصفهم لها فى لون الزهرة الأحمر، ولون «المتك» و«المياسم» الأصفر، وهى أعضاء التذكير والتأنيث فيها، وشبهوا حمرتها بالأحجار الكريمة من العقيق والياقوت الأصفر المائل إلى الحمرة، أو بالدم نفسه أو بالجمرة، ولكن التشبيه الذى يتوارد بكثرة هو تشبيهها بخد الحبيبة، الذى يحمر ارتباكا، وليس هذا جديدًا فى شىء.

وأدت فكرة الارتباك والأحمرار إلى اتخاذ الملابس مادة للتصوير، فالوردة تظهر فى غلائل حمر حيث يبدو الإزار والغلائل مرصعة بالجواهر، وتظهر الأزرار من الجيوب، يقول أبو بكر بن نصر:

وإذا ذكرت الوردَ فاعلم أنّه للنوْرِ أجمعَ فى الرياضِ منارُ
مُتدثّرٌ بغلائلٍ حُمرِ الحُلىَ تنجابُ دون جيوبه الأزرار

وعند أبى مروان بن الجزيرى جاءت للوداع مسرعة، ترتدى خمارًا أخضر وغلالة حمراء:

وقد أتاك لتوديع على عجلٍ خُضْرًا مقانعُهُ حُمْرًا غلائلُهُ

وعند أبى القاسم بن شبراق سترت وجهها بالبرقع، وتقدمت مثل حسناء حيية، تحجبت لتخفى وجهها الصبوح:

سترتْ وجهَها ببُرقُعِها واسـ ـتقبلتْنا من الفتونِ فنونُ
كالفتاةِ الحيِّيةِ انتقبتْ كىْ لا يُرى وجهُها الجميلُ المصون

ولا يثير عطر الوردة أىّ إحساس خاص عند لشاعر، ولا يعرض له إلاّ من خلال الألفاظ الغامضة لتى يستخدمها فى أبياته لوصف الزهور الأخرى، ولكن تكرار كلمة «مسك» يسمح لنا بأن نعتقد أن الوردة الأندلسية كانت تعكس رائحة هذا الطيب.

● الياسمين البستانى:

كان الياسمين، كما فى أيامنا هذه، يظلل الخمائل والتكعيبات وكانت القبة الخضراء تتناثر فوقها الزهور البيضاء مناط إعجاب الشعراء فأكثروا من وصفها.

---

(٣٨) انظر: ش. جوريه، الوردة قديما وفى العصر الوسيط، ونقد رنيه باسيه لهذا الكتاب فى فصول أفريقية وشرقية ٣٥٣ - ٣٦١.

(٣٩) انظر: جيانجوس، الممالك الإسلامية فى إسبانيا ٣٤٤/٢، رقم ٦٠، وغرسية غومث، ترجمة رسالة فضل الأندلس ص ١٠٦، الهامش ١٥٠، ونفح ٢١٧/٣.

فهو عند القاضي أبي عمرو عباد يأتي في صورة دراهم في مطرف أخضر:

كأنه من فوق أغصانه دراهمٌ في مطرفٍ أخضرِ

أو مداهن من فضة صافية:

وياسمينٍ حسنِ المجتلى كأنه في قُضْبه الضافيهْ
زُمرُّدٍ رُصِّع ما بينه مداهنٌ من فضةٍ صافية

أو زمرد نُضِّدَ فوق الربى بالدر:

كأنما الأغصانُ من تحته والورَقُ المخضوْضرُ المستبينْ
زمرُّد نُضِّدَ فوق الرُّبَى وهو على أعلاه درٌّ مصون

ويراه أبو الأصبغ بن عبد العزيز سرير ملك عليه مشملة خضراء:

سريرُ ملكٍ عليه مشملةٌ خضراء والقطنُ فوقها ينـدفْ

وتصوره أبو الحسن بن علي عريشه سماء، وفوقه دروع صغيرة بيضاء مفضضة ورماح صغيرة:

عريشُ الياسمين لهم سماءٌ وخضرة أرضه لهمُ قرارُ
به حَجفٌ من النُّوَّارِ بيضٌ مفضَّضةٌ وأرماحٌ صغار

وعند إدريس بن اليماني نجوم من الفضة تظهر في سماء من الزبرجد:

نجومٌ من لُجيْنٍ تجتليها سماء زبَرْجدٍ خَضِلٍ نضيرِ

والإشارة إلى عطره نادرة، ويصوره أبو عامر بن مسلمة عطرا رقيقا يلقاهم على كرسي ملكه:

وذكيُّ العرْفِ لاقا نا على كرسيِّ مُلْكهْ
أرضُه الخضراءُ بحرٌ نَوْرُه فيه كفُلكِهْ

وهو فوق عرشه يشي أريجه بخبره قبل أن يُعرف، يقول أبو الأصبغ بن عبد العزيز:

وياسمينٍ بعرشه أشرفْ عرّفه العَرْفُ قبل أن يُعرفْ

● **الشقائق:**

وتُسمى شقائق النعمان، ويقصد بها ما نسميه في أيامنا هذه الخشخاش البري[٤٠]، وهي زهرة حمراء، لها متك أسود. ويراها أبو بكر بن نصر قميصا مشربا بحمرة، أو قضبانا من الآس تعلوها النيران:

وشقائقُ النعمانِ قمصٌ أُشبعتْ في حمرةٍ فلها بذا إيثارُ
وكأنّها وسْط البقاع وقد علتْ قضبانَ آسٍ في ذُراها نارُ

ويراها أيضا تزهو بلونها العصفري:

ويُزهى الشقيقُ العصفريُّ بلونهِ إذا فاقعُ الحوْذانِ جاد تَولُّدهْ

---

(٤٠) كما هو الحال في المغرب الآن، انظر رينو وكولين، تحفة الأحباب رقم ٤٤١.

والأسود فى شقائق النعمان مثل الغوالى بُسطت فى مداهن من عقيق، هكذا رآها أبو الحسن بن على:

وكأنّ السوادَ فيها غوالٍ بُسطَت فى مداهن من عقيقِ
أو نثيرٌ من طيّبِ المسك محضٌ صُبَّ بالعنْبرِ فى كؤوس الرحيق

ويراه أبو عامر بن مسلمة كأسًا من العقيق تلمح فى قاعها فتيت المسك:

مثلَ كأسِ العقيقِ فى قاعهِ المسكُ يُلتمحْ

ويصوّره أبو الوليد الحميرى، وقد أزهر فى الرياض، شعر حسناء يلوح خلال خمار أحمر:

إذا نوّرتْ فيها الشقائق خِلْتَها شعورَ العذارى لُحْن فى الخُمُر الحمرِ

● نَوْر الكتّان:

أو بَزْر الكتان، وكان الإسبان المسلمون يزرعونه ليحصلوا منه على ألياف النسيج، وليس على زهور الزينة[41]، ولكن زهرته الزرقاء أثارت خيال الشعراء. وقد وصفه أبو جعفر بن الأبار بأنه يخصب فى كل الحقول، نجادها ووهادها، فإذا تفتحت زهوره بدت كأنها مداهن من اللازورد:

وبَزْرُ كتّانٍ أوفى بكلّ وهْدٍ ونَجْدِ
كأنّه حين يبدو مداهنُ اللازورد

وأما أبو الوليد الحميرى فرآه أيديا فيروزية، تختفى معاصمها فى رداء أخضر، أو ياقوتا أزرق استلقى على بساط سندسى:

كأنّ نوْر الكتّانِ حين بدا وقد جلا حسنُهُ صدا الأنفُسِ
أكفّ فَيْروزجٍ معصمُها قد سترتهنّ خُضْرةُ الملبس
أوْ لا فَزْرقُ الياقوتِ قد وُضعتْ على بساط تروق من سندس

وثمة شاعر يرحّب بزهور اللازورد التى تنحنى فى حقول الكتان للرياح الغربية، وعديم المعرفة يظنها غمر من الماء فيرفع ملابسه عن سيقانه عند خوضها، كما فعلت ملكة سبأ.

● نَوْر اللوز:

وهى شجرة الحقول الجافة، وكانت توجد، كما هو الحال اليوم، متفرقة فى شتى أنحاء إسبانيا، وتوجد حكاية لطيفة توجد فى كتاب «الكوندى لوكانور» لمؤلفه خوان منويل الإسبانى (١٢٨٤ - ١٣٤٨)، وكتاب تحفة العروس للتيجانى، تقول إن المعتمد بن عباد هو الذى بدأ زراعة اللوز فى ضواحى إشبيلية، لأن الزهور البيضاء لهذه الأشجار الجميلة تزهر مع انتهاء موسم الثلج، فحلّت عند اعتماد الرميكية معبودة الأمير محل كُرر الثلج التى طالما أعجبت بها فى شتاء إشبيلية[42].

---

(٤١) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ١٧٠.
(٤٢) انظر: دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٧.

يصف أبو بكر بن القوطية لون أوراق هذه الزهرة بأنها بيضاء، ترتدى غلالة فى لون الدفلى نسجتها شهرا ديسمبر ويناير، كأنه قائد أو رائد أو طليعة، يتسلق أعالى الحقول، أو قائد أمام قواته، وهى هنا ليست إلا أنواع الزهور المختلفة:

وأبيضُ اللون دِفْليٌّ غلائله ... عليه من نسْجِ كانونين أبرادُ
يقولُ مبصرُهُ سبحانَ فاطرُهُ ... كيف استقلَّتْ بهذا الحسنِ أفراد
يزور والنورُ لم تفتح كمائمُهُ ... ولا تقدَّمَهُ للزوْرِ ميعاد
كأنه رائدٌ أو طالعٌ نُجدًا ... أو قائدٌ وصنوفُ النوْرِ أجناد

● نَوْر الرمّان:

لم يعرض له الشعراء إلا قليلا، ومن بين هؤلاء القلة أجاد ابن هانئ تصويره، فقد عجب لشجرة الرمّان عندما تزهر، ورآها مثل يدى امرأة جميلة، صُبغتْ بالحنّاء، أو أصابع الحمام، أو حقاق فُتحت فبدت وسطها غلائل من البرق:

وبِنْتِ أيْكٍ كالشباب النضْرِ ... كأنّها بين الغصونِ الخضْرِ
جَنانُ بازٍ أو جنانُ صقْرِ ... قد خلَّفتْه لِقوّةٍ بوكْرِ
كأنما مجّتْ دمًا من نَحْرِ ... أو سُقيتْ بجدْولٍ من خَمْرِ
لو نبتَتْ فى تُرْبةٍ من جَمْرِ ... لو لَفَّ عنها الدهْرُ صَرْفَ الدهرِ
جاءتْ بمثل النهْدِ فوق الصدرِ ... تفترُّ عن مثلِ اللثاثِ الحُمْرِ

● نَوْر الجُلّنار:

واشتهرت به طليطلة، وفيها يكبر حتى يصبح فى حجم الرمان[٤٣] . وللوزير أبى عامر بن مسلمة أبيات بديعة فى وصفه، وشبهه بالورد تضاعفت أوراقه، ولونه يقرب من الحلّة المصبوغة بالعُصْفر:

قد شَبَهَ الوردَ فى تضاعفه ... وقاربَ اللونُ حُلَّة العصفرِ
مثلَ ثمارِ الرمّان زاهرةٌ ... لكنّه منظرٌ بلا مخبرِ

أمّا أبو الوليد الحميرى فرآه يتباهى فى غطاء من نار، ويحكى خدود العذارى عندما تخدشها الغمزات والنظرات:

وجُلَّنارٍ تبدَّى ... يختال فى جُلِّ نارِ[٤٤]
أحْلى حُلىٍّ من جميع ... الأنوارِ والأزهارِ
حكى خدودَ العذارى ... قد ضُرِبتْ باحمرار
وخُمِّشتْ بأكُفِّ ... الألحاظ والأبصارِ

● نَوْر الباقِلاء:

وتُسمى زهرة الجرجير أيضًا، ولم تكن تُزرع قطعا كنبات للزينة، ولكن زهرته البيضاء ذات النقط

(٤٣) القلقشندى، صبح الأعشى(طبقا لتقويم البلدان) ٥/٢٢٨.

(٤٤) استخدم الشاعر هنا أصلا لها يختلف عن الأصل الفارسى، معتبرا أصلها عربى، مكونا من كلمتين: «جل» و «نار».

السوداء، أوحت إلى الشعراء بصور تذكّرنا بما أوردناه عند حديثنا عن التيلوفر[٤٥]. فرآه أبوالوليد الحميرى خالاً على خد بيضاء بضة:

وباقِلاءَ قد أبدي ... بنورِهِ الحُسنَ مَحْضَهْ
كأنّما هو خالٌ ... بخدّ بيضاءَ بَضّه

ويصفه أبو الحسن بن على بن أبى غالب بأنه مثل أقراط من فضة طُليت بذرّت المسك:

ونوْرُ نباتِ الباقلاء كأنّه ... شُنُوفُ لُجَينٍ ضُمّختْ بغوالِ

ورآه فى بيت آخر خرزا فى كأس من الدر، أو كسوفا وسط بدر:

سَبَجٌ فى كأسِ دُرٍّ ... أو كسوفٌ وَسْط بَدْرِ

وزاد على وصفه هذا أبو الوليد الحميرى بيتًا أعطانا فيه صورة أزيد، فهو ذرات من المسك فى الآلئ بيضاء، أو ظلمات وسط فجر:

أو غَوالٍ فى لآلٍ ... أو غشاءٌ بين فَخْرِ

● نَوْر الغالية:

وتنتهى دراستنا لهذه القائمة من الزهور بالحديث عن زهرة سمّاها أبو الوليد الحميرى فى كتابه «البديع فى وصف الربيع»: الغالية، وليست هذه الشجرة التى وصفها أبو القاسم بن الخرّاز إلا شجرة الليلاب[٤٦]:

وَرَخْتجي «[٤٧] سحابي»[٤٨] قوائمهُ ... خُضْرٌ حكى ياسمينًا فى تفتّحِهِ
تميسُ قضبانُها والريحُ تعطفُها ... مَشْىَ النزيفِ تهادىَ فى ترنّحِهِ
كأنّ أوراقهُ فى حُسْنِ خُضْرتِها ... من الزمرّدِ أسناهُ وأملَحِهِ
... سط فى الأنهار مَنْبِتُهُ ... ففاز بالعرْفِ فى ... جِهِ
وغالبَ النوْرَ حتى قيل غاليةٌ ... فحسبُه غالبًا كافى مُرشّحِهِ[٤٩]

بقى أن نشير إلى أن الأوصاف التى عرضناها لها إنما تصوّر الانطباع العام عن الزهور ولمّا تزل على غصانها فى الحدائق والبساتين، غير أن هناك من الشعراء من وصف الزهور بعد قطفها، وجَمْعها فى باقة

(٤٥) نعرف عن طريق الرواية أن ابن طاهر وحكم مرسية من ١٠٦٣ م إلى ١٠٧٨ م كان مولعا بحب الفول. انظر: الحلة ١٢٠/٢، ومثله كان القاضى ابن ذكوان، وعاش حتى نهاية القرن الحادى عشر، مما جعل الوزير ابن شهيد يسخر منه، انظر: المقرى، نفح ٢٤٤/٣. وكان الشبان فى ضواحى إشبيلية لا يحتقرونه أيضا. انظر: الذخيرة، ق ١ مجلد ٢ ص ٣٧١ طبعة القاهرة.

(٤٦) انظر: تحفة الأحباب، طبعة رينو وكولين، رقم ٢٠٩، «جدرة: الليلاب، وفى العامية الغالية وهى معروفة جيدًا، وإضفاء اسم لجدرة على الغالية يؤكده المعجم طبعة تشبريلل ٣٦٠، ولكن يمكن أنه يتحدث عن La peruinca.

(٤٧) الرختج قماش مصنوع من نيسابور، انظر: دوزى، رسالة إلى فليتشر ٢٩.

(٤٨) سحابى: سحابى اللون، توجد فى رحلة ابن جبير، طبعة رايت، ليدن ١٩٠٧، ص ١٤٨، ويفسرها الناشر بأنها: «حرير رقيق، كتان شفاف».

(٤٩) من البسيط أبو الوليد الحميرى، البديع ١٥٨، والبيت الرابع طمس منه أول الكلمة الأولى فى البدء وأول الكلمة الأخيرة فى نهاية البيت.

أو مُطيَّب[٥٠]، وترك لنا ابن درّاج القسطليّ بعض الأمثلة فى أبيات له عن الاستخدامات الغريبة لأوراق زهرة النرجس بعد قطفها، ولمّا يزل ذلك قائمًا -ربما- عند التونسيين حتى يومنا:

بَهارٌ يروق بمسكٍ ذكيٍّ ... وصُنع بديع وخَلْقٍ عَجَبْ
غصونُ الزمرّدِ قد أورقت ... لنا فضةً نوّرتْ بالذهب
إذا جُمعتْ فى حبال الحديد ... وقامت أمامكَ مثل اللُّعَبْ
فمن حَقِّها أنْ ترى الشاربين ... وقد نفقت سوقُهم بالنُّخَب[٥١]

●●●

وبالإضافة إلى النوْريات والروضيات فى معناهما الدقيق يوجد أدب وفير من النثر والشعر، يقوم على عرض حوار بين زهرتين، يجيء المؤلف بالكلام على لسانهما، أو جدال بين كاتبين عن المفاضلة بين زهرتين يجب أن تتفوق إحداهما على الأخرى[٥٢]. ويبدو أن هذا اللون من الحوار بدأ فى إسبانيا إثر أبيات للشاعر المشرقى ابن الرومى، المتوفى نحو عام ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م، أعلن فيها تفضيله البهار على الورد[٥٣].

وعلى النقيض يُجمع كل شعراء الأندلس، ماعدا قلة مستثناة، على تفضيل الورد، وليس ثمة شك فى أن ما نراه هو تعبير عن الذوق العميق الذى يرتد إلى أصلهم الهندى أوربى أكثر منه استعراضًا للبلاغة أو تعلّقًا بها.

وأول ردّ على ابن الرومى يعود إلى بداية القرن الحادى عشر، وقام به أبو حفص بن بُرْد الأصغر، وهو عبارة عن رسالة نثرية خاصة تتناثر فيها أبيات الشعر، وتوجد فصول منها فى كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام، وكاملة فى كتاب «البديع فى وصف الربيع» لأبى الوليد الحميرى[٥٤]، وقد رأى أبو الوليد هذا أنّ واجبه أنْ يردّ على ابن برد ليدافع عن البهار، أو نرجس الشعراء كما يُسَمّى أيضًا، ويعلن تفوّقه على الورد، وكان الأندلسى الوحيد الذى شارك ابن الرومى رأيه فى رسالة ضمّنها كتابه «البديع»، وجاءت فيه تالية لرسالة ابن برد[٥٥]، ونكتفى هنا بالاشارة إلى هاتين

(٥٠) عن المطيب انظر: المعجب ص ٣٧٠، وترجمته ٣١٤، بمناسبة الحديث عن وصف مدينة بلنسية بأنها مطيّب الأندلس، وتوجد كلمة «باقة» فى بيت من الشعر لابن حمديس، يشبه فيه نجوم السماء بباقة من البهار، انظر: الديوان القطعة ٩٣ البيت ٢٢ ص ١٢٥. وانظر أيضا ابن رشيق، العمدة ٢٢٧/٢، حيث يذكر «باقات الزهر»، ولمعرفة المصادر الأخرى انظر: حبيب الزيات، مجلة المشرق، يولية - ديسمبر ١٩٤٩، ص ٥٢٠ - ٥٢٣.

(٥١) الحميرى، البديع ١٠٠.

(٥٢) حول الموضوعات التى دار حولها الحوار فى الأدب العربى انظر: الإسلام، المجلد ١٤، عام ١٩٢٥، ص ٣٩٧ - ٤٠١، ومتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ص ٢٤٩ رقم ٣، وترجمة بيلا إلى الإسبانية ص ٣٢٠ رقم ٣.

(٥٣) من الكامل، ابن الرومى، الديوان، قطع مختارة لكامل كيلانى ٣٨٩/٣، وقد نظم ابن الرومى مقطوعات أخرى ضد الورد، من بينها مقطوعة طائية القافية لم يجرؤ أحد من أصحاب المختارات على ذكرها لأنها تتضمن تشبيها جاسيا. انظر: ابن أبى حجلة، كتاب سكردان السلطان، على هامش العاملى: أسرار البلاغة، تكملة كتاب المخلات، ص ١٩، وأبو القاسم الغرناطى، رفع الحجب المقصورة، وهو شرح لمقصورة حازم القرطاجنى، القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٥٥/١، والنويرى، نهاية الأرب ٢١٠/١١.

(٥٤) أبو الوليد الحميرى، البديع ٥١ - ٥٨، والذخيرة ١٢٧/٢، ونقلها أحمد ضيف فى بلاغة العرب فى الأندلس ١٥٣ - ١٥٦، والنويرى فى نهاية الأرب ١٩٦/١١ - ٢٠٠.

(٥٥) أبو الوليد البديع ٥٨، وابن بسام، الذخيرة ١٢٧/٢، وأحمد ضيف بلاغة العرب ١٥٢، رقم ١.

الرسالتين لأنهما جاءتا نثرًا، ولكن احجج التي ساقها طرفا المناقشة، أو على الأصح الأول منهما وهو الذي احتقر النرجس، أي البهار، ومدح الورد، نجدها عند شعراء نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر، ويبدو أن الجدل الذي أثار الأوساط الأدبية والثقافية في عهد ملوك الطوائف خلال ما يقرب من قرن بأكمله، حُسِمَ في عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وليس عبثًا أن نشير هنا إلى بعض الحجج التي أوردها أهل الأندلس ردًّا على آراء ابن امرومى وبعضها يرجع للتجارب المباشرة أو التقاليد الأندلسية والبعض الآخر ليس إلاّ تلاعبًا بالألفاظ وغير جدير منا بأي انتباه.

البهار، أو نرجس الشعراء، جاحد، له مظهر عجوز شمطاء، أمّا الورد فمخلوق يُثني على من أحسن إليه، ويبدو كعذراء ممتلئة العنق في قميص أحمر، وليس للبهار فوائد، أما الورد فمرغوب فيه دائمًا، نضرا أو مجففا، وعندما يختفي يبقى شكلا ومذاقا في ماء الورد، والورد يبشر بالحياة، والبهار يعلن عن الموت.

يقول البهار: اسمي يمكن قراءته «برٌّ حبيب».

ويقول الورد: أنت مخطئ، وإنما يمكن قراءته «بيت خرب» وأنا أُشبه الوجنات الحمر، أمّا أنت فكَعين مذهولة دائمًا، مثل عين الحيوان المسعور.

ويرّد البهار معترفًا بتفوق الورد: يجب أن يُقرأ اسمي «بَرّحت بي»، أو «برح بَيْن»[٥٦].

وثمة موضوعات أخرى كان يدور حولها النقاش بين شعراء الأندلس، مثل موضوع البنفسج وتفضيله على النرجس والنرجس الأصفر، والخيري الأصفر على البنفسج والعكس، والنرجس على النرجس الأصفر، والخيري الأصفر على الخيري النمّام والعكس[٥٧]، ولكنهم لا يفسحون المجال إلا للمشاهد العامة، كالتي أوردناها بالنسبة للورد والبهار، ولذا ليس من الضروري أن نقف عندها أو ندرسها.

●●●

أعتقد أن دراسة موضوعات الزهر تبقى ناقصة إذا أغفلنا الأبيات الشعرية التي تدور حول الربيع أو الزهور وتجئ مقدمة لمدح أمير أو وصف محبوب، وهذا الشعر كثير جدًا، أكثر مما نتوقع، إذ أنّ كثيرًا من وصف الزهور أو الحدائق التي تبدو وحدة متكاملة مستقلة، كما نقلها لنا جامعو المختارات الشعرية، ليست في الواقع إلاّ مقدمات لموضوعات اعتبرها البلاغيون أكثر أصالة، وإذا كان الأندلسي يميل إلى وصف الزهور لذاتها، وتعميم جنس أدبي تحمس له بعض المشارقة كالصنوبري المتوفى ٣٣٤ هـ = ٩٤٥م، فليس بمستبعد أن أن يعتبر بدء المديح أو الرثاء بمقدمة طللية تدور حول الوقوف بالديار المهجورة كما كان يفعل القدامى طريقة بالية وذوقًا رديئًا، ولذلك اعتبر الدخول إلى الموضوع بوصف الحدائق الجميلة التي تزينها الزهور، وتنتشر عبر الأندلس ومقاطعات إسبانيا الأخرى، قانونا تمليه الطبيعة نفسها. وهنا أيضًا نجد من سبقهم في هذا من المشارقة، مثل: **البحتري**، وآخرون أكثر قربًا

---

(٥٦) أبو الوليد، البديع ٧٠ - ٧٧، وبن الأبار، الحلة ٢٧١/١، والمطمح ٢٠٧.

(٥٧) أبو الوليد، البديع ٧٧ - ٨٥.

منهم مثل: مهيار الديلمي والشريف الرضي، ولكن هذا الاتجاه يمثل عندهم أكثر من مجازفة أو نموذج: إنه ضرورة يتطلبها مفهومهم للشعر.

وإليك فيما يلي أمثلة على ما قلنا:

يقول أبو جعفر بن الأبار يمدح الحاجب أبا القاسم بن عباد:

لبس الربيعُ الطلْقُ بُرْدَ شبابِه ... وافترّ عن عُتباهُ بعد عِتابِهِ
مَلَكَ الفصولِ حبا الثرى بثرائِهِ ... متبرِّجًا لوهاده وهضابِهِ
فأراكَ في الأنوارِ وشْيَ بُرودِه ... وأراك بالأشجار خُضْرَ قِبابه
أمسى يُذهِّبها بشمسِ أصيله ... وغدا يُفضِّضها بدمع جنابه
عَقَلَ لعقولَ فما تكيَّفَ حسنه ... وثنى العيونَ جنائيا بجنابه
بالحاجبِ المأمولِ أضحكَ ثغرَهُ ... فرحًا وأنطقَ جهرَنا بصوابه[٥٨]

ويبدأ ابن عمّار قصيدته في مدح المعتضد على النحو التالي:

أدر المُدامة فالنسيم قد انبرى ... والنجمُ قد صرف العِنان عن السُّرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافورهُ ... لمّا استردّ الليلُ منّا العنبرَا
والروض كالحسنَا كساهُ زهرهُ ... وشْيًا وقلّده نداهُ جوهرا
أو كالغلامِ زها بورْد خدودِه ... خجلًا وتاهَ بآسهنّ مُعذّرا
روضٌ كأنَّ النهرَ فيه مِعصمٌ ... صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا
وتهزّهُ ريحُ الصَّبا فتخالُه ... سيفَ ابنِ عبادٍ يبدّدُ عَسْكرا[٥٩]

وإذا كانت هذه الأبيات التي ذكرناها يمكن أنه تتضمن بعض الصور المتشابهة، فليس من المألوف تجسيد الربيع ملكا. ويمكن أن نعتبر من الأصالة الطازجة تصوير المحبوبة لا تنفصل عن الربيع والزهور، وتمثل في نظر الأندلسيين تجدّد ذكريات الأيام الجميلة، والوردة من بينها بخاصة.

يقول ابن اللّبانة يمدح مبشّرا ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية:

راقَ الربيعُ ورقَّ طَبْعُ هوائهِ ... فانظر نضارةَ أرضِهِ وسمائه
واجعلْ قرينَ الورْدِ فيه سلافةً ... يحكي مُشَعشَعُها مُصعَّدَ مائه
لولا ذُبولُ الوردِ قلتُ بأنّه ... خدُّ الحبيبِ عليه صِبْغُ حيائه
هيهاتَ أين الوردُ من خدِّ الذي ... لا يستحيلُ عليك عَهْدُ وفائه
الوردُ ليس صِفاتُه كصفاتِه ... والطيرُ ليس غناؤها كغنائه
يتنفّسُ الإصباحُ والريْحانُ من ... حركاتِ مَعطِفِهِ وحُسْنِ رُوَائه[٦٠]

لقد أظهر شعراء الأندلس في نورياتهم حبهم الصادق للزهور، وبحثوا مخلصين عن أدق الأوصاف

---

(٥٨) من لكامل أبو الوليد، البديع ٢٤.

(٥٩) من الكامل، القلائد ٥٦، ونفح ٦٥٥/١، والبيتان الأوّلان في المعجب ١١٥ وترجمته ٩٨، وانظر أمثلة أخرى في ابن قزمان، الأزجال رقم ٦٨ و٧٩ و١٤٨.

(٦٠) من الكامل، المعجب ١٥٤، وترجمته ١٢٩.

المتناهية لها، دون أن يقعوا فى التحذلق الملموس، والزهور التى وصفوها تختلف تماما عن ذكرياتهم المدرسية، والتحديد الدقيق الذى أضفوه على صورهم يدل على أنهم قاموا بمشاهدتها عن الطبيعة، ولم يستمدوها من ورق مرسوم، وإذا كانوا فى صورهم البلاغية اتخذوا من المعادن النفيسة مادة لتشبيهاتهم، وتناثرت هذه عبر صورهم بكثرة، فإنهم أيضا لم يقصروا فى تشبيهها بالكائنات الإنسانية. ومهما اختلف الأسلوب المستخدم فى التعبير عن انطباعاتهم فهم يبحثون دائما عن إحياء الطبيعة. وفيما يتصل بالألوان و لروائح والأشكال حاولوا ن يبحثوا فيها عن انعكاس حضارتهم المادية، التى تتمثل فى كثير من مظاهر الحياة حولهم[٦١]، ومع إسهابهم فى وصف الزهور أصبحوا يملكون، فى جانب منها، نوعًا من المعرفة عرفه المشارقة، ولكنهم لم يتناولوه إلا بوصفه مكمِّلًا.

لقد كانت الزهور حقا، بكل ما تثيره من لون وعطر موضع افتنان الأدب الأندلسى على امتداد القرن الحادى عشر.

● ● ●

لم يعشق الأندلسيون الحدائق والزهور التى تشبع نهمهم إلى تذوق الجمال فحسب وإنما أحبوا أيضا البساتين والأشجار بعامة، وأدركوا أهمية هذه النباتات، ويبدو ذلك جليًّا من الإنذار الذى وجهه الأمير حريز بن عكاشة والى قلعة رباح إلى ألفونسو السادس الذى جاء الإقليم غازيا، ودمّر كل الإنشاءات، وقطع كل الأشجار، فكتب إليه حريز: «... ليس من أخلاق القدير الفساد والتدمير، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك...[٦٢]».

ويُظهر احترام الأشجار هذا الفرق واضحا بين الإسبان المسلمين والعرب البدو، فهو يسجل تعلّقهم بالأرض، ويمكن أن ندرك الأبعاد الحقيقية للموقف إذا ما فكرنا أنه فى اللحظة نفسها كانت قبائل الهلاليين تكتسح شمال أفرقيا، وتحرق معظم الغابات العتيقة المتوراثة من قديم[٦٣].

ولكن أهل الأندلس لم يعبروا عن ولعهم القوى بالأشجار بنفس التفاصيل الفخيمة التى وجدناها فى حديثهم عن الزهور، ونلحظ أنّ الحديقة عند معظمهم مكتظة دائما بأشجار الفاكهة أو الزينة، خاصةً عند ابن خفاجة، عاشق الحدائق والملقب بالشاعر الجنّان. وصوّروا أيضا المياه الجارية من ترع وأنهار وقنوات إلى جانب الأدغال الظليلة و لوديان، وسنلمس هنا مدى افتنان الذين يتنزهون بالقوارب على صفحة الوادى الكبير بالأشجار السامقة والدوح تحيط بشواطئه على الجانبين[٦٤].

(٦١) قارن هذا بتعليقات برناردين دى سنت - بيير. «لقاحات الزهور الصفراء المعلقة على خيط المئبر الأبيض تقدم دعامتين مزدوجتين ذهبيتين فى تعادل، فوق عمد أجمل من العاج، والنوْر، وعقود الزبرجد فى روعة لا يعلى عليها، ورحيق الوهر، وأنهار السكر، وبقية أجزاء الزهرة، والكئوس والقوارير، والأبهء، والقباب، مما لا يستطيع فن المعمار أو الصياغة مما يصنع الإنسان أن يأتى بشبيه له بعد.. لا أقول هذا ظنا، وإنما عرض لى مرة أن فحصت زهرة الزعتر بالمجهر، فاكتشفت فى دهشة بالغة قارورة حروتين، ذات عنق طويل، من مادة تشبه الجمز (من الأحجار الكريمة) ويخرج من عنقها فيما يبدو سبيكة ذهب مذاب». دراسات فى الطبيعة ٢/٥.

(٦٢) نفح ٣/٥٥٨

(٦٣) تفسير الأمر على هذا النحو تبسيط للأمور بأكثر مما يجب، فقد كان السيد أمام بلنسية، وألفونسو السادس حول طليطلة، وبدر والقاسى فى كل غزواته، من أعتى القساة، يحرقون ويدمّرون، ولا يفرقون بين الشجرة والزهرة والمسكن أو الكنيسة والمسجد، ومردّ الأمر فيما يتصل بالإسلام أو المسيحية تمكنها من القلب أو عدم تمكنها. (المترجم).

(٦٤) انظر فيما سيأتى ص ١٨٥ - من هذا الكتاب، وص ١٢٧ فيما سبق.

وقد شهد القرن الحادى عشر مؤمَّلاً مولى باديس بن حبوس يزرع أشجار الحوْر فى أحد متنزهات غرناطة، وحمل اسمه، وصار يعرف باسم «حوْر مؤمَّل»[٦٥]. وعندما انتهى المطاف بالمعتمد أسيرا وسجينا فى أغمات بالمغرب لم تبارح مخيِّلته ذكريات هذه القصور، وكان أحدها يقع فى حقل يسخو فيه الزيتون، وعرف باسم منية الزيتون[٦٦].

ونلتقى عند الشعراء ببعض الصور الجميلة يقول أحمد بن مغيث:

وانظرْ إلى الأيكةِ فى بُردِهِ ولاحظِ البدرَ بأطواقِهِ
وقد بدا السروُ على نهره كخائضٍ شمّرَ عن ساقه[٦٧]

وقد وصف لنا عبد الجليل بن وهبون شجرة زيتون تنهار من ثقل عريش كرم تسلَّقها[٦٨]، كما وصفوا لنا أشجار اللوز المزهرة فى منية الزبير أيام المرابطين فى نهاية القرن الحادى عشر[٦٩].

ولكننا مضطرون للاعتراف بأنهم رغم عشقهم الزهور وزراعتها إلَّا أنَّ غرس الأشجار لم يكن يجذبهم إلَّا قليلا جدا، تاركين لعلماء الزراعة أن يصفوا كل أنواع أشجار الفاكهة فى مؤلفاتهم الزراعية، وقد كرَّس الطجناوى، وهو من ضيعة فى ضواحى غرناطة، وتوفى وفقا لكل الاحتمالات فى نهاية القرن الحادى عشر، أبوابًا مفصلة فى كتابه «زهر البستان»[٧٠] لدراسة أشجار التين والزيتون والرمان والخوخ والبرقوق والمشمش والتفاح والكمثرى والكرز والتوت والأرز والبرتقال والليمون واللوز والنخيل والموز والجوز والكروم، ولكننا لن نتوقف عنده لأنه لم يستخدم الشعر فى حديثه عنها.

● ● ●

لقد ظل الشعراء غامضين فيما يتعلق بأشجار الزينة وأشجار الفاكهة، ولكنهم على النقيض تناولوا بإسهاب ووضوح الزهور نفسها، والفواكه ذاتها، مما استطاعوا أن يتأملوه فوق أغصانه أو على موائد الطعام ساعة الأكل أو فى الوجبات الخفيفة التى تتخلل الأكلات الرئيسية.

ويتكرر الحديث عن التفاح والرمان، أو الإجَّاص، كثيرا فى أشعارهم، ويمكن أن نتخذ مثالا لذلك

---

(٦٥) هذا الاسم كثيرًا مايرد فى صورة حوز مؤمل، انظر: نفح ١/٣١٠ و ٦٤٩ و ٢/١٤٧ (رسالة الشقندى) و٣٤٥ و٣٤٨ و٥٤٣.

● قلت: هذا فى الطبعة الأوربية والصفحات السابقة إشارة إليها. وقد صحح إحسان عباس الاسم فى طبعته، وأورده دائمًا فى صورة حور، انظر: نفح ١/٤٧٥ و٢/٢٨٢ و٣/٢٦٨ و٥١٣ و٥١٧ و٤/١٧٧. (المترجم).

وانظر: الإحاطة، ويرد فيها فى صورة رحبة مؤمل فى ١/٤٤٩ و ٤٩٩ وفى صورة حوزة مؤمل فى ٣/٣٣٣. والعمرى، المسالك، ترجمة جوفروى – ديومبين ص ٢٢٧ رقم ٥ وفيه «قنطرة العود» يجب أن تقرأ «قنطرة الحور» وقد ترجمها سيكو دى لوثينا بدقة Puente del Alamo وسيمونيت، وصف غرناطة ص ٦٧، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، عام ١٩٣٥، العدد ٢ ص ٢٥٠ رقم ٥٥. وانظر فيما سبق ص ١٣٢رقم ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٦) انظر فيما سبق ص ١٢٣ من هذا الكتاب.

(٦٧) من السريع، نفح ٣/٢٤٢.

(٦٨) ابن لبون، لمح السحر ، مخطوطة الرباط رقم ١٠٣٣، الورقة ٨٦ وجه.

(٦٩) نفح ١/٤٧١ و٤٧٢ و ٥٨٤.

(٧٠) ثمة عدة مخطوطات من هذه الرسالة، وقد رجعنا إلى النسخة التى يملكها القسم الاجتماعى فى إدارة شئون المواطنين الأصليين فى المغرب.

الأبيات التي قالها ابن عمار حين أهدى خمرا وطبقا فيه تفاحتان ورمانتان، وكتب معها:

خـذوهـا مثلها استهـديتمـوهـا ... عـروسًـا لا تُـزف إلى اللئام
ودونـكـمُ بهـا ثـديَـيْ فـتـاةٍ ... أضفتُ إليهـا خـدَّيْ غـلام[٧١]

وأهدى أيضا تفّاحا وإجّاصا إلى بعض أصحابه وكتب معها:

خُذها كـا سفرتْ إليك خدودُ ... أو أوجستْ في راحتيـك نهودُ
دُررًا من التفـاح تنـثر بيننـا ... ولهـا بـأجيـاد الغصون عقـود
خـذْهـا ونـارُهـا الـنـداءَ فإنّها ... راحٌ دهـاهـا في الشتـاء جمود
وشفعتُ بـالإجـاص قصـا إنّـهُ ... شكـلُ الجمـال وحـدُّه المحدود
عـذرًا إليـك فـإنّما هي أوجـهٌ ... بيضٌ تقـارنها عيـونٌ سـود[٧٢]

وأهدى ابن زيدون هدية من تفاح للمعتضد أمير إشبيلية وكتب معها:

يـا مَـن تَـزيّـنـتِ الـريـا ... سـةُ حـين أُلـبس ثـوبهـا
ولــه يــدٌ يَئس الـغـمـا ... مُ مـن أن يُعـارضَ صَـوبهـا
جـاءتْـك جـامـدةَ المـدا ... مِ فـخـذْ عـليـهـا ذوبهـا[٧٣]

وكان تفاح شنترة، بلدة بالقرب من لشبونة، أعظم التفاح في شبه جزيرة الأندلس حجما، وقدّم فلاح من هذه البلدة بعضا منه للمعتمد أربعًا ما يقل الحامل على رأسه غيرها، ومحيط كل واحدة خمسة أشبار[٧٤]. وفرض تشبيه التفاح بالخد أو العكس، نفسه على الشعراء، لأن لون التفاح أحمر أو وردى، ولكن هناك نوعا منه أصفر اللون فاتحا، فشبهه أبو الحسن بن الحاج فى أبيات له كتبها مع تفاح أهداه بالوجنات تعانى آلام الفراق:

بعثتُ بهـا ولا آلـوك حـمـدًا ... هـديَّةَ ذى اصطناعٍ واعتـلاقِ
خـدودُ أحبَّـةٍ وافـيْنَ صَـبًّـا ... وعُـدنَ عـلى ارتمـاضٍ واحتـراق
فحمّـرَ بعضُهـا خجـلَ التلاقى ... وصفّـر بعضهـا وجـل الفـراق[٧٥]

ونفهم من أبياتٍ لأبى مروان عبد الملك بن رزين أمير السهلة (سهلة بنى رزين) أنه يشبّه التفاح الأصفر بالنهود:

وتعضّ تفّـاحَ النهـودِ شفـاهُنـا ... ونرى منى الأحداق بالأحداق[٧٦]

وأثارت ابن جُبير اليحصبى رائحة تفاح أهداه إليه صديق فوصفه، وغلبته طبيعته نحويا، فجرت فى

(٧١) من الوافر، القلائد ٨٧، ونفح ٣٦٤/٤.

(٧٢) من الكامل، الحلة ١٦٣/٢.

(٧٣) من الكامل، ابن زيدون، الديوان ٢٢١، ونفح ٩٤/٤.

(٧٤) نفح ١٦٤/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٦٧، ومصادر الهامش رقم ٣، ويمكن أن نضيف إليها: القلقشندى، صبح الأعشى ٢٢٣/٥.

(٧٥) من الوافر، القلائد ١٤٣.

(٧٦) من الكامل، القلائد ٥٦.

صوره كنايات لطيفة، فذكر ألفاظ سيبويه وتعنى رائحة التفاح، والخليل ويومئ بها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى، العالم اللغوى الشهير:

خليلٌ لم يزلْ قلبى قديمًا يميلُ بفرطِ صاغيةٍ إليهِ
أتانى مُقبِلًا والبشرُ يبدى وسائلَ برّةٍ كرُمتْ لديهِ
وجاء بعرْفِ تفاحٍ ذكىٍّ فقلت أتى الخليلُ بسيبويه
فأهدى من جناه بكلِّ شكلٍ يلوح جمالُ مُهديها عليْهِ[٧٧]

ونلحظ أن ابن عمار صوّر الإجّاص فى أحد أبياته التى سبقت بأنها «أوجه بيض تقارنها عيون سود». ويقول سليمان بن بطال الأندلسى:

بعثتُ ما يندرُ لكنّه فى وصفه الناعتُ لم يبْردِ
جيشًا من الزِّنجِ ولكنّه جيشٌ متى يلقى العِدا يُقْهَرِ
ينفِى لك الصفراءَ مهزومةً والزنج أعداءُ بنى الأصفرِ[٧٨]

وأضيف إلى الصور التى نجد فيها الرمّان مشبها بالنهود الصورة التالية، وهى لرمّانة مفتوحة، فقد شبّهها ابن سعد الخير الشاعر بأسد يكشف عن أسنانه المضمخة بالدم:

وساكنةٍ فى ظلالِ الغصونِ بروْضٍ يروقُك أفنانُهُ
تضاحكُ أترابَها فيه إذ غدا الجوُّ تدمعُ أجفانُهُ
كما فتحَ الليثُ فاه، وقَدْ تضرَّجَ بالدّم أسنانُه[٧٩]

وكان النوع الذى يحمل اسم الصُّفرى، أكثرها شهرة، وأحبّها ذوقا، كما قال مبعوث عبد الرحمن الداخل إلى أخته أم الأصبغ، التى مكثت فى سوريا، ليحضر من الشرق بذور النباتات المجهولة فى إسبانيا[٨٠].

وقد وصف شاعر مجهول ثمرة القراسيا. وهذا هو اسمها فى العربية القديمة، ويقال لها «حب الملوك» فى الغرب الإسلامى، طبقا لرواية المقّرى[٨١]، فى مرحلتين مختلفتين من نضجها:

---

(٧٧) من الوافر، نفح ٣٠٤/٤.

(٧٨) من السريع، النويرى، نهاية الأرب ١٣٦/١١. وعن تعبير «بنى الأصفر»، انظر ص ٢٥٧ فيما سيأتى من هذا الكتاب.

(٧٩) من المتقارب، نفح ٦٠٤/٣.

(٨٠) فى الرصافة من قرطبة أقلم الأمير الأموى هذه النباتات عن تاريخ الرمان السفرى انظر: نفح ٥٤٦/١ و ٢٨/٣، ودوزى، تكملة المعاجم العربية ٥٥٩/١، مادة رمان، والإشارات المذكورة هناك. والطجنارى فى زهر البستان ص ١٤٢ – ١٤٣، ودوزى وإنجلمان، معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية ص ٣٥٨. وقد وصف الشاعر أحمد بن فرج الجيانى، مؤلف كتاب الحدائق، والمتوفى نحو ٣٦٦ هـ = ٩٧٦، هذه الرمانة بالأبيات التالية:

ولا بسةٍ صدفًا أحمرًا أتتكَ وقد ملئت جوهرًا
كأنك فاتح حقّ لطيف تضمّن مرجانه الأحمرا
حبوبًا كمثل لِثات الحبيب رضابًا إذا شئت أو منظرا
وللسفرِ تُعزى وما سافرت فتشكو النّوى أو تقاسى السُّرى
بلى فارقت أيكها ناعما رطيبا وأغصانَها نُضّرا

وهى من المتقارب، نفح ٤٦٨/١. ويشير ابن قزمان إلى الرمان السفرى فى أحد أزجاله، انظر الزجل ١٩، الدور ٥.

(٨١) نفح ٦٠٤/٣.

ودوحٍ تهدَّلَ أشطانُهُ ... رعى الدهرُ من حسنه ما اشتهى
فما احمرَّ منه فصوصُ العقيقِ ... وما اسودَّ منه عيونُ المها[٨٢]

وشبّه عبد الله المُهَيْرِس الليمونة بجلجل من الفضة مكسو بالذهب الأصفر:

أهدى إليَّ بروْضةٍ ليمونةً ... وأشار بالتشبيه فعلَ لسيّد
فصمتُ حيناً ثم قلتُ: كجُلْجُلٍ ... من فضةٍ تعلوهُ صفرةُ عسجد[٨٣]

ويصف شاعر أندلسي السفرجل على النحو التالي:

سفرجلةٌ جمعتْ أربعًا ... ظمنَ لها كلَّ معنًى عجيب
صفاءَ النضارِ وطعمَ العُقارِ ... ولونَ المحبِّ وريحَ الحبيبِ[٨٤]

ونكتفي بهذه الأمثلة التي أوردناها لأن الأفكار نفسها تتكرر عند بقية الشعراء[٨٥]، وسنذكر مقطوعة من ثلاثة أبيات متقعرة غامضة، نظمها ابن صارّة عن السفرجل، وتعيد إلى أذهاننا النقاش الذي دار حول اللفظ، وتمدنا بمعلومات عن التصحيف الذي يمكن أن يصيبها، والمعنى الذي يعطيه، والمعتقدات الخاطئة السائدة عن هذه الفاكهة:

ما في السفرجلِ شيءٌ يُستطار به ... ولا تكنْ منه مطويًا على وَجَلِ
إني نظرتُ إلى تصحيف أحْرُفِهِ ... فانفكَّ منهنَّ تبٌّ تفرَّجَ لي
ولم أقلْ سفرٌ حلَّ البلاءُ به ... أوحلَّ منه وقوعُ الحادثِ الجللِ[٨٦]

وكان النارنج، وهو مرّ الثمرة، خشن القشرة، أحمر اللون قانيه، يتمتع بسمعة سيئة في إسبانيا على امتداد القرن الحادي عشر، ويعتقد الطجناري في كتابه «زهرة البستان» أن كل المآسي التي أصابت أمراء الطوائف في شبه الجزيرة، مثل: المقتدر بالله أمير سرقسطة، والمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، والقادر بن ذي النون أمير طليطلة، تعود إلى زراعة النارنج[٨٧]، وسهر باديس بن حبوس أمير غرناطة سرا على منع غرسه في إمارته، وحتى الطجناري نفسه تشاءم منها، وخاف قليلا من هذه الشجرة المهلكة، ولذلك وجد نفسه مضطرا أن يستعين بالله عليها، وهو يكتب لنا الفقرة السابقة. وقد جرؤ على أن يكتب عنها، أو يتعرض لها، لأنه كان في نهاية القرن الحادي عشر خلال حكم المرابطين، حيث خفت حدّة المعتقدات والخرافات المتعلقة بأشجار النارنج، والشاهد القوي على هذا أن شعراء ما بعد القرن الحادي عشر وصفوا هذه الشجرة بزهورها وثمارها كأي نبات عادي، وتميّز اثنان منهم في ذلك، وهما: ابن خفاجة وابن سارة:

---

(٨٢) من المتقارب، نفح ٦٠٤/٣.

(٨٣) من الكامل، نفح ٤٣١/٣، وهو تشبيه التقطه بعد ذلك بقليل الكتندي، في عصر ابن مردنيش، انظر نفح٤٩٨/٣.

(٨٤) من المتقارب، النويري، نهاية الأرب ١٧٠/١١.

(٨٥) في القرن العاشر نظم المصحفي الحاجب خصم المنصور بن أبي عامر مقطوعة من تسعة أبيات نجد فيها الملامح نفسها. انظر: المطمح ١٥٨، وعنه في نفح ٥٩٤/١، والحلة ٢٦١/١.

(٨٦) من البسيط، القلائد ٢٧٠، ولمعرفة تفسير التصحيفات المختلفة لكلمة سفرجل انظر: مجلة المستشرقين الألمان، المجلد ٦١ ص ٤٢٧، والمجلد ٦٥ ص ٧٣ و ٦٨١ ومابعدها، والمجلد ٦٨ ص ٢٧٥.

(٨٧) الطجناري، مخطوطة القسم الاجتماعي للمغرب ص ٢٠٢ - ٢٠٣. وانظر ايضًا تفسير ابن خلدون في المقدمة، طبعة كاترمير ٢٥٩/٢، وطبعة القاهرة ٣٧٣، وترجمة دي سلان ٢٠٤/٢ حيث يذكر خطأ النارنج على أنه شجرة الليمون.

يقول ابن خفاجة:

وميّاسةٍ تزهو وقد خلع الحيا عليها حُليّ حُمْرًا وأردية خضرا
يذوب بها ريقُ الغمامةِ فضّةً ويجمدُ فى أعطافها ذهبًا نضرا[٨٨]

وساق لنا ابن سارة مجموعة من الصور أقل تكلفا:

أجمرٌ على الأغصانِ أبدى نضارةً به أم خدودٌ أبرزتْها الهوادجُ
وقُضْبٌ تثنّت أم قدودٌ نواعم أعالجُ من وَجْدٍ بها ما أعالج
أرى شجرَ النارنجِ أبْدى لنا جنىً كقطرِ دموعٍ ضرّجتْها اللواعج
جوامدُ لو ذابت لكانتْ مُدامةً تصوغُ البرَى فيها الأكفُ النوارج
كُرات عقيق فى غصونِ زبرْجدٍ بكف نسيم الريحِ منها صوالج
نُقبِّلُها طورًا وطورا نشمُّها فهنّ خدودٌ بَيْننا ونوافج
نهى صَبْوتى ألّا تصيخَ إلى النهى عروسٌ من الدنيا عليها دَمالج[٨٩]

ونظم الأبيات التالية فيه أيضا:

يا ربَّ نارنْجةٍ يلهو النديمُ بها كأنّها كرةٌ من أحمرِ الذهب
أو جذْوةٍ حملتْها كفُ قابسها لكنها جذوةٌ معدومةُ اللهب[٩٠]

وانتشرت أشجار التين فى كل مكان، وأفضل أنواعها ما كان ينبت فى مالقة، وكان يضرب المثل بحلاوته، ويُصدّر حتى للهند والصين، ويقال: إنه ليس فى الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقى:

مالقةُ حُيِّيت يا تينَها الفُلْكُ من أجلِك يا تينها
نَهى طبيبى عنه فى علّتى ما لطبيبى عن حياتى نَهى[٩١]

وتمتّع تين إشبيلية بسمعة طيبة أيضا[٩٢]، ومثلها فى ذلك شرق الأندلس، وعن هذا يقول ابن خفاجة:

---

(٨٨) من الطويل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة، ص ٦٩، ونفح ٦٠٢/٣ - ٦٠٣.

(٨٩) من الطويل ،القلائد ٢٦٧، ونفح ٤١٤/٣ (البيتان ٥ و ٦ فقط).

(٩٠) من البسيط، القلائد ٢٦٧ - ٢٦٨، ونفح ٦٠٢/٣.

(٩١) من السريع، نفح ١٥١/١، وابن فضل الله العمرى، المسالك، ترجمة جودفروى - ديومبين ص ٢٤١، وترجمة أحمد زكى، فى تكريم كوديرة ص ٤٧٠، ورحلة ابن بطوطة، طبعة دفريمرى وسنجينيتى ٣٦٦/٤، وابن عبد المنعم الحميرى، الروض المعطار، النص العربى ١٧٩ والترجمة ٢١٥ - ٢١٦.

(٩٢) وذيّل الإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشى مقطوعة أبى الحجاج البلوى على النحو التالى:

وحمصُ لا تنسى لها تينها واذكر مع التين زياتينها

والبيت من السريع، انظر: نفح ١٥١/١.

ويذكر ابن ظافر فى كتابه البدائع ص ١٣ (وعنه فى نفح ٦٠٧/٣) أن المعتمد ركب لنزهة بظاهر إشبيلية فى جماعة من ندمائه، وخواص شعرائه فلما أبعد أخذ فى المسابقة بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقًا، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت، وبرزت منها ثمرة قد بلغت وتهت، فسدّد إليها عصا كانت فى يده فأصابها، وثبتت على أعلاها، فأطربه ما رأى، والتفت ليخبر به مَن لحقه من أصحابه، فرأى بن جاخ الصباغ أول من لحق به، فقال أجز: كأنها فوق العصا. فقال: هامة زنجى عصا.

أمّا واهتصار غُصونِ البَلَسْ ... وقد قلّصَ الصبحُ ذيلَ الغَلَسْ
ومال يسيلُ جنى سهدِهِ ... كما سال ريقُ حبيبٍ نَعسَ
لقد شاقَ من رائقٍ لِمُجْتَلى ... شَهِيٌّ الجَنى مُستطابَ النفس
فهمتُ له ببياضِ الثغورِ ... وأحببتُ فيه سوادَ اللَّعَس[٩٣]

ووصف شعراء الأندلس فى القرن الحادى عشر فواكه أخرى أيضا، مثل: العنب والخوخ والتوت ولكنهم اكتفوا فى وصفها بالتشبيهات التى كانت متداولة فى القرن العاشر.[٩٤]

ولم يرد أى وصف للنخيل أو البلح[٩٥]، وأبيات محمد بن شرف القيروانى، والد أبى الفضل جعفر بن شرف، عن البلح رَطبا وتمرا قيلت قبل هذا العصر وفقا لكل الاحتمالات، نظمها الشاعر قبل أن يصل إسبانيا، ولا تنطبق إلا على فواكه أفريقية[٩٦]

● ● ●

ونعرف أن الأدب نادرا ما يتوقف أمام الخضراوات أو يصفها، ومع ذلك نجد لها من الشعر الأندلسى نصيبا، ووصف الشعراء منها ما داعب خيالهم مثل: الفول والخرشوف والباذنجان والكرنب.

وقد أوحى طعم الفول أو الباـلاء إلى ابن شهيد بالأبيات التالية:

إنّ لآليكَ أحدثت صَلَفا ... فاتّخذت من زُمُرُّدٍ صدفا
تسكنُ ضَرّاتُها البحورُ وذي ... تسكن للحسْنِ روضةً أُنُفا
هامتْ بِلُحْفِ الجبالِ فاتخذتْ ... من سُندسٍ فى جِنانها لُحُفا
نثقبُها بالثغورِ من لُطُفٍ ... حَسْبُكَ منّا ببرٍّ مَن لَطُفا

....

أكلُ ظريفٍ وطَعْمُ ذى أدب ... والفولُ يهواهُ كلُّ مَن ظَرُفا[٩٧]

---

(٩٣) من المتقارب، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ١٤٤، ص ١٩١.

(٩٤) يقول إسماعيل بن بدر، شاعر أندلسى من القرن العاشر، يصف التوت:

تفاءلتُ بالتوت الـتأذ لزورةٍ ... وذاك قال - ما علمتَ - صدوقُ
فأهديته غضا حكى حدق المها ... له منظر بالحسن منه يروق
وبعض حكى الياقوتَ منه احراره ... وما مجّهُ للذائقين رحيق
فذا سَبَجٌ - فيما يرى - لاسوداده ... وذا - لاحرار اللون منه - عقيق

انظر: الحلة ٢٥٦/١. وأنشدت مهجة القرطبية صديقة ولادة بنت المستكفى بيتين بمناسبة خوخ أهداه إليها أحد معجبيها تضمنا تشبيهًا فاضحًا. انظر: نفح ٢٩٣/٢. ووصف ابن زيدون العنب، انظر ديوانه ص ١٥٢ و ٢٦٠.

(٩٥) انظر دراستنا: النخلة فى إسبانيا الإسلامية، فى تكريم جود فروى - ديومبين، ص ٢٢٥ - ٢٢٩، وفيما سيأتى من هذا الكتاب ص ١٨١الهامش رقم ١٢٢.

(٩٦) يشبهون الرطب بالتوابيت وبالعقيق تحشوا بالذهب المذاب، ويبدو النوى من خلال لحم البلح الشفاف كألسنة العصافير، ويشبهون التمر بمخازن (أى حقوق) العقيق محشـوة بالذهب النضار وبالزعفران يحتوى على العسل السائل وبأكواب العقار. انظر: النويرى، نهاية الأرب ١٢٨/١١، وتعبير «مخزن البللور» يوجد فى بيت من الشعر لابن الرومى، يصف «العنب الرازقى»، انظر: المسعودى، جواهر الذهب ٢٣٣/٨.

(٩٧) من المنسرح، أبو الوليد، البديع ١٥٦، وابن ظافر، بدائع البدائه ١٥٦، ونفح ٢٤٤/٣، وديوان ابن شهيد، القطعة ٤١، ص ١٢٧.

وعن حبة فول سوداء قشرتها شديدة يقول أبو الحسن بن على:

فَصٌّ من العاجِ حُقَّةُ سَبَجٍ   مُمتزجٌ بالجمالِ مُزْدَوِجُ(٩٨)

ووصف أين عمار الخرشوف على النحو التالى:

ونَبْتِ ماءٍ وتُرْبٍ جودُها أبدًا   لمن يُرجِّيه فى ثوبٍ من البَخَلِ
كأنها فى جمالٍ وامتناعٍ ذُرىً   خَوْدٌ من الرومِ فى دِرْعٍ من الأَسَلِ(٩٩)

ويصفها عبد الجليل بن وهبون فيقول:

وخَرْشَفَةٍ إنْ كنتَ ذا قُدرةٍ على   نفوذٍ إلى ذاك الجنىَ الحُلْو فانفذ
كأنَّ قد تُوِّجتْ منها ببيضةٍ   وقد وُضعتْ للصونِ فى جِلْد قُنفذ(١٠٠)

ومر ابن شهيد يوما بجوار سوق الخضراوات الطازجة، والتقى بأحد معارفه من الطوّافين، وبين يديه زنبيل ملآن خرشفا، فجعل يده فى لجام بغتة، وقال لا أتركك أو تصف الخرشف، فقد وصفه صاعد البغدادى فلم يقل شيئا، فقال له ابن شهيد: ويحك! أعلى مثل هذه الحال؟ قال: نعم، فارتجل:

هل أبصرتْ عيناكَ يا خليلى   قَنافِذًا تُباعُ فى زَنْبيلِ
من خَرْشفٍ مُعْتمِدٍ جَليلِ   ذى إِبَرٍ تنفذُ جِلْدَ الفيلِ
كأنها أنيابُ بنتِ الغولِ   لو نُخِستْ فى استِ امرئٍ ثقيل
لَقَفَزْتُهُ نحو أرضِ النيلِ   ليستْ تُرى طىَّ حَشا مِنديل
نُقْلُ(١٠١) السخيفِ المائنِ الجهولِ   وأكْلُ قومٍ تازحى العقول
أقسمتُ لا أُطْعِمْتُها أكيلى   ولا طعِمْتُها على شمولِ(١٠٢)

وقال شاعر مجهول يصف الباذنجان:

ومُسْتحسَنٍ عند الطعامِ مُدَحْرِجٍ   غذاهُ نميرُ الماءِ فى كلِّ بُستانِ
تطلَّعَ فى أعناقِه فكأنَّه   قلوبُ نعاجٍ فى مخاليب عُقبانِ(١٠٣)

● ● ●

لا يمكن أن ندعى أننا فى المقتطفات السابقة أتينا على كل الموضوعات الوصفية التى تناولها الشعراء الأسبان المسلمون، ولكننا نعتقد أننا أعطينا فكرة واضحة عن تنوّعها، وعن فهم أهل الأندلس لها.

---

(٩٨) من المنسرح، أبو الوليد، البديع ١٥٦.

(٩٩) من البسيط، الحلة ١٦٣/٢، وانظر فيما سيأتى ص ٢٥٤ من هذا الكتاب.

(١٠٠) من لطويل، القلائد ٢٤٥.

(١٠١) عن معنى هذه الكلمة انظر ص ٣٣٠ فيما سيأتى من هذا الكتاب.

(١٠٢) من لرجز، ابن ظافر، بدائع ٣٠٤، ونفح ٢٤٦/٣، والديوان، القطعة ٥٢ ص ١٤٠.

(١٠٣) من الطويل، نفح ٨٨/٤، الاسم والثمرة من أصل هندى، (انظر: ألفونس دى كاندول، أصول النباتات المزروعة ص ٢٢٩)، ولكن ثمرة البدنجان التى عرفتها إسبانيا فى العصور الوسطى، وأصلها من المشرق دون أدنى شك، تختلف عن البادنجان الذى أدخل فى أوربا بعد اكتشاف أمريكا، انظر: رينو و كولين، تحفة الأحباب، رقم ٢٣٥، ص ١٠٥ ورقم ٤٠٦ ص ١٧٥.

وتكشف هذه الأبيات عن لغة خاصة بالطبيعة، والبيت المثالى فى نظرهم هو الذى يستطيع أن يُصَوِّر فى كلمات قليلة حديقة نضرة، كل ما فيها متعة للشم والنظر. وإذا تبارى اثنان من الشعراء وحكم بينهما ناقد فسوف يمنح الجائزة لمن يرى منهما فى دموع الندى ابتسامة الزهور العطرة[١٠٤]، لأن الشعر عند هذه النفوس الرقيقة تصوير قبل أى شىء، ولكنه تصوير يستطيع أن يضفى الحياة على كل ما يلمسه. وإذا كان الشعر المشرقى يمى إلى تحجير كل هذه الأفكار، على نحو ما، حين يشبه الإنسان بالزهرة أو العصفور، والزهرة والعصفور بالأحجار والمعادن النفيسة[١٠٥]، فإن الشعر الاندلسى سلك فيما يبدو لنا طريقا معاكسا، وكان لنا معه ما يسمى بالتشبيه المقلوب، فهو يصعد من الحجارة إلى الزهرة، ومن الزهرة إلى الإنسان.

ورغم أن الزهرة تثير فى خيال الأندلسىّ فكرة اللآلىء البيضاء والياقوت والذهب والفضة، لكنها فى الوقت نفسه كثيرا ما توعز إليه أيضا بصور عناصرُها الشعرية مستمدة من الإنسان، رجلا أو امرأة: فاللون الأصفر يذكره بالحبيب البائس والأبيض بالمحبوبة الجامدة، والأحمر بوجنة العذراء، أو خجل المرأة الحيِّية والعطور التى تَضعف فى قلب النهار وتقوى بعد أن تغرب الشمس تذكّره بالفقهاء المنافقين، يتظاهرون بالصلاح نهارا، ويفسقون آناء الليل.

لقد أحب الأندلسيون حدائقهم بصدق، وتذوّقوا جمالها بعمق، وكان معظمهم ريفىّ الأصل، كما أشرنا، فتعلّموا منذ نعومة أظفارهم أن يتأملوا الطبيعة، وأن يقضوا يومهم بين أحضانها، وفيما بعد عندما رحلوا إلى المدن الكبيرة بحثا عن المجد، ظلوا يحتفظون فى ذواكرهم بالمعالم الأساسية للريف ثابتة فيها، قريبة إلى نفوسهم، كما لم يحتفظوا بأى شىء آخر مثلها، وان تذكرها أعظم شىء يثير أحاسيسهم. وأمام جمال الحدائق وروعة القصور الملكية، وفتنة باقات الزهور فى بيوت السراة، إنثالت أشعارهم، تتدفق بالصور البلاغية القوية الحية، وتساندها المشاهدات اللاواعية للواقع الذين يعيشون فيه.

ويدل شغفهم بقراءة كل الكتب الزراعية المتصلة بالحدائق على احتفاظهم بخصائصهم الريفية، وقد كانوا يقرأون بعناية كتاب النبات لأبى حنيفة الديثورى، المتوفى ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م[١٠٦]، وشرحه ابن أخت غانم، وهو شاعر عاش فى غرناطة والمرية، فى ستين مجلدا[١٠٧]، ويدرسون فى حماسة كل كتب فقه اللغة التى تكرس بين صفحاتها بابا أو أكثر للنبات[١٠٨].

---

(١٠٤) انظر رأى ناقد فى حالة شبيهة فى نفح ٤٢٧/٣.

(١٠٥) ينسب الأدباء العرب هذه التشبيهات إلى الفرس، ويردّدون، دون أن يملوا، وصف النرجس والورد، وينسبون الأولى إلى أنوشروان والثانية إلى أردشير. انظر: الشريشى شرح مقامات الحريرى ٣٢/١ و ١٥١، والحصرى، زهر الآداب ٥٢٢/١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام ٣٨٣/١، وانظر بخاصة: لوس ماسنيون، مناهج الإنجاز الفنى عن شعوب الإسلام، فى سوريا، عام ١٩٢١، ص ١٩، وهنرى ماسيه، الملاحم الفارسية: الفردوسى والملحمة الوطنية ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١٠٦) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٠٠٤/١، وكتب المادة بروكلمان.

(١٠٧) نفح ٢٩٧/٣، نقلا عن ابن اليسع فى كتابه المغرب، ودوزى، أبحاث، ط ١ ص ٩٩، والسيوطى، البغية ٩٧ و١٠٦، وابن خير، فهرسة، المكتبة العربية الإسبانية، المجـ ٩، ٣٧٦/١.

(١٠٨) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٣٦ - ٣٨.

وفى القرن الحادى عشر ظهرت لأول مرة فى إسبانيا أبحاث ومؤلفات تدرس الزراعة[١٠٩]، مثل كتب أبي خير الإشبيلي، وابن فاضل الأندلسى، وابن حجاج الإشبيلى، وتميز من بينهم بخاصة ابن وافد اللخمى، وابن بصّال و الطنجارى.

وقد عمل ابن وافد[١١٠]وابن بصّال[١١١]مديرين لحديقة نباتات المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، وهما اللذان رسما حدائق القصور والمنيات التى تكلمنا عنها فى فصل سابق ونفّذاها.

أما الطنجارى، وأشرنا من قبل إلى كتابه «زهر البستان ونزهة الأذهان» فقد أقام فى غرناطة على عهد بنى زيرى، وبعدهم تحت حكم المرابطين، وسنحت له الفرصة ليلقى العالم الزراعى ابن بصال فى إشبيلية[١١٢].

واشتهر العالم الجغرافى المعروف أبو عبيد البكرى[١١٣] كزراعى أيضا، وكتابه «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية[١١٤]» الذى ضاع ولم يصلنا، لقى رواجا وشهرة فى الأندلس تضارع شهرة كتابه «المسالك والممالك» ورواجه.

وقد واصل أهل الأندلس حبهم للزراعة والنبات، واستمر ذلك طويلا حتى بعد القرن الحادى عشر، ولا يزال قائما حتى اليوم فى الجانب الآخر من العدْوَة عند أهل المغرب.

وهذه الدراسات بالإضافة إلى ما شاهده الشعراء شخصيا أتاحت لهم استخدام تعبيرات فنية رقيقة فى وصفهم، وخلت قصائدهم من الألفاظ الخشنة، وأثروا المعجم الشعرى بكلمات جميلة مثل: تفتّح وخَلْف وخلوف وعود وغصن وقضيب وكمامة وكمائم وكمّ وأكمام ووُرق وأوراق وطاقة ونوّار ونواوير وقائم ووشيعة وحبّة وزهر ونوْر وتنوير.

وعندما يحدّد الشعراء الأوقات التى تتفتح فيها الأزهار يستخدمون أسماء الأشهر القمرية، والأشهر الشمسية فى صورتها العربية، فيقولون: كانون الأول والثانى بدل ديسمبر ويناير، وشباط بدل فبراير، وآذار بدل مارس، ونيسان بدل أبريل، وهو تقليد سورى جاء به الأمويون إلى الأندلس، ومنها انتقل إلى بقية الغرب الإسلامى وظلّ فيه.

---

(١٠٩) ربما كان مناسبا أن نعتبر تقويم قرطبة لعام ٩٦١ أول محاولة لتقنين قواعد الزراعة، ولكن هذا التقويم يتحدث كثيرا عن أشياء كثيرة علاقتها بالزراعة بمعناها الدقيق بعيدة جدا، وعن محتوى التقويم فى نصه العربى وترجمته اللاتينية انظر طبعة دوزى له فى ليدن عام ١٨٧٣، وديرو دى مال، المناخ المقارن لإيطاليا والأندلس قديما وحديثا ٣٢ - ٣٤ و٦٥ - ٨٤، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٧١ - ١٧٤.

(١١٠) انظر: ليكليرك، تاريخ الطب العربى ٥٤٥/١، وابن القفطى، تاريخ الحكماء، طبعة ليبير، ص ٢٢٥، ابن خلدون، فى مكتبة الإسكوريال العربية الإسبانية لميخائيل غزيرى ١٣١/٢، وميّاس فيّا كروسا، ترجمة لابن وافد، مجلة الأندلس عام ١٩٤٣، العدد ٢ ص ٢٨١ - ٣٣٢.

(١١١) انظر: نفح ١٥١/٣، نقلا عن ابن غالب فى فرحة الأنفس، وسيمونيت، المعجم ص ١٤٩ رقم ٥، وليرتشندى وسيمونيت، منتخبات عربية ص ٩٦ رقم ٨١، ومياس فياكروسا، ترجمة.. لابن بصال، مجلة الأندلس عام ١٩٤٨، العدد ٢ ص ٣٤٧ - ٤٣٠.

(١١٢) ابن الخطيب، الإحاطة ٢٠٧/٢، طبعة القاهرة، وسيمونيت المعجم ص ١٥٣ ورقم ٣، ومخطوطة مكتبة القسم الاجتماعى للمغرب فى اارباط رقم ٤٥٩ و٤٦٠.

(١١٣) فيما يتصل بحياته انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٦١٩/١، وكتب المادة كور.

(١١٤) ابن خير، فهرسة ٣٧٧/١، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٢٩٢ - ٣٠٦.

يقول ابن الحداد فى مدح المعتصم:

وماكيمينه الفراتُ ودجلةٌ وإن حكموا أنّ المريّة بغدانُ
به اعتدلتْ أزمانُها وهواؤها فكانونُ أيلولٌ وتموّز نيسانُ[١١٥]

وقد تغلغلت حياة الحقول فى أعماق الشعراء حتى أن الصور الريفية كانت تبرز دائما فى قصائدهم، لتعطى الأفكار شكلا تجسيديا، دقيق ومحدّدا.

يقول أبو محمد بن السِّيد البطليوسي فى مدح المستعين أمير سرقسطة:

وإنْ نصُرتْ عما لبستَ قريبًا تجاورَ درٌّ فى النظام ومرجان
معانٍ حكتْ غنْج الحسانِ كأننى بينّ حبيبٌ أو بَطَلْيوسٌ بغدان[١١٦]

ويقدم لنا ابن الخرّاز فى قصيدته التى يمدح بها المعتصم أمير المرية جدولا كاملا بالدورة الزراعية تقريبا يقول:

ومازلتُ أجنو منك والدهر ممْحِلٌ ولاثمرٌ يُجنى ولا الزرعُ يُحْصَدُ
ثمارَ أيادٍ دانياتٍ قطوفُها لأغصانها ظلٌّ علىَّ ممدَّد
يُرى جاريًا ماءُ المكارمِ تحتها وأطيارُ شكرى فوقهن تغرّد[١١٧]

واستمدّ أبو عامر بن المرابط صوره، وهو يشكو مواجعه الغرامية، من الظل والرى:

هنالك الرىُّ من دموعي يباطبئ والظلُّ من ضلوعى
فرِدْ معينًا وردْ ظليلًا غير مذودٍ ولا مَروع[١١٨]

ويميل بن عمار أكثر من أى شاعر آخر إلى التقاط صوره من زراعة الحقول يقول مادحا المعتضد المنتصر:

فإنْ يجنك الفتحُ ذاك الأصيل فمن غرسٍ تدبيرك ذاكَ الشجر[١١٩]

وكتب ابن عمار إلى المعتمد بن عباد، وكان قد غضب عليه أشد الغضب، قصيدة يسترضيه فيها، منها هذه الأبيات:

تأمّلتُ منكَ البدرَ فى ليلةِ الخطْبِ ونلتُ لديك الخصبَ فى زمن الجدبِ
ومازلتُ من نُعماكَ فى ظلٍّ لذّةٍ تذكّرنى أيّامُها زمنَ الحُبِّ
إذِ انعيشُ فى أفياءِ ظلِّكَ باردٌ فمن مرتعٍ خَصْبٍ إلى موردٍ عَذْبِ[١٢٠]

وكتب أبو عيسى بن لَبّون أمير مربيطر، إلى ابن عمار يعاتبه، فرد هذا عليه:

---

(١١٥) من الطويل، الذخيرة ٧٢٤/١، وانظر فيما سبق ص١٣٠ من هذا الكتاب.

(١١٦) من الطويل، نفح ٦٤٩/١.

(١١٧) من الطويل، نفح ٤١٣/٣، ودوزى، أبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٥٧، وانظر فيما سبق ص ٨٠ من هذا الكتاب

(١١٨) من البسيط، القلائد ٢٩٥.

(١١٩) من المتقارب، القلائد ٨٩.

(١٢٠) من الطويل، الحلة ١٣٩/٢، ريث عباد ٩٥/٢.

وأرد بذكرك من ثنائى روضةً غنّاءَ حاليةً بنورٍ ورادى
حتى تبين أن غرسك قد دنا لجنىً وزرعكَ قد أتى لحصاد[١٢١]

ويشير ابن زيدون إلى تلقيح النخل فيقول:

لَقحتَ نهى فاجْنِ غضَّ ثمارِهِ فالنخلُ يُحرِزُ مُجتناهُ الآبـر[١٢٢]

ويرى ابن روش، محمد بن مروان بن عبد العزيز، أن الصداقة الخادعة ليست إلا شجرة تثمر حنظلا مرا:

وكانٍ مِن أملى أنْ أقتنيك أخًا فأخفقَ الأملُ المأمولُ إخفاقاً
وقلتُ: غرسٌ من الإخوان أكلؤهُ حتى أرى منه إثمارًا وإيراقا
فكان لمّا زهتْ إزهاره ودنتْ أثمارُهُ حنظلاً مُرًّا لمن ذاقا[١٢٣]

ويقول ابن عبدون فى رائيته الشهيرة عن القَدَر:

تَسرُّ بالشىءِ لكنْ كى تُغرِّ بهِ كالإيمِ ثارَ إلى الجانى من الزَهَرِ[١٢٤]

ويقول أبو الفضل بن شرف بطريقة بلغت الغاية التى لا روعة بعدها: «التعليم فلاحة الأذهان، وليس كل أرض مُنبة»[١٢٥].

وقد بقى حب الأرض شديدا عند شعراء الأندلس، ومعظمهم من أصول ريفية، وأحيانا كان يبلغ بهم الأمر حد التعب والإرهاق من حياة المدينة، والسأم والملل من العبودية المذهبة فى القصور الملكية، فيطلبون من أمرائهم أن يسمحوالهم بالعودة إلى مسقط رءوسهم. وكان ذلك هو واقع ابنُ مقانا الأشبونى، فبعد أن أقام فى بلاط العبابدة فى إشبيلية، ثم عند بنى زيرى فى غرناطة، شعر بتفاهة حياة الملق فى المدينة، وسئم بريق القاعات الملكية لكاذب، وعاد إلى قريته القَبْداق[١٢٦]، على مقربة من شِنترة، ليقضى بقية حياته فى زراعة حقله. ويقص علينا ابن بسام فى كتابه «الذخيرة» حكاية رواها له مواطن للشاعر، التقى معه شيخا، وقد خف سمعه، وبيده مزبرة (أى منجل صغير)، «فلمّا رأيته ملتُ إليه ومال إلىّ، وأخذ بيدى، وجلسنا ننظر فى حرّاث يحرث بين يديه، فاستنشدته فأنشدنى ارتجالاً لوقته:

أيا عامرَ القبداقِ لا تخلُ من زرعٍ ومن بصلٍ نَزْرٍ وشىءٍ من القرْعِ
وإن كنتَ ذا عزمٍ فلابدَّ من رحىً سحابيّةٍ لا تستمدُّ من النبعِ
فما أرضُ قبذاقٍ وإنْ جاد عامُهـا بموفيَةٍ عشرين من حزَمِ الزرعِ
وإن أنجبتْ شيئا وزادتْ تواترتْ إليها خنازيرُ[١٢٧] المفاوزِ فى جَمعِ

(١٢١) من الطويل، القلائد ٩٤.

(١٢٢) من الكامل، الديوان ٥٠٨، البيت ١٣.

(١٢٣) من البسيط، الحلة ١٣٠/٢، والمطمح ١٧٦، ونفح ٥٤١/٣.

(١٢٤) المعجب ٧٦، وترجمته ص ٦٦، البيت ٨.

(١٢٥) القلائد ٢٥٣، ودوزى، أبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٥٢.

(١٢٦) هى التى تحمل اليوم اسم Alca bidache وليست بعيدة عن البحر، حول شنترة.

(١٢٧) سوف نعود إلى الحديث عن الخنازير الجبلية فى الفصل الخاص بالحيوانات.

بهـا قِلَّةٌ من كل خـير ونَفْعـةٍ ... عَقْلةٍ مـا تـدرى لـدىّ من السمْع
تـركتُ الملوكَ الخـالعـين بُـرودَهُمْ ... عـلىَّ وسيْرى فى المـواكبِ والنَّقـع
وأصبحتُ فى قبداقَ أحصدُ شوكَها ... عـزبرةٍ رعْشـاءَ نـابيـةِ القـطع
فـإن قيـلَ تهجـوهـا وأنتَ تُحبُّهـا ... عقل إنّ حُبَّ الخِلِّ من شرفِ الطبع
وحبُّ إبى بكـرِ المظفّـر[١٢٨] قـادنى ... إحسانُهُ حتى انصرفت إلى رَبْعى[١٢٩]

ما أبعدَنا عن ابن مُقانا متملِّق بنى حمود الذى تكلمنا عنه من قبل!.

إن الشاعر الريفي الأصيل لا يستطيع أن يعبر أفضل من هذه الأشعار البالغة البساطة، وإن تضمّنت شيئا من مكْر الريف، عن ارتباطه بمسقط رأسه، وحبه لما تنتجه أرضه من أشياء. وكان هذا تقليدا راسخا عند كل الإسبان المسلمين، مهما كان أصلهم البعيد الذى يرتدون إليه، عربا أو بربرا أو من المستعربين، لأنّ أرض إسبانيا شكلتْهم بطريقة بالـغة الأصالة، وصنعتْ منهم بعامةٍ فلاحين قبل أن يكونوا كتابا أو وزراء أو جنود[١٣٠].

---

(١٢٨) أبو بكر المظفر: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس، أمير بطليوس، ووالد المتوكل. توفى عام ٤٦٠ = ١٠٦٨. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٨٢/١، وكتب المادة سيليجسوهن، وابن بسام، الذخيرة ٦٤٠/٢، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ١٦٠.

(١٢٩) من الطويل، الذخيرة ٧٨٧/٢.

(١٣٠) تلقى المنصور كتابا من أحد عماله يذكر فيه القلب والتزحل، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها، فاهتم به، انظر: نفح ٩٨/٣، والمعجب ٣٤، وترجمته ٢٧١. وعندما حاصر النصارى فى شمال إسبانيا المنصور بن أبى عامر أثناء إحدى حملاته اختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العسكر. وتقدم ببناء الدور والمنازل، وبجمع آلات الحرث ونحوها، ليشعر العدو بأن إقامته دائمة: نفح ٥٩٥/١. وابنه عبد الملك المظفر أثناء حملته الشهيرة التى استولى فيها على حصن ممقصر من ثغر برشلونة عنوة، بعد أن دوّخ المقاطعة كلها، نادى فى المسلمين بعد النصر من أراد الإثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن هذا الحصن فمل، وله مع ذلك المنزل والمحراث، فرغب فى ذلك خلق عظيم واستقروا به. انظر ابن عذارى، البيان المغرب ٧/٣، وترجم النص ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ١٨٩، وانظر أيضا: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٥١. وأخيرا فإن وزيرا يدعى البكرى فى عصر الفتنة ذاع بين البربر فى قرطبة أن الخليفة المهدى قد عفا عنهم على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حراثين كما كانوا. ابن عذارى، البيان ٨٢/٣.

○ الفصل الرابع:

المياه جاريةً وراكدة

رأينا أن الأنهار كان لها السحر الأقوى بين الحقول التى كانت تطوّق المدن، واحتلت الجداول والغدران مكانًا ملحوظًا فى الشعر الأندلسي. وقد شبه ابن زيدون الماء الواقف تحت قنطرة مالك فى قرطبة، أو مُسنّاة مالك كما تُسمى أحيانًا، بالزجاج المصقول. وتلحظ أن الشعراء أجادوا بخاصة تصوير شفافية الماء حين يهب النسيم، ويلطّف الجو، ويموّج سطح الماء، وقد شبهه أبو محمد بن سفيان بخزارة الحياكة عند أسفل الثوب:

ومُضاضةٍ زَغْفٍ كأن قميصَها ... ماءُ الغدير جرت عليه الشمألُ[1]

ويقول أبو القاسم بن العطار:

وقد نسجتْ كفُّ النسيم مفاضةً ... عليه وما غيرُ الحُبابِ لها حلق[2]

ويقول فى بيت آخر:

هبّتْ الريح بالعشيِّ فحاكتْ ... زردًا للغدير ناهيكَ جُنّهْ[3]

وهذا التشبيه شائع فى الشعر العربى فى إسبانيا، ومن الطبيعى جدًا أن يحمل الشاعر على استخدام كلمة غدير، وقديمًا كانت تعنى بحيرة، فى معنى جانب الدرع أو الدلاص، ويمكن القول بعامة أن البحيرات لا تبدو إلا مرتبطة مع صورة هذا السلاح الدفاعى، مثيرة باختصار ذكريات حربية، يقول ابن بَقِى:

وفتيةٍ لبسوا الأدراعَ تحسبها ... سَلْخَ الأراقِم إلاّ أنها رَسَبُ
إذا الغديرُ كسا أعطافهم حَلَقًا ... طفا من البيض فى هاماتهم حَبَب[4]

ونستطيع أن نقدّم لهذا أمثلة كثيرة، ولكن نكتفى بأن نذكر هنا البيت الشهير الذى أنشد المعتمد سطره الأول، وأجازت إعتماد الرميكية شطره الثانى، فقد ارتجل المعتمد:

نشرَ الريحُ على الماء زَرَدْ

---

(١) من الكامل، القلائد ١٣٨.

(٢) من الطويل، القلائد ٢٨٥، النفح ١/٦٥١.

(٣) من الخفيف، القلائد ٢٨٥، النفح ١/٦٥١ و ٤/٣٠٢.

(٤) من البسيط، القلائد ٢٨١. وانظر فيما بعد ص ٣١٢ هامش رقم ١٦.

فأكملت اعتماد:

أَيُّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ[٥]

وكانت هناك البرك والحدائق الخاصة تزينها الحمامات وأحواض المياه، تتوسطها النواقير أو بدونها. وترك لنا ابن سارة وصفا لبركة مستطيلة الشكل، وُضعتْ فيها السلاحف:

لله مسجورةٌ في شكْلِ ناظرةٍ … من الأزاهر أهدابٌ لهــ وُطُفُ
فيهــ سلاحفُ ألهاني تناصها … ما ئها ولها من عَرْمضٍ لُحُف
تنافرُ الشطَّ إلا حين يحضرها … بردُ الشتاءِ فتستدلي وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها … جيشُ النصارى على أكتافها الحُجُف[٦]

وفي وصف المياه الفوّارة نجد الشعراء استغلوا فكرة التجمّد وهم يشيرون إلى النبيذ والكؤوس والفاكهة. يقول المعتمد:

ولربّما سلّتْ لنا من مائها … سيفًا وكان عن النواظرُ مُغْمدا
طَبَعَتْهُ لجيًّا فذابت صفحةٌ … منه ولو جمدت لكان مهنّدا[٧]

وثمة أشكال مثيرة، بالغة الغرابة، قام المهندسون الأندلسيون بتنفيذها في عرض المياه. ووصف لنا أندلسي مجهول شكلاً يدفع الماء مجوّفًا في شكل خباء، وتمزّقه الريح أحيانًا:

ومُطنّب للماء ما أوتادُه … لا نتائج فكْرِ طَبٍّ حاذق
لعبتْ به أيدي الصَّبا فكأنّها … يدي الصبابةِ بالفؤادِ العاشق[٨]

واندفاع المياه في البرك والنوافير يجعلنا نعتقد بوجود مستودعات لها في مستوى أعلى من مستوى الحدائق والبرك، أو بوجود شبكة من القنوات تحمل المياه من الجبال المجاورة إلى مسافة قريبة جدًا من النوافير التي تقذف بالمياه، كما أن النواعير التي تقوم برفع المياه يمكن أن تسمح بتحقيق النتائج نفسها، وإليك ما يمكن أن يثيره غدير يغذى الماء المندفع من النافورة في خيال شاعر، يقول أبو الوليد القسطلي:

وفوق الدوحةِ الغنّا غديرٌ … تلألأ صفحةً وسجا قرارا
إذا ما انصبَّ أزرقَ مستقيمًا … تدوّرَ في البحيرةِ فاستدارا
يجرّدهُ فمُ الأنبوبِ صَلْتًا … حسامًا ثم يُفْلته سوارا[٩]

---

(٥) من الرمل، والشطر الأول للمعتمد والثاني للرميكية، وينسبها الحجاري في المسهب إلى المعتمد وابن حمديس، وعنه نقلها نفح الطيب ٢٠١/٤، وفي «بنو عباد» ٢٢٥/٢ - ٢٢٦، والتيجاني، تحفة العروس، في «بنو عباد»، ١٥١/٢ - ١٥٢، وقد ترجم دوزى القصة وناقشها في بنو عباد ٢٤٠/٣ - ٢٤٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٦ - ٨٧. والبديعي في الصبح المنبي (على حاشية العكبري)، ٨٤/٢ - ٨٥ ينسب السطر الأول إلى المتنبي والثاني إلى ابن هانئ.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٧٣.

وفي حوض رشيق في أحد مجالس المنصور كانت توجد سلاحف أيضا، انظر أبيات أبي مروان عبد الملك بن دريس الخولاني في نفح الطيب ٥٣٠/١، وأخرى لصاعد البغدادي في النفح أيضا ٨٠/٢.

(٧) من الكامل، نفح ٦٠٧/٣، وابن ظافر، بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٧٣

(٨) من الكامل، نفح ٦٠١/٣.

(٩) من الوافر، نفح ٦٩/٤.

وقد أدخل الأمويون النواعيرَ التى ترفع المياه حين أسسوا دولتهم فى الأندلس[١٠]، لأنها لم تكن موجودة فى العصور التى سبقتهم رومانية أو قوطية، وقد أشرنا فيما سبق بمناسبة الحديث عن قرطبة إلى قصر الناعورة الذى أقامه أو أعدّه عبد الرحمن الناصر[١١]، وظل فيما يبدو قائمًا حتى القرن الثالث عشر تحت اسم «النواعير»[١٢]. وكانت الناعورة هى التى تنزح الماء من بئر وتدفع بها إلى الميضأة فى صحن المسجد الجامع فى قرطبة حتى عصر الحكم الثانى[١٣]. وقد روى لنا لسان الدين بن الخطيب اعتمادًا على «كتاب الفتوحات»، بمناسبة حديثه عن الوادى الكبير فى قرطبة، أن «نهر المجرّة من نهرها الفيّاض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لسق بها جارا، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مدارا، ورجع الحنين اشتياقًا إلى الحبيب الأول وادّكارًا»[١٤].

وإلى جانب ما تحمله الدواليب والنواعير من مياه نافعة، فإن دوران قواديسها وأنينها، كما نسمعه الآن من مثلها فى سورية والمغرب على ضفاف Orontes أو نهر فاس، كان يثير خيال الشعراء الأندلسيين، وقد وصف لنا محبوب النحوى، وعاش فى آخر القرن الحادى عشر وأول القرن الذى يليه، ناعورة على النحو التالى:

وذاتِ حنينٍ ما تغيضُ جفونُها ... من اللَّجَجِ الخضْرِ الصوافى على شَطِّ
وتبكى فتُحيِى من دموع عيونِها ... لآلى رياضٍ بالأزاهيرِ فى بُسْط
فمِن حمرٍ قانٍ وأصفرَ فاقعٍ ... وأزهرَ مبيضٍ وأدكنَ مُشْمَط
كأنّ ظروفَ الماءِ من فوق مَتْنها ... لآلِى جمانٍ قد نُظِمنَ على قُرط[١٥]

ويقول أبو تمام غالب بن تمام الحجام عن دولاب:

ياحُسْنَ ما نظروا من الدولابِ ... والغيْمُ يحسدُهُ لدى التسكاب
تشْدوا فيطربنا تردُّ شدْوِها ... فكأنما أخذته عن زرياب[١٦]
وإذا الظلام أتى تشوّق صوتها ... فكأنما داود فى المحراب[١٧]

لقد أتيحت لنا الفرصة من قبل لنتحدث عن الدُّولاب الذى كان يروى منية المأمون فى طليطلة.

---

(١٠) انظر حول هذا الموضوع: ج. س. كولان، الناعورة المغربية وآلات الرى فى العالم العربى، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، العدد ١ عام ١٩٣٢، الصفحات ٣٦ و ٤١ و ٤٤ و ٤٥، ومقال أصل النواعير فى فاس، فى هيسبيريس، المجلد ١٦، العددان ١ و ٢ عام ١٩٣٣، ص ١٥٦ – ١٥٧.

(١١) انظر فيما سبق ص ١١٩ القناة التى كانت تحمل الماء إلى هذا القصر احتفل بافتتاحها فى عام ٣٢٩ أو ٣٣٠ هـ = ٩٤١ أو ٩٤٢ م، انظر نفح ٥٦٤/١.

(١٢) انظر فى النفح ٤٧٨/١ زجل قاسم بن عبود الرياحى.

(١٣) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢١٨.

(١٤) أعمال الأعلام ١٤٦.

(١٥) من الطويل، نفح ٣٣١/٣ البدائع ٣٥٩.

(١٦) عن هذا المغنى الشهير انظر فيما سبق ص ٤٦.

(١٧) من الكامل، الذخيرة ٨٣٣/٣، وعن المحراب أو قاعة داود راجع: القرآن الكريم، سورة ص، الآيات ٢٠ – ٢١، وابن زيدون، الديوان ص ٤٩٦ القصيدة القافية الشهيرة، وأيضا كانت هناك دواليب ونواعير فى ميورقة فى القرن الحادى عشر، انظر: العذرى فى كتاب القزوينى، آثار البلاد ص ٣٨١.

وأطلق اسمه على القاعة العظمى فى مقر الإمارة فكانت تسمى «مجلس الناعورة»، وكان فى قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة يقذف الماء، ويتغذى بدولاب[١٨]. وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر وصف شعراء الأندلس أيضًا الدواليب الرافعة، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا أزيد من تكرار أفكار زملائهم وصورهم فى القرن الذى سبق، وباختصار لم ير الشعراء العرب فى الدولاب المائى غير متعة الغناء المطرب، ولكنهم عندما تغنوا به أظهروا بوضوح قدرة الماء المخصبة، والتى بدونها يصبح الماء مادة بلا فائدة سواء كان فى غوائر العيون أم فى مجرى الأنهار.

● ● ●

المياه الجارية من أنهار وجداول وبرك وقنوات، بما تبعثه من حياة ألهمت شعراء الأندلس صورا معيّنة، فقد شبهوها بالزواحف كبيرة أو صغيرة. فالمعتصم بن صمادح أمير المرية يقعد على موضع يتداخل فيه الماء، فى مجلسه بالصمادحية، ويتلوى فى مناحيه، والمعتصم منشرح النفس فيقول:

انظرْ إلى حسن هذا الماءِ فى صَبَبهْ ... كأنه أرقمٌ قد جدَّ فى هَرَبِهْ[١٩]

وحسام الدولة ابن رزين يُشبه المياه تجرى بين الخمائل وأشجار الحدائق بالمبرد حين تهزّها الريح فتتموج، وبالسيف الصقيل حين تسكن صافية:

إذا ما انسكابِ الماءِ عاينتَ خلْقَهُ ... وقد كسرَتْه راحةُ الريحِ مِبرَدَا
وإنْ سكنتْ عنه حسبْتَ صفاءَه ... حساما صقيلًا صافِىَ المتْنِ جُرِّدًا[٢٠]

ووشوشة المياه فى غدير[٢١] الحديقة، تندفع من أفواه الأسود، تذكر أبا الحسن بن هارون بزئيرها:

وحديقةٍ شرقتْ بِعدُّ نميرها ... يحكى صفاءَ الجوِّ صفوُ غديرها
تجرى المياهَ بها أسودُ أحكمتْ ... مِن خالص العقيانِ فى تصويرها
فكأنّها أسدُ الشرى فى شكلها ... وكأنَّ وقعَ الماءِ صوتَ زئيرها[٢٢]

وعندما يكون أكثر ضعفا يشبه أنين العاشق يعانى قسوة الهجر:

شربنا على ماءٍ كأنَّ خريره ... بكاءُ محبٍ بان عنه حبيبُه[٢٣]

وبمناسبة الأنهار والجداول نعرض من جديد لبعض الصور والتشبيهات التى تتخذ مادتها من البرك والجداول يقول ابن الحداد:

---

(١٨) انظر أبيات ابن الملح فى نفح الطيب ٣٦٣/٤، وص ٢٩٧ من هذا الكتاب.

(١٩) الحلة السيراء ٨٥/٢، والقلائد ٤٩، ونفح ٦٦٦/١ وص ١٣٠، الهامش رقم ١٢٣ من هذ الكتاب.

(٢٠) من الطويل، القلائد ٥٣، والذخيرة ١١٩/٣، والحلة السيراء ١١١/٢.

(٢١) جدير بالإشارة هنا أن استخدام كلمه غدير ليس بمعنى بحيرة أو بركة، وإنما بمعنى قناة. انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٢٠٢/٢، والقلمة: قناة أو جدول، وفى نفح الطيب ٣١٠/١، السطور ١ - ٣ توجد كلمة «غدران»، وفى ص ٣٣٢ (غدير)، وفى ص ٣٢٥ «غدران» وفى ١٤٦/٢، ص ٢٦١ (طبعة أوروبا)، وفى الذخيرة ق ١ مجلد ٢ ص ٣٦٩، طبعة القاهرة.

(٢٢) الحلة السيراء ٢٠/٢.

(٢٣) نفح ٦١٠/٣، والبدائع ٨١.

إذا صافحتْهُ الريحُ تصقلُ مَتْنَه وتصنعُ منه صُنْعَ داود فى السَّرد(٢٤)

ويقول أبو القاسم بن العطار:

مررْنا بشاطئِ النهرِ بين حدائقٍ بها حدقُ الأزهارِ تستوقفُ الحدق
وقد نسجتْ كفُ النسيم مفاضةً عليه، وما غيرُ الحبابِ لها حدق(٢٥)

وأحيانا يعطى وقع حبات المطر الكبيرة نفس الفكرة التى أعطتها الريح فى هبوبها، يقول سهل بن مالك:

يُبدِّد القطرُ فى أثنائه حلقًا فتنظم الريحُ منها فوقه زردًا(٢٦)

وإلى جانب الإحساس بالشكل اهتم بعض الشعراء بالصور البصرية كالألوان، وبخاصة لون أشعة الشمس عند الغروب، يقول ابن سارة:

انظر النهرَ فى رداء عروسٍ صبغتْهُ بزعفرانِ العشىّ
ثمَّ لمّا هبَّ النسيمُ عليهِ هزَّ عطفيْهِ فى دلاصِ الكمىِّ(٢٧)

وبقليل من التأمّل والبحث نجدُ أن ابن سارة يشبه تموجات المياه فى النهر براقصة تتستر وراء فستانها، وتظهر بعضا من أطرافها تارة:

والنهرُ قد رقّتْ غِلالةُ صبغِهِ وعليه من ذهبِ الأصيلِ طرازُ
تترقرقُ الأمواجُ فيه كأنّها عُكَنُ الخصورِ تضمها الأعجازُ(٢٨)

وجعل ابن حمديس الجدول يشعر بالألم حين ينساب فوق الحصى:

ومُطَّرِدِ الأمواجِ يصقلُ متنَهُ صَبًّا أعلنتْ للعينِ ما فى ضميرهِ
جريحٌ بأطراف الحصى كلّما جرى عليها شكا أوجاعَهُ بخريرِهِ(٢٩)

كل هذه الأشعار يمكن أن تقال بلا تمييز عن كل المياه الجارية فى إسبانيا، ويمكن أيضا أن تقال عن كل أنهار العالم، ولكن ثمة أنهار محدّدة يتجدد وصفها عند شعراء الأندلس، وتغنوا بها أكثر من غيرها، ويمكن القول بأن الوادى الكبير أشهرها بينهم، وهو النهر الذى يروى عاصمتين كبيرتين: إشبيلية وقرطبة، وفى الجزء الأسفل من مجراه يتسع كما لو كان شعبة من بحر، وحيث يقوى الجزر والمد، فيتاح للسفن أن تصعد إلى عاصمة بنى عباد على الأقلّ.

وكان يوجد بين إشبيلية وقرطبة خط ملاحى يسمح، فيما يبدو، بقطع المسافة بين البلدين بأكثر

(٢٤) من الطويل، الذخيرة ٧٢٠/١.
(٢٥) من الطويل، القلائد ٢٨٥، نفح ٦٥١/١.
(٢٦) من البسيط، نفح ٦٠٠/٣.
(٢٧) من الخفيف، نفح ٦٠١/٣.
(٢٨) من الكامل، نفح ٦٠٠/٣، وهـ. ماسيه فى تكريم ر. باسيه، ٢٤٩/١.
(٢٩) من الطويل، الديوان طبعة شيريرللى، رقم ١١٤، ص ١٥٨، ونفح ٤٩٩/١، وهـ. ماسيه فى تكريم ر. باسيه، ٢٤٩/١ – ٢٥٠.

الوسائل لطفا، وثمة أبيات من الشعر أرسلها ابن عمير إلى المعتمد بن عباد حين كان هذا فى قرطبة تجعلنا نرجح، فى الحقيقة، أن هذه الخدمات، وقدم لنا الإدريسى قائمة كاملة بها ومتصلة فى القرن التالى[٣٠]، كانت توجد على أيام بنى عباد أيضا

إنْ شئتَ فى البحرِ فاركبْ ظهر سابحةٍ   أو شئتَ فى البرِّ فاركبْ ظهرَ طيّارِ
حتى تحلَّ وحفظُ اللهِ يكلؤنا   ساحاتِ قصرك واتركنى لى دارى[٣١]

وهناك شاعران تميّزا بخاصة فى وصف الوادى الكبير عند إشبيلية، بشواطئه تلفها الأنسام، وهما: أبو القاسم بن العطار وابن اللبانة. يقول أولهما فى شىء من التحذلق:

رَكبْنا على اسمِ اللهِ نهرًا[٣٢] كأنّه   حُبابٌ على عِطفيْهِ وَشْىُ حَبابِ
وإلّا حسامٌ جالَ فيه فرندُهُ   له من مديدِ الظلِّ أىّ قرابِ[٣٣]

والثانى يبكى المعتمد، وانتهى به المطاف أسير فى أغمات، وفيها مات، ويشير إلى فتنة الوادى الكبير:

أرضٌ كأنّ على أقطارِهِ سُرُجًا   قد أوقدتهنّ فى الأذهانِ أنباتُ
وفوقَ شاطئ واديها رياضُ رُبًا   قد ظلّلتْها من الأنسامِ دوحاتُ
كأنّ واديَها سلكٌ بلَبَّتِها   وغايةُ الحسْنِ أسلاكٌ ولَبّاتُ
وربّما كنتُ أسمو للخليجِ بهِ   وفى الخليجِ لأهلِ الرّاحِ راحاتُ
وبالغروساتِ لا جفّتْ منابتُها   من النعيم غروساتٌ حيّاتُ[٣٤]

وهذه الأبيات الأخيرة تبين لنا مدى افتتان أهل إشبيلية بالوادى الكبير، ولم يكونوا يكتفون بالتنزّه على شواطئه الظليلة، وإنما على صفحة الماء أيضا، فى قوارب جميلة، ويبدو أن هذا اللون من التسلية كان ذوقا أندلسيا خالصا، وإسبانيًّا مسلمًا بعامة[٣٥]، ويمكن القول أن الأندلسيين وهم يبحثون فى الانزلاق

---

(٣٠) انظر: الإدريسى، وصف افريقيا وإسبانيا، النص العربى ص ٢٠٧ – ٢٠٨، والترجمة الفرنسية ص ٢٥٦، وانظر فيما سبق ص ١١٩ هامش رقم ٦١ من هذا الكتاب.

(٣١) من البسيط، الحلة ١٣٢/١ وفى «بنو عباد» ٨٨/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢، ٤٠/٣.

(٣٢) اسم النهر الوادى الكبير، وقد فصل بينهما الشاعر، الكبير وهو من أسماء الله الحسنى، والوادى ومعناها فى لغة الأندلس: النهر، واستخدم هذا اللفظ الأخير.

(٣٣) من الطويل، القلائد ص ٢٨٤.

(٣٤) من البسيط، القلائد ص ٣٠ الأبيات ٢٢ و ٢٤ و ٢٥ ، ٢٩ و ٣٠، وفى بنو عباد ٧٠/١، والترجمة ص ١٦٣ – ١٦٤، ونجد لهذه الأبيات صدى فى أزجال ابن قزمان، الديوان القطعة رقم ٢ ص ٦٧ – ٦٨ و ٣٧٩ – ٣٨٠. ونجد فى مقدمة ابن خلدون وصفا لمجلس ضم خمسة من الوشاحين فوق الماء فى إشبيلية: نص كاترمير ٤٠٥/٣ – ٤٠٧، طبعة القاهرة ٥٤٨، وترجمة سلان ٤٣٧ – ٤٣٨.

(٣٥) وقد احتفظ المغاربة فى الرباط وسلا، وهم فى جملتهم يتحدرون من أصول أندلسية، بهذا الذوق. انظر ل. برينو، البحر فى التقاليد والصناعة عند سكان الرباط وسلا الأصليين، ص ٩٨ – ٩ ، وهذه الجولات فى المراكب كان يطلق عليها اسم نزاهة. انظر ابن عبدون، رسالة فى الحسبة، هامش صفحة ٢٩٦، وابن قزمان، الديوان، القطعة ٢٨ ص ٦٧ و ٣٧٩، وابن خلدون، المقدمة، نص كاترمير ٤٠٥/٣، والقاهرة ٥٤٨، وترجمة سلان ٤٣٧/٣، وص ٣٦ هامش ١٠٠ من هذا الكتاب. وعن معنى مختلف لهذه الكلمات انظر: ف. مرسيه، اللهجة العربية المتكلمة فى تلمسان، ص ٢٠٠ رقم ٣، ودوزى ، ملحق المعاجم ٦٦٣/٢.

الخفيف واهتزاز القوارب الهادىء عن تهدئة انفعالاتهم أو غذاء أحلامهم، لم يكونوا مقلّدين للمشارقة، وعندما أطلق المنصور العظيم على زورقه اسم الزّوّ[٣٦] لم يكن قد استورد من المشرق غير اللفظ. أما العادة فكانت توجد فى إسبانيا من أزمنة بعيدة خلت، ويمكن القول إنها ربما تعود إلى العصر الرومانى، وتضم المختارات الشعرية صفحات لا تحصى تبعث هذه المشاهد نهارية أو ليلية، ولو أنها كانت تتم فى الليل غالبا، ويقوم بها عادة الأمراء رفقة أصدقائهم الحميمين، وهم دائما من الرجال الذين يتميزون بالذكاء العالى، وأحيانا كان الشعراء هم الذين يدفعونهم إلى المغامرة ليلا، ويحملون معهم فانوسا، فقد يقع الأصطدام بين القوارب المختلفة، وشموعًا مضاءة، تنعكس أشعتها على اللجة، فتأخذ شكل قزح مع تموّج الماء، ويشير إلى ذلك عبد الجليل بن وهبون حين يقول:

كـأنمـا الشمـعتـان إذ سَـمتـا ... خَـدّا غـلامٍ مُحسَّـنِ الغَـيَـدِ
وفى حشـا النهـرِ من شعـاعهـا ... طريقُ نارِ الهوى إلى كبدى[٣٧]

ونزهة فى قارب شراعى مع مغرب الشمس أفضل من غيرها، وأكثر بهجة، عند آخرين، يقول ابن سارة وقد ركب «مع أصحاب له فى نهر إشبيلية فى عشية سال أصيلها على لُجين الماء عقيانًا، وطارت زواريقها فى سماء النهر عقبانا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سرورا وأعكانا، فى زورق يجول جولان الطّرف، ويسودّ اسوداد الطّرف»:

تـأمّـلْ حـالَنـا والجـوُّ طَلْقٌ ... محيّـاهُ وقـد طفـلَ المسـاءُ
وقد جالَت بنـا عذراءُ حبلى ... تجاذبُ مِرْطَهَا ريحٌ رخـاءُ[٣٨]
بنهـرٍ كـالسجنْجَـلِ كـوثـريٌّ ... تُعبِّسُ وجههـا فيه السمـاءُ[٣٩]

ولم يكن الوادى الكبير النهر الوحيد فى إسبانيا الذى يمكن أن يقدم مثل تلك المشاهد نهارا وليلًا، فقد كان نهر الإبْر كذلك فى عصر المستعين بالله، ويأخذ فى بعض فصول العام شكلًا ألقا غير مألوف، وبخاصة فى اللحظة التى تتكاثر فيها الأسماك، وقد وصف لنا الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداى شعرا حفلة صيد شارك فيها الأمير ورجال البلاط المقربون، وقدم لنا ابن خاقان الذى أورد الأبيات الوصف التالى مدخلًا لها:

«ركب المستعين بالله يوما نهر سر قسطة يريد طِرادَ لذّته، وارتياد نزهته، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبّته، واجتمع له مِن أصحابه، مَن اختصه لاستصحابه، وفيهم أبو الفضل مشاهدا لانفراجهم، سالكا لمناهجهم، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه، ماراق مَن

---

(٣٦) هذا الاسم أطلقه من الخلفاء العباسيين المعتصم، المتوفى ٢٢٧ هـ = ٨٤٢ م، والتوكل، المتوفى ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م، على مركب لها للنزهة فوق مياه الفرات، انظر: دوزى، ملحق المعاجم ٦١٠/١، ومتز النهضة ٤٥٧، وترجمة فيلا ٥٧٦، وعن المنصور ومركبه الزو انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٨٠.

(٣٧) من المنسرح، القلائد ٢٤٣، وعنه فى النفح ٦٥٧/١.

(٣٨) شبه المركب بسبب شراعها بفتاة حبلى، لأنها تحمل فى جوفها مخلوقات إنسانية، ومع ذلك فهى عذراء، لأنها لم تستطع الزواج.

(٣٩) من الوافر، نفح ٣١٨/٣.

خَضر، وفاق حسنُه الروضَ الأنضر، والزوارقُ قد حفّت به، والتفتْ بجوانبه، ونغمات الأوتار تحبس السائر عن عدوه، وتخرس الطائر المفصح بشدوه، والسمك تثيرها المكايد، وتغوص إليها الصايد، فتبرز منها للعين، قُضبانُ درٍّ أو سبائك لجين، والراح لايطمس لها لمع، ولايبخس منها بصر ولا سمع، والدهر قد غضّت صروفه، واقتص من تكره معروفه، فقال أبو الفضل:

لله يـومٌ أنيقٌ واضـحُ الـغُـررِ ... منضضُ مُذْهَبُ الآصالِ والبُكَرِ
كـأنما الـدهرُ لمّا ساءَ أعتبنـا ... فيـه بعُتْبى وأبدى صَفْحَ معتذر
نسيرُ فى زورقٍ حفَّ السفينُ به ... مِن جـانبيـه بمنـظوم ومُنتـثر
مدَّ الشراعُ بهِ نشرًا على مَلِكٍ ... بذَّ الأوائلَ فى أيّامه الأُخَـر
هو الإمامُ الهمام المستعينُ حَوى ... عَلياءَ مؤتمن فى هدْىِ مقتدر[٤٠]
تحوى السفينة منه آيةً عجبًا ... بحرٌ تجمّعَ حتى صار فى نَهر
تُثارُ من قعره النينانُ مصعدَةً ... صيْدًا كما ظفرَ الغوّاص بالدُّرر
وللنـدامى بـه عَبٌّ ومُـرتشفٌ ... كالريق يَعْذُبُ فى وِرْدٍ وفى صَدَر
والشَّرْب فى ودِّ مولى خلقُه زَهَرٌ ... يـكو وبهجته أبهى من القمر[٤١]

وبمناسبة المتنزهات والنزهات والمنيات التى كانت تحيطُ بالمدن الكبرى، من المناسب أن نتحدث عن الأنهار والجداول التى يتواعد رفقهء المرح والبهجة على قضاء لحظات لطيفة عندها، ويكفينا أن نذكر الوادى الكبير، والقنطرة المقامة عليه عند قرطبة، ونهر سلب الذى يروى شَنتبوس أيضًا، مسقط رأس الشاعر ابن عمار، وثمة مجرى ماء يدهشنا إلّا نجد له ذكرا هنا، وهو نهر شُقَر، وقد تبارى كل شعراء جزيرة شقر، أو الجزيرة فحسب، فى التغنى به، ونكتفى هنا بوصف ابن خفاجة له، وهو أشعرهم جميعًا:

لله نهرٌ سـال فى بـطحـاء ... أشهَى ورودا مِن لَمى الحسناءِ
متعـطّفٌ مثـلَ السوارِ كـأنّـه ... والـزهـرُ يكنـفُـه مَجَـرُّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قرصًا مُفرغًا ... من فضّةٍ فى بُردةٍ خضـراء[٤٢]
وغدتْ تحض به الغصونُ كأنّها ... هُـدْبٌ تحض بمقـلةٍ زرقـاء
ولـطالَمـا عـاطيتُ فيـه مُدامـةً ... صفـراء تخضبُ أيـدىَ الندمـاء
والريحُ تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهبُ الأصيل على لجين الماء[٤٣]

ومع ذلك، فهذه الأنهار الإسبانية التى فتنت سكان المدن، يمكن أن تكون لها يقظات مرعبة، ولهذا لم يصف شعراء القرن الحادى عشر مياه الأنهار الهادئة، برغبونها للمتعة فحسب، وإنّما نجدهم

---

(٤٠) يقدم الشاعر فى هذا البيت نسب أمير سرقسطة الذى ينتمى إلى أسرة بنى هود.

(٤١) من البسيط، القلائد ١٨٥ – ١٨٦، وعنه فى نفح ٦٤٢/١، وابن ظافر، البدائع ص ٣٦٧، ونقل النفح رواية البدائع أيضا جـ ٣ ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٤٢) لا يبدو أن نص البيت قد أصابه تحريف، ومع ذلك لا نعرف الكلمة التى يمكن أن تحل مكان كلمة «ترص»، وفى دراسة النفح بدلا منها كلمة «فرد»، ولا أراها مرضية.

(٤٣) من الكامل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢٩٠، ص ٣٥٦ والشقندى فى «رسالة فى فضائل الأندلس»، فى نفح الطيب ٢٠١/٣، وفى ترجمة غرسيه غومث للرسالة ص ٧٢ – ٧٣، والنويرى نهاية الأرب، جـ ١ ص ٢٧٢، ط ٢، الأبيات ١ و ٤ و ٦.

أحيانًا يذكرون الأنهار الهائجة تفيض مندفعة عقب الأمطار الغزيرة، وتكتسح فى طريقها كلَّ ما تلقي، وقد عانت بلنسية من فيضان فى ٤٨١ هـ = اكتوبر ١٠٨٨ م، وأغرق برج القنطرة نفسه،[٤٤] وعانت مرسية أيضًا أضرارًا كبيرة من الفيضانات فى عصر أبي عبد الرحمن بن طاهر[٤٥]، ونظن أن نهر شقر نفسه لابد أن يكون أثار مخاوف جادة فيمن يقيمون حوله، فى موسم الأمطار الغزيرة، وبخاصة فى منطقة الجزيرة، وقد صور لنا ابن خفاجة بعض هذه الفيضانات:

ألَا طَـمَّ بـحـرٌ أتِيٌّ طَـمَا　　وجـدَّ انـكـفـاءُ سـماءٍ تجـودْ
فـأهـوْت تخـرُّ هـنـاك البِنَى　　كـما تـتلقَّى الملوكَ الـوفـود
ومـالتْ كـأنَّ عليـهـا صـلاةً　　فبعضٌ ركـوعٌ وبعضٌ سجود[٤٦]

(٤٤) انظر كتاب الاكتفاء، طبعة المعهد المصرى فى مدريد ص ٩٨ - ٩٩ وفى «بنو عباد» ٢٤/٢.
(٤٥) انظر القلائد، ص ٦٢ - ٦٣.
(٤٦) بحر المتقارب، الديوان، القطعة ٢٤١، ص ٣٠٨، وانظر أيضا القطعة رقم ٢٤٠ ص ٣٠٧.

○ الفصل الخامس:

البحر والسفن

ليست إسبانيا بلد المدن الكبيرة والوديان والجبال والحدائق والبساتين فحسب، وإنما أيضا بلد ساحلي لا يتصل ببقية دار الإسلام إلاّ عن طريق البحر. وحين يقول المقّري:

ثلاثةٌ ليس لها أمانٌ البحرُ والسلطانُ والزمانُ[1]

فإنما يعبّر في قوله هذا عن مشاعر الأغلبية من المسلمين على الأقل فيما يتصل بالبحر. بعامة لم يصف الشعراء البحر إلاّ ليبينوا أخطاره كلها، وابن حمديس الذي قطع مسافات كبيرة من صقلية إلى إسبانيا، ومن إسبانيا إلى أفريقيا، لم يذكر لنا من رحلاته سوى الغثيان الذي أصابه، والمخاطر التي تعرض لها المسافرون:

لا أركبُ البحر أخشى علىَّ منه المعاطبْ
طينٌ أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماء ذائب[2]

وفي أبيات أخرى نجده يحذر أصدقاءه من ركوب البحر:

أراكَ ركبْتَ في الأهوالِ بحرًا عظيمًا ليس يُؤمن من خطوبِهْ
تُسَيِّرُ فلكُهُ شرقًا وغربًا وتُدفع من صَباهُ إلى جَنوبِه
وأصعبُ من ركوبِ البحر عندي أمورٌ ألجأتْكَ إلى ركوبه[3]

وتلقى أبو الحسن الحصرى وهو في سبتة دعوة من إشبيلية، ولم ير واجبا عليه أن يستجيب لها رغم إلحاح المعتمد، وما كان عليه إلاّ أن يعبر مضيق جبل طارق، وكتب إليه:

أمرْتني بركوبِ البحرِ أقطعُه غيري لك الخيرُ فاخصُصه بذا الداءِ
ما أنت نوحٌ فتنْجيني سفينتُه ولا المسيحُ أنا أمشي على الماء[4]

ويقول أبو الوليد هشام الوقّشي، وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك:

لا أركبُ البحرَ ولو أننّي ضُربتُ فيه بالعصا فانْفلَقْ

---

(١) من السريع، نفح ٣٤/١، ودبجا، مقدمة الطبعة الأوربية ٢٧/١.

(٢) من المجتث، نفح ٢٧١/٤، وقد أخذ ابن حمديس هذه الفكرة من شاعر آخر مجهول:

إنّ ابن آدم طينٌ والبحر ماءٌ يذيبه
لولا الذي فيه يتلى ما جاز عندي ركوبه

من المجتث، نفح ٢٧١/٤.

(٣) من الوافر، نفح ٢٧١/٤.

(٤) من البسيط، الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان ٢١٤، والترجمة الفرنسية له لأحمد زكي ص ٥٧.

مـا إن رأتْ عَـيْـنىَ أمـواجَـهُ ۝ فى فِـرَقٍ إلاَّ تـنـاهـى الـفَـرَقْ[٥]

وعندما أثار المرابطون موجة من «التطهير» كرد فعل ضد تسيب ملوك الطوائف، اتخذ الشعراء من ذوى الميول الأخلاقية من أخطار البحر صورا وتشبيهات ليعطوا أفكارهم مزيدا من القوة، يقول أبو القاسم بن العطار:

الحبُّ تسبحُ فى أمـواجـه المهـجُ ۝ لـو مدَّ كفًا إلى الغرقى بـهِ الفرجُ
بحـرُ الهـوى غـرقت فيه سـواحله ۝ فهـل سمعتُمْ ببحـرٍ كلّه لجـجُ[٦]

وأوحى طوفان الحياة إلى أبى الفضل بن حسّان الغسانى بهذه الأبيات:

ألاَ إنّمـا الـدنيـا بحـارٌ تـلاطـمتْ ۝ فـما أكـثرَ الغـرقى عـلىَ الجنَبَـاتِ
وأكـثرُ مَن صـاحبتُ يُغـرق إلفَـهُ ۝ وقـلَّ فتىً يُـنجى مـن الغـمـراتِ[٧]

بَعْدَ ذلك لزمن الذى ما كاد العرب يخرجون فيه من شبه جزيرتهم، ويندفعون لفتح العالم حتى توقّفوا مدهوشين أمام أمواج بحر الروم، غير أن هذه الدهشة وهذا التردد لم يدم طويلا، فقد أعانهم المسلمون الجدد من مصريين وبيزنطيين ويونانيين وبربر، وكلهم ألفوا البحر واعتادوا السفر فيه لمسافات قريبة أو بعيدة، والتردّد على سواحله المختلفة، ومن ثم لم يتأخروا فى الانقضاض على البحر الأبيض المتوسط، والقرآن والحديث يدعوانهم إلى مواجهة هيجان الأمواج[٨].

وكان الأمويون فى الأندلس، وبخاصة فى عصر عبد الرحمن الناصر، يملكون أسطولا قويا يضم عددا كبيرا من السفن، ومصانع لبنائها فى المرية وقصر أبى دانس[٩]، ويقوده أمير البحر الشهير ابن رُماحس[١٠]، وكانت سفنه تحكم البحر الأبيض كله وتسيطر عليه، وتؤمّن النقل البحرى بين المرية

---

(٥) من السريع، نفح ٣٧٧/٣، وقد عبّر ابن العربى أيضًا نثرا عن الرعب الذى أثاره فيه عبور البحر، انظر نفح ٣١/٢، وهو نص منقول من «قانون التأويل» لابن العربى.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٨٧.

(٧) من البسيط، نفح ٣٢٩/٤، لا نستطيع أن نترك الموازنة بين هذه الأبيات والأمثلة الموجزة، وجاءت نثرا لشاعر من القرن الحادى عشر، وأشرنا إليه أكثر من مرة وهو أبو الفضل بن شرف «المتلبس بمال السلطان كالسفينة فى البحر إن أدخلت بعضه فى جوفها، أدخل جميعها فى جوفه». «والناقص الدنىّ لا يُبلغ لنفعه، إلاّ بوضعه، كهوجل السفينة لا يُنتفع بضبطه، إلاّ بعد الغاية فى حطه» القلائد ٢٥٢ – ٢٥٣، ونقلها وترجمها إلى الفرنسية دوزى فى كتابه أبحاث، ط ١ ص ٩٧ – ٩٨، والطبعة الثانية ٢٥٢/١، والملحق ص ٥٤.

(٨) انظر القرآن الكريم: سورة هود الآية ٤٣، وسورة إبراهيم الآية ٣٧، وسورة الإسراء الآية ٦٩، وسورة الشورى الآية ٣٢، وصحيح البخارى ٩٩/٢، وابن ماجه ٩٢/٢: «المسافرون فى البحر كالملوك على الأسرة»، وانظر أيضًا: ل. برينو، البحر فى التقاليد والصناعة عند مواطنى الرباط وسلا الأصليين، باريس ١٩٢١، ص ١ – ٣ و ٢٣٩ – ٢٤٢.

(٩) فى البرتغال، وتسمى اليوم قصر الملح Alcacer do Sal، انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٥٨، والإدريسى فى الترجمة الفرنسية ٢١١ – ٢١٩، والبيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٤/ ٣٩٤ – ٣١٧/ ٤٩٢.

(١٠) انظر: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٥/٢، وترجمة دى سلان ٤٠/٢، وطبعة بيروت ٢٥٣، بعة القاهرة ٢٢٠. وليفى بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ جـ ٢ ص ١٧٠، ١٧١، ١٩١، ١٩٣، ٢٣٢ الهامش رقم ١، وبخاصة صفحة ٢٦٢ والهامش رقم ١.

والإسكندرية، وهو العصر الذى يقول عنه ابن خلدون: «لم تظهر للنصرانية فيه ألواح»[١١]. وكان للفاطميين أيضاً أسطولهم الخاص بهم، وقد وصفه ابن هانى الأندلسى فى قصيدة شاعت وذاعت وطوّقت الآفاق[١٢]. ومع الرخاء الذى عمّ إسبانيا فى القرن العاشر، والأمن الذى ساد البحر الابيض المتوسط فى ذلك الوقت، بدأت قوافل المسلمين الذين يتجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج عن طريق البحر يتزايدون كل يوم، وإذا لم يصبح البحر مألوفا تماما لهم جميعا، لم يعد على الأقل يثير فيهم الخوف كما كان الحال قديما[١٣]. ومع سقوط الخلافة الأموية فى قرطبة، وقيام إمارات بطليوس وإشبيلية والمرية ودانية وبلنسية فإن هؤلاء تقاسموا فيما بينهم أسطول الأسرة الهاوية.

وفى الإمارات التى تقع على شاطئ البحر، حيث توجد المدن الكبيرة، لعبت السفن دورا هاما فى نقل التموين فى حالات الحصار البرى، وتهرب إذا عرضت لها نكبة. وحين تفتقد الطرق الأمان بسبب الحروب التى لا تنتهى بين ملوك الطوائف أخذوا يستخدمون سفنا صغيرة للانتقال من ميناء إلى آخر. وكان ابن دراج القسطلى الشاعر، فى بحثه عن نصير للآداب والعلوم إثر تفرق العمريين فى كل مكان، قد لحق بحرا بخيران الصقلبى أمير المرية، وأول قصيدة طويلة توجه بها إلى راعيه الجديد يمدحه، ضمّنها سبعة عشر بيتا، يصف فيها محنته فى ركوب البحر إليه مع بنيه عام ٤٠٧هـ = ١٠١٦م[١٤].

وعندما اجتمع المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لحثه على مساعدة الأندلسيين الذين يضغط عليهم النصارى، عبر المضيق على سفينة خاصة به، ووصف لنا أبوعبيد البكرى وعبدالجليل بن وهبون، رحلة الأمير البحرية فى قصائدهم الشعرية[١٥]. وحينما استولى المرابطون على إشبيلية قاموا بحرق شوانى المعتمد الراسية فى مياه الوادى الكبير[١٦]، ورحل الأمير عن إشبيلية بعد سقوط الأسرة العبادية مع جانب من أسرته على بعض السفن. ومازلنا نتذكر المشاهد المحزنة، والمواقف العصيبة، التى صاحبت هذه الرحلة، وأتاحت لابن اللّبانة الشاعر أن يصوّرها فى قصيدة من أروع قصائد الشعر، وتحتفظ بجمالها المأسوى حتى يومنا هذا، وأشرنا إليها وذكرناها فيما سبق[١٧].

---

(١١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٦/٢، وطبعة بيروت ٢٥٤، وترجمة دى سلان ٤٢/٢، وج مرسيه، ملاحظة عن الرباط فى بلاد البربر، فى تكريم رينيه باسيه ٤٠٤/٢، وفى الفصلة المستقلة ص ١٠.

(١٢) القصيدة من الطويل، نفح ٤/٦٠، والديوان، تحقيق زاهد على ص ٨١٨.

(١٣) وصف لنا الحاجب المصحفى من القرن العاشر عاصفة فى البحر، فى قصيدة من الطويل أوردها ابن الآبار فى الحلة السيراء ٢٦١/١، ومدح ابن دراج القسطلى المنصور بن أبى عامر عندما خص أسطول الوزير القوى بمقطوعة من أبيات ثمانية أطراه فيها، من الطويل، نفح ٨٧/٤، وانظر: بلاشير، حياة ابن دراج القسطلى وشعره، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، ص ١٠٤.

(١٤) من الطويل، أعمال الأعلام ٢١٢ – ٢١٥، ونفح ٤٤١/٣، والتمجروتى، النفحة المسكية، ترجمة كاستريز، ص ١٧، وهذه القصيدة تضمنت البيت الشهير، وما أكثر ما نشير إليه:

ألا هل إلى الدنيا معاد يهل لنا   سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

(١٥) انظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(١٦) المعجب طبعة القاهرة، تحقيق محمد سعيد العريان ط ١ ص ١٤٨، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٠ وفى تفسير كلمة شوانى انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٧٣٩/١، جودفروى – ديومبين فى: تكريم ر. باسيه ٢٩٤/٢ هامش رقم ٣، ر. برينشفيج، روايتان ... ص ٩١ رقم ١، وحبيب الزيات، مجلة المشرق، يولية – ديسمبر ١٩٤٩، ص ٣٤٦ – ٣٤٧

(١٧) انظر ص ٩٥ و٩٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

وكان المعتصم أمير المرية يحتفظ بأسطول له أيضا، ويقول عنه الفتح بن خاقان إنه «اشتغل بترميق أساطيله... ولم يزد على مراعاة أمر جواريه وفلكه»[١٨]. ووصف لنا ابن الحداد هذه السفن فى قصيدة وصلتنا فى جانب منها بفضل المقرى:

هام صَرْفُ الردى بهام الأعادى ... أنْ سمتْ نحوهم لها أجْيادُ
وتراءتْ بشرعِها كعيونٍ ... دأبُها مثلُ خائفيها سُهادُ
ذات هُدْبٍ من المجاذيف حالكٍ ... هُدْبَ باكٍ لدمعه إسعادُ
حُمَمٌ فوقَها من البيض نارٌ ... كلُّ من أرسلت عليه رمادُ
ومن الخطِّ فى يدىْ كلِّ درٍّ ... ألِفٌ خطُّها على البحر صادُ[١٩]

وقد وصف لنا أبو الحسن بن الحاج اللورقى رحيل عز الدولة بحرا هاربا عند دخول المرابطين المرية، فى قصيدة مخمّسة يرثى فيها ابن صمادح، ويندب الأندلس فى زمن الفتنة[٢٠].

ومع ذلك، علينا ألا نبالغ كثيرا فى القوة الحقيقية لهذه الأساطيل، لأن دائرة عملها كانت محدودة إلى حد كبير، وظل عبور غربى البحر الأبيض المتوسط يشكل خطرا جسيما للغاية، وبقيت سيادة البحر فى يد النصارى. وأبلغ النصوص تعبيرا عن هذا الواقع تركه لنا شاعر من صقلية يدعى أبو العرب مصعب الصقلى، ورفض أن يركب البحر إلى إشبيلية ليلحق بالمعتمد، رغم أن هذا عرض عليه خمس مئة دينار ذهبا، وكتب إليه:

لاتعجبنَّ لرأسى كيف شاب أسىً ... واعجب لأسود عينى كيف لم يشب
البحرُ للرومِ لاتجرى السفينُ به ... إلّا على غَرَرٍ والبرُّ للعرب[٢١]

ولكن أسطول أمراء دانية والجزائر الشرقية يحتل مكانة لا بأس بها، فالأساطيل التى خلّفها الأمويون وتقاسمها الآخرون ازدادت عددا، وحين استولى مجاهد على جزيرة سردينية كان أسطوله يتكون من مئة وعشرين سفينة[٢٢]، لأن امتلاك قوة بحرية فى مملكة هذه الجزر ضرورة حيوية وهامة، فهى لا تحرس مداخل الجزر بعناية ويقظة فحسب، وإنما تقوم أيضا بحملات من حين لآخر على شواطئ إيطاليا وفرنسا وقطلونية. وعندما لايكون الأسطول فى حملة ما فإنه يُبحر بين شواطئ شبه الجزيرة والجزائر الشرقية، أو يرسو للراحة فى الموانئ والخلجان العديدة المتناثرة بين شواطئ الجزر الحالية، وكان الأمير يقيم له مهرجانا كبيرا فى ٢٤ يونية[٢٣] من كل عام. ترى هل نحن بإزاء عادة تتكرر كل عام فى العصر نفسه؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عليه. والمعلومات الوحيدة التى لدينا عن الموضوع ندين بها لشاعر وهو: ابن اللبّانة، وينتمى أصلا فى دانية، وارتبط طويلا بالأمير مُبشر الصقلبى، وإليك ما يقول:

---

(١٨) القلائد ٤٧.

(١٩) من الخفيف، نفح ٥٦/٤، ويبدو أن البيت الرابع يشير إلى النار الإغريقية.

(٢٠) انظر: نفح ١٠٤/٤، والقلائد ص ٥٤، وجاءت فيه نثرا.

(٢١) من البسيط، ابن خلكان فى: الصفدى، نكت الهميان ٢١٤، ولابد أن أبا العرب تغلب على مخاوفه، لأننا سوف نلتقى به بعد قليل فى بلاط المعتمد، انظر فيما بعد، ص ٢٩٨ من هذا الكتاب

(٢٢) أعمال الأعلام ٢١٩.

(٢٣) عن لفظ «المهرجان» انظر فيما يلى ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

بُشرى بيوم المهرجانِ فإنّه ـــ يَرِمُّ عليه من احتفائِك رَوْنَقُ
طارت بنات الماءِ فيه وريشها ـــ ريش الغرابِ وغيرُ ذلك شوذق
وعلى الخليجِ كتيبةٌ جرّارةٌ ـــ مثل الخليجِ كلاهما يتدفق
وبنو الحروبِ على الجوريِّ التي ـــ تجري كما تجري الجيادُ السبَّق
ملأ الكماةُ ظهورَها وبطونَها ـــ فأتتْ كما يأتي السحابُ المغْدِق
خاضتْ غديرَ الماءِ سابحةً به ـــ فكأنما هي في سرابٍ أيْنق
عجبًا لها ما خلتُ قبل عِيانها ـــ أنّ يحملَ الأسْدَ الضواريَ زورق
هزّتْ مجاديفًا إليك كأنها ـــ أهدابُ عَيْنٍ للرقيب تحدِّق[٢٤]
وكأنها أقلامُ كاتبِ دولةٍ ـــ في عرض قرطاسٍ تخطُّ وتمشق[٢٥]

تظهر الأبيات التي ذكرناها أن الشعراء حين كانوا يبحثون عن صورهم لوصف السفن استمدوا معجمهم اللغوي الأكثر أهمية من اللغة التقنية البحرية. فالأسطول يتكون من وحدات كل واحدة منها تحمل بعامة اسم سفينة، وتجمع على سفن وسفائن وفلك، وثمة تعبير آخر أكثر شاعرية وهو: بنات الماء، ولا نلتقي بلفظ مركب[٢٦] أو قطعة[٢٧] إلا قليلا. وتسمى السفن حين تكون سريعة وتستخدم في المباراة «الجارية» أو «السابحة»[٢٨]، ويتم الإبحار القصير المدى عادة في زورق، ويطلق اسم «الشراع» على السفن التي تسير بالقلاع، و «المجداف» على التي تستخدمه، ويشبهون سرعة السفينة في سيرها بالحصان الأصيل أو الطائر، والحصان الأصيل أغر، أي أنه معلَّم بنجمة بيضاء في جبهته، أي غرة، ولكن التشبيه الأكثر ورودا هو استخدام صورة الطيور المعروفة بشدة بسط جناحيها وقوتها في الطيران، وتهمها في الملاحقة والانقضاض على الفريسة، وفي مقدمتها الغراب، وهو الطائر الأسود الذي لم يرجع إلى سفينة نوح. ولكن هنا أيضا الحراقة والفرقاطة، أو السفن ذات الصاريين ويرجع ذلك دون شك إلى أن أشرعتها ضاربة إلى اللون الرمادي فتختلط بالضباب والأمواج. عندما يكون الشراع كله من قماش أبيض لا تشبه بالنورس (أبو قردان) وإنما بالحمام، فإذا كان لونه رماديا فاتحا اتخذت الصورة البلاغية مادتها من حيور الصيد السريعة، وأمدت المعجم الشعري بألفاظ: شَوْذَق، أو شودق، وشاهين، وهو الصقر الأبيض، وأحيانا ورقاء. وأخيرا فإن السفينة الكبيرة ذات الأشرعة تشبه بالشواني.

وكان المخزن الذي يستمد منه الشعراء صورهم واحد لكل الشعراء تقريبا، فالقلاع تشبه الأجنحة

---

(٢٤) انظر فيما بعد ص ٣٦٥ من هذا الكتاب.
(٢٥) من الكامل المعجب في أخبار المترب ص ١٠٧، وترجمة فنيان له إلى الفرنسية ص ١٢٩.
(٢٦) يشبّه أبو عامر بن شهيد المركب بالأخفاف الموضوعة حول سجادة من اللبد:

ينظر من لبده لدينا ـــ بحر دم تحته يسبي
كأن أخفافنا عليه ـــ مراكب مالها دليي

من مخلع البسيط، نفح ٢٤٥/٣، وانظر أيضًا فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب أبيات البكري حيث يستخدم كلمة مركب.
(٢٧) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٩٦ وعن معنى هذه الكلمة انظر: دوزى ملحق المعاجم ٣٧٢/٢.
(٢٨) وتسمى أحيانًا «منشآت» وفي القرآن الكريم وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» سورة ص الآية ٢٤ وانظر فيما سبق ص ٩٦ من هذا الكتاب.

التى ترفرف، وأحيانا أخرى بالقلوب التى تخفق، والمقداف بالرموش، وثمة مفاجأة جميلة، فبعد كل التشبيهات التى جاءت متقاربة ، وتستقى من نبع واحد تقريبا، نلحظ أن البيت التالى من الشعر يكوّن لوحة جميلة:

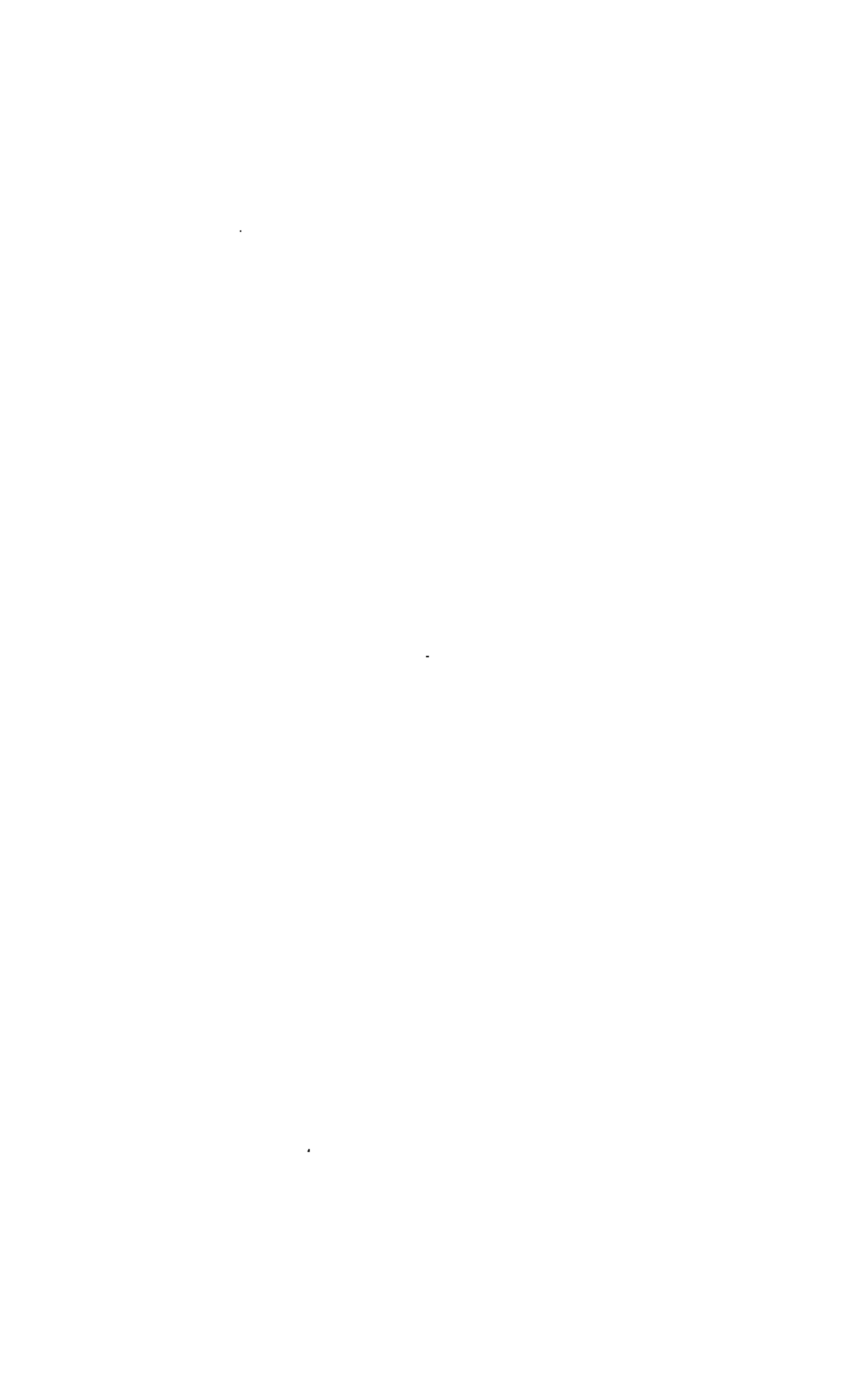
ورأيتُ فوق البحر بِرْ عًا فاقعًا من زعفرانِ[٢٩]

لقد شاهد يوسف الرمادى حقا، بطريقة تختلف عن الشعراء الذين سبقوه أكيداء أشعة الشمس تغوص فى أعماق البحر عند الأصيل، فوصفها لنا فى دقة، وروعة وجمال.

(٢٩) من الكامل، المطمح ٣١٦، وعنه فى النفح ٤/٣٧.



الموضوعات الثانوية



○ الفصـل الأول:

السماء والظواهر الطبيعية

ونحن نتابع الموضوعات التى التقطها شعراء الأندلس من الطبيعة المحيطة بهم، يجدر بنا أن نفسح مكانا للسماء، صافية أو تغطيها السحب، وانعكاس ذلك على الطبيعة تحتها، وأن نعطى اهتماما خاصا للكواكب والظواهر المناخية ذات الصلة الوطيدة بالمصير الإنسانى.

ويبدو أن صفاء منتصف النهار، والساعات الساطعة، لم تلهم شعراء الأندلس شيئا، ولا تصبح السماء موضوعا شعريا إلا بعد مغيب الشمس.

وقد شبّه أبو الحسين بن سراج أشعة الشمس لحظة الغروب بالزعفران الأحمر يتفتت مسكا على الغيطان:

والشمسُ تنفضُ زعفرانًا بالرُّبَى ... وتفتُّ مسكتَها على الغيطانِ[1]

وشبّهها أبو القاسم بن السقاط بالتبر المذاب:

ويوم لنا بالخَيْفِ راقَ أصيلُه ... كما راق تِبْرٌ للعيون مُذابُ[2]

● ● ●

ولكن، إذا كان الليل بخاصة مارس سحرا عظيما على الشعراء العرب، فلأن هناك ذوقا لا نستطيع تفسير مصدره بدقة. وثمة مختارات من «الليالى العربية» تتضمن الشعراء الأروع إبداعا والأشد تواضعا منذ بدء الشعر حتى يومنا هذا.

يمكن القول أن الليل شاعرى بطبيعته، فسرّ الظلام العميق، والضوء الكاشف ترسله النجوم، يثيران أحاسيس الشاعر وخياله، وفضلا عن ذلك، يجىء الليل دائما شريكا فى الذكريات الغرامية.

ويشبه الليل غالبا بملك زَنجى، يقول أبو عامر بن شُهيد:

وبِتّنا نراعى الليلَ لم يطوِ بُرْدَهُ ... ولم يجلُ شيبُ الصبحِ فى فَوْده وَخْطَا
تراه كملكِ الزَّنج من فرطِ كبرِهِ ... إذا رامَ مشْيًا فى تَبَخْتره أبْطا
مُطلًا على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ ... وقد جعل الجوْزاءَ فى أُذْنِه قُرْطا[3]

---

(١) من الكامل، القلائد ١٦٩، الحلة السيراء ٢/١٧٣، دوزى: رسالة فليتشر ٢٠٨.

● قلت: فى الأصل الفرنسى أبو الحسن، وأظنها وهما أو خطأ مطبعيًا لأنها فى المرجعين اللذين أحال عليهما أبو الحسين (المترجم).

(٢) من الطويل، القلائد ١٧٣.

(٣) من الطويل، نفح ٣/٤٤٠.

ونسخ أبو محمد عبد الحق بن عطية الصورة نفسها:

وليلة جبتُ فيها الجزعَ مرتديًا ... بالسيفِ أسحبُ أذيالاً من الظُّلَمِ
والنجمُ حيرانُ في بحر الدُّجى غَرِقٌ ... والبرقُ فوق رداءِ الليلِ كالعلَمِ
كأنما الليلُ زنجيٌّ بكاهلِهِ ... جُرْحٌ فيثعبُ أحيانًا له بدم[٤]

ونادرا ما يصف الشعراء الليل دون أن يعرضوا للقمر بدرا، ونادرا ما يتحدثون عن البدر دون أن يشبهوه بالحبيبة أو يشبهوها به[٥]. والقمر بدرا عِثل في خيال الشاعر الأمير سخيا يتألق في جلسة ليلية.

وعند شعراء الأندلس لا ينفصل القمر بدرا، في أغلب الأحوال، عن الطبيعة التي تحيط به، وبرعوا في إبداعهم لكي يجعلوه يهبط من السماء، وبخاصة عندما ينعكس ضوؤه على صفحة بركة، في ليلة صيف، جميلة. يقول ابن سارة:

انظرْ إلى البدر وإشراقِهِ ... على غديرٍ مَوْجُهُ يزْهَرُ
كمِشْحَذٍ من حجرٍ أخضرٍ ... خُطَّ عليه ذهبٌ أحمرُ[٦]

أما القمر هلالا فقد ألهم الشعراء موضوعات أخرى، وبخاصة حين يعني ظهوره نهاية شهر رمضان، والاحتفال بعيد الفطر الذي يعقب شهر الصوم. هكذا رآه أبو الحسن بن هارون من إمارة شنتمرية الغرب، يقول:

ياليلةَ العيدِ عُدتِ ثانيةً ... وعاد إحسانُك الذي أذكرْ
إذ أقبل الناسُ يسفرون إلى ... هلالِك النِّضْوِ ناحلاً أصفر[٧]

وأحسن منه قول أبي الحسن بن الزقّاق:

وشهرٍ أدرْنا لارتقابِ هلالِه ... عيونًا إلى نحو السماءِ موائِلا
إلى أنْ بدا أحْوى المدامع أحْورُ ... يجرّ لأذيالِ الشبابِ ذَلاذِلا
فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبًا ... ببدرٍ حوى طيبَ الشمولِ شمائلا
أتطلبُكَ الأبصارُ في الجوِّ ناقصًا ... وأنتَ هنا تمشي على الأرض كاملا[٨]

---

(٤) من البسيط، القلائد ٢٠٩، وعنه في نفح ٥٢٨/٢.

(٥) وقد نظم عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني من عصر المنصور بن أبي عامر، (القرن العاشر الميلادي) ثلاثة أبيات نالت شهرة واسعة:

أرى بدرَ السماءِ يلوح حينًا ... فيبدو ثم يلتحفُ السحابا
وذاك لأنه لما تبدّى ... وأبصر وجهَك استحيا فغابا
مقالٌ لو نمى عني إليه ... لراجعني بتصديقي جوابا

من الوافر ، نفح ٥٨٨/١ و ٢٦٠/٣ و ٦٧/٤، والمطمح ١٧٩، وفون شاك، الترجمة الإسبانية، شعر العرب في اسبانيا وصقلية ١٣٣/١.

(٦) من السريع، نفح ٦٠٠/٣، والبيت الثاني يشير فيما يبدو إلى حجر محك أقرب منه إلى حجر مشحذ.

(٧) من المنسرح، الحلة السيراء ١٩/٢

(٨) من الطويل، الحلة السيراء ٢٠٢/٢.

● وانظر ديوان الشاعر، القطعة ٩١، ص ٢٣٨، تحقيق عفيفة محمود ديراني، بيروت، بلا تاريخ (المترجم).

وكما نرى، فإن وصف الهلال نحيلا ضامرا لا يمكن أن يوحي بالحبيبة الجميلة الواصلة، ولهذا تفنّن الشعراء في تشبيه رهافة شكل القمر بموضوع مادى، ولم ينس الأندلسيون الصورة التى وقعت عليها عبقرية الشاعر العباسى ابن المعتز، المتوفى عام ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م، حين يقول:

انـظرْ إلى حُسْنِ هـلالٍ بـدا ... يَهتِـكُ من أنـوارِهِ الحِنْـدِسَـا
كَـمَنْجـلٍ قـد صيغ من فضّـةٍ ... يحصد من زهرِ الدُّجَى نَرْجسا[٩]

وبحثوا لهذه الصورة عن ندّ عندهم، فوجدوه عند أبي المغيرة بن حزم، حيث يقول:

لـمّا رأيـتُ الهـلالَ مُـنْـطويًـا ... فى غُـرَّةِ الفجرِ قـارنَ الزُّهَـرَهْ
شَبَّهـتُـه والعِيـانُ يشـهـدُ لى ... بصـوْلجانٍ أوفى بضـربِ كُـرَهْ[١٠]

ويصف ابن سارة نجما جرى فى السماء وترك وراء مستطيلا منيرا:

وكوكبٍ أبصرَ العفـريت مُسترقًـا ... فـانـقضّ يُـذكى إثـرهُ لَهَبـهْ
كفـارسٍ حـلّ إحضـار عمـامتـه ... فجرُّها كلُّها من خلفِهِ عَذَبهْ[١١]

وقد استطاع شعراء الأندلس فى وصفهم للمجموعة الفلكية أن يظهروا أبدع صور خيالهم الخلّاق، فشبّهوا القمر بين النجوم بملكة تتنزّه فى مملكتها، يقول المعتمد بن عباد:

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نورُها ... والليـلُ قـد مـدَّ الـظلامَ رداءَ
حتى تبدَّى البـدرُ فى جـوزائِـه ... مـلكًـا تنـاهَـى بهجـةً وبهـاء
وتنـاهضتْ زهـرُ النجـومِ يحفُّهُ ... لألاؤهـا فـاستكمـلَ الـلألاء
لـمّا أراد تنـزُّهـا فى غـربـهِ ... جعـل المظلّةَ فـوقـه الجـوزاء
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حـوله ... رفعتْ ثـريّـاهـا عليـه لـواء
وحكيته فى الأرضِ بين كواكبٍ ... وكـواعبٍ جمعتْ سنـا وسنـاء
إنْ نشرتْ تلك الدروع حنادسًا ... ملأتْ لنا هـذى الكؤوسَ ضياء
وإذا تغنّتْ هـذهِ فى مِـزْهَـرٍ ... لم تألُ تلكَ على التريكِ غناء[١٢]

وهم أيضا أول من تصوّر نزهة ليلية للكواكب بين الكواكب، وذكريات لا عن المعراج النبوى، وإنما عن رحلة إلى السماء وإلى جهنم قام بها الوزير والشاعر المدهش، وأتيحت لنا أكثر من فرصة للحديث

---

(٩) من السريع، الديوان جـ ٢ ص ٦٠٥، قطعة ١٠٦٦، تحقيق الدكتور يونس حبيب السامرائى، بغداد ١٩٧٨.
وهذه الصورة فى إيجازها بالغة الجمال والروعة، وشبيه بها قول فيكتور هيجو:
أىّ إله، أىّ حصّاد صيف خالد.
يمضى مطرزا، مبتعدا، بلا مبالاة.
هذا المنجل الذهبى فى حقل النجوم!
(١٠) من المنسرح، المطمح ٢٠٣، وعنه فى نفح ٦٢١/١، والسيوطى، وصف اللآل فى وصف الهلال، فى المجموعة الأدبية، ص ٧٥.
(١١) من البسيط، القلائد ٢٦٩.
(١٢) من الكامل، القلائد ٦، وعنه فى نفح ٢٨٠/٤، وفى «بنو عباد» ١٤٠/١، والترجمة اللاتينية ص ٨٥ - ٨٦، وفى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢، جـ ٣ ص ١٧٦.

عنه، وهو أبو عامر بن شهيد، وأيضا «رسالة الغفران»، أو الكوميديا الإلهية إن شئت لأبي العلاء المعرى[١٣].

يقول أبو محمد بن سفيان فى رسالة وجهها إلى أبى عيسى بن لبون أمير مربيطر:

أبا عيسى أتذكرُ حين كُنّا	على هام الكواكبُ نازلينا
ندوسُ بخيلنا زهرَ الثريّا	ونوردُها المجرّةَ إن ظمينا
وننزلُ جبهةَ الأسدِ اعتسافًا	إذا ما البدرُ مرّ بها كمينا
ونطرقُ هودجَ العذراءِ وَهْنًا	فندخله عليها آمنينا
إذا عنّتْ لنا الجوزا مَددْنا	لحلٍّ نطاقها عنها يمينا
وإنْ عرضتْ لنا كف الثريّا	سلبناها الخلاخلَ والبرينا
إذا ما غار من دَدِنا سُهيلُ	على الشعرى فخلّتْ به جنونا
تجاوزْنا العبور إلى الغُمَيْصَا	ولم نرهبْ شجاعهم المبينا[١٤]

ونجد فى شعر القرن الحادى عشر قصائد ومقطوعات أخرى تصف المجموعة الفلكية ولكن بما أن معظم قصائدها يمهد للتشبيه بادئًا بكلمة «كأن»، فنحن على ثقة بأنهم يقلدون قصيدة ابن هانى الشهيرة، ذات القافية الفائية، فى مدح أمير المسيلة جعفر بن على بن حمدون[١٥]، وغير ضرورى، فيما يبدو، أن نوردها هنا.

أمّا الأشعار التى تشير إلى تأثير الكواكب على الإنسان فقد اقتبسوا معلوماتهم فيها من كتب الفلك، وكلها متأثرة على نحو ما بكتاب بطليموس، ولقد رأينا فيما سبق، إجمالاً أن ابن غالب ردّ مزاج الأندلسيين الخاص إلى تأثير فينوس وعطارد[١٦]. فقران الكواكب يمكن أن يترك أثره سعادة أو شقاء على سكان الأرض، ويسبب لهم توجّسات مشئومة أو متفائلة[١٧]. وفى إسبانيا هذه حيث تدرس العلوم البالغة التنوّع فى حرية واسعة للغاية، لم يُر أبدا فى أى بلد من البلدان سكان فيها من آلات الأسطرلاب. وحين فرّ القدر بن ذى النون من طليطلة، لم يتردد فى أن يحمل معه واحدا منها، لأنها فيما يرى أثمن من الذهب أو المجوهرات.

ومع ذلك أشار الشعراء إلى علوم أخرى مثل الكيمياء، وهم يعرضون لها حين يصفون النجوم أو الكواكب. يقول المعتمد مثلاً:

---

(١٣) انظر فيما سبق ص ٤١ من هذا الكتاب.

(١٤) من الوافر، القلائد ١٣٦ – ١٣٧. لمزيد من المعلومات عن أسماء الكواكب التى تبدو متراكمة، كما لو كانت استعراضًا، فى هذه القطعة، يكفى أن نذكر كتاب موتيلينسكى: مسارح الدرب القمرية، وكتاب نالينو، النجوم.

(١٥) انظر: ابن هانى، طبعة بيروت ١٢١ – ١٢٢، وطبعة زاهد على القاهرة، ص ٤٤٢ – ٤٤٥، الأبيات ١٦ – ٢٨، وحول تقليد شعراء القرن الحادى عشر هذه القطعة انظر الذخيرة لابن بسام، ٥٠٨/٣ ومابعدها، حيث نلتقى بأسما أبى ربيع بن أحمد القضاعى وأبى الفضل البغدادى الدارمى.

(١٦) انظر فيما سبق ص ٢٤ من هذا الكتاب.

(١٧) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣١ الطبعة الرابعة، تحقيق د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، وبرجعة بيكل للطوق ص ٢٠ – ٢١ وهامش ص ٢٢٥.

جـاءتْك ليـلًا فِي ثيـاب نهارِ — من نـورها وغِـلالـةِ البُـلّارِ
كـالمشترى قـد لفّ من مِرِّيخِهِ — إذْ لفَّـه فى المـاء جـذوةَ نـار
لَـطُفَ الجمودُ لـذا وذا فتـآلفَـا — لم يـلقَ ضـدٌّ ضـدَّه بـنـفـار
يتحـيّرُ الـراءون فى نـعتَيْهـا — أصفاءُ ماءٍ أم صفـاءُ درارى[18]

والمعنى الدقيق لهذه الأبيات يمكن أن يفلت منّا فى جانب منه، ومع ذلك يمكن أن نفهم أن المعتمد مع كوكب المشترى يشير إلى القصدير، ومع كوكب المريخ إلى الحديد، ويمكن أن يريد بالماء هنا مادة كحولية من أحماض العصور الوسطى تستخدم فى إذابة الحديد والقصدير إذا وُضعا على التنور[19].

ويتيح الليل للشاعر أن يمضى أطول وقت مع حبيبته، يقول أبو تمام الحجام:

زرتُ الحـبيبَ ولا شىء أحـاذره — فى ليلةٍ قد لوت بالغمضِ أشفارَا
فى ليلةٍ خلتُ من حُسْنٍ كواكبَها — دراهمًـا وحسبتُ البدرَ دينـارا[20]

ويقول أبو عامر بن الجَدّ:

لله ليلةُ مـشتـاقٍ ظـفـرتُ بهـا — قـطعْتُها بـوصـالِ اللثمِ والقُبَـلِ
نـعمتُ فـيهـا بـأوتـارٍ تـعـلّلنى — أحـلى من المنِّ أو أمنيّـةِ الغَـزَلِ
أحْبِبْ إلىّ بهـا إذ كلهـا سَحَـرٌ — أراحتِ الصبَّ من عُذْرٍ ومن عَذَلِ[21]

ولم يكن العشّاق جميعًا سعداء، وليلهم – فى انتظار الوفاء بالميعاد – يمضى فى سهاد قلق ومؤلم. ياله من ليل طويل فى نظر هؤلاء العشاق التعساء!. ولكن الموضوع ليس خاصًا بالأندلسيين وحدهم، ومن ثم لن نضرب له غير مثل واحد، يقول ابن سارة:

وليلٍ كأنّ الدهرَ أفضى بعمـرهِ — جميعًـا إليه فـانتهى فى ابتـدائـهِ
يحدّثُ بعضُ القومِ بعضا بطوله — ولم يمضِ منه غيرُ وقتِ عشائه
تكاثفَ ظلُّ الغيم فيه فلم يكن — به العينُ تدرى أرضَهُ من سمائه
إذا افترّ فى استبعاده برقُ دجنةٍ — حكا حبشيًّا ضـاحكا من بكـائه
ضربتُ بسيفِ العزمِ عُنْقَ ظلامِه — وضرّجتُ يردىْ فجرِه من دمائه[22]

● ● ●

والليل يعقبه الفجر موضوع آخر تناوله الشعراء الأندلسيون، وأظهروا فيه نبوغًا فذا، ولم يحدث أبدا أن تجلّى ذوقهم رائعًا فى التجسيد وفى الأسطورة كما فى تصوير هذه الظاهرة الغامضة للنهار يخلف الليل، والضوء يطرد الظلام، والمقطوعات التى عرضت لهذا كثيرة، وآثرنا أن نختار بعضًا منها فحسب.

---

(١٨) من الكامل، القلائد ٦، وفى «بنو عباد ٤٦/١، ونفح ٢٧٩/٤.

(١٩) اعتمدنا فى هذا التفسير على دوزى فى «بنو عباد» ٨٨/١، وانظر فيما بعد ص ٢١٢ من هذا الكتاب إشارة إلى الكيمياء فى مقطوعة لابن سارة.

(٢٠) من البسيط، نفح ٤١٦/٣.

(٢١) من البسيط، نفح ٧٠/٤، وفى الفصل الخاص بالمرأة سوف تتاح لنا الفرصة للحديث عن «ليالى الحب».

(٢٢) من الطويل، القلائد ٢٧٠.

يقول أبو الحسن على بن السِّيد البَطَلْيَوسى:

والليلُ مُنْحفزٌ يطير غرابُهُ — والصبحُ يطرده ببازٍ أشهب[٢٣]

ويقول أبو حفص بن برد الأصغر:

وكأنَّ الليلَ حين لوى — هاربًا والصبحُ قد لاحا
كِلَّةٌ سوداءُ احرقها — عامدٌ أسرجَ مصباحًا[٢٤]

ويقول أبو القاسم الأسعد بن بِلِّيطة فى قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:

وقد داب كُحْلُ الليل فى دمع فَجْرِهِ — إلى أنْ تبدَّى الليل فى اللمةِ لِشَّمْطا
كأنّ الدجى جيشٌ من الزَّنجِ نافرٌ — وقد أرسل الإصباحُ فى إثْره القِبْطا[٢٥]

وأمضى أبو الحسن بن زِنباع (وابن بيَّاع) الليل يحلم مع حبيبته:

إذا بلغتْ منك الخيالاتُ ما أري — فأنت لماذا بالشخوص معرِّضُ
إلى أنْ تبدّت عن سنا الصبح سدفةٌ — كما انشقّ عن صفحٍ من الماء عَرْمض
وندّتْ إلى الغرْبِ النجومُ مروعةً — كما نفرتْ عِينٌ من السيْل رُكَّض[٢٦]
وأدركها من فَجأةِ الصبحِ بهتةٌ — فتحسبُها فيه عيوننا تمرّض
كأنّ الثريّا والغروبُ يحثّها — لجامٌ على رأس الدجى وهو يركض
وما تترى فى الهقعة العينَ إنها — على عاتقِ الجوزاءِ[٢٧] قُرطٌ مفضّض[٢٨]

وإذا تأمّلنا مشاعر ابن زنباع العارمة فضّلنا عليها بساطة أبي الفضل بن شرف فى شعره، وطزاجة الألوان عنده، حينما يقول:

مَطَلَ الليلُ بوعد الفلقِ — وتشكَّى النجمُ طولَ الأرقِ
ضربتْ ريحُ الصَّبا مِسْكَ الدجي — فاستفاد الروْضُ طيبَ العَبَق
وألاحَ الفجرُ خدًّا خجلًا — جال من رَشْحِ الندى فى عرق
جاوزَ الليلَ إلى أنْجُمه — فتساقطن سقوطَ الورَق
واستفاضَ الصبحُ فيه فَيْضةً — أيقن النجمُ لها بالغرق
فانجلى ذاك السَّنا عن حَلَكٍ — وانمحى ذاك الدجى عن شَفَق[٢٩]

---

(٢٣) من الكامل، نفح ٧٢/٤.

(٢٤) من المديد، ابن سعيد، عنوان المرقصات ٥٩، الحيرة ٥١٩/١، والشقندى، رسالة فى فضائل الأندلس، نفح ١٩٧/٣، وترجمة غرسية غومث إلى الإسبانية ص ٦٥.

(٢٥) من الطويل، المطمح ٣٤٢، نفح ١٠٠/٤، وابن خلّكان، وفيات ٣٦/٢، وترجمة دى سلان ٣، ٢٠٠.

(٢٦) ربما كان يجب أن نقرأها «الشبل» بدل السيل، والشبل هو الأسد فى صباه.

(٢٧) عن هذه الأفلاك انظر: موتيلينسكى مسارح العرب القمرية، فى الفهرس، تالجرين، النجوم، فى الفهرس.

(٢٨) من الطويل، القلائد ٢٢٨ – ٢٢٩.

(٢٩) من الرمل، نفح ٣٩٣/٣، دوزى، أبحاث ط ١، ص ٩١ – ٩٢، والطبعة الثالثة ٢٤٨/١.

ويراه ابن اللبانة:

والليلُ قد سدَّى وألحمَ ثوبَهُ والفجرُ يرسلُ فيه خطًّا أبيضًا[٣٠]

وإذا كان الأدب اليونانى قد عرف صورةَ الفجر الوردىّ الأصابع، فإن الشعراء الأندلسيين استخدموا صورة أخرى، وهى مثيرة أيضا، فشبّهوا جيد الحبيب بعمود الفجر، يقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

كأنما جيده وغُرَّتُه من دونها إذ بَدَوْنَ فى نسق
عمودُ فجرٍ من فوقِهِ قمرٌ دارتْ به قطعةٌ من الشفق[٣١]

أما أبو القاسم بن عبد الغفور فصوّر الفجر على نحو مختلف:

رويدكَ يابدرَ التمامِ فإنّنى أرى العيسَ حسرى والكواكبَ ظُلَّعاَ
كأنّ أديمَ الصبحِ قد قدَّ أنجمًا وغودرَ درعُ الليلِ فيها مرقَّعا[٣٢]

ولا نستطيع أن نكتم إعجابنا بهذه الصورة العبقرية التى نلتقى بها فى قصيدة ابن الرفاء:

ولمّا رأيتُ الغربَ قد غصّ بالدجى وفى الشرقِ من ضوء الصباح دلائلُ
توهّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخوضُه وأنّ الذى يبدو من الشرقِ ساحل[٣٣]

وجسّد أبو محمد بن عيدون الليل والفجر على السواء:

وما أنسَ ليلتَنا والعِنا قُ قد مزجَ الكلَّ منّا بكلِ
إلى أن تقوَّس ظهرُ الظلام واشمطّ عارضه واكتهلْ
ومن رقيقِ رداءِ النسيم على عاتقِ الليلِ بعضُ البلَل[٣٤]

فالفجر والصباح لا ينفصلان فى فكر الشارع المرح، المنغمس فى لذاذات العيش، وعن النبيذ الذى يشربونه تخلصا من النوم المفرط فى التقل، ولكى يدفعوا بالحيوية من قلوبهم إلى بطونهم، وسنرى فيما بعد، حين نعرض للشراب، كيف عالج شعراء الأندلس هذا الموضوع.

● ● ●

الليالى الأندلسية فاتنة، ويضفى عليها النسيم العليل سحرا، وينتشى كل من يعيشها بأريج زهورها، يقول ابن عبدون:

يانفحةَ الزهر من مسراكِ وافانى خلوصُ ريّاكِ فى أنفاسِ آذارِ
والأرضُ فى حُلَلٍ قد كاد يُحرقها توقُّدُ النور لولا ماؤها الجارى

(٣٠) من الكامل، القلائد ٢٤٧.

(٣١) نفح ١٠٧/٢، وتعبير «عمود الصبح» قديم ، ويرد فى أشعار النابغة، والحطيئة، وذى الرمة، وعمر بن أبى ربيعة، وأبى تمام.

● ترد صورة «الفجر الوردىّ الأصابع» فى الإلياذة، الفصل ٦، ص ١٧٥ (مترجم).

(٣٢) من الطويل، مطمح ٢٢٠، وعنه فى نفح ٥٥٣/٣.

(٣٣) من الطويل، نفح ١٠٧/٤.

(٣٤) من المتقارب، القلائد ١٤٧.

والطيرُ فى وَرقِ الأشجار شادية ٌ   كأنهنّ قيانٌ خلفَ أستار[٣٥]

وأرقُّ هذه النسائم ما يهب مع الفجر أو عند الأصيل. يقول ابن رُحَيْم:

سلامٌ كما حيّتْك عاطرةُ النشرِ   وإلاّ كما هبَّ النسيمُ مع الفجرِ[٣٦]

وابن بُلَيطة يقول:

تتنفَّسُ الصهباءُ فى فواتِهِ   كتنفُّسِ الريحانِ فى الأصالِ
وكأنما الخيلان فى لَبّاتِه   ساعات هجر فى زمانِ وصالِ[٣٧]

وتسمح لنا فقرات أخرى بأن نلاحظ أن أسماء الريح لا تُستخدم كيفما اتفق، فالصَّبا تعنى النسائم الآتية من الشرق أو الشمال الشرقى ويرى المعتمد أنه يستقبل فى الصبا أريج حدائق المرية حيث يوجد المعتصم[٣٨]، ويكتب المعتضد إلى صهره مجاهد العامرى أمير دانية فيقول:

عرفتُ عَرْفَ الصبا إذ هبَّ عاطرُهُ   مِن أُفْقِ مَن أنا فى قلبى أُشاطرُهُ[٣٩]

ويكتب ابن اللبّانة إلى مبشّر ناصر الدولة، أمير الجزائر الشرقية، فيقول:

واشتمَّ فى ريحِ الصَّبا أرجَ الصَّبا   فقضى حقوقَ الشوقِ فيه بأنْ قضى[٤٠]

ويستخدم ابن زيدون كلمة «قبول» مرادفًا لكلمة «صبا» وهو يتحدث عن بلنسية:

راحت فراح بها السقيم   ريح معطرة النسيم
مقبولة هبت قبو   لا، فهى تعبق فى الشميم
أفضيض مسك أم بلنـ   ـسية لرياها نميم[٤١]

● ● ●

لقد استرعت الظواهر الطبيعية المختلفة من سحاب وبرق ومطر اهتمام شعراء الأندلس كما أثارت شعراء المشرق من قبل، وكانت لبعضهم هنا وهناك رموزًا تعبر عن سخاء الأمير، أو أية شخصية مرموقة، على حين أنها لدى شعراء الجاهلية والعصر الإسلامى رموز لرؤى صحراوية مختنقة، فهناك لا يسوق السحاب المطر إلا حين يشتد البرق، والمطر وحده هو الذى يهب الأرض الحياة بما يكفى لنمو

---

(٣٥) من البسيط، الذخيرة ٢/٣٠، بنو عباد ٢٤٦/١.

(٣٦) من الطويل، القلائد ١١٩.

(٣٧) من الكامل، الذخيرة ٤٤/٢، وبنو عباد ٢٩٨/١.

(٣٨) الحلة ٤٧/٢، وبنو عباد ٨٥/٢، ويعتبرون ريح الشرق خيرة، وفى الحديث ما معناه: لقد ساعدتنى ريح الشرق، البخارى، ترجمة أوداس ووليم مرسيه ٣٤٠/١.

(٣٩) من البسيط، الحلة ٤٧/٢، وبنو عباد ٥٥/٢، والذخيرة ٣١/٣، وبنو عباد ٢٤٦/١، وواضح أنه فى النصف الثانى يلمح لزوجته، وهى ابنة مجاهد.

(٤٠) من الكامل، القلائد ٢٤٦.

(٤١) من مجزوء الكامل، الديوان ٢٠١ ،كور: ابن زيدون ٩٤ - ٩٥، والقلائد ٧٤، ونفح ٢٧١/٣

● لمعرفة المزيد عن «الأقوال المطروقة»، ظر الفقرة الخاصة بها ص ٣٥٥ من كتابنا الأدب المقارن، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (المترجم).

العشب الضروريّ الذى تقوم عليه حياة القطعان. ولكن أغلب الشعراء الأندلسيين تخلوا عن هذه الموضوعات لأنها ليست دقيقة فى شبه جزيرة إيبيريا وقد لحظوا أن الرعد يجلب البَرَدَ غالبًا وليس المطر، وأن البرد أبعد ما يكون عن إفادة الأرض أو الزرع. ولكنهم وجدوا فى السحب والأمطار فرصة مواتية لوصف مشاهد الطبيعة حيث تلتقى السماء بالأرض، وهم لا يعزلونها عن الجو، ويرون تأثيرها، فيما يشاهدون بأعينهم، يمثل الحالة المثالية للبلد الذى يعيشون فيه، حين تقع على الحدائق المزهرة، والآكام المغطاة بالحشائش والأشجار المثمرة، وهم يلتقطون من هذه الصور أرقها وأعذبها، ويعتمدون دائمًا فى إلهامهم على ملاحظة هذه الظواهر الطبيعية مباشرة، وعلى تأثير البحث الذى يقودهم إلى الرغبة فى التحرر من الأقوال المطروقة التى حفظوها خلال سنوات الدرس.

إن السماء مغطاة بالسحب، وتدوى فيها البروق، ويهطل المطر. ألهمت ابن عمار الأبيات الثلاثة التالية:

يومٌ تكاثَفَ غيمُهُ فكأنّه ... دون السماء دخانُ عودٍ أخضرِ
والكلُّ مثلُ بُرادةٍ من فضّةٍ ... منثورةٍ فى تُربةٍ من عنبرِ
والشمسُ أحيانًا تلوحُ كأنّها ... أَمَةٌ تُعرِّضُ نفسها للمشترى[(٤٢)]

ويكرر الأسعد بن بلِّيطة الفكرة نفسها، ولكنه يحاول أن يقدّم لنا، كفنان يرسم لوحة، انطباعًا معبرًا عن غروب الشمس:

لو كنتَ شاهدتنا عشيّةَ أمسِنا ... والمزنُ يبكينا بعينَيْ مذنبِ
والشمسُ قد مدّتْ أديمَ شعاعِها ... فى الأرضِ تجنحُ غيرَ أنْ لم تغربِ
خِلْتَ الرذاذَ بُرادةً من فِضّةٍ ... قد غُرْبِلَتْ من فوقِ نطْعٍ مُذْهَبِ[(٤٣)]

وتثير السحب تدفعها الرياح فتلمع بالبروق أبا حفص بن بُرد الأصغر، فينشد هذه الأبيات:

عارضٌ أقبَلَ فى جُنْحِ الدُّجى ... يتهادَى كتهادِى ذى الوَجَى
بدّدتْ ريحُ الصَّبا لؤلؤهُ ... فانبرى يوقد عنها سُرُجا[(٤٤)]

ويرسم لنا أبوإسحاق إبراهيم بن خيرة الصباغ لوحة أشد تنوُّعًا فى الأبيات التاليه.

يومٌ كأنّ سحابَهُ ... لبستْ عمامى الصامتْ[(٤٥)]
حُجبتْ به شمسُ الضحى ... بمثالِ أجنحةِ الفواختِ

(٤٢) من الكامل، نفح ٦٠٢/٣، وانظر أيضا بيتين للرمادى، من بحر الرجز فى نفح ٧٤/٤:

والأفقُ من سحابهِ ... طلٌّ ضعيفٌ ينزلُ
كأنّه من فضّةٍ ... برادةٌ تغربلُ

(٤٣) من الكامل، الحلة ١٦٩/٢ - ١٧٠، المطمح ٣٤٣، وفى نفح ٥٢/٤ البيتان الأول والثانى.

(٤٤) من الرمل، الذخيرة ٥١٧/١، ونفح ١٩٧/٣، وابن سعيد: عنوان المرقصات ٥٩، والنفح، فى رسالة الشقندى، فضائل الأندلس، ينسبها إلى أبى جعفر اللمائى.

(٤٥) فيما يتصل بكلمة عمامى انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية، وكلمة المصامت، جمع مصمت، لا توجد فى المعاجم، ولكننا نلتقى بها فى مخطوطة الزهرى، وانظر أيضا المرية، فى تفسير كلمة «خلدى» الحرير، وعن كلمة خلدى هذه انظر: المعجم، ٩٥ و ٢٨٨. وفى الذخيرة «غمامىّ».

فالغيثُ يبكي فَقْدَها | والبرقُ يضحك مثل شامت
والرعدُ يخطبُ مُفصِحًا | والجو كالمحزون ساكت
والروضُ يسقيه الحيا | والنورُ ينظرُ مثل باهت
فاشربْ ولذَّ بجنةٍ | واطربْ فإنَّ العمرَ فائت(٤٦)

ويقول لنا يحيى بن هُذيل فى شيء من التكلف:

نام طفلُ النبتِ فى حِجْرِ النُّعامى | لاهتزازِ الطلِّ فى مهد الخُزامى
وسقى الوسميُّ أغصانَ النقا | فهوت تلثمُ أفواه الندامى
كَحَلَ الفجرُ لهم جفنَ الدجى | وغدا فى وجنةِ الصبح لثاما
تحسبُ البدرُ محيًّا ثَمِلٍ | قد سقتْهُ راحةُ الصبح مُداما
حوله الزهرُ كؤوسٌ قد غدتْ | مسكةُ الليل عليهنَّ ختاما(٤٧)

وقد أثار قوس قزح، ويدعوه العرب «قوس ملاك السحب قزح» بعض الشعراء، وشدهم بجماله فوصفوه، ومن هؤلاء أبو الفضل بن حسداى الإسلامى، فنظم هذه الأبيات:

وأطْربنا غَيْمٌ يمازج شمسَهُ | فيُسْتَرُ طوْرا بالسحاب ويُكْشَفُ
ترى قُزحًا فى الجوِّ يفتحُ قوسَهُ | مُكِبًّا على قُطْنٍ من الثلج يَنْدِفُ(٤٨)

ويقول عز الدولة بن صمادح

صاغت الجوزاءُ قُرطينِ على | سمعيها والثريَّا دُملُجا
واستجادتْ من سَمَاهَا حُلَلًا | فكساها قُزَحٌ ما نَسجا(٤٩)

ويقول الأسعد بن بليطة يصف جارية غلامية. تورَّد شفتيها فاقع:

غُلاميَّةٌ جاءتْ وقد جعل الدجى | خاتَمِ فيها فَصَّ غاليةٍ خَطَّا
فقلتُ أحاجيها بما فى جُفونها | وما فى الشَّفا اللُّعْسِ من حسنِها المعطَى
مُحيِّرةَ العينين من غيرِ سَكْرةٍ | متى شربتْ ألحاظُ عينيْكِ اسْفَنْطا
أرى نَكْهةَ المسواكِ فى خَمْرِ اللَّمى | وشاربُكِ المخضر بالمسكِ قد خُطَّا
عسى قُزَحٌ قبَّلتِهِ فبخالُه | على الشفةِ اللمياءِ قد جاء مُخْتطا(٥٠)

وشبَّه بن حزم قوس قزح بذنب لطاووس:

أتيْتني وهلالُ الجوِّ مطَّلعٌ | قُبيلَ قرعِ النصارى للنواقيسِ
كحاجبِ الشيخ عمَّ الشيبُ أكثَرَهُ | وأخمصُ الرجْلِ فى لطف وتقويس

(٤٦) من الكامل. نفح ٣/٤٨٥، والمطمح ٢٠٦، والذخيرة ٢/٢١٠.
(٤٧) من الرمل. نفح ٣/٣٥٧، والبيت الأخير يشير إلى الجرار حين يكون غطاؤها محكم السد بالشمع.
(٤٨) من الطويل. نفح ٣/٤٠١، والذخيرة ٣/٤٩٠.
(٤٩) من الخفيف. الذخيرة ٣/٤٩٦.
(٥٠) من الطويل. الذخيرة ٣/٤٩٦، المطمح ٣٤٣، وعن المطمح نقلها نفح ٤/٥١.

ولاحَ في الأفقِ قوسُ اللهِ مُكتفيًا ... من كلِّ لونٍ كأذنابِ الطواويس[٥١]

ولا نجد إلا شعرا قليلا يصف البَرَد. ولكن هذا القليل يجيء في صور أصيلة وأنيقة وذكية. يقول أبو بكر عبد المعطى بن المعين:

كأنَّ الهواءَ غديرٌ جَمَدْ ... بحيثُ البروقُ تُذيبُ البَرَدْ
خيوطٌ وقد عُقِدتْ في الهواء ... وراحةُ ريحٍ تحلُّ العُقَدْ[٥٢]

وتبدو ملاحظة الطبيعة واستلهامها مباشرة في هذه المقطوعة لابن خفاجة:

يا ربَّ قُطْرٍ عاطلٍ حلَّى به ... نَحْرَ الثرى بَرَدٌ تحدّر صائبُ
خَصِبَ الأباطِحَ منه ماءٌ جامدٌ ... غِشِىَ البلادَ به عذابٌ ذائب
فالأرضُ تضحك عن قلائدِ أنْجُمٍ ... نُثِرتْ بها والجوُّ جهمٌ قاطب
وكأنّما زنتِ البسيطة تحته ... فأكبَّ يَرْجمها الغمامُ الحاصب[٥٣]

ونادر جدا أن يعرض الشعر لوصف الثلج في إسبانيا، على الرغم من وجوده بكثرة في بعض المدن مثل: سرقسطة، وبطليوس، وطليطلة، ومعاناة هذه المدن منه عادة في فصل الشتاء بخاصة، ومثلها الجبال العالية، كجبل شُلَيْر، حيث تغطيها الثلوج حتى خلال فصل الصيف.

ولكن، إذا لم يجد الثلج مكانا له في ديوان الشعر الأندلسي، فإن قصائد كثيرة تتحدث عن البرد القارس في شبه الجزيرة، ويسجل ابن سارة الفارق الذي يوجد في هذا الجانب بين الجزيرة العربية وإسبانيا فيقول:

دَعُوا لامرئ القيس بن حُجْرٍ طلولَهُ ... يظلّ عليها سافحَ العبراتِ
وعوجوا بياقوتيةٍ ذهبيّةٍ ... يهيم بها المقرور في السبرات[٥٤]

وأصبح بَرْد مدينة سالم مثلا يتردد[٥٥]، ويحدثنا أبو بكر عبادة بن ماء السماء في دقة بالغة عن شتاء عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م المرعب، وكان في شهر صفر (فبراير – مارس) من هذا العام قاسيا:

يا عبرةً أهديتْ لمعْتَبِرِ ... عشيَّةَ الأربعاءِ من صَفَرِ
أرسلَ ملءَ الأكفِّ من بَرَدٍ ... جلامدًا تهمى على البشر
فيا لها آيةً وموعظةً ... فيها نذيرٌ لكلِّ مُزدَجِر[٥٦]

وأثار برد غرناطة الشديد في الشتاء، بسبب قربها من جبل شلير، ابن سارة فأنشد هذه الأبيات:

أُحلَّ لنا تركُ الصلاةِ بأرضكم ... وشربُ الحُمَيّا وهو شيءٌ محرّمُ

---

(٥١) من البسيط، طوق الحمامة ١٧٣، ترجمة نيكل ١٩١.

(٥٢) من المتقارب، المطمح ٣٨٣، وعنه نقلها نفح ٢٣٦/٤.

(٥٣) من الكامل، الديوان، القطعة ٣١، ص ٧٦، والذخيرة ٦١٦/٣.

(٥٤) من الطويل، القلائد ٢٦٧.

● في الأصل المغرور بدل المقرور، وأظن الأولى تصحيف عن الثانية. (المترجم).

(٥٥) ابن حزم، طوق الحمامة ص ٨٩.

(٥٦) من المنسرح، الذخيرة ٤٧٠/١.

فــرارًا إلى نــار الجحيـم لأنّها أرقُّ علينـا مـن شُـلَيْر وأرحـم
لئن كان ربّى مُدخِلى فى جهنمٍ ففى مثلِ هذا اليوم طابتْ جهنم(٥٧)

والنار فى الحقيقة عامل رفاهية وراحة، وموضع التقدير الكبير من الجميع، ولكن الشاعر الأندلسى لا يفرق بين النار تلتهب والموقد حيث تشتعل(٥٨)، وفيما يتصل بهذا كان ابن سـرة الشنترينى متخصصا، على نحو ما، فى هذا اللون من القصائد، ونظم عدة مقطوعات من الشعر عن الموقد والنار بخاصة، ونقدم بعضا منها:

لابنةَ الزنْدِ فى الكوانين جَمْرٌ كـالـدرارىّ فى دجـى الظلماء
خبِّـرونى عنهـا ولا تكـذبـونى ألـديْهـا صنـاعـةُ الكيميـاء
سبكتْ فحمَهـا صفـائـحَ تِـبْرٍ رصَّعتْهـا بـالفضّـةِ البيضـاء
كلّما رفـرفَ النسيمُ عليهـ رقـصـتْ فى غـلالـة حمـراء
سفـرتْ فى عشـائهـا فـأرتنـ حـاجبَ الشمسِ طالعًا بالعشـاء
لو تراٰنا من حولها قلت شَرْبٌ يتعـاطـوْن أكؤس الصهبـاء(٥٩)

ويقول فى أخرى:

باتتْ لنا النارُ درياقًا وقد جعلتْ عقاربَ البرْدِ تحت الليـل تلسعنَا
زهراء قدّتْ لنـا من دَفْئها لُحُفـ لم يعلم البـردُ فيها أين موضعنا
ولهـا حـريقٌ بكـانـون نـطيف بـه كمثـل جَـامٍ رحيق فيه مَكرمُنا
تبيحُنـا قـربَهـا حينـا وتُبعـدُنـ كـالأمِّ ترضعنـا حينًا وتفطمنا(٦٠)

● ● ●

هذه النصوص التى ضربناها مثلًا كافية لكى تظهر لنا بوضوح أن الأندلسيين عرفوا البرد القارس، وعبّروا عنه فى شعرهم، لأنهم أحسوا به حقا، وجاءت صورهم انعكاسا صادقا لانفعالهم، ولم تكن مجرّد تدريبات فكرية خاصة يلتقطون مادتها من الجواهر والأحجار الثمينة السائل منها والمتجمد، كما هو عليه الحال فى الشعر المشرقى.

---

(٥٧) من بحر الطويل، ياقوت، معجم الادباء ٣١٧/٣، وصبح الأعشى ٢١٥/٥ (الأبيات ١ و ٢ و ٥)، والعمرى، مسالك الأبصار، ترجمة جودفروى - ديومبين ٢٢٥، وأحمد زكى باشا، فى تكريم كوديرة، ص ٤٦٦ (ترجمة الأبيات ١ و ٢ و ٥).

● قلت: فى صبح الأعشى ابن صادى بدل ابن سارة، وشكير بدل شلير وواضح أن ذلك تحريف (المترجم).

(٥٨) لا تزال الحمراء تحتفظ ببعض هذه المواقد. انظر: توريس بلباس، فى مجلة الأندلس ١٩٣٤، المجلد ٢، العدد الثانى، ص ٣٨٩ - ٣٩٠، واللوحات ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ حيث نرى أن الأندلسيين كانوا يستخدمون لتدفئة الحجرات الكبيرة، فضلا عن المواقد الضخمة، مد فئ حقيقية، وذلك ما نجده عند أحمد بن سعيد بن كوثر الطليطلى، المتوفى ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م، حيث يلقى دروسه على أربعين من طلابه، فى حجرة فى بيته، وتتم تدفئتها بواسطة كانون فى قامة الرجل طولا، خلال شهور نوفمبر وديسمبر ويناير، انظر: ابن بشكوال، الصلة رقم ٧١ جـ ١ ص ٣٠، ليرتشوندى وسيمونيت: منتخبات، القطعة رقم ١٠٠ ص ١١٢ - ١١٣، ودوزى: ملحق المعاجم ٤٩١/٢.

(٥٩) من الخفيف، القلائد ٢٦٦، ونفح ٤٤٢/٣.

(٦٠) من البسيط، القلائد ٢٦٧.

ومن بين الموضوعات التى تتردّد كثيرا فى الشعر الأندلسى وصف كأس البللور الجميلة الشفّافة، تبدو كالماء الصافى متجمدا، أو مليئة بالنبيذ الأحمر المذهب فتبدو كما لو كانت التبر مذابا. يقول المعتمد:

نلّهِ ساقٍ مُهفهفٍ غَنِجٌ   قد قام يسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيفِ حكمته   فى جامِد الماءِ ذائبَ الذهب(٦١)

وحين كان المتوكّل فى رحلة فى كورة شنترين تلقى من أبى محمد بن عبدون قطيع راح وطبق ورد، ومعه ثلاثة أبيات من الشعر يقول آخرها:

فبعضُها من المخافِ جامدٌ   وبعضُها من الحياءِ ذائبُ(٦٢)

وفى هذا المجال أبدع الشعراء الأندلسيون عددا من الصور البديعة المتنوّعة. فالنبيذ ليس دائما ذهبا مذابا، ولا أنه الزجاج الذى يُشرب فيه ماءً متجمدا، وعلى هذا النحو يتحدث المعتمد عن:

وكم سقانىَ، والليلُ معتكرٌ   فى جامدٍ ذائبَ الوَرْدِ(٦٣)

ويقول أبو محمد المصرى فى مقطوعة يمدح بها المأمون:

وكأنما الأقداحُ فى راحاتِهِ   درٌّ جمادٌ ذاب فيه العَسْجدُ(٦٤)

ونقل أبو الفضل بن شرف فكرة التجمد والذوبان من مجال المادة إلى مجال الكائنات المبهجة، وبهذا أحيا ذكر اجتماعات اللهو البرىء:

يامَن جفا فجفانى الطيف، هجرك لى   بأى عذْرٍ فعذْرُ الضيفِ فى السَهَرِ
ذكرت بالسفح شَمْلًا غيرَ منصدعٍ   بالنائبات ونظْمًا غيرَ منتشر
بكل بيضاءَ خودٍ خلتها جمدتْ   من السكينة أو ذابتْ من الخَفَر(٦٥)

ويستخدمون الصور نفسها فى وصف الزهور والثمار، يقول أبو محمد المصرى واصفا النرجس بأنه درّ جامد والخمر بأنها تِبْر ذائب:

رعى اللهُ دهرًا قد نعمْنا بطيبه   لياليه من شمسِ الكؤوسِ أصائلُ
ونرجسُنا درٌّ على التبْرِ جامدٌ   وخمرتُنا تِبرٌ على الدرِّ سائل(٦٦)

ويصف ابن زيدون التفاح والنبيذ، فيقول:

جاءتكَ جامدةَ المدا   مِ فخذْ عليها ذوبها(٦٧)

---

(٦١) من المنسرح، القلائد ٩، ونفح ٢٧٨/٤، وبنو عباد ٤٤/١.
(٦٢) من الرجز، القلائد ٤٤، نفح ٦٦٥/١، والحلة ١٠٧/٢.
(٦٣) من المنسرح، خريدة القصر ١٤٩/١١، وبنو عباد ٣٩٣/١.
(٦٤) من الكامل، نفح ٥٢٩/١.
(٦٥) من البسيط، القلائد ٢٥٤.
(٦٦) من الطويل، نفح ١١٨/٣.
(٦٧) من المنسرح، الديوان ٢٢٢، وكور ص ١٠٩.

ويقول ابن عمار:

خُذْها كما سفرتْ إليك خدودُ ... أو أوجستْ فى راحتيْكَ نهودُ
دُررا من التفّاح تنثر بيننا ... ولها بأجياد الغصون عقود
خُذها وناولْها النَّدامَ فإنها ... راح دِهاها فى الشتاء جمود
وشفعتُ بالإجّاصِ قصد إنه ... شكلُ الجمالِ وحدُّه لمحدود
عُذْرًا إليك فإنما هى أوجهٌ ... بيضٌ تُقارنها عيونٌ سود(٦٨)

ويصف ابن سارة النارنج أيضًا بأنه ذوائب تجمّدت:

أرى شجرَ النارنجِ أبدى لنا جنىً ... كقطرِ دموعٍ ضرّجتْها اللواعجُ
جوامدُ لوذابت لكانت مدامةً ... تصوغ البرى فيها الأكفُّ النوارج
كراتُ عقيقٍ فى غصونِ زَبرْجدٍ ... بكفّ نسيمِ الريحِ منها صوالج(٦٩)

---

(٦٨) من الكامل، الحلة ٢/١٦٣.

(٦٩) من الطويل، القلائد ٢٦٧ وسبق أن وقعنا على فكرة الجمد مستخدمة فى وصف البرك والنواقير، انظر فيما سبق ص ١٨٣ - ١٨٤ من هذا الكتاب.

○ الفصل الثانى:

الحيوانات

فى إطار الطبيعة التى يبعثها خيال الشاعر الخلّاق تعيش الحيوانات، أليفة أو متوحِّشة.

ونلتقى فى أشعار الأندلسيين بمعظم الحيوانات التى وصفها الشعراء المشارقة، ولكنهم يستلهمون الواقع دائما، ولم يستطع الشعراء الأندلسيون حتى وهم يتحدثون عن الصحراء أو عن النساء فى الهوادج أن يفسحوا مجالا فى قصائدهم لوصف الجمال رغم أنهم يعرفونها[1]. وعلى النقيض، يذكرون حيوانات لا ترد فى الشعر المشرقى إلا نادرا، مثل القرد، والنعام، والخنزير البرى، والزرافة.

وأظهر الأندلسيون فيما يتصل بالحصان ذوقا متهيا كالمشارقة، وأشعارهم لا تقدم لنا شيئا جديدا عن هذا الحيوان، وقد درسه اللغويون العرب تفصيلا على نحو لم نسمع بمثله حتى الآن، وتذكرنا مقطوعة شعرية للرمادى يمدح فيها أبا على القالى بما فى ديوان امرئ القيس، يقول:

فقد اغتدي والصبحُ فى توريسه　　تقضي العيونُ له بوجه عليلِ
بأقبّ لون الأبنوسِ مفضّضٍ　　فى غرّةٍ منه وفى تحجيلِ
مُستغرِقٍ لصفاتِ زَيْد الخيلِ والـ　　ـغنويِّ والمربِّى والضلِّيلِ[2]

وغالبا ماتكون غرة الحصان وتحجيله إشارة عراقة وكرم ويسترعيان الاهتمام، ولكن موطن التقدير الحق يرتبط بسرعته وكان للمتوكل بن الأفطس أمير بطليوس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فندب الشعراء لوصفه، فصنع النّحْلى أبو الوليد فيه بديها:

ركب البدرُ جوادًا سابحًا　　تقفُ الريحُ لأدنى مَهَلِهْ
لبسَ الليلَ قميصًا سابغًا　　والثريًّا نُقَطٌ فى كَفَلِهْ
وغديرُ الصبحِ قد خيضَ بهِ　　فبدا تَحجِيلُهُ من بللهْ[3]

وواصل ابن اللبانة القول:

للّهِ طِرْفٌ جال يا ابنَ محمّدٍ　　فحبتْ به حوباؤه التأميلا
لما رأى أن الظلامَ أديمُهُ　　أهدى لأربعِهِ الهدى تحجيلا[4]

---

(١) سنرى فيما بعد أن بعض الأشياء الغالية تأخذ أحيانا صورة جمل. وكان المنصور ينقل الأخراج والإمدادت الحربية على ظهور الخيل والبغال والجمال (انظر أعمال الأعلام ٩٩). ويقول ابن عمار فى قصيدة يهجوبها المعتمد أن بنى عباد خصوا بالجمال:

ألا حيِّ بالغرب حيًّا حلالا　　أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالاَ

وذلك فى قرية يُوْمين. انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٢) من الكامل، المطمح ٣١٣. وانظر فيما سبق ص ٥٠ من هذا الكتاب.

(٣) من الرمل، نفح ٣/٣٣٣.

(٤) من الكامل، نفح ٣/٣٣٣.

وأنهى أبو عبد الله بن عبد البر الشنتريني القول بقطعة منها هذا البيت:

وكأنما عمرٌ على صَهَواتِهِ ... قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأربع[٥]

ومن بين المؤلفين الآخرين الذين اهتموا بالدراسات اللغوية المشرقية أبو محمد بن السِّيد البطليوسي الذي شرح كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وقد وصف لنا حصانا أسود للأمير عبد الرحمن، وهو الظافر بن ذي النون:

وأدهمَ من آلِ الوجيهِ ولاحقٍ ... له الليلُ لونٌ والصباحِ حُجولُ
تحيرَ ماءُ الحسنِ فوق أديمِهِ ... فلولا التهابُ الحُضْرِ ظلّ يسيلُ
كأنّ هلالَ الفطرِ لاحَ بوجهِهِ ... فأعيُننا شوْقًا إليه تميلُ
كأنّ الرياحَ العاصفاتِ تقلّهُ ... إذا ابتلّ منه محزمٌ وتليلُ[٦]

ونلتقى فى سهولة بإشارات كثيرة تصف ألوان الحصان العديدة، فهو أشقر وأشهب وأدهم وأصدأ وورد وكميت[٧]، أو وصف الحصان وهو يشارك فى القتال[٨].

وإذا كانت كلاب الصيد، كما سنرى، تميزت فى الشعر وأصبح لها مكان مرموق فإن كلاب الحراسة اعتُبِرتْ حيوانا نجسا فيما يبدو، والحديث النبوى يقول: [إذا لعق الكلب إناء أحدكم فليغسله سبع مرات][٩].

وكان المتمردون فى إسبانيا يصلبون بين كلب وخنزير[١٠]. وعندما رفضت عائشة القرطبية شاعرا تقدم لخطبتها ورأته غير جدير بها كتبت إليه إنها لا تقبل كلبا زوجا لها فى الوقت الذى رفضت فيه الأسود يطلبونها:

أنا لَبوةٌ لكنّنى لا أرتضى ... نفسى مُناخًا طول دهرى من أحدْ
ولو أننى أختار ذلك لم أجب ... كلْبًا وكم غلّقتُ سمعى عن أسد[١١]

ويقول أبوعيسى بن لَبّون حين فقد إمارته، يأسى لعظمته الخالية، ولكن دون أن يحنى رأسه:

ذَرونى أُجبْ شرقَ البلادِ وغربَها ... لأشفىَ نفسى أو أموت بدائى

---

(٥) من الكامل. نفح ٣٣٣/٢.

(٦) من الطويل. القلائد ٢٠٠، ونفح ٦٥٠/١.

(٧) عن الحصان الأشقر انظر: ابن خفاجة، الديوان، القطعة ١٠٦ ص ١٩١، ورقم ٤٩ ص ٨٧، و ١٦٤ ص ٢٥١. وعن الحصان الأشهب انظر أيضا ابن خفاجة، الديوان رقم ١٥٧ ص ٢١١ ،نفح ٤٨٢/٣. وعن الفرس الأدهم انظر أبيات ابن السيد فى هذه الصفحة. وعن الأصدأ انظر: المعتمد فى «بنو عباد» ٣٨٦/١، عن الفرس الورد انظر: نفح ٤٠٦/٢، طبعة أوربا. وعن المعلومات الخاصة بالملابس المختلفة، انظر ابن هذيل الأندلسى، حلية الفرسان وشعار الشجعان، ص ٨٣ - ٩١، والترجمة الفرنسية له عن ٧٩ - ١٠٠.

(٨) ابن خفاجة، الديوان رقم ١٩٥ ص ٢٥٣، ورقم ١٩٤ ص ٢٥١ الأبيات ١٤ - ١٨.

● قلت: حصر الدكتور سيد غازى، الأبيات التى وردت فى الحصان فى ديوان ابن خفاجة فى تحليله لمادة الديوان، ص ٤٠٧، عندما حققه. (المترجم).

(٩) صحيح البخارى، كتاب ٤ فصل ٣٣، وترجمة أودا ومرسيه ٧٧/١.

(١٠) نفح ١١/٢ طبع أوربا وتاريخ مسلمى إسبانيا جـ ١ ص ١٥٩ و ١٦٤ و ١٦٧.

(١١) نفح ٢٩٠/٤.

فلستُ ككلب السوءِ يُرضيه مربضٌ وعــظْمٌ ولـكنّى عُـقــابُ سَـماءِ[١٢]

ولايرى ابن سارة وسيلة لتوبيخ معاصريه خير من أن يقول لهم:

بنى الــدنيـا بجهــلٍ عـظَّمــوهـا فـجلّتْ عـنــدهم وهــى الحـقـيــرهْ
تهــارشَ بـعضُـهم بـعضًـا عـليهـا مهـارشـةَ الكـلابِ عـلى عقيـره[١٣]

ويستخدم ابن حزم المثل الإغريقى، فيقول عن محبين متنافسين وغيورين:

صبَّــانِ هَـيْـمــانــانِ فى واحــدٍ كــلاهمـا عن خِـدْنـه منحــرفْ
كــالكلبِ فى الآرىِّ لا يـعتـلفْ ولا يخـلى الغـيْرَ أن يعتلف[١٤]

وهذا الرعب من الكلب اختفى تماما فيما بعد بتأثير الأفكار الصوفية، إذ كان الصوفية يستخدمون الكلاب الوفية النشطة[١٥]. وأوصاف «الفقير» الرئيسية العشرة مأخوذة من أوصاف الكلب.

[وهى: «فى الكلب عشر خصال محمودة ينبغى أن تكون فى كل فقير: لا يزال جائعا، وهو من دأب الصالحين، ولا يكون له موضع يعرف به، وذلك من علامة المتوكلين، ولا ينام من الليل إلا القليل، وذلك من صفات المحبين، وإذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من أخلاق الزاهدين، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده، وذلك من شيم المريدين، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير، وذلك من إشارة القانعين، وإذا غلب من مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامة المتواضعين، وإذا ضُرب وطُرد ثم دُعى أجاب، وذلك من أخلاق الخاشعين، وإذا حضر شىء من الأكل وقف ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين، وإذا رحل لا يرحل معه بشىء، وذلك من علامة المتجردين»][١٦].

ويبدو أن الزرافة لم تعش فى إسبانيا، لأن الطقس دون ما شك لا يسمح لها بالحياة، ومثلها الجمل، ولو أن المؤرخين يشيرون من حين لآخر إلى زرافات قدمها سلاطين أفريقيا أو حكّامها هدية إلى الأمراء الأندلسيين، ومنهم نعرف أن زيرى بن عطية أرسل فى عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م جملة هدايا إلى المنصور بن أبى عامر، بينها زرافة، ولكن هذا الحيوان المسكين لم يستطع العيش فنفق وهم يقدمونه للحاجب القوى[١٧].

وفى القرن الحادى عشر الميلادى وصف لنا بعض شعراء الغرب الإسلامى الزرافة، مثل: أبى على

---

(١٢) من الطويل، الحلة ٦٦٨/٢، والقلائد ١٠٢، وأبحاث، ط ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٧.

(١٣) من الوافر، القلائد ٢٦١. ويقول شاعر مجهول فى نفح ١١٨/٤:

اشـدد يـديـك بكلب إن ظفـرت بـه فـأكـثر النـاس قـد صـاروا خـنازيـرا

(١٤) من السريع، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٨٢ وترجمة نيكل ٧٦. ونحن هنا بصدد مثل إغريقى يتردد كثيرا عند لوسيان، انظر: Erasmo, Adagia, X, 13، ونجده أيضا عند الجاحظ فى كتابه البخلاء طبعة القاهرة ١٠٢/٢، وفى ترجمته الفرنسية التى قام بها شارل بيلا ص ٢٣٣، ومع ذلك يرى ابن حزم أن الكلب حيوان طاهر، انظر مخطوطة القسطنطينية التى حللها أسين بلا ثيوس فى مجلة الأندلس، المجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ١٥١.

(١٥) الكتانى، سلوة الأنفس ١٤/١ – ١٥.

(١٦) نفح ٦٩٨/٢، وتنسب هذه الفقرة التى تتضمن صفات الكلب العشر إلى الحسن البصرى المتوفى ١١٠هـ = ٧٢٨م.

(١٧) كتاب مفاخر البربر، طبعة ليفى بروفنسال ص ٢٧، وبعد ذلك بزمن قدم سلطان السودان إلى أبى سالم سلطان المغرب زرافة وصفها ابن زمرك فى قصيدة طويلة، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٣٠٦/٢.

بن رشيق، ومحمد بن شرف القيرواني. ولكن فيما يبدو، وطبقا لكل الروايات، كانوا قد رأوها في أفريقيا[١٨]. وفيما يتصل بابن حمديس، وتضمن ديوانه قطعة من سبعة عشر بيتا في وصف الزرافة[١٩]، لا نعرف ما إذا كان قد رأى هذا الحيوان في إسبانيا أو في شمال أفريقيا، في بجاية مثلا، ومع هذا الشك تدع جانبا المعلومات التي يمكن أن يكون قد حملها لنا فيما يتصل بهذا الموضوع.

ولا نجد شيئا أصيلا على الإطلاق فيما يتصل بتلك الحيوانات، والذي كان تجسيدا للشجاعة والنبل في الأندلس والمشرق على السواء.

وفيما يتصل بالذئب فنحن نقرأ في كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى فقرة مثيرة، مؤدّاها أن البربر الذين استدعاهم المنصور بن أبي عامر اجتاحوا إسبانيا «وظلوا ينتصرون، وبعد الهجوم الشهير بقي جزء كبير من إسبانيا خاليا من الزرع، وتحول إلى صحراء، وملأته الذئاب والحيوانات المفترسة، التي حرمت البلاد من الأمان بعض الوقت»[٢٠].

ونعتقد أن الذئاب خلال فترات المجاعة كانت تنتشر، وحتى تهدد الأهالي، وتهجم على قطعان الغنم[٢١]، وأحيانا على الأشخاص أنفسهم. وأخذ ابن خفاجة يصف هذا الواقع عندما يحدثنا عن ذئب طرّاق يملأ الليل بعوائه المخيف:

ومَفازةٍ لا نجمَ في ظلمائها	يسري ولا فلكٌ بها دوّارُ
تتلهّبُ الشِّعْرىَ بها فكأنّها	في كفّ زنجيّ الدُّجى دينار
تَرمي بيَ الغيطانُ فيها والرُّبى	دُوَلًا كما يتموّجُ التيّار
والقطبُ ملتزمٌ لمركزه بها	فكأنّه في ساحةٍ مسمار
قد لفَّني فيها الظلامُ وطاف بي	ذئبٌ يلمُّ مع الدجى زوّار
طرّاقُ ساحاتِ الديارِ مغاورٌ	ختّالُ أبناءِ السُّرى غدّار
يسري وقد نَضَح النّدى وجهَ الصَّبا	في فروةٍ قد مسّها اقشعرار
فعشوتُ في ظلماءَ لم يُقدح بها	إلّا لِمُقْلتِهِ وبأسِيَ نار[٢٢]

ويعود ابن خفاجة فيصف الذئب ثانية في هذه الأبيات:

وأطلسَ زوّارٌ مع الليلِ أغْبشٌ	سرى خلفَ أستارِ الدجى يتنكّرُ
تثاءبَ من مَسّ الطوى فهو يشتكي	فيعوي وقد لفّتْهُ نكباءُ صَرْصَر
ودون أمانيه شرارةُ لَهْذَمٍ	يقلّبُ فيها مِثْلَها حين ينظر
فمن جَوْعةٍ تغريه بي فهو يدَّني	ومن رَوْعةٍ تثنيه عنّي فيقصر[٢٣]

(١٨) الأبيات في نهاية الأرب لنويري، جـ ٩ ص ٣١٩ - ٣٢١.
(١٩) ديوان ابن حمديس، ط. سكابريلي، قطعة ٢٤٩، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.
(٢٠) البيان المغرب، جـ ٢ ص ٢٩٣، الترجمة ص ٢٥٥.
(٢١) ٣٥٨/٢ طبع أوربا.
(٢٢) من الكامل. الديوان، القطعة رقم ٤٧ ص ٨٥، والذخيرة ٥٦٤/٣.
(٢٣) من الطويل. الديوان القطعة ١٣٤ ص ١٨٠.

ونعرف من شعر أبي إسحاق الألبيرى أن الذئب لم يكن غائبا عما حول إلبيرة، فى مكان يسمى «حصن العُقاب»، يقول:

وكـم ذئـبٍ يجـاوره ولـكـنْ رأيتُ الـذئب أسلمَ من فقيـهِ[٢٤]

وفى زمن المجاعات لم تكن الذئاب وحدها هى التى تضطلع بالتخريب، وإنما كانت تشاركها الخنازير الجبلية فى هذا. فهى تقوم بحملات على الأراضى المزروعة. وفى بعض المناطق حيث يكثر عددها تصنع ذلك حتى فى زمن الرخاء، فهى تغزو الحدائق والبساتين. ويحضرنا فى هذا المقام ما يقوله ابن مُقانا عن أرضه فى القَبْذاق:

فما أرض قَبْذاقٍ وإنْ جاد عامُها بـوفيةٍ عشـرين من حزَمِ الـزرعِ
وإنْ أنجبتْ شيئا وزادتْ تواتـرتْ إليهـا خنازيـرُ المفـاوزِ فى جَمْـعِ[٢٥]

وأحيانا نجدها حتى فى المزارع حول قرطبة، ففى عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م قام جند المظفَّر خليفة المنصورِ باستثارة خنزير فى فحص بدر، وطاردته خيلهم أثناء انتشارهم، ويقص علينا ابن عِذارى أن الحيوان «اقتحم شوارع قرطبة وأكثر أهلها يومئذ لا يعرفون ما هو، لسعة عمارتهم وعدم الوحش ببادیتهم فضلا عن حاضرتهم، فلم يزل ذلك الخنزير راكبا وجهه يخترق الناس، وقد تسابقت الخيل فى طلبه إلى أن لحقته بالشط، قبالة قصر الخلافة، فأطال الناس وقتا فى حديثه، وأكثروا الخوض فى شأنه والتطيرّ منه»[٢٦].

ولم يكن الخنزير البرّى موضع تقدير إطلاقا فى إسبانيا الإسلامية، وبحق، ولهذا السبب فإن أشد شتيمة أو إهانة يمكن أن توجّه لمسيحىّ، أو مستعرب، أو غيرهما، أن يوصف بأنه من «أكلة لحم الخنزير»[٢٧]، وندرك جيدا صدى المقولة التى تنسب إلى المعتمد حين عزم على دعوة المرابطين وخوّفوه منهم فقال: «أفضل أن أرعى الجمال فى الصحراء على أن أرعى الخنازير فى قشتالة». وبنى فكرته هذه على واقع معروف جيدا، وهو أن المسيحيين كانوا يستخدمون أرقّاءهم من المسلمين فى الأعمال اليدوية، كالطبخ والخَبْز، وما يشابهها مما لا يتطلب جهدا بدنيا عنيفا، كالعمل فى الحمّامات ورعى قطعان الخنازير[٢٨].

---

(٢٤) من الوافر، أبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٨٦، والملحق فيها ص ٦٢، وانظر الديوان أيضا، القطعة رقم ١٩ البيت رقم ٣.

(٢٥) انظر فيما سبق ص ١٨ و ١٩ من هذا الكتاب.

(٢٦) البيان المغرب ٢٣/٣، ترجمة ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٠١.

(٢٧) عندما عاد حسداى بن شبروط من سفارة أمام الملوك المسيحيين، مدحه أحد أبناء ملته على النحو التالى: «دون أن يرسل سهما أو يشهر سيفا، وببلاغته فحسب، أخذ من «أكلة الخنازير» الملاعين المدائن والحصون. انظر تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٧٠ – ١٧١. ويذكر عبد المنعم بن منّ الله القروى فى رده على رسالة ابن غرسية وأفكاره الشعوبية، أن المسيحيين كانوا «رعاة الخنازير، وأكلة السنانير». الذخيرة ٧٢٤/٣.

(٢٨) انظر غومث مورينو، كنائس المستعربين ص ٢٤٢ – ٢٤٣، ورقم ٧ بمناسبة دير ثيلانوبا، وكان يشرف عليه رودسيندو المتوفى ٩٧٧. وفيما يتصل بالمشرق من المثير أن نجد مسلما هو الأعمش، المتوفى ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م، يقول لواحد من أصدقائه، وهو شعبة المتوفى ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م، وكان يتحدث إلى جمع من الناس: «يا لتعاستك يا شعبة، تعلق اللؤلؤ فى رقاب الخنازير». وقد أورد ابن عبد البر هذه الجملة فى كتابه مختصر جامع بيان العلم، ولكنه لم يذكر لنا هل هؤلاء الأشخاص مسيحيين أم ينتسبون إلى أديان أخرى (قارن هذا بأمثال سليمان، الإصحاح ١١، الآية ٢٢، وإنجيل متى الإصحاح ٧ الآية ٦).

وإذا كانت كلمة خنزير أو جبلي[٢٩] احتفظ بها لتطلق على المسيحيين فإن كلمة قرد كانت بعامة من نصيب اليهود، تأثرا بالآيات القرآنية، حيث عاقب الله الإسرائيليين المخطئين لأنهم نسو ما ذُكِروا به، وعتوا عما نهوا عنه، واعتدوا في يوم السبت، فقال لهم: كونوا قردة خاسئين[٣٠].

ويقول أبو إسحاق الإلبيري في قصيدته ضد يهود غرناطة:

فكم مسلمٍ فاضلٍ قانتٍ ... لأرذل قردٍ من المشركينْ

....

ورخّم قردُهم داره ... وجرى إليها نمير العيون[٣١]

ونادرا ما يستخدم الأندلسيون لفظ قرد للسخرية من أندلسي كالمنصور، ولكن إبراهيم بن إدريس الحَسَني استخدمها في هجائه له، يقول:

أيكونُ حيًّا من أميّةَ واحدٌ ... ويسوس هذا الملكَ هذا الأحدبُ[٣٢]

ونلحظ أيضا أن ألفونسو السادس، لكي يشكر حسام الدولة ابن رزين على الهدايا التي تلقاها منه، أرسل له من جانبه قردا، ولم ير أمير السهلة، في عمده، أنّ في هذا إشارة احتقار، وإنما على النقيض سُرّ بها[٣٣].

ويذكرون حيوانات أخرى من ذوات الأربع مثل القنفذ (ويشبهونها بالخرشوف كما رأينا في ما سبق)[٣٤]، والسلحفاة، والتي تعيش في البرك[٣٥]، والحرباء، وبها يشبه الدهر والحظ المتقلّب، يقول ابن اللبانة:

والدهرُ في صِبغة الحرباءِ منغمسٌ ... ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ[٣٦]

●●●

أما عن الزواحف فهناك أشعار هامة لابد من الإشارة إليها.

---

(٢٩) انظر فيما سبق ص ٢١٦ رقم ١٠ من هذا الكتاب.

(٣٠) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٦٥، وسورة المائدة الآية ٦٠، وسورة الأعراف الآية ١٦٦. ونلحظ أن القاضي أبا العباس عبد الله بن أحمد بن طالب، في بلاد البربر الشرقية تحت حكم الأغالبة، ألزم اليهود والنصارى أن يضعوا على أكتافهم «رقاعا بيضاء، في كل رقعة منها قرد وخنزير، وجعل على أبواب دورهم لواحا مسمرة في الأبواب مصور فيها قردة». انظر المالكي، رياض النفوس، ٣٨١/١، وروجر هـ إدريس، إضافة إلى تاريخ إفريقية، في مجلة الدراسات الإسلامية، ١٩٣٥ المجلد الثاني ص ١٤٢.

(٣١) الديوان، القطعة رقم ٢٥. وانظر ص ٢٤٥ - ٢٤٦ من هذا الكتاب. ويصف أبو عامر بن شهيد في رسالة توجه بها إلى أبي جعفر بن عباس اليهود بأنهم قردة. انظر الذخيرة ٢١٥/١. ويصف الأمير الزيري عبد الله الوزير اليهوديّ يوسفَ بكلمة «خنزير». انظر: التبيان، ص ٣٧ و ٤٠ و ٤١ و ٥٤ و ٦٥ و ٦٧.

(٣٢) من الكامل، ابن عذاري، البيان المغرب ٣٠٢/٢، الترجمة منه ٤٦٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٤٢، وابن الأبار، الحلة ٢٢٧/١، ومفاخر البربر ص ٢١.

(٣٣) كتاب الكافية، في «بنو عباد» ١٩/٢، وتاريخ مسلمي سبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٢١ و ٢٣٦.

(٣٤) انظر فيما سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٣٥) انر فيما سبق ص ١٨٤ من هذا الكتاب.

(٣٦) من البسيط، المراكشي، المعجب، ص ١٤٧، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٤.

لقد لحظنا من قبل أن الجداول والأنهار تُشبَّه بالحيات، ولكن لا يمكن أن تُشبَّه بالأفعى أو الحنش، أو بزواحف أخرى دقيقة. وقد أشار ابن حزم إلى الأفاعى، ولدغتها طبقا لعقيدة العامة لا يمكن الشفاء منها إلا بالجسم المنهوك بلدغة الأفعى نفسها، أى بالترياق[٣٧]. والناس الذين من أصول متواضعة وبلغوا مراكز عالية، ومن ثَمّ أصبحوا قوة مرموقة، يشبَّهون بالأفاعى أو الثعابين أو الأحناش، وبخاصة إذا كانوا أندلسيين ينحدرون من أصول بربرية[٣٨].

● ● ●

وكان حب الأندلسيين للعصافير ملحوظا وواضحا، ولا يقل عن حبهم للزهور، ولم يجد عبد الرحمن الناصر ليكمل زينة مدينة الزهراء شيئا أفضل من إقامة حديقة حيوان حقيقية، فيها محلات للوحش ومسارح للطيور[٣٩]، وكم كان بودنا أن نعرف أسماء الطيور التى كانت فيها. ويتيح لنا ابن زيدون فى إحدى قصائده، وجاءت فى شكل ألغاز وأحاجٍ، أن نكوّن على نحو ما فكرة عن عصافير الزينة التى كانت معروفة فى الأندلس، فقد أورد لنا كثيرا من أسمائها، مثل: القُمرى أو الشِفنين، والعصفور، والبلبل، والنَّسر، والغراب، والدُّرّاج، والزُّرزور، والغِرنيق، والمُكّاء، والشُرشور، والباشَق، والشاهين[٤٠].

ومن أجل الغناء كانوا يبحثون عن بعض هذه العصافير. هل كان البلبل يعيش فى قفص؟ أظن هذا، ولكنهم يتذوقون تغريده عندما يكون طليقا، وحينئذ لا يسمونه بلبلا، وإنما يدعونه «أمّ الحسَن»، وهو اسم كُتب له الخلود، ولا يزال متداولا حتى يومنا هذا فى شمال أفريقيا، ويصف المعتضد تغريده فى هذه الأبيات:

أتتكَ أمُّ الحسَنِ ... تشدو بصوتٍ حسنِ
تمدُّ فى ألحانِها ... مدَّ الغناءِ المدنى
تقودُ منىً سلسلاً ... كأنَّنى فى رسنِ
أوراقُها أستارُها ... إذا شدت فى فننِ[٤١]

ويصور ابن زيدون غناء البلبل بأنه يهيج الوَرَشان للغناء:

إنْ تغنَّى البلبلُ اهتا ... جَ غِناءَ الورشانِ

---

(٣٧) ابن حزم، طوق الحمامة ص ١٣٧، ترجمة نيكل ١٣٥، وطبعة برشيه ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٣٨) أعمال الأعلام ١٥٠، طبعة الرباط ١٩٣٤، والشقندى، رسالة فى فضل الأندلس، فى نفح ٢١٠/٣.

(٣٩) ابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤، وعنه نقلها نفح ٥٧٨/١. وابن زاكور، شرح قلائد العقيان الورقة ٩٩ وجه. وكان يطلق على حديقة الحيوان فى مدينة الزهراء اسم «حير». انظر: ابن زاكور المصدر السابق الورقة ٩٩ وجه، وطبقا لأبى بكر بن مفرّج فى تعليق له على أبى الزبيدى المتوفى ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م، وانظر أيضا فيما سبق ص ١١٧ هامش رقم ٥٤ من هذا الكتاب، وفيما سيأتى ص ٢٢٢ الهامش رقم ٤٣ وعن المشرق انظر: أدم متز، النهضة ص ٣٨٦، وترجمة بيلا الإسبانية ص ٤٨٧، والترجمة العربية بعنوان «الحضارة العربية فى القرن الرابع الهجرى»، وقام بها محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ٢٥٨/٢.

(٤٠) ابن زيدون، الديوان ٦٢٤ - ٦٢٧، ونفح ٢٦٨/٤.

(٤١) من الرجز، الذخيرة ٣٠/٢. ويتحدث الشاعر ابن السراج المالقى عن البلبل أيضا بهذا الاسم نفسه، فى أبيات له يصف فيها جلسة منادمة، انظر الذخيرة ٨٧١/١، وابن قزمان فى ديوانه، القطعة ٧١، الدور ١ جـ ١ ص ٣٥٢. وفى الفصل المخصص للغناء والموسيقا سوف نحدد ماذا يعنى الغناء المدنى. وأستار المغنيات.

فتــآدي مـنــه بـيـتــاً غــزلٍ مــنــفــردان
لمــحــبٍّ فى حــبـيـب عـنــه نــاءٍ مـنــه دانِ:
«يــا بعيدَ الـدر مَوْصـوُ لاً بــقـلْـبـى ولـســانى
ربَّمــا بــاعــدَكَ الــدهــرُ فــأدْنـتـكَ الأمــانى»[٤١]

وكان من العادات الجارية فى الأندلس أن يتعلم المرء كيف يتحدث إلى طائر يحمى نفس الاسم الذى يحمله «الزرزور» ولكن فى ضوء كل الروايات ليس شيئًا آخر غير الزرزور نفسه، ويصفه أبوالحسن بن الحاج على النحو التالى:

يــارُبَّ أعجمَ صــامـتٍ لقَّـنتـه طرف الحديث فصار أفصحَ ناطقِ
جون الإهاب أعير فوه صفرة كـالليـل طـرّزه وميض البـارق
حِكَمٌ من التدبير أعجزتِ الورى ورأى بها المخلوقُ لطفَ الخالق[٤٣]

وكثيرًا ما نلتقى بوصف القطا وحجل الصحراء فى شعر المشرق العربى، ويذكرها المعتمد فى الغرب الإسلامى، ولكن فقط عندما كان سجينًا فى أغمات[٤٤]. وحدث الشىء نفسه مع الغراب، ولم يكن نعيقه محلّقا يفعل شيئًا أكثر من زيادة آلام الأمير المنفى[٤٥].

أما الورقاء التى تختفى بين الأغصان فقد اتخذ منها الشعراء رمزًا للعاشق الحزين يعانى من قسوة المحبوب. وهناك أسطورة تقول إن طيرا جارحًا اعتدى على هديل فى عصر نوح، ومنذ ذلك اليوم فإن كل الورق باكية حزينة[٤٦]. يقول ابن زيدون:

وأرّقَ العـينَ والـظلماءُ عــاكفــةٌ ورقــاءُ قد شفّهـا، أو شفّنى حَـزَنُ
فبتّ أشكـو وتشكو فـوق أيكتها وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصُن[٤٧]

---

(٤٢) من الرمل، الديوان ٥٩٦.

(٤٣) من الكامل، القلائد ١٤٣. ولدينا من القرن العاشر حكايتان تظهران أن بنى أمية كانوا مولعين بالزرازير المروضة. الأولى منها تقدم لنا ولى العهد هشاما المؤيد ومؤدبه أبا بكر الزبيدى، وكلاهما فى إحدى قاعات مدينة الزهراء التى تطل على حديقة حيوان الحائر. فرأى الأمير الشاب أحد زرازيره المحببة إليه تهاجمه سلحفاة ساق، فخرج متدفعا لإنقاذه، أمام دهشة مؤدبه الذى لم يكن قد لحظ شيئا. انظر: ابن زاكور، فى المصدر السابق، الورقة ٩٩ وجه وظهر.

والحكاية الثانية حدثت لعبد الرحمن الناصر، وفى مدينة الزهراء أيضا، إذا بينما أراد الفصد، وقعد بالبهو فى المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته الزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ هذه الآلة ليجس يد الناصر، أطل زرزور، وصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيهــا الـفــاصــد رفــقــا بــأمــير المــؤمــنــيــنــا
إنمــا تـفـصــد عــرقــا فــيــه محيــا الــعــالمــيــنــا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف الناصر هذا وسر به، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولى عهده الحكم صنعت ذلك. نفح ١/٣٦١.

(٤٤) القلائد ٢٨، وعنه فى «بنو عباد» ٦٨/١، ونفح ٤/٢٢٠، والذخيرة ٢/٧١، وبنو عباد ٢/٥٧٧.

(٤٥) الذخيرة ٢/٧٦، وعنها فى «بنو عباد» ١/٣١٨.

(٤٦) ثمة إشارات كثيرة عن هذه الأسطورة عند الشعراء. انظر مثلا: أبو العلاء المعرى، سقط الزند، مقطوعة دالية من بحر الخفيف، البيت ١٧، وابن قزمان، الديوان، القطعة ٤٧، الدور ١، ٢/٧٢٦.

(٤٧) من البسيط، المعجب ١٦٠، والترجمة ٩٤، والديوان ١٦٢.

وكتب ابن عمّار:

علىّ، وإلاّ ما بكاءُ الغمائمِ   وفىَّ، وإلاّ ما نياحُ الحمائمِ(٤٨)

ويمكن أن نذكر الكثير من الأمثلة(٤٩)، ولكنها لا تضيف إلى ما نعرف جديدًا، ويبدو لى أن من الأفضل أن نتحدث هنا عن دور الحمامة فى نقل البريد، والشعر شاهدنا الوحيد على وجودها ابتداء من القرن الحادى عشر فحسب(٥٠)، وإرسال خبر بواسطة الحمام يعبّر عنه بالفعل طيّر(٥١).

وقد طيّر المعتمد عقب وقعة الزلّاقة رسالة إلى ابنه الرشيد(٥٢) وأعلم الراضى والده المعتمد برسالة حملتها إليه حمامة، بأن المرابطين يحاصرونه فى الجزيرة الخضراء فأذنه بتركها(٥٣)، وثمة أبيات عديدة فى ديوان المعتمد تبين أن هذه الوسيلة فى نقل الرسائل لم تكن مستخدمة فى شئون الدولة فحسب، وإنما كان أمير إشبيلية يكاتب أصدقاءه أو نساءه المحظيات شعرًا، ويحمّل أبياته الحمام الزاجل، يرد على أبى الوليد بن المعلّم فيقول:

حُمّتَ بخفّاقة الجناحِ وقدْ   أمكنَ وردٌ فلا يطلْ حَوْمْ(٥٤)

وكتب إلى إحدى نسائه، وحمّل ما كتب حمامة، يقول:

وجاءتِ الطيرُ مُودَعات   سرك، ياسرّ كلٌ مَلكِ(٥٥)

وكتب إلى ابنه المأمون أبى الفتح:

ودونكَ منّا طيورا غدتْ   تطيرُ إليك بريش الودادِ(٥٦)

وكان المعتصم أمير المرية إذا ابتعد عنها يستخدم الوسيلة نفسها ليراسل محظياته:

وحمّلتُ ذات الطوقِ منّى تحيّةً   تكون على أفْقِ المريّة مجمرًا
تُبلِّغ من ودّى إليكم رسائلاً   بأعبق من نَشْر العبير وأعطرا(٥٧)

وحتى العشّاق الأدنى طبقة بلغ بهم الحال إلى التراسل بالطريقة نفسها، إذا صدّقنا رواية ابن حزم، يقول: «وإنى لأعرف من كانت الرسول بينها حمامة مؤدبة، ويعقد الكتاب فى جناحها، وفى ذلك أقول قطعة منها:

(٤٨) من الطويل، المعجب ١١١، وترجمة دى سلان ١٢٨/٣، وبنو عباد ١٠٤/٢.

(٤٩) انظر مثلا: القلائد ٢١، بنو عباد ٥٦/١، مطمح ١٦٩، وعنه فى نفح ٣٦١/٣، وثمة وصف مفصل للحمامة للشاعر ابن حصن فى رفع الحجب المستورة للشريف الغرناطى، ٥٣/١، وترجمها غرسية غومث فى كتابه قصائد أندلسية، القطعة رقم ٤ ص ٤٢ – ٤٣.

(٥٠) فيما يتصل بالمشرق انظر: جو دفروى – ديومبين، سوريا فى عصر المماليك ص ٢٥٠ – ٢٥٤، وكارا دى فو، مفكرو الإسلام ٣٤٦/٢، وقائمة المراجع المذكورة هناك.

(٥١) بنو عباد ١٢٢/١ و ٤٢٨.

(٥٢) ابن الخطيب، الإحاطة ١١٤/٢، وبنو عباد ١٧٦/٢.

(٥٣) الحلة لسيراء ١٠٠/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٧٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢، ١٢٥/٣.

(٥٤) من المنسرح، الديوان ص ٦١.

(٥٥) من البسيط، الديوان ص ٥٩.

(٥٦) من المتقارب، الديوان ص ٤٦.

(٥٧) القلائد ٢٥١ الحلة ٨٤/٢، بنو عباد ١٢٢/١.

تخيّرها نوح فما خاب ظنهُ لديْها وجاءتْ نحوه بالبشائر
سأودعها كتبى إليك فهاكها رسائلَ تُهدى فى قوادم طائر[٥٨]

واستحق الديك من بين الطيور الداجنة اهتمامًا أكبر من الشعراء، ونظم فيه الأسعد بن بلّيطة أبياتًا حظيت بشهرة واسعة على أيامه:

وقام لها ينعى الدجى ذو شقيقةٍ يديرُ لنا من عيْن أجفانِه سِقْطَا
إذا صاح أصغى سمعُهُ لأذانهِ وبادر ضربًا من قوادمه الإبطا
كأنّ أنو شروانَ أعلاهُ تاجَهُ وناطتْ عليه كفُّ ماريةَ القُرْطا
سَبى حلّةَ الطاووس حسنَ لباسها ولم يَكفه حتى سبى المُشيةَ البطا[٥٩]

أما الإوزّ، وربما البجع أيضًا، فلا نجد عليهما شاهداً من الشعر إلاّ بدءا من القرن الثانى عشر، وفى مرج الخز، وهو مكان للتنزّه قريب من قرطبة، على شاطئ الوادى الكبير، وكان الإوز يسبح فى جلال وجمال، وتتناثر على قطرات الماء كأنها ماس[٦٠].

وكان ابن خفاجة الوحيد الذى وصف لنا النعامة، ومن المحتمل أنّه رآها فى إسبانيا نفسها، وأبياته فيها معروفة جيدًا مثل تلك التى كتبها عن كلاب الصيد:

ولربَّ طيارٍ خفيف قد جرى فشلًا بجار خلقَهُ طَيّارِ
من كلّ قاصرةِ الخطىْ مختالةٍ مَشْىَ الفتاةِ تُجرُّ فضلَ إزار
مخضوبةِ المنقارِ تحسبُ أنّها كرعتْ على ظمأ بكأس عُقار
لا تستقرُّ بها الأداحى خَشْيةً من ليلِ وَيْلٍ أو نهارِ بوار[٦١]

●●●

واهتم شعراء الأندلس بالحشرات قليلًا، ولا حظ أبو تمام الحجام، فى بيت من الشعر، أن النحلة تموت مباشرة بعد أن تلسع غيرها:

تصبّرْ وإن أبدى العدوّ مذمّةً فمهما رمى ترجعْ إليه سهامُهُ
كما يفعل النحلُ الملمُّ بلسعه يريد به ضرًّا وفيه حِمامه[٦٢]

وقد شبه السميسر فى بيت من الشعر أمير غرناطةَ عبد الله بن بلقين، لما رآه شغوفًا بتشييد قلعته التى يتحصّن فيها، بأنه مثل دودة القز:

(٥٨) ابن حزم، طوق الحمامة ص ٥٩، وترجمة نيكل ص ٥٠.

(٥٩) من الطويل المطمح ص ٣٤٢، وعنه فى نفح ٥١/٤، والذخيرة ٢/١ (البيت الثالث فقط)، وابن خلكان، الوفيات ٣٦/٢، وترجمة دى سلان ٢٠٠/٣.

(٦٠) نفح ٤٧٤/١، والأبيات لأبى الحسين الوقّشى وابن سعيد الجد الأعلى للمؤرخ. وقد عُرف الأوز فيما بعد على التأكيد، كما نجد ذلك فى المعجم، حيث يورد كلمة «قاقص»، لتحديده. وانظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٢٩٦/٢.

(٦١) من الكامل، الديوان (القطعة ٢ ص ٣٣، الأبيات ٤٠ – ٤٣، والنويرى، نهاية الأرب ٣٤٠/٩، والفزل، مطالع البدور ٢٤٩/٢.

(٦٢) نفح ٤١٨/٣.

يَبْنِى علَى نفسه سَفَاهًا كأنَّه دودة الحرير[٦٣]

وهذه الصور مهما كانت دقيقة لاتكفى وحدها مع ذلك لتثبت أن الأندلسيين عكفوا على تربية النحل، أو دودة القز لنسج الحرير، وإنما المدوّنات النثرية الأخرى وحدها هى التى تسمح لنا بأن نؤكد أن هذا كان موجودًا.

وإذا كان تكاثر الحيوان يقاس بعدد الأبيات التى ألهمها الشعراء فيمكن القول بأن البراغيث والبعوض لم تكن تخلو منها مقاطعة فى أسبانيا الإسلامية، كما فى مقاطعة بلنسية، وقد ذكرنا بعض هذه الأبيات بمناسبة الحديث عن المدن الكبرى فى شبه الجزيرة[٦٤].

يقول السميسر فى كثير من البراعة:

بعوضٌ جَعلْن دمى قهوةً ... وغنَّيْنَنى بضروب الأغانْ

كأنَّ عروقى أوْتارُهنَّ ... وجسْمِى الربابُ وهنّ القيانْ[٦٥]

ولم يكونوا يجهلون فى الأندلس الأسطورة التى تقول بأن النمروذ قتلته بعوضة. يقول الحصرى:

فاحذرْ عدوّك وهو أهونُ هَيِّنٍ ... إنّ البعوضة أرْدتِ النمروذا[٦٦]

وقد رأى الأندلسيون فى الفراشة كائنا يثيره الضوء وفى انفعالها هذا يبلغ بها الحال حتى أن تترك نفسها تحترق بما تبحث عنه، وكانت تكون جانبا من بهجتهم الليلية يسمرون، لأنها فيما يقول أبو عيسى بن لبون:

يارُبَّ ليلٍ شربنا فيه صافيةً ... حمراءَ فى لونها تنفى التباريحَا

ترى الفَراشَ على الأكواسِ ساقطةً ... كأنَّما أبصرت منها مصابيحا[٦٧]

ويقدم لنا ابن إدريس اليمانى أرق الصور شاعرية:

وفتيانِ صِدْقٍ عرّسوا تحت دوْحةٍ ... ومالَهُم غيرُ النباتِ فِراشُ

كأنهم والزهرُ يسقط فوقهم ... مصابيحُ يهوى نحوهنَّ فَراش[٦٨]

ويرى ابن حزم فى الفراشة تحترق العاشق شفه الوجد:

كم دُرْتَ حول الحب حتى لقد ... حصلْتَ فيه كحصُول الفَراشْ

---

(٦٣) نفح ٤١٢/٣، دوزى، أبحاث ط ١ ص ١٠٧، وطبعة ٣ ٢٦١/١، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، الترجمة الفرنسية، فصلة، ص ٢٧ – ٢٨ (رقم ٦٠) و ٢٠٩.

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٠٨ و ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٥) من المتقارب، نفح ٣٢٩/٣، ابن دحية، المطرب ٩٣.

(٦٦) من الكامل، نفح ١٥٤/٢. وفيما يتصل بالنمروذ وأسطورة البعوضة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩٠١/٣، وكتب المادة ب. هيللير.

● قلت: وهم المؤلف فنسب الأبيات لأبى عبد الله محمد بن طاهر الدانى، والحق أن هذا يرويها عن الحصرى، ونص النفح صريح فى هذا، يقول أبو عبد الله: وأنشدنى الحصرى لنفسه. (المترجم).

(٦٧) من البسيط، القلائد ١٠١، الحلة ١٧٠/٢.

(٦٨) من الطويل، النواجى، حلبة الكميت ٢٧٧.

تعشو إلى الوصلِ دواعي الهوى　　كما سرى نحو سنا النارِ علش(٦٩)

تظهر لنا المقتطفات السابقة، مع بعض الاستثناءات، أن الأندلسيين لم يكونوا شعراء كونيين، مصوري حيوانات، وكانت الطبيعة بالنسبة لهم قبل أي شيء، إطارا واسعًا يفضلون أن يضعوا فيه كل شيء يحاولون بحق أن يشخصوه. ولم يضيفوا، بعد المشارقة الذين استنفدوا هذا المجال تمامًا فيما يبدو، جديدًا إلى هذه الموضوعات الشائعة، إلا تنوّعا وعمقا وذكاء في كثير من الأحيان، مما يجلو أكثر ملمحهم المتعارف عليه. وعوضًا عن ذلك نراهم ركزوا إهتمامهم في جوانب الوسط الإنساني. وإذا كان شعرهم يعكس دائمًا تأثرًا مشرقيًا ،إلا أنه، مع ذلك، يتضمن بعض الإضافات الدقيقة التي تنير بضوء خاص حياة المسلم الإسباني ونفسيته.

---

(٦٩) من السريع، ابن حزم، الوق ٩٧، وترجمة نيكل ٩٥، وطبعة برشيه ١٧٠.

الباب الثالث

وثائق عن الحياة الاجتماعية
يمدّنا بها الشعر الإسبانى



○ الفصل الأول:

الوسط العِرْقى

قال دوزى قريبا من منتصف القرن التاسع عشر الميلادى: «ليس ثمة شيء أصعب من دراسة عادات المسلمين وتصرفاتهم فى العصور الوسطى، وغالبا ما تلعب المغامرة دورا كبيرا فى معرفتنا ببعض الأحداث الهامة والمثيرة، ذلك لأن المؤلفين العرب قليلا ما يتحملون عناء تسجيل ما كان معروفًا فى أيامهم بعامة»[1].

وهى مشكلة تعرض لنا لا بالنسبة إلى المسلمين فحسب، وإنما أيضًا بالنسبة لكل مجتمعات العصور الوسطى[2]. ولكن، هل يعنى هذا أننا يجب أن نتخلى عن رسم لوحة للحياة خلال هذا القرون الموغلة فى القدم؟ لا نعتقد هذا. وإذا كنّا بالنسبة لإسبانيا الإسلامية لانملك قصصا تعكس صورة المجتمع بكل جوانبه[3]، فنحن نملك على الأقل، وتحت أيدينا، المؤلفات التاريخية، والمنتخبات الأدبية، التى تشكل أحداثا صغيرة عن النشاط اليومى للإسبان المسلمين، ولبيان ملامح حياة الأندلسيين فى عصر بعينه لابد من إعطاء مكانة خاصة للأعمال الإبداعية، والإنتاج الشعرى من بينها بخاصة.

فالشعر رغم ما فيه من خيال، ورغم ضرورات الأسلوب التى تضغط عليه، ومن ميله إلى خلق حياة مثالية على هامش الحياة اليومية أو فوق مستواها، لايمكن - دون شك - أن يتجاوز الواقع الذى ينقله لنا، ولكنه الواقع الذى لايستطيع أن ينفصل عنه تماما، وتوضح لنا دراسة النصوص الشعرية فى أناة كثيرا من الأحداث أو الملاحظات المباشرة، وتسمح لنا بأن نلمح بعض جوانب الحياة فيما مضى.

وفى الصفحات التى سلفت، بمناسبة الحديث عن الموضوعات الشعرية الشائعة التناول، استطعنا أن نبرز الإشارات الكثيرة إلى نشاط الأندلسيين الاجتماعى والأخلاقى والثقافى وسنحاول أن نجمع فى الفصول التالية الإشارات التى تميل إلى إظهار حياة الفرد فى المجتمع بطريقة أكثر مباشرة، وإذا كانت الحياة بهذا الأسلوب نفسه تبدو لنا ناقصة أو مُجتزأة، فإنها توضح لنا على الأقل الجوانب الأوضح أصالة، وبهذه الطريقة نستطيع على نحو أفضل أن نقيِّم مزاج الشعب كُلًا، والذى رغم الظلال المتفاوتة وغير المتناسقة فيه، كأى مجتمع آخر، يقدم لنا ملامح عامة مشتركة تميِّزه عن المجتمعات الوسيطة الأخرى.

---

(١) دوزى، أبحاث، نشرت عام ١٨٤٩، ص ١٥٠.

(٢) م. ماريو روك، وقاله فى مقدمته لكتاب جوان إيفان: حضارة فرنسا فى العصر الوسيط، باريس ١٩٣٠.

(٣) ومع ذلك فابن الكتانى (وعنه سوف نتحدث فى ص ٣٣٧ - ٣٣٨ من هذا الكتاب) ألف كتابًا مثيرًا أسماه «محمد وسعدى» وهو فيما يبدو حياة جاءت فى شكل رواية، ولكننا لا نملك عنه أية معلومات أخرى. الضبى: البغية، ص ٥٧ رقم ٨١.

يحاول الشعر أن يخبرنا، فى المقام الأول، بالعناصر العرقية التى كان يتكون منها الشعب الإسبانى: العرب والمولّدون والصقالبة والبربر والأرقاء الأفارقة والسود واليهود والمستعربون.

وكان العرب حتى منتصف القرن العاشر الميلادى ينقسمون إلى فرعين يتخاصمون غالبا: المضريون واليمنيون، أو القيسيّون والكلبيون. وفى مصطلح ثالث العدنانيون والقحطانيون، ثم بدأوا يفقدون إحساسهم بأصولهم الشرقية القائمة على مفهوم الانتماء إلى قبيلة معيّنة، وتخلّوا تدريجا عن أنسابهم العرقية[٤] التى ارتبطت بوجودهم بدوا أو نصف حضريين وقد هجروها منذ زمن طويل، وما لبثوا أن اتخذوا لهم بعامة أنسابا تذكرهم بالمكان الذى ولدوا فيه: مدينة أو قرية أو ضيعة أو كورة. وفيما يبدو هنا يكمن الدافع الأساسى الذى يظهر بوضوح تطوّر العرب فى إسبانيا من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار. ويوصف الشخص بأنه فقيه أو قاض أو قائد أو وزير أو شاعر أو أديب قبل أن يكون مخزوميا أو قيسيا أو قرطبيا أو إشبيليا[٥]. وقد تعلّق العربى بالأرض، وهذا ما جعله يفقد الصفات التى يعتبرها ابن خلدون أساسية فى قيام الممالك وبقائها، وهذا التغيير فى شعوره نحو الأرض وهو ليس بعيدا عن الإحساس بالوطنية، ودعمه قليل من الكفاح والمعاناة المشتركة، تعاونت كلها على تقوية الوجود الحقيقى، وأشاعت الإخاء بين أفراد المجتمع.

وكان هذا التغيير العميق فى بناء الجماعات العربية من عمل المنصور بن أبى عامر، طبقا لفقرة أوردها ابن غالب فى كتابه «فرحة الأنفس»، ونقلها لنا المقّرى فى «نفح الطيب»[٦]. ولكن يبدو أن المنصور بدل أن يسبق الحوادث ويدعو إلى الإصلاح بأمر منه نفسه، آثر فى سياسة فطنة أن يبقى الأمر فى الجيش على ما كان عليه الحال واقعا فى المجتمع[٧].

وأدرك المهتمون بدراسة الأنساب أن الأسر التى تنتمى إلى القبيلة الواحدة، أو البطن الواحد،

---

(٤) نسب المسلم الإسبانى انتماؤه العرقى إلى إحدى القبائل.

(٥) أشد الأمثلة دلالة نلتقى به فى أصول الأمريين الإسبان الذين استقروا فى رميمة فى مقاطعة قرطبة، فقد تخلوا عن نسبتهم المروانية، كما كان يفعل أسلافهم، وانتسبوا بدلاً منها إلى رميمة، فكان الواحد منهم يقال عنه رميمى، انظر نفح ٥٣٤/٣.

(٦) نفح ٢٩٣/١ وإسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٠.

(٧) تاريخ الجند السوريين يقدم لنا أقوى دليل، فقبل المنصور بقرن من الزمان أظهر الجغرافى المؤرخ اليعقوبى، المتوفى ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م، امتزاج تلك العناصر. انظر مؤلفه: كتاب البلدان فى سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٨ ط ٢، ١٨٩٢، ص ٣٥٤ – ٣٥٥. وترجمة فييت له، القاهرة ١٩٣٧، ص ٢١٨ – ٢٢٠. وكان جند دمشق الذين استقروا فى إلبيرة (غرناطة) يتكون من المضريين، والقيسيون منهم بخاصة، واستقر جند الأردن فى رية (مالقة) ويتكون من قبائل يمنية، وجند حمص فى شذونة (وإشبيلية)، وهم من اليمنيين فى جملتهم ومن بعض النزاريين (المعديين)، وجند قنسرين فى جيان، وهم خليط من معديين ويمنيين. والمعلومات التى يقدمها لنا علماء الأنساب فى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر، وهى تالية لملوك الطوائف قليلاً، تنتهى بإقناعنا. والوثيقة الأعظم أهمية هى كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ط . القاهرة ١٩٤٨ بتحقيق ليفى بروفنسال [والطبعات التالية بتحقيق عبد السلام هارون وهى أدق وأكمل]، وقد أخذ ابن حزم جانبا من معلوماته من «كتاب فى أنساب مشاهير أهل الأندلس» فى خمسة أجزاء، لأحمد بن محمد بن موسى، وكتاب فى الأنساب لقاسم بن أصبغ، وكتاب الطوالع فى أنساب أهل الأندلس لمؤلف مجهول وانظر رسالة ابن حزم فى الرد على ابن الربيب القيروانى، فى نفح ١٥٦/٣، وعندما درس المقرى هذا العصر اعتمد على اثنين من علماء الأنساب: الحازمى المتوفى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م، مؤلف «كتاب الفصل»، انظر ياقوت، معجم البلدان ٦/١ و ٧٥ و ١٧٠ و ٢٥٦. وابن غالب من القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، وأتيحت لنا الفرصة فتحدثنا عنه فيما سبق، ص ٢٤ من هذا الكتاب انظر نفح ٢٩٥/١ – ٢٩٨.

تفرقت على امتداد كل الأراضي الإسبانية[٨]، وذلك يمثل أيضا إحدى الخصائص الأكثر وضوحا، لأن بعض العناصر نسيت أصولها الأولى، وأصبحت لا تولى هذا الموضوع أى اهتمام[٩].

السبب المبدئى والجوهرى لإهمال سلسلة الأنساب، وكانت تمثل فى الماضى الرابطة الاجتماعية الأقوى، يجب أن نبحث عنه بين العدد المحدود من العرب الذين اتخذوا من أرض إسبانيا مقاما. لقد جاءوا إليها دون زوجاتهم، واضطرتهم الحاجة إلى تكوين أسرة للزواج، أو اتخاذ عشيقات، من نساء إسبانيات. وبعد عدة أجيال امتزجت دماء العرب بالدماء التى كان أصحابها يسكنون إسبانيا قبل الفتح، وجعل منهم الدين، واللغة إلى حد ما، عربا فى الظاهر[١٠]، ولكنهم واقعا كانوا إسبانيين.

وإذا كان الجانب الأكبر من الشعب نسى أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيرا بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء على النقيض، يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، ليبرهنوا على نقاء دمهم العربى، ولم يتردد الشعراء الذين درسوا الأنساب العربية أيام طلبهم العلم فى استخدام معارفهم والعزف على هذا الوتر الحساس، وضربنا بعض الأمثلة التى توضح هذا فيما سبق[١١]، وأبيات ابن عمار التى أوردناها فيما سبق عن أصول بنى عبّاد تظهر أن الشعراء لم يكونوا دائما غافلين عن الدور الذى عليهم أن يلعبوه[١٢].

●●●

كانت غالبية الشعب فى إسبانيا من الإسبان الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، ورغم اعتناقهم دين المنتصرين فقد غيّروا فى الحقيقة أشياء قليلة من نماذج حياتهم.

* وهؤلاء الذين اعتنقوا الدين الإسلامى قد يكونون من اليهود أو من الجنس الإيرو رومانى، وهذا فى غالبيته يدين بالكاثوليكية، وكان المؤرخون العرب يطلقون على الواحد منهم اسم مُسْلِمانى، وعليهم جميعا صيغته فى الجمع مَسالِمة، ويميزون بينهم فيطلقون على الأوائل اسم إسلامى أو إسرائيلى وعلى الآخرين اسم أسلمى، وجمعه أسلاميون أو أسالِمة[١٣]. أما أطفالهم الذين انحدروا من أصلابهم

---

(٨) مثلا استقر الحضرميون فى مرسية وغرناطة وإشبيلية وبطليوس وقرطبة. نفح ٢٩٨/١ طبقًا لابن غالب.

(٩) وكان هذا منذ عصر الحكم المستنصر بالله. يقول ابن الآبار، نقلًا عن ابن حيان: وكان الحكم «باحثًا عن الأنساب، حريصًا على تأليف قبائل العرب، وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته التى هو منها»، الحلة ٢٠١/١، وانظر أيضًا فقرة أخرى واضحة الدلالة فى الكتاب نفسه ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

ويقول المعتمد فى رسالته التى وجهها إلى يوسف بن تاشفين فى جمادى الأولى ٤٧٩ هـ = أغسطس ١٠٨٦ م «لقد اختلطت أنسابنا وأصبحنا شعوبًا وقبائل»، أنظر: الحلل الموشية، طبعة تونس، ص ٢٩، ط علوش، ص ٣٣، وعنه فى «بنو عباد» ١٨٩/٢. وهو على التأكيد يشير إلى الآية القرآنية، وهى قاعدة أى مبدأ شعوبى: «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا»، سورة الحجرات، الآية ١٣، وانظر تفسير البيضاوى، طبعة فليتشر ٢٧٦/٢.

(١٠) انظر: ريبيرا، نبذ ومقالات، ٢٦/١ يقول: لقد أعطى الدين الإسلامى لونًا للمجتمع الإسبانى «مثل قليل جدًا من الحبر الأحمر كاف ليضفى لونًا أحمر على بركة ماء، دون أن يتغير تركيب الماء الكيمائى جوهريًا».

(١١) انظر فيما سبق ص ٨٥ من هذا الكتاب.

(١٢) انظر ص ٨٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

(١٣) سيمونيت، تاريخ المستعربين، ص ١٦ هامش ٢، وليفى برفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١٨ رقم ١، ودوزى، ملحق المعاجم، مادة مسالمة، ٦٧٩/١، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم، ط. شيخو ص ٨١، وترجمة بلاشير ص ١٤٨.

فيطلق عليهم المؤرخون اسم «المولّدون»، وبعد عدة أجيال لم يكونوا يختلفون أو يتميزون عن المسلمين القدامى، وبلغ التزاوج بين طبقة وأخرى مستوى عاليا حيث غلب الدم الإسبانى.

بعامة كان المولّدون يتخذون أسماء عربية، وهى شىء طبيعى إذا أخذنا فى الحسبان أن المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم وظلوا يعيشون بين المسلمين، وأطلق عليهم اسم المستعربين، كانوا فى حالات كثيرة يتخذون أسماء عربية[١٤]. ولكن، كما حدث فى بلاد إسلامية أخرى[١٥]، كان من الممكن أن يحتفظ المسالمة والمولّدون بأسمائهم غير العربية دون أن يحدث هذا أى قلق للمسلمين الوافدين، حتى فى السنوات الأولى من الفتوح[١٦]. ومن الواضح أن المسلمين الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية هم أصلا من طبقة الرقيق قبل الفتح، فلما اعتنقوا الإسلام بعده أعتقوا، وأصبحوا أحرارا، أو موالى كما كانوا يُسمّوْن[١٧].

إن وجود هذه الأسماء واستمرارها دليل لا على الإضافات القوية التى حملتها العناصر الإيبرية إلى الجنس الإسبانى المسلم فحسب، وإنما أيضا على تأثيرها الفعال فى المفاهيم العربية لسلاسل الأنساب. لقد علّم الجنس الإسبانى الشعب الفاتح استخدام الألقاب العائلية، وليس أصعب، إلا على العلماء المتخصصين فى الإنساب ولم يكن عددهم كبيرا، من أن تتعرف الجماهير على أصل فرد فى سلسلة طويلة من الأسماء، مرتبطة واحدا وراء آخر بلفظ «ابن». أما السلالة العرقية المنسوبة إلى أماكن الأصل وأسماء العائلة فتشير إلى أن الانتقال من حال البداوة والنجعة بلغ أقصى غاياته من الثبات

---

(١٤) الأمثلة الأشد دلالة نجدها فى قاضى لنصارى فى قرطبة، وكان يحمل اسم وليد بن خيزران، وأسقف طليطلة وكان يعرف باسم عبيد الله بن قاسم. انظر: نفح ١/٣٩٠، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ١ ص ١٧٧ و ١٨١. ونستطيع أيضا أن نذكر أسماء نصارى ليون، وهم مستعربون دون شك، وعاشوا فى الأراضى الإسلامية قبل أن يهاجروا إلى الأراضى النصرانية، وقد خصهم غومث مورينو بفصل فى كتابه «كنائس المستعربين» ص ١٠٧ - ١١٨، وأبرز هذا العالم الموسوعى الإسبانى، ص ١١٠ رقم ٦، الأسماء التالية: سبرياندو الغالب، تخيلا أبو حبس، وغومث عبد الله، ويوانس العطار، وبرمودو أبو الليث.

(١٥) يتجه تفكيرنا إلى إيران بخاصة حيث بقيت أسماء كثيرة فى صورتها الفارسية، مثل: رستم، وسيبويه، وخالويه، وخرداذ به، وغيرها.

(١٦) فى إشبيلية خلال حكم عبد الرحمن الثانى بلغ بنو أنجلين وبنو شبريق شهرة واسعة. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٤٠، وليفى بروفنسال فى: إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ص ١٩.

ثمة تقى قرطبى يدعى ينير، بالإسبانية Jannarus O Gener . نلتقى به عام ٨٣٦ م فى قضية لا يتحدث بالعربية، وإنما بالرومانثية. انظر: الخشنى، قضاة قرطبة، ط. كوديرا، ص ١١٨، ومينندث بيدال، أصول الإسبانية ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٧) سيكون مفيدا أن نحصر كل الأسماء الأسبانية التى تظهر فى أنساب الشخصيات الإسلامية، وقد قدم لنا سيمونيت قائمة تحتوى خمسة وعشرين اسمًا. انظر: تاريخ المستعربين، ص ٩٦، هامش ٦. ومن السهل زيادة العدد على نحو ملحوظ بقراءة المؤلفات المتصلة بالغرب الإسلامى، وبخاصة كتاب نفح الطيب للمقرى، والمكتبة العربية الإسبانية، ولكن رد هذه الكلمات إلى أصولها الصحيحة، أو على الأقل بعضها، سوف يكون عملاً جافًا، لأن المؤلفين العرب، بما فيهم الذين ينتمون إلى الغرب الإسلامى، حوّروا هذه الأسماء، أو حرفوها، لأنهم لا يعرفونها، أو لا يفهمونها. وثمة صعوبة أخرى ليست بأقل أهمية، هى العثور على اشتقاق الكلمة الصحيح، فنحن نعرف أن الاشتقاق القديم لكلمة ابن بشكوال هو Hijo de pascual، وأن هذه حلت مكان كلمة Hijo de Vasquito. انظر: مينندث بيدال، أصول الإسبانية مدريد ط ٢، ١٩٢٩، ١/١٤٩. وفيما يتصل بابن قزمان سوف يكون مغامرة أن نؤكد أصل الكلمة الرومانثى، إذا أخذنا فى الحسبان أن هناك عربًا قدماء كانوا يحملون هذا الاسم. انظر: تاج العروس، جـ ٩ ص ٢٥، ويتحدث ابن هشام، المتوفى ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م، فى «سيرة الرسول»، جـ ٢ ص ٣٧٢، وفى طبعة وستنفلد ٢/٥٧٨، عن محارب كان يدعى قزمان، وأنه بلغ نهايته بسبب جروحه.

والاستقرار[١٨]. ولم يحدث فى أى بلد آخر أن استطاع العنصر العربى أن يذوب فى الشعب المهزوم، ويمثل هذا التجانس القوى، كما حدث فى إسبانيا.

● ● ●

كان الجانب الأندلسى، أو الإسبانى إذا شئت، يعتمد منذ بداية «الفتنة» على عنصر ذى أهمية سياسية تساوى أهمية العرب الأندلسيين إن لم تفقهم، وأعنى بهم الصقالبة[١٩]. وهى كلمة تُطلق على كل الرقيق الذين أسرهم القطلان أو المسلمين على شواطئ البحر الأبيض الأوربية، أو اشتروهم من فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا وجاءوا بهم إلى إسبانيا، ويظن أن الخليفة الأموى الحكم الثانى أول من استخدمهم[٢٠]، ومن المحتمل جدا أن هذا تم بعد أن تلقى هدية قدّمها إليه كونت برشلونة وكونت طركونة فقد أرسل إليه هذان، فى الحقيقة، عشرين عبدا خصيًّا ليعملوا فى الحريم[٢١]، ومنذ تلك اللحظة عم استخدامهم: فى الجيش، وكانوا جنودا ممتازين، وفى الحريم بعد خصائهم، واضطلعوا بالأعمال التى كان يقوم بها اليهود عادةً[٢٢]، وأصبحوا خدما كتومين[٢٣] ومخلصين. ومن صقالبة أصبحوا موالى فى نفس الظروف التى عرضت للأسرى المسيحيين فى شمال إسبانيا، وعلى النقيض من الموالى المسيحيين الذين ظلوا فى المجتمع الإسبانى الإسلامى واصل الصقالبة حياتهم متضامنين فيما بينهم، ولم يتخلوا عن هذا الروح أبدا، وقد ازداد عددهم كثيرا، وتعاظم دورهم عند الخلفاء الأمويين، وكان فى بداية الأمر متواضعا ثم أخذ يقوى تدريجا حتى تساوى مع مسئولية الأسر الأرستقراطية الكبرى، عربية أو بربرية أو مسيحية، التى تحيط بأمير المؤمنين. وبفضل نفوذهم الذى استمدوه من قربهم من الخليفة، وأيضا بسبب الثروات الهائلة التى عرفوا كيف يجمعونها، وسمحت لهم بشراء مساعدة الرجال، حاولوا أن يحكموا إسبانيا الإسلامية فى مطلع القرن الحادى عشر، وهم الذين حرّضوا على ثورة القصر التى أزاحت عبد الرحمن شنجول ابن المنصور بن أبى عامر عن الحجابة، ونادت بالمهدى خليفة، ورأينا فيما سبق كيف أن هذه المؤامرة أشعلت نيران «الفتنة»، وهى مرحلة الاضطرابات التى انتهت بزوال الحكم الأموى نهائيا، وقيام دول الطوائف الصغيرة على أنقاضهم، والتى ظلت قائمة حتى مجىء المرابطين.

---

(١٨) لا تزال بعض الأسر الأندلسية القديمة التى هاجرت إلى الرباط وتطوان تعرف بأسمائها الإسبانية، مسبوقة بلفظ «ابن» أو «بنو» انظر: ل. برونو، نصوص عربية من الرباط، ١٠/١، ودائرة المعارف الإسلامية ١١٦٣/٣ ومابعدها، مادة رباط، وكتبها ليفى بروفنسال.

(١٩) فى العربية صقلبى وجمعها صقالبة نسبة إلى صقلب أو صقلاب، وأحيانًا بفتح الصاد، أو بالسين: سقلاب. وفيما يتصل بأصل هذه الكلمة أنظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ٢٨ - ٣١، وتاريخ إسبانيا الإسلامية ط ٢ جـ ٢ ص ١٢٢ - ١٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية ٧٩/٤ مادة صقالبة وكتبها ليفى بروفنسال.

(٢٠) نفح ٣٤٦/١، طبقًا لابن خلدون.

(٢١) نفح ٣٨٤/١.

(٢٢) كان بردون قد مر بمصنع خصيان، انظر دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٥٤، ومزيدا من التفصيلات فى: المقدسى، فى المكتبة الجغرافية العربية، مجلد ٣ ط ٢، ص ٢٤٢، وترجمة بيلا له ص ٥٦ - ٥٩.

(٢٣) كان الحكم الثانى يلقبهم بالخرس انظر نفح ٣٤٢/١ نقلا عن ابن خلدون.
وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ١٣٠، هامش ٢.

فى بداية الفتنة حاول الصقالبة. ماكرين ومتآمرين، وعلى ثقة من دعم الجيش لهم، حيث الكثيرين منهم يتولون المناصب الهامة، أن ينتهجوا سياسة مليئة بالمبادرة، تضمن لهم تحقيق طموحاتهم، فتظاهروا بالعمل إلى جانب الحزب الإسبانى تارة، وإلى جانب الحزب البربرى أخرى، ولكنهم سرعان ما أخذوا جانب الحزب الأول، واعتقدوا أن مصيرهم متعلق به. وأثناء ذلك بدأت ثرواتهم تضمر، ونفوذهم ينكمش، وفقدوا تدريجيا دعم الذين كانوا يعتمدون عليهم، وبما أن جذورهم فى البلد لم تكن بعيدة العمق فإن الحزب الإسبانى حقا انتزع منهم أولا قرطبة، ثم المرية، وبعدها طرطوشة، وأخيرا بلنسية، وفى اللحظة التى استقرت فيها دول الطوائف قريبا من منتصف القرن الحادى عشر، لم يكن مع الصقالبة غير كورة واحدة، ظل نفوذهم فيها قائما وأكيد، وهى دانية، وتتبعها الجزائر الشرقية، وجزيرة سردينية لبعض الوقت. وفيما يتصل بسياستهم كانت ذات طابع إسبانى، أى قومية إذا شئت، وأخذوا جانبا فى الكفاح ضد البربر ثم مالوا إلى العزلة تدريجا، إلى أن أصبحوا سكان جزر، وتخصصوا فى القرصنة فى الشواطئ الأوربية.

وبانحسار دور الصقالبة السياسى على هذا النحو لم يعودوا يتولون الوظائف الكبيرة فى البلاطات الصغيرة فى شبه الجزيرة، إسبانية أو بربرية، والتى كانوا يشغلونها بجوار الخلفاء الأمويين خلال القرن العاشر الميلادى، ونجد بعضهم حول الخليفة على بن حمود، وثلاثة منهم اغتالوا هذا الحمودى فى الحمام[٢٤]، واستخدمهم أيضا أدريس الثانى فى مالقة[٢٥]. وعندما استسلم آخر بنى زيرى فى غرناطة عبد الله بن باديس للمرابطين فى عام ١٠٩٠ م، كان بلاطه يتكوّن فى معظمه من الصقالبة[٢٦].

وقد قدّم لنا الشعراء معلومات عن الصقالبة، ضئيلة دون شك، ولكنها دقيقة، وأعطانا ابن درّاج القسطلّى تفصيلات مميزة عن عادات أميرى بلنسية مبارك والمظفّر فى تزيّنهم بالحلقن كالسيدات، يقول:

فللصُّبح فيما بين قُرطيْكَ مطْلَعٌ وقد سكن الليلُ البهيمُ خِمارَكا

وإذا كان هذا البيت قد أكمل معارفنا عن الطريقة النسائية لهذين الخصيّين، فإن البيت التالى وورده فى القصيدة نفسها:

هـو الملك لا بلقيس أدركَ شأْوهـا مداكَ ولا الزبّاء سقت عباركـا[٢٧]

نجد فيه تشبيه الأمير بالنساء، وهذه صورة وحيدة فى الأدب العربى فيما أرى!. ولكن من الحق أن نعترف بأن الملكتين القديمتين أضمرتا من الرجولة فى موقفهما ما يجب أن يجعل الخصيّين يشعران بالبهجة لمثل هذا التشبيه.

● ● ●

إذا كان العنصر العربى، على نحو ما رأينا، لم يكن يمثل إلا جانبا يسيرا فى الشعب الإسبانى فإن

(٢٤) أعمال الأعلام ص ١٢٩

(٢٥) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢، ٣٦/٣.

(٢٦) المصدر السابق ١٤٤/٣

(٢٧) من الطويل، أعمال الأعلام ٢٢٣.

البربر كانوا على النقيض، جاءوا منذ الفتح إلى آخر القرن الحادى عشر، وحتى مطلع القرن الذى يليه، فى هجرات متواصلة وكثيفة نسبيا. وكانت المجموعات الوافدة من قبيلة زناتة فى البدء، ثم تقوّت بآخرين من قبيلة صنهاجة، وفى النهاية أصبحت الأغلبية من هذه القبيلة الأخيرة.

وفى بداية القرن الحادى عشر، خلال أيام الفتنة، كان البربر كلهم، دون تمييز بين طوائفهم، من أنصار عبد الرحمن شنجول، وضد المهدى، وبعد ذلك انحاز محمد بن يَعلىَ رئيس زناتة مع أتباعه إلى المهدى[٢٨]، وأدّى هذا التحوّل إلى نتائج مدمِّرة بالنسبة له، وبخاصة بعد معركة قَنتيش حيث فقد الكثيرين من أتباعه. وبعد أن قتل المهدىُّ شنجولَ تجمع البربر من زناتة وصنهاجة حول الخليفة المرتقب سليمان، لعمل جبهة تناهض الحزب الإسبانى، وفى هذه اللحظة أُقطعت لهم الأراضى فى الجنوب، والجنوب الشرقى، من شبه الجزيرة[٢٩].

وقد تلقى الصنهاجيون بقيادة حبوس بن ماكسَن إلبيرةَ (غرناطة) وكورتها، وتلقى بنو دَمَّر وأزداجة شذونةَ ومَوْرور، وبنو خزرون شريشَ وأرقش، وتبع ذلك بنو إِرْنيان فأخذوا شذونة وأرقش، ومن الزناتيين تلقى بنو برزال جيان وذواتها، على حين أقام بنو إفران فى رندة.

وفيما يبدو لم يكن الاتفاق قويا بين صنهاجة وزناتة منذ البداية، لأن زاوى بن زيرى وخاف الضغائن والأحقاد القديمة قرر أن يعود إلى أفريقية[٣٠]، ولكن الجانب الأكبر من الصنهاجيين لم يتبعه. ومع ذلك، يمكن القول أن عنصرى البربر ظلاّ بعامة طوال القرن الحادى عشر فى حالة وفاق: يكوّنان جانبا من جيش الخليفة سليمان، وناضلا ضد الحزب الإسبانى مع الخلفاء من بنى حمّود.

وكان جيش على بن حمود يتألف، كما يقول الشاعر الشيعى ابن الحَنّاط الضرير، من كتائب من صنهاجة وزناتة[٣١]. وقد استيقظت روح الجنود أمام هجوم الحزب الإسبانى، وبخاصة منذ اللحظة التى طمح فيها المعتضد أمير إشبيلية إلى حكم كل نصف الجنوب على الأقل، إن لم يكن إسبانيا الإسلامية كلها. وثمة حدث جدير بالملاحظة: لم يكن أمراء صنهاجة، وإنما أمراء زناتة هم الذين انهزموا، ولقد قلنا فى الفصل الأول كيف امتصت مملكة إشبيلية فى سرعة كل الإمارات الزناتية الصغيرة[٣٢].

(٢٨) البيان المغرب ٦٥/٣ - ٦٨. وابن خلدون فى نفح ٤٢٧/١، وأعمال الأعلام ٩٧.

(٢٩) البيان المغرب جـ٣ ص ١١٣ و ٢٣٠ و ٢٦٨ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٩٤، وفى تاريخ مسلمى إسبانيا ٢١٩/٣، وأعمال الأعلام ص ١١٩، طبقا لابن حمادة، و ٢٣٨ - ٢٤١. ونفح ٤٢٩/١ طبقا لرواية ابن خلدون، وليفى بروفنسال، المعتضد فى دائرة المعارف الإسلامية ٨٣١/٣، وفى أفريقيا أعطيت سبتة لعلى بن حمود، وطنجة وأصيلة للقاسم بن حمود. أما سرقسطة فقد عيّن سليمان لها المنذر بن يحيى.

(٣٠) انظر: البيان المغرب ١٢٩/٣، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، ص ١٠ فصلة مستقلة.

(٣١) ولابد أن كتامة أيضا اختلطت بالصنهاجيين، وأحدهم كان مكلفا بأن يقدم لمحمد بن إدريس فى مالقة عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م كأسا مسموما. انظر: البيان المغرب ٢١٨/٣ ويمكن أن يكون السطيفى، وهو بربرى ووزير إدريس الثانى من كتامة، ويعود أصله إلى سطيف البيان ٢٩١/٣.

(٣٢) حاول بنو برزال أن يفلتوا من المعتضد، واقترحوا على ابن ذو النون أن يقيم فى المدور بدل قرمونة. انظر: البيان ٢٦٩/٣ و ٢٨٣، وأعمال الأعلام ٢٣٧ - ٢٤٠. وأراد بنو إرنيان وبنو خزرون أن يدخلوا مملكة غرناطة وأن يتنازلوا لباديس بن حبوس عن قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد شذونة، ولكن المعتضد حقق بإزاحتهم القضاء على القبيلتين الزناتيتين. انظر: البيان المغرب ٢٧٢/٣، وأعمال الأعلام ٢٣٩ - ٢٤٠.

ومن الآن فصاعدا لم يعد الزناتيون يقيمون فى غير كورتى مالقة وغرناطة[٣٣]، وكالصنهاجيين تأندلسوا سريعا، وعندما قرر يوسف بن تاشفين إزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم هاجم غرناطة أولا حيث يحكم الأمير عبد الله، وكان قد فقد كل خصائصه البربرية.

أما الأسر الحاكمة ذات الأصول البربرية والتى حكمت فى بطليوس وطليطلة والسهلة فكانوا يطبقون منذ «الفتنة» سياسة أندلسية.

كان بنو رزين، ويعرفون أيضا بنى الأصلع، من بربر هوّارة[٣٤]، يتبعون سياسة حكيمة، ومن خلال سياسة فطنة عرفوا كيف يحتفظون بحيادهم فى أرض السهلة، أو شنتمرية ابن رزين كما كانت تسمى أيضا، وتأندلسوا بعمق، ولم يحاولوا أبدا، فيما يبدو، أن يقتربوا من العرب، وشاغلهم الأوحد أن يستمتعوا بمباهج الحياة، وكانت مطربات حسام الدولة ابن رزين من أجمل فنانات إسبانيا وأعظمهن[٣٥].

وكان بنو ذى النون يحكمون طليطلة، وهم من البربر أيضا، ولم يصب اسمهم القديم «زنّون» إلا تحريف يسير، وكان المنصور هو الذى عهد إليهم فى القرن الماضى بحكم مقاطعة شنت مرية. وخلال «الفتنة» قام سكان طليطلة المتمردون بطرد حكامهم واستدعوا بنى ذى النون[٣٦]. وحاول هؤلاء البربريون أن يصطنعوا لهم نسبا حميريا، أى عربيا قديما، ولم يكونوا يتساهلون أبدا فيما يتصل بقضية النسب والعرق، وكان الأبناء غير الشرعيين يهاجمون بقسوة على نحو يضطرهم إلى الفرار من طليطلة لكى يهربوا من الموت[٣٧].

أمّا بنو الأفطس أمراء بطليوس فينحدرون من أبى محمد عبد الله بن محمد بن مَسلمة، ويُعرف بابن الأفطس[٣٨]. ومن اتحاد بربر مكناسة[٣٩] الذين استقروا لحظة الفتح فى فحص البلّوط، شمالى قرطبة، وفى القرن الحادى عشر ادّعوا أنهم ينحدرون من قبيلة تجيب، أى اعتبروا أنفسهم يمنيين.

أبرز الشعر، كما لاحظنا ونحن نعرض الأحداث التاريخية كما رآها الشعراء، وجود تناقض حاد وضع الأندلسيين فى مواجهة البربر القادمين من قريب، وسوف نوضح هنا مظاهر لهذا التناقض من نوع آخر، وهى أن الشعب الإسبانى كان يحتقر بشدة هؤلاء الأفارقة الجهال، وظل يجرى على الشفاه بيتان ساخران لشاعر مجهول، ومهما كان استهلاكهما فإن هذا لا يقلل من حداثتهما:

رأيتُ آدمَ فى نومى فقلتُ له: أبا البريّةَ إن الناس قد حكموا

---

(٣٣) الأعمال ٢٣٠، وكان باديس بن حبوس سلطان الصنهاجيين «ويستخدم الكثير من قبائل زناته».

(٣٤) الحلة ١٠٨/٢، والبيان ١٦٦/٣ – ١٨٤.

(٣٥) سوف نعود إلى هذا الموضوع فى الفصل الخاص بالموسيقا.

(٣٦) البيان المغرب ٢٧٦/٣، وأعمال الأعلام ١٧٧.

(٣٧) انظر فيما يلى ص ٢٣٨ من هذا الكتاب.

(٣٨) ابن الأفطس، أى ابن القرد، وربما أُطلق عليه هذا اللقب، كما يقول دوزى، لأن تقاسيمه البربرية تذكر بشكل القرد. انظر: أبحاث ط ١ ص ١٩٨. ومثل هذا التفسير موضع شك كبير فيما نرى.

(٣٩) كلمة مكناسة توجد فى إسبانيا بوصفها اسم بلد فى صورة Mequinenza انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٦ رقم ١٣ وص ١٦٥ و ١٨٠، ودوزى، بحاث، ط ١ ص ١٩٦ – ١٩٨.

أنّ البرابرَ نسلٌ منك قال: إذن   حوّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا[٤٠]

وبعض الأشعار توضح لنا الصفات الغالبة فى المزاج البربرى، وتقدم لنا الأسباب النفسية للعداوة الخفية التى كانت تفصل الأندلسيين عن البربر، لقد كتب المعتمد إلى والده المرعب، بعد النكسة الحربية التى مُنى بها أمام مالقة[٤١]، يعتذر إليه، فيقول:

قومٌ نصيحتُهم غشٌّ، وحُبُّهمُ   بغضٌ، ونفعُهُمْ - إنْ صُرِّفوا - ضَرَرُ
تميزُ الغيظَ فى الألفاظِ إنْ نطقوا   وتعرفُ الحقدَ فى الألحاظِ إنْ نظروا
إنْ يحرقِ القلبَ تَبْرُزْ من مقالهُمُ   فإنما ذاك من نارِ القِلَى شرر[٤٢]

ربما كان بعيدًا أن نتصور أنه قبل المعتمد بزمن طويل، عبّر موسى بن نصير فاتح إسبانيا بهذا الرأى القاسى نفسه فى وصف البربر، فى مقابلة له مع الخليفة الأموى سليمان شقيق الوليد، يقول: «إنهم منافقون لا يعرف لهم شبيه، ولا يفون بوعد أو عهد[٤٣]».

بقيت مجموعة اجتماعية أخرى من الواجب أن نقول عنها شيئًا، وهؤلاء هم الرقيق الأفريقى أو العبيد كما يُسمَّون، والذين هم طبقا لكل الروايات يجب أن يكونوا من الزنوج[٤٤]. وقد جىء بهم على نحو خاص ابتداء من عهد عبد الرحمن الناصر ليكونوا حرسه الخاص الشديد الوفاء لسيده، ونراهم يحضرون وفاة الناصر، وحفل تنصيب الخليفة الجديد الحكم المستنصر، ولكن فى مرتبة أدنى من الصقالبة[٤٥]. وقد زاد المنصور من عددهم[٤٦]، على نحو ما صنع مع الصقالبة والبربر أيضا، ويبدو أنهم كانوا مرؤوسين للصقالبة، ودون أن يصلوا أبدا إلى تولى المناصب العسكرية أو الإدارية العالية.

وعندما اندلعت «الفتنة» فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى أخذوا جانب البربر، مثل الصقالبة فيما يتصل بالأمويين، ولكن بمفهوم سياسى محدود للغاية، وقد حاولوا أن يقوموا ببعض الانقلابات الثورية فى القصر، ولكن أمراء البربر استطاعوا أن يعيدوهم إلى الصواب سريعا، وفى حمّية بالغة

(٤٠) من الطويل، نفح ٤١٢/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٠٦ - ١٠٧، والطبعة الثالثة ٢٥٩/١. وانظر أيضا: نفح ٦٣٠/١ أوربا. وعن حفظ هذين البيتين من الشهرة تحت حكم المرابطين، انظر مقالنا: الشعر فى فاس تحت حكم المرابطين» فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٣٦ ورقم ١.

● الأبيات ليست لشاعر مجهول، وإنما للسميسر. (المترجم)

(٤١) عن هذا الحادث انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٨ - ٦٩.

(٤٢) من البسيط، المعتمد، الديوان ص ٣٨، القلائد ١٩، وعنها فى «بنو عباد» ٥٣/١، والبيان المغرب ٢٧٥/٣، والحلة ٥٦/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٦٩، والتيجانى، شاعر ملك ص ١٦٣.

(٤٣) انظر البيان ٢٠/٢، والترجمة ص ٢٢.

(٤٤) ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة، حول الحياة فى المدينة وهيئات العاملين فى إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر، يستخدم تعبير «السودان البربرى» ص ٨، وعبيد البربر ص ٢٧، انظر طبعة ليفى بروفنسال فى المجلة الأسيوية، أبريل - يونية ١٩٣٤.

● ونشر الرسالة نفسها مع رسالتين أخريين بعنوان: ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥. (المترجم).

(٤٥) نفح ٣٨٨/١، وترجمة ليفى بروفنسال فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٥٨. ويميزون بين «العبيد الفحول» وهم المسلحون من أخمص أقدامهم إلى قمة رؤوسهم» وبين «رجالة العبيد»، ويرتدون الجواشن والأقبية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة، وبأيديهم التراس الملوّنة والأسلحة المزيّنة، ثم «فرسان العبيد».

(٤٦) نفح ٣٩٨/١.

استخدموا ضدهم السوط والسيف والمشنقة بلا شفقة ولا رحمة(٤٧).

وفرقتهم التى اشتركت مع جيش يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاّقة يجب أن تكون هامة، ويتحدث المؤرخون عن بطولات احرس الأسود خلال المعركة، واستطاع جندى أسود أن يقترب من الملك ألفونسو السادس وأن يجرحه فى فخذه بخنجر(٤٨)، وفى قصيدة لعبدالجليل بن وهبون، وأتينا من قبل على أبيات منها بمناسبة معركة الزلاّقة، يشير أحدها إلى وجود السود فى جيش المرابطين، ويتوجه الشاعر إلى ألفونسو السادس قائلا:

أقمتَ لهذا الوغى سوقًا فخذْها ... مناجزةً وهون ما تُسام

فإنْ شئتَ اللُّجينَ فثَمَّ سام ... وإنْ شئتَ النضار فثَمَّ حام(٤٩)

كان عدد الرقيق الأسود فى أفريقيا كثيرا، أما فى إسبانيا فيمثلون أقلية، ومن ثم كان تأثيرهم على الحياة الإسبانية عمليا معدوما تماما فيما يبدو، ومع ذلك كانت الجوارى السوداوات يشكّلن جانبا من الحريم الأندلسى كزوجات شرعيات(٥٠)، وكعشيقات بخاصة، ولم يكن ذلك نادرا، وجارية من بلنسية ملك أبى المطرِّف بن غلبون وتحمل اسما مميَّزا وهو: إشرق السويداء، اشتهرت بسعة معارفها اللغوية، وبخاصة فى النثر الفنى(٥١)، ولكن الأبناء الذين كانوا يجيئون من مثل هذه العلاقة بين رجل أبيض وجارية سوداء كان يُنظر إليهم باحتقار فى مجتمع الخاصة. وهناك حكاية عن ابن غير شرعى حدثت فى أسرة بنى ذى النون أمراء طليطلة تلقى ضوءًا على فكر بربر الأندلس فيما يتصل بالأنساب، فقد كان للمأمون أخٌ غير شرعى يدعى أرقم كان ابن أمة مهينة، واقعها أبوه الظافر فى حال سكره، ولم يكن فيهم من ينظم ويتولّع بالأدب غيره وقد تسامح المأمون معه ولكن ابنه يحيى القادر جاء على النقيض من أبيه، فمال على أرقم بالأذيّة، ففرّ من المملكة، وارتجى بهذه المناسبة أبياتا جديرة بأن نأتى هنا على ذكرها، لأنها تظهر ردّ فعل إنسان يشعر بأنه أيضا مولود صالح مهما جاء من علاقة غير شرعية، وأنه أفضل من أى أمير آخر بربريا كان أم مسيحيا، معروفا نسبه للجميع:

لئن طبتمُ نفسًا بتركى دياركم ... فنفسىَ عنكم بالتفرّق أطيبُ

إذا لم يكنْ لى جانبٌ فى دياركم ... فىِ العذرُ لى أن لا يكون تجنب

زعمتم بأنّى لستُ فرعُ لأصلكم ... فهلّا علمتم أننى عنه أرغبُ

وحسبى إذا ما البيضُ لم ترعَ نسبة ... بأنّى إلى سيفى ورُمحىَ أنسَب

وإنْ مدّت الأيّامُ فى عُمرى للعُلا ... يُشرِّق ذكرى فى الورى ويُغرِّب(٥٢)

---

(٤٧) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٦٨. والمعجب ص ٦٣ و ٦٦، بترجمته الفرنسية ٥٤ – ٥٥. ويستخدم المراكشى فى الإشارة إليهم كلمة «السودان».

(٤٨) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٢٩.

(٤٩) من الوافر، القلائد ١٤، وفى «بنو عباد» ١/٥٠، وعن المقابلة بين سام وحام انظر فيما بعد ص ٣٠١ رقم ٨ من هذا الكتاب.

(٥٠) لم يجد أمير أموى حرجا فى أن يتزوج من جارية سوداء، كانت تلميذة الأمام مالك، وتأدبت على يديه فى المدينة، وتروى عنه، رغم أصلها المتواضع، واختلاف المحتد واللون. انظر: نفح ١٣٩/٣، وريبيرا، نبذ ومقالات ٣٤٥/١.

(٥١) ابن الأبار، تكملة الصلة رقم ٢١١٥، ص ٧٤٠، وعنه فى نفح ١٧١/٤.

(٥٢) من الطويل، نفح ١٣٣/٤.

ولأسباب مماثلة اضطر أحد بنى هود، أبو محمد بن هود الجذامى، أن يرحل عن سرقسطة، متجولا ضائعا من بلاط إلى خر فى شمال إسبانيا، ذهب إلى طليطلة ثم يابرة، وانتهى به المطاف أخيرا فى بطليوس، حيث أشاد المتوكل أميرها بذكائه وحكمته، وعيّنه حاكما على لشبونة، وهو أيضا يصق احتقاره لآبائه الذين أكيدا لا يجرى فى عروقهم كثيرا من الدم العربى:

ضللتمْ جميعًا آلَ هودٍ عن الهدى وضيَّعتمُ الرأىَ الموفقَ أجمعا
وشِنتمْ يمينَ الملكِ بى فقطعتمُ بأيديكُم منها - وبالغدرِ - إصبعا
وما أنا إلَّا الشمسُ غيرِ غياهبٍ دجتْ، فأبتْ لى أنْ أنيرَ وأسطعا
وإنْ طلعتْ تلكَ البدورُ أهلَّةً فلم يبقَ إلَّا أنْ أغيبَ وأطلعا
ولا تقطعوا الأسبابَ بينى وبينكم فأنفكم منكم وإن كان أجدعا[٥٣]

ويظهر لنا الشعر أيضا مفهوم النساء الأندلسيات عن الحب الذى يمارسه أزواجهن مع السوداوات، ولقد مال ابن زيدون إلى جارية ولادّة السوداء، فكتبت تعتب عليه هذا الهوى:

لو كنتَ تُنصفُ فى الهوى ما بيننا لم تهوَ جاريتى ولم تتخيَّرِ
وتركتَ غصنًا مثمرًا بجماله وجنحتَ للغصنِ الذى لم يُثمرِ
ولقد علمتَ بأنّنى بدرُ السما لكن ولعتَ، لشقوتى، بالمشترى[٥٤]

● ● ●

ولم يكن أمام اليهود تحت الحكم العربى غير أن يغتبطوا بالنظام الذى فُرض عليهم بوصفهم من أهل الكتاب، وكانوا يقدرون أكثر من المسيحيين الفوائد التى تعود عليهم من الخضوع للفاتحين الجدد، فبعد السياسة الشديدة التى كان يطبقها عليهم ملوك القوط، خلف هؤلاء نظام شديد التسامح، وجعل من اليهود منذ اليوم الأول للفتح مساعدين مهمين للعرب والبربر[٥٥]، وبلاشك فإن كثيرين منهم اعتنقوا الإسلام وبخاصة مع بدء الخلافة الأموية[٥٦]، ولكن المكانة التى تمتع بها الذين لم يعتنقوا الإسلام فى بلاط الأمراء الحاكمين، والحماية التى كانوا يبسطونها على أخوانهم فى الدين، لابد أنها هددت من اعتناقهم الإسلام، ونحن نعرف أن الجماعات اليهودية فى إسبانيا بعامة، وفى قرطبة بخاصة، تدين بمكانتها إلى حسداى بن شبروط، وكان طبيبا ودبلوماسيا، وجعل منه عبد الرحمن

(٥٣) من الطويل، الحلة ١٦٥/٢، والشطر الثانى من البيت الأخير مثل عربى شائع.

(٥٤) من الكامل، نفح ٢٠٥/٤ وكور، ابن زيدون ص ٢٨ هامش ٢. وفى القرن الثانى عشر قالت حفصة الركونية عن حبيبها أبى جعفر بن سعيد بأنه هجرها من أجل جارية سوداء:

من الذى هام فى جنان لا نوْر فيه ولا زهر

وهو بيت من أبيات خمسة، من البسيط، ابن الخطيب، الإحاطة ٥٠٠/١

● وانظر دراسة عنها وافية، وديوانها كاملا، فى كتابنا: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٧٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨ (المترجم).

(٥٥) حول هذا الموضوع انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٣٧ - ٣٨، والمصادر المذكورة هناك، ص ٣٢ رقم ٢ وص ٣٨ رقم ١ وص ١١٢ رقم ١ و ٢. ويمكن أن تضيف إليها: جريتز، يهود إسبانيا (٩٤٥ م - ١٢٠٥ م)، Ehrempreis، البلد بين الشرق والغرب، وأنيمجور شابكن، أمثال اليهود.

(٥٦) ليفى بروفنسال، .L.C ٣٨ و ١١١ - ١١٢.

الناصر وزيره، وسفيره، وأمينه على بيت المال[٥٧].

كانت توجد جالية يهودية كبيرة في كل المدن الكبرى، والمكانة العالية التي تمتع بها الوزير اليهودي **أبو الفضل بن حسداي**. في سرقسطة لدى أمراء بني هود الثلاثة: **المقتدر** (١٠٤٦ – ١٠٨١ م) **والمؤتمن** (١٠٨١ – ١٠٨٥ م) **والمستعين** (١٠٨٥ – ١١١٠م)، تعطي فكرة عن ازدهار الجالية اليهودية في عاصمة الثغر الأعلى[٥٨]. وفي بطليوس التف اليهود حول المتوكل[٥٩]، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن بلنسية[٦٠].

وكان في بلاط حسام الدولة ابن رزين أمير السهلة وزير كاتب يمكن أن نعتبره يهوديا من اسمه، ولو أن المؤرخين لا يذكرون شيئا عن أصله، ولعب الدور نفسه الذي لعبه ابن حسداي في بلاط بني هود، وكان يدعى أبو بكر بن سدراي[٦١].

ولابد أن الجالية اليهودية في إشبيلية كانت هامة جداً حيث تفجر الصراع بين المسلمين واليهود، ويقص علينا ابن حيان أنه في عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م، محددا اليوم، والشهر، وأنه في يوم الاثنين ١٣ من ذي الحجة، حدث هيجان كبير في إشبيلية لأن يهوديا سبَّ الشريعة فأثار ذلك غضب أحد المسلمين فبطش به في وسط السوق، وجرّحه وأثار العامة ضده، فتدخّل صاحب المدينة عبد الله بن سلّام، وقبض على المسلم واعتقله، «فكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلام، وإكثار خشي وباله»، ولم يهدأ الأمر ويستقر النظام إلاّ بعد أن تدخل سراج الدولة بن المعتضد، وابن زيدون الشاعر[٦٢].

وبلاشك كانت مملكة غرناطة القاطعة المفضلة لدى اليهود في القرن الحادي عشر خلال عصر ملوك الطوائف، وظل اثنان من الوزراء اليهود هما: **صمويل بن النغرلة**، وابنه يوسف من بعده، يوجهان سياسة بني زيري، وهم من أصل صنهاجي[٦٣]. وكانت غرناطة في البدء موقوفة على سكنى اليهود وحدهم، مما جعلها تستحق أن يطلق عليها اسم «غرناطة اليهود»، وكان عددهم كبيرا في القرن الثاني عشر الميلادي، حتى أنهم أنشأوا مدينة اليُسانة الكبرى[٦٤]، ويقول الإدريسي، وطاف بإسبانيا في

(٥٧) عن الأسماء التي حملها الذين اعتنقوا الإسلام انظر فيما سبق ص ٢٣١ من هذا الكتاب.

(٥٨) بعد قليل سوف نعرض مرة أخرى لهذا الوزير اليهودي. ص ٢٤١ – ٢٤٢ وتشهد ملحمة رولان والتي ألفت فيما يحتمل في القرن الحادي عشر أو مطلع القرن الذي يليه على وجود بيع ومساجد في سرقسطة. انظر: بواسوناد. من جديد حول ملحمة رولان، طبقا للحمة رولاند، تحقيق ليون جوتييه، الفقرة ٣٩٦ البيت ٣٦٦٢.

(٥٩) نفح ٤٤٧/٣، والحلة ١٠٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٣٦، والتصويبات ١٠٣.

(٦٠) نفح ١٩/٤، والحلة ١٠٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ٧٧، والتصويبات ١٠٤.

(٦١) الحجاري، المسهب، في نفح ٤٠٢/٣.

(٦٢) الذخيرة ٤١٨/١، وكور، لين ـدون ١٣١.

(٦٣) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٣٦، والزيريون في إسبانيا، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٤ ص ١٣٠٠، والمصادر المذكورة هناك .C,B وفي المغرب، في القرن الخامس عشر الميلادي عين السلطان المريني عبد الحق الثاني يهوديا يدعى هارون وزيرا له، فأحدث ذلك اضطرابا، واستطاع أن يعيد الأسرة الإدريسية في فاس لمدة قصيرة. انظر ليفي بروفنسال، مسند ابن مرزوق، في مجلة هيسبيريس، المجلد ٥ عام ١٩٢٥، ص ٦٠ هامش ١، وكور، حكم بني وطاس، قسنطينة ١٩٢٠، ص ٦٠ و ٦٣ و ٦٥، وبيير دي سينيفال، أسطورة اليهودي ابن مشعل ومهرجان سلطان الطالبين في فاس، مجلة هيسبيريس المجلد ٥ عام ١٩٢٥، ص ١٧٣، ودوتيه، مراكش ص ١٩٩.

(٦٤) ليفي بروفنسال، نفس المصدر، ص ٣٨ والهامش ٢ – ٣.

القرن الثانى عشر الميلادى، عن هذه المدينة[٦٥]: يسكن اليهود داخل المدينة ولا يدعون المسلمين يدخلونها، وهم أغنى اليهود فى البلاد الإسلامية كلها، ومتحفزين للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة منافسيهم.

وكان اليهود مندمجين فى الحياة اليومية مع كل طبقات المجتمع، فانكبوا على التجارة، وما رسوا مختلف المهن الحرفية[٦٦]، وكانوا أيضا، كما سنرى فيما بعد فى فصول أخرى تجىء من هذا الكتاب، موسيقيين ومطربين، وموضع التقدير من المجتمع المصقول فى مراكز المدن الكبرى.

وكانت معرفتهم باللغات واسعة، وأكثرهم يتحدث العبرية والعربية العامية والرومانثية فى نفس الوقت، مما جعلهم مهمين جدا للقيام بالمهام الدبلوماسية بين أوربا المسيحية وإسبانيا الإسلامية[٦٧]. ومن جانب آخر كان أمراء الشمال المسيحيين فى إسبانيا يستخدمونهم للقيام بالوظائف نفسها[٦٨].

وقد بلغ بعضهم درجة عالية من التمكن من اللغة العربية المكتوبة، ونلتقى فى المدونات العربية بأخبار قليلة جدا بعامة عن اليهود واليهوديات الذين تفوقوا فى معرفة اللغة العربية. وهكذا وقف المقّرى فى كتابه نفح الطيب بعض السطور أو الصفحات، دون ترتيب تاريخى، على الشاعرات اليهوديات[٦٩]، ولكن القائمة أبعد من أن تكون كاملة. وتوجد فى الكتاب نفسه، وسط أخبار أخرى، أو فى مؤلفات أخرى لما تزل مخطوطة، مثل الذخيرة لابن بسام الذى يجب أن يكون قد أوقف صفحات من كتابه على الشخصيات الأكثر تميزا بين كتاب اليهود باللغة العربية.

---

(٦٥) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٣٨، الهامش ٣، الإدريسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، وعنوانه بالفرنسية وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٥، والترجمة ٢٥٢.

(٦٦) تروى الذخيرة ٤٩٩/٣ الحادثة التى جرت بين أبى الربيع سليمان بن أحمد القضاعى وبين اليهودى يوسف الإسلامى، لأن الأول طلب من الثانى آلة تجار خدم عنده، فوجه بها حاشا المنشار.

(٦٧) استقبل حسداى بن شبروط سفارات من قسطنطين الثامن إمبراطور بيزنطة عام ٩٤٤م، ومن موتو Otón I ملك جرمانيا فى ٩٥٦ م، وذهب إلى ليون بوصفه سفيرا ليقابل ملكها أردونيو الثالث فى ٩٥٥، وأرسله الناصر سفيرا وطبيبا إلى طوطة ملكة نبرة. انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ١١٢.

(٦٨) فى معركة وادى آره عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠م قتل يهودى، وكان وزير الملك المسيحى، البيان المغرب ٩٨/٣، وابن شاليب اليهودى وزير ألفونسو السادس معروف جدا فى المدونات العربية، وكان مكلفا بقبض الجزية التى فرضها الملك المسيحى على المعتمد أمير إشبيلية، أعمال الأعلام ١٥٩، ونفح ٤٣٩/١ و٢٤٦/٤ و٣٥٨/٤، وتقول الرواية فى هذا المصدر الأخير أن المعتمد غضب ولم يحتمل فأخذ محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى فأنزل دماغه فى حلقه. ونحن نعرف ما حدث فى هذه السفارة. وهى أن أمير إشبيلية اغتاظ من لهجة ابن شاليب المتعجرفة، والذى لم يكن فى نهاية الأمر غير ناقل لأوامر ألفونسو السادس، والذى كان مزهوا باستيلائه على طليطلة، فأمر المعتمد بقتل اليهودى، وقد أدى هذا السلوك المتسرّع إلى تدافع الأحداث، وعجل بتدخل المرابطين.

وكان لخلف ألفونسو السادس، وتسميه المدونات العربية ألفونسو ملك نصارى طليطلة، وزيران يهوديان، يسمى أولهم إبراهيم بن الفخّار اليهودى، وكان شاعرا مجيدا فى العربية ومدح أميره بأبيات لم يقلل من شأنها كبار شعراء المرابطين، كما أن سيده أرسله سفيرا إلى المرابطين، أو إلى ملوك المغرب بحسب تعبير المقرى، نفح ٥٢٧/٣، وابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط الورقة ٦٤ وجه. والثانى يدعى حنين اليهودى، وهو الذى دفع ألفونسو عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ إلى اقتلاع البليتين اللتين فى طليطلة لمعرفة سرهما. نفح ٢٠٦/١.

(٦٩) نفح ٥٣٠/٣.

وكان أبو الفضل بن حسداى فى سرقسطة نديم المقتدر وصديقا له، وأوقف عليه عددا من قصائد المديح أوردها لنا الفتح بن خاقان فى كتابه قلائد العقيان[٧٠]، وظل كاتبا ووزيرا للمؤتمن الذى خلف المقتدر، وعندما زوّج المؤتمن ابنه لمستعين من ابنة وزير بلنسية أبى بكر بن العزيز كان أبو الفضل هو الذى تولى تحرير الدعوة التى وُجّهت إلى أكبر شخصيات إسبانيا[٧١]. ولكن بالرغم من مكانته الفكرية لم يستطع إبدا أن يحتل الوظائف التى يشغلها أمثاله من المسلمين، لأن صفته ذميًّا كانت تمنعه من ذلك[٧٢]. وكان هذا بلاشك هو الذى دفعه إلى اعتناق الإسلام، وليس عشقه جارية مسلمة كما تشير إليه بعض المدوّنات العربية[٧٣]، ومع ذلك، ظل أصدقاؤه من العرب، رغم اعتناقه الإسلام، يحبون أن يداعبوه بهذه القصة، فيُروى أنه «كان فى مجلس المقتدر بن هود ينظر فى مجلّد، فدخل الوزير الكاتب أبو الفضل بن الدباغ، وأراد أن ينمّر به، فقال له، وكان ذلك بعد إسلامه: يا أبا الفضل، ما الذى تنظر فيه من الكتب، لعله التوراة؟ فقال: نعم، وتجليدها من جلد بغه مَن تَعلم، فمات خجلا وضحك المقتدر»[٧٤].

أمّا الآن وقد أصبح مسلماً فإن طموحه بلغ به أعلى المناصب، مما أثار عليه كراهية زملائه القدامى الذين تخلى عنهم، فبعث إليه ابن الدباغ نفسه رسالة قاسية ينصحه فيها بأن يطامن من غلوائه[٧٥].

ومن المؤكد أن ابن حسداى وعى نصيحة صديقه، لأن علاقاته، رغم المداعبات البريئة التى كانت تتخلّلها، استمرت كما كانت عليه فى الماضى، فى جو من الصراحة والمحبة إلى جانب الأمراء الذين كانوا يحتفظون بالمحبة لكلا الطرفين.

وإلى جانب اليهود الذين اشتهروا فى مجال الأدب والشعر يجب أن نفسح مكانًا لأولئك الذين لم يقولوا الشعر فى العربية أبدا، ولكنهم دفعوا الذين حولهم إلى قوله، سواء كان مدحًا أم نقدًا، وهكذا فإن يهوديًا لطيفًا ألهم ابن الزقاق من جزيرة شقر أن يقول هذه الأبيات:

وحبّبَ يوم السبت عندىَ أنّنى ينادمنى فيه الذى أنا أحببْتُ

● كان ذلك زمن تأليف الكتاب، أما الآن فقد طبعت الذخيرة كاملة (المترجم).

(٧٠) القلائد ص ١٨٤ و ١٨٦، وانظر فيما سبق ص ١٨٩ – ١٩٠ من هذا الكتاب.

(٧١) ابن خاقان، المصدر السابق ص ٦٧ و١٨٤ – ١٨٥ وعنه نقلها نفح ٦٤١/١.

(٧٢) القلائد ١٨٤، وقد خصص الطرطوشى كل الفصل الثانى من كتابه سراج الملوك ليظهر أن المسئولية يجب ألّا يعهد بها لغير المسلمين. وأوضح المؤرخ ابن سعيد أن وظيفة كاتب الزمام، وهو المختص بتسجيل الضرائب لا يمكن أن يتولاها فى إسبانيا وأفريقيا الشمالية نصرانى ولا يهودى البتّة. النفح ٢١٧/١، وانظر فيما سبق ص ٨٢ الهامش ١٠٥ من هذا الكتاب.

(٧٣) الذخيرة ٤٥٨/٣، وتوجد فى نفح ٤٠١/٣.

(٧٤) نفح ٤٠١/٣.

(٧٥) يقول ابن الدباغ فى رسالته: «كنت عهدتك لا تمتنع من مداعبة من يداعبك، ولا تنقبض عن مراجعة من يخاطبك، فمن أين حدث هذا التعالى، وما سبب هذا التغالى، سرّنى جُعلت فداك، ما الذى عراك، ولعلّك رأيت الحضرة قد خلت من قاض فطمعت فى القضاء، وجعلت تأخذ نفسك بأهبته، وتترشح لرتبته، وأنت الآن لاشك تتفقّه فى الأحكام، وتتطلّع شريعة الإسلام، وهبك تحلّيت بهذا السمت، وتهيّأت لذلك الدست، ما تصنع فى قصة السبت، دع التخلّق وارجع إلى أخلاقك، وعدّ فى إطراقك، وتجاهل ما قبلك جاهل، وتحامق مع الحمقاء وأنت عاقل، فلا تمتنع لذة الاسترسال، ولا تتبع الدنيا بجد منك فى سائر الأحوال، فما أشبه إدبارها بالإقبال وكثرتها بالإقلال». القلائد١٠٨. وعن الأسطورة التى يتحول فيها اليهود قرودا انظر فيما سبق ص٢٢٠ من هذا الكتاب.

ومن أعجبِ الأشيــاء أنّي مــسلمٌ   حنيفٌ، ولكنّ خير أيامِيَ السبتُ[٧٦]

وقد أثار وزيرا بنى زيرى أمراء غرناطة اليهوديان بخاصة أكبر ردّ فعل قوى فى الأوساط الأدبية فى جنوب شبه الجزيرة للأهمية التى بلغاها فى إدارة شئون الدولة، ويدهشنا كثيرًا أن نرى يهوديًا مثل صمويل بن النغرلة يتمتع بمنزلة عالية فى بلاط أمير مسلم مثل حبّوس بن ماكسن، ولم يصل حسداى ابن شبروط، رغم المكانة التى تمتع بها إلى جوار عبد الرحمن الناصر إلى مثل هذه الدرجة من النفوذ والقوة أبدا، معترف بها رسميًا ويقرّ بها الجميع، والمثل الذى نجده فى أبى الفضل بن حسداى، وعرضنا له من قريب، يظهر أن غيرة اليهود، وتحركها طموحاتهم، كانت موضع استنكار المسلمين. ويجب أن نوضح هنا أن أمراء غرناطة الصنهاجيين كانوا، دون شك، لا يثقون كثيرًا فى العرب لكى يسمحوا لهم بالعمل فى وظائفهم[٧٧].

وفيما يبدو من الضرورى أن نبحث فى جانب آخر عن هذه الثقة التى تمتع بها أعضاء أسرة النغرلة لدى بنى زيرى، ولعلها توجد فى الخدمات التى كانوا يقدمونها بوصفهم ماهرين فى تدبير المال إلى الأسرة المالكة، وكانت تتخبّط، شأن آخرين كثيرين فى العصر نفسه، فى مشكلات مالية صعبة، وهو ما يبرّر، فى جانب، سياستهم اليهودية[٧٨] ولكن لا تفسّرها تمامًا، وربما ألمح الشعراء إلى السبب الحقيقى، فابن عمار يمدح المعتضدَ عدو البربر اللدود فى أبيات ذات طابع متميز:

شقيتْ بسيفــك أُمّــةٌ لم تعتقــدْ ٭ إلاّ اليهودَ وإنْ تسمّتْ بربرًا[٧٩]

ويقول فى قصيدة أخرى فى مدح المعتضد أيضًا:

لكَ اللهُ إنْ كانتْ عداتُك بعضها   لبعضٍ فكلٌّ منهم جميعًا إلى فَردِ

يهودًا وكانتْ بربرًا فانتضِ الظُّبى   وأنبِئْهم منها بألسنةٍ لُدّ[٨٠]

وربما كانت هناك صلات أسرية، وأن بعض النساء اليهوديات: أخوات صمويل، أو بنات عمه، أو بناته، كنّ يكوِنّ جانبا من حريم زاوى وباديس، لا عشيقات وإنما زوجات شرعيات. وهو ما يفسّر لنا خير من أى سبب آخر القوة التى وصل إليها صمويل بن النغرلة، فعن طريق هذه الصلة الأسرية سيطر على عائلة الأمير الحاكم، وبالتالى يمكن اعتباره سيدا من بربر المملكة. وقد استطاع بسياسته الحكيمة أن يكسب الشعراء العرب إلى جانبه، وأن يصبح نصير الأدب، وأن يسخو على أهله، ولم يتردد هؤلاء فى أن يرتفعوا به إلى مرتبة عاهل غرناطة الحقيقى.

ونعرف أن أبا أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبى المعروف باسم المنفتل، واعتنق اليهودية سرًا،

---

(٧٦) من الطويل، نفح ١٩/٤ و٣٠٠، والحلة ١٠٦/٢، أبحاث ط ١ ص ١٧٧، وتصويبات ١٠٤، وترجمة غرسية غومث، ابن الزقاق ص ٨٩.

(٧٧) هذه الأسباب أوردها دوزى فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ ص ١٩ - ٢٠.

(٧٨) انظر مذكرات الأمير عبد الله، النص العربى ص ٣٨، الترجمة ص ٥٢، وفى مجلة الأندلس المجلد ٣، ١٩٣٥، العدد ٢، ص ٢٦٥ - ٢٨٤.

(٧٩) من الكامل، القلائد ٩٧، المعجب ص ١١٦، ترجمة فنيان ٩٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٣ هامش ١.

(٨٠) من الطويل، انظر: القلائد ٨٨ و س. مونك فى A. (السلسلة ٤، المجلد ١٦، ١٨٥٠، ص ٢١٤.

مجّد فضائلهم وسخاءهم فى رسالة مسجوعة أوّلا[٨١]، ثم فى شعره أخيرا، وإليك أكثر قصائده تمثيلا لهذا الاتجاه:

ومَن يكُ موسى منهمُ ثم صِنوهُ ... فقُلْ فيهمُ ما شئتَ لن تبلغ العُشْرا
فكم لهم فى الأرض من آيةٍ تَرِي ... وكم لهم فى الناس من نعمةٍ تترى
أجامِعَ شملَ المجدِ وهو مُشتتٌ ... ومُطلقَ شخصَ الجودِ وهو من الأسرى
فضلتَ كرامَ الناسِ شرقًا ومغربًا ... كما فضلَ العقيانُ بالخطر القِطرا
ولو فرّقوا بين الضلالة والهُدى ... لما قبّلوا إلّا أنامِلكَ العشرا
ولا ستلموا كفّيكَ كالركنِ زُلفةً ... يُمناكَ لليمنى ويُسراك لليسرى
وقد فزتُ بالدنيا ونلتُ بك المنى ... وأطمع أنْ ألقى بك الفوزَ فى الأخرى
أدين بدين السبت جهرا لديكم ... وإنْ كنتُ فى قومى أدين به سرًا
وقد كان موسى خائفًا مترقّبًا ... فقيرا وأمّنْتَ المخافةَ والفقرا[٨٢]

وعندما أورد ابن بسام هذه الأبيات قدّم لها بالكلمات التالية: «وله فى هذه القصيدة من الغلو فى القول مانبرأ منه إلى ذى القوة والحول». ورأى ناسخ مخطوطة باريس أنه من الضرورى أن يكتب فى الهامش أمام البيت السابع: «أعوذ بالله من غمزات الشياطين».

وبعد وفاة حبّوس تولّى ابنه باديس الإمارة خلفًا له، واستمرت ثقته فى صمويل، وعندما توفى هذا خلفه ابنه يوسف، وتولّى المنصب بوصفه رئيسًا للوزراء.

وعلى حين كان صمويل هادئًا ومتواضعًا وطيبا جاء ابنه يوسف على النقيض منه: متكبرا ومتعجرفًا، وقد دفعته الثروة الطائلة التى جمعها والده، وزادها نفسه، إلى أن يضمر طموحًا أكبر، يتجاوز الرغبة فى السيطرة على الأمير: أن يصبح أميرا بدوره! ويلمح المؤرخون العرب، وربما مدفوعين بتعصبهم الدينى، إلى أنه فكّر فى إزاحة باديس عن الإمارة، ومبايعة المعتصم أمير المرية أو أحد أبنائه ملكًا على غرناطة، وتعيينه ملكًا على المرية التى سوف تصبح عاصمة دولة يهودية.

من الصعوبة بمكان أن نتصور تحقيق مثل هذه الخطة إذا كانت قد دارت بخاطر يوسف يومًا، إذ كيف يصبح ملكًا على المرية فى حين أن الجالية اليهودية تتركز فى غرناطة وماحولها؟ ذلك شىء لا يمكن تصديقه. ومع ذلك فإن سلسلة الأحداث التى توالت تجعلنا نعتقد أن الإتهامات التى وجهت إلى يوسف بأنه حاول أوّلا أن يبعد باديس عن أية طموح فى الحكم الفعلى، ولهذا فعل كل ما فى طاقته لكى يدفعه إلى حياة الفسق والفجور، لم تكن كلها كاذبة. وكان أنصاره يشغلون كل المناصب فى القصر، وهى دون شك اللحظة التى هرب فيها كل الشعراء والأدباء العرب من غرناطة، لا خوفًا من باديس وإنما لأن

(٨١) الذخيرة ٧٦١/١.

● ليس فى حياة المنفتل مايشى بأنه اعتنق اليهودية، وكل ما هنالك أنه أشار فى بيت شعر، كعادة الشعراء يقولون ما لا يفعلون، أنه يدين بدين السبت جهرا لدى اليهود، وسرًا بين المسلمين، وجاء هذا فى قصيدة يمدح بها صمويل بن النغرلة، وأورد المؤلف تسعة أبيات منها، ولم يتكرر له هذا المعنى فى أية قصيدة أخرى (المترجم).

(٨٢) الذخيرة ٧٦٥/١، ولم نترجم منها غير تسعة الأبيات الأخيرة. وانظر أيضا: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٠ حيث توجد ترجمة ستة الأبيات التى قبل الاخيرة.

يوسف ، وقد خشى أن يفضحوه، أصدر حكمه بنفيهم، ووقع باديس الأحكام وعيناه مغمضتان!.

وكان حاجب الأمير يهودى يعتنق الإسلام، هو ابن القَرَوى الأسلمى، واتخذ هذا كاتبًا له من الأندلسيين يدعى أبا الحسن ، أو أبا الحسين، بن الجد، ومن المهم أن نلحظ أفكار هذا الأخير وسمح لنفسه بأن يتوجه بها إلى سيده، وفيها يلومه على طول غيابه بسبب إنهماكه فى الملذات:

أمسكْ عنانَك إنْ ركبْتَ قليلا ... واسمعْ وإنْ كان الحديثُ طويلا
إعزلْ ووَلِّ ففى حديثِك آيةٌ[٨٣] ... لو أنَّ قومك أحسنوا التأويلا
هلَّا عذرتَ على البطالة أهلَها ... ورأيت رأياً فى المُدام أصيلا
هى ما علمَت فإنْ عرتْك جهالةٌ ... فاستفسرَنْ عن سرِّها الإنجيلا[٨٤]

وأورد ابن بسام أبياتًا أخرى تصور اليهود بعامة وصمويل بخاصة، وكان هذا، طبقا لابن بسام، أعور:

تحكَّمتِ اليهودُ على الفروجِ ... وتاهتْ بالبغال وبالسروجِ
وقامتْ دولةُ الأنذالِ فينا ... وصار الحكمُ فينا للعُلوجِ[٨٥]
فقلْ للأعورِ الدجّال هذا ... زمانُك إنْ عزمتَ على الخروجِ[٨٦]

ولكن يوسف كان واثقا من نفسه، وطبقا للمؤرخين العرب سمّ الشاب بُلُقين الذى اعترف به باديس وليًّا لعهده، ولكنه بفضل تواطئه مع الآخرين استطاع أن يبرئ نفسه أمام عينى سيده.

وبعض الشعراء كانوا يتملقونه مثل ابن الفرّاء، واسمه الحقيقى الأخفش بن ميمون:

صابحْ مُحَيّاه تلقَ النجحَ فى الأملِ ... وانظره بناديه حُسنِ الشمسِ فى الحملِ[٨٧]
ما إنْ يُلاقى خليلٌ فيه من خَلَلٍ ... وكلما حالَ صرفُ الدهرِ لم يَحُلِ[٨٨]

هذا التملق الوضيع لم يكن يبعث الثقة فى نفوس عرب المملكة، ولا فى بربرها أيضا، وتلقى باديس بعض التحذيرات مما يحدث، على الرغم من رقابة رئيس الوزراء. ويبدو أن أبا إسحاق الإلبيرى التجيبى، وهو عربى الأصل، وأبعدوه عن البلاط لأنه أدرك طموحات يوسف، وبذل كل جهده لكى يحدث ردّ فعل ضد تأثير اليهودى على أسرة بنى زيرى.

---

(٨٣) يتلاعب الشاعر هنا تورية بكلمتى «حديث» و «آية».

(٨٤) من الكامل، الذخيرة ٥٦٢/٢، وفيها إشارة واضحة إلى سر استحالة الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه. انظر فيما يأتى ص ٤٠٦ من هذا الكاتب والهامش رقم ١٦٦.

(٨٥) يقول ابن شهيد فى رسالة له إلى الوزير ابن عباس: «فبحثت عمن طرأ عليك من الأنذال (= اليهود) وحل بساحتك من الأعلاج (= النصارى)». الذخيرة ٢١٤/١.

(٨٦) من الوافر الذخيرة ٥٦٢/٢.

(٨٧) عندما تدخل الشمس فى برج الحمل، أى فى اعتدال الربيع، يبلغ لمعانها غايته. انظر: موتيلينسكى، مسارح العرب القمرية، رقم ٦ و٨، ص ٧ و٧٢ و٨٢، والطغرائى، لامية العجم، البيت ٣٦، طبعة دى رو، ص ٢٣ من النص العربى، وص ٥ من الترجمة.

(٨٨) من البسيط، نفح ٣٨٧/٣، وس. مونك فى المجلة الأسيوية، السلسلة الرابعة، مجلد ١٦، ١٨٥٠، ص ٢٢٢.

ولم يتأخر رد الفعل هذا فى أن يؤتى ثماره، ومع الزمن كان يوسف يبدو كل يوم شيئا أكثر لا يحتمل لترفه وغطرسته، وحتى إلحاده. وثمة حدث لم يقع منذ زمن طويل احتل مكانه الآن: تَهْرَبَ الشعر عزائم الخائفين، وأيقظ خمود الغافلين، وأثار حركة شعبية محت خلال ساعات قلائل سلطة كانت بالغة الخوار، ولأنَّ أبا إسحاق لم يستطع أن يصل إلى باديس اتجه إلى صنهاجة. هل يستطيع هؤلاء البربر أن يفهموا الشعر العربى؟ ربما كان محتملا أنهم لا يستطيعون التقاط معانى كل الكلمات تفصيلا، لكنهم على الأقل يفهمون الفكرة العامة التى يريد الشاعر أن يعبِّر عنها. ومن الحق أن نقرر أنه عبر فى براعة مدهشة عما أراد أن يقوله، بأبيات قصيرة، ذات إيقاع سهل، ومن خلال كلمات يفهمها أى مسلم حفظ القرآن أو درسه، وحتى الأفكار التى عبّر عنها من تلك التى يمكن أن يتقبلها الشعب بسهولة:

فعزَّ اليهودُ به واستخوْا وتاهوا وكانوا من الأرذلينْ
ونالوا مناهم وجازوا المدى فحان الهلاك وما يشعرون
....
وقد أنزل الله فى وَحْيِهِ يُحذِّر من صحبة الفاسقين

وإليك بعض الأفكار البسيطة جد التى استمدها الشاعر الهجاء من الدين فى المقام الأول، ونلحظ أنها تقنع سامعيه على نحو أفضل، مستخدما وقائع محدَّدة تمس الحياة المادية، الأكثر التصاقا بفكر الشعب البربرى، فى كفاحه اليومى من أجل لقمة العيش:

وقد قسّموها وأعمالَها فمنهمْ بكلِّ مكانٍ لعينْ
وهم يقبضون جباياتها وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضعها لابسون
وهم أمناكمْ على سرِّكُمْ وكيف يكونْ خؤونٌ أمين
ويأكل غيرهمُ درهمًا فيُقصى ويُدنَوْن إذْ يأكلون
....
ورخّم قردُهم داره وأجرى إليها نمير العيون
فصارتْ حوائجنا عنده ونحن على بابه واقفون
ويضحكُ منّا ومن ديننا فإنّا إلى ربّنا راجعون
ولو قلت فى ماله إنّه كمالك كنت من الصادقين
فبادرْ إلى ذبحِهِ قُرْبةً وضحِّ به فهو كبشٌ سمين
ولا ترفعِ الضغطَ عن رهْطِهِ فقد كنزوا كلَّ عِلْقٍ ثمين

وينتهى الشاعر من هذه الأبيات بتبرير قتل يوسف ونهب أمواله:

ولا تحسبَنْ قتْلهمْ غَدْرةً بل الغدرُ فى تركهم يعبثون

وثمة فكرة عليا توجه بها إلى باديس بخاصة:

فلا ترضَ فينا بأفعالِهم فأنت رهينٌ بما يفعلون

وراقبْ إلاهكَ في حزبه فحزب الإلاهِ هم الغالبون[٨٩]

لا يبدو أن باديس تأثّر بهذا التحذير[٩٠]، ولكن ردّ الفعل عند بربر صنهاجة كان عنيفا، وبعد أيام من هدوء ظاهرى، كانت أبيات الشعر خلالها تنتقل من بيت إلى بيت، ومن فم إلى فم، وموضع التعليق من وجوه مختلفة، ولكن دائما بطريقة ليست فى صالح يوسف ولا اليهود، وأصبح يقال عنهم الآن علانية أنهم كانوا ينتوون إقامة مملكة يهودية، وانطلقت حركة ذبح اليهود من عقالها.

تجمّع البربر ثائرين أمام أبواب قصر يوسف، واقتحموه مسرعين وبحثوا عن يوسف، وكان قد تخفّى فى قبو متنكرا فى ثياب قذرة، ثم وجدوه وقتلوه. وكان هذا بمثابة دعوة إلى السلب والقتل فى المدينة، ويقال أن ثلاثة آلاف يهودى قتلوا فى هذا اليوم، وانفجر تعصّب العامة هذا فى يوم ٩ صفر ٤٥٩ هـ = ٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م[٩١]. ولكنها انتهت بانتهائه ولم تمتد إلى اليوم التالى، لأن البربر كانوا باختصار يكرهون يوسفَ وحده، أمّا اليهود فواصلوا حياتهم كما كانوا يعيشون قبلا فى مقاطعة غرناطة، دون أن يبحثوا فيما تلا ذلك عن مناصب ذات مكانة عالية.

●●●

كان المستعربون مع اليهود يكونون جانبا من الشعب فى إسبانيا الإسلامية، ويطلق عليهم المسلمون سم «أهل الكتاب» أو «أهل الذمة».

ولم يقطع المولّدون، وتحدثنا عنهم فيما سبق، كل صلاتهم مع رفاقهم القدامى فى الدين، والذين ظلوا على مسيحيتهم، ونعنى بهم المستعربين، وعلى النقيض كل الدلائل، فيما يبدو، تشير إلى الجانبين واصلوا التعامل والعيش كما كانوا يفعلون فى الماضى، فى صلات يومية مستمرة، وبخاصة فى المدن الكبرى. وهذه الحياة المشتركة تسمح لنا أن نفهم على نحو أفضل تسامح المسلمين الإسبان إزاء الجماعات المسيحية الإسبانية. وفى الحق لا يوجد فى أى مكان آخر شعب منهزم عومل بمثل هذه الإكرام فى تنفيذ الاتفاقيات الخاصة بالتسليم، وفى تطبيق الشريعة الإسلامية المتصلة بالذميين. وكان هناك إسبانيون فى كل مكان: حول الأمير، حيث الإسبانيات زوجات شرعيات أو عشيقات، وكرقيق أو موالٍ، وفى الجيش جنودا مرتزقة، وفى بعض الحالات كانوا قوّادا[٩٢].

---

(٨٩) من المتقارب، الديوان، القطعة ٢٥، ص ١٥١ – ١٥٣، وأبحاث ط ٣، النص فى جـ ١ ملحق ص ٦٣ – ٦٨، والترجمة ص ٢٨٦ – ٢٨٩، وأعمال الأعلام ص ٢٣١، ونفح ٣٢٢/٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٧١ – ٧٢ والمصادر المذكورة هناك.

● وانظر أيضا كتابنا: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٥٠ – ٧٣، دار المعارف القاهرة ١٩٨٧. وغرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة الطاهر أحمد مكى، ط ٥ ص دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (المترجم).

(٩٠) من اللافت للنظر أن الأمير عبد الله لم يشر ولا مرة واحدة إلى قصيدة أبى إسحاق فى كتابه التبيان (= مذكرات الأمير عبد الله).

(٩١) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٧٣ – ٧٥، والمصادر المذكورة هناك، ودائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٤ ص ١٣٠٠ – ١٣٠١، مادة بنو زيرى فى إسبانيا، وكتب المادة ليفى بروفنسال.

(٩٢) يمكن البرهنة أيضا على أنه فى عصر ملوك الطوائف، كما فى عصر الفتنة، كان هناك قواد مسيحيون فى جيوش الأمراء المسلمين الإسبان. ويتحدث المؤرخون العرب عن شخص يدعى رانده Rando عهد إليه المظفر من بنى الأفطس بقيادة قلعة قلمرية، ولكن خيانته سمحت لفرناندو الأول أن يحتل هذه القلعة الحصينة. انظر: البيان ٢٣٨/٣، وأعمال الأعلام ١٧٨. ويبقى سؤال: هل

وكان يقوم على تطبيق القانون بين المدعين قضاة هم أقارب لهم أحيانا، قرابة دانية أو بعيدة، ومن ثَمَّ يمكن أن نستنتج أنه فى ظل نظام يتمتع بحرية واسعة استطاع المسيحيون حتى فى المراكز الحضارية الكبرى أن يقاوموا التلاشى مهما كان ارتباطهم بتقاليدهم الدينية والاجتماعية واهيا ولدينا وثائق لاتينية وعربية تؤكد وجود هذه الجاليات، وحريتها فى ممارسة شعائرها الدينية[٩٣].

ونلحظ أن أبا الوليد بن جهور عيّن خلال حكمه ابن زيدون فى قرطبة «للنظر على أهل الذمة فى بعض الأمور المعترضة»، ولم يوضّح لنا المؤرخون طبيعة هذه المهمة[٩٤].

ونعرف الامتياز الشهير الذى منحه على بن مجاهد أمير دانية لجميع كنائس إمرته، وتتضمن أسقفيات الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) ودانية وأوريولة، بأن يجتمعوا عند أسقف برشلونة عام ١٠٥٨ م، وأن كل رجال الدين فى إمارته يجب أن يخضعوا فى المستقبل لأوامر أسقف برشلونة، وأن يتلقوا منه وحده «الزيت المقدس» والأوامر الدينية، وأيضا قرارات تعيينهم فى وظائفهم الرهبانية[٩٥]. ومثل هذا القرار لا يجب أن يدهشنا، لأن على بن مجاهد ربّته أمه على المسيحية خلال مدة أسرها الطويلة، ولم تعتنق الإسلام إلا بعد أن نضجت وعادت إلى والده مجاهد، ولكنها ظلّت طوال حياتها مسيحية أكثر منها مسلمة[٩٦].

وقد أخذ المستعربون خلال «الفتنة» جانب الحزب الأندلسى، وضد البربر صراحة، وجعلوا غايتهم واحدة مع مواطنيهم المسلمين، وهم إسبان مثلهم، رغم الخطر الذى كان يتهدّدهم لأنهم لم يظلوا على الحياد، وسعدوا أيضا برؤية القشتاليين والقطلان يتدخلون فى الصراع لصالح الخلافة، ولو أنهم تلقوا فى شىء من الخوف شركاءهم فى الدين هؤلاء، فقد كانوا ذوى فضائل حربية، ولكنهم فوضويون إلى حد ما. ومع ذلك، فعندما انسحبت القوات المسيحية بعد معركة قنتيش ووادى آره، لم يكن المسلمون وحدهم فى قرطبة، فيما نعتقد، هم الذين أسفوا على عزلتهم المؤقتة[٩٧].

رائده المشار إليه هو سيسناندو والذى بعد أن ترك خدمة المعتضد صبح حاكما لقلمرية مع فرناندو الأول؟. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ص ٩ هامش ٢، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ٦٥٥ - ٦٥٧، ومينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد، ص ١٠٠ و١٦١ و٧٢٣. وحالة السيد القنبيطور، يكان يقاتل إلى جانب الأمراء المسلمين حينا وإلى جانب الأمراء المسيحيين حينا آخر، حية فى ذاكرتنا ليكون من الضرورى الحديث عنها هنا. انظر بخاصة: مينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد.

● قلت: فى مقدمتى لترجمة ملحمة السيد درست حياته ونشاطاته المختلفة دراسة وافية، وفى ظنى أنها الترجمة الأولى والوحيدة حتى الآن، كما أن الدراسة أوفى بحث كتب عنها فى العربية. انظر: ملحمة السيد، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣. (المترجم).

وكان فى جيش المعتمد الذى هاجم قرصية ٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م، فرقة من الجنود المسيحيين يقودها عدد من القواد الكبار، وربما كانوا من الموالى، وأحدهم اسمه أخذ شكلا عربيا كاملا: خلف بن نجاح، والثانى احتفظ باسمه الإسبانى محمد بن مرتين، وكلاهما اشترك فى المعارك كجنود محترفين. نظر: أعمال الأعلام ص ١٤٩ و١٥٠ و١٥٨.

(٩٣) سوف نكتفى بالرجوع إلى المصادر التالية: سيمونيت، تاريخ المستعربين، ومينديث بيدال، أصول الإسبان. وجونثالث بالنثيا، مستعربو طليطلة. وليفى بروفنسال، إسبانيا فى القرن العاشر وغومث مورينو، كنائس المستعربين. وسانتشيث البرنس، صور الحياة فى ليون منذ ألف عام.

(٩٤) ابن الأبار، إعتاب الكتاب ص ٢١٢ - ٢١٣، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ص ٦٤٩ والهامش ٢.

(٩٥) سيمونيت، المصدر السابق ٦٥١ - ٦٥٢.

(٩٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢١٩، والذكرى المئوية لميشيل أمارى ٢/١٣٢.

(٩٧) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩٩.

ومنذ هذه اللحظة بدأت العلاقات السياسية بين مسيحيي الشمال والمستعربين والإسبان المسلمين تأخذ شكلا متواصلا. وقد سلّم عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور وخليفته الثانى، قيادة جيشه إلى مسيحى، ويمت إليه بصلة القرابة من ناحية أمه ، ومنه تلقّى النصح بأن يسير نحو قرطبة ضد ابن عبد الجبار(٩٨)، أى المهدى.

فيم يختلف شنجول المسلم عن خاله المسيحى؟ فى أشياء قليلة جدا. وهؤلاء الأمراء الذين يرتبطون بالمسيحيين عائليا، ولكنهم يختلفون دينا، لم يكونوا يتعاونون إلا فى تطبيق سياسة الأخوة الأعداء: الأقوى ينهب الأضعف، ويجعل هذا يدفع ثمن الخدمات التى أديت إليه. ونعرف الاتفاقات التى تمت فى تلك الأيام بين هشام المؤيد ويقوده واضح الصقلبي من جانب، وبين شنجول ويساعده ابنه من جانب آخر، ومعهما المسيحيون، وقد استولى هؤلاء على أكثر من مئتى قلعة على الحدود(٩٩). ويقول دوزى: ومن هذه اللحظة تغير كل شيء، ومتى؟ فى شهور قليلة!، ولم يعد المسلمون هم الذين يفرضون القوانين على الأمراء «النصارى، وإنما على العكس، كان كونت برشلونة المسيحى هو الذى يقرر مصير إسبانيا العربية(١٠٠).

إن المعلومات الاجتماعية عن المسيحيين، المستقلين منهم فى الشمال أم الذين يخضعون للحكم الإسلامى لا تستمدها من الشعر بخاصة. ويمكن القول بعامة أن شعراء القرن الحادى عشر الميلادى تجنبوا استخدام كلمة علج، فى تسمية المسيحيين الأسرى(١٠١). ويجهلون تماما كلمة مستعرب، والتى أخذت فى الإسبانية صورة Mozárabe (١٠٢)، ويطلقون على المسيحيين الذين توجه إليهم الحملات اسم النصارى، أو الكفّار، أو أهل الكفر، أو المشركين، عندما يكون الحديث بصدد الجهاد.

أما الكلمة الأكثر شيوعا لتسمية المسيحيين المستعربين أو مسيحيى البلاد الأجنبية فهى عجم، ويجيء معناها فى مواجهة كلمة عرب، وهى تطلق على العرب لأنهم يتكلمون العربية بوضوح. وأما أولئك، أى العجم، وكل الأجانب، فهم الذين لا يفصحون فى كلامهم، وهو نفس ما فعله الإغريق، فقد كانوا يطلقون على هؤلاء اسم بربروس Barbaros. وفى إسبانيا كانت كلمة عجم تطلق بمعناها الواسع على غير عرب الجزيرة، وبمعناها الضيق على غير المسلمين، أى على الإسبان المسيحيين. ولقد كان المعتضد أمير إشبيلية يطمح أن يحكم العرب والعجم:

فإنْ أردتَ إلٰهى بالورى حَسَنًا فملِّكْنِي زمامَ العُرْبِ والعجمِ(١٠٣)

---

(٩٨) نحن بصدد الكونت سانتشو غرسية، انظر الأعمال ص ٦٦.

(٩٩) أعمال لأعلام ١٧٧، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ و٣٠٢.

(١٠٠) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩٥.

(١٠١) المؤرخون على النقيض، يستخدمونه بكثرة. انظر: نفح ٥٤٦/١، ٣٢٨/٢ و٣٣٥ طبع أوربا. والنصارى الذين أسرهم المنصور واستخدمهم بنائين فى توسعة مسجد قرطبة كان يطلق عليهم «أعلاج النصارى». انظر: نفح ٥٤٦/١، وص ٢٤٥ الهامش ٨٥ فيما سبق من هذا الكتاب. وعن معنى كلمة علج انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٢٢٤ هامش ١.

(١٠٢) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ص ٣٥.

(١٠٣) من البسيط. الحلة السيراء ٤٥/٢، و«بنو عباد» ٥٢/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٤٩. وقد ترجمها دوزى «على كل العرب والبربر».

وقد أرسل المعتصم وزيره أبا الأصبغ بن أرقم سفيرا إلى المعتمد، فأعلن عن وصوله إليه بهذه الأبيات:

يامَلِكًا عظّمتْهُ العُربُ والعجمُ ۝ وواحدًا وهو في أثوابِهِ أُمَمُ(١٠٤)

وما نعرفه من تاريخ المعتمد ودنيا الإسلامية بعامة في القرن الحادي عشر الميلادي يسمح لنا بأن نعتقد أن كلمة «عجم» تعني نصارى شبه الجزيرة الإيبرية، وليس الأجانب عامة. ويقدم لنا بيت من الشعر لأبي عمرو الداني شاهدا أزيد، ونحن نعرف كيف استقبل بالترحاب في عاصمة الثغر الأعلى، وأراد أن يعلن عرفانه على كل سكان إسبانيا، يقول:

أروحُ وأغدو بها خاطبًا ۝ لدى سامعي عَربٍ أو عجمْ(١٠٥)

فالداني، وهو مسلم إسباني لم يستطع أن يوجه الكلمة بطريقة واضحة إلاّ إلى سكان شبه الجزيرة(١٠٦).

ويقدم لنا الشعراء من خلال قصائدهم معلومات عن النصارى المستعربين أكثر أهمية من التدقيقات اللغوية التي أشرنا إليها من قريب فهم الذين يقدمون لنا، في غيبة المؤرخين، الشواهد على حرية المستعربين في ممارسة طقوسهم الدينية وحتى التعمق في فهم العلاقات المتبادلة بين الإسبان المسلمين والنصارى.

ولا نملك شاهدا أكثر قيمة على مطلع القرن الحادي عشر من شهادة أبي عامر بن شُهَيْد، في النص الذي أورده لنا «المطمح»، ويستحق أن نترجمه كاملا:

«أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فُرشت بأضغاث آس، وعُرِشت بسرور واستئناس، وقرْعُ النواقيس يُبهج سمعه، وبرق الحُميَّا يُسرج لَمْعه، والقسّ قد برز في عبدة المسيح، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح واطرحوا النِّعم كلَّ اطراح

لا يعمدون إلى ماءٍ بآنيةٍ ۝ إلا اغترافًا من الغدران بالراحِ

وأقام بينهم يعملها حُميّا، كأنما يرشف من كأسها شفةً لَمْيا، وهي تنفح له بأطيب عَرْف، كلّما رشفها أعذب رشف(١٠٧)، ثم ارتحل بعد ما ارتحل، فقال:

---

(١٠٤) من البسيط، القلائد ٨، رينو خاد ١/٤٢، والترجمة ٩٦.

(١٠٥) من المتقارب، القلائد ١٠٣.

(١٠٦) «عجم» بمعنى المستعربين، أو المسيحيين عامة في إسبانيا، ويوجد من القرن العاشر شهادة لسان ميّن دي لاكوجويّا، تحمل تاريخ عام ٩٥٠، أصدرها فرنان جو نسالث، تتصل بن يدعى أوريوبو ويحمل صفة Zahaggemi، ومن السهل أن نردها إلى أصلها العربي وهو «صاحب العجم»، أي رئيس المستعربين. انظر: غومث مورينو، كنائس المستعربين ص ٢٦٣ قم ١. ويقول ابن الأبار في الحلة السيراء ١/١٥٩ عن عمرو بن حفصون: إنه كان قبل أن يصبح سعيد بن جودي رئيس العرب في القرن الحادي عشر: «ركن العصبية للعجم والمولّدين». وانظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٧ وكان يفصل في الدعاوي والخصومات بين المسيحيين قاضي النصارى أو قاضي العجم، وأخيرا فإن اللغة الإسبانية كانت تسمى لعجمية، وأخذت شكل ALJAMIA بالحروف اللاتينية.

(١٠٧) أتابع رواية نفح الطيب ١/٥٢٥.

ولَرُبَّ حانٍ قد شممتُ بديره خمرَ الصِّبا مُزجتْ بصرفِ عصيرهِ
فى فِتيةٍ جعلوا السرورَ شعارَهُمْ مُتصاغرين تخشُّعًا لكبيره
والقسُّ مما شاءَ طول مُقامِنا يدعو بعودٍ حولنا بزبوره
يُهدى لنا بالرَّاحِ كلَّ مُصفَّرٍ كالخِشْفِ خصْره التماحُ خَفيره
يتناولُ الظرفاءُ فيه وشُرْبهم لِسلافِهِ والأكلُ من خنزيره[(١٠٨)]

هذه الأبيات من الشعر ذات صراحة خشنة، وربّما فضيحة مقصودة، وتذهب إلى أبعد مما يظن المستشرقون بكثير، وقد أشاروا إليها دون أن يترجموها كاملة، وما أوضحه ابن عبدون فى نص رسالته الذى نشر أخيرا يبرهن على أن ابن شهيد لم يبالغ، ولم يُحَمّل ألوان لوحته فوق ما تحتمل[(١٠٩)].

وقدّم لنا الشعراء مشاهد من حب المسلمين للغلمان النصارى من أبناء المستعربين، ويؤكّد لنا هذا فى جانب متميز العلاقات الحميمة التى يمكن أن توجد بين الطبقتين الدنيا والوسطىٰ فى المجتمع، وهنا يجب أن نعرّج إلى مطلع القرن الحادى عشر، ونذكر حالة شاعر أعطى لنا من جانب آخر الأمثلة على هذا الحب الأشد حنانا، وهو أبو عمرو يوسف بن هارون الرمادى[(١١٠)]. ومرة أخرى كان ابن خاقان هو الذى احتفظ لنا بهذه الرواية:

«كان (أى الرمادى) كلفًا بفتى نصرانى استسهل لباس زُنّاره، والخلود معه فى ناره، وخلع بروده لمسوحه، وتسوّغ الأخذ عن مسيحه، وراح فى بيعته، وغدا من شيعته، ولم يشرب نصيبه، حتى حطّ عليه صليبه، فقال:

أدرْها مثْلَ ريقكَ ثم صلِّبْ كعادتكمْ على وهى وكاسى
فيقضى ما أمرْت به اجتلابًا لمسرورى وزاد خضوع راسى[(١١١)]

ويقول الرمادى نفسه:

قبَّلْتهُ قُدّامَ قسّيسه شربتُ كاسات بتقديسه
يقرعُ قلبى عند ذكرى لهُ من فَرْطِ شوقى قَرْعُ ناقوسه[(١١٢)]

دون شك لسنا بصدد مثل وحيد لمسلم تخلّى عن عقيدته لكى يرضى فى حرية كاملة مشاعره الآثمة. وقدّم لنا أبو القاسم بن العطار مثلاً آخر:

وشْانٌ ما إنْ يزالُ عارِضُهُ يعطفُ قلبى بعطفةِ اللّامِ

(١٠٨) من الكامل، المطمح ١٩٥، وعنه نقلها نفح الطيب، وانظر ايضا: سيمونيت، تاريخ المستعربين ٦٤٨ – ٦٤٩ و ٨٢١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٣٥ – ٣٦، ولم يصنع ابن خاقان غير أنه أخذ الفقرة من رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، بعد أن أدخل عليها تعديلا خفيفا، انظر: الذخيرة ٢٦٠/١، ونقلها أحمد ضيف فى: بلاغة العرب فى الأندلس ٥٢ – ٥٣، وفى طبعة بطرس البستانى ص ١٤٢–١٤٣.

(١٠٩) انظر: وثيقة عن الحياة والهيئات فى مدينة إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر: رسالة ابن عبدون، نشرها ليفى بروفنسال مع مدخل ومعجم فى المجلة الأسيوية، إبريل – مايو ١٩٣٤، ص ١٩١ – ٢٣٩.

(١١٠) عن الرمادى انظر مقالنا فى دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣ – ١١٩١.

(١١١) من الوافر، المطمح ص ٣١٦، وعنه نقلها نفح ٣٧/٤.

(١١٢) من السريع، المطمح ٣٢١، وعنه نقلها نفح ٤٠/٤.

أسلمنى للهوى فوحزنا إنّ بَرُّنى عِفّتى وإسلامى
ألحاظُه أسهمٌ وحاجبه قوسٌ وإنسان عينهِ رامى[١١٣]

ولكن المثل الأكثر جاذبيةً يقدمه لنا أبو عبد الله بن الحداد، شاعر من بلاط المرية، وأصلا من وادى آش، وفى حالته نحس معه بأننا فى حضرة الحب لأكثر إخلاصًا، والأشد نقاء، على نحو ما كان عليه بعض شعراء التروبادور فيما بعد ذلك. وحدث ليس بأقل أهمية أن هذه الأبيات تمدّنا بمعلومات دقيقة، نبحث عنها عبثًا عند ابن شهيد، عن الطقوس المسيحية كما كان يمارسها المستعربون فى وادى آش، وتعود هذه الأبيات، وسوف نذكّرها فيما بعد، إلى مرحلة المراهقة فى حياة الشاعر: لقد هام قلبه حبًّا بفتاة مسيحية من وادى آش، وكانت تحمل اسم جميلة فيما يبدو، ولكن العاشق الذى خلّدها ظل يدعوها دائمًا نُوَيْرة[١١٤]:

وبين المسيحيات لى سامريّةٌ[١١٥] بعيدٌ على الصبِّ الحنيفىِّ أنْ تدنو
مُثلّثةٌ قد وحَّدَ الله حسنَها فثنّى فى قلبى بها الوجدُ والحزن
وطىّ الخمارِ الجونِ حسنٌ كأنما تجمّع فيه البدرُ والليلُ والدُّجن
وفى معقد الزُّنّارِ عقدُ صبابتى فمنْ تحته دعصٌ ومن فوقه غصن
وفى ذلك الوادى رشًا لُضلعى له كناسٌ، وقمرىُّ فؤادى له وَكْنٌ[١١٦]

ويمدحها أيضاً فى هذه الأبيات:

عساكِ بحقِّ عيساكِ مريحةَ قلبىَ الشاكى
فإن الحسنَ قد ولاً كِ إحيائى وإهلاكى
وأوْلعنى بصلبانٍ ورهبانٍ ونسّاك
ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهنّ لولاك
وها أنا منكِ فى بلوى ولا فرجٌ لبلواك
ولا أسطيع سلوانًا فقد أوثقتِ أشراكى
فكم أبكى عليك دمًا ولا ترثين للباكى
فهل تدرين ما تقضى على عينىٌ عيناك
وما يُذكيهِ من نارٍ بقلبى نورُكِ الذاكى؟

(١١٣) من المنسرح، القلائد ٢٢٨، وعنه نقلها نفح ٤/٢٠٣.

(١١٤) الذخيرة ٧٠٤/١ وما بعدها، ونويرة تصغير نوار، وهى صفة تعنى خفرة ونافرة، وكانت زوجة الفرزدق، وهو شاعر مشرقى من القرن الأول الهجرى = السابع الميلادى، تحمل الاسم نفسه.

(١١٥) يشير الشاعر إلى قصة السامرى التى وردت فى القرآن الكريم، فى سورة طه، الآيات ٨٥ و٨٧ و٩٥، والذى لا يستطيع أحد أن يمسه، دون أن يعانى الماس والممسوس من الحمى، فكان يسير فى الناس ويصيح فيهم إذا رآهم: لا مساس، وإلى ذلك تشير الآية: «فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس» انظر فيما بعد ص ٣٩٠ الهامش رقم ٦٩ من هذا الكتاب، وثمة إشارة إلى السامرى الذى نحن بصدده فى شعر ابن زيدون، انظر: الديوان، ص ٢٧٥، والأبيات من الرمل:

وأرونى سامريًا يُتقى منه المساس

● السامرى أحد زعماء بنى إسرائيل لما ذهب موسى لمناجاة ربه ضل السامرى بنى إسرائيل، ودعاهم إلى الشرك بالله، فعاقبه الله بالوحشة والانفراد، فلا يمس إنسانًا إلا أدركتهما الحمى معًا، فكان يتحاشى الناس ويناديهم إذا رآهم: لا مساس!. (المترجم).

(١١٦) من الطويل، الذخيرة ٧٠٨/١، وفى كتاب أحمد ضيف بلاغة العرب فى الأندلس الأبيات الأربعة الأولى.

حجبتِ سناكِ عن بصرى	وفوق الشمس سيماك
وفى الغصن الرطيب وفى الـ	ـنقا المرتجّ عطفاك
وعند الروضِ خدّاك	ومن ريّاه ريّاك
نُويرةُ إنْ قَليتِ فإنّـ	ـنى أهواكِ أهواك
وعيناك المنيتتا	كِ أنى بعض قتلاك[117]

وفى هذه الأبيات:

قلبى فى ذات الأثيلاتِ	رهينُ لوعاتٍ وروْعاتِ
فوجّهْ نحوهُمْ إنّهمْ	وإنْ بقوا قِبْلَةُ بُغياتى
وعرّسا من عَقداتِ اللوى	بالهضباتِ الزهَريّات
وعرّجا يافتيَيْ عامرٍ	بالفتياتِ العيسَويّات
فإنّ بى للروم رُوميّةً	تكنسُ ما بين الكنيسات
أهيمُ فيها والهوى ضلّةٌ	بين صواميع وبيعات
وفى ظباءِ البدو من يزدرى	بالظبياتِ الحضريّات
أفصحُ وحدى يومَ فصحٍ لهم	بين الأربْطى[118] والدوحات
وقد أتوْا منه إلى موعدٍ	واجتمعوا فيه لميقات
بموقفٍ بين يدىْ أسقفٍ	ممسكٍ مصباحٍ ومنساة
وكلّ قس مُظهرٍ للتقى	بآى إنصاتٍ وإخبات
وعينه تسرحُ فى عينهم	كالذئب يبغى فرْسَ نعْجات
وأىُّ امرئ سالمٍ مِن هوىً	وقد رأى تلك الظبيّات
فمن خدودٍ قمريّاتٍ	على قدودٍ غُصُنيات
وقد تلوا صُحْفَ أناجيلهم	بحسْنِ ألحانٍ وأصواتِ
يـزيدُ فى نَفْرٍ يعافيرهم	عنى وفى ضغط صباباتى
والشمسُ شمسُ الحسنِ من بينهم	تحت غماماتِ اللثامات[119]
وناظرى مختلسٌ لمحَها	ولمحُها يضرم لوعاتى
وفى الحشا نارُ نُويْريّةٌ	عُلّقتُها منذ سنيّات
لا تنطفى وقتا وكم رُمْتها	بل تلتظى فى كل أوقاتى
فحىٌّ عنى رشأ المنحنى	وإن أبى رجع تحياتى[120]

لا يمكن أن ننكر أن الشاعر اتكأ، وهو يؤلف هذه الأبيات، على ذكريات من الدواوين

(١١٧) من الوافر، الذخيرة ١/٧٠٧، وفى أحمد ضيف، بلاغة العرب ص ١٨٦ – ١٨٧.

(١١٨) الترجمة تقريبية، لأن النص ليس واضحًا.

(١١٩) الترجمة تقريبية، لأن المسيحيات لم يكن يضعن اللثام، أى النقاب. ويمكن موازنته بالبيت الثالث فى القطعة الأولى ص٢٥٢ من هذا الكتاب.

(١٢٠) من السريع، الذخيرة ١/٧٠٥، وفى أحمد ضيف، المصدر السابق له، ص ١٨٥ – ١٨٦.

لقديمة[١٢١]. ومع ذلك يعطينا الانطباع بأنه لاحظ الواقع مباشرة: فالفتاة التى أحبها ورسم صورتها، ريفية من قريته، وقد سجل الشاعر الفرق الذين يمكن أن يوجد بين ضيعة وادى آش حيث تمضى الحياة ريفية، وبين المدن الكبرى مثل المرية، والقريبة الشبه جدا من قرطبة وإشبيلية، حيث الحياة أكثر تحضرا وصقلا، كما يحدث فى المدن الكبرى بعامة. وأضفى عليها الثوب الذى تلبسه طابعًا محليًا، ولا يقلل من تمييزه لها أن وصفه ليس كاملا، فهى تلبس خمارا، والذى لا يزال يستخدم حتى اليوم فى ريف الأندلس فى الجنوب وفى الشرق من أسبانيا[١٢٢] وفى مقاطعة روسيلون Roussillon فى جنوب فرنسا على الحدود مع أسبانيا، وتحمل فى وسطها زنّارا[١٢٣]، وهو ما فرضه المسلمون على مسيحيى البلاد التى فتحوها، أو إن شئت على نصارى أهل الكتاب، ولم يتواصل العمل به إلا فى الشرق، وبلاد البربر الشرقية[١٢٤]. وأشعار ابن شهيد، والرمادى، وابن الحداد، تسمح لنا بأن نعتقد أن المستعربين، قسسا ورهبانًا وعلمانيين، رجالًا ونساء، كان عليهم أن يحملوه علامةً مميِّزة.

ولقد شبه ابن الحداد صاحبته نُوَيرة بأنها سامرية طبقًا للأسطورة الإسلامية، بسبب صعوبة الوصول إليها، ويعبر ابن عمار عن الفكرة نفسها بمناسبة وصفه للخرشوف:

كـأنّها فى جمـالٍ وامتنـاعٍ ذُرىً خَوْدٌ من الروم فى دِرْعٍ من الأَسَلِ[١٢٥]

ليس هناك مكان فيما يبدو يمكن أن تتوقف عنده الإشارات التى نجدها فى الشعر الإسبانى الإسلامى فيما يتصل بالقسس أو الرهبان النصارى، وعندما يقول ابن الحناط الأعمى مثلا بمناسبة حبيبته:

يـادارَ عَلْوةَ قد هَيَّجتِ لى شجنًا وزدْتِنى حُـرَقًـا ، حُيِّيتِ من دارِ
كم بِتُّ فيك على اللذاتِ مُعْتكِفًا والليـلُ مُـدَّرِعٌ ثـوبًـا من القـارِ
كـأنّـه راهبٌ فى المسـح مُلْتحفٌ شـدَّ المجدُ لـه وَسْطًا بـزنّـارِ[١٢٦]

فأنه لم يصنع شيئًا أكثر من استخدام «صيغة» جارية فى الشعر المشرقى، ولكنّى أرى من المهم أن أوضّح أن الشعراء الأندلسيين كانوا يشيرون كثيرًا إلى قرع النواقيس دون أن يصرحوا مطلقًا بنفورهم من سماعها. يقول ابن حزم:

●●●

---

(١٢١) مثلا، ديوان حسان بن ثابت، طبعة القاهرة، تحقيق ابرقوقى ٤١٥ الأبيات ١ - ٣.

(١٢٢) انظر: خوسيه برجوا، نفسية الشعب الإسباني، مدريد ١٩٣٤، الصور ص ٥١٥ (أرغون)، و٥٣٤ (قطلونية)، و٥٥١ (الجزائر الشرقية)، و٥٥٦ (ليون)، و٥٧٥ (سلمنقة).

(١٢٣) كلمة زنار من الكلمة الإغريقية Zoārrom، ولها المعنى نفسه. انظر طوبيا الأنيسى الحلبى اللبنانى، كتف تفسير الألفاظ فى اللغة العربية، ط ٢، تنقيح يوسف توما البستانى، ص ٣٣. أما فى الغرب الإسلامى فتطلق أيضا على نوع من البرنس، أو العباءة الخشنة يستخدمها الريفيون. انظر: دوزى، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص ١٩٦ - ١٩٨.

● وفى الترجمة العربية للدكتور أكرم فاضل ص ١٦٢ - ١٦٣، بغداد ١٩٧١ (المترجم).

ولاوست، الكلمات والأشياء البربرية ص ١٢٩ - ١٣٠.

(١٢٤) انظر: فينان، الإشارة المميزة لليهود فى المغرب، فى مجلة الدراسات اليهودية، المجلد ٢٨ ص ١٨٩٤، ص ٢٩٤ - ٢٩٨.

(١٢٥) من البسيط، الحلة السيراء ١٦٣/٢، وانظر فيما سبق ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١٢٦) من البسيط، نفح ٥٠٣/١، والنويرى، نهاية الأرب ٢٩٨/١ ط ٢.

أَتَـــتْــــنِى وهِــلالُ الجَــوِّ مُـــطَّلِعٌ قُبيل قَرْعِ النصارى للنواقيس[١٢٧]

إن دراسة مختلف العناصر العرقية التى كان يتكون منها الشعب فى إسبانيا الإسلامية تجعلنا نشعر، فى بساطة، أننا بإزاء فسيفساء شديدة التناسق فى تكوينها، وبالكاد نلمح فيها بعض الإيقاعات المتنافرة، وهذه العناصر أخذت تمتزج تدريجًا، وتصبح كل يوم أقوى التحامًا.

ويرجع العامل المهم فى تعادل الأجناس جيدا إلى التزوّج من سيدات إسبانيات أو أوربيات، ولا نود أن نقول إن النساء البربريات[١٢٨] واليهوديات لم يتدخلن أيضًا فى هذه «الخلطة» العرقية، ولكن أعدادهن فى الحريم الإسبانى الإسلامى لم تكن أبدا هى السائدة فيما يظهر[١٢٩].

ولقد أسهمت المرأة المسيحية بأعدادها الكثيرة فى تكوين جنس لا يمكن أن ندعوه عربيا، ولا بربريا، ولا صقلبيا، ولا يهوديا، أمّا الصفة الأكثر ملاءمة له فهى أن ندعوه أندلسيا أو إسبانيا. وقد سمح لنا المؤرخون كما رأينا باستخدام هذا المصطلح، فوجود حزب أندلسى فى بداية الفتنة، وخلال عصر الطوائف، عليه شواهد عديدة، وتظهر حيويته فى عداوة الحزب البربرى بخاصة.

وتسمح لنا العلاقات بين المواطنين الإسبان الأصليين ونصارى الشمال بأن نفهم على نحو أفضل تكوين هذا الحزب من ذوبان عدة أعراق مختلفة فى البوتقة نفسها.

ويمكن القول بأن المسيحيات بالكاد غيّرن شيئا من طريقة حياتهن، وكذلك أبناؤهن، وقد تلقوا تربية مسيحية على الأقل فى الأعوام الأولى من طفولتهم[١٣٠].

وجدير بالذكر أن نلحظ أنه رغم أهمية ما أضافه الدم الإسبانى الذى كان يجرى فى عروق الأسر الإسلامية الإسبانية، وهو ليس بالقليل، إلّا أن الشعراء العرب أو الأدباء الناثرين لم يقولوا أبدا أن هذا العنصر الذى تكوّن أخيرا كان عجميا، أى غير عربى. ذلك لأن الإسلام أقام مفهوما خاصا عن دور المرأة فى الأسرة، ومن المهم أن نعرض لهذه الأفكار الأساسية، وأن نظهر النتائج التى أدت إليها فى إسبانيا نفسها.

وكان يسعد مؤرخو الأدب أن يرددوا هذه الجملة التى ينسبونها إلى الخليفة الأموى المشرقى

---

(١٢٧) من البسيط، طوق الحمامة ص ١٧٣ وترجمة نيكل ١٩١، وطبعة برشيه ص ٣٤٦.

(١٢٨) لابد أن نشير إلى حادثة أمير مسيحى مثيرة، وهو ألفونسو بن أوردونيو، أذ كان يدعى ابن البربرية، فقد ذهب عام ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣ م إلى مدينة سالم، على رأس كتيبة من النصارى ليكون إلى جانب المظفر بن المنصور. انظر: البيان المغرب ٣/٥، ترجمة ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ١٨٧.

(١٢٩) فيما يتصل بدم اليهود فإن الأمور تغيرت تمامًا بعد ذلك بقرون، ذلك أن الكاردينال فرانسيسكو دى مندوثا إى بوبادِيا أرادا أن ينتقم من حكومة فيليب الثانى فأرغم حفيده على أن يطلب البرهان على نقاء الدم، وأظهر فى كتابه «جذوة النبلاء» على أنه لا توجد أية أسرة إسبانية متميزة لا تجرى فى عروقها نقطة دم عربية أو يهودية، انظر: جذوة النبلاء الإسبان أو بقع وعار أسرهم، برشلونة ١٨٨٠ م.

(١٣٠) الحالة الأشد تمثّلا نلتقى بها فى مجاهد ملك دانية والجزائر الشرقية، فأمه مسيحية اسمها جُد، أسر ها فى سردينية مع ابنها على، ونقل كلاهما إلى أرض مسيحية، واستطاع مجاهد أن يفتدى ابنه على بفدية ضخمة. ولكن أمه فضّلت أن تبقى بين النصارى، وهذه الإقامة الطويلة فى أرض نصرانية جعلت من على مسيحيًا، وكان معروفًا تمامًا أنه احتفظ طوال حياته بإيثار أولئك الذين ربوه فى طفولته ومراهقته، وفكرهم وعاداتهم. انظر: أعمال الأعلام، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

عبدالملك بن مروان: «من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية»[١٣١].

وفى المثال السابق تظهر وجهة نظر الرجل وأنانيته بطريقة لم يعبّر عنها أحد بأفضل مما عبّر عنها هذا الأمير، وهى أن المرأة حيوان خدمة أو لحم متعة[١٣٢]. وهى دون شك وجهة نظر مسمين آخرين كثيرين، ولكن شخصيات كثيرة اهتمت فى مطلع الإسلام بهذه العلاقات المختلطة لما لها من تكوين نفسى على التأثير العرقى، وكان رئيس الدولة يرى، كملاحظ دقيق، إلى جانب تعدّد الزيجات الذى يملأ حريمه كى يشبع نهمه الجنسى أن العلاقة بين كائنين إنسانيين لا توجد بينهما أية صلة عائلية، قريبة أو بعيدة، تؤدى إلى نتائج طيبة فى تحسين مستوى الجنس من وجهة نظر ثقافية، قال عمر بن الخطاب: «ليس قوم أكيس من أولاد السرارى، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم»[١٣٣].

ولم يغب عن المفكّرين المسلمين الذين تأملوا ظروف تطوّر الأعراق الإنسانية حقيقة أن الزوجة الأجنبية حين لا تربطها بالزوج صلة قرابة تعطى ذرية أفضل شكلا وعددا.

وهذا اللون من الملاحظات أصبح كذلك بالغ الأهمية، وليس قليلا بين المسلمين. والرأى الشائع ويقبله الإسلام الرشدى أن اشتراك المرأة فى تكوين الأعراق محدود للغاية، ويعرض لنا شاعر مجهول هذه الفكرة بوضوح فى الأبيات التالية:

لا تشتمنّ امرأً ممن يكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللأنساب آباء[١٣٤]

وفى إسبانيا كان ذلك على التأكيد رأى أبى بكر بن العربى، المتوفى ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م، لأنه يروى أنه سمع فى بغداد فقيها حبليا يرسل رأيا بدا له من البدائع: «سمعتُ أمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة لها، ولا مالية فيه، ولا منفعة مبثوثة عليه، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها، فلذلك تبعها، كما لو كان أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع الأمة، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها، وهذا من البدائع»[١٣٥]

ولم يقتنع ابن العربى، وهو إسبانى، بهذه النظرية لأن إعطاء الأم مكان الصدارة يتيح للعنصر

---

(١٣١) أبو الفرج، كتاب النساء، فى التيجانى، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩ ظهر، والأبشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، القاهرة ١٣٣٠ هـ ٢٠٦/٢، وترجمة (٦٠٨/٢، رانظر أيضا: السقطى، رسالة فى الحسبة ٤٩ - ٥٠.

(١٣٢) وقد عبر ابنه مسلمة، وهو ابن سوداء، عن الفكرة نفسها، بروح فاجر وفاسد «إنى لأعجَب من ثلاثة: من رجل قصّر شعره ثم عاد فأطاله، أو شمر ثوبه ثم عاد فأسبله، أو تمتع بالسرارى ثم عاد إلى المهيرات» وهذه جمع مهيرة، وهى الحرة المهورة. انظر: المبرد، الكامل ١٢٩/٢، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، وعنه نقلها التيجانى فى تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩، وطبعة القاهرة ص ٤٨.

(١٣٣) المبرد، الكامل، ١٢٤/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والتيجانى، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩ .

(١٣٤) من البسيط الإبشيهى، المستطرف، ٢٠٦/٢، وترجمة را ٦٠٨/٢،

(١٣٥) نفح ٤١/٢.

الأجنبى مكانا مفضلا فى المجتمع الإسلامى، والتسليم به يفترض أن صاحبه قد أخذ جانب الشعوبية[١٣٦]. وفى منتصف القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، أحسّ ابن قتيبة بخطر ما يحتوى عليه هذا المفهوم فعكف على شجبه[١٣٧]. وفى الغرب الإسلامى، فى القرن الحادى عشر بالدقة، فى عصر الطوائف، أثار القضية أحد المولّدين ويُدعى ابن غرسية (أبو عامر)، معاتبا أحد الشعراء لأنه رفض أن يمدح مجاهدا أمير دانية، لأن هذا الأمير غير عربى[١٣٨]. وفى رسالته التى كتبها بهذه المناسبة[١٣٩] حاول أن يظهر فى أسلوب ثرى، بالغ الفصاحة والنقاء، ويمثل أجمل تكريم للغة العربية فى عصره وللحضارة الإسلامية، وفيها حاول أن يثبت أن الأمراء غير العرب فى العصر الجاهلى سيطروا على تاريخ الشرق الأوسط بأعمالهم العظيمة فى المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن المنطقى أن نستنتج أن جنس الروم، أى أبناء عيساو، أو بنى الأصفر كما يسميهم المؤلفون العرب[١٤٠]، يتفوقون على نحو ملحوظ على جنس السواد، أى العرب، لأن جدتهم الأولى هاجر لم تكن غير جارية متواضعة الأصل. وقد أثارت رسالة ابن غرسية ردودًا وصلتنا[١٤١]، واهتم مؤلفوها قبل أى شىء أن يردوا اتهامهم بالدونيّة العرقية لأنهم ينتمون فى أصلهم البعيد، من ناحية الأم، إلى هاجر، وهى النقطة التى شدّد عليها ابن قتيبة. ولابد أن الصدمة التى وجهها ابن غرسية كانت عنيفة، ذلك لأن أحد الذين تحمسوا لشجبها ردّ بحزن على أن هذا المولّد الذى يدين بكل شىء لثقافته العربية كان مثل تلميذ الشاعر معز بن أوس المزُنى، حيث يقول:

أعلّمهُ الرمايةَ كل يومٍ ... فلما اشتدّ ساعدُه رمانى
وكم علمته نظمَ القوافى ... فلما قال قافية هجانى

---

(١٣٦) تاريخ الشعوبية ينادى بمساواة إن لم يكن بتفوق العناصر غير العربية فى المجتمع الإسلامى، ودرسها جولدتسيهر بعمق، فيما يتصل بالمشرق فى كتابه، دراسات إسلامية ١٤٧/١، وبطريقة أكثر سطحية فيما يتصل بإسبانيا الإسلامية فى مجلة المستشرقين الألمان، المجلد ٥٣، عام ١٨٩٩، ص ١٧١ – ١٨١، وأيضًا كرد على القديم والحديث ص ٦١٩، وطه حسين، فى الأدب الجاهلى، ص ١٧١ – ١٨١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ٤٩/١ – ٧٩، ودائرة المعارف الإسلامية ٤١٠/٤، وكتب مادتها مكدونالد.

(١٣٧) انظر: كتاب العرب أو الرد على الشعوبية فى رسائل البلغاء ص ٢٧٥، و ١، ٢١ – ٢٣، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ط. بولاق ١٢٩٣ هـ ٨٨/١١، ١ – ٥٢، وانظر أيضًا: الجاحظ، البيان والتبيين، طبعة السندوبى ١٨/٢ وما بعدها.

(١٣٨) طبقًا لمؤلف الذخيرة، ق ٣ الورقة ١٩٥ ظهر، هو أبو جعفر بن الجزّار، وطبقًا لمخطوطة الأسكوريال الورقة ٢٦ ظهر أبو عبد الله بن الحداد.

(١٣٩) نص الرسالة فى الذخيرة ٧٠٥/٣ – ٧١٤، وفى مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٠ – ٦١٧.

(١٤٠) عن هذا التعبير انظر دائرة المعارف الإسلامية ٤٨٣/١، مادة أصفر، وكتب المادة جولدتسيهر، ودوزى، ملحق المعاجم العربية، ٨٣٦/١.

(١٤١) ردّ عليه من معاصريه ابن الدودين، وابن اسحاق، ومجهول، وأبو الطيب بن مَن الله القروى، انظر الذخيرة ٧١٥/٣ وما بعدها. ورد متأخر من عصر الموحدين لأبى يحيى بن مسعدة، يوجد فى مخطوطة الإسكوريال رقم ٥٣٨، الأوراق من ٢٩ ظهر إلى ٤١ ظهر، وثمة ردود أخرى أشار إليها المؤلفون العرب، انظر جولدتسيهر فى مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٨ وما بعدها ١٤٢ – من الوافر انظر: الذخيرة ٧٢٤/٣، وديوان معن بن أوس، طبعة شوارتز ص ٢٤، وطبعة كمال مصطفى ص ٣٧.

● تعليق من المترجم:

وهم هنرى بيريس المؤلف فى فهم كلمة «البدائع» التى وردت فى نص ابن العربى، وترجمها «طافحا بالغرابة»، وبنى عليها أن ابن العربى غير موافق على رأى الفقيه الحنبلى، والعكس صحيح، وكلمة «البدائع» جمع «بديع»، تعنى أن البرهان الذى قدمه الفقيه الحنبلى فى مثله جيد ومقنع ونادرا ما يتأتى لفقيه، واستشهاده بابن قتيبة فى غير موضعه، لأن ابن قتيبة من أصل فارسى وليس عربيا، وإن لم يأخذ جانب الشعوبية. ومن هنا فإن هذه الفقرة من تحليل بيريس لا تقوم على أساس علمى.

(المترجم)

○ الفصل الثانى:

الحياة الاقتصادية

أتاح لنا الشعر أن نتصور المجموعات الرئيسية للعناصر العرقية فى شبه جزيرة إيبريا، كما أنه سوف يمدّنا أيضا ببعض المعلومات الدقيقة إلى حد بعيد، والأكثر وضوحا فى الغالب، عن الحرفيين والعمال الذين يحتلون مكانا فى زحام المدن.

كان يضطلع بمهنة الصياغة رجال من العامة أو الطبقة المتوسطة، ولكن شخصيات الطبقة العالية التى انقضت عليها المحن فى الظلام لم تنفر من ممارستها، وشاهدنا على ذلك ابن المعتمد الملقب فخر الدولة، فقد عمل بعد أن أزيح والده عن العرش صائغا لكى يربح لقمة العيش. وقد أسف ابن اللبّانة حين رآه فى هذا الوضع، ولم يستطع أن يكتم أحزانه على ظروفه الحزينة، وقدّم لنا بعض المعلومات عن مهنة هذا الصائغ المبتدئ:

شَكاتُنا فيك يافخرَ الهدى عَظُمتْ	والرزْءُ يعظم فيمن قدرُه عظماَ
طُوِّقتَ من نائباتِ الدهرِ مِخْنقةً	ضاقت عليك وكَمْ طوّقْتنا نِعما
وعاد كَونُك فى دُكاّنِ قارعةٍ	من بعد ما كنتَ فى قصرٍ حَكى إرما
صُرِّفْتَ فى آلةِ الصوّاغِ أُنْمُلَةً	لم تدرِ إلَّا الندى والسيفَ والقلما
يَدٌ، عهدتُكَ للتقبيل تبْسُطها	فتسْتقلُ الثريَّا أن تكون فَما
يا صائغًا كانتْ العَلْيا تُصاغ له	حَلْيًا وكان عليهِ الحَلْيُ منتظما
للنّفخِ فى الصور هَوْلٌ ما حكاه سوى	هَوْلٍ رأيناكَ فيه تنفخ الفَحَما
وددْتُ إذ نظرتْ عينى إليك به	لو أنّ عَيْنِى تشكو قبل ذاك عمى[1]

ونجد بسهولة لدى شعراء آخرين إشارات هامة عن الطريقة المتبعة فى صوغ المعادن الثمينة، فأحدهم يحدثنا عن «الورق» و«الوديلة» وآخر عن «قراضة النضار أو برادة الذهب» و«نقر التِّبْر». كما أن هناك عددا كبيرا منهم يتحدث عن صهر المعادن فى سبائك، وآخر يستخدم تعبير «إناء مفضض»[2]. مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الحرفيين كانوا يعرفون كيف يفضّضون المعادن كالنحاس. وهناك شواهد أخرى تبرهن على أنهم كانوا يمارسون فن تذهيب الفضة، وقد وصف ابن

---

(١) من البسيط، الذخيرة ٢/٧٩، وبنو عباد ١/٣٢١، والترجمة اللاتينية له ١/٣٧٢، والمراكشى، المعجب ١٦٠، وترجمته ١٣٥ - ١٣٦، ونفح ٤/٩٧.

(٢) أبو الوليد، البديع، الورقة ٦٦ ظهر.

عمّار طبقا من فضة مذهب الباطن[٣]، ووصف أبو بكر بن الملح سوارا من الفضة مذهبا[٤]. أمّا المقّرى فيحدّثنا عن حجر الشاذنة وكان يستخدم فى ذلك التذاهيب[٥].

وراجت صناعة الزجاج فى إسبانيا، وبخاصة منذ القرن العاشر، وهى الفترة التى اكتشف فيها عباس بن فرناس خلال حكم الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ – ٨٨٦م) طريقة صناعة الزجاج[٦].

وفى القرن الحادى عشر انتشرت مصانع الزجاج الرئيسية حول إشبيلية، وكان المعتمد أميرها يشاهد من نوافذ قصره أفران الزجاج تلمع فى الظلام، ووصف لنا المقّرى مشهدا يظهر فيه أمير إشبيلية وقد أرسل فى طلب الشاعر ابن حمديس فى ساعة متأخرة من الليل: «... دخلتُ عليه فأجلسنى على مرتبة فَنَك، وقال لى: افتح الطاق التى تليك، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيّه، وواقدة تفتحها تارة وتسدها أخرى، ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر، فحين تأمّلتها قال لى: أجِزْ:

	انظرهما فى الظلام قد نجما
فقلت:	كما رنا فى الدُّجُنَّةِ الأسدُ
فقال:	يفتح عينيْهِ ثم يُطْبِقها
فقلت:	فِعْلَ امرئٍ فى جفونه رمد
فقال:	فابتزُّه الدهرُ نور واحدةٍ
فقلت:	وهل نجا من صروفه أحد[٧]

وصوّر لنا شاعر أندلسىّ شخصية القائم على فرن الزجاج، فى مصنع قريب من إشبيلية، فى أبيات من الشعر، وكانت هذه الأفران مهبط الراغبين فى النزهة من السكان، وتتمتع بشهرة واسعة، وتثير أحيانا حماسة الأمراء والأدباء. يقول عبد الجليل بن وهبون:

ربَّ فرنٍ رأيتُه يتلظّى ... وبيعٌ مخالطى وعقيدى
قال شيْخٌ فقلتُ صدر حسودٍ ... خالطته مكارم المحسود[٨]

(٣) ابن الأبار، الحلة ٢/١٦٤.

(٤) من البسيط. نفح ٤/٧٠. ويقول الزبيدى من القرن العاشر الميلادى عن الرجال:

أشعرنْ قلبك ياسا ... ليس هذا الناس ناسا
ذهب الإبريز منهم ... فبقوا بعد نحاسا

نفح ٣/٤٧٥.

(٥) نفح ١/١٤٢.

(٦) نفح ١/٣٧٤، وعن ابن فرناس انظر نفح ١/١٦٢ و ٣/٦٢٣، والضبى، البغية رقم ١٢٤٧ ص ٤١٨ وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ١٨٤. وكان فى قرطبة مسجد يحمل اسم مسجد الزجاجين. انظر ابن بشكوال، الصلة، ١٧٣ و ٦٠٠.

(٧) من المنسرح. نفح ٣/٦١٦. ومقدمة ديجا للطبعة الأوربية ١/٨٥.

(٨) من الخفيف. القلائد ٢٤٥. وفى قرطبة حىّ يحمل اسم ربض فرن برّال: نفح ١/٤٦٦، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٠٧ هامش ٢. للمعتمد وبن عمار وهما يتنزّهان فى ضواحى إشبيلية مرًّا قريبا من بعض الجيارين والجبّاسين. انظر: نفح ٤/٢٦٠، وثمة مسجد فى قرطبة كان يحمل اسم «مسجد القلاّسين»، أى صناع أو باعة القلانس، جمع قلنسوة. انظر: ابن بشكوال، الصلة ٢٤٥. وليفى بروفنسال، المصدر السابق ص ١٠٩.

وكان حى عمال الرق فى قرطبة يقع قريبا من باب العطارين[٩]، ويطلق عليه اسم ربض الرقّاقين، وفى القرن العاشر الميلادى راجت صناعة الورق مع تزايد استعماله، وبخاصة فى شاطبة، ثم أخذت فى الاضمحلال تدريجيا، ويصف ابن سارة فى نهاية القرن الحادى عشر صناعة الورق بأنها شاقة وغير مربحة:[١٠]

أمّا الوراقةُ فهى أنكدُ حرفةٍ ... أغصانُها وثمارها الحرمانُ
شبّهتُ صاحبها كإبرةِ خائطٍ ... تكسو العُراةَ وجسمها عريانُ[١١]

ويروى أن يحيى السرقسطى بعد أن اختبر مهنته شاعرا عاد إلى دكانه جزّارا من جديد، فأمر ابن هود أمير سرقسطة وزيره اليهودى أبا الفضل بن حسداى أن يوبّخه على ذلك، فكتب إليه:

تركت الشعرَ من عدم الإصابهْ ... وملْتَ إلى التجارةِ والقصابهْ

فردّ عليه يحيى بقطعة من الشعر الجدى الساخر، يعتذر فيها، ولم يغير رأيه، وأبياته تستحق أن نأتى عليها كاملة، لأنه عرف كيف يرسم مهنته فى صورة جذابة:

تعيب علىَّ مألوف القصابهْ ... ومن لم يدْرِ قدْرَ الشىءِ عابهْ
ولو أحكمتَ منها بعضَ فنٍّ ... لما استبدلتَ منها بالحجابه
ولو تدرى بها كَلَفى ووجدى ... علمتَ علامَ أحتملُ الصبابه
وإنّك لوطلعتَ علىّ يومًا ... وحولى من بنى كلْب عصابه
لهالكَ ما رأيتَ وقلتَ هذا ... هِزَبْرٌ صيّرَ الأوضام[١٢] غابَهْ
وكم شهدتْ لنا كلبٌ وهرٌّ ... بأنّ المجدَ قد حُزْنا لُبابَه
فتكْنا فى بنى العنزىِّ فتْكًا ... أقرَّ الذعرَ فيهم والمهابه
ولم نُقْلِعْ عن الثورىِّ حتى ... مزجنا بالدم القانى لعابه
ومن يغترَّ منهم بامتناعٍ ... فإنّ إلى صوارمنا إيابَه
ويبرزُ واحدٌ منّا لألفٍ ... فيغلبُهُمْ وذاك من الغرابه[١٣]

ووصف الرصافى نسّاج حرير، ومع أنه من شعراء مطلع القرن الثانى عشر إلّا أن أشعاره يمكن أن تعبّر أيضا عن القرن الذى سبقه:

وبنفسى من لا أسمّيه إلّا ... بعضَ إلمامةٍ وبعضَ إشارَهْ

---

(٩) ليفى بروفنسال، المصدر السابق ص ٢٠٧ رقم ٣.

(١٠) لايعنى الوراق فقط، إذا تحدثنا عن المهنة، بيع الورق، وإنما يقوم أيضا بنسخ المخطوطات، أو بعهد إلى من ينسخها لحسابه، ثم يبيعها. انظر: ابن عبدون، رسالة فى الحسبة، فى المجلة الأسيوية، أبريل – يونية ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(١١) من الكامل. القلائد ٢٦٠.

(١٢) عن هذه الكلمة القديمة انظر: ابن عبدون، رسالة فى الحسبة، فى المجلة الأسيوية، أبريل – يونية ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها، و ج س. كولين. وثيقة عن عربية الغرب العامية ص ٣١ ورقم ٢.

(١٣) من الوافر. نفح ١٥٢/٤، والأبيات الثلاثة الأخيرة، وبخاصة البيت الأخير الذى يتضمن الفعل برز، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الشاعر يشير إلى مصارعة الثيران، ولو أن المعنى العام للأبيات لا يسمح لنا بأن نستخلص هذه النتيجة، وتوجد القطعة نفسها فى زاد المسافر لصفوان بن إدريس، ص ٩٨ – ٩٩.

هـو والـظبىُ فى المجـال سـواءٌ   مـا استفـادَ الغـزالُ منـه استعـاره
أغيـدٌ يمسـكُ الحـريـرَ بـفيـهِ   مثـل ما يمسـكُ الغزالُ العـراره[١٤]

وله أيضا يصف حائكا فى أبيات يتغزل فيها:

غُـزَيِّلٌ لم تـزل فى الغزْل جـائلةً   بنـانـه جـولان الفكـر فى الغـزَلِ
جَـذْلانَ تلعبُ بـالمحـواك أنـملُهُ   على السُّدى لعبَ الأيامُ بـالأمـل
ضمًّا بكفَّيـهِ أو فحصـا بـأخْمُصِـهِ   تَخَبُّطَ الظبْىِ فى أشراكِ محتبل[١٥]

●●●

وفيما بعد سوف نتحدث بمناسبة الموسيقا والغناء والرقص، عن طبقة خاصة من الحرفيين الذين يكونون مهنة خاصة تجمع بين المشعوذ والمهرج والبهلوان[١٦].

---

(١٤) من الخفيف، نفح ٤٨٦/٣.

(١٥) من البسيط، نفح ٢٠٣/٣.

(١٦) عن المهن الأخرى انظر المعلومات المتصلة بها من وجهة نظر خاصة فى رسالة فى الحسبة لابن عبدون، طبعة ليفى بروفنسال فى المجلة الأسيوية أبريل - يونية ١٩٣٤، وبخاصة ص ٢٢٩ - ٢٥٢، ورسالة فى الحسبة للسقطى طبعة ليفى بروفنسال، وقد ذكرنا فيما سبق ص ٢٢ - ٢٣ من هذا الكتاب قائمة بالحرفيين من الطبقة المتواضعة الذين كانوا يوجدون فى جيش المهدى المرتجل قبل معركة قنطيش، وأشرنا إلى الجزارين والفحامين والزبالين.

○ الفصل الثالث:

الحياة الخاصة

إذا كان الشعر الأندلسى لا يعكس إلاَّ نادرا شخصية الإسبانى المسلم فى وجوده عاملا يبذل جهده، فهو على النقيض يظهره لنا فى جوانب مثيرة ومتنوِّعة بمناسبة أحداث الحياة الرئيسية.

● ● ●

لقد وقفت النصوص الشعرية عند حد تسجيل الميلاد، وبخاصة مولد الذكور كحدث سعيد، فى عبارات تنضح بالمديح، وخالية من المواد التوثيقية، ولكنها على النقيض تخبرنا بمعلومات مفصّلة عن الاحتياطات التى تتخذ لحماية الطفل الرضيع، والصبى الصغير، والغلام اليافع، من التأثيرات الضارة.

ونعلم من ابن رزين فى بيت عن ابن لبون أنهم كانوا يضعون التمائم للأطفال بعد فطامهم:

ذاكَ الـوفىُّ الـذى نيطتْ تمـائمُـهُ عند الفطامِ على حِلم ابن سيرينِ[1]

ويؤكد ابن زيدون مثل هذا العمل:

طَـالـمَا نـافَـرَ الهوى منـهُ غِـرٌّ لم يـظلْ عهـدُ جيـدهِ بـالتّميم[2]

وقد استخدم الأندلسيون تمائم من السَّبَج[3] لتمنع عنهم الحَسد، وكان استخدام التمائم والتعاويذ يستمر حتى بعد مرحلة الطفولة، كما تشهد بذلك قصائد الشعراء، فقد كتب المعتصم عند وفاة إحدى حَظيَّاته:

لـمَّا غـدا القلبُ مفجوعًا بـأسـوده وفضَّ كـلَّ خـتـامٍ من عـزائـمـهِ
وكبتُ ظـهـرَ جـوادى كىْ أسـلِّيَـهُ وقلتُ للسيفِ كنْ لِىَ من تمـائمـه[4]

وبمناسبة الختان، وهو أول حدث يستهدف الحفاظ على حياة المسلم بطريقة ملموسة، وربّما تأثر

---

(١) من البسيط، الحلة السيراء، فى أبحاث ط ١ ص ٥٢٠، وابن سيرين مشهور بتقواه وزهده ومهارته فى تفسير الأحلام، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٢/٤٤٦.

● ونقلناه عن الذخيرة ٣/١٢٣، وانظر أيضا القلائد ٥٤ (المترجم).

(٢) من الخفيف، الديوان ص ٢٧٩.

(٣) انظر: أوسيا، قائمة السبج ص ٥، طبقا لـ «بنو عباد» ١/٣٢، وفرنانديس، العاج والسبج الإسبانى، ص ٢٣١، وانظر فيما سبق ص ١٦٠ من هذا الكتاب. وفى مرسى شنت بول قريبا من ألْش حجر يعرف بحجر الذئب إذا وضع على ذئب أو سبع لم يكن له عدوان، وفارق طبعه من الفساد، الروض المعطار رقم ٢٦ وما بعدها، ص ٣١ - ٣٩.

(٤) من البسيط، القلائد ٤٩، والحلة ٢/٨٤.

● فى القلائد إحدى حظياته، وفى الحلة إحدى كرائمه (المترجم).

الأندلسيون فى مظاهر الاحتفال به بطقوس التعميد المسيحية، وذلك بإقامة احتفال كبير فخيم تشترك فيه كل طبقات المجتمع. وكانت هذه الحفلات تحمل اسم «إعذار» أو «صنيع»[٥] أو «طَهور» وهى احتفالات كانت معروفة فى الشرق أيضا، ولكنها فى إسبانيا كانت تتسم بالفخامة والروعة.

وحفلات الإعذار التى أقامها المأمون بن ذى النون أمير طليطلة بمناسبة ختان حفيده يحيى[٦] نالت شهرة واسعة توازى شهرة حفل «عرس بُوران»[٧]، واعتاد الناس فى الغرب الإسلامى أن يُشبِّهوا الحفلات الكبيرة تصحبها ولائم فخيمة بإعذار ذى النون[٨]، أو أن يقال: كطهور ابن ذى النون[٩].

أما الإعذار الذى أقامه المعتضد، ومات أثناءه أمراء البربر غدْرا مخنوقين فى حمّام، فقد نال شهرة من نوع آخر[١٠].

وفى الأبيات التالية يهنئ أبو بكر الجزار السرقسطى والد طفل تم طهوره:

طهّرتَه وهو المطهّرُ إذْ نشا ... لِلّهِ فعلٌ منك راقَ كمالُهُ
فازدادَ بالتطهيرِ حُسْنًا مثلَ ما ... يزدادُ ضوءُ الشمعِ عند ذُبالِه[١١]

وكان الزواج الحدث الثانى الذى يحتفى به الإسبان المسلمون احتفاءً شديدا، و إذا كان الشعر لا يحدّثنا عن الاحتفالات بعقد الرقيق[١٢]، فهو على النقيض كثيرا ما يشير إلى «زفاف العروس» وخروجها من بيت أهلها إلى بيت زوجها[١٣]، وإلى ثوبها الذى ترتديه[١٤]، ومشهد الحفل حيث تكون مهبط إعجاب المدعوِّين[١٥].

ويروى لنا ابن زيدون بمناسبة زواج المعتضد من ابنة مجاهد أمير دانية، أن الحفلات استمرت أسبوعا كاملا، وأن الزوج لم يظهر أمام المدعوّين طوال هذه الأيام:

---

(٥) نفح ٥٣٠/١.

(٦) الذخيرة ١٢٦/٤ وما بعدها، وترجمته فى هيسبيريس ١٩٣١ المجلد ١٢ ص ٣٩.

(٧) عن بوران انظر الهامش رقم ١٢ فيما يلى.

(٨) نفح ٤٤٠/١.

(٩) أزهار الرياض، طبعة تونس ١٠٧/١.

(١٠) البيان ٢٧١/٣، وابن الخطيب أعمال الأعلام ١٥٦، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٥٧.

(١١) من الكامل، ابن ليون، مخ لسحر، لورقة ٥٥ ظهر.

(١٢) لدينا نص نثرى يصف حفلة عرس المستعين بالله أمير سرقسطة، حين تزوج من ابنة أبى بكر بن عبد العزيز وزير بلنسية، فاحتفل أبوه المؤتمن احتفالا بلغ من البهاء حدا لا يقارن، وقد تولى الوزير الإسرائيلى أبو الفضل بن حسداى تحرير رقاع الدعوة إلى جميع أعيان الأندلس من الأبطال الشجعان، والكتاب الفضلاء، والحجاب والأمراء، والذين لبوا مسرعين فى جماعات إلى بلاط سرقسطة، وتوالى وفودهم بلا انقطاع، لم تكن هناك فرصة للاستسلام للنوم فى أية لحظة. وفاقت حفلة المؤتمن، والد العريس، فى بهائها حفلة الخليفة العباسى المأمون فى زواجه من بوران ابنة الحسن بن سهل، فقد التقت فيها كل المباهج والمسرات العميقة، وكل شىء يشع ثراء، وكانت مطرا من المتع، والمباريات مفتوحة أمام كل أولئك الذين يريدون أن يستفيدوا كل متعهم. القلائد ١٦٧ (ونقلها دوزى فى أبحاث ط ١ ص ٤٦٢؛ و ص ١٨٤ - ١٨٥، وعنه نقلها نفح ٦٤١/١.

(١٣) انظر فيما سبق ص ٦٤ من هذه الكتاب.

(١٤) انظر فيما سبق ص ١٨٦ من هذا الكتاب، وص ٢٨٦ مما سوف يأتى.

(١٥) انظر فيما سبق ص ١٠٩ وص ١٤٨ من هذا الكتاب، البيت الرابع من القطعة الأولى.

أسبوعُ أنْسٍ مُحدثٌ لىَ وَحْشةً ... علمًا بأنِّى فيه لستُ أراكا[١٦]

وأخيرا فإن الشعر لم يصمت حتى عن الشجار الذى يقع بين الزوجين[١٧].

ورغم أن الحياة محروسة بالتمائم والتعاويذ ان تنجو من الأمراض، ولكن الشعر خوفا من تأثير السحر الذى ينسب إلى «الكتابة» أو سرد الجمل المسجوعة، لم يهتم بالحديث عن كل ما يظن حول انحطاط الرجل أو ما يشينه جسمانيا[١٨]، ومع ذلك فنحن نرى الشاعر يهنئ صديقا، أو راعيا له، بالشفاء من مرضه، وتجىء التهنئة للمريض عادة عند تناول العلاج من فَصْد أو شراب. وقد هنأ ابن زيدون الأمير المعتضد بالفصد، ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة اللذات:

لِيُهنِكَ أنْ أحْمدتَ عاقبةَ الفصدِ ... فللّهِ منّا أجْملُ الشكْرِ والحمْدِ

ويا عجبًا من أنّ مِبْضَعَ فاصدٍ ... تلقَّيْتَهُ لم يَنصرفْ نابِىَ الحدِّ

ومِن مُتولِّ فَصْدِ يناكَ كيفَ لَمْ ... يَهَلْهُ عُبابُ البحْرِ فى مُعْظَرِ المدّ

ولم تَغْشهُ الشمسُ المنيرُ شعاعُها ... فيخطئ فيها رامهُ سَنَنَ القَصدِ[١٩]

وسوف تتاح لنا الفرصة لنشير عند الحديث عن النبيذ أن أمراض الكبد كانت تعالج بواسطة المعتّق منه[٢٠].

● ● ●

أما آخر حدث فى الحياة بكل ما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج فى المجتمع، فقد قدّم لنا عنه الشعر الكثير من المعلومات، دون شك، وثمة قصيدة جميلة لأبى عامر بن شهيد عن وفاة القاضى ابن ذَكوان تشير إلى عادة حمل النعش على الأكتاف:

ولمّا أبى إلّا التحمّلَ رائحًا ... منحناه أعناقَ الكرامِ ركائباَ

يسيرُ به النعشُ الأعزُّ وحولَه ... أباعدُ كانوا للمصابِ أقاربا

عليه حفيفُ للملائكِ أقبلتْ ... تصافح شيخًا ذاكرَ اللهِ تائبا

تخالُ لفيفَ الناسِ حولَ ضريحهِ ... خليطَ قطًا وافَى الشريعةَ هاربا[٢١]

---

(١٦) من الكامل، ابن زيدون الديوان ص ٤٤٣.

(١٧) انظر فيما سبق ص ٩٧ من هذا الكتاب، يجب أن يقدم العريس للزوجة صداقا، ولكن مؤرخا ذكر لنا أنه إزاء وفرة الجوارى المسيحيات ورخصهن، كان على المسلمين لكى يزوجوا بناتهم أن يتنافسوا فى الترف عند إعداد الجهاز. وكانت متطلبات العروس تتكون من الثياب والحلى والدور. انظر: المراكشى، المعجب ٣٨، والترجمة ص ٣١.

(١٨) فيما بعد، سنرى كيف يصف لنا ابن شهيد مرض الفالج وقد ألزمه فراش مرضه.

(١٩) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ٤٩٩، ولمعرفة الفرق بين الفصد والحجامة انظر: ليفى بروفنسال، رسالة فى الحسبة لابن عبدون، فى المصدر السابق ص ٢٦٢ – ٢٨٦.

(٢٠) انظر فيما بعد ص ٣٢٢ الهامش ٣٤ من هذا الكتاب.

(٢١) من الطويل، المطمح ١٩٦، ونفح ٣٦٠/٣، وقد وصف ابن قزمان دفنه، كأى وثنى:

وإذا متّ مذهبى فى الدفنْ ... أن نرقد بين الجفنْ

وتضعوا الورق على كَفَنْ ... وفى رأسى عمامة من زرجون

الديوان، القطعة ٩٠، ص ٤٦٦.

وإذا كان ابن شهيد قد ذكر دموع الجموع الحزينة فهو لم يشر إلى عادة الحزانى يلطمون وجوههم، وهي عادة يحرّمها الإسلام، ومع ذلك فهي شائعة على نحو واسع بين شتى طبقات المجتمع الإسلامي[٢٢]، وأشار إليها المعتمد في قصيدته التي يبكّي فيها ولديه العزيزين: المأمون والراضي، حين ذهبا ضحية هجوم المرابطين:

يقولون صبرًا لا سبيلَ إلى الصبرِ   سأبكي وأبكي ما تطاول بي عمري
هوى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقهُ   يزيدُ فهل عند الكواكبِ من خبرِ
ترى زُهْرَها في مأتمٍ كلَّ ليلةٍ   تخمِّش لهفًا وسطَهُ صفحةَ البدرِ
يَنُحنَ على نجمينِ، أثكلتُ ذا وذا   وصبرُ ما للقلب في الصبرِ من عذرِ[٢٣]

ويشير ابن عبد الصمد في قصيدة له يرثي فيها المعتمد إلى عادة أخرى شرقية وجاهلية:

شُقّوا الثيابَ وجدِّدوا حزانكم   وصِلُوا التلهُّفَ يا بني عبّادِ[٢٤]

وهناك أبيات توجه بها ابن شهيد قبل موته إلى صديقه ابن حزم يمكن أن نستنتج منها أن أصدقاء المتوفى كانوا يجتمعون حول قبره بعد دفنه ويقومون بتأبينه:

فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدْتني   وتذكارَ أيامي وفضْلَ خلائقي[٢٥]

وفيما يتصل بالعادات المتعلقة بالموت ثمة موضوع استرعى انتباه دوزي، ولكن المستشرق الهولندي الكبير لم ينته إلى نتائج حاسمة[٢٦]. ويستحق أن نعود إليه ثانية، وأن نجد له جوابا في ضوء الوثائق الجديدة التي ظهرت، وهو يتصل باللون الذي كانوا يتخذونه شعارا للحزن في إسبانيا الإسلامية.

يمكن القول بعامة إن اللون الأسود ارتبط بفكرة الحزن والحداد، على حين كان اللون الأبيض يعبر عن الفرح والسعادة، وحين اضطر ابن زيدون أن ينفي نفسه عن قرطبة كتب إلى ولادة:

بنتُم وبنّا، فما ابتلّتْ جوانحنا   شوقًا إليكمْ، ولا جفّتْ مآقينا
نكاد - حين تناجيكم ضمائرُنا -   يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالتْ لفقدكُم أيامُنا، فغدتْ   سودا، وكانت بكم بيضًا لَيالينا[٢٧]

وقد قال أبو محجن الثقفي قبل ابن حرمان بزمن:

إذا متّ فادفنّي إلى جنب كرمة   روّى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني   أخاف إذا ما متّ ألّا أذوقها

وهي من الطويل، الديوان ط. أبيل، ق ٥ ص ١٤، ونولدكي، Delectus، ص ٢٦، والمسعودي، مروج الذهب ٢١٨/٤

(٢٢) السقطي، رسالة في الحسبة، ص ٦٨، الهامش ٦٨.

(٢٣) من الطويل، القلائد ١٢، الذخيرة ٦٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣١٥/١.

(٢٤) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٩، وانظر فيما يأتي ص ٣١٥ من هذا الكتاب، البيت الأخير من رقم ٢٦.

(٢٥) انظر فيما بعد ص ٤٠٨ - ٤٠٩ من هذا الكتاب. ومن المؤسف أن النصوص لا تذكر لنا كم من الوقت يمضي بين الوفاة والتأبين ومع ذلك لا نظن أن هذا الوقت يتجاوز أربعين يوما. كما هو في أيامنا هذه في المشرق في حفلة التأبين.

(٢٦) انظر: دوزي، أبحاث ط ١ ص ٤٥ - ١٥٠ و ٦٣٠ - ٦٣٤، والمعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ١٩ - ٢٠ و ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢٧) من البسيط، الديوان ١٤٢، وكور، ابن زيدون ص ٧١، والشقندي، رسالة في فضل الأندلس في نفح ١٩١/٣، وترجمة غرسية غومث لها ص ٥١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ١٣٥.

ولكن يدهشنا أن نلتقى بالعديد من الشواهد التى تبرهن على أن اللون الأبيض كان شعار الحزن فى إسبانيا الإسلامية، فى عصور ومناطق سوف نحدِّدها فيما بعد. وإذا تركنا جانبا أبياتا لابن هانئ لا نستطيع أن نحدّد لها مكانا، وهل يقصد بها إسبانيا أم بلاد البربر الشرقية[٢٨]، فإن أقدم الشواهد التى حصلنا عليها من ابن حيّان المؤرخ، وفيها يتحدث عن حفل تولية الحكم الثانى بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر فى ٣ من رمضان ٣٥٠ هـ = ١٥ من أكتوبر ٩٦١ م، فى مدينة الزهراء، حيث اصطف الفتيان على جانبى المجلس حيث يجلس الحكم، «عليهم الظهائر البيض شعار الحزن»[٢٩].

وعادة ارتداء الملابس البيضاء بمناسبة الحزن والحداد يشهد على وجودها فى القرن العاشر الميلادى بيت من الشعر لأبى عمر أحمد بن فرج، [وقيل لأخيه عبدالله]:

ونرجسٍ تطرف أجفانُه كمقلةٍ قد دبَّ فيها الوسنْ
كأنّه من صُفرةٍ عاشقٌ يلبسُ للبين ثيابَ الحزن[٣٠]

ويكرر أبو عثمان سعيد بن فرج الجيّانى الفكرة نفسها:

لبسَ البياضَ لصفرة فى وجهه صفةً كما وُصِفَ الحزينُ الفاقدُ[٣١]

وتكثر الشواهد فى القرن الحادى عشر، ويروى ابن بسّام أن الشاعر ابن بُرد الأصغر رأى غلاما يلبس أبيض «على عادة أهل أفقنا فى لباس البياض عند الحزن» فقال:

أجِلْ جفونكَ فى ذا المنظرِ الحسنِ ولُمْ على النأىِ منه حادثَ الزمَن
واعجبْ لضدّيْنِ فى مرآهُ قد جُمعا: شَخْصُ السرورِ عليه لِبْسةَ الحزَنِ[٣٢]

ويقول أبو بكر بن القبطُورنُه فى الموضوع نفسه بمناسبة وفاة زوجته:

وخالفَ القلبُ فيكَ العينَ من كَمَدٍ فاسودَّ بالغمِّ وابيضَّتْ من الحزَنِ[٣٣]

ويقول أبو الحسن الحصرى (وفى رواية ابن بسام أنه الحلوانى، تلميذ أبى على بن رشيق) والذى لم يكن قد وطىء أرض إسبانيا فيما يبدو بمناسبة الشيب:

لئن كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ بأندلسٍ فذاك من الصواب
ألم ترنى لبستُ بياضَ شيبى لأنى قد حزنتُ على الشباب[٣٤]

---

(٢٨) من الكامل، الديوان، طبعة زاهد على ص ١٠٧، الأبيات ٦ - ١١، وطبعة بيروت ص ٢٤، ونفح ٤٤٣/٣، وعن معنى هذه الأبيات انظر: نفح الطيب، طبعة أوربا، المقدمة، جـ ٢ ص ١٨ - ١٩.

(٢٩) نفح ٣٨٧/٣، ودوزى، المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية، ص ٢٠، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٥٨.

(٣٠) من لسريع، أبو الوليد الحميرى، البديع فى وصف لربيع، ص ٩٧، والذخيرة ٥٠٦/١. ويعلق أبو الوليد (توفى نحو ٤٤٠هـ = ١٠٤٨م) على هذه الأبيات بالكلمات التالية: «جرى فى ثياب الحزن على مذهب الأندلس إذ ثياب حزنهم بيض».

(٣١) من الكامل، البديع ص ٧١.

(٣٢) من البسيط، الذخيرة ٥٠٦/١.

(٣٣) القلائد ١٥٤.

(٣٤) من الوافر، نفح ١٠٩/٤، وابن دحية، المطرب ٨٠، والذخيرة ٥٠٧/١، وغرسية غومث فى قصائد أندلسية ص ١٦٩ القطعة ١٢٣.

وشاعر مجهول لا نعرف لسوء الحظ تاريخه، ولكن يبدو أنه مغربي، وكان معاصرا لأبي الحسن الحصري، عبّر عن الفكرة نفسها، وهي عادة أهل الأندلس في لباس البياض حزنا على موتاهم، مع أن أهل المشرق يلبسون فيه السواد:

أَلَا يا أهلَ أندلسٍ فطنتُمْ ... بلُطْفكمُ إلى أمرٍ عجيبِ
لَبِسْتُمْ في مآتمكمْ بياضًا ... فجئتمْ منهُ في زيٍّ غريبِ
صدقتمْ فالبياضُ لباسُ حُزْنٍ ... ولا حُزنٌ أشدُّ من المشيبِ[٣٥]

جميع الأشعار التي ذكرناها تشير بعامة إلى الأندلس، أي جنوب شبه الجزيرة، فيما يبدو، وإلى قرطبة بخاصة، ومع ذلك فعادة ارتداء الملابس البيضاء حزنا كانت تجرى في أرغون أيضا، وفي سرقسطة، يروى ابن بسام: «وكان بسرقسطة شيخ يكنى بأبي عبد الصمد، من شعراء ذلك العصر، وأراه من سلف أبي بحر، أخبرني ذو الوزارتين أبو عمر بن عبدوس أنه اجتمع به في ذلك الثغر، ورآه قد لبس بياضا في جنازة الكاتب أبي عمر بن القلاس وقد حضرها المقتدر بن هود»[٣٦]. ولكن ذكر هذا الحدث في بعض الجنازات فحسب يعني أننا بصدد شيء غير عادي، ومع ذلك فإن أديبا من سرقسطة، هو ابن شطو السرقسطي يقول:

قد كنتُ لا أدري لأيّةِ علّةٍ ... صار البياضُ لباسَ كلِّ مصابِ
حتى كساني الدهرُ سَحْقَ ملاءةٍ ... بيضاءَ من شيْبي لفقدْ شبابي
فبذا تبين لي إصابةُ مَنْ رأى ... لُبسَ البياضِ على نوى الأحبابِ[٣٧]

لكن لا شيء على الإطلاق يجعلنا نؤكد أن الشاعر لاحظ هذه العادة في سرقسطة، والأبيات التي سوف نذكرها فيما بعد تبرهن أن اتخاذ السواد حزنا كان أيضا أمرا شائعا جدا، وربما كان أكثر من استخدام البياض.

وفي المرية كان البياض لبس الحفلات والمهرجانات وبالتالي كان السواد هو شعار الحزن والحداد. يقول أبو الوليد النحلي:

ويمشي الناسُ كلُّهمُ حَمامًا ... وأمشي بينهمْ وحدي غُرابا[٣٨]

ويقول أبو الحسن بن الحاج من أعالي لورقة، وأقام أغلب أيامه في المرية بعد أن حاول الإقامة إلى جانب المعتمد في إشبيلية، عن غلام جميل يدعى أبو جعفر لحظة وفاته:

أبا جعفرٍ مات فيك الجمالُ ... فأظهرَ خدُّك لبسَ الحدادِ
وقد كان ينبتُ زهرَ الرياض ... فأصبح يُنبت شوكَ القتاد
أبنْ لي متى كان بدرُ السما ... ء يُدرك بالكون أو بالفساد

(٣٥) من الوافر، نفح ٣/٤٤٠، ودوزي أبحاث ط ١ ص ١٤٨.
(٣٦) ابن بسام، الذخيرة ٣/٨١٨، ودوزي، معجم الملابس ٤٣٥.
(٣٧) من الكامل، نفح ٤/١٠٩، ودوزي، معجم الملابس ٤٤٨.
(٣٨) من الوافر، القلائد ٤٨، الذخيرة ١/٧٣٦، والحلة ٢/٨٨.

وهل كنت فى الملك من عبدِ شمس فـأخنى عليك ظهـورُ السواد[٣٩]

ولم يَرَ المُنْفَتِل، وعاش كل حياته تقريبا فى غرناطة، فى حاشية وزيرى بنى زيرى اليهوديّين، غير السواد شعارا للحداد أبدا:

بِتْنا كـأنَّ مــدادَ الليـلِ شَمْلَتُنــا حتى بدا الصبحُ فى ثوبٍ سَحوليّ[٤٠]

وبمناسبة الحريق الذى شبّ فى قرمونة، وكان الظافر بن المعتضد قد انتهى من الاستيلاء عليها، فأنشأ ابن عمار قصيدة يمدح بها الأمير:

أطَـلَّ عـلى قــرمــونــةٍ متبلِّجًــا مع انصبح حتى قيل كانا على وَعْدِ
فــأرْمَلهــا بــالسيف ثم أعــارهــا من النارِ أثوابَ الحدادِ على الفقْدِ[٤١]

وقد توجّه ابن جاخ إلى الأمير نفسه بقصيدة أفسحت أمامه لجودتها الطريق إلى دخول البلاط، وفيها أيضا رأى فى سواد الليل لون الحزن:

ولـربَّ خـرْقٍ قـد قـطعتُ نيـاطَـهُ والليـل يرفـلُ فى ثياب حـدادِ[٤٢]

وبعد أن نُفى المعتمد إلى أغمات بدت السماء وكأنها تشارك الناس أحزانهم، هكذا يراها ابن اللبانة:

ومُـزِّقَ ثـوبُ البـرقِ واكتستِ الـدجى حـدادًا وقامتْ أنجُمُ الليـلِ مأتمـا[٤٣]

ويقول ابن خفاجة ، وهو أصلاً من جزيرة شقر، فى رسالة عزاء:

«كتاب قد أظلم بياضه فى عينى وسواده، حتى تساوى طرسه ومداده. فياله كتابا مُلِئَ اكتئابا، وقرطاسا لبس بدل الحداد أنفاسا! فلو أن الجماد أمكنه البكاء لبكى، وأعلن بالعويل وشكا»[٤٤].

ويقول عن غلام جميل قد خط عذاره:

وافَى بنــا ولـه صحيفـةُ صَفْحــةٍ جعـلَ العـذارُ بهـا يسيـلُ مِــدادَا
مُتَجهِّمًــا ثكِــلَ الشبــابَ وإنّمــا لَبِسَ العذارَ على الشباب حدادا[٤٥]

وطبقًا لابن حزم كان السواد شعار الحزن فى قرطبة، ويصرح بذلك فى أبيات له يعلّل فيها لماذا كان يفضل الشقراوات من النساء:

وأبعــدُ خلْقِ اللهِ من كــلّ حكمــةٍ مُفضِّــلُ جـرْمٍ فــاحمِ اللونِ مسودُ
بــه وُصفتْ ألــوانُ أهــلِ جـهنـمٍ ولِبْســةُ بــاكٍ مُثْكَــلِ الأهـلِ محتــدّ

(٣٩) من المتقارب، القلائد ١٤٤، ونفح ١٠٣/٤.
(٤٠) من البسيط، الذخيرة ٧٥٦/١، وسحول مدينة فى اليمن.
(٤١) من الطويل، القلائد ٨٨.
(٤٢) من الكامل، نفح ٢٤٤/٤، ونقلها عنه بنو عباد ٢٣٠/٢.
(٤٣) من الطويل، الذخيرة ٧٨/٢، ونقلها دوزى فى «بنو عباد» ٣٢٠/١ و ٣٧١
(٤٤) ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢٦١، ص ٣٣١.
(٤٥) من الكامل، الديوان، القطعة ٩٨، ص ١٤٢، والنويرى، نهاية الأرب ٨٥/٢.

ومــذْ لاحتْ الـرايــاتُ ســودًا تيقّنتْ　　نفوسُ الورى الا سبيل إلى الرشْدِ[٤٦]

وفي القرن الثاني عشر نلتقي بحمدة، أو حمدونة. بنت زياد المؤدب، تقول في وصفها لوادي آش:

إذا ســدلتْ ذوائبَهــا عليــهــا　　رأيتَ البــدرَ في جُنــحِ انــدآدي
كــأنّ الصبــحَ مــاتَ لــه شقيقٌ　　فمن حُزْنٍ تسـرْبَـلَ بـالحــدادِ[٤٧]

ماذا يمكن أن نستنتج من كل الإشارات التي سبقت؟ إن عادة لبس البياض حزنا، وفي الحداد، لم يكن تقليدا عاما بين الأندلسيين كما يمكن أن نفهم من بعض النصوص، ونخطئ على أية حال حتى عندما نفهم من لفظ أندلسيين مدلولا محددا يعنى سكان الجنوب من شبه الجزيرة Amdalucia ، لأننا وجدنا في قرطبة بخاصة، حيث تبدو هذه العادة متأصلة، شواهد ونصوصا متناقضة، وموضع خلاف فيما يتصل بهذا المعنى أو ذاك، حتى في عصر الأمويين الذين اتخذوا من اللون الأبيض شعارا قوميا معارضة للعباسيين الذين كانوا يستخدمون الرايات السوداء[٤٨]، وتعود فنؤكد أنه لا يوجد ما يسمح لنا أن نصدّق هذه الفكرة كيف استطاع زرياب وقد وصل إلى إسبانيا مع موت الحكم الأول وتولية عبد الرحمن الثاني، أي في عام ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م، أن يجعل من ارتداء الملابس البيضاء في الصيف «مودة» إذا كان هذا اللون شعار الحداد ومخصصا للحزن؟. وفيما يتصل بالقرن العاشر فإن التناقض نفسه واضح أيضا عندما نوازن بين المعلومة التي ذكرناها فيما سبق في عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١م بمناسبة الفتيان الذين كانوا يرتدون «الظهائر ا بيضاء شعار الحزن»، والعادة التي سجّلها كتاب الأنواء Calendario de Córdoba، ففي العام نفسه ٩٦١ م أوصى بتغيير الملابس البيضاء في شهر أكتوبر بملابس أخرى من الصوف بسبب البرد الذي أخذ يشتد تدريجا في هذا الفصل من العام.

هل يمكن أن نقبل أن اتخاذ البياض شعارا للحزن والحداد كانت تقوم به طبقات اجتماعية معيّنة فحسب في المجتمع الأندلسي، على حين أن طبقات أخرى كانت ترتدي السواد؟ يبدو قريبًا من المستحيل تحديد أيّ الطبقات كان يستخدم هذا وأيّها كان يستخدم ذاك. ربما كان استخدام البياض يجرى فقط في نطاق الأسرة المالكة، وحينئذ يمكن أن نقرر أن هذه العادة اختفت في لقرن الحادى عسر تحت حكم ملوك الطوائف[٤٩].

---

(٤٦) من الطويل ابن حزم، طوق الحمامة ص ٥٠، وترجمة نيكل ٤١، وطبعة برشيه ٧٦.

(٤٧) من الوافر، نفح ٢٨٨/٤، وبمناسبة النصريين أمراء غرناطة يقول د. كونتريراس: «لا يغيرون لون ملابسهم الأحمر إلّا في حالة الحزن، فيصبح أسود مثل المسيحيين»، دراسات وصفية ص ٢٦٤.

(٤٨) اتخذ العباسيون خلال حكم بني أمية في المشرق اللون الأسود شعارا إشارة إلى الحزن بسبب موت شهدائهم الذين ينتمون إلى أسرة الرسول. انظر: دوزي، أبحاث جـ ١ ص ١٥٠، وعلّق الفقرة في معجم الملابس ص ١٩.

وكان عبد الرحمن الداخل في إسبانيا أول من اتخذ البياض فجاءة شعارا له، حين علق عمامة على سهم في أحد المعارك. انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٢١٩ ورقم ٥.

(٤٩) جدير بالذكر أن نشير أن فكر، السود تأتي عند الشعراء غالبا مرتبطة بكلمة «سبج»، ونعرف أن هذه المادة كانت متوفرة في إسبانيا، ولابد أن الأشياء التي في لون السبج كانت شائعة جدا. انظر ج فرّانديس، العاج والسبج في إسبانيا، ص ٢٢٧ – ٢٦٤، ومن المحتمل أنها لم تكن تلبس إلّا في الأحزان، وانظر: بنو عاد ٣٢/١ رقم ١٠٧.

لم يكن الشعر يكتفى بملاحظة الأحداث البارزة فى الحياة فحسب، وإنما كان يحدثنا أيضًا عن الحفلات والبهجة التى كانت تتميز بها كل مرحلة من مراحل العام المختلفة، ويشترك فيها كل سكان إسبانيا تقريبًا، بلا تمييز فى العنصر أو الدين. وبعض هذه الحفلات ذو أصول إسلامية، وبعضها مسيحى أو فارسى أخذ بالكاد طابعًا إسلاميًا، وأورد لنا أبو بكر بن القوطية فى أبيات توجه بها إلى الوزير أبى عامر بن مسلمة ذكر لنا فيها الأعياد الثلاثة الكبرى فى إسبانيا الإسلامية منها:

دمتَ للمهرجان والعيدِ والنيـــ ـــروزِ إلفًا من الحوادث سالم[٥٠]

ويفهم ابن القوطية من العيد عيد الفطر حيث ينتهى صوم رمضان، وفى هذه المناسبة يتوجه الشعراء بالتهنئة إلى رعاتهم وحماة الأدب والشعر والفن، وهو تقليد نراه فى جميع البلاد الإسلامية، ويبدو لنا من العبث أن نتوقف عنده[٥١].

●●●

أما مهرجان النَّيروز، وهو فارسى الأصل[٥٢] فلا يقع فى أول شهر مارس كما هو الحال فى المشرق، وإنما فى الأيام الأولى من شهر يناير[٥٣]، ويمكن أن يمتزج فى إسبانيا الإسلامية مع احتفال رأس السنة، أو حتى مع عيد الغطاس، ويعتبر الأندلسيون الليلة التى تسبق عيد النيروز أنسب وقت للدخلة بالعروس[٥٤]، ويقدم عادة فى يوم الاحتفال، كما كان عليه الحال فى المشرق فى أيام الإسلام الأولى[٥٥] الحلوى التى تشبه، دون أدنى شك ممكن، الحلوى التى تقدَّم للملوك، ولكنها خالية من حبَّات الفول مخبَّأة فى العجين لاختيار ملك. وكانت هذه الحلوى تصنع فى شكل مدائن، ويقال عنها إنها مدائن من العجين، ووصفها لنا أبو عمران موسى الطريانى حين رأى صورة مدينة فأعجبته، فقال ملغزًا:

مـــديـنـــةٌ مـــســـوَّرهْ تحـــارُ فيهـــا ٱلسَّحَـــرهْ
لم تَـــبْـنـهـــا إلّا يـــدا عـــذرءَ أو مخـــدَّره
بـــدتْ عـروسًـــا تجتـلى من دَرْمكٍ[٥٦] مزعفره

---

(٥٠) من الخفيف، أبو الوليد الحميرى، البديع ص ١٠٣.

(٥١) انظر فيما سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب بمناسبة الهلال.

(٥٢) عن النيروز أو النوروز انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩٤٩/٣ والمصادر التى هناك، وكتب المادة ليفى بروفنسال، والنويرى، نهاية الأرب ١٧٨/١، ودوزى، معجم الملابس ٢٧٠ ولكن الدكتور هـ. ب. ج رينو يرفض هذا التاريخ فى B. E. A. العدد ١٥، نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣، ص ١٤٣.

(٥٣) أول يناير، طبقا لتقويم قرطبة عام ١٩٦١ ص ١٨، ولكن هذا التاريخ رفضه هـ.ب.ج. رينو فى B.E.A. العدد ١٥ (نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣) ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥٤) نِفح ٦٢/٢ أوربا.

(٥٥) قدمت الحلوى إلى علىّ رابع الخلفاء الراشدين فى يوم النيروز. انظر: الحصرى، زهر الآداب ١٤٠/٤، وفتح الله، المواهب ١٥٣/٢.

(٥٦) الدرمك دقيق من أفخر الأنواع. انظر: دوزى، ملحق المعاجم ٤٣٧/١، والسقطى، رسالة فى الحسبة، ص ٢٨ من المعجم. وفى المشرق استخدم الأخطل الشاعر الكلمة بنفس المعنى فى حوار مع الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان. انظر: الأغانى، طبعة ساسى ١٦٦/٧، وطبعة القاهرة الوطنية ٢٩٠/٨ ورقم ٣.

وسـالهـا ـــفـاتِـحٌ إلىٰ البنـان العشـره[٥٧]

واهتم الشعراء بالمادة التي تصنع منها الحلوى في هذه المهرجانات[٥٨] فوصفوها لنا وقدّموا لنا معلومات لا بأس بها عن الذين يقومون بإعدادها، وهنّ فتيات المنزل، وحدهن يصنعن العجينة من أرق أنواع الدقيق وأنظفها، وبعد أن تنضج الحلوى يقطّعنها بالأيدي والأصابع دون استخدام السكاكين.

وفي عيد النيروز كانوا يقدّمون الهدايا القيّمة، وقد أهدى الشاعر ابن عمار ملابس من الحرير البحري، أو من صوف البحر كما كان يُسمّى، وكان يُعتبر من أندر الأقمشة في تلك الأيّام[٦٠].

وكان الشعراء ينتهزون الفرصة فيهنئون كبار الشخصيات شعرًا[٦١].

أما عيد المهرجان، وهو كعيد النيروز من أصل فارسي[٦٢] فلم يكونوا يحتفلون به في شهر سبتمبر من كل عام كما عليه الحال في المشرق، وإنما كان يجرى الاحتفال به في ٢٤ من شهر يونية، أي أنه يجئ في إسبانيا مختلطًا مع عيد سان خوان أو العَنْصرة[٦٣]. وقد تغنّى الشاعر حسّان بن مالك بن أبي عَبْدة بتفتح الزهور في عيد المهرجان:

أرى المهـرجـانَ قـد ستبشـرا غـداةَ بكـى المـزنُ واستعبـرَا
وسَـرْبَـلتِ الأرضُ أمـواهَـهـا وجـلَّلتِ السـنـدسَ الأخـضـرا
وهـزَّ الـريـاح صـنـابـرَهـا فـضـوَّعـت المسـك والعـنـبـرا
تهـادى بـه الـنـاسُ ألـطـافَـهُ وسـامىَ المقـلُّ بـه المكثـرا[٦٤]

وقد رأينا فيما سبق بمناسبة المهرجان أو عيد تحوّل الشمس في الصيف، أن مبشرا أمير الجزائر الشرقية أقام سباقا للزوارق[٦٥].

---

(٥٧) من الرجز، نفح ٦٣/٤، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ٨٢٠ وتوجد بقايا لهذه العادة ربما في «الفانيلة»، وهو نوع من الحلوى في شكل شمعة أو شمعدان أو خبز صغير، يعدّونه في تلمسان حتى اليوم ويقدّمونه بمناسبة المولد النبوى. نظر: و. مرسيه، اللهجة العربية المتحدثة في تلمسان ٢٧٧، وانظر أيضا نصوص من عربية طنجة ١٣٠.

(٥٨) يتحدث ابن قزمان عن حفلة في شهر يناير، ولابد أنها كانت بمناسبة عيد النيروز، وفيه كانوا يعدون نوعا من العجائن يسمى «حلون». انظر: ديوان ابن قزمان لقطعة ٧٢ ص ٣٥٦ والتحليل في طبعة نيكل ص ٤٠٩.

(٥٩) سوف نعود فيما بعد إلى الحديث عن الحرير البحرى و «أبو قلمون».

(٦٠) الحلة ١٦٢/٢، والقلائد ٨٥

(٦١) مثلا: ابن سارة يهنئ الأمير المرابطى أبا بكر بن إبراهيم في عام ٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م. انظر: القلائد ٢١٠. وأبو بكر بن المعين يهنئ شخصية مجهولة، المطمح ٣٨٤.

(٦٢) عن هذا الموضوع انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٥١/٣، كتب مادتها بليسنر، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٧٢. وكانت الكلمة في إسبانيا تنطق بفتح الميم، معجم العمعة ص ١٩٨ و ٣١٨، وديوان ابن قزمان القطعة ٣٤، ص ١٧٦.

(٦٣) نفح ٣٢٦/٣، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٥٧١ رقم ١، وملحق المعاجم ٦٢١/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٣١٢. وابن البيطار، رسالة Simples ترجمة ليكليرك في: ملاحظات ونصل، المجلد ٢٦، القسم الاول ٢٤٨.

(٦٤) من المتقارب، المطمح ٢١٤، نفح ٥٤٧/٣، وليرشوندى وسيمونيت، منتخبات أدبية، النص العربي ص ١٣٥ رقم ١٥٩، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ٢٨٠.

(٦٥) انظر فيما سبق ص ١٩٥ – ١٩٦ من هذا الكتاب.

تأقلم الأندلسيين هذا مع العادات المحلية والذى بدا فيا تنطوى عليه الحفلات التى انتهينا من دراستها نلتقى به أكثر وضوحًا فى الاحتفاء بالحفلات الأخرى وهى مسيحية أساسًا، أو يهودية مسيحية فى جوهرها، ونعنى بذلك عيد الفصح أو القيامة، ولم يكونوا يحتفون به بأن يذهبوا إلى الكنائس، وإنما بالراحة التامة فى هذا اليوم، واستغلال الفراغ بالذهاب إلى الريف للنزهة، ووجدنا بيتًا من الشعر لابن زيدون يصف المتنزّهات فى ضواحى قرطبة، وهو متميز فى هذا الجانب:

وأيـامِ وصْـلٍ بـالعقيقِ اقْتضيْتُـهُ ... فإلّا يكنْ ميعادُهُ العيدَ فالفِصْحَا[٦٦]

وكانت صلاة الاستسقاء[٦٧] تتيح مكانا رحيبًا لمظاهر عظيمة، فتقام الصلوات فى الهواء الطلق، ويتهيأون فى قرطبة بهذه المناسبة[٦٨]، ولكن لم يصف لنا أى شاعر من القرن العاشر أو الحادى عشر هذا المشهد، ومع ذلك فعندما عبر المعتمد إلى المغرب إلى منفاه فى طريقه نحو أغمات، رأى فى مكان لم يحدّده جماعة من المسلمين تجمعوا فى الهواء الطلق ليؤدوا صلاة الاستسقاء، وأنشد فى هذا الموضوع الأبيات التالية:

خـرجـوا ليَسْتَسقـوا، فقـلتُ لهم: ... دمعى ينـوب لكـم عن الأنـواءِ
قـالـوا: حقيقٌ، فى دموعـك مَقْنَعٌ ... لـكـنّهـا ممـزوجـةٌ بـدمـاءِ[٦٩]

●●●

إذا كنا فى الصفحات السابقة استطعنا أن نرى كيف أن الإسبان المسلمين اكتسبوا شيئًا من العادات الاجتماعية لمعاشرتهم المسيحيين، فهناك ممارسات أخرى فى حياتهم اليومية تعود بالضرورة إلى رواسب وثنية قديمة، وتلعب فيها الكهانة والسحر دورًا هامًا، رغم أن الدين الإسلامى، وهو توحيدى فى جوهره، عمل كل ما فى وسعه لاقتلاعها والقضاء عليها.

وهناك فقرة بالغة الأهمية أوردها المقّرى فى كتابه نفح الطيب، جديرة بأن نوردها كاملة، ومع أنه يقصد بها المعاصرين لجده بخاصة، لكنها تنطبق على الإسبان المسلمين بدقة كاملة، يقول:

«ولمّا ذكر مولاى الجد الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقّرى التلمسانى فى كتابه «القواعد» شرط أهل قرطبة المذكور [وهو أن عملهم حجة فى الفقه المالكى]، قال بعده ما نصه: وعلى هذا الشرط ترتيب إيجاب عمل القضاة بالأندلس [وهو اشتراط الإمام على القاضى الحكم بمذهب معين]، ثم انتقل إلى المغرب، فبينا نحن ننازع الناس فى عمل الدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلىّ وابن مسعود ومن كان معهما:

---

(٦٦) من الطويل، الديوان ١٥٩، وانظر فيا سبق ص ١١٩ من هذا الكتاب.

(٦٧) عن صلاة الاستسقاء فى الغرب الإسلامى انظر: أ. بيل، بعض الشعائر للحصول على المطر فى زمن الجفاف عند المسلمين المغاربة، فى «مجموعة دراسات ونصوص نشرت تكريما للمؤتمر الرابع عشر للمستشرقين... الجزائر ١٩٠٥ من ٤٩ - ٩٨، و و. مرسيه، نصوص عربية من تكرونة ص ١٢ - ٢٧ و ١٩٧ - ٢٠٤ و ٢٠٥ - ٢٢٥، ومونشيكور، سلوك السكان الأصليين: الرى بالمطر (Thlob en No) فى المجلة التونسية عام ١٩١٥.

(٦٨) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٢٣ رقم ٣.

(٦٩) من الكامل، الديوان ٨٩، خريدة القصر ١١/١٤٤، وفى بنو عباد نقلا عنها ١/٣٨٣. وفى نفح ١/٥٧٢ وفى المطمح ٢٤٩ توجد روايات نثرية عن صلاة الاستسقاء، وأمّ الناس فيها القاضى منذر بن سعيد البلوطى، فى خلافة عبد الرحمن الناصر.

ليس التكحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

سنح لنا بعض الجمود ومعدن تقليد:

اللهُ أخَّرَ مدّتي فتأخّرتْ حتى رأيتُ من الزمانِ عجائبا

يالله وللمسلمين، ذهبت قرطبة وأهلها، ولم يبرح من الناس جهلها، ما ذاك إلّا لأنّ الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه، والباطل لازال يلقّه ويلقيه، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك، وأسماءها كالعتمة ويثرب[٧٠]، وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نُهي عنه وحُذّر منه، كيف لم تزُل من أهلها، وانتقلت إلى غيرهم مع تيسّر أمرها، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا، بل يجعون العادات القديمة أسًّا، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه إلّا قولا، ولا نحمله إلّا كلّا»[٧١].

لقد اندهش هذا القاضي المدقق من بقاء الممارسات القديمة، وبسبب دراساته، وهي إسلامية في جوهرها، شوّه طبيعة تلك الممارسات بردّها إلى عرب الجاهلية، ومع أن استمرار هذه العادات والتقاليد القديمة التي يشير إليها جد المقّري، والتي تعود إلى أصول بربرية في شمال أفريقيا، نلاحظها أيضا في إسبانيا الإسلامية، ويمكن أن نعزوها هنا إلى ظهور التراث الإيبيرو روماني القديم فجاءة، مطعّما بالإضافات اليهودية المسيحية، والعربية البربرية، دون تغييرات عميقة. ولا يوجد شيء أقوى تعبيرا عن روح الأندلسي ونفسيته من هذه الصفحة التي كتبها مؤرخ عن أحد أواخر خلفاء الأسرة الأموية في الأندلس:

«ولما كان هشام [المؤيد ابن الحكم الثاني] مندرجا في طي كافله الحاجب المنصور - رحمه الله - بحيث لا يُنسب إليه تدبير، ولا يُرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مُضعفا مهينا مشغولا بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات: فكم ألفي بخزانته من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عُزير، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب في تعدّدها، ولا فكّر فيما مقدار ما يحتاجه الحيوان منها، إلى مُصلّيات منسوبة لعبّاد، وأواني وضوء متوارثة عن زهّاد: بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطن، ملتقطة من أيدي المخيث»[٧٢].

(٧٠) العتمة تسمى بها الصلاة الأخيرة، أي صلاة العشاء، انظر: لسان العرب ٢٧٥/١٥. ويثرب هي مدينة النبي.

(٧١) نفح ٥٥٧/١.

(٧٢) الذخيرة ٨٣/٤، وأعمال الأعلام ٥٨.

● نص الذخيرة أطول وأكثر تفصيلا (المترجم).

وهذا الميل إلى الأشياء القديمة، سواء أخذت معنى سحريا أم لا، يعود في جانب كبير منه إلى التربية المخنثة التي كان يتلقاها هؤلاء الأمراء خلال مراهقتهم، ويظل تأثيرها قائما حتى في مرحلة النضج. وقد كان عبد الملك المظفر يحب في ساعات فراغه أن يرتدي البرنس، مختلطا بنسائه، أعمال الأعلام ص ٨٣. وقد هرب الخليفة المستكفي بالله من قرطبة مرتديا زي امرأة وبين مرأتين، أعمال الأعلام ١٣٦. ويقول مؤرخ إن يحيى القادر أمير طليطلة تربى بين النساء ونشأ بين الخصيان والمغنيات، كتاب الاكتفاء، في «بنو عباد» ١٦/٢.

وبعد أن نقرأ الفقرة السابقة لا أحد يندهش من إعتقاد الأندلسيين فى الحسد والسحر والكهانة وتأثير النجوم والتشاؤم من بعض الأعمال، وبالتالى لكى يقاوموا التأثيرات الضارة اعتقدوا فى فعالية التمائم والأعمال السحرية، وأن لها قدرة على حمايتهم.

ولم يكن بوسع الأندلسيين إزاء الفوضى السياسية التى ضربت بأطنابها فى مطلع القرن الحادى عشر، إلى جانب انعدام الثقة فى المستقبل، وكانت هذه نتيجة حتمية لتلك، أن يصنعوا شيئا آخر غير الميل إلى الإيمان بالقوى الخفية، مرعبة وفى الوقت نفسه لا تدركها الحواس. فراجت سرًّا كتب التنبؤ بالغيب، أو كتب الملاحم والحدثان كما كانت تُسمى[٧٣]، تبشِّر بكوارث واضطرابات مثيرة، وأحدثت خللا عميقا وتشويشا حادا فى أفكار أواخر ممثلى الدولة الأموية، وربما كانوا أكثر ميلا من بقية الأسر الأندلسية إلى تقبل هذه الأخبار المرعبة بسبب تربيتهم نفسها، والمحيط النسائى والمخنّث الذى نشأوا فيه. وقد لاحظ أهل التنجيم أنه فى عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦م سوف يلتقى كوكبان فى برج السنبلة، وتنبأوا بقيام أسرتين تتقاسمان الخلافة[٧٤]. وكان أهل العلم بالأثر والتأثير يؤكدون أن دولة بنى عباد فى إشبيلية سوف تبلغ نهايتها عندما تصل حدودها إلى مرسية[٧٥].

وهكذا أصبح المنجم أو الفلكى فى القرن الحادى عشر شخصية أساسية فى كل البلاطات التى قامت فى شبه الجزيرة، ورغم خطورته إذا أخطأ يتعاملون معه بمنتهى الاحتقار له. وهم يعتقدون فى علمه، ولكنه اعتقاد مصحوب بشىء من الشك. وإليك هذه الأبيات التى كتبها المعتمد إلى منجمه أبى بكر الخولانى بعد أن احتل المرابطون إشبيلية، ونحن معها بصدد هجاءٍ مسلٍ، فى إيقاع خفيف الظل، ينضح قلقا سوف تبرّره الأحداث تماما:

أرمِدْتَ أم بنجومِكَ الرمدُ	قد عاد ضدًّا كلُّ ماتعِدُ
هل فى حسابكَ ما نؤمِّلهُ	أم قد تصرّم عندك الأمد
قد كنتَ تهمسُ إذ تخاطبنى	وتخطُّ كرْهًا إنْ عصتكَ يد
فالآنَ لا عينٌ ولا أثرٌ	أتراكَ غيَّبَ شخصَك البلد
وتراك بالعذراءَ فى عُرُسٍ	أم إذْ كذبْتَ سطا بك الأسد
الملْك لا يُبقى على أحدٍ	والموت لايبقى له أحد[٧٦]

يظهر لنا الكثير من هذه الروايات أن الملوك الصغار فى شبه الجزيرة كانوا يستنبئون أقل أحداث

---

(٧٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٢٩، ونفح ٤٨٢/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣١٠، وملحق المعاجم العربية ٥٢٢/٢. وكان هشام الثالث يعرف من خلال هذه الكتب أن أسرته سوف تهزم على يد شخصية تجىء من سبتة، ويبدأ اسمها بحرف العين.

(٧٤) أعمال الأعلام ١٢٧.

(٧٥) مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) فصلة مستقلة، النص ص ٩٢، والترجمة ١٢٩.

(٧٦) من الكامل، الذخيرة ٥٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣٠٦/١. فى معركة الزلاقة استطلع المعتمد رأى المنجم عشية المعركة. فى المكان الذى كان يعسكر فيه جيشه فأنبأه بالطالع السعيد، وأن النصر سوف يكون حليفه فى اليوم التالى. انظر: كتاب الاكتفاء، وعنه نقلها دوزى فى «بنو عباد» ٢٢/٢. وكان أبو الفتوح الجرجانى، الذى تحدثنا عنه فيما سبق منجما محدودا، وكانت تنبؤاته تجىء على النقيض، وكان قد أعلن قرب نهاية باديس بن حبوس، ولكن هذا قتله بيديه. الإحاطة ٤٦٥/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٣٤.

الحياة، وقد شعر المعتضد فى مرضه نه سيموت قريبا، لأن مطربه الصقلى غنّاه بخمسة أبيات عن أحزان الحياة، ويذكر المؤرخون أن الأمير لم يعش بعد سماعه هذا الغناء غير خمسة أيام، وهى مصادفة غريبة[٧٧].

رأما عن التشاؤم بالغراب فلن تكلم عنه هنا لأنه معروف جيدا فى الشرق والغرب على السواء. ومع ذلك نلحظ أن النصارى أنفسهم كالمسلمين، لم يكونوا يتخذون أى قرار قبل أن يزجروا الطير، ويرضوا بما يأتى به تفاؤلاً أو تشاؤماً. وإليك كيف تنبأ شاعر مجهول بأن السِّيد القنيطور متوجه للهجوم على بلنسية[٧٨]:

قولوا للذريقَ إنّ الحقّ قد ظهرا ... أو نقّدوه إذا ما طيرُه زجرا
سيوفَ صنهاجةَ فى كلِّ مُعْتركٍ ... تأبى لأطيارهِ أن تَصْدقَ الخبرا[٧٩]

وحضر عز الدولة أبو مروان عبيد الله، أحد أبناء المعتصم أمير المرية قبل أن تنهار دولتهم، مع الأمير يحيى بن أبى بكر قائد المرابطين غزوته إلى طبطلة. فلما شارفها، وضرب أخبيته بساحتها، سقط أحد ألويته من يد حامله، وانكسر الرمح، فتطير قوم وتفاءل آخرون[٨٠]، ولكن عز الدولة رأى فيه بشارة نصر، فقال:

لم ينكسِرْ عودُ اللواءِ لطيرةٍ ... يُخشى عليك بها وأنْ تتأوّلَا
لكنْ تحقّق أنّه يندقّ فى ... نحرِ العدوّ لدى الوغى فتعجّلا[٨١]

كما لاحظنا فيما سبق هناك شعوذات وخرافات ارتبطت ببعض الأشجار مثل السفرجل والنارنج[٨٢]، وأشياء حيّة تمثل كائنات منعشة، ولها قيمة علاجية، ففى لورقة مثلا كانوا يمتلكون جرادة ذهبية تحمى المدينة من غزو هذه الحشرات، وذات يوم سُرقت هذه الجرادة، ومنذ ذلك الوقت أصبح هجوم الجراد كارثة سنوية[٨٣].

وكان المسلمون الإسبان يعتقدون فى الحسد أيضا، ورأينا قبل أنه لحماية أطفالهم من تأثيره الخطير كان يصنعون لهم التمائم[٨٤]. والسحر والشعوذة يمكن بالممارسة أن تؤثر إلى حد، وهو ما أشار إليه الشعراء، ولكن ليس لدينا معلومات دقيقة عن وسائلها مثلا: ما المرآة التى يتكلم عنها ابن سارة فى

---

(٧٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٣ جـ ٣ ص ٨١ - ٨٣، والمصادر المذكورة هناك.

(٧٨) يبدو أن المعتمد فى أغمات لم يتشاءم كثيرا من رؤية عدد من الغربان يحوم فوق البيت الذى كان سجينا فيه، والحق أنه فى هذه اللحظة عرف أنهم سمحوا لبعض نسائه بزيارته. الذخيرة ٧٦/٣، وعنها فى «بنو عباد» ٣١٨/١.

(٧٩) من البسط، البيان المغرب ٣٥/٤.

● لمعرفة تاريخ السيد ودوره فى الأدب والتاريخ، انظر كتابنا: ملحمة السيد، ط ٣، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨ (المترجم).

(٨٠) الحلة السيراء ٩٠/٢.

(٨١) من الكامل، الحلة ٩١/٢.

(٨٢) انظر فيما سبق ص ١٧٤ من هذا الكتاب.

(٨٣) القزويني، آثار البلاد، ٣٧٣/١، والروض المعطار، رقم ١٦٢. ووجدوا فى الورقة أيضا ثورين متقابلين من الحجر، مدفونين على بعد عميق، وعندما كشفوا عنها اجتاح قطعان الحيوان فى المنطقة وباء مهلك. وأسد من البازلت كانت له نفس الوظيفة السحرية فى حلب. انظر: ج. سوفاجيه، الجواهر المختارة من ابن شحنة، بيروت ١٩٣٣، ص ١٣٦.

(٨٤) انظر ما سبق ص ٢٦٣ - ٢٦٤ من هذا الكتاب.

الأبيات التالية، والتى لا نستطيع أن نرى فيها شيئا آخر غير الخيال؟:

ومهفهف يختال فى أبراده مرحَ الغصن اللُّدن تحت المارح
أبصرتُ فى مرآةِ فكرى خدَّه فحكيت فِعْلَ جفونه بجوارحى
لا غرْوَ أنْ جرحَ التوسُّمُ خدّه فالسحر يَفعلُ فى البعيدِ النازحِ[٨٥]

ويجب أن نضيف إلى ممارسة الاعتقادات الخرافية بعض العادات التى أخذت شكل طقوس ولكنها خالية من أى معنى لأن أصلها ضاع فى ليل الزمن، وتمثل ما ندعوه الآن العناية والصحة والنظافة. لقد كان مسموحًا للنساء فقط أن يخضبن أكفهن، ويمكن أن نستنتج هذا بوضوح من الاتهام الموجه إلى أبى المطرِّف بن الدباغ، فقد قال فيه أحدهم:

خضابٌ لعمرْكَ لا للنساءِ ولكنّه لفحول الرجالِ

فردّ عليه أبو المطرّف قائلًا:

يُهانُ بحمصٍ عزيزُ الرجالِ ويُعزى إليهم قبيح الفعالِ
ويُغرىَ ذوو النقصِ من أهلها بتلطيخ أعراضِ أهل الكمال[٨٦]

أما النساء فكنّ يخضبن أيديهن بالحناء، ويستخدمن فى بعض الأحيان صيغة نجهل أصلها، وهكذا يتحدث أبو بكر محمد بن عياض القرطبى عن امرأة يحبها:

وعَلّقْتُها فتّانةً أعطافُها تُزرى بغصنِ الْبانةِ الميأدِ
مَن للغزالةِ والغزالِ بحسنها فى الخدِّ أو فى العين أو فى الهادى
خضبتْ أناملُها السواد وقلّما أبصرتُ أقلامًا بغير مداد[٨٧]

وكانت النساء تستخدم الكحل والإثمد فى تجميل عيونهن، وتعرف المرأة الجميلة الغَزِلَة كيف تزين وجهها بخال أو أكثر من عملها، وهو ما أوضحه ابن حزم فى قوله:

فقد يُتعبُ الإنسانُ فى الفكر نفسَهُ وقد يَحْسُنُ الخيلان فى الوجه والنقطِ[٨٨]
تزينُ إذا قلّتْ، ويفحش أمرُها إذا أفرطتْ يوما، وهل يُحمدُ الفرط[٨٩]

وكان السواك المصنوع من خشب عطرى يستخدم للعناية بالفم والأسنان، وهو أمر لا تعرفه مجتمعاتنا الغربية الأوربية. يقول الأسعد بن بليطة:

أرى نكهة المسواكِ فى حُمرة اللّمى وشاربَك المخضرّ بالمسك قد خُطَّا
عسى قُزَحٌ قبّلتِه فأخاله على الشفقِ اللمياء قد جاء مختطًّا[٩٠]

---

(٨٥) من الكامل. القلائد ٢٦٠.

(٨٦) من المتقارب. الذخيرة ٢٥٢/٣.

(٨٧) من الكامل. نفح ٩١/٤.

(٨٨) عن المعنى الخاص لهذه الكلمة انظر: و. مرسيه: ملاحظات حول نص طوق الحمامة، ص ٦٩، وإحالته على الجرجانى، الكنايات، ص ١١٧ حيث يقول، بين أشياء أخرى: خيلان المتزوجة إذا غسلتها اختفت. وانظر أيضا: الجاحظ، البخلاء ١٢٩/١، والهامش رقم ١٤، وترجمة بيلا ١٠٣، والهامش ٦٠.

(٨٩) من الطويل. طوق الحمامة ص ٦٩، وترجمة نيكل ٦١.

(٩٠) من الطويل. نفح ٥٢/٤.

وكان أبو تمام الحجام، وهو يعرف الأفواه والأسنان جيدًا بحكم مهنته، يقول فى أسى مفاخرًا:

فما للمَلْكِ ليس يُرى مكانى ... وقد كُحلتْ لواحظُه بنورى
كذا المسواكُ مطَّرحٌ مهانًا ... وقد أبقى جلاءً فى الثغور[٩١]

●●●

وأخيرًا يمكن القول إن العطور والمراهم كانت تستخدم على نحو شائع فى كل طبقات المجتمع، ويستخدمها بكثرة الرجال والنساء على السواء.

وكثيرًا ما نرى فى قصائد الشعراء الأندلسيين، وبخاصة حين يصفون الزهور، إشارات إلى العطور الأكثر انتشارًا فى إسبانيا الإسلامية، ومن بينها: السوس الذى يحتوى على الخلوق، وهو ضرب من العطر المزعفر، والعبير، وهو العنبر الرمادى، وزهرة السرين، وتشبه العنبر فى رائحتها النفاذة، والورد وله رائحة العنبر أيضًا. ونجد الزعفران فى ورد البنفسج والأقحوان رائحة ولونا، وأحيانًا يشار إليه بكلمة «ردع». والخشخاش وفيه نقاط سوداء يشبه المسك، وهو نوع من العطر الأسود، وإلى جانب العبير الرمادى نلتقى بالعنبر الطبيعى، فتيتا أو مفروكًا والعنبر الأسود أى الندّ، ونجد الغالية، والمسك ويذكر بمناسبة الفاصوليا، والسوسن وشقائق النعمان وكان المسك هو العطر الذى يسيطر فى إلحاح طاغ على حاسة الشم عند الأندلسيين، ويجدونه فى الريحان والبنفسج والأقحوان والنمّام والخشخاش والنيلوفر والورد والياسمين.

وكان أهل الأندلس يقولون: «يُستدل على الملوكية بالطيب فى المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين، كالحمّام ومعارك الحرب، ومواسم الحج»[٩٢].

وكان المعتمد، مَلِكًا وعاشِقًا، يخاف أن تفصح حبيبته عن نفسها بأريج عطرها:

ثلاثةٌ منعتْها عن زيارتنا ... خوْفَ الرقيبِ وخوف الحاسدِ الحنقِ
ضوْءُ الجبينِ ووسْواسُ الحلْىِ وما ... تحوى معاطفُها من عَنْبرٍ عَبِق
هَبِ الجبينَ بفَضْلِ الكمِّ تستره ... والحلْىَ تنزعهُ، ما حيلةُ العرقِ؟[٩٣]

وكان التشبيه بالعطور شائعًا بدرجة كبيرة فى كل الشعر الأندلسى، وابن عائشة يرى فى وطنه:

تُربةُ مسْكٍ، وجوُّ عَنْبرةٍ ... وغيْمُ ندٍّ، وطشُّ ما وردِ
كأنما جائلُ الحبابِ بهِ ... يلعبُ فى جانبيه بالبَرْدِ[٩٤]

ويقول ابن اللبَّانة للأمير المعتمد، وكان هذا سجينا فى أغمات حين فُكَّتْ عنه القيود:

تنشَّقْ رياحينَ السلامِ فإنما ... أفضُّ بها مسكًا عليكَ مختَّما[٩٥]

---

(٩١) من الوافر. نفح ٤١٧/٣.

(٩٢) نفح ٤٣٠/٣.

(٩٣) من البسيط نفح ٤٢٩/٣، وديجا، قصائد عربية ص ٣٣٣، وانظر فيما بعد ص ١٦٥ من هذا الكتاب. وقارن بابن زيدون. ديوان ص ٢٥، البيت ١٦، طبعة كامل كيلانى، وألف ليلة وليلة، الليلة الثمانين بعد المئة، طبعة بولاق ٣٥١/١.

(٩٤) من المنسرح، نفح ١٥٨/٤.

(٩٥) من الطويل، الذخيرة ٧٧/٢، وفى «بنو عباد» ٣٦٩/١.

ويتساءل أبو أيوب بن أبي أمية:

أمسْك دارينَ حيّاكَ النسيمُ بهِ ... أم عنبر الشِّحْرِ أم هذى البساتينُ
بشاطئ النهرِ حيثُ النَّوْرُ مؤتلقٌ ... والراحُ تعبقُ أم تلك الرياحين(٩٦)

ويفكر ابن عمّار فى دارين أيضًا على النحو التالى:

ماضرٌ لو نبَّهتهُ بتحيَّةٍ ... يسرى النسيم بها على دارينِ(٩٧)

وابن عيشون يشكر أبا نصر الفتح بن خاقان لأنه أهدى إليه خاتمًا وغفارة أى برنسا:

نشقْنَا من المجد المؤثّلِ نفْحةً ... تزيد على النَّدِّ المثلَّثِ والمسكِ
وماذاك إلاَّ أنْ سألتُ فجاد لى ... أبو نصرٍ الأعلى ببرنسه المسكِ(٩٨)

ولكن العطور لا تؤثر بقوة إلاّ إذا أُلقى بها على الفحم المشتعل فى موقد أو مجمرة، يقول ابن زيدون:

بَنِى جَهْورٍ أحرقتمُو بجفائكم ... فؤادى، فما بال المدائحِ تَعْبَقُ
تعدُّوننى كالعنبرِ الوردِ، إنما ... تفوح لكم أنفاسُه حينَ يحرق(٩٩)

ويقول أبو بكرٍ بن رُحَيم فى قصيدة مدح:

ونشرتُ بعضَ خلاله فكأنَّنى ... بالمسك قد أذ كيتُ عودَ المجمر(١٠٠)

وكتب ابن عمّار إلى المعتمد:

وما هذه الأشعار إلاَّ مجامرٌ ... تضوّع فيها للندى قطع النَّدِّ(١٠١)

ويقول أيضًا:

نَمَّقْتُها وشيًا بذكركَ مذْهبًا ... وفتقْتُها مسكًا بحمدك أزفرًا
من ذا ينافحنى وذكركَ صنْدلٌ ... أوردتُه من نار فكرى مجمرا(١٠٢)

ويعبر المعتصم أمير المرية عن الفكرة نفسها بطريقة أكثر بلاغة حين يرسل إلى بعض حُرَمه فى رقعة طيرها إليها فى جناح حمامة يقول فيها:

وحمَّلتُ ذات الطوق منّى تحيَّةً ... تكون على أُفْقِ المريّة مجْمرًا

---

(٩٦) من البسيط، نفح ٣/٥٥٠. الشحر منطقة فى جنوب شرقى الجزيرة العربية.

(٩٧) من الكامل، الحلة ٢/١٥١، وبنو عباد ٢/١١٠. ودارين ميناء فى البحرين، حيث يستقبلون العطور الواردة من الهند.

(٩٨) من الطويل، القلائد ٢٩٠. والند المثلث عطر مكون من ثلاثة عناصر، انظر: دوزى، ملحق المعاجم ١/١٦٣.

(٩٩) من الطويل، الديوان ٥٩٠، وكور، ابن زيدون ٩٧ ورقم ٢، والمعجب ص ١٠٦، وترجمة جافنان ٩١. ويقول أبو تمام:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيبُ عرفِ العود

من الكامل، الديوان ص ٣٩٥.

(١٠٠) من الكامل، القلائد ١١٨.

(١٠١) من الطويل، القلائد ٨٩.

(١٠٢) من الكامل، القلائد ٩٧.

تبلَّغ من ودّى إليكم رسائلًا بأعبقَ من نَشْر العبير وأعطرا[١٠٣]

وذكر الشعراء أيضًا أوانى العطور، وهى: النفيجة، وتحتوى على المسك عادة، يقول أبو بكر بن رُحَيم فى رسالة إلى أخيه أبى الحسن يهنئه بمولود:

خلصتْ إليكَ مع الأصيلِ الأنْورِ أمنيَّةٌ مثلُ الصباحِ المسفرِ
غرّاء إلّا أنّها من خطرى بمكان أسْود ناظرى من محجرى
أرجتْ شذًا أرجاؤها فكأنها قد ضُمّخت بلخالخ من عنبر
أهدتْ إلىّ مع النسيم تحيةً فُتقتْ نوافجُها بمسكٍ أذفر[١٠٤]

ويمكن أن نلاحظ فى الأبيات التى سبقت بعض الإشارات إلى الأوانى المخصصة لحفظ العطور والحنوط والمواد ذات الرائحة. فقد كانت العطور تحفظ فى سلال صغيرة من الجلد تسمى «جونة»، وتحفظ المراهم فى علبة تسمى «مُدهُن»، أو «مُدْهُنة»، وأما «الشمّامة» فكانت مخصصة لحفظ أغلى أنواع العطور[١٠٥].

إنّ كثرة الأسماء المشرقية الأصل مثل: «دارين» و «الشحر» تجعلنا نعتقد أن معظم العطور والأخشاب المعطرة كانت تستورد من المشرق، ومع ذلك، هناك شعراء يتحدثون عن «الهاوون» ويده، أى «الفهر»، وفيه كانت تسحق المراهم والعطور. وتدلنا فكاهة رواها المقّرى على أن خشب عود الألنجوج[١٠٦] كان يوجد فى إسبانيا، وله كل صفات العود الهندى عطرا ورائحة، وأصل منبته كان بين أحجار الجبال فى ناحية دلاية، من إقليم البشرات، وحملوا شجرته يوما إلى خيران الصقلى أمير المرية، فأمر بأن تغرس فى ضواحى هذه المدينة.

ويقول المقّرى أيضا إنه كان يوجد فى شواطىء منطقة الغرب، وأن شجر عود الألنجوج كان ينمو أيضا فى أكشونبة على جبل هناك، ويتضوّع ريح عوده ذكيا إذا أرسلت فيه النار[١٠٧]، [وبحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربى، وفى جبل مُنت ليون المحلب]، وأن إسبانيا كانت تنتج القُسْط الطيب والسنبل الطيب، وكلاهما من نوع جيد[١٠٨].

● ● ●

هذه العطور على قلّتها، كما رأينا، تشهد بعامة على أن هناك ذوقا قويا يميل إليها، ويتذوّق روائحها،

(١٠٣) من الطويل، الحلة ٢/٨٤، وانظر فيما سبق ص ٢٢٣ من هذا الكتاب.

(١٠٤) من الكامل، القلائد ١١٦.

(١٠٥) وجود «بطيخ من الند» الذى وصفه المتنبى فى ديوانه، ١/٢٥٤ طبعة البرقوقى و ٢٠١ - ٢٠٢ طبعة صادر، لم يقم شاهد على وجوده فى إسبانيا فى القرن الحادى عشر.

كانت الجواهر تحفظ فى علب تحمل أسماء مختلفة مثل: حق، وانظر فيما يلى ص ٢٨٩ من هذا الكتاب، ومخزنة، وانظر وصفها فيما سبق ص ١٦٠ - ١٦١ من هذا الكتاب.

(١٠٦) نفح ١/١٤١، وعن عود الألنجوج انظر: رينو وكولين التحفة رقم ٢٩٧ و ٣٠٨.

(١٠٧) تحت حكم الحكم الثانى، فى عام ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م وجد حسن بن جنون قطعة كبيرة من العنبر، جعل منها مسورة. انظر: ليفى بروفنسال، قطع تاريخية عن البربر فى العصر الوسيط ص ٦٦.

(١٠٨) نفح ١/١٤٦، والدمشقى، نخبة الدهر، الترجمة الفرنسية ص ٢٤٥ عن «العنبر فى شنترين واشبونة وأكشونبة».

والتى لا يكاد مجتمعنا يتحملها لنفاذ أريجها. ويُظهر لنا ميل الأندلسيين إلى استخدام التوابل اللاذعة فى الطهى على أنهم كانوا يحبون الإثارات القوية.

والشعر، وهو فى حالتنا هذه ذو قيمة عالية، يقدم لنا معلومات عن أشهر المأكولات فى القرن الحادى عشر، وإذا لم نجد قصائد فى الطهى من النوع الذى كتبه فيما بعد أبو عبد الله بن الأزرق، المتوفى ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م[١٠٩] فنستطيع على الأقل أن نستخلص معلومات هامة من بعض المقطوعات المتناثرة فى المصادر المختلفة.

لا يبدو أن الأطباق الأكثر شهرة فى أيام زرياب، وعلى طريقته، وشاعت فى القرن التاسع الميلادى، كانت معروفة فى القرن الحادى عشر[١١٠]. وإذا كان الفول أخضر ومطهيا، إلى جانب الخرشوف[١١١] والعصيدة[١١٢]، يمثل الغذاء الأساسى للطبقات الفقيرة والمعوزة، فقد كانت هناك أطعمة وأطباق أخرى تتطلب فنا أكثر، وتجعل مأكولات الطبقة المتوسطة والعليا أشهى وألذ. يقول ابن عمّار:

شَنِئْتُ المشلّثَ للزعفرانِ وملتُ إلى خُضْرةٍ فى التفايا[١١٣]

وقد أحسّ المُنْفَتِلُ بخيبة أمل كبيرة ذات يوم لأنّ أحد أصدقائه جهّز مِرقاسًا ونسى أن يدعوه رغم أنه كان قد وعده بذلك:

يا أجْودَ الناسِ بما عندهِ إلّا إذا استعمل مرقاسا
فإنْ يُنِلْها عُذْرهُ بَيّنٌ إذا لم يجِدْ فيهن أنفاسا[١١٤]

وقال أيضا:

لا آكلُ المرقاسَ دهرى لتأ ويل الورى فيه قبيح العيانْ
كأنّما صورته إذا بدتْ أنامل المصلوبِ بعد الثمان[١١٥]

وكان الأندلسيون يتذوقون طعم المجبّنات ويجدونه جميلا، وهو لون من الفطائر المحشوّة جبنا، وتؤكل ساخنة، يقول أبو الحسن بن جابر الدباج:

أحلى مواقعِها إذا قرّبتها وبُخارها فوق الموائد سام
إنْ أحرقتْ لمسًا فإن أوارها فى داخلِ الأحشاءِ بَرْدٌ سلام[١١٦]

---

(١٠٩) نفح ٢٩٨/١ - ٣٠٣، وهى قصيدة من ٩٤ بيتا.

(١١٠) ج. س. كولين: وثيقة جديدة عن لهجة الغرب العربية فى القرن الثانى عشر، ص ١٣ ورقم ٣ وما بعدها: زرياب.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١١٢) كثيرا ما يشير ابن قزمان إلى هذا الطبق الشعبى، انظر: الديوان، القطعة ٦٧، والمعجم ص ١٤٣ و ٥٤٥.

(١١٣) من المتقارب، نفح ٣٢٦/٣، ودوزى ملحق المعاجم ١٦٣/١. وطبقا لتعليق المقرى فإن «التفايا» لون من الطعام يعمل بالكزبرة، انظر: نفح ٣٢٦/٣، وملاحظة دوزى فى رسالة إلى فليشر ص ١٥٥.

(١١٤) من السريع، الذخيرة ٧٥٨/١، وعن المرقاس أو المركاس انظر: السقطى، رسالة فى الحسبة، طبعة ليفى بروفنسال، ص ٤٣ والمعجم اللغوى ٢٧٢، والمعجم ص ١٨٤ و ٤٦١.

(١١٥) من السريع، الذخيرة ٧٥٩/١.

(١١٦) من الكامل، نفح ٤٦١/٣، والتعبير الأخير يشير إلى الآية القرآنية المتصلة بإبراهيم: «قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم»، سورة إبراهيم ، الآية ٦٩.

وهناك مثل أندلسى يقول: «من دخل شريش ولم يأكل بها المجبّنات فهو محروم»[١١٧].

● ● ●

كان الجبن معروفا كما نرى، واشتهر من بينه جبن شريش، وتساءل بعض الكتّاب عما إذا كان جبن الروم، أى المسيحيين، غير محرم، وألّف الطرطوشى فى هذا كتابا أسماه: «فى تحريم جبن الروم»[١١٨].

كان الأندلسيون يختلفون عن المتارقة لا فى طريقة إعداد طعامهم فحسب، وإنما أيضا فى عادة لباسهم. وإذا كانت هناك أسماء أقمشة غير أندلسية، وهو ما حدث لغويا مع العطور نفسها والتى أشرنا إليها من قبل، إلاّ أن هذ لا يدل بالضرورة على أنها كانت كلها مستوردة. وتبرز أسماء مثل: رختاجى، وهو قماش مصنوع فى نيسابور، وتسترى، وهو مصنوع فى تستر، والوشى، وهى أقمشة مرسومة، واللاضى، وهو قماش من حرير اللاض، والعصائب، وهى أقمشة حمراء، والسوسى، وهى أقمشة إما صُنعت فى سوس تونس، أو فى سوس خوزستان[١١٩]. وعندما وصف أبو محمد بن السيد البطليوسى الملابس التى يرتديها الأمير عبد الرحمن الظافر بن ذى النون فى حفلاته، بدا سعيدا وهو يجمع أسماء كل الملابس المشرقية التى توحى بالثراء، وجلال الأقمشة وفخامتها

ومجلسٍ جمّ الملاهى أزهرا ... ألذّ فى الأجفان من طعم الكرى
لم تر عينى مثلَهُ ولا ترى ... أنفسَ فى نفسى وأبهى منظرا
إذا تردّى وشيَه المصوّرا ... من حَوْكِ صنعاءَ وحوْكِ عبقرا
ونَسْجِ قُرْقوبٍ ونسج تُسْتَرا ... خلتَ الربيعَ الطلق فيه نوّرا[١٢٠]

ومع أنهم ظلوا يستوردون بعض الأقمشة، لكن كثيرا منها كان يصنع فى إسبانيا، فكانت مصانع المرية تنتج الإصبهانى، نسبة إلى إصبهان، والجرجانى، نسبة إلى جرجان، والعتّابى والسّقلطون، وكانا مما اختصت به بغداد وأنطاكية[١٢١].

أما الأقمشة ذات البريق الذهبى، وتسمى أبو قلمون[١٢٢] فكانت تصنع من صوف البحر، أو بالدقة من نبات بحرى يلتقط من على شواطئ الإطلنطى قبال شنترين[١٢٣]، وتنتجه مصانع أندلسية،

(١١٧) نفح ١٨٤/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ١٨٩. وقد دخلت الكلمة اللغة الإسبانية بمعناها فى صورة almojabana. انظر: جونثالث بلنثيا، الإسلام والغرب، ص ٣٨.

(١١٨) نفح ٨٨/٢.

(١١٩) يوجد هذا الاسم فى الطبرى، المتوفى ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م. انظر: نفح ١١٥/٥، وفيما يتصل بالقرن الحادى عشر فى إسبانيا نجده مرتين فى كتاب البديع فى وصف لربيع لأبى الوليد الحميرى، ص ٣٦ و ١٤٠. وانظر أيضا: الإدريسى، الاستبصار، النص العربى ٩ الترجمة ١٧، وجورج مرسيه، العرب فى بلاد البربر، ص ٢٧ و ١٥٦ و ٢٣٠.

(١٢٠) من الرجز، نفح ٤٣٠/١، وصنعاء وعبقر فى اليمن، وقرقوب وتستر فى إيران، وانظر فيما سبق ص ١٤٦ الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب.

● البيت الأول لا يوجد فى نفح الطيب، وإنما هو فى أزهار الرياض، وارتضيناه لتوضيح المعنى (المترجم).

(١٢١) الإدريسى ٢٤٠، ونفح ١٦٣/١، والنويرى، نهاية الأرب، ط ٢ جـ ١ ص ٣٥٦، وتوجد كلمة عتابى وعتابى.

(١٢٢) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ودوزى، ملحق المعاجم ٨٥٣/١، مادة صوف، وميتز، الحضارة الإسلامية ٤٣٣ ورقم ١٢، وترجمة فيلا ٥٤٧ ورقم ٦.

(١٢٣) القزوينى، آثار البلاد ٣٦٤، وكانوا يحصدونه أيضا فى تونس وساحل مصر، انظر: ياقوت، المعجم ٨٨٢/١

ورأينا فيما سبق كيف أن ابن عمّار أهدى ثوبا من هذا الحرير إلى المعتمد بمناسبة عيد النيروز[١٢٤].

وإذا كانت إسبانيا فى القرن الحادى عشر تنتج بنفسها معظم الأقمشة التى تحتاج إليها إلّا أنها استعارت أكيدا من المشرق شكل بعض الملابس التى يلبسها أهلها، مع تغيير بسيط، ولو أننا لا نعرف دائما طبيعة هذا التغيير بدقة. وهناك أنواع أخرى من الملابس أندلسية الأصل، وبما أنها تحمل أسماء شائعة فى الأدب المشرقى فمن الصعب تحديد مصدرها تماما[١٢٥]. ويمكن أن نقوم بتصنيف مختصر للتمييز بين ملابس الرجال وملابس النساء.

كانت النساء ترتدى الدرع أو القميص، والمِطْرف، والحُلّة، والغِلالة، والمئزر أو الإزار، وهى قطعة من القماش تستخدم كمعطف لتغطية الجزء الأسفل من الجسم، والبُرْد، وهو معطف يغطى الجزء الأعلى منه، والـمُشتَمَلة، وهو معطف يغطى الجسم كله، والقباء، وهو رداء صغير، والجلباب، والصدار، وهو قميص صغير، والسروال، والتكّة، وهى رباط يشدّ به السروال إلى الوسط، والخمار، والمِقنع أو البرقع، وهى طرحة تغطى الرأس، واللِثام، وهو لستر الفم.

أماّ الرجال فيرتدون الظِهارة، وهى عباءة خفيفة، والشعار أو الدثار، وهما ملابس داخلية، والصدرة أو القميص، والسروال، والمِعْرض، وهو لباس المقابلات والحفلات، والغفارة أو البرنس، وهو عباءة بغطاء للرأس. وكان الخصيان يرتدون الخمار، وهو غطاء الرأس[١٢٦].

ويمكن القول أنه أمكننا بفضل الشعر أن نحدّد الفرق بين المئزر والبُرد، يقول الشاعر أبو بكر بن حجاج فى بيت من قصيدة له:

وما الغصنُ إلّا ما انثنى تحت بُرْدِه   وما الدِّعْصُ إلّا ماطوتْه مآزره[١٢٧]

ويعبر ابن زيدون عن الفكرة نفسها فى بيت له، مستخدما كلمة درع بدل مئزر، ومرط مكان مئزر[١٢٨]، وفى بيت آخر يستخدم مثل ابن حجاج، كلمة مئزر ولكن فى مقابل كلمة مطرف[١٢٩].

والبرد و لمطرف لا يغطيان إلّا النصف الأعلى من الجسم، والمئزر والمرط النصف الأسفل، أى من

---

(١٢٤) انظر فيما سبق ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

(١٢٥) انظر مثلا حالة «غفارة»، فهى قلنسوة فى المشرق، وعباءة فى الأندلس. انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٢٨٠. ولمعرفة المزيد عن الملابس انظر: دوزى، معجم الملابس، و ج. مرسية، الملابس الإسلامية فى الجزائر، فى الفهرس.

(١٢٦) انظر فيما سبق ص ٢٣٤ من هذا الكتاب. فقد رأينا أن المستعربين، أى النصارى، كانوا يضعون لباسًا أسود على رؤوسهم، ويسميه الشعراء أيضا خمارا، انظر فيما سبق ص ٢٥٤.

(١٢٧) من الطويل، نفح ٤٨٦/٣، وقد وضع ابن الرومى الغلّالة فى مقابل الإزار، انظر: ابن رشيق، العمدة ٢٢٦/٢، والبيت من الطويل، قافية الراء مضمومة.

ويؤكد ابن يتّق المعنى الخاص لكلمة إزار، يقول متغزّلا:

وهيفاء يحكيها القضيب تأوّدا   إذا ما انثت فى الريط أو حبراتها

يضيق الإزار الرحب عن ردفها كما   تضيق بها الأحشاء عن زفراتها

وهى من الطويل، القلائد ١٨٧. وعن الإزار انظر: ابن قتيبة: عيون الأخبار ٤٦/٤، وعن التقابل بين إزار ورداء انظر: جودفروى - ديمومبين، الحج إلى مكة ص ١٧٢.

(١٢٨) من الطويل، الديوان ٢٨٧، وكور، ابن زيدون ٧٨.

(١٢٩) من الطويل، الديوان ٤٨٢.

الوسط حتى القدم، وإذا استخدما لها مصطلحا فرنسيا قلنا إن الأول هو Cape والثانى Jupe[١٣٠].

ويبدو لنا أن الأندلسيين لم يكونوا يلبسون العمامة، ولا البرنس قبل مجىء المرابطين. ويؤكد هذا ما رواه ابن الأبار فى الحلة لسيراء، يقول:

«ثم تحرك ابن تاشفين من العدوة بعد وقيعة الزلّاقة، وأجاز البحر إلى الأندلس، وتقدمه سير بن أبى بكر، فلم يخرج إليه المعتمد لبطالة كان منغمسا فيها، وكانت أول وحشة وقعت بينهما. ثم توجهوا جميعا إلى حصن أليبط من أعمال لورقة - وقد تغلّب عليه النصارى - فخرج المعتصم ليلقاهم وينزلهم مؤديا حق ابن تاشفين ومن معه، فأخجله المعتمد بتياسره عن طريق لقائه فكتب إليه:

يا بعيدا وإنْ دنا كم تمنيتُ قُربَكا
أنتَ حسْبى من المُنى ليتنى كنتُ حَسْبَكا

وتلاقيا بعد ذلك عند ابن تاشفين فى تلك الغزوة، والمعتصم قد تزيَّى بحمل العمامة ولبس البُرنس، يتقرب بذلك على عزمه، فنظر إليه المعتمد، وفهم المعتصم أنه يهزأ به وانصرف، فضاحك المعتمد فى ذلك من جالسه من الوزراء. وأهدى ذو الوزارتين أبو الحسن بن اليسع منهم عَشِيَّ ذلك اليوم مَنًّ نرجس، فكتب إليه المعتمد، معرّضا بابن صمادح بأبيات منها:

ولقد ذكرتُ فزاد عينى قُرَّةً هُونُ السُّبَال وخِزْى ربِّ البُرنس[١٣١]

ومع ذلك لا يمكن القول إن العمامة والبرنس كانا مجهولين لدى الأندلسيين، ولو أن العمامة ظل ارتداؤها فى الحقيقة وقفا على القضاة والعلماء فحسب، دون غيرهما، وكانوا يعتبرون ارتداء الجند لها مخالفا للشرع. ونرى ذلك واضحا يوم أن فكّر عبد الرحمن شنجول قبل أن يتحرك فى غزوته ضد ليون عام ١٠٠٩م، فى أن يحل العمامة محل الطيلسان، وفكر فى أن يرتديها هو نفسه، ونفّذ من أنكى ما ارتكب حمله «رجال المملكة وذوى الهيئات من طبقات الخدمة» [بطرح قلانسهم، والانتقال عنها إلى العمائم، ومن فرّط فى ذلك عوقب، فلبسوها على كره، وكانوا بها أقبح منظر، وأهجن زى وملبس، لمخالفة العادة][١٣٢]. وفيما يتصل بالبرنس نعرف أن الأمويين كانوا يستخدمونه، وقد قدّم الحكم الثانى واحدا منه إلى أردون الرابع عند رحلته إلى قرطبة عام ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م[١٣٣]، وكان عبد الرحمن شنجول نفسه يرتدى البرنس عندما يكون وسط نسائه[١٣٤].

---

(١٣٠) السقطى يستخدم جمع الكلمة مآزر بمعنى اللباس الذى يرتديه الذين يعملون فى الحمامات، رسالة فى الحسبة ٦٧، ومعجمها ١١، مما يتفق مع المعنى الذى يرد فى النصوص الشعرية، ولكن ابن عبدون يستخدمه بمعنى لباس يوضع على الرأس مختلف عن الخمار واللثام. انظر: رسالة ابن عبدون فى الحسبة، ص ٢٥٥ من المعجم.

(١٣١) من الكامل. الحلة ٨٥/٢ وما بعدها، وفى أبحاث ط ١ ص ١٤٥، والترجمة ص ١١٨، وتاريخ مسلمى أسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨٣.

(١٣٢) انظر: النويرى، القسم الخاص بالأندلس فى نهاية الأرب، نشره جسبار رميرو بالعربية وترجمه إلى الاسبانية بعنوان: «تاريخ مسلمى إسبانيا وأفريقيا»، ودوزى، معجم الملابس ٣٠٨، والبيان المغرب ٤٨/٣، وتاريخ مسلمى إسبانيا ٢٨٣/٢.

(١٣٣) ابن حيان فى نفح الطيب ٣٩٠/١ ودوزى فى معجم الملابس ٧٩. وهذا البرنس كان منسوجا بالذهب، له بوزة مفرغة من خالص التبر، مرصعة بالجوهر والياقوت. وعن تاريخ البرنس انظر: ج. مرسية، عادات الجزائر الإسلامية، ص ١٧ - ٢٣.

(١٣٤) أعمال الأعلام ٩٠.

ومع مجىء المرابطين انتشر استخدام البرنس سريعا، وثمة فقرة فى كتاب القلائد تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن البرنس كان هو الغفارة نفسها[١٣٥]. وشاع أيضا لبس العمامة، وحتى الفرسان والجنود كانوا يلبسونها[١٣٦].

ويبدو أن استخدام الجلود، والملابس المبطنة بها، كان عادة واسعة الانتشار[١٣٧]، وكثيرا ما يتردّد ذكر فرو الأرانب، وفرو حيوان آخر يدعى الفنك فى أبيات الشعراء. يقول أبو القاسم بن السقاط:

تُطاعننا فيه ثُدىٌّ نواهدٌ نَهْدنَ لحربى والسنّور أفناكُ[١٣٨]

ويصف ابن سارة فروًا له:

أودتْ بذات يدى فُريّةُ أرنبٍ كفؤاد عُروةَ فى الضنى والرقّةِ
إنْ قلتُ باسمِ اللهِ عند لباسها قرأتْ علىّ إذا السماءُ انشقّت
يتجشّمُ الفرّاء فى ترقيعها بعد المشقّةِ فى قريبِ الشقّة
لو أن ما أنفقتُ فى إصلاحِها يحصى لزاد على رمالِ الدجلة

وبما أنّ هذه الفراء كانت تأتى من الشمال، فإن الحيوان الذى تطلق عليه كلمة فنك لا يمكن أن يكون ثعلب الصحراء Fennec، والذى يعيش فى شمال أفريقيا فحسب، وإنما يعنى ابن عرس، وكان المسيحيون يعرفونه باسم الفنك[١٣٩].

وعندما عاد المنصور من حملته على مدينة شانت ياقب حمل معه قدرا من هذا الفراء[١٤٠]. وعندما استقبل المعتمد الشاعرَ ابن حمديس، بعد أن جعله ينتظر طويلا، أجلسه على مقعد مغطى بفراء الفنك[١٤١]. وقدم ابن عمار نفسه على ابن طاهر فى مرسية، وهو يرتدى فروة نجهل طبيعتها[١٤٢].

وكان الأندلسيون، كبقية شعوب الأرض، لا يقفون عندلون واحد هو المفضّل عندهم دون غيره، ولكنهم أظهروا ذوقا يجعلهم يختلفون فى وضوح عن بقية أخوتهم فى الدين من المشارقة، وإنما على

---

(١٣٥) انظر ما سبق ص ٢٧٩ من هذا الكتاب، حيث ترجمنا أبيات ابن عيشون التى توجه بها إلى الفتح بن خاقان لأنه تلقى منه غفارة، القلائد ص ٢٩٠. وابن قزمان يطلب دائما من ممدوحيه غفارة، ووصفها يتفق تماما مع البرنس، انظر الديوان القطعة ٢٤، و٨٧ و١٠٣، وقد ترجمها ناشر الديوان بلفظ Cape، وهو ما يؤكد المعجم ص ١٥٠ و ٢٧٩ - ٢٨٠. وانظر أيضا: الونشريشى La pierre de touche، طبعة إ. أمار، ٣٨٥/١، والهامش رقم ٢، وجودفروى - ديمومبين، ألف ليلة وليلة، ص ٣٢٠، هامش رقم ٢: غفارة.

(١٣٦) القلائد ٢٦٩، والبيت لابن سارة.

(١٣٧) عن صناعة الجلود والفضة انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ١٨٤، والمصادر المذكورة هناك، والهوامش ٢ و ٣ و ٤، وابن عبدون رسالة فى الحسبة، طبعة ليفى بروفنسال، النص العربى ص ٤٨، والمعجم اللغوى ٢٨٥.

(١٣٨) من الطويل، القلائد ١٧٢، وابن سارة أيضا له أبيات عن فريات الأرنب، القلائد ٢٦١، وأوردناها بعد هذا البيت.

(١٣٩) البيان المغرب ٣١٩/٢، وترجمته ص ٤٩٥.

(١٤٠) انظر: سانتشيث البرنس، صور ٦٩، وملحق ١٨٦/٣، وغومث مورينو، كنائس المستعربين ١٢٦. وهذان المؤلفان يترجمانها «جلد ابن عرس». وعن المساحة اللغوية لابن عرس انظر: مينديث بيدال، أصول الإسبانية، ط ٢ جـ ١ ص ٤٢٠، والمصور ص ٤١٦.

(١٤١) نفح ٦١٦/٣.

(١٤٢) الذخيرة ٢٦/٣، ونقله عنها دوزى فى معجم الملابس ٣١٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١١١.

النقيض، تقترب بهم من الشعوب المسيحية فى شمال شبه الجزيرة.

والنماذج التى أدخلها زرياب، المتوفى عام ٢٤٣ هـ = ٨٥٧ م، وتتمثل فى ارتداء الملابس البيضاء صيفا، والملوّنة فى بقية فصول العام، لا يبدو أنها تأصلت بعمق فى إسبانيا[١٤٣]. وقد أشرنا فيما سبق إلى السبب الذى جعل الأندلسيين، أو بعض الطبقات الاجتماعية على الأقل، يرفضون اللون الأبيض، وأشرنا أيضا عندما تحدثنا عن الزهور، أن الشعراء الإسبان المسلمين كانوا يفضلون الورد الأحمر، على حين أنهم فى المشرق كانوا يفضلون النرجس الأصفر، ونلمس الشىء نفسه فيما يتصل بالملابس، فبينما نجد المشرق لا يعرف المرأة الجميلة إلا فى ملابس صفراء، نراها فى الغرب الإسلامى تظهر وهى فى أبهى زينتها ترتدى ملابس حمراء فحسب.

يقول ابن عمّار فى قصيدة يمدح بها المعتضد:

وصبَّغتَ درعَكَ من دماء ملوكهم لمّا علمتَ الحسنَ يلبسُ أحمراَ[١٤٤]

ويؤكد ابن حزم وجهة النظر هذه ويقول:

إذا ما رأتْ عيناىَ لابسَ حُمرةٍ تقطَّعَ قلبى حسرةً يتمزَّقا
غدا لدماءِ الناسِ باللحظِ سافكًا وضرَّجَ منها ثوبُهُ فتعفَّرا[١٤٥]

وإذا كان المشارقة يحترمون اللون الأصفر، فقلة فحسب من ملوك الطوائف فى إسبانيا كانت تعجب به فى بداية القرن الحادى عشر. وكان مؤسس الدولة العبادية فى إشبيلية أبوعمرو بن القاسم عباد يحب الملابس الفاخرة، ويلبس ثوبا رفيع القدر، نرجسىّ اللون، وصفه أحد شعرائه، أبوالأصبغ بن عبد العزيز، فى يوم احتفال، يقول:

كأنّما صفرةُ أثوابِهِ وطيبُها نرجسُه إذ تُشَمّ[١٤٦]

---

(١٤٣) انظر فيما سبق ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من هذا الكتاب، وابن دحية، المطرب ١٤٧ ونفح ٣٢٦/٣. ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن تقويم قرطبة لعام ٩٦١، ص ١٠٠، يسجل أنه فى شهر أكتوبر، مع وصول البرد، ترك الناس لبس الملابس البيضاء، وارتدوا ملابس الصوف.

(١٤٤) من الكامل. القلائد ٩٧. وانظر فيما سبق ص ٢٤٣ من هذا الكتاب، ويشير ابن سعيد وهو من القرن الثانى عشر، إلى استعمال الغفارة، حمراء أو خضراء، لأن اللون الأصفر مخصص لليهود. نفح ٢٢٣/١.

(١٤٥) من الطويل. طوق الحمامة، ص ٢٣٨ ترجمة نيكل ص ١٦.

(١٤٦) من السريع. أبو الوليد الحميرى، البديع فى وصف الربيع، ص ١١٧ - ومع ذلك توصف العروس بأنها تلبس الأصفر. انظر: نفح ٤٠٧/٢ طبعة أوربا، وص ٣٤٣ فيما سوف يأتى.

○ الفصل الرابع:

إطار الحياة المترفة

الصفحات التى سبقت عن المنسوجات والعطور تظهر ميل الأندلسيين إلى الترف والحياة المصقولة[1]، وكانت الأشياء الثمينة وكماليات الزخرفة التى تحيط بالإسبانى المسلم تنم عن ذوق رفيع وميل إلى الأشياء الجميلة، وتقدم لنا فى الوقت نفسه صورة عن مستوى الحضارة الذى بلغه شبه الجزيرة فى القرن الحادى عشر الميلادى، فى المجالين المادى والفنى.

●●●

نحن ننهش عند قراءة وصف الطبيعة، وبخاصة الحدائق، والتشبيهات الكثيرة التى تشير إلى الأحجار الثمينة، والمعادن النفيسة، والجواهر، وصياغة الحلى. والأحجار الثمينة الأكثر تردّدا فى الشعر هى: العقيق، ولونه أحمر، والياقوت، وقد يكون أزرق أو أصفر أو أحمر[2]، والزمرد، وهو أخضر، والزبرجد، وهو أصفر مائل إلى الخضرة، واللازورد، وهو أزرق غامق، والفيروزج، وهو أزرق.

ونعرف عن طريق المقّرى أنه كانت فى إسبانيا أحجار ثمينة بالغة التنوّع، كالياقوت الأحمر فى حصن منت مايور من كورة مالقة، إلاّ أنه دقيق جدا لا يصلح للاستعمال لصغره، وحجر آخر يشبه الياقوت الأحمر يكثر بناحية بجّانة، فى خندق بغربى قرية ناشرة، حسن اللون، صبور على النار، ويكثر حجر الشاذنة[3] بجبال قرطبة ويستعمل فى التذاهيب، وحجر اليهودى فى ناحية حصن البونت، وحجر المرقشيثا الذهبية فى جبال أُبّدة، وحجر اللؤلؤ فى برشلونة، إلا أنه جامد اللون، والمرجان بساحل بيرة من عمل المرية، وكان اللازورد الجيد فى لورقة من عمل تدمير، ويذكر المقّرى حجرا آخر مثل البلّور على مقربة من حصن لورقة، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقى بُبره، والحجر البجارى فى جبل قريب من لشبونة، يتلألأ فيه ليلا كالسراج[4]. ومن جانب آخر لم يذكر العقيق الأحمر ولا الزمرد ولا الزبرجد ولا الفيروزج الأزرق، مما يحملنا على الظن بأنهم كانوا يستوردون هذه الأحجار.

---

(1) يقول ابن شرف:

من الملوك الأُلى اعتادت أوائلهم سحب البرود ومسح المسك باللمم

من البسيط، القلائد ٢٥٥.

(2) التيفاشى، المتوفى ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م، فى مؤلفه «كتاب أزهار الأفكار فى الجواهر والأحجار» يذكر عشرين نوعًا من العقيق. انظر. كلمنت مييه، دراسة عن المعادن العربية، فى المجلة الآسيوية، الحلقة ٦، المجلد ١١، عام ١٩٦٨، ص ٢٠ – ٣٧.

(3) يشك كلمنت مييه فى ترجمة هذه الكلمة Especie de Lente juega انظر المصدر السابق ص ١٨٦، ولكن التيفاشى يرى أنها ترجمة الكلمة الإغريقية aimatitos.

(4) نفح ١٤٢/١، وليفى بروفنسال، اسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ١٧٧.

وبالطريقة نفسها، تكشف لنا دراسة الأزهار عن كثرة استعمال أسماء المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة. فالذهب يجيء تحت أسماء مختلفة مثل: الإبريز والتبر والذهب والعسجد والعقيان والنضار، والفضة وتذكر بهذا الاسم أو بكلمة اللجين. كانا يوجدان فى إسبانيا أيضا، الأول فى رمل نهر لاردة، وشقر، وتاجُه، والثانى فى مناطق مرسية والحامة وقرطبة، قريبا من Hornachuelos، وفى حوطالق، من كورة باجة[٥].

وتتردّد بكثرة فى قصائد الشعراء كلمات جوهر، وتطلق على اللؤلؤ بعامة، واللؤلؤ وهو الأبيض منه، والوردّ وهو لؤلؤة كبيرة الحجم. ويعبر المرجان عادة فى الشعر عن فكرة الصفرة الفاقعة أو الحمرة، وكان يستخرج من على ساحل البحر قرب المرية، وأقل ما لقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين ربعًا[٦]. وكان الشعراء يستخدمون فى التعبير عن البياض الشفّاف كلمات البلّور والمها، ومعناهما واحد، ولكنهم يستخدمون الأخيرة أكثر من الأولى. وقد أشرنا من قبل إلى أن البلور كان يستخرج على مقربة من حصن لورقة.

كل هذه المواد التى عرضناها كانت تستخدم فى صنع الأشياء الثمينة التى أعطانا الشعراء أسماءها، فكانوا يطلقون على الجواهر وما يُتزيّن به كلمة حُلية أو حُلىّ. وقد طابق أحمد بن هشام فى وصف النرجس بين الجزء الأوسط منه فوصفه بأنه مثل الإبريز على حين أن نوْره مثل الجمان المصفى:

كـلّما فـاحَ نَـشْـرهُ قـلـتَ إلـفٌ ... فى دُجى الليـلِ عـاطرٌ زار إلْفَا
وإذا مـا لحـظتَـهُ قـلتَ ألحـا ... ظُ خليعٍ قد مـالَ سُكْرًا فـأغفى
منه مثل الإبريزِ فى صُفرة اللّو ... نِ ومنـهُ مثـل الجُـمـانِ المصـفّى
فـكـأنّى بمـا أقـلّبُ مـنـه ... صَيْـرفىٌّ أضحى يحاولُ صـرفـا[٧]

ومن الحلى الخواتم، بفص أو بدونه والعقود، والشنوف أو القرط لتحلى بها الجبهة، والدُّملج، والسوار، والوقف، والقلب. وكانت محلات الصياغة الكبرى تتركز فى قرطبة وإشبيلية[٨]. ويشير ابن حزم إلى مهارة الصيّاغ الذين يميزون بدقة بين الذهب المحض والذهب المشرب بفضة:

كـالتِّبْرِ إنْ تَمـزِجْ بـه فِـضّـةً ... حـازت عـلى كـلِّ فتىً جـاهـلِ
وإنْ تُصَـادفْ صـائغًـا مـاهـرًا ... مَـيَّـزَ بـين المحْضِ والحـائـلِ[٩]

●●●

وتشى أوصاف الشعراء أيضا بوجود أشياء من العاج والأبنوس. فمن العاج كانوا يصنعون بخاصة

(٥) ليفى بروفنسال، المصدر السابق ص ١٧٦، اعتمادا على المقرى والإدريسى وياقوت. وانظر: ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية، تحليل أسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس، المجلد ٢، عام ١٩٣٤، العدد الأول، ص ٣٥ و ٤٠.

● وهى رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ونحن بصدد إعدادها للنشر. (المترجم)

(٦) نفح ١/١٤٢-١٤٣. والربع أداة وزن تسوى ٢٥ رطلًا، أى ربع قنطار. انظر: السقطى، رسالة فى الحسبة ص ٣٠، وابن عبدون، رسالة فى الحسبة، ص ٢٧١.

(٧) من الخفيف، أبو الوليد، البديع ص ٩٦

(٨) ليفى بروفنسال، أسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ص ١٨٤.

(٩) من السريع، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٩٤، وترجمة نيكل ٩٢، وفى طبعة برشيه ص ١٦٤.

عُلَبًا لحفظ الحلى والعطور[١٠]، وأدوية الحبر، وأغمدة السيوف، وقطع الشطرنج وغيرها[١١]. ومن الأبنوس كانوا يصنعون المحابر[١٢]. ومع ذلك فمن الصعب أن نقدم قائمة كاملة اعتمادا على الشعراء بالأشياء التى كان يستخدمها الأندلسيون فى حياتهم اليومية من أيّة طبقة كانوا، والتى تنم عن حضارة مصقولة.

ولم تكن هذه الأشياء توجد فى أيدى الناس فحسب، وإنما نلتقى بها فى الأبنية الدينية أيضا، ومن المعروف أن المنبر فى جامع قرطبة كان من خشب الأبنوس المطعم بالعاج[١٣]. والنسخة القديمة من القرآن الكريم، وتضم، فيما يقال، أربع صفحات كتبها الخليفة عثمان بخط يده، [وفيه نقطة من دمه]، كانت طبقا للإدريسى محفوظة فى «غشاء بديع الصنعة، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقة وأعجبه»، «وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه، ثم يرد إلى موضعه»[١٤]. ويقول الإدريسى أيضا: «وفى أعلى الصومعة، على القبة التى على البيت، ثلاث تفاحات ذهب، واثنتان من فضة، وأوراق سوسنية»[١٥]. وكانت أبوابه «مصفّحة بصفائح النحاس، وكواكب النحاس، وفى كل باب منها حلقتان فى نهاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها فى الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى، وأجناس مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البزاة»[١٦].

وقد تُتخذ ثريات المساجد أحيانا من المعادن النفيسة، وكانت ثريّا مسجد مالقة الجامع من الفضة، أهداها إليه تميم بن بُلقّين عامل المدينة، قبل أن يزيح المرابطون عبدالله بن زيرى أمير غرناطة عن الإمارة بوقت قليل[١٧]. ويصف أبو تمام غالب بن رباح الحجّام قلعة رباح على النحو التالى:

انظرْ إلى سُرُجٍ فى الليلِ مُشْرقةٍ ... من الزجاج تراها وهى تلتهبُ
كأنها ألسُنُ الحياتِ قد برزت ... عند الهجيرِ فما تنفكّ تضطرب[١٨]

● ● ●

---

(١٠) سنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد بمناسبة التماثيل. ونلاحظ هنا أن الشعر العربى فى المشرق يستخدم حق العاج فى تشبيه بطن الحبيبة أو نهدها، انظر معلقة عمرو بن كلثوم البيت ١٥، وديوان الأعشى، طبعة جير، القطعة ٣٩ البيت ٣٢، ص ١٧٧. وانظر أيضًا فيما سبق ص ٣٠ رقم ١٠٥.

(١١) انظر فيما سيأتى ص ٣٠٥ رقم ٢.

(١٢) الأبيات لأبى الطاهر الجيّانى المشهور بابن أبى ركب فى نفح ٢٢٣/٤.

(١٣) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، ص ٢١٨ ورقم ١.

(١٤) الإدريسى ص ٢١٠ والترجمة ٢٦٠، وقد أصبح هذا المصحف تحت حكم الموحدين أثرًا حقيقيًا مزينًا بالذهب والدر الأبيض، والياقوت، وحتى العلبة التى كان فيها عليها أغشية الديباج، وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب، انظر: نفح ٥٤٨/١، و٥٦٣ و٦٠٥ إلى ٦١٥. والمراكشى، المعجب ص ٢٥٣، والترجمة ٢١٨.

● درست تدريخ مصحف عثمان فى الأندلس تفصيلًا، وما أحاط به من قصص وحكايات، فى فصل ألحقته بترجمتى لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك، وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٨٥ بعنوان: الفن العربى فى إسبانيا وصقلية. (المترجم)

(١٥) الإدريسى، المصدر نفسه، النص العربى ٢١٢، والترجمة ٢٦٢، ونفح ٥٤٨/١ و٥٦٣، وأعمال الأعلام ٣٨.

(١٦) الإدريسى المصدر نفسه، النص العربى ٢١١، الترجمة ٢٦١.

(١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢٣٦.

(١٨) من البسيط، نفح ٤١٦/٣.

وإذا كان مستوى الحضارة يقاس بالقدر الذى بلغته فى كثرة استخدام الأشياء الثمينة فيجب أن نعترف بأن القرن الحادى عشر فيما يتصل بإسبانيا الإسلامية كان أزهى عصورها، وفيه بلغت أوج بهائها.

وفى هذا العصر تأصّل الترف وشاع، ولنذكر جنون المعتمد حين أراد أن يرضى أهواء اعتماد الرميكية «حين رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعْن اللبن فى القرب، وهن رافعات عن سوقهن فى الطين، فقالت له: أشتهى أن أفعل أنا وجوارىّ مثل هؤلاء النساء. فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور، وماء الورد، والقرفة والزنجبيل، وعطور مختلفة الأنواع، وصُيِّر الجميع طينا فى القصر، وجعل لها قربا وحبالاً من إبريسم، وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين»[١٩].

وقد وجّه على بن مجاهد ملك دانية إلى مصر عام ٤٧٧ هـ = ١٠٥٥ م مركبا ضخما مملوءًا بالطعام عام المجاعة المضروب بها المثل فى البلاد، فأعادوه إليه مملوءًا مالاً وذخيرة[٢٠].

ولكى يؤثّر عبد الله بن زيرى فى ألفونسو السادس أعدّ له سجّادا وأقمشة وأوانى جُمعت كلها فى خيمة كبيرة، ولكن الملك المسيحى وجد الأقمشة غير جميلة بقدر كاف[٢١]. وكذلك فعل المستعين ملك سرقسطة حين علم أن يوسف بن تاشفين عاد إلى إسبانيا، فأرسل إليه ابنه عبد الملك بهدايا قيمة، من بينها أربعة عشر رُبعا من آنية لفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط مرابطية، وفرّقها فى طباق المرابطين على من يحيطون به، ليلة الاحتفال بعيد الأضحى عام ٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م[٢٢].

ومن السهل علينا أن نضيف وقائع تاريخية أخرى، وبخاصة فيما يتصل بالمعارك بين الأندلسيين والبربر، أو بين المسلمين والنصارى، لتثبت وجود ثروات هائلة كان الأمراء أو قادة الجيوش يحملونها معهم، كضرورة من ضرورات الحياة اليومية، أو وسيلة للرشوة والإفساد[٢٣].

● ● ●

إن الأشياء التى انتهينا من الحديث عنها، وهى ذات قيمة فى ذاتها من حيث المادة التى صنعت منها،

---

(١٩) التيجانى، تحفة العروس، فى «بنو عباد» ١٥٢/٢، ونفح ٤٤٠/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٨، والكوند لو كانور ص ١٦٨، وبنو عباد ١٥٣/٢ رقم ٤٠.

(٢٠) البيان المغرب ٢٢٨/٣، وأعمال الأعلام ٢٢١، ويذكر أنها كانت فى عام ٤٤٦ = ١٠٥٦، وانظر: فييت، موجز تاريخ مصر ص ١٨٦، ويذكر أن قحطا عظيمًا عم البلاد، واستمر عدة أعوام، وبلغ أقسى شدته عام ٤٦١ = ١٠٦٩

(٢١) عبد الله بن زيرى، مذكرات، طبعة ليفى بروفنسال، فصلة مستقلة، ص ١٢٢/٨٩.

(٢٢) أعمال الأعلام ١٧٤.

(٢٣) انظر مثلًا: أعمال الأعلام ص ١٣٧ و١٨٢ و٢٢٤ و٢٤٩، ونشير هنا إلى رؤوس بعض الوثائق المتصلة بالموضوع فمنها: الأشياء الثمينة التى قدمها فى القرن العاشر رود سيندو ووالدته إلدوارا إلى دير ثيلانوفا عام ٩٣٨، انظر: غومث مورينو، كنائس المستعربين ٢٤٢، والتى قدمها ابن شهيد إلى عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٧ = ٩٣٩، انظر: نفح ٣٥٦/١ - ٣٦٠، وابن خلدون، العبر ١٣٨/٤، وليفى بروفنسال، أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٠٢، والتى قدمها جعفر المصحفى إلى الحكم المستنصر عام ٣٥٠ = ٩٦١، انظر: ابن خلدون، العبر ١٤٤/٤، طبقًا لابن حيان فى المقتبس، والتى قدمها المنصور بن أبى عامر إلى الأمراء المسيحيين والمسلمين فى عودته من غزوة شانت ياقب عام ٣٨٧ = ٩٩٧، انظر: ابن عذارى، البيان ٣١٩/٢، والترجمة ٤٩٥.

وأضفت على حياة الأندلسى طابعا جماليا خاصا، وشاغلاً فنّيا، ولكنها تستمد قيمتها الجمالية من الأشكال التى تصوّرها.

وقد أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين بالطبيعة إلى أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها : الأقمشة والأثاث، وأدوات الزينة والحلى. وفيها يبدو قام المستعربون واليهود بدور الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس والمناطق الواقعة على شاطئ البحر الأبيض، وكان اليهود يجلبون الأعمال الفنية والملابس الغالية من بيزنطة وبغداد والقاهرة، وكانت الأكواب العراقية(٢٤)، والأقمشة السقلاطونية(٢٥) أهمها فيما يبدو.

ونعرف أن الأشياء المخصصة للاستخدام فى قصور الأمراء أو فى بيوت عامة الناس، ما عدا المنشآت الدينية، كانت مقبولة كما هى، حتى لو كانت تصور كائنات حية، ولم يعد الناس يهتمون بمحو النقوش الموجودة على الكؤوس، وفيها صور شخصيات، ولا بإزالة رسوم الحيوانات المطرزة على الأقمشة فحسب، وإنما كانوا يصنعون كثيرا من هذه الأنواع. والتحريم الدينى الذى يلزم كل المسلمين بتحطيم كل الصور(٢٦) لم يكن ملتزما من قبل الإسبان المسلمين، ولا من جانب المسلمين المشارقة أيضا(٢٧).

ويؤكد الشعراء حين يستخدمون كثيرا كلمات تعبّر عن تصوير الكائنات الحية، وحين يصفون التماثيل والأشياء المزينة بالرسوم، تأكيدا واضحا ما سبق أن قلناه هنا. يقول أبو بكر بن رُحَيم عن أخيه :

لـو كـانتِ العليـاءُ شخصًـا مـاثـلاً ... لـرأيتَـهُ منهـا مكـانَ المِغْفَـرِ(٢٨)

ويشبه ابن بقى النساء بأنهنّ دمى من العاج أو الرخام(٢٩).

---

(٢٤) حول هذه الأبيات انظر فيما بعد ص ٣٢٦ من هذا الكتاب.

(٢٥) عن السقلاطون، وهو نسيج حريرى موشى، غنى بالزخارف الذهبية، يستورد من أنطاكية وبغداد. انظر : ج . س. كولين، Latin Sijillatus romance Siglaton escarlat فى مجلة رومانيا، مجلد ٤٦ عدد ٢٢٢، أبريل ١٩٣٠، ص ١٧٨ – ١٩٠، وعدد ٢٢٣، يولية ١٩٣٠، ص ٤١٨، وغومث مورينو، كنائس المستعربين، ص ١٢٦ رقم ٦ وص ٣٣٤ رقم ٤، وص ٣٣٦ و٣٤٥، والبيان المغرب ٣١٩/٢ – ٤٩٥.

(٢٦) عن هذا الموضوع انظر المقال الممتاز الذى كتبه فينسينك فى دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٨/٤ – ٥٩٠، مادة صورة.

● وانظر أيضاً الدراسة القيمة التى قام بها المستشرق الألمانى فون شاك فى كتابه: شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية، وقد ترجمنا الجزء الخاص بالفن، وصدر عن دار المعارف بعنوان: الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٢٧) انظر : ج. فييت، مساجد القاهرة ١٦٧ – ١٨٢، و ج. مرسية، مسألة الصور فى الفن الإسلامى، فى مجلة بيزنطة ، المجلد ٨، العدد ١، عام ١٩٣٢، ص ١٦١ – ١٨٣، وصور الإشخاص والحيوانات المنحوتة فى الأخشاب من العصر الفاطمى، والمحفوظة فى متحف القاهرة، فى تكريم مسبيرو، المجلد ٣ (بحوث المعهد الفرنسى فى القاهرة، المجلد ٦٨، ص ٢٤١ – ٢٥٧. وهـ لا مانس، موقف الإسلام الأصلى فى مواجهة الفنون المصوّرة، فى المجلة الآسيوية، السلسلة الثانية، المجلد ٦، عام ١٩١٥، ص ٢٣٩ وما بعدها و ك . أ .كريزويل، شرعية الرسم فى صدر الإسلام، فى مجلة الفنون الإسلامية، ميتشيجان، الأجزاء ١١ – ١٢، عام ١٩٤٦، ص ١٥٩ – ١٦٦.

(٢٨) من الكامل، القلائد ١١٧، المغفر ودخل اللغة الإسبانية فى صورة almofar، طاقية أو طرطور من القماش لحماية الرأس. انظر فيما سيأتى ص ٣١٢ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الطويل، القلائد ٢٧٩.

وقالوا ألا تبكى فتلك مطيّهم ... على الشُّهْبِ تحملُ خرائد كالدمى[٣٠]

ويعمل شاعر آخر خياله ليضفى على الوهم شكلاً ما[٣١]. يقول أبو محمد بن السِّيد البطليوسى مجيبا شاعرا قرطبيا مدحه:

ما كنت أحسبُ أنّ النيّرات غدتْ ... يصيدها شركُ الأوهامِ والفِكَرِ

ولا توهّمتُ أيامَ الربيعِ تُرى ... فى ناجرٍ غَضَّةَ الأنوارِ والزَهَرِ[٣٢]

ويُضفى ابن الحدّاد على فكرته مزيدا من الدقة فيكمل التوهّم بالتصوّر:

حجبوكَ إلاّ من تَوهُّم خاطرى ... ومحوْكَ إلاّ من تصوّر بالى[٣٣]

ولكن الكلمة الأكثر شيوعا فى الاستخدام هى صوّر، وتعنى تصوير الشىء المعنوى والمجرد بشىء محسوس وواضح، ومن قبل قال أبو تمام:

مالنوْر الربيعِ من غيرِ حُسْنٍ ... ما لهمْ من تغيّرِ الألوان

أنكرتهمْ نفسى وما ذلكَ الـ ... إنكارُ إلاّ من شدّة العرفان[٣٤]

ويقول الأندلسى عُبادة بن ماء السماء متوجها إلى حبيبته:

ما مرّ يومٌ علىَّ لم أرك ... إلاّ وجدتُ الضميرَ صوّركِ

ولا مبيتى وأنتِ لستِ معى ... إلاّ مبيتَ القطاةِ فى الشَّرك

أمّا أنا فالبعدُ غيّرنى ... وأنتِ خَوْفُ الرقيبِ غيّرك

يا لُعبةً صُوِّرتْ لسفكِ دمى ... غطّى بفضلِ النقابِ مَحْجِرَك[٣٥]

ويقول ابن درّاج القسطلى، فى عام ٤٢٨ = ١٠٣٦، حين كان فى سرقسطة، متوجها إلى المنذر:

ما صُوِّر الإيمانُ فى قلبِ امرىءٍ ... حتى يراكَ الله فيه مُصوَّرا[٣٦]

ويقول ابن عمار متوجها إلى المعتضد:

أقسمتُ باسمِ الفضلِ حتى شمتُهُ ... فرأيتُهُ فى بردتيهِ مصوَّرا[٣٧]

---

(٣٠) عن معنى الدمية أنظر: الشريشى، شرح مقامات الحريرى ٣/٢٢٤ و ٢٥١، المقامة البدوية رقم ٤٣، والمقامة الرملية رقم ٤٥. وبنو عباد ١/١٦٤ رقم ٥٢٨.

(٣١) المعجم يعطى الشكل الخامس نفس معنى لشكل الأول «in prestigiis mirari». انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية مادة وهم، ٢/٨٤٦.

(٣٢) من البسيط، القلائد ١٩٦.

(٣٣) من الكامل، نفح ٣/٥٠٣، ودوزى، بحاث ط ١ ص ١٠١، وانظر فقرات أخرى تضفى مزيدًا من التحديد على معنى تصوّر، فى القلائد ص ٢٦٣ أبيات ابن سارة، وفى ص ١٠٩ يقول الفتح بن خاقان بمناسبة أبى القاسم بن الجدّ: «له أدب لو تصور شخصًا، لكان بالقلوب مختصًا».

(٣٤) من الرجز، الديوان ٤٢٦ طبعة بيروت.

(٣٥) من المنسرح، الذخيرة ١/٤٧١. وتنسب هذه الأبيات لابن الكتانى أيضا.

(٣٦) من الكامل، أعمال الأعلام ٣٠٠

(٣٧) من الكامل، القلائد ٩٧.

وهذا الشيء المحسوس يمكن أن يكون دمية أو صورة أو رسما يمثل كائنا محدّدا. يقول ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة:

الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ[٣٨]؛

ويقول أبو الفضل الدارمي في بلاط المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، وقد أرق ليلة:

يا ليلُ ألاّ انجليتَ عن فلقِ طُلتَ ولا صَبْرَ لي على الأرقِ
جفا لحاظي التغميضِ فيك فما تُطبِق أجفانَها على الحَدق
كأنني صورةٌ ممثَّلةٌ ناظِرها الدهرَ غيرُ منطبق[٣٩]

ويستخدم ابن حزم التعبيرين: صورة، وصورة مُثِّلت، في الأبيات التالية، متحدثا عن حبيبته الغائبة:

يا ليتَ شعري مَن كانت وكيف سرتْ أطلعةَ الشمسِ كانت أم هي القمرُ
أظنُّها العقلُ أبداه تدبُّرهُ أو صورة الروح أبدتها لي الفكر
أو صورة مُثِّلتْ في النفس من أملي فقد تحيَّر في إدراكها البصر
أو لم يكنْ كلُّ هذا فهي حادثةٌ أتى بها سببًا في حتفِيَ القدر[٤٠]

وفي النهاية أصبحت كلمة صورة تعني امرأة جميلة، كما هو الحال في أبيات ابن اللبانة، التي يسترجع فيها لحظات السعادة على ضفاف الوادي الكبير:

نهرٌ شربت بعبْريْه على صُوَرٍ كانت لها فيَّ قبل الراحِ سَوراتُ[٤١]

وما ذكرناه سابقا يساعدنا على أن نفهم الفقرة التي يقول فيها ابن حزم: «إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية»[٤٢].

ولدينا شواهد على أنه كانت يوجد في الأندلس، وفي قرطبة بخاصة، حرفيون يتركز شاغلهم الأساسي في نسخ صور كائنات معينة، وعندما يصف ابن حصن إشبيلية عند غروب الشمس بأنها «عروس من الحسن منحوتة»[٤٣]، فإنما نجد، فضلا عن التصوير الجميل، تعبيرا دقيقا عن واقع الحياة اليومية.

وثمة نصوص تاريخية تبرهن على أنه كان يعيش في مدينة الزهراء عمّال نحّاتون، وهم الذين قاموا

---

(٣٨) من البسيط، عبد الواحد المراكشي، المعجب ٧٦، والترجمة ٦٥.

(٣٩) من المنسرح، نفح ١١٢/٣.

(٤٠) من البسيط، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٣٧، و١٩ طبعة بتروف، وترجمة نيكل ٢٧، وطبعة بيرشيه ٢٤. وعندما يعرض ابن حزم نظرية أفلاطون «التمازج والتواصل» فإنما يستخدم تعبير «صورة حسنة» و«تصاوير متقنة».

(٤١) من البسيط، القلائد ٣٠، وعنه نقلها «بنو عباد» ٧٠/١، ونفح ٢٢٢/٤.

(٤٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نفح ١٥١/٣، وأبو حامد الغرناطي، تحفة الأحباب، ط فران، في المجلة الأسيوية ١٩٢٥، ص ٢٠٠، ولير شوندي وسيمونيت، مختارات عربية ص ٢٥، وانظر فيما سبق ص ٢٣ من هذا الكتاب.

(٤٣) انظر فيما سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

بكل تأكيد بنحت تمثال الزهراء، محظية عبد الرحمن الناصر، وكان يزيّن الباب الرئيسي في قصر الخلافة[٤٤].

●●●

لم يجد المسلمون إذن أىّ شيء غريب أو محيّر في التماثيل التي كانت تزين قصور كبار لشخصيات، وكانت من صنع الأندلسيين أنفسهم، ولم تتعرض التماثيل الرومانية، وكانت لمّا تزل موجيدة في القرن الحادي عشر، إلى أي تدمير من سكان شبه الجزيرة فيما يبدو. ويشير المقّرى في فقرة نقلها عن البكري، المتوفى ٤٨٧ = ١٠٩٤، وفي فقرات اعتمد فيها على الرازي، أحمد بن محمد، المتوفى ٣٤٤ = ٩٥٥، إلى أنه كانت توجد في سبانيا في القرن الحادي عشر ثلاثة تماثيل يونانية: واحد في جليقية، والثاني في طركونة، والثالث في قادس[٤٥].

وتمثال قادس الوحيد الذي أثار خيال الإسبان المسلمين[٤٦]، فقد كان حجمه ضخماً، وفي يده اليمنى مفتاح من حديد، ويمدها نحو المغرب. وفي اليسرى صحيفة منقوشة، ويزعم البحارة أنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوه. وفي عام ٤٥٠ = ١١٤٥ لاعتقد عليّ بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي أنه من معدن نفيس، ويحتوي على كنوز ضخمة، وأن داخله محشوّ تبرا، فقام بهدمه وتقطيعه[٤٧]. وفيه يقول ابن شخيص شاعر من نهايات القرن العاشر الميلادي:

وَرَجْــراجــةُ الأردافِ مَــوّارةُ الخُــطَا ... تُهادِي وليستْ من حسانِ الأوانسِ
إلى أنْ ترى الشخصَ المُلَبَّعَ مُوفيًا ... على الصنم الموفى على بحرِ قادسِ
ولمّا نــزلْنــا تحتــه قــال صــاحبى ... أعــاجيبُ رومٍ أم أعاجيبُ فــارسِ
فقلْنـا لـه خفِّض سؤالـكَ والتمسْ ... نجاتَك من مَرْسَى البحار الكَوائسِ[٤٨]

●●●

وكشف لنا الشعراء عن وجود تماثيل رومانية أخرى، منحوتة من الحجر العادي دون شك، وصمت عنها المؤلفون والناثرون تمامًا، فكان فوق باب حصن مر بيطر، ويُسمّى بالمرْدَى، واسمها القديم Sagunto، تمثال، أو مصور بلغة العصر الوسيط، ويصفه أبو القاسم بن البرّاق بأنه قديم جدًا:

ببــابِ مُرْ بَيْــطَرٍ عــاينتُ ذا عِــظَةٍ ... هــو الجمــادُ ولا كن صمنُــهُ يَعِظُ
يقول هذى بلادى قد فتحتُ بهــا ... كَفِّى فهــل أنت يــامغــرورُ مُتَّعظ

(٤٤) نفح ١/٥٢٣، طبقا لابن عربي في محاضرات الأبرار ١٠٦/٢، ونصها: «نقش صورتها على الباب».
ونشير هنا إلى أنه كان هناك تمثال للعذراء موضوع في قرطبة على الباب الذي إلى القنطرة، ويحمل الاسم نفسه: باب القنطرة، وآخر فوق باب بجانة الرئيسي. انظر: ابن عذارى، البيان ١٤/٣، وأخبار مجموعة ١٥١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٦٤. وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٢٠٥.

(٤٥) نفح ١٢٦/١.

(٤٦) أبو حامد الأندلسي، تحفة الأحباب، طبعة فران، في المجلة الأسيوية، المجلد ٢٠٧، عام ١٩٢٥، ص ٦٩، والمصادر المذكورة ص ٥. باسيه، هرقل ومحمد في مجلة العلماء، ١٩٠٣.

(٤٧) نفح ١٦٧/١، و٢٠٣/١، والناصري السلاوي، كتاب الاستقصا ١٨٥/٣، والترجمة التي قام بها إ. حامد ص ١٧٨. ودوزي، أبحاث، ط ٣ جـ ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣. وياقوت، معجم ٦/٤.

(٤٨) من الطويل، عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، رقم ١٣٢، ص ١٤٧ - ١٧٥.

هـذا مَقَـامِيَ والأعصـارُ مـا ضيـةٌ ... والغِيُّ للنـاسِ محبـوبٌ إذا وُعِـظوا
فكم زَجـرْتُ ولاكن أين مُـزدجِـرُ ... عـمَّا أحـذِّرهُ وأيـن مُـتّـعـظُ[٤٩]

وصف لنا الشعراء أيضًا تمثالاً آخر كان فى شاطبة، ونعتوه بأنه صنم، يقول أبو عامر بن عثمان البَرياني عنه:

بقيَّةٌ من بقـايـا الـرومِ مُعْجِبـةٌ ... أبدى الثباتُ[٥٠] بها من علمهم حكَما
لم أدرِ ما أضمروا فيـه سوى أمم ... تتـابعتْ بعدُ سمَّوهُ لنا صنـما
كـالمِبـردِ الفـردِ مـا أخـطا مشبّهـه ... حقًّا لقـد بـرد الأيـام والأمما[٥١]
كـأنـه واعظ طـال الـوقـوف بـه ... مما يُحدِّث عن عـادٍ وعن إرما
فـانـظرْ إلى حجـرٍ صلْدٍ يكلِّمنَا ... أسمى وأوعظَ مِن قُسٍّ لمن فهما[٥٢]

ويخيَّل إلينا أن الشعور الذى ألهمته هذه التماثيل القديمة للشعراء الأندلسيين، فى القرن الحادى عشر بخاصة، إنما كان الإحساس بأسرار الزمن الماضى المحملة بها، وبالديمومة التى منحتها سلطة المتاف الإلهى بالغيب فيما يتصل بالفنانين.

●●●

باختصار فضّل الأندلسيون كثيرًا تماثيل الرخام والصور الحسية الوثنية، وكانوا أقل إحساساً فيما يتصل بالتماثيل المصنوعة من البرنز أو الحجر العادي، ووجدوا فى أطلال طالقة[٥٣] تمثالاً أرسلوه إلى إشبيلية، ووضعوه فى حمام الشطارة، «وكان منحوتاً من مرمر، لم يسمع فى الأخبار، ولا روى فى الآثار، صورة أبدع منها، فى قالب جارية، كاملة القد، حسنة الجسم، جميلة الوجه، صُوِّر كل عضو من أعضائها، وكل جارحة من جوارحها، على أتم ما يكون، وأفضل مايستحسن فى جوارح المرأة، وفى حضنها صورة صبى على مثل من الحكمة والإتقان، وقد صُوِّرت حية تصعد من قدمها كأنها تريد نهش

---

(٤٩) من البسيط، ابو بحر صفوان بن إدريس المرسى، زاد المسافر، ص ١٥٢.

(٥٠) رواية النفح «البناة» بدل «الثبات».

(٥١) لم أجد لهذه الأبيات معنى.

(٥٢) من البسيط نفح ١١٦/٤. وزاد المسافر ١٢٣ والبتونى، رحلة إلى الأندلس ص ١١٠. وقس بن ساعدة الإيادى شخصية أسطورية مشهورة بالبلاغة والحكمة، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٨/٢، وكتب المادة الأب هنرى لامنس.

وثمة تماثيل، أو أصنام، أخرى كانت توجد فى إسبانيا الإسلامية، قريبا من لاية، فى كورة رية، كان يوجد فى سند الجبل تمثال صورة إنسان بموضع لا يصل إليه إلاّ من تدلّىّ بالحبال، ويسقط من منخره الأيمن نقط ماء. الروض المعطار، رقم ١٦٠ ص ١٧٠. وفى أسوار لبلة، طبقا لأسطورة قديمة كانت شائعة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، ويجب أن تكون ضاربة فى القدم، كانت توجد أربعة تماثيل، أو تصاوير: صنم تسمّيه العامة دردب، وعليه صنم آخر، وصنم تسمّيه مكيح، وعليه صنم آخر. انظر: العذرى، أبو العباس أحمد بن عمر، المتوفى ٤٧٨ = ١٠٨٥، كتاب المسالك والممالك الأندلسية فى: القزوينى، آثار البلاد، الجغرافيون المجلد ١،ص ٢٧٢. والروض المعطار رقم ١٥٨، ص ١٦٨ و١٦٩ و٢٠٣.

وأحد أبواب قصر قرطبة كان من حديد، وفيه حلق لاطون، قد أثبتت فى قواعدها، وصورت صورة إنسان فتح فمه، ويقال أن الأمير محمد أخذها من حلق باب مدينة أربونة عندما افتتحها، وجليها معه. نفح ٤٦٤/١. وج مرسيه، موجز الفن الإسلامى ٢٤٣/١.

(٥٣) عن طالقة انظر: ياقوت، معجم ٤٩٤/٣. والروض المعطار رقم ١١٢ ص ١٢٢ - ١٢٣، ١٤٩ - ١٥٠. ومرتينيش، غاية إسبانيا ص ٢٣ - ٢٨.

الصبى[٥٤]، فنظرها بين مصعد الحية ومكان الطفل، كامشفقة الحذرة، يتبين ذلك فى التقائها»، ويقول المؤرخون: «وقد تعشقها جماعة من العوام، وشغف بها أناس من الطغام، فتعطّلت أشغالهم، وانقطعت متاجرهم بالنظر إليها». ولكن أشد بجماليون الجدد لم يكونوا قادرين على أن يهبوا الحياة لآسرتهم «جالاتيا»[٥٥]. وقد وصفها أبو تمام غالب بن رباح الحجّام بالأبيات الثلاثة التالية:

ودميةِ مرمرٍ تَزهى بخدٍّ ... تناهى فى التورّد والبياضِ
لها ولدٌ ولم تعرفْ حليلاً ... ولا ألمّتْ بأوجاعِ المخاضِ
ونعلمُ أنها حجرٌ ولكنْ ... تتيّمنا بألحاظٍ مراضِ[٥٦]

وفى حمّامات المياه الساخنة لطبيعية، ولا نستطيع تحديد مكانها بدقة، حيث كان المعتضد يتردد عليها كثيرًا للعلاج من الروماتيزم، كان يوجد تمثال من المرمر فيما يبدو، وقد وصفه ابن زيدون فيما يلى:

مَرمرٌ أوقدَ الفرِندَ عليهِ ... سلسلٌ بحرهُ الزلالُ يفيضُ
وسْطَها دُميةٌ يروق اجتلاءُ الْـ ... ـكلِّ منها ويفتنُ التبعيض
بَشَرٌ ناصعٌ، وخدٌّ أسيلٌ ... ومحيّا طَلْقٌ، وطرفٌ غضيض
وقوامٌ كما استقام قضيبُ الْـ ... ـبانِ إذْ عَلَّهُ ثراهُ الأريض
وابتسامٌ لوْ أنّها استغربتْ فيـ ... ـهِ أراكَ اتّساقهُ الإغريض
والتفاتٌ كأنّما هو بالإيـ ... ـحاءِ - من فرط لُطْفه - تعريض[٥٧]

أما الرسوم، أو الفسيفساء الذى يصور نساء عاريات أو أزواجًا مختلطين، فقد أشار إليها بعض المؤلفين بتعبير صور الحمّام[٥٨]، وكان المسلمون المتشدّدون يعتبرونها دائمة فضيحة، ولكن النصوص الشعرية التى أوردناها تظهر أن تماثيل المرمر فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر، كما كانت عليه الحال فى الحمامات الرومانية، إنما هى لتزيين الغرف المخصصة للمتردّدين، أو على الأقل من البارد إلى الساخن ..en Prigidarium los Tepidarium

●●●

وكثيرًا ما كانت مياه البرك والنوافير تندفع مياهها من خلال أفواه الحيوانات المنحوتة من مواد

---

(٥٤) إن وجود الحية لا يسمح بـ ... مكر اما بصدد تمثال فينوس وكوبيد.

(٥٥) انظر: نفح ١/١٥٨ و٥٣٣. واروض المعطار رقم ١١٢، مدة طالقة، ص ١٢٣/١٥٠، وفون شاك، سعر العرب وفنهم، ترجمة باليرا إلى الاسبانية ١/١٠٨ و ٢٧١.

● وقد ترجمت هذا الكتاب الجيد لمستشرق الألمانى، ونشر القسم الخاص بالفن تحت عنوان: «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية»، وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٨٥، أما القسم الخاص بالشعر فسوف يصدر قريبا وعن دار المعارف أيضا بعنوان: الشعر فى إسبانيا وصقلية» (المترجم).

(٥٦) من الوافر، الذخيرة ٣/١٢٦. نفح ١/٥٣٣. والبتنونى رحلة الأندلس ٧١.

(٥٧) من الخفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤، وفى البيت استخدام غير مباشر لثلاثة مصطلحات بلاغية: التفات وتعريض، وإيحاء.

(٥٨) و. مرسيه، ملاحظات على نص طوق الحمامة، فى ذكرى هنرى باسيه ٢/٦٤ (ملاحظة على ص ١٥ من الطوق طبعة بتروف)، والمصادر المذكورة هناك. وانظر أيضا: الغزولى، مطالع البدور ٢/٨، وعنه نقلها نفح ٣/٤٩٦ - ٤٩٧. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد، ص ٣٠١ وما بعدها من هذا الكتاب.

متنوعة، مثل: الحجر والمرمر والفضة، والنحاس[٥٩]، وتمثل من الحيوانات الأسد[٦٠]، والفيل[٦١]، والسلحفاه[٦٢]. وهكذا يصف عبد الجليل بن وهبون فيلا من فضة على شاطئ بركة يقذف الماء فى قصر المعتمد:

ويفرغُ فيه مثلِ النّصلِ بدعٌ ... من الأفيالِ لا يشكو ملالَا
رعى رَطْبَ اللجينِ فجاء صلْداً ... تراهُ قلّما يخشى هُزالا[٦٣]

وفى الليل توقد الشموع على جانبى الماء، ويُدعى الشعراء إلى وصف مايرون، وقد أعجب أبو بكر بن الملح المعتمدَ بن عباد بانطباعاته عن هذا الموضوع، وتأتى على مقطوعة واحدة فحسب من مقطوعاته:

ومِشْعلَيْن من الأضواء قد قُرِنا ... بالماءِ والماءُ بالدولاب مَنْزوفُ
لاحَا لعينيّ كالنجمين، بينهما ... خطُّ المجرّةِ ممدودٌ ومعطوف[٦٤]

ويمكن أن نقارن بينها وبين أبيات الأعمى التطيلى فى وصف أسد رخام يرمى بالماء على بحيرة:

أسدٌ ولو أنّى أنا ... قشهُ الحسابَ لقلتُ صخرهْ
وكأنّه أسدُ السما ... ءِ يمجُّ من فيه المجرّه[٦٥]

وكثير من الأشياء الدقيقة من المواد النفيسة تأخذ شكل حيوانات، وقد قدّم المعتمد إلى الأميرة ابنة مجاهد أمير بلنسية غزالا من ذهب، وأهدى ابنه الرشيد هلالا من المعدن نفسه، فألهمه هذا البيت من الشعر:

بعثْنا بالغزال إلى الغزالِ ... وللشمسِ المنيرةِ بالهلال[٦٦]

---

(٥٩) ابن بشكوال، فى نفح ٤٦٤/١.

(٦٠) نفح ٥٦٥/١، وكان فى قصر الناعورة، ٥٣٠/١، فى مجلس المنصور بن أبى عامر، و٦٤٥/١، وفى بدائع البدائه لابن ظافر ٣٠٩، وكان فى منية المأمون بن ذى النون أمير طليطلة. وقد وصف ابن حمديس أسود البرك والنوافير فى بجاية، نفح ٤٩٤/١ – ٤٩٥. وهـ ماسيه، فى ذكرى ر. باسيه ٢٤١/١، وأومبير، مختارات عربية ص ١٠٢ – ١٠٧. ول. برشيه، قصر المنصور فى بجاية، فى المجلة التونسية، المجلد ٢٩، ١٩٢٢، ص ٥٠ – ٥٦.

(٦١) نفح ٢٦٣/٤، وقد وجدوا فى مجرى قناة مياه قرطبة الكبرى فيلا يعود إلى عصر عبد الرحمن الناصر. انظر: ر. كاستيخون، قرطبة فى عصر الخلافة، فى «مجلة الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون الجميلة فى قرطبة»، العام ٨، العدد ٢٥، يناير – ديسمبر ١٩٢٩، ص ٣١٥، ويحتوى صورا فتوغرافية. وفى صندوق عاج فى متحف فيكتوريا – ألبيرت فى لندن، ويحمل تاريخ ٣٥٩ = ٩٧٠ نشاهد فيلا يحمل هودجا. انظر: ج. فرانديس، عاجيات، ص ٧٢ – ٧٣ واللوحة ١٢.

(٦٢) نفح ٥٣٠/١.

(٦٣) من الوافر، ابن ظافر، بدائع البدائه ٣٧٣، وعنه فى نفح ٢٦٣/٤.

(٦٤) من البسيط، ابن ظافر، بدائع البدائه ٣٧٣، وعنه فى نفح ٢٦٣/٤.

(٦٥) من الكامل، نفح ٤٠٤/٣ و ٥٠٠/٣. ولير تشوندى وسيمونيت، منتخبات عربية، ص ١٣٤ رقم ١٥٧.
وفى إلبيرة كان يوجد فرس من حجر، ضاع أصله فى ليل الزمان، كان الغلمان يركبونه ويتلاعبون حوله إلى أن انكسر منه عضو، ويزعم أهل إلبيرة أن فى تلك السنة التى حدث فيها كسره تغلب البربر على المدينة فكان أول خرابها. انظر: الروض المعطار، رقم ٢٥ ص ٢٩/٣٧.
وكان على باب العقاب فى المرية صورة عقاب من حجر قديم بديع المنظر، نفح ١٦٢/١.

(٦٦) من الوافر، بدائع البدائه ١١٤، وعنه نقله نفح ٦١٤/٣، والذخيرة ٥٢٦/٢.

وكان المعتمد يملك دمية من البلّور، أو من العنبر طبقا لروايات أخرى، فى شكل جمل مرصّع بالذهب واللآلئ، وعيناه من ياقوتتين، ويُقدّر ثمنه إجمالا بما يقرب من خمس مئة مثقال، وأهداه فى يوم رقّ فيه مزاجه إلى شاعر صقلى نفى من وطنه ولجأ إلى إسبانيا، وهو أبو العرب الصقلى، فسارت بالخبر الركائب، وتهادته المشارق والمغارب[٦٧].

●●●

وكانت حلل مالقة الموشية مزيّنة بصور عجيبة[٦٨]، وأخرى مثلها يمكن أن تثير إعجابنا فى الأقمشة المعلقة على الجدران التى تزيّن قاعات قصر المأمون فى طليطلة[٦٩].

وكان المعتضد أمير إشبيلية يملك سكينا، أحد جانبيها مزيّن بغزال، والآخر بأسد، مما ألهم ابن جاخ الصباغ بالأبيات التالية:

أنا إنْ كنتُ غزالًا وغرا بى الليثُ جارًا
فبعيْنىَ احورارٌ يتركُ الناس حَيارا[٧٠]

إن معظم الصناديق، أو العلب، التى وصلتنا تحمل رسوما منقوشة فى شكل مشاهد، تضم شخصيات جالسة أو واقفة، تشرب أو تغنى، فى صحبة آلات موسيقية، فى رحلة صيد، مع حيوانات متواجهة، أو فى رفقة الصائدين، مستوردة من المشرق أو تقليدا لما هناك، وتشهد بإلهام بيزنطى أو ساسانى واضح، ولكن الشعراء لم يصفوها لنا[٧١].

---

(٦٧) نفح ٥٦٥/٣ و ٢٦١/٤ ودوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٩٣. ونذكر هنا بمناسبة الحديث عن التماثيل الحيوانية ثورين من الحجر، وجرادة من الذهب، اكتشفوها فى لورقة، وقد عرضنا لها فيما سبق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ من هذا الكتاب، عند الحديث عن الخرافات.

ونذكر أخيرا أن دوّارة هواء فى شكل ديك كانت تتوج قصر باديس بن حبوس فى غرناطة، غربى نهر الدارو، ولهذا كان يحمل اسم دار ديك الريح. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤/١ ١٣، مادة بنى زيرى، وكتب المادة ليفى بروفنسال. وعن الأساطير المتصلة بها انظر: نفح ٧٩٦/٢ طبعة أوربا. والعمرى، مسالك الأبصار، ترجمة جودفروى - ديمومبين، ص ٢٢٨، هامش ١ ص ٢٢٩. وترجمة أحمد زكى فى تكريم كوديرا ص ٤٦٧. ود. كونتريراس، دراسة وصفية للحمراء ص ٣٥٦ و ٤٣٢ و ٤٣٣. ومرمول كربخال، تاريخ ثورة الموريسكيين وعقابهم، الكتاب ا ف ٥. وجسبار رميرو، هواجس المسلمين الإسبان ورأيهم فى سقوط غرناطة الوشيك ومملكتها فى يد المسيحيين، فى مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة ومملكتها، عام ١٩١١، مجلد ١، عدد ٢ ص ١٤٩ - ١٥١.

(٦٨) نفح ٢١٩/١. وغرسية غومث، ترجمة رسالة فضل الأندلس للشقندى ص ١١٢ رقم ١٦١. وفى عام ٥٢٦ = ١١٣١ خاض جيش مرابطى بقيادة تاشفين بن على ضد المسيحيين قريبا من الزلاقة، فكان قلب الجيش يحمل «حمر الرايات بالصور الهائلة». انظر ابن الخطيب، الإحاطة ط ١ جـ ١ ص ٤٦٠. وأعمال الأعلام، مخطوطة الجزائر رقم ١٦٢٧، الورقة ٢١٢ وجه.

(٦٩) الذخيرة ١٣٠/٤.

(٧٠) من الرمل، ابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط، ٥٢ أ.

(٧١) كانت هذه العلب أو الصناديق تصنع فى ورش قرطبة، (فى مدينة الزهراء) فى القرن العاشر، وفى كونكة فى القرن الحادى عشر، كما أوضح ذلك من قريب ج. فرانديس، فى قائمة مسهبة، مع دراسة مفصلة، وإلى المؤلف نفسه يعود الفضل وإلى ليفى بروفنسال فى إظهار النقوش وقراءتها وترجمتها انظر: ج. فرانديس، العاجيات والكهرمان الإسبانية، فى سلسلة لابور، برشلونة ١٩٢٨، ٩ - ١١٣. وليفى بروفنسال، نقوش إسبانيا العربية، ١٨٦/١ - ١٩٢، رقم ١٩٣ - ٢١٠. وانظر أيضا: تراس، الفن الإسبانى الإسلامى، منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ١٧٣ - ١٧٦ واللوحة ص ١٨٢ - ١٨٣.

وندع جانبا ما يتصل بالقرن العاشر، ونكتفى بذكر أهم ما يتصل بالقرن الحادى عشر، والتى تمثل سخوصا، وهى

وأخيرا فإن مشاهد عديدة نقشت على حجر على امتداد القرن الحادى عشر[٧٢].

إذن عاش المسلمون تحيط بهم أشكال مصوَّرة وكانت توجد بكثرة على المبانى العامة والخاصة، باستثناء المبانى الدينية، وظل هذا التقليد متواصلا على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إلى أن تصل الحمراء بأسودها المنحوتة، وشخوصها المنقوشة فوق الجلد[٧٣].

---

١ – صندوق من العاج أهدى إلى عبد الملك بن المنصور فى عام ٣٩٥ = ١٠٠٥، ومصدره دير ليير، ويوجد الآن فى متحف نبرة، ورصيعة كبيرة تمثل مشهدا فى البلاط، وأخرى رحلة صيد، ونقلها فرانديس فى المصدر السابق ص ١٤، وميننديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ١٦٢/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٢، وتوماس أرنولد و أ. جييوم، تراث الإسلام، أوكسفورد، ١٩٣١، ص ١٤٢، صورة ٦٣.

٢ – صندوق صغير بلا غطاء فى متحف اللوفر، فى مجموعة دافيلييه، ويعود تاريخها احتمالاً إلى مطلع القرن الحادى عشر. ورصيعة تمثل مشهد شراب مع موسيقا، ونقله فرانديس، فى المصدر السابق ص ١٦ رقم ٢. وميننديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٩٠/١. و ج. سال و ج. بايو، مجموعة الشرق الإسلامى، باريس ١٩٢٨، ص ٣١، و اللوحة ٥.

(٧٢) نكتفى بالإشارة إلى حوض شاطبة، ويعود تاريخه فى ضوء زخرفته إلى القرن الحادى عشر، ويعرض فوق أحد جوانبه بعض المشاهد التى تتخللها شخصيات، ونقش متحف ستيفن جسيل فى الجزائر، ونرى فيه مشهد رحلة صيد: «فارس مسلح بقوس، يتبعه صقار يحمل أيضا قوسا فى يده اليمنى، ويمسك بها أيضا أرنبا بريا ميتا. ويرفع بيده اليمنى صقرا فوق كفل الحصان، ونخلة ترتفع خلف الصقار، وقد ذهب الإطار بجزء منها، تظله بجريدها». انظر: ج. مرسيه، حول حوض إسلامى فى متحف ستيفن جسل، فى حوليات معهد الدراسات الشرقية، كلية الآداب فى جامعة الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ – ١٩٣٥، باريس، ص ١٦٢ – ١٧٥. والحوض مؤرخ فى ٤٤ أو ٤٧.

(٧٣) يقول ابن خلدون عن الأندلسيين فى أيامه: «إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسرى إليهم من هذا التشبّه والاقتداء حظ كبير، كما هو الحال فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت». انظر: المقدمة، طبعة كاتر مير ٢٦٧/١، وطبعة القاهرة ١٤٧، وترجمة دى سلان ٣٠٧/١.

○ الفصل الخامس:

الحمّـامات

بين كل الأمكنة العامة التي يمكن أن نجد فيها التماثيل فإن الحمامات أكثرها زخرفة، وهي تجمع بين ما هو مفيد ولطيف، وفيها تلتقي بمشاهد من الأشكال الجميلة منحوتة أو مرسومة هدية للفكر والروح، إلى جانب الراحة البدنية التي يبعثها بخار الماء.

●●●

كانت الحمامات الطبيعية معروفة. وقد وصف لنا ابن زيدون تمثالا مصقولا من الرخام لغادة هيفاء، يزين القاعة الرئيسية في الحمام الذي كان يتردد عليه المعتضد مع حريمه للعلاج، وهذه المنشأة طبقا للشاعر هي:

جـاورتْ حَمّـةً مـشـيّـدةَ المـبْـ ـنَى، لبرقِ الرخـامِ فيه وميضُ[1]

وكانت الحمامات التركية منتشرة على نطاق واسع، ولم يدخلها العرب إلى إسبانيا فيما أظن، إذ كان الرومان قبلهم قد أنشأوا عددا من الحمامات العامة في المدن الكبرى. وفي العصر الإسلامي لم يكن هناك أي تجمع بشرى لا يملك حماما أو أكثر، وكان في قرطبة في القرن العاشر الميلادي، في عصر عبد الرحمن الثاني، ثلاث مئة حمام[2]، وبلغت ست مئة في عصر المنصور بن أبي عامر[3].

ولابد أن حمامات المدن كانت في نفس النظام الذي هي عليه اليوم، فثمة قاعة لخلع الملابس والراحة، وقاعة ثانية للموقد دون كِبْنٍ خاصة، وربما كانت هناك ثالثة ذات حرارة متوسطة[4]. وقد اهتم الشعراء بالقاعة الأولى فوصفوها لنا بكثرة، فالأرض عادة من الرخام، والجدران مكسوّة به أيضًا، والسطح في شكل قبة، بها عدد من المضاوي المغلقة بالزجاج الملوّن، ووصف لنا أبو عامر بن شهيد قاعة على هذا النحو، قبتها مزخرفة بأحمر وأبيض، وزجاج المضاوي أحمر اللون:

تحيَّـرتُ من طيـب حَـمّـامنـا يخيَّـلُ لي أن فيـه الـفـلقْ

فمن حمرةٍ فوقـه وابيضـاضٍ كخـدّ الحبيبِ إذا مـا شَـرِق

(١) من الخفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤٠، البيت السابع، وانظر فيما سبق ص ٢٩٦ من هذا الكتاب، وفيما يتصل بالحمامات انظر المثل الأندلسي المذكور فيما سبق ص ٢٩٦ الهامش رقم ٥٦.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٤٧، وترجمته ٣٨٣.

(٣) نفح ١/٥٤٠

● قلت: هذا الرقم في طبعة أوربا، أما في طبعات القاهرة وإحسان عباس فهو تسع مئة (المترجم

(٤) عن هذا الموضوع انظر: وليم وجورج ماسيه، الآثار العربية في تلمسان ١٦٢ – ١٦٩.

رأى الدهرُ ماشذَّ من حسنِهِ ... فسدّ كوى سقفهِ بالشفق[٥]

وحاول شعراء آخرون أن يبرزوا الفرق الواضح بين الحرارة خانقة والماء طريا. يقول ابن بقى:

حمّامنا كزمان القيظ محتدمٌ ... وفيه للبرد صِرٌّ غير ذى ضرر
ضدانِ ينعم جسم المرء بينهما ... كالغصن ينعم بين الشمس والمطر[٦]

ويعبر الأعمى التطيلى عن الفكرة نفسها، يقول:

يا حسنَ حمّامنا وبهجتَهُ ... مَرْأى من السحر كلُّهُ حَسَنُ
ماءٌ ونارٌ حواهما كنفٌ ... كالقلبِ فيه السرورُ والحَزَنُ

ويقول فى مقطوعة أخرى:

ليس على لهونا مزيدُ ... ولا لحمّامنا ضريبُ
ماءٌ وفيه لهيبُ نارٍ ... كالشمس فى ديمة تصوب
وابيضّ من تحته رخامٌ ... كالثلج حين ابتدا يذوب[٧]

ولم تكن الحمامات كلها على درجة عالية من النظافة إذا صدقنا أبو جعفر بن سعيد حبيب حفصة الركونية:

ياربّ حمّام لعنّا بما ... أبدى إلينا كلُّ حمّام
أفْقٌ له قَطْرٌ حميمٌ كما ... أصمتْ سهامٌ من يدىْ رامى
يخرقُ شُحبًا للدخانِ الذي ... لاح لغيم العارضِ الهامى
وقَيِّمٌ يجذبنى جَذْبةً ... وتارةً يكسرُ إبهامى
ويجمع الأوساخَ من لؤمهِ ... فى عضدى قصدا لإعلامى
وازدحمَ الأنذال فيه وقد ... ضجُّوا ضجيجًا دون إفهام
وجملة الأمر دخلْنا بنى ... سامٍ وعدْنا كبنى حام[٨]

ويرى شاعر مجهول أن الحمّام ملجأ يبكى فيه العاشق بكامل حريته رحيل محبوبه:

ولم أدخلِ الحمامَ يوم رحيلهم ... طلابَ نعيمٍ قد رضيتُ ببوسى
ولكن لتجرى دمعتى مطمئنّةً ... فأبكى ولا يدرى بذاك جليسى[٩]

---

(٥) من المتقارب، الذخيرة ٣٠٢/١، وعن معنى كلمة «مضواء» انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ١٥/٢.

● قلت: وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ضمن مقطعات لعدد من الشعراء قالوها فى الحمام، وأوردها ابن بسام بمناسبة مقطوعة لابن شهيد عن حمام له، طلب منه المنصور بن أبى عامر أن يتخلى عنه لتوسعة الحمام الخاص به. ووهم المؤلف فظن الأبيات التى هنا لابن شهيد، وهى فى الحق للمنفتل. (المترجم).

(٦) من البسيط، الذخيرة ٣٠٣/١، ونفح ٣٤٧/٣.

● قلت: فى النفح البيت الثانى منسوب للأعمى التطيلى إجازة (المترجم).

(٧) المقطوعة الأولى من المنسرح، والثانية من البسيط، الذخيرة ٣٠٢/١ و ٣٠٣، ونفح ٣٤٨/٣.

(٨) من السريع، نفح ١٨٢/٤.

● وقد اكتفى المؤلف بالبيت الأخير، وجئت بالمقطوعة كاملة (المترجم).

(٩) من الطويل، الذخيرة ٣٠٢/١.

وإذا كان الحمّام يمد الجسم بلذة حسية لاشك فيها، فهو يُحدث أيضا، بسبب الاختلاط السائد فيه، احتكاكات يرتضيها بعضهم مبتهجا، ويتحملها آخرون ضائقين، وطالما أبرز الشعراء فى قصائدهم هذه التسوية فى الظروف الإنسانية التى يحدثها العرى، يقول ابن المغلّس:

ومنزلُ أقوامٍ إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغْدُهُ ورئيسُهُ
يُنفّس كرْبى إذ ينفّس كربَهُ ويعظم أُنسى إذ يقلّ جليسُهُ[١٠]

وقد انزعج أبو الحسن مختار الرشيقى قاضى زهير أمير المرية الصقلبى حين دخل حمّاما فجلس بإزائه عامى أساء إليه:

ألا لُعن الحمّامُ دارًا فإنّه سواءٌ به ذو العلم والجهلِ فى القدر
تضيع به الآدابُ حتى كأنّها مصابيحُ لم تنفق على طلعةِ الفجر[١١]

●●●

ويبقى وصف الحمام ناقصا إذا لم نذكر هنا ما قيل بمناسبة الصور والتماثيل[١٢]، ذلك أن صور الحمامات سواء كانت تماثيل أم رسوما أم فسيفساء تكثر فى هذه المنشآت العامة، ومن المحتمل أن وجودها لم يكن لغايات جمالية فحسب، لأن تمثال طالقة الذى نقل إلى حمام الشطارة فى إشبيلية أحدث كثيرا من المشكلات الفكرية فى عقول الشباب، لأن صوره الفاضحة لم تكن تثير غير الأفكار الشهوانية، وهو تقليد إغريقى وفارسى فى الوقت نفسه واصل سيره عبر التاريخ، وأقدم شاهد عليه فى العالم الإسلامى ما تثيره حمامات قُصير عَمْرة. ويمكن أن نضيف إلى كل هذه الانفعالات التى تؤثر أن نعتقد أنها فنية خالصة انفعالات أخرى يثيرها منظر الأجسام الجميلة العارية، دون أدنى خجل مزيّف، ومثلها لا يمكن إلاّ أن يزيد المشاعر إثارة. ومن السهل علينا بعد كل الذى قلناه عن الحمامات أن نلتقط أصل هذا الحب وامتداده، والذى لا نجرؤ على تسميته فى مجتمعنا المنتشى بالمشاعر المسيحية، ولكنهم قديما، فى المجتمعات الإغريقية والرومانية، كانوا يظهرونه بحرية تامة، وأحد هذه الأسباب الجوهرية يجب أن يكون ما أشرنا إليه من قريب فى المجتمع الإسبانى الإسلامى[١٣]، فالقرآن والحديث النبوى يدينان فى صراحة ويقوة اللواطٍ وباءً اجتماعيا[١٤]، ولو أنه واصل سيره فى الحياة

(١٠) من الطويل، نفح ٣/٣٥٢.

(١١) من الطويل، نفح ٣/٣٨١، ويرى ابن خفاجة فى الحمام:

أهلاً ببيت النار من منزلٍ شيّدَ لأبرارٍ وفجّارِ
نقصده ملتمسى لذّةٍ فندخل الجنّةَ فى النار

من السريع، الديوان، القطعة ٣٢٠، ص ٣٧٣، نهاية الأرب ٢/٣٩٩.

(١٢) انظر فيما سبق ص ٢٩٦ الهامش رقم ٥٨ من هذا الكتاب.

(١٣) أوضح ماسينيون فى روعة الأسباب العميقة لهذا البلاء، يقول: «يجب أن نوضح فيما يتصل بهذا الموضوع المخجل، وخطورته لا يمكن إخفاؤها من وجهة النظر الاجتماعية، أن رذيلة اللواط رغم ما قاله بورتون وتبهانى ليست وليدة منطقة مناخية محدّدة، ولا جنسا بعينه، فرسا أو إغريقا، وإن زينوه بتعلات فلسفية، وليسوا مخترعيه فهو موجود فى صورة بدائية عند كل الشعوب، حيث يلجأ السادة، كالحيوانات، إلى القهر أو الحيلة لإخضاع أرقائهم جنسيا، دون تفرقة بين الذكور والإناث منهم، ويعاقبونهم على إخطائهم بإخضاعهم بعنف لإرضاء شبقهم». انظر: الحلاج، ٧٩٧ رقم ٣.

(١٤) النصوص الدينية المتصلة بهذا الموضوع، من القرآن والحديث، جمعها النويرى فى كتابه نهاية الأرب ٢/١٨٩ – ١٩٦.

مثل كل المحرّمات[١٥]. وإذا حصرنا أنفسنا فى إسبانيا الإسلامية فلن يكون صعبا علينا أن نقدم عددا كبيرا من الشواهد المأخوذة من المؤرخين[١٦]، ومن مؤلفى رسائل الحسبة[١٧]، ومن الشعراء بخاصة. ومن الشائع أن تشير القصائد إلى أصحاب الوجوه الجميلة من الصبيان، مسلمين ومسيحيين ويهودا، وتذكرهم عادة بأسماء: غلام وسيم، وفتى جميل، وغلام أمرد. وعندما تبدأ لحاهم فى النمو يسمونهم مُعَذَّر، من العذار، أى غلام غطىَّ الشعر خديه[١٨]. ويصفون هؤلاء الغلمان أيضا بأنهم مخنثون[١٩] وجوى[٢٠].

يمكن القول إن اللواط كان ملحوظا فى كل بلاطات ملوك الطوائف. ويكفى أن نشير هنا إلى غرام المعتمد بابن عمار وبمملوكه سيف[٢١]، وغرام المتوكل بغلام، وسخر منه مضحك يدعى الخطّارة تحت تأثير الشراب[٢٢]، ورفيع الدولة ابن المعتصم بغلام لا نعرف اسمه[٢٣]، والمؤتمن أمير سرقسطة بواحد من خدمه المسيحيين[٢٤]. وتغنى الشعراء أنفسهم فى قصائدهم بالعلاقات الغرامية غير المشروعة بالغلمان[٢٥]، وبعضهم لم يكن يبالى بالنساء على نحو واضح وبصورة قبيحة[٢٦]، وآخرون كانوا لوطيين عرضا[٢٧].

والقصائد التى تغنى فيها الشعراء بجمال هؤلاء الغلمان اكتفت بأن تردد ما قاله الشعراء المشارقة،

---

(١٥) انظر ماسينيون، المصدر السابق ص ٧٩٧ رقم ٢. وفيما يتصل بمدينة فاس انظر: ليون الأفريقى، طبعة شيفير ٨٧/٢ و ١٢٧، ومقالنا: الشعر فى فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، فى مجلة هيسبيريس المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، ص ٣٧ – ٣٩.

(١٦) البيان المغرب ٤٩/٣ و ٢٦٧، ونفح ٤٤٧/٣ و ٤٥٠ و ٤٥٣، (وأبحاث ط ١ ص ١٨٢، ونفح ٣٦٠/٢ و ٤٦١ – ٤٦٢ و ٤٧٠ طبعة أوربا)، ودوزى، ملحق المعاجم ٥٤٧/٢، مادة «استلقاه»، وابن حزم، طوق الحمامة ١٨١، وترجمة نيكل ٢٠٧ – ٢٠٨، والمدخل له ٢٨ – ٢٩، والمعجب ١٠٣، وترجمته ٩٩.

(١٧) السقطى، رسالة فى الحسبة ص ٦٨، ومعجمها ٣٦، وابن عبدون، رسالة فى الحسبة ص ٢٤١، ومعجمها ٢٦٥.

(١٨) ومن هنا نشأ كل الأدب الذى يقف إلى جانب العذار أو ضده، الذخيرة ١٣٩/١ – ١٥٢، ونهاية الأرب ٧٥/٢ – ٨٦.

(١٩) ربما أصل الكلمة أخو الإناث.

(٢٠) ابن عبدون، رسالة فى الحسبة ص ٢٤١، والمعجم الخاص بها ٢٦٥، والمعجم ٨٤ و ٣٦٠، ودوزى، ملحق المعاجم العربية ٣٤٣/١.

(٢١) المعجب ١١٧ وترجمته ٩٩، ونفح ٧٣/٤، ودوزى، ملحق المعاجم ٥٤٧/٢، والقلائد ٨، وعنها فى «بنو عباد» ٤٢/١، ونفح ٢٨٢/٤، والمعجب ١٠٣ – ١٠٤، وترجمته ٨٨، والذخيرة ٤٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٩٩/١.

(٢٢) نفح ٥٤٣/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٨٢.

(٢٣) المطمح ٢٢٣.

(٢٤) القلائد ٨٤ و ٨٥، ونفح ٦٥٤/١.

(٢٥) مثل أبى بكر بن قزمان، الديوان فى أكثر من مكان، وعبد الجليل بن وهبون فى القلائد ٢٤٤ – ٢٤٥.

(٢٦) مثل ابن قزمان، الديوان، القطعة ١٣، الدور ٨ والقطعة ٣٠ و ٥١ و ٦٢ و ١٢٣. وأبو القاسم بن العطار، فى القلائد ٢٨٤ و٢٨٥ و٢٨٦ و٢٨٧ و٢٨٨.

(٢٧) مثل ابن اللبانة، فى القلائد ٢٤٩ و ٢٥٢، وأبو الحسن البرقىّ البلنسى فى المطمح ٣٥٧، وابن الحاج اللورقى، فى القلائد ١٤٤، وانظر فيما سبق ص ٢٦٨ من هذا الكتاب، وابن سارة، فى القلائد ٢٦٠ و٢٦٩ و٢٧٣، وابن المرابط، فى القلائد ٢٩٥. وأشد هذه الحالات إثارة حالة ابن عمار سلبيا وإيجابيا، فى القلائد ٨٦ – ٨٧.

وبخاصة أبو نواس وبشار وابن لرومي[٢٨] عن الخال، وأحيانا الشأمة والعذار[٢٩]. ولا يبدو لنا ضروريا أن نلح على هذا الموضوع[٣٠]، ومع ذلك سوف نذكر بعض الشواهد الشعرية لنظهر أن الشعراء عبروا عن اهتمامهم بالغلمان بالطريقة نفسها التى تعاملوا بها مع المرأة.

يقول أبو القاسم بن العطار:

وشْنانُ ما إنْ يزالُ عارضُه يعطف قلبى بعطفة اللام
أسلمنى للهوى فواحزنا إنْ بزِّفى عقّتى وإسلامى
لحاظه أسهمٌ وحاجبه وإنسانُ عينهِ رام[٣١]

ويقول ابن الزقاق:

وأغيدَ طاف بالكؤوس ضُحيً فحثّها والصباحُ قد وضحا
والروضُ أهدى لنا شقائقَهُ وآسهُ العنبرىُّ قد نفحاَ
قلنا: وأين الأُقاح قال لنا: أودعته ثغر من سقى القدحا
فظلَّ ساقى المدام يجحد ما قالَ فلمّا تبسم افتضحا[٣٢]

لقد عبرّ الشعراء عن الشغف الذى يثيره الغلمان بألفاظ حرَّى، ولكن دون أن يتركوا أنفسهم تظل فى الفحش طويلا مما يدل بوضوح على أن «الغلمنة»، سواء فى إسبانيا الإسلامية أم فى المشرق، كانت تحط من قدر الرجل.

إن زهرة الحب العذرى السامية لا تنمو ولا تزدهر إلا فى حديقة المرأة، وهذا ما سوف تظهره فى فصل تالٍ.

---

(٢٨) يقول ما سينيون، الحلاج ٧٩٧ رقم ٢: «لقد تغنى عدد من كبار الشعراء أمثال بشار بن برد، وأبو نواس، وابن الرومى، راضين بهذا الأمر المخجل، حتى دون أن يستمتعو به واقعا (ملاحظة المبرد على نفسية أبى نواس، والشفافية التى لا يكن تقليدها، وتلتقى مع فولتير تماما، وتصطبغ بأسلوبه كثيرا، فى وصفه التزيه للحب الشاذ، تجعله شريرا أكثر منه أدبيًا).

(٢٩) عن هذا الموضوع انظر: النويرى، نهاية الأرب ٧٣/٢ - ٨٦، وشرف الدين الرامى، أنيس العشاق، رسالة فى المصطلحات المجازية المتصلة بوصف الجمال، ترجمه من الفارسية وعلّق عليه كليمنت أوار، مكتبة المدرسة العليا للدراسات، المجلد ٢٥، باريس ١٨٧٥، ص ٤٢ - ٥٤، ودى سلان، ملاحظات عن المعنى المجازى لبعض الكلمات التى توجد كثيرا فى الشعر العربى، فى المجلة الأسيوية، السلسلة الثالثة، المجلد ٧ عدد ١٨٣٩، ص ١٦٩ - ١٧٥.

(٣٠) ترجمنا بعض الأبيات عن العذار بمناسبة الحزن، انظر فيما سبق ص ٢٦٨ و٢٦٩ من هذا الكتاب

(٣١) من المسرح، القلائد ٢٨٨، ونفح ٣٠٢/٤.

(٣٢) من المسرح، الديوان ص ١٢٤ القطعة رقم ١٩، والقلقشندى، رسالة فضل الأندلس، فى نفح ٢٠٠/٣، وترجمة غرسية غومث لها ٧١/٧٠، وتوجد أمثلة أخرى فى ديوان ابن قزمان، وبخاصة القطعة ١١٥ و١١٦، (ص ٢٧٠ - ٢٧٣ فى طبعة نيكل، وترجمتها أو تحليلها ص ٤٢٦ - ٤٢٨).

● قلت: فى كتاب غرسية غومث الذى ترجمته بعنوان «مع شعراء الأندلس والمتنبى»، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٦، ص ١٢٦ دراسة جيدة عن التصوير الجديد فى هذه الأبيات، فقد أضفى عليها الشاعر طابعا مسرحيا مأسويا ليخرج بها عن الاستعارة فى صورتها التقليدية. (المترجم).

○ الفصل السادس:

الألعاب الرياضية

لكى ينسى الأندلسيون مشاغلهم اليومية أضافوا إلى سلوة الحمام متعة الاستمتاع بالألعاب والتمرينات البدنية. ونعرف من بينها لعبتين شغف بها الأندلسيون إلى حد كبير، وهما: لعبتا الكُراج والشطرنج.

كانوا يلعبون الأولى بقطع مصنوعة من الخشب فى شكل حصان تُسمَّى كُرَاج، من الكلمة الفارسية القديمة كُرّاج، والتى تطلق على المهر أو خيل السباق، وكانت الراقصات يعلّقن هذه القطع فى أقبيتهنّ، ولم يكن غرام الرجال بهذه اللعبة بأقل من شغف الصبيان. وقد بوغت ابن مرتين قائد المعتمد فى بيته فى قرطبة، من قبل فصيلة من جنود أعدائه فى لحظة كان يلعب فيها الكراج[1].

أمّا الشطرنج فكان اللعبة المفضّلة لدى المسيحيين والأندلسيين على السواء، وكان المعتمد يملك شطرنجا ذا قاعدة بديعة الصنع، وأحجاره من العاج وخشب الصندل المطعم بالذهب[2].

وإليك بعض الأشعار التى تتصل بهذه اللعبة. يقول ابن مُقانا:

لَعِبتْ أسيافُه عاريةً ... كمخاريقَ بأيدى اللاعبين[3]

ويشبّه شاعر مجهول مناورات ألفونسو السادس التى مكّنته من احتلال طليطلة بمباراة شطرنج:

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المعارَ فما ... فى العُرْفِ عاريةٌ إلّا مردّاتُ

ألم تروا بيدقَ الكفار فرزنةً ... وشاهنا آخر الأبياتِ شهماتُ[4]

---

(١) انظر: الذخيرة ٢٧١/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣٢٤/١، ودوزى، ملحق المعاجم العربية ٤٥٤/٢، وانظر ايضًا: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٦١/٢، وترجمة دى سلان لها ٤٢١/٢، والجواليقى، المعرب ١٣٠، وجود فروى ديومبين، Sur le cheval jupon et al-kurraj، فى تكريم وليم مرسيه ص ١٥٥ – ١٦٠.

(٢) لقد أشرنا فيما سبق كيف أن ابن عمار وزير المعتمد بن عباد استطاع بفضل مباراة شطرنج انتصر فيها على الفونسو السادس أن يجعل الملك المسيحى يجلو عن الأراضى التى احتلها فى مملكة إشبيلية، فيما يتصل بهذه القصة انظر: المعجب ١١٩ – ١٢٠، وترجمته ١٠١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ٣ ص ١٠٢، ومجموعة مدام إ. شتبرك، قراءة س. فليرى. انظر: ميجون، موجز الفن الإسلامي: الفنون التشكيلية والصناعية، جـ ١ ص ٣٥٨.

وقد وصلنا بيذقا شطرنج من العاج، أحدها يعود إلى عام ٤٦٠ = ١٠٦٧، ويعود الآخر إلى العصر نفسه فيما يبدو، ويمثلان فى وجهيها امرأة ملفوفة فى دثار، وتجلس فوق عرش، وحولها طاووس، وغزالتان، ومحارب مسلح بقوس وسهم، انظر: ج. فرانديس، العاجيات والكهرمان الأسود الإسبانية، ص ٩٢ – ٩٣، ورقم ٢١.

(٣) من الرمل، نفح ٤٣٣/١.

(٤) من البسيط، نفح ٣٥٢/٤.

ويقول ابن اللبّانة فى رثاء المعتمد حين توفى هذا فى منفاه:

والدهرُ فى صِبغة الحرباءِ منغمسٌ ... ألوانُ حالاتِهِ فيها استحالاتُ
ونحن من لُعبِ الشطرنج فى يده ... وربّما قُمِرتْ بالبيدقِ الشاةُ[٥]

وفضلا عن لعبتى الكراج والشطرنج، ولا تتطلب الأولى غير مهارة يدوية نسبية، على حين تحتاج الثانية إلى كثير من التأمل والحساب، كان المسلمون يمارسون ألعابا أخرى تدخل فى نطاق الرياضة البدنية الحقة، مثل «البولو» أو لصيد بمساعدة الكلاب أو الصقور.

وفيما يتصل بالبولو لا نجد إلا إشارات لا جديد فيها لأنها توجد فى الشعر المشرقى. كما فى هذا البيت الذى يصف فيه أبو المغيرة بن حزم البدر، وهو ذاهب إلى لقاء فينوس فيما يبدو:

لمّا رأيتُ الهلالَ منطويًا ... فى غرّة الفجْر قارنَ الزُّهَرهْ
شبَّهتُه والعيانُ يَشْهدُ لى ... بصولجانٍ انثنى لضرْب كُرهْ[٦]

إن النصوص الشعرية قليلة جدا فيما يتصل بالبولو، وعلى النقيض من ذلك نجد مادة وفيرة عن القنص بالكلاب أو الصيد بالصقور. ويسترعى انتباه الشاعر فى هذين اللونين من الصيد الكلبَ والصقرَ اللذين يصيبان الفريسة أكثر من الفارس وجواده. وكلب الصيد السلوقى[٧] أكثر الحيوانات وصفا فى الأدبين العربى والغربى[٨]، وقد اشتهرت الأبيات التى قالها ابن المرغرى، وهو نصرانى من المستعربين كان فى خدمة المعتمد[٩]، ولكن أبيات ابن خفاجة فى وصف الكلب، ووردت فى ديوانه، أكثر جمالا:

وبكلِّ نائى الشأْوِ أشدقَ أخْزرٍ ... طاوى الحشا حالى المقلَّدِ ضارِ
يفترُّ عن مِثْلِ النصالِ وإنّما ... يمشى على مثلِ القنا الخطّارِ
مُسْتقريًا أثرَ القنيصِ على الصفا ... والليلُ مُشتمِلٌ بشمْلةِ قارِ
من كلِّ مسودٍّ تلهَّبَ طرفُهُ ... ترميكَ فحمتُهُ بشعْلةِ نارِ
ومورَّسَ السرْبالِ يخلع قدّهُ ... عنْ نجمِ رَجْمٍ فى سماءِ غُبارِ
يَستنُّ فى سَطْر الطريق وقد عفا ... قِدمًا فيقرأُ أحْرفَ الآثارِ

(٥) من البسيط، المعجب ١٤٧، وترجمته ١٢٤. ويشبه أبو الفضل بن شرف رجلا، صغير الرأس، ضخم الجسم بأنه يشبه البيدق:

يا من حكى البيذق فى شكله ... أصبح يحكيك وتحكيه
أسفله أوسع أجزائه ... ورأسه أصغر ما فيه

الأبيات من السريع، نفح ٣٧١/٣.

(٦) من المنسرح، المطمح ٢٠٣، وعنه فى نفح ٦٢١/١، والسيوطى، رصف العال فى وصف الهلال، فى المجموعة الأدبية ٧٥.

(٧) عن معنى هذه الكلمة انظر: دوزى ملحق المعاجم العربية ٦٧٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية ١٣٢/٤، وكتب المادة أ. جروهمان.

(٨) ترد الإشارة إلى كلاب الصيد فى الشعر المشرقى، وبخاصة فى وصف رحلات الصيد، أو الطرديات كما تسمى، وتتضمن دواوين: أبى نواس وابن المعتز وأبى فراس والمتنبى قصائد مطولة موقوفة على هذا الغرض.

(٩) انظر: نفح ٥٢١/٣، ولويس شيخو، شعراء العرب النصارى، جـ ٣ ص ٢٨١.

● قلت: فى نفح الطيب المرعزى، وفى المرب فى حلى المغرب لابن سعيد (٢٦٤/١) المرعز، وكلاهما تصحيف، وصحة الاسم المرغرى، لأن أصله إسبانى Margari (المترجم).

عـطفَ الضمـورُ سـراتَـه فكـأنّـه والنقـعُ يحجبُـه هِـلالُ سِـرار[١٠]

●●●

ويجيء الصيد بالصقور فى المرتبة التالية للصيد بالكلاب المدربة، وقى تقديرا كبيرا من الأندلسيين، وكان الخلفاء الأمويون، ومن بعدهم ملوك الطوائف، شغوفين حقا بهذا اللون من الصيد، «وكان صاحب البيزرة فى العهد الأموى يهتم بصيد العاهل الأموى فى الفترة التى تكثر فيها الغرانيق فى سهل الوادى الكبير، وكان الإقبال عليها حينئذ شديدا ومتابعتها أشد صعوبة[١١]»

وتشهد الصور التى تتضمنها النقوش والرسوم التى على علب العاج، وتعود إلى القرن الحادى عشر الميلادى، بأن شغف الأندلسيين بالصيد فى تلك الأيام كان شيئا لمّا يزل بالغ القوة، وهو ما تؤكده الوثائق المكتوبة، سواء كانت كتبا حرّرها المؤرخون أم قصائد أنشدها الشعراء.

وبالدقة، خلال رحلة صيد، فى يوم مطير، سقط أبو مروان بن رزين من على جواده، وجرح أثناء سقوطه جرحا خطيرا، وكان عليه أن يلزم الفراش ردحا من الزمن فعيّره أعداؤه بهذا[١٣]. وطلب المعتمد إذنا من والده فى أن يقوم برحلة صيد يصطاد فيها أرانب برية مرة، وفى أخرى أرانب بريّة وحجلا[١٤]:

وسـاعـةٍ لـلزمـان مُـسـعـفـةٍ قنصتُ فيـهـا أرانبًـا وحـجـلْ
فـلا أرانى الإلـهُ مـنـك رضًـا إنْ لم أصدْ من عداكَ كلَّ بطل[١٥]

كانوا يصطادون الطيور ذات الريش بخاصة، باستخدام الطيور الجارحة أو بدونها، وهناك مقطوعتان لابن زيدون كتبهما فى صورة ألغاز، كتلك التى استخدمناها فى دراسة طيور الزينة، تقدم لنا قائمة يمكن أن نعتبرها أقل استيعابا للطيور التى كان يلاحقها الصيادون، ونجد من بينها: الرهو، أو الغرنيق، والعقعق والحبرى والديك والقَبَج، أو الحجَل، والسُّمانة والحمامة والشِقراق والقُمْرى، والطيور الجارحة مثل: النسر والعقاب والصقر والبازى والشاهين[١٦].

أما طيور القنص المفضّلة فهى الصقور، وكانت تربى فى إسبانيا، ويقدرون منها بخاصة ما كان من حول لشبونة[١٧]، وفى جبال الشرق والجزائر الشرقية، ويقدم تقويم قرطبة لعام ٩٦١ م معلومات جيدة

---

(١٠) من الكامل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢، ص ٣٣، الأبيات ٢٩ - ٢٤، ونفح ٦٨٤/١، والنويرى، نهاية الأرب ٢٦٤/٩ (أربعة أبيات)، والذخيرة ٥٩٤/٣، والغزولى، مطالع البدور ٢٦٢/٢ (أربعة أبيات).

(١١) انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٥٥ ورقم ٨.

(١٢) انظر: جورج مارسيه، حول أسفل نقش إسلامى فى متحف ستيفن جسيل، فى حوليات معهد الدراسات الشرقية فى الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٦٢ - ١٧٥، وانظر فيما سبق ص ٢٩٩ من هذا الكتاب.

(١٣) القلائد ٥٣، وابن الخطيب أعمال الأعلام ٢٠٧.

(١٤) المعتمد، الديوان ٣٢ و ٤٢.

(١٥) من الوافر، المعتمد، الديوان ٤٤.

(١٦) ابن زيدون، الديوان ٥٩٥ - ٢٢٦.

(١٧) القزوينى، آثار البلاد ، طبعة وستينفيلد، ص ٣٧٢، والقلقشندى، صبح الأعشى ٢٢٢/٥، اعتمادا على أبى الفدا فى تقويم البلدان.

عن تربية الصقور[١٨]، ويتحدث بخاصة عن الصقور التى أصلها من الجزر القريبة من بلنسية.

وصندوق العاج الصغير المعروف صندوق الأمير المغيرة، ويعود إلى عام ٣٥٧ = ٩٦٨، والمحفوظ فى متحف اللوفر فى باريس، مزخرف ببعض الرسوم البارزة، وأحدها يمثل شخصين يرتدى كل واحد منهما عباءة علّق أسفلها فى الحزام الذى فى وسطه، لتسهيل حركتهم، ويتوجهون إلى عش ليلتقطوا صغار صقر فى حماية أمهم[١٩]. أمّا الوثيقة الأكثر إثارة من القرن الحادى عشر فتتمثل فى رسالة كتبها أبوعبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية المخلوع إلى المنصور بن أبى عامر أمير بلنسية وحفيد المنصور العظيم يعلمه فيها بوصول الشّوْذانقات[٢٠].

وقد طلب الوزير الكاتب أبو بكر بن القَبْطُورنُة من المنصور بن الأفطس أمير بطليوس أن يهديه بازيًا:

يـأيّهـا الملكُ الذى آباؤهُ شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوّلِ
حلّيتَ بالنعَمِ الجسّامِ جسيمةً عنقى، فحلِّ يدى كذاك بأجدلِ
وامننْ به ضافى الجناحِ كأنما حُذيتْ قوائمه بريحِ شمألِ
مُتلفتًا والكلُّ ينثر بُرْدَه منهُ على مِثْلِ اليمانى المحمَّلِ
أغدو به عجبا أصرّفُ فى يدى ريحًا وآخذُ مُطلقًا بمكبّلِ[٢١]

وتوجه الوزير نفسه بأبيات إلى أبى محمد بن عبدون يطلب الشيء نفسه، ونلحظ وجود كلمتين فارسيتين: شاهين ودستبان، مما نظن معه أن الصيد بالصقور فارسىّ الأصل:

مضى الأنس إلّا لوعة تستفزّنى إلى الصيد إلّا أنّنى دون شاهين
فمنّ به ضافى الجناح كأنّه على دَستبان[٢٢] الكفِّ بعضُ السلاطين[٢٣]

وبالطريقة نفسها توجه عبد الجليل بن وهبون المرسى إلى المعتمد فى إحدى رحلات صيده:

وصارمٍ فى يديْك مُصلتُ لو كان للسيف فى الوغى روحُ
يجتابُ مما لبسْتَ صافية لها على معطفيه توشيح
متّقدُ اللحظِ من شهامته فالجوُّ من ناظريْه مجروح
والريحُ تهفو كأنّما طلبت سبيلَها فى يمينك الريح[٢٤]

وجلس المعتمد ذات يوم والبزاة تعرض عليه، فاستحث الشعراء فى وصفها، فصنع ابن وهبون بديها:

---

(١٨) تقويم قرطبة ٢٥ (فى شهر يناير. و ٤١ (فى شهر مارس) و ٥٨ (فى شهر مايو) و ٩٢ (فى شهر سبتمبر).

(١٩) جورج مرسيه، حول أسفل نقش إسلامى ص ١٦٩ الهامش ٤، و ج. فرانديس، العاجيات ص ٧١ – ٧٢.

(٢٠) القلائد ٦٣. ومن الجدير بالذكر ن النصوص النثرية حين تتحدث عن الصيد بالصقور تفضل استخدام كلمه «الشوذانقات»، انظر: تقويم قرطبة، والروض لمعطار ٦، وملحق المعاجم العربية ١/٧٣٨ – ٧٣٩، مادة شوذانق، يعطى دوزى لهذه الكلمة أكثر من صورة.

(٢١) من الكامل، نفح ٤/٣١٣.

(٢٢) دستبان كلمة فارسية معناها:

(٢٣) من الطويل، القلائد ١٥٤.

(٢٤) من المنسرح، القلائد ٢٤٥.

لـلصيـدِ قـبـلك سنّـةٌ مـأثـورةٌ   لـكـنّهـا بـك أبـدعُ الأشـيـاءِ
تمضي الـبـزاةُ وكلّما أمْضيتـهـا   عـاطيْتَهـا بخـواطـر الـشعـراء

فاستحسنها الأمير وأسنى جائزته[٢٥].

ويقدم لنا ابن خفاجة أبياتا أخرى عن الصيد بالصقور:

طردَ القنيصَ بكلِّ قيْدِ طريدةٍ   زَجِـلَ الجنـاحِ مُـوَرّد الأظفـارِ
مُـلتـفَّـةً أعـطافُـهُ بـحـبـيـرةٍ   مـكـحـولـةً أجـفـانُـهُ بِـنُـضـارِ
يُـرمى بـه الأمـلُ القصيُّ فينثني   مخضـوبَ راءِ الـظُّفْـرِ والمنقارِ[٢٦]

وبعض الصور مادتها مأخوذة من الصيد بالصقور، يقول أبو الحسن بن السِّيد البطليوسي:

والليـلُ مُنحفـزٌ يـطيرُ غـرابُـهُ   والصبـحُ يـطردُهُ ببـازٍ أشهبِ[٢٧]

ويقول ابن اللبانة يصف لعب الأسطول يوم المهرجان (أعياد سان خوان):

طـارتْ بنـاتُ المـاءِ فيـه وريشُهـا   ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلك شوذقُ[٢٨]

(٢٥) من الكامل، نفح ٤/٢٦٠.

(٢٦) من الكامل، الديوان ص ٣٥، ونفح ٦٨٤/١، وهي الأبيات ٢٦ - ٢٨ من القصيدة.

(٢٧) الكامل، نفح ٧٢/٤، وانظر فيما سبق ص ٢٠٦ من هذا الكتاب.

(٢٨) انظر فيما سبق ص ١٩٥ و١٩٦ من هذا الكتاب.

○ الفصل السابع:

الحياة الحربية

كانت لعبة البولو والصيد بالكلاب والقنص بالصقور مقدمة للنشاط الحربي، فلا يدهشنا إذن أن نجد في هذا القرن الحادي عشر الميلادي، وتميّز بكثرة الصراعات السياسية، والعداوات الحادة، حصادا واسعا من القصائد المتصلة بالقتال. لم يتوقف شعر البلاط مادحا أو راثيا عن إطراء الطعنات الصائبة، والرماح النافذة، وحتى لو تأكّد أننا بصدد موضوعات مطروقة فقدت بالنسبة لنا أية أهمية لها، يمكن أن نجد في القليل ، ولو صدفة، بعض معالم ذات قيمة توثيقية حقيقية.

ومع أن الشعر لا يقدم لنا أية معلومات كاملة عن الرايات والأسلحة والآلات المختلفة لكنه يتيح لنا أن نصل إلى مزيد من الدقة في بعض النقاط، وإذا كان معجم الشعر الذي نستشهد به لا يختلف في استخدامه عما هو مستخدم في المشرق[1]، إلاّ أن التفصيلات التي يقدمها لنا لا يستهان بها في مجال لا نعرف عنه إلا القليل وندين به لكتّاب النثر، وهم في الجانب الأكبر منهم ينتمون إلى ما بعد القرن الحادي عشر[2].

● ● ●

كانت الكلمات الأكثر شيوعا في تسمية الأعلام هي: الراية، وأحيانا اللواء أو البند، وتختلف ألوانها من مملكة إلى أخرى.

في المرية، يصف أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم الراية بأنها خضراء مع صنيف أبيض، يحملها علج في خدمة المعتصم:

نشرتْ عليك من النعيم جناحَا خضراء صيّرتِ الصباحَ وشاحَا
تحكي بخفْقٍ قلْبَ من عاديته مهما يصافحْ صفْحُها الأرواحا
ضمنتْ لكَ النعمى برأيٍ ظافرٍ فترقّبِ الفألَ المشيرَ نجاحَا[3]

ويصف المعتمد تحرّكه على رأس كتيبة من الفرسان، موجها الحديث إلى زوجه، على النحو التالي:

ولمّا التقينا للوداع غديّةً وقد خفقتْ في ساحة القصر راياتُ
وقُرّبتِ الجردُ العتاقُ[4]، وصُفّقتْ طبولٌ، ولاحتْ للفراق علامات

(١) القائمة الخاصة بالمشرق، وبخاصة من خلال الشعر قام بها ف. و. تشوارزلوز في: Die Waffen der alten Arber ، ليبزيج ١٨٨٦.

(٢) استخدم ليفي بروفنسال هذه النصوص النثرية في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٤١ - ١٤٨. وانظر أيضا: ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشجعان، ترجمة وتعليق لويس مرسيه ص ٢٢٣ - ٢٧١.

(٣) من الكامل، نفح ٤٩٨/٣.

(٤) واحد للسيد، وآخر لتابعه.

بكينــا دمًـا، حتى كــأنّ عيـونَنــا لجرْىِ الدموعِ الحُمْرِ منها جِراحاتُ[٥]

والطبول التى يتحدث عنها المعتمد فى البيت الثانى ذكرها شعراء آخرون أيضا، وتمثل مع الرايات العلامة المادية للسلطة الملكية[٦]. هكذا يمدح ابنُ زيدون المعتضدَ بهذه الأبيات:

غـدا بخميسٍ يُقسم الـغيمُ إنّـه لأحـفــل منــه مُـكـفـهـرًا وأكثـفُ
هـو الغيْمُ من زُرْقِ الأسنّةِ بـرقُه وللطبـل رعدٌ فى نـواحيه يقصفُ[٧]

ويورد ابن حزم الفكرة نفسها عن الطبول، يقول:

فــالــطبــلُ جلدٌ فــارغٌ وطنـينُـه يـرتـاعُ منــه ويفـرق الإنســان[٨]

وعندما علم المعتصم أن ابنه الذى أرسله سفيرا إلى غرناطة ألقوا به فى السجن أشرك كل الجيش معه فى أحزانه:

لقــطّعـتِ الــبيضُ أغــمــادَهــا وشقّتْ بنــودُ ونــاحت طبــولُ[٩]

●●●

وقد جمع ابن اللبّانة الأسلحة الدفاعية والهجومية كلها، على ما يبدو، فى بيت واحد من الشعر:

رميْتَ لى فـضفــاضـتى ومـهـنّــدى وخطّيّتى والنبل والقوس والترسا[١٠]

ولا يختلف السيف، وما أكثر ما وصفه الأندلسيون، فى شىء على الإطلاق عما ذكره الشعراء المشارقة، وأفضل السيوف، حتى ما كان مصنوعا منها فى إسبانيا، يوصف بأنه من الهند، فيقال مهنّد أو هندوانى، وبعضها محفور صَدْر الرئاس على صورة قشور الصنوبر مثلا، إلا أن تلك ناتئة وهذه محفورة[١١].

ويقدم لنا ابن درّاج القسطلى معلومات عن أسلحة بربر زناتة وصنهاجة الذين كانوا يقاتلون فى جيش سليمان بن الحكم فى عصر الفتنة:

---

(٥) من الطويل، الديوان ٤، والقلائد ٩ – ١٠، وعنها فى «بنو عباد» ٤٤/١، ونفح ٢٧٩/٤، وتنسب هذه الأبيات خطأ إلى ابن زيدون، الديوان ص ٦١.

● قلت هذا فى طبعة ديوان ابن زيدون التى قام بها كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة، وصدرت فى القاهرة ١٣٥١ – ١٩٣٢ أما طبعة على عبد العظيم المحققة فقد خلت منها (المترجم).

(٦) انظر: جودفروى – ديمومبين، مسالك الأبصار للعمرى، ص ٥٦ – ٥٨.

(٧) من الطويل، الديوان ٤٩٥، البيتان ٦٨ – ٦٩، وكور، ابن زيدون ١٠٤، البيتان ٦٩ – ٧٠. وتوجد أيضا عند المؤرخين كلمة طبل، وفى الإسبانية Tambor. انظر: ابن الأبار، الحلة فى «بنو عباد» ٩٧/٢، وابن عذارى، البيان المغرب ٦/٣، وترجمة ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٨٨، فى حملة المظفر بن المنصور عام ٣٩٣ = ١٠٠٣ ضد حصن ممقصر.

(٨) من الكامل، ابن حزم، طوق الحمامة ٣٨، وترجمة نيكل ٢٩.

(٩) من المتقارب، الحلة ٨١/٢، وفى أبحاث ط ١ ص ١٢٠. ونجد فى سرقسطة قائدا مسيحيا اسمه خيار، فى خدمة المنذر بن يحيى، فجعل ينفخ فى القرن، بينما المنذر يعرض بعض الجند. انظر: نفح ٢٦٥/٣.

(١٠) من الطويل، القلائد ٢٥١.

(١١) نفح ٥٨٥/٣.

بـكـلِّ زنـاقٍ كـأنَّ حـسـامَـهُ   وهَـامـةَ من لاقـاه نـارٌ وقـربـانُ
وأبيض صِنْهـاجٍ كـأنَّ سِـنـانـه   شهابٌ إذا أهوى لِقرنٍ وشيطان(١٢)

وهذه المعلومات تؤكد ما أورده ابن سعيد، وهو مؤلف لاحق، عندما يقول: «ولا يكون مدرعا من فرسان البربر إلّا أولو الهمة والقدرة ولا يقاتلون بترس ولا رمح طويل غليظ، بل بالسيوف والأرماح الخفيفة، يزرقون بها زرقا عجيبا لا يكاد يخطئ»(١٣).

وفيما يتصل بسلاح الرماة لا ندرى ما إذا كان المحاربون الأندلسيون يعرفون «قوس البُندُق»، الذى وصفه ابن رشيق القيروانى، من شعراء القرن الحادى عشر، فى أبيات معروفة تماما(١٤).

لقد وصف أبو بكر بن قزمان أسلحة الفرسان الأندلسيين بإيجاز فى المقطوعة التالية:

ركبوا السيولَ من الخيولِ وركّبوا   فوق العوالِي السُّمْرِ زُرْقَ نِطافِ
وتجلّلوا الغُدْرانَ من ماذِيِّهِمْ   مرتجَّةً إلّا على الأكتافِ(١٥)

● ● ●

وذكر الشعراء بكثرة الأسلحة الدفاعية: الدرع والترس والزرد والدرقة والخوذة، ولكن هذا المعجم الخاص لا يضيف إلى معلوماتنا أى شيء يختلف عما نعرفه فى المشرق، وسبق أن لحظنا عند الحديث عن البحيرات بعضا من التشبيهات أحد طرفيها الدرع، أو الدلاص، أو المفاضة، أو الزرد، أو الحلق، أو الغدير(١٦)، ولن نتجاوز هذا القدر، ونكتفى بذكر بعض الأبيات التى تكمّل المعلومات التى نعرفها، وعلى هذا النحو يصف المعتمد غلاما رآه فى العراك يوم معركة الزلّاقة يقول:

ولمّا اقتحمتَ الوغى دارعًا   وقنّعتَ وجهكَ بالمِغفَرِ
حسبْنا مُحيّاك شمسَ الضحا   عليها سحابٌ من العنبرِ(١٧)

ويطلق على الخوذة أسماء مختلفة طبقا للمادة التى صنعت منها، والشكل الذى صيغت فيه، وبعامة

---

(١٢) من الطويل، أعمال الأعلام ص ٢٣٤.

(١٣) ذكر ذلك ليفى بروفنسال فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ١٤٥، اعتمادا على فقرة فى مسالك الأبصار للعمرى، ذكرها أوليفر أسين فى كتابه الأصل العربى لدباط ص ٤٤ رقم ٦

(١٤) انظر: ابن رشيق، العمدة ٢٢١/٢، والميمى، النتف ٥٨، والشريف الغرناطى، رفع الحجب المقصورة ١٠٩/١. وانظر أيضا: ابن هذيل، فى المصدر المذكور سابقا ص ٢٤٩ - ٢٦٢.

(١٥) من الكامل، القلائد ١٨٧، ونفح ٢٥٠/٤ - ويعلّق النفح على البيتين فيقول: الماذىّ: العسل، وهو خطأ، لأن ابن زاكور فى شرح القلائد (الورقة ٢٢ أ) يقول نصا: الماذى: درع. وعن غدير بمعنى الزرد انظر: دوزى، تكملة المعاجم ٢٠٢/٢، وعن ماذى انظر: تشوارزلوز، Die Waffen ص ٧ ٣ رقم ٢، وتوجد أيضا كلمة ماذى فى بيت لابن شرف فى القلائد ٢٥٤.

(١٦) انظر فيما سبق ص ١٨٣ و٤٨٠، من هذا الكتاب، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(١٧) من المتقارب، الديوان ١٧، والقلائد ٨، وعنها فى «بنو عباد» ٤٢/١، وقد انتقلت كلمة المغفر إلى اللغة الإسبانية فى صورة al mofar. انظر: دوزى وإنجيلمان، معجم الكلمات العربية التى فى اللغة الإسبانية ص ١٧٠، وج. ميجون، موجز الفن الإسلامى، ط ٢ جـ ١ ص ٤١٨، وكاترمير، المغوليون ٣٩، المماليك ١٣٣/١، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ٢٦٨، وص ٢٩١ الهامش رقم ٢٨ فيما سبق من هذا الكتاب، وبيرون، النساء العربيات ٢٧٤ رقم ١، وترجمها: "couver - nuque, garde - nuque, nuquière"

فإن لفظ الترس أكثرها استعمالا[١٨]. ولكنهم أيضا يستخدمون ألفاظ المِجنّ والحَجَف، وعندما تكون ترسا كبيرة أو مستديرة يطلقون عليها عادة اسم دَرَقة. وبعض الأبيات كافية لتبرير استخدام هذه الأسماء.

يصف المعتمد مجناً لا زورديّ اللون، مطوقا بالذهب، فى وسطه مسامير مذهبة، وفيه كواكب فضة، يقول:

مِجَنٌّ حكى صانعوه السماءَ　　لِتقْصُرَ عنه طِوالُ الرماحْ
وصاغوا مثالَ الثريّا عليهِ　　كواكبَ تقضى له بالنجاحْ
وقد طوّقوهُ بذوْب النضارِ　　كما جلّلَ الأفْقَ ضوءُ الصباحْ[١٩]

وكانت التروس الجلدية التى يستخدمها المسيحيون تسمى «حَجَف»، ونذكر أن ابن سارة شبه السلحفاة تسبح على سطح الماء «بجندى مسيحى يحمل على كتفيه حجفة»[٢٠].

وفيما يتصل بالدرقة كان استعمالها شائعا فى نهاية القرن العاشر، واشتهر الشاعر إدريس بن اليمان بأبياته التى وصف فيها الدرقة، ولم يبق لنا منها إلا مطلعها:

إلى موشّجة الأبشار من دَرقٍ　　يكاد منها صفا الفولاذِ ينفطرُ
مؤنّثاتٍ ولكنْ كلّما قُرعتْ　　تأنّث الرمْحُ والصمصامة الذكرُ[٢١]

وكان يطلق على الخوذة اسم البيضاء عادة، وفى أحايين نادرة اسم الزاهقة[٢٢] والتريكة، يقول المعتمد:

وإذا تغنّتْ هذه فى مِزْهرٍ　　لم تألُ تلك على التريكِ غناءَ[٢٣]

●●●

---

(١٨) الجندى من المشاة الذى يحمل الترس يسمى «ترّاس» وهذه الكلمة، وهى مستعملة حتى اليوم، لا تعنى أكثر من «راجل» ويشبه ابن الشالية، وهو شاعر من القرن العاشر الترس بقرص الغزالة، مما يحدّد لنا شكله بالدقة. انظر: ابن الأبار، الحلة ١/٢٣١، وعن الرايت والأسلحة الشبيهة به انظر: ابن هذيل، المصدر المذكور فيما سبق، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(١٩) من المتقارب، الديوان ٢٩، وابن الأبار، الحلة ٢/٥٦، وبنو عباد ٢/٦٣، ونفح ٤/٩٤. وقد أخذنا بقراءة ابن الأبار وابن هذيل، فى المصدر المشار إليه فيما سبق، ص ٢٧١. ينسب هذه الأبيات إلى الأسعد بن بليطة، وفى قطعة يصف المعتمد المجن بالصفراء، الديوان ٢٩.

(٢٠) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٨٣ وأيضا ص ١٦٢ بمناسبة الحديث عن الياسمين.

(٢١) من البسيط، الحميدى، جذوة المقتبس، الترجمة ٣١٣، ص ١٧٠. لدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، وعنها فى الضبى، البغية ٢٢٢، وابن دحية، المطرب ١٣٠.

(٢٢) ابن الأبار، الحلة، فى تعليقات لدوزى ١٢٣، وعن البيض انظر ص ١٨٤ فيما سبق من هذا الكتاب.

(٢٣) من الكامل، انظر فيما سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب. ويقول أبو بكر السيرفى، فى القرن الثانى عشر، فى قصيدة عن سياسة الحرب:

والليلُ من وضح الترائك إنّه　　صبحٌ على هام الجيوش يلمّعُ

انظر: مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير ٢/٧٤، وطبعة القاهرة ٢٧٢٦، وترجمة دى سلان ٢/٨٥، وانظر أيضا: ابن هذيل، فى كتابه المشار إليه سابقا ٢٦٨، وفيما يتصل بالقرن العاشر نملك وثيقة هامة تقدم لنا معلومات جيدة عن الأسلحة الهجومية، وعن الدفاعية بخاصة، عند الأندلسيين، ونعنى بها قائمة الهدايا التى قدّمها الحاجب جعفر المصحفى إلى الحكم المستنصر بمناسبة =

لم يقف الشعراء عند هذه المعلومات الخاصة بالسلاح، وإنما قدموا لنا أيضا معلومات عن التقنية العسكرية، وقد سمح أبو بكر الصيرفى نفسه، وهو من شعراء القرن الثانى عشر الميلادى، أن ينصح المرابطين بعد هزيمة تلقوها على يد المسيحيين، باستخدام التقنيات الخاصة بالأندلسيين:

أهديك من أدبِ السياسةِ ما به　　كانتْ ملوكُ الفرسِ قبلك تولعُ
لا إننى أدرى بها لكنها　　ذكرى تحضُ المؤمنين وتنفع
والبسْ من الحلَقِ المضاعفةِ لتى　　وصّى بها صَنعُ الصنائعِ تُبّع[٢٤]
والهندوانىُّ الرقيق فإنه　　أمضى على حدِّ الدلاصِ وأقطع
واركبْ من الخيلِ السوابقِ عِدةً　　حِصْنا حصينا ليس فيه مدفع
خندقْ عليك إذا ضربتَ محله　　سيانَ تَتبعُ ظافرًا أو تُتبع
والوادِ لا تعبره وانزل عنده　　بين العدوِّ وبين جيشك ينطع
واجعلْ مناجزةَ الجيوش عشيّة　　ووراءكَ الصدقُ الذى هو أمنع
وإذا تضايقت الجيوش بمعركٍ　　ضَنْكٍ فأطرافُ الرماحِ توسع
واصدمْه أوّل وَهْلةٍ لا تكترثْ　　شيئًا فإظهارُ النكولِ يضعضع
واجعل من الطلَّاع أهلَ شهامةٍ　　للصدق فيهم شيمةٌ لا تخدع
لا تسمعِ الكذَّابَ جاءك مرجفًا　　لا رأى للكذَّاب فيما يصنع[٢٥]

وثمة نصوص أخرى تحكى لنا تفصيلات المعارك، ومشاهد المذابح، وبخاصة فى الحروب ضد المسيحيين، يقول ابن خفاجة:

مِن عسكرٍ رجفت أرضُ العدوِّ به　　حتى كأنَّ بها من وَطئهِ وَهَلا
وأشهبٍ ناصعِ القرطاسِ مُؤتلق　　كأنما خاض ماءَ الصبحِ فاغتسلا
ترى به ماءَ نَصْلِ السيف مُنسكبًا　　يجرى وجاحم نارِ البأسِ مشتملا
فغادر الطعنُ أجفانَ الجراحِ به　　رُمْدًا وصيّر أطرافَ القنى مُقلا
وأسرقَ الدمُ فى خدّ الثرى خَجَلا　　وأظلمَ النقعُ فى جَفْن الوغى كَحَلا
كأننى بعلوج الرومِ سادرةً　　وقد تضعضعَ ركنُ الكفر فاستفلا

= توليه الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر عام ٣٥٠ = ٩٦١، وهى: مائة مملوك من الإفرنج ناشئة، على خيول صافنة، كاملو الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والترس والقلانس الهندية، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة خشبية من بيضات الفرنجة من خير الخشب يسمونها الطشطانة، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة جواشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس. انظر: ابن حيان المقتبس، فى نفح ٣٨٢/١، وابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤. وانظر أيضا: ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٤٢ - ٤٣، وفيها يتصل بعصر بنى نصر، انظر: نفح ٣٨٤/٤ وما بعدها.

(٢٤) تبّع الغامض هذا أصبح قاسمًا مشتركا فى الشعر العربى المشرقى فيما يبدو. انظر: الزمخشرى، المفصل طبعة القاهرة، ص ١١٧، وابن يعيش، شرح المفصل، طبعة جان، ص ٣٨١.

(٢٥) من الكامل، ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٧٣/٢، وطبعة القاهرة ٢٧٦، وترجمة دى سلان ٨٦/٢، وأعمال الأعلام، مخطوطة الجزائر، الورقة ٢١٢ ب. وانظر أيضا: الحلل الموشية لمؤلف مجهول، طبعة علوش ١٠٣ - ١٠٦، وفى هذا المصدر الأخير الشاعر يسمى أبا زكريا بن العربى. وعن تقنية الأندلسيين فى الحروب انظر أيضا نصا نثريا للطرطوشى، فى ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٤٦.

قـدكـرٌ فى لْأمـةٍ خضـراءَ تحسبهـا   بحـرًا يُـلاطم من أعـطافـهِ جبـلا
وللقِنى أعـينٌ قـد حـدَّقت حَنَقًا   وللظُّبى ألسنٌ قـد أفصحت جَدَلا
فـزاحمَ النقـعَ حتى شقَّ بـردتَـه   ونـاطـحَ الموتَ حتى خرَّ مُنْجدلا
مـوسَّدًا فـوق نَصْل السيفِ تحسبُـه   مستلقيًا فوق شـاطئ جدولٍ ثَمِلا
فكم مُمـزَّقـةٍ من جيبهـا طـربًـا   قد مزّقت بعده من جيبها ثكلا(٢٦)

ونقل لنا أبو الحسن بن زنباع انطبعه عن بلادة الحركة فى الجيش المسيحى، يقول:

هُـدَّتْ لـه الـرومُ هـدَّة مـلأتْ   قـلوبَ أبـطالهم مـن الـوجـلِ
فـما أُطاقـوا الـولـوجَ فى نفقٍ   ومـا أطاقـوا الصعودَ فى جبـل
تـغـامسـوا فى الـدروع زاخـرة   كى يسلمـوا من حـرارة الأسـل
فـما أفـادتهم الـدروعُ سـوى الثـ   ـقـلة مـن خِـفَّـةٍ إلى ثـقـل
كـأنهم والـرمـاحُ فى تحـفـزهـم   جَرْىُ فصالٍ سلَكْنَ فى وحـل(٢٧)

وقد يبالغ الشاعر فى تصوير المشهد فينقله لنا من الأرض إلى السماء، يقول أبو الوليد بن حزم:

إنّـا إذا رُفعت سـماءُ عجـاجـةٍ   والحـرب تقعـد بـالـردى وتقـومُ
وتمـرَّدُ الأبـطالِ فى جـنـبـاتهـا   والموت من فـوق النفـوس يحـوم
بـرقتْ لهم منـا الحتـوفُ كـأنمـا   نحن الأهـلّة والسـهـامُ نجـوم(٢٨)

ووصف شعراء آخرون المشاهد المرعبة، يقول ابن خفاجة:

قـد أُتـربتْ منهم صحـائفُ أوْجـهٍ   جعلتْ تمـزِّقُهـا السيـوف جـراحـا
فلو اطلعتَ لما اطلعتَ على سوى   سيفٍ تثلّم فى قتيـلٍ طـاحـا(٢٩)

ولكن الأمر لم يصل بعد إلى درجة تعفن جثث القتلى، يقول أبو الحسن بن زنباع:

وقد سَهكتْ تحت الحديد من الصدا   جسومٌ بما علّتْ من المسْكِ تُرحض
ومـدّت إلى وِردِ الصـدور عيـونها   صـدور العـوالى والعيـونُ تغمّض
وأشرفتِ البيضُ الرقـاقُ إلى الطلى   لتكْـرعَ فيهـا والـرءوس تخـفّض
فـلستَ تـرى إلاّ دمـاءً مـراقـةً   تخاضُ إلى أكبادِ قومٍ تَخَضْخَض(٣٠)

---

(٢٦) الديوان، القطعة ١٥٤، ص ٢٠٨ – ٢٠٩، الأبيات: ٤ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٤ و ٢٠ – ٢٤. وانظر فيما سبق ص ٩٩ رقم ٥٤ من هذا الكتاب ●

(٢٧) من المنسرح، القلائد ٢٢٧ وهى الأبيات: ٦ و ٧ و ١١ و ١٢ و ١٣.

● قلت: نسب المؤلف هذه الأبيات إلى ابن البياع، وهو سهو منه، لأنها فى المصدر الذى أحالنا عليه للفقيه القاضى أبى الحسن بن زنباع، وقد صوبنا سهوه. (المترجم).

(٢٨) من الكامل، المطمح ٢٢٩.

(٢٩) من الكامل، الديوان، القطعة ١٩٤، ص ٢٥٢، البيتان ٨ و ٩.

(٣٠) من الطويل، القلائد ٢٢٩. ويظن غزيرى، فى فهرس مكتبة الإسكوريال ١٠٥/١، أن الشاعر يشير فى هذه الأبيات إلى البارود، ونحن معه، دون شك، بإزاء تفسير جرىء للبيت التالى:

وبـالأفـق للنـقـع المثـار سـحـائـبٌ   مـواخضُ لـكـن بـالـصـواعق تُمـخض =

ولمّا تزل الجوارح تحوّم فى السماء تتطلع إلى الجثث ويقول شاعر مجهول يبكى طليطلة:

خذوا ثأرَ الديانةِ وانصروها ... فقد حامتْ على القتلى النسورُ[٣١]

وفى خبايا الأرض ومنعرجاتها تختفى الحيوانات المفترسة، يقول عبد الجليل بن وهبون يصف هزيمة النصارى فى موقعة الزلاّقة، وأن جثثهم أصبحت تملأ الأرض:

وأصبحَ فوق ظهرِ الأرضِ رَضًا ... كأنّ وهادها منهم إكامُ

تألفتِ الوحوش عليه شتّى ... فما نقص الشرابُ ولا الطعامُ[٣٢]

ولكن واقعية الشعراء الأندلسيين لا تتضح أبدا على نحو أفضل مما هى عليه فى كلمات أبى تمام الحجام عندما يصف الطيور الجارحة تمارس دورها القبيح:

ترى النسرَ والقتلى على عددِ الحصى ... وقد مزّقتْ أحشاءَها والترائبا

مضرّجةً مما أكلن كأنّها ... عجائزُ بالحنّا خَضَبْنَ ذوائبا[٣٣]

هذه المقتطفات التى ذكرناها، وقد التقطناها من هنا وهناك لا تقدم لنا فكرة متكاملة عن حياة المحارب أو جوانب المعركة، إلاّ إذا جمّعناها بطريقة مصطنعة على نحو ما فعلنا، ذلك لأن الشعر العربى إجمالا يصف بطريقة ليست منطقية دائما، يستوى فى ذلك المشرقى منه والغربى، مكتفيا بوصف غبار المعارك المتصاعد كالسحاب، ولمعان السيوف، وبريق السهام، وكر الفرسان، وهزيمة الأعداء بهجوم متواصل طبقا لخطة محكمة أو خطفا. وندرك أن ما هو جوهرى بالنسبة للشاعر أن يبرز بطولات حاميه، وما بعد ذلك قليل الأهمية، ونادرا ما تنتزع الرياح ملحمية الشاعر من الأرض، وأبطاله رغم روعة استعاراته لا يتجاوزون بطولات محارب شجاع، ودون شك فإن الظروف لم تساعده ، رغم أن المواجهة بين المسلمين والمسيحيين فى معركة الزلاّقة، وجرت فى ظروف قاسية، كان ممكنا أن تمد خيال الشعراء بموضوع ملحمى جميل. والروح الحربى، مدعوما بالنافع الدينى، لا نكاد نقع له على أثر، حتى مع وصول المرابطين، مما يعطى الانطباع بأننا أمام استسلام عام سبق حرب الاسترداد، وعبثا نبحث بين ملوك الطوائف وأمراء لمتونة عن شخصية أسطورية تشبه رستم الفارسى أو رولاند المسيحى.

ومع ذلك يعكس الشعر البطولى بصدق مجتمع القرن الحادى عشر، ويعبر عن روح حربية خالية من الطموح، وربما كان شعر الخمريات والغزل يعبّر أفضل من غيره عن خصائص الأندلسى، فهو يحب حياة المتعة، ومشاعره مرهفة ومتحضرة.

= ● قلت: أيضا نسب المؤلف هذه الأبيات فى الأصل لابن البياع وأحالنا على مصدره كتاب «القلائد»، وهى فيه لابن زنباع واضحة، فصوّبنا سهوه (المترجم).

(٣١) من الوافر، نفح ٤/٤٨٤، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٩٣.

(٣٢) من الوافر، وانظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(٣٣) من الطويل، نفح ٣/٤١٦، وعن الشعراء المشارقة الذين عرضوا للموضوع نفسه، انظر الأبيات التى أوردها ابن دحية فى المطرب ص ١٥٩ – ١٦٢، وهى للشعراء: أبى تمام وأبى نواس والنابغة الذبيانى والمتنبى وبكر بن النطاه، ويمكن أن تضيف إليهم الفرزدق، الديوان طبعة بوشيه، القطعة ٩١، ص ٢٨١ – ١٨٢ من النص العربى.

○ الفصل الثامن:

حياة المُتع واللَّذائذ

يقال «إنّ الرصانة ليست إلّا نقصا فى المزاج غالبا»!

والجانب الأكبر من أشعار الأندلسيين وقفوه على وصف مغامراتهم الغرامية البهجة، صحبة كأس لا تفرغ، وموسيقا لا تتوقف، وكلها شواهد كافية على ميلهم إلى ارتشاف الحياة حتى آخر قطرة.

ومن المثير أن نلحظ أن المثلبة الأساسية التى وجهها المرابطون ضد الأندلسيين لإزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم، كانت بالضبط حبهم البالغ للّذائذ والاستمتاع. يقول يوسف بن تاشفين: «إنما كان غرضنا فى مِلْك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم الغزو، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما همّة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم – يعنى الروم – خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدِّعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هَمّ أحدهم فرس يَروضه ويَسْتفرهه، أو سلاح يستجيده. أو صريخ يلبى دعوته...»[1].

وكانت هذه المثلبة نفس ما وجهه إليهم السِّيد القنبيطور بشخصه، يقول فى خطابه إلى أعيان بلنسية: «... من كانت له قضية عادلة فليأت إلىّ متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أو لو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم»[2] وقد اتهمهم ألفونسو السادس أيضا بأنهم «أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان»[3].

وأصدر الفقهاء فتوى لتحريض يوسف بن تاشفين: «يحضونه على العدل، والتمسك بالخير، ويفتونه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله» و «أفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم»[4].

عمّق هذا التحرر فى العادات، بلاشك، تناثر إسبانيا فى إمارات صغيرة، وتراخى السلطة، ولم ينبثق ذلك فجأة نحو منتصف القرن الحادى عشر، وليس من الصعب أن نبرهن على أن الفساد والفجور بلغا

---

(١) المعجب ص ١٦٢ – ١٦٣، وترجمته ١٣٧.

(٢) المدونة العامة الأولى، طبعة رامون مينينديث بيدال، ص ٥٨٩، ودوزى، أبحاث جـ ١ ص ٥٧٥، ومينينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ١/٩١ و ٢/٥٢٢ و ٦١١.

● قلت: يوجد نص الخطبة كاملا فى كتابى ملحمة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٣) ابن الكرديوس، كتاب الاكتفاء، طبعة المعهد المصرى ص ٨٩، وعنه فى «بنو عباد» ٢/٢٠، وكان ذلك فى رسالة ردّ بها على المعتمد بواسطة مبعوث يهودى يدعى ابن مشعل.

(٤) ابن خلدون، كتاب العبر، ترجمة دى سلان ٢/٨٠ – ٨٢، وبنو عباد ٢/٢٧، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٤٦.

القمة حدة منذ اختفاء المنصور بن أبي عامر، وأعطى أواخر الأمراء من بنى أمية المثل[٥]، يقول أحدهم، وهو المطرِّف بن عبد الرحمن الأوسط:

أفنيتُ عمرىَ فى الشَّرْ ... بِ والوجوه الملاحِ
ولم أضيِّع أصيلًا ... ولا اطلاعَ صباح
أحيى الليالىَ سُهْدًا ... فى نشوةٍ ومراح
ولستُ أسمعُ ماذا ... يقول داعى الفلاح[٦]

وكان أبناء المنصور كما لاحظ أحد المؤرخين قد غلب عليهم النبيذ واستغرقتهم ملذاتهم[٧]، ولاحظ المؤرخ نفسه فوضى العادات فى قرطبة فى بدء الفتنة بعد الفيضان والجوع، «واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم، وأكلوا الميتة»، «وكان قوم فى السجن فمات منهم رجل فأكلوه، ومع هذا الـمَحْق فشرْبُ الخمر ظاهر، والزناء مباح، واللواط غير مستور، ولا ترى إلا مجاهرا بمعصية»[٨].

وإذا لم تكن السلطة تحت حكم ملوك الطوائف تملك صرامة عصور التعادل والازدهار، فقد كان لديها على الأقل قوة كافية للحد من الضلال الأكثر لفتا للأنظار، وإذا لم يكن كل شيء فى نظام فإن التجاوزات لم تكن تعلن عن نفسها على الأقل فى وضح النهار.

لقد كان المعتمد شابا يحكم فى شلب، ويعيش لحظات سعيدة فى قصره النائي عن المدينة قليلا، وفيما بعد أخذ يسترجع ذكرياته تلك منفعلا[٩]. وعندما أرسله أبوه ليحتل مالقة أبطأ فى الطريق لينعم بقضاء بعض الوقت فى اللهو والسرور والطعام والشراب، صحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء عبوره[١٠]، ولهذا لا يدهشنا أنه هُزم، وأصبح عليه أن يعود من حيث أتى، ولكى يهدهد من غضب والده المعتضد أرسل إليه قصيدة نبرز من بينها هذه الأبيات المتميزة:

لم أوتَ من زمنى شيئًا ألذُّ به ... فلست أعهدُ ما كأسٌ ولا وترُ
ولا تملكنى دَلٌّ ولا خَفَرُ ... ولا سبىَ خلَدى غَنَجٌ ولا حور
هو المدامُ التى أسلو بها فإذا ... عدمتها عبثتْ فى قلبىَ الفِكَرُ[١١]

---

(٥) نرى فى أغلب علب العاج التى من القرن العاشر أو مطلع القرن الحادى عشر مشاهد بلاطية، الشخصية الرئيسية فيها، وهو الأمير دون شك، يبدو ممسكا بيده كأسا. انظر: ج. فرانديس، العاجيات لإسبانية ٦٣ - ٩٣، ورقم ١١ - ١٩. وانظر فيما سبق ص ٢٩٨ وفيما سيأتى ص ٣٣١ - ٣٣٢ من هذا الكتاب.

(٦) من المنسرح، نفح ٥٧٨/٣، ومن يدعو إلى الفلاح هو المؤذن فى قوله: «حىّ على الفلاح».

(٧) البيان المغرب ٣/٣ و٢٤ و٢٨ - ٢٩ و٦٦ و٦٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٨٥ و ٢٠٢ و ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٨) البيان المغرب ١٠٦/٣.

(٩) القلائد ٥ - ٦، وبنو عباد ٣٩/١ و ٨٩/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٩١. وانظر فيما سبق ص ١٢٣ من هذا الكتاب، وفيما بعد ص ٣٣٧.

(١٠) القلائد ١٩، وبنو عباد ٥٢/١، وخوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ص ٢٣ و ٥٢، ومينينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٩١/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٨ - ٦٩.

(١١) من البسيط، المعتمد، الديوان ص ٣٩، الأبيات ٢٧ و ٢٨ و ٣٠، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٦٩.

ونفس والده صرّح فى شىء من الخشونة، قاسية إلى حد ما، وتشهد بقوة مزاجه:

فأمسِي على اللّذاتِ واللهو عاكفًا ... وأضحى بساحاتِ الرئاسةِ أختالُ
ولستُ على الإدمانِ أغفل بُغيتى ... من المجد، ىٍّ فى المعالى لمحتال[١٢]

وعندما خلف المعتمد والده لم يترك نفسه تنغمس فى اللذائذ، ولو أنه أصبح من الآن فصاعدا حرا فيما يفعله، فقد عظم لديه الإحساس بمسئوليته رئيس دولة، وبخاصة أنه لم يكن يملك روح من يهوى أن يعيش الحياة حقا. ومباهجه كانت، حتى فى أبلغ درجاتها حيوية، ملوّنة دائما بحزن يدهشنا للوهلة الأولى، وهو ملمح ملحوظ فى هذا المجتمع الذى درجنا على اعتباره حتى وقتنا هذا غارقا فى اللذة بأجمعه، ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار ُصول الأندلسيين العرقية، إلى أى طبقة انتموا، يبدو لنا هذا الملمح منطقيا فى الشخصية الإسبانية، ولا شىء يمكن أن يعبر عن هذا الواقع بأفضل مماتعبر عنه أبيات المعتمد التى يقول فيها:

عَلِّلْ فؤادَكَ قد أبلَّ عليلُ ... واغنمْ حياتَكَ فالبقاءُ قليلُ
لو أنّ عمرَكَ ألفُ عامٍ كاملٍ ... ما كان حقًّا أن يقال طويل
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى ... والعودُ عودٌ والشمول شَمول
لا يستبيكَ الهمُّ نفسَكَ عَنْوةً ... والكأسُ سيفٌ فى يديكَ صقيل
بالعقل تزدحمُ الهمومُ على الحشا ... فالعقلُ عندى أن تزول عقول[١٣]

أيمكن حقا أن يدع أمير كالمعتمد، أندلسى فى شخصيته وطموحاته، اللذائذ تعتقله حتى يفقد معها كل وسيلة، فيثير بذلك ردّ فعْلٍ فى الرأى العام، سوف يبرّر تدخل المرابطين فيها بعد[١٤]؟ لا يمكن أن نعتقد هذا. ومن المهم أن نلحظ أن كل اتهامات الانفلات التى وجهت إلى ملوك الطوائف تجئ من مؤرخين لا حقين، كان الجانب الأكبر منهم يتلقى رواتب من المرابطين أو الموحدين، وهؤلاء عرف عنهم النقاء الدينى الشديد، على الأقل فى الأيام الأولى من حكمهم. لقد كان شأن ملوك الطوائف فى استسلامهم للمتع واللذائذ شأن الأمويين و لعامريين الذين سبقوهم، لا أكثر ولا أقل، أو المرابطين والموحدين الذين جاءوا بعدهم[١٥]. وأما أن الجانب الأكبر من حملاتهم الحربية كان وجاهة مظهرية، وأنهم حتى فى المواقف الخطرة راوحوا بين حفلات السمر وضربات الحسام، فذلك أمر لا شك فيه، ولا نفهم أية متعة يمكن أن يكون ابن عكاشة قائد المأمون قد أحس بها عندما سجن محمد بن مرتين قائد المعتمد، وجعله يستعرض أمامه كل المغنين والموسيقيين والراقصات الذين وجدهم فى داره، وجعل

(١٢) انظر فيما بعد ص ٣٧٧ - ٣٧٨ من هذا الكتاب.

(١٣) من الكامل، المعجب ١٠٣، وترجمته ٨٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٩٦.

(١٤) عن هذا الموضوع انظر: الحلة فى «بنو عباد» ٦٢/٢، والقلائد ٢١ - ٢٢، وفى «بنو عباد» ٥٦/١ و ٢٣٤/٢، ونفح ٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤ و ٢٧٤/٤. ويقول ابن غالب فى فرحة الأنفس، فى النفح ٤٠٥/٣: «كان لا يظهر شرب الراح منذ ولى الملك».

(١٥) انظر مثلا المشهد المخجل الذى اتخذ من نهر إشبيلية مسرحا فى اللحظة التى خلف فيها الموحدون المرابطين، فى نفح ١٩٢/٤، وكل السفالات التى يذكرها ابن قزمان فى ديوانه. انظر فيما سبق ص ٣٠٣ رقم ٢٦ من هذا الكتاب.

يسأله عن أسمائهم[١٦]، وما صنعه المعتمد وأبناؤه[١٧] في شبيلية، أو ابن مرتين في قرطبة، أو بنو ذي النون في طليطلة، أو بنو الأفطس في بطليوس، وبقية ملوك الطوائف في قصورهم الخاصة. ومن المؤكد أن بني عباد أمراء إشبيلية، وبني صمادح أمراء المرّية، كانوا يفعلونه على نحو أقل علانية[١٨].

وحملة المباخر من متملقي المرابطين، شعراء أو مؤرخين، لا يملون القول من أنّ أمراء الأندلس «مشتغلون بشرب الخمور، واقتناء القين، وركوب المعاصي، وسماع العيدان». ونحن نقبل ذلك بقدر، ونرفضه على إطلاقه، لأنه يناقض ما يقولونه أنفسهم، حين يصفون مبتهجين عصر أواخر العامريين وملوك الطوائف بأنه العصر الأكثر ازدهارا وسعادة في إسبانيا. يقول المراكُشي: إنّ أيام المظفَّر بن المنصور بن أبي عامر كانت «أعيادا في الخصب والأمان»[١٩].

ويقول المؤرخ نفسه عن أيام بني المظفّر من بني الافطس أمراء بطليوس أنها كانت «أعيادا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب»[٢٠]. ويصرح مجهول عن البكريين أصحاب أونبة وشلطيش بأن أيامهم كانت أعيادا من رخاء السعر وأمن السبيل[٢١]، وقبلا يرى الفتح بن خاقان فإن أيام المعتمد «مواسم، وثغوربره بواسم»[٢٢].

أليس الشعراء أيضا مسئولين إلى حد ما عن شهرة الأنغماس في الملاذ التي أُضفيت عليهم؟ وما أقل الأشعار التي لا تصور نزهة إلى ريف ورف، أو على ضفاف نهر عليل النسائم، ليلا أو نهارا، وفي ضوء متقدم يبدو أنهم لا يريدون أن يمسكوا من الحياة إلا بكل ما هو طيب فيها، ولو أن اللذائذ تأتي فيها أحيانا ممزوجة بشيء من المرارة. كتب ابن عمّار إلى عضد الدولة بن المعتمد:

يـا عضـدَ الـدولـةِ المصفَّى … من جـوهر النُّبـلِ والـذكـاءِ
ماذا ترى في اصطباحِ يومٍ … مـنـقَّـبِ الصـبـحِ والمسـاءِ
نسـرقـه من يـدي زمـانٍ … لم يقسِّمِ الرزقَ بالسـواءِ[٢٣]

ولم يعبِّر أحد عن معنى «ولك السلعة التي أنت فيها» بأفضل مما عبّر عنها البكري في الأبيات التالية:

خليليّ إنّي قد طربتُ إلى الكأسِ … وتقتُ إلى شمِّ البنفسج والآسِ
فقوموا بنا نلهو ونستمع الغنا … ونسرق هذا اليوم سرًّا من الناس

(١٦) أعمال الأعلام ١٥٨.

(١٧) انظر مثلا مشهد أنس للرشيد قصه عليه ابن بسام في الذخيرة ٣٨٥/٢، وعنها في نفح ٣٣١/٤ – ٢٧٢.

(١٨) انظر: أبو طالب عبدالجبار الملقب بالمتنبي، الأرجوزة، في الذخيرة ٩١٨/١ وما بعدها، وأبو الحسن بن الجد، في الذخيرة ٥٦٢/٢، وأعمال الأعلام ٢٤١ – ٢٤٢، وكتاب الاكتفاء لابن الكردبوس ص ٧٧، وعنه في «بنو عباد» ١٥/٢.

(١٩) المعجب ٤٠، وترجمته ٣٣.

(٢٠) المصدر السابق ص ٧٥، وترجمته ٦٤، ووجد التعبير نفسه في بيت زجل لابن قزمان قاله شيخا. الديوان، القطعة ١٤٧، الدور رقم ٥.

(٢١) البيان المغرب ٢٩٩/٣، ترجمة ليفي بروفنسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٣.

(٢٢) القلائد ٤ (وانظر ص ٧ أيضا). وتعبير «مواسم وأعياد» شائع في الشعر الآتي، وهو لمجهول، يوضح معناه بكل دقة؛ وقد ذكره ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» طبعة تود نبرج جـ ١١ ص ٣٠٣.

(٢٣) من البسيط. القلائد ٨٥.

فليس علينــا فى التعلّلِ ســاعــةً وإن وقفتْ فى عَقْبِ شعبانَ من باس[٢٤]

وفى هذا البيت لابن خيرة الصباغ:

فــاشــربْ ولــذَّ بــجــنَّــةٍ واطـربْ فإن العمـر فـائت[٢٥]

ويقول أبو عامر بن مسلمة:

يــا نــديــمى قُــم اصــطبــحْ وعــلى الــعــود فــاقــتــرح
إنمــا الــعــيش بــالــســا عِ وبــالــنّــاىِ والــقــدح[٢٦]

وإلى جانب هذه الأبيات التى تتغنى بالحاضر، هناك مقطوعات وأبيات أخرى، كثيرة العدد أيضا، يجب أن نشير إليها، وفيها يعود الشاعر إلى الماضى مصورا لحظات حلوة، من الخلوات الخاصة، يقول ابن السراج فى أبيات كتب بها إلى أبى الحسن بن اليسع يذكره:

غَنِياً بذكـرك عن رحيقٍ سلْسلٍ وحـدائقٍ خُضْـرٍ وعــزْفِ قيـانِ[٢٧]

وتأخذ الصورة شكلا أدق عند أبى عيسى بن لَبّون:

خليلىّ عُوجا بى على مسقطِ اللوى لعــل رســومَ الــدارِ لم تتــغيّــرا
فــأســألَ عن لــيــلٍ تــولىّ بــإنْــسنــا وأنــدبَ أيــامًــا خلتْ ثم أعْصُــرا
ليــالىَ إذ كــان الــزمــان مســالمًــا وإذْ كان غصنُ العيش فينان أخضرا
وإذ كنتُ أُسقى الراحَ من كفِّ أغيدٍ يُــنــاوِلُنيهــا رائــحًــا أو مبــكّــرا
أعــانقُ منــه الغصنَ يهــتزُّ نــاعــمًــا وألثُم منــه البــدْرَ يــطلعُ مقمــرا
وقــد ضربتْ أيــدى الأمانِ قِبابَهــا علينــا وكفَّ الــدهــرُ عنــا وأقصــرا
فما شئتَ من لهوٍ وما شئتَ من ددٍ ومن مبسمٍ يُجنيك عــذْبًــا مؤشّــرا
وما شئتَ من عودٍ يغنّيك مفصحًا «ســالك شوقٌ بعد ما كان أقصرا»[٢٨]

وكانت الموسيقا مثيرة، والخمر معتقة، تقدمها فتاة هيفاء، أو غلام لطيف، الرفقةَ الضرورية، فيما يبدو، لحياة بهجة فى الأندلس، ولا ينقصها غير العطور تعبق فى الجو، لتقدم للأندلسى الإحساس بأن الاستمتاع بالحياة بلغ غايته. كتب أبو محمد عبد الله، إلى بعض أصحابه من الأسر فى طليطلة:

هــذا وكــم بــتْــنــا وفى أيمــانِــنــا كــأس الــشَّــمــولْ
والــعــودُ يخــفــق والــدخــا نُ العنــبــرىُّ بــه يجــول[٢٩]

● ● ●

---

(٢٤) من الطويل، الحلة ١٨٧/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٨، وط ٣ جـ ١ ص ٢٦٣.
(٢٥) انظر ص ٢٠١ رقم ٤٦ فيما سبق من هذا الكتاب.
(٢٦) من الخفيف، أبو الوليد الحميرى، البديع فى وصف الربيع ص ١٥٢.
(٢٧) من الكامل، القلائد ١٦٩، والحلة ١٧٤/٢.
(٢٨) من الطويل، القلائد ١٠١، الذخيرة ١٠٧/٣، وأبحاث ط ١ ص ٥٢٨.
(٢٩) من الكامل، نفح ٥٠٦/٣ - ٥٠٧.

في الأشعار السابقة استطعنا أن نلحظ كثرة تصوير الخمر بمناسبة الاجتماعات السارة، رغم كل التحريمات، والملاحظة تنطبق على المشرق والغرب الإسلامي على السواء، فقد كان المسلمون يشربون النبيذ، والقصائد التي تتغنى بالخمر، وحملت اسم الخمريات، كثيرة جدا، ونعتقد أن الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن النبيذ الأحمر خيالا فحسب، وقد اشتهر المشارقة بهذا اللون من القصائد، وعلى رأسهم أبو نواس، وأما في الغرب الإسلامي فإن المطبّق الصقلي ينافس أبا نواس في خمرياته[٣٠]، وإذا كان ابن زرقون قد ألف عن المرابطين كتابه «وهج الجمر في تحريم الخمر»[٣١] فإن أبا عامر بن مسلمة في نطاق موجة القرن الحادي عشر طرق في كتابه «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح»[٣٢]، ومنه أخذ ابن بسام قدرا لا بأس به من المعلومات لكتابه الذخيرة[٣٣].

والروايات التي أوردها لنا أصحاب المختارات الشعرية والمؤرخون تميل إلى إظهار أن شرب الخمر، ولو أنه لم يكن مسموحا به صراحة حتى لا يتناقض ذلك مع القرآن والسنة، كان متسامحا فيه شريطة ألا يبلغ حد السكر. ومن جانب آخر، أنه تستخدم في بعض الحالات علاجا[٣٤]؟. لقد كان هناك نوع من النبيذ موضع تقدير الأندلسيين، على نحو ما هو عليه اليوم، وليس في إسبانيا وحدها وإنما في العالم أجمع، وهو نبيذ مالقة[٣٥]. وعبثا حاول بعض خلفاء بني أمية التفكير في اقتلاع كل الكروم في شبه الجزيرة للقضاء على عادة شرب النبيذ وتظهر لنا بوضوح النصيحة التي تلقاها الحكم الثاني كي يتراجع في قراره كيف تواءمت العادات مع ما كان يعتبره بعض المتشددين وباء اجتماعيا إذ قالوا له حين شاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله «إنهم يعملونها من التين وغيره»[٣٦].

وكان المحتسب وصاحب الشرطة[٣٧] يضطلعان بعقاب الشاربين السكارى، وفي غرناطة سن البربري العجوز سماجة الصنهاجي، مؤدب الأمير الزيري عبد الله عقوبة أصبحت مثلا في القسوة، فقد «اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل إزاء ذلك القتل غرية لم يحل عقدها ولا نسخ حكمها»[٣٨].

وكان القرطبيون يتميزون، فيما يقول والد ابن سعيد، «بشرف اللباس، والتظاهر بالدين والمحافظة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم، وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها

---

(٣٠) ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٥٧

(٣١) ابن دحية، المطرب ٢١٩.

(٣٢) المطمح ٢٠٤، ونفح ٤٨٥/٣ و ٥٤٤

(٣٣) الذخيرة ١٠٦/٢ – ٢٠٦. وقد ألف الرقيق القيرواني أيضا مختارات خمرية أعطاها عنوانا «قطب السرور في وصف النبيذ والخمور»، الجزء الأول منه مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ٣٣٠٢، والثاني مخطوط في مكتبة الإسكوريال تحت رقم ٥٥٨. وألف أيضا كتاب «معاقرة الشراب»، انظر: نفح ١٣٢/٣.

(٣٤) أبو عامر بن الفرج عالج ابنا له مصابا في كبده بخمر معتقة. انظر: المطمح ١٨٨، ونفح ٤٠٨/٣ و ٥٤٢، والحلة ١٧٢/٢.

(٣٥) نفح ٢١٩/٣. ويقول ابن حمديس في إحدى قصائده إن أحد رفاقه في الشرب كان قادرا على أن يميز بواسطة التذوّق بين أنواع الشراب التي تقدم له، وحتى تحديد سنوات تعتيقها، انظر ديوانه ١٥٥، الأبيات ٢٠ – ٢٣.

(٣٦) انظر: نفح ٣٩٦/١ و ٢١٤/٣، وبغية الملتمس ص ١٨، والحلة ٢٠٣/١، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٦٨ – ١٦٩.

(٣٧) انظر نفح ٢١٧/١ – ٢١٨. ويستطيع القاضي إذا لقي سكرانا في الشارع أن يأمر الشرطة بالقبض عليه، وأن يقيم عليه الحد. انظر: نفح ٤٥٣/٣.

(٣٨) أعمال الأعلام ٢٣٤، وانظر فيما سبق ص ٦١ من هذا الكتاب.

عليها»[٣٩]. وهو ما يؤكده ابن زيدون فى القرن الحادى عشر فى قصيدة يمدح بها ابن جَهْور لأنه كسّر كل أوانى الخمر فى قرطبة:

لقد أوسعَ الإسلامُ بالأمس حِسْبةً   نَحَتْ غَرَضَ الأجْرِ الجزيلِ فلم تَعْدُ
أباحَ حمى الخمرِ الخبيثةِ، حائطًا   حمى الدينِ من أن يُستباحَ: له حَدُّ
فطوّقَ باستئصالها المصرَ مِنّةً   يكاد يؤدّى شكرَها الحجَرُ الصلدُ
هى الرِجسُ إنْ يذهبْه عنه فمحسنٌ   شهيرُ الأيادى ما لآلائه جَحْد
مظِنّةُ آثامٍ وأمّ كبائرٍ   يقصّر عن أدنى معايبها العدّ
رأى نَقْص ما يُجْبيه منها زيادةً   إذ العوضُ المرْضِىُّ إلاّ يَرِحْ يغدو[٤٠]

ويدل البيت الأخير فى هذه الأبيات، دون أدنى شك، على أن الغرامات التى كانت تفرض على المذنبين تحولت تدريجيا إلى ضريبة حقيقية، وأصبحت تمثل دخلا للدولة بالغ الأهمية، وكان ابن حزم بوصفه فقيها مستقيا وأمينا يعارض ضريبة القبالة هذه التى يدفعها لمسلمون ليكون لهم حق الاتجار فى الخمر فى بعض المقاطعات[٤١].

وإذا كانت الغرامة مشروعة فالضريبة ليست كذلك، لأنها تُفرض على المسلمين بنفس طريقة الضرائب القانونية، وربما كان لابن جهور بعض الفضل من وجهة النظر الدينية عندما ألغى مصدر الدخل هذا لبيت المال، ولكن الوسيلة التى اتخذها لم تستطع أن تغيِّر من العادات شيئا فيما يبدو، وكان عليه أخيرا كبقية أمراء شبه الجزيرة أن يتسامح مع الخمر وبدائلها.

وإلى جانب الخمر بمعناه الدقيق كان الإسبان يشربون النبيذ أيضا[٤٢]، وفى المشرق يصنعونه من التمر بخاصة، ولأنهم فى إسبانيا الإسلامية لا يغرسون النخيل المثمرة بالوفرة نفسها، كما فى المشرق، باستثناء شرقى الأندلس، كانوا يصنعونه من العنب طازجا أو زبيبا، ولا يتميّز عن الخمر الحقيقى إلاّ فى طريقة الإعداد، ومن ثَمّ لا يعطى قوة السكر نفسها. ومن جانب آخر فإنّ كثيرا من الأندلسيين لا يعتبرون النبيذ محرّما، معتمدين فى ذلك على مذهب ما يدعوه الشعراء «العراقى»، يعنون أبا حنيفة، المتوفى ١٥٠ = ٧٦٧[٤٣]. وفى حفلة الإعذار الشهيرة التى أقيمت فى طليطلة على شرف

(٣٩) نفح ١/٤٦٣.

(٤٠) ابن زيدون، الديوان ٣٦٢، الأبيات ٥٠ – ٥٥.

(٤١) ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية التى حللها أسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس، المجلد الثانى، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ٣٧ و ٤٢، وقد درس ابن سهل فى كتاب الأحكام، الورقة ١٩٦ أ، حالة مسلم يدعى أبا عبد الله بن حمدون «يصنع النبيذ ويخزنه ويشربه ويبيعه، ويدعو إلى بيته أناسا ليس لهم بيوت ولا إقامة».

(٤٢) عن النبيذ بعامة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٨٥٨/٣، وكتب المادة فينسينك، و ٩٤٨/٢، مادة الخمر، وكتبها فينسينك أيضا، وابن عبد ربه، العقد الفريد ٤٠٠/٣ – ٤٣٠.

(٤٣) كان الحجاج قديمًا قبل الإسلام يشربون أثناء أداء طقوس الحج اللبن والنبيذ، انظر: جوفروى– ديومبين، الحج إلى مكة ص ٧١ وما بعدها. وفى المشرق، فى منتصف القرن الثالث = القرن التاسع، ظهر أدب يستند إلى الجدل الذى كان قائمًا بين علماء الشريعة، ويثنى على النبيذ انظر: رسائل الجاحظ، طبعة السندوبى ٢٨٥ – ٢٩١: رسالة فى مدح النبيذ. وحتى الشعراء تأثروا بهذا الجدل، انظر: ابن الرومى، قصائد مختارة، طبعة كامل كيلانى ص ٧٨، ومختارات البارودى ٦٨/٤، وقافية القصيدة رائية، وهى من بحر الطويل.

الصبى يحيى، عندما علم المأمون أن بين المدعوين أشخاص يعتبرون النبيذ حلالا أمر أن يقدم لهم بكميات وفيرة ليظهر رغبته فى إرضاء مدعويه[٤٤].

وإذا بدا لنا فى القرن العاشر أن قاضيا مثل صهيب بن مانى يشرب النبيذ[٤٥] حالة فريدة، فإن الشراب فى القرن الحادى عشر سوء فى أيام الفتنة أم فى عصر ملوك الطوائف، أصبح عادة شائعة، وأصبحت كلمة «نبيذ» مرادفة لكلمة «خمر»[٤٦]. وفى المدن الكبرى حيث يلعب عنصر المستعربين دورا بالغ الأهمية كانت توجد حانات لا يتردد عليها المسيحيون وحدهم فقط، وبعض هذه الحانات، إذا صدّقنا ابن اللبّانة، كانت تديرها النساء:

ولربَّ ربّة حانةٍ نبّهتُها والجو لؤلؤُ طَلِّه قد رضرضا[٤٧]

وهو ما يؤكده يحيى السرقسطى حين يقول:

ربّ خمّارةٍ سريتُ ليها والدجى فى ثيابه الزنجيّهْ
كم عقارٍ بذلتُه بعقارٍ وثياب صبغتها خمريّه
إن خير البيوع ما كن نقداً ليس ما كان آجلاً بنسيّه[٤٨]

ويشير ابن شُهيد فى رسالته «التوابع والزوابع» إلى الحانات التى كانت تجاور الأديرة المسيحية فى ضواحى قرطبة[٤٩]، وقريبه أبو حفص بن شهيد يتحدث أيضًا عن الحانات فى إحدى مقاماته[٥٠].

ونعرف من أشعار كثيرة أن الإسبان المسلمين كانوا يشربون الخمر حتى السكر الفاضح، لأن ماالديهم من نبيذ كان شرسًا. ألم يبلغ بأحدهم فى صحبة رفاق يسمرون أن يشهر سيفه ضد أحد

---

(٤٤) الذخيرة ١٣٥/٤. ويشير ابن خلدون فى مقدمته أكثر من مرة إلى مذهب أبى حنيفة فيما يتصل بالنبيذ، حبعة كاترمير ٢٥/١ و ٢٦ و ٣٩١، وترجمة دى سلان ١، ٣٥ و ٣٦ و ٤٤١.

(٤٥) الحميدى يشير إلى قصة تتصل بهذا الموضوع، ويعلق عليها: «لعله كان يذهب مذهب أهل العراق» انظر: الحلة ٢٣٧/١، وابن ظافر، بدائع البداهة ٩٧ - ٩٨.

(٤٦) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤ طبعة القاهرة وعنها فى أعمال الأعلام ١٥٨ طبعة الرباط ١٩٣٤ والذخيرة ٢٨٠/٣ - ٢٨٩ (رسالة ابن الدباغ ورد بن سداى عليها)، ونفح ٢٤٦/٣، وابن ظافر، بدائع البداهة ٣٠.

(٤٧) من الطويل، القلائد ٢٤٧.

(٤٨) من الخفيف، نفح ١٥٨/٤، ودوزى فى تكملة المعاجم العربية (٤٠٤/١) يعطى خمّارة هنا معنى حانة. ويبدو مؤكدا أننا بإزاء خطأ، لأن السرقسطى عندما نظم أبياته تذكر صراحة أبياتا لابن المعز، الشاعر المشرقى، يقول فيها:

وخمّارة من بنات المجوس ترى الزق فى بيتها شائلا
وزنّا لها ذهبًا جامدًا فكالت لنا ذهبًا سائلا

والأبيات من المتقارب. نفح ٦١٥/٢، والمغرب ١١٥/٣.

(٤٩) الذخيرة ٢٦٠/١، والمطمح ١٩٤ - ١٩٥، وعنه فى نفح ٥٢٥/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب فى الأندلس ٥٢ - ٥٣ وفى القرن الثانى عشر كان أشهر أنواع الخمور فى قرطبة يسمى «خمر الدير»، انظر: نفح ٥٤٤/١. والبيت الأربعون فى «كنز الأدب» لابن هشام القرطبى.

(٥٠) الذخيرة ٦٨١/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب ٣١ فى الهامش. وفى القرن الثانى عشر قال أبو جعفر بن سعيد حبيب حفصة الركونية عن قوّادة (من السريع):

جاهلة حيث ثوى مسجد عارفة حانة خمّار

نفح ١٨٤/٤، وغرسية غومث، الشعر الاندلسى ٩٠.

أصدقائه، بعد حوار من السهل أن نتخيل أنه لم يكن بالضرورة مهذبًا؟[٥١].

وكان بعض الشعراء يرون فى الخمر عزاء وسلوى، ويؤكد هذا جيدًا ماقيل من مَثَلٍ يتصل بحالتها العارضة، يقول أبو محمد بن السِّيد البطليوسى:

سَلِّ الهمومَ إذا نَبا زمنٌ بمدامة صفراء كالذهب[٥٢].

. وكان القَلَنْدر، وهو اللقب الذى كان ينادى به أبو الأصبغ عبد العزيز البطليوسى، يسكر كثيرا، رغم أنه طبيب، ويقول:

جرتْ مِنىَ الخمرُ مجرى دمى فجلَّ حيائىَ من سكرها
ومهما دجتْ ظُلَمٌ للهمومِ فتمزيقها بسنا بدرها[٥٣]

وحين أقام ابن عمّار فى سرقسطة لاجئا، «ورأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فَصْلا، وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا، فأقبل على راحة يتعاطاها، وعكف عليها ماتعداها ولا تخطاها، حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته العقار، وجالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار، فقال:

نَقمتُمْ علىَّ الراحَ أومن شربَها وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مَجْدِ
ومن ذا الذى قاد الجيادَ إلى الوغى سوايَ ومن أعطَى كثيرًا ولم يُكْدِ[٥٤]

وإذا كان من الحق أن المسلمين يشربون الخمر، فمن الحق أيضًا أنهم يمتنعون عن شربها فى يوم الجمعة، ولو أن هناك من لا يحترمون حتى هذا اليوم، ففى صباح موقعة الزلاّقة، وبدأت فى يوم جمعة كما هو معروف، طلب أبو الحسن بن اليسع خمرا من أبى بكر بن القبطورنة:

عطِشتُ أبا بكرٍ وكفّكَ ديمةٌ وذبتُ اشتياقًا والمزار قريبُ
فخفِّفْ ولو بعضَ الذى أنا واجدٌ فليس بحقٍّ أن يُضاعَ غريبُ
ووفِّرْ لنا من تلك حظًا نرى به نشاوَى وبعد الغزوِ سوف نتوبُ[٥٥]

ونتساءل عما إذا كان ابن اليسع يطلب الشراب استجابة لعادة درج عليها، أو أنه كما نقول «من القلب للمعدة»، إذ من الحق الثابت أن الأندلسيين فى معركة الزلاقة، باستثناء المعتمد، كانوا جنودا أقل من شجعان!

● ● ●

(٥١) المطمح ٣٨٣، ونفح ٢٣٦/٤. وخلال سهرة عند أبى مروان بن رَزين، فى قصره «منية العيون» سكر أحد المدعوين وتصور أنه مقاتل فى ساحة حرب. انظر: القلائد ٥٥ - ٥٦، ونفح ٦٦٩/١ - ٦٧٠.

(٥٢) من الكامل. نفح ٦٤٥/١.

(٥٣) من المتقارب. نفح ٤٥٢/٣، وهناك طبيب آخر هو أبو العرب يوسف بن محمد، غلب عليه حب الخمر فى أواخر حياته، فلم يكن يرى أبدا صاحيا. ومع ذلك توفى عام ٤٣٠ = ١٠٣٩ بعد أن عاش تسعين عامًا تقريبًا. انظر: صاعد الأندلسى، طبقات الأمم، طبعة الأب شيخو، ص ٨٢ - ٨٣، وترجمة بلاشير له ص ١٤٩.

(٥٤) من الطويل. القلائد ٨٤، ونفح ٦٤٦/١ .

(٥٥) من الطويل. القلائد ١٦٩، والحلة ١٧٤/٢، وانظر أيضًا أبياتًا أخرى عن موضوع الخمر فى يوم الجمعة فى نفح ٤٥٣/٣، وابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٥ أ.

يسمح لنا الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر بإعداد قائمة تقريبية بالأشياء التي كانت تستخدم في مجالس الأنس لشرب الخمر والنبيذ. فالأناء المملوء بالشراب يسمى كأسًا، وما كان صغيرًا منه، ومن معدن، هو الفضة غالبًا، يطلق عليه اسم قدح، وما من زجاج عُرف بأسماء كثيرة: جام[٥٦] ونخبة[٥٧] وغرب[٥٨]. وما كان منها منقوشًا أو ملوّنا يجئ من المشرق، من العراق على التأكيد، وتسمى «الكأس العراقي»[٥٩]، وثمة شواهد على وجوده لا في الجانب الإسلامي وإنما أيضًا في الجانب المسيحي، وبخاصة في ليون[٦٠]. يقص علينا مؤلف البيان المغرب أن باديس بن حبوس ملك غرناطة أراد في عام ٤٤٤ = ١٠٥٣ أن يتخلص من خصمه محمد بن إدريس فوجه له بكأس عراقي مسموم مع رجل من الكتاميين، فلما وصل إليه قال له: هذا كأس جُلب للحاجب المظفر باديس ثم يره يصلح إلا للخلافة فاختصك به، فأعجب به محمد بن إدريس وملأه خمرا وضمه إلى فمه فأحس في نفسه ريبة منه، فأمر الكتامي فشرب به فتهرّأ جلده من عظمه من حينه. وبقى هو ثلاثة أيام ومات من تحته»[٦١].

وكان للأوعية والزجاجات أسماء خاصة بها، كما يشهد بذلك بيت لابن دراج القسطلي[٦٢]:

ونصبْ مجانيقًا من اليُمّ[٦٣] التى أحجارهنّ من الرواطم[٦٤] والنخبْ

---

(٥٦) اسم فارسي الأصل.

(٥٧) انظر فيما سبق ص ١٦١ من هذا الكتاب. ويرى دوزى أن معنى كأس Coupe يختلف عن «نخب»، وأنه وجد هذا في بيت شعر لمسلم بن الوليد (الديوان، طبعة دى خويه، القطعة ٢٨، البيت ١٦). ويقدم الشعراء الأندلسيون شواهد كثيرة على هذا فابن الجزيرى يتحدث عن نخب الكئوس (البديع في وصف الربيع ص ١٠٠) وكذلك ابن دراج القسطلي في المصدر السابق ص ١٠٠)، وقارنه بما في القاموس للفيروز ابادى، مادة نخب، حيث يذكر: النخب: الشربة العظيمة، ولسان العرب، في الهامش، ٢٤٩/٢. وابن عذارى، البيان المغرب ٢/ ٣٠، وترجمته ٤٦٦/٢، ومعنى انتخبه بالكأس، تقارعًا الكئوس. انظر: دوزى، أبحاث ط ١ ص ٦٠ – ٦١.

(٥٨) ابن على في البديع للحميرى ص ١٣٧. وانظر فيما سبق ص ١٥٨ من هذا الكتاب.

(٥٩) الذخيرة ١٠١/٤ طبعة القاهرة.

(٦٠) سانتشيث البرنس، طوابع الحياة في ليون منذ ألف عام، ص ٢٩١ «Vasa Irakes»، وغومث مورينو، كنائس المستعربين ١٢٦ – ١٢٧ و ٣٤١ – ٣٤٢: «الأكواب، لفظ جنس يشمل مجموعة من الأواني مختلفة الطرز، وبخاصة الكئوس، والكئوس الفضية، والجميلة الغالية من البللور والزجاج الأبيض، أو المتخذة من نوى جوز الهند، وغيرها. ويذكر أيضًا بعض الأكواب التي عليها رسوم والمذهبة.

(٦١) ابن عذارى، البيان المغرب ٢١٦/٣، وابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٤١ (كلمة عراقي لا توجد في نص ابن الخطيب). وحول كلمة عراقي صفة للكأس من زجاج انظر دوزى وإنجليمان، معجم الكلمات الإسبانية ص ٢٨٧ – ٢٨٨، مادة عراقي، وتعبير أكواب عراقية يوجد في ابن عاصم جنة الرضا، في نفح ٥١٠/٤، وأيضا يستخدم ابن جبير، في نهاية القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى تعبير «الزجاج العراقي» انظر: رحلة ابن جبير، طبعة دى خويه، ليدن ١٩٠٧، ص ٨٣ و ٢٤٣، والمعجم ٣٥. ويقول الغزال، السفير المغربي الذي جاء إلى إسبانيا عام ١٧٦٦، بمناسبة زجاج كنيسة طليطلة الجامعة: الزجاج الملوّن المسمى عندنا بالزجاج العراقي (مخطوطة الجزائر رقم ١٧٣٠، الورقة ١٩٣ ب)، ويوجد تعبير الزجاج العراقي أيضًا عند ابن بطوطة، رحلة ٢٦٣/٢.

(٦٢) انظر فيما سبق ص ١٦١ من هذا الكتاب.

(٦٣) انظر: دوزى، تكملة المعاجم ٧٤٣/٢، ونفح ١٧٩، وابن الحداد في الذخيرة ٧٢٢/١: «في يم الراح».

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٦١ رقم ٣٥ من هذا الكتاب. ومفرد الكلمة روثمة، وهى مأخوذة من الكلمة الإسبانية القديمة rotoma، وأصبحت في الإسبانية الحديثة redoma، وعلق عليها شتيجر وكتبها radoma. انظر: إضافة إلى علم الأصوات ١٦٣ و ٣٥٤.

وكان يطلق على الزجاجات اسم مضربة[٦٥] أيضا، والكئوس الكبيرة اسم «الكبير»[٦٦] والدوارق اسم «قاطى»[٦٧].

●●●

كان الأندلسيون يراعون سلسلة من الطقوس عندما يقدمون الخمر، وفى رواية أوردها لنا المقرى نرى ابن صاحب البيت يخدم المدعوين بعد انتهاء الطعام[٦٨]. وعادة، فى الاجتماعات الليلية بخاصة، كان هناك الساقى، وهو - كما فى المشرق - يملأ الكئوس ويقدمها للضيوف، ويمكن أن نقرر ونحن على يقين أن لكل مدعو كأسه، ولكن فى بعض الأحيان كانت هناك كأس كبيرة تنتقل من يد إلى يد، وتملأ كلما فرغت [٦٩]. وبما أن الشراب يمتد حتى ساعة متأخرة من الليل، وأحياناً حتى صباح اليوم التالى، فمن الضرورى أن يكون الساقى شخصية قوية البناء جسمٌ ليتحمل هذا الإرهاق، وحالة الوصيفة الساقية، الصغيرة الطريفة، التى وصفها لنا أبو عامر بن شهيد، بعد حفلة استمرت طوال الليل، خلال حكم المظفّر بن المنصور، لابد أن تكون نادرة[٧٠].

وكما فى التقاليد القديمة كانوا يفضلون غالبًا الغلمان على الصبيات، فيختارون الساقى من بين الغلمان أصحاب الوجوه الجميلة، وأبيات الشعر التى تحتفى ببريق الخمر فى الكأس، وبجمال وجه الساقى، أو رشاقة حركته فى الوقت نفسه، كثيرة جدًا، يقول المعتمد متغنيا بذلك الجمال:

لله ساقٍ مهفهفٌ غَنِجٌ ... قد قم يسقى فجاء بالعجب[٧١]

ويخبرنا ابن شهيد أن الساقيات من الفتيات كن يقلّدن الغلمان، فيلبسن ملابس الرجال، ويقصصن شعورهن على طريقة الشباب، وهذه الجاذبية الخاصة عن طريق التنكر مشرقية خالصة:

ظَبيةٌ دون الصبايا قُصِّصتْ ... فأتتْ غيداءَ فى شكل الصُبى
فتح الوردُ على صَفْحتها ... وحماهُ صدغُها بالعقرب[٧٢]

ويشرب الأندلسى الخمر مع رفقة نسائية لطيفة، وكثير مع ندامى مبتهجين، أخلاقهم متميزة، ويطلق عليهم الشعراء «الفتيان الكرام»، وربما كان هذا مجرد تقليد للشعراء المشارقة[٧٣]. يقول ابن مُقانا الإشبونى:

---

(٦٥) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٦٠ (وصف النيلوفر)، ودوزى، تكملة المعاجم ٧/٢.

(٦٦) القلائد ٧، وبنو عباد ٩٠/١ رقم ٩٥، ودوزى، تكملة ٤٣٨/٢.

(٦٧) القلائد ٦، وبنو عباد ٨٧/١ رقم ٧٨، ودوزى تكملة ٣٧٢/٢.

(٦٨) نفح ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ طبعة أوربا.

(٦٩) ابن بشكوال يتحدث بمناسبة البكرى عن «سباق الشرب»، وسبانى جمع سبنية، وهى منديل أبيض، من قماش رقيق، نجهل استخدامه. انظر: الحلة ١٨٥/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٧ و ٢٩٧، ومعجم الملابس ص ٢٠٠ [الترجمة العربية ص ١٦٥]، وتكملة المعاجم ٦٣٠/١.

(٧٠) الذخيرة ٣٠٤/١، وابن ظافر، البدائع ٣٠٢، ونفح ٢٤٤/٣.

(٧١) من المسرح، القلائد ٩، وعنها فى «بنو عباد» ٤٤/١، ونفح ٢٧٨/٣.

(٧٢) من امديد، الذخيرة ٢١١/١، أحمد ضيف، بلاغة العرب فى الأندلس ٤٦، وديوان ابن شهيد، القطعة رقم ١٠، ص ٩٢.

(٧٣) انظر مثلا الأعشى فى معلقته: «ودّع هريرة»، الأبيات ٢٦ - ٢٧. وعن معنى كلمة فتى انظر: بشر فارس، الشرف عند العرب قبل الإسلام ٢٠ - ٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية، الملحق، الكتاب الثانى ص ٨٥ - ٨٦، وكتب المادة بشر فارس.

مع فتيانٍ كرامٍ نجبٍ يتادون رياحين المجون[٧٤]

ويذكر أحمد بن مغيث فى مقطوعة له الأمكنة التى كان الأندلسيون يفضلون الاجتماع فيها، ويتبادلون الأنخاب:

اشربْ على البستانِ مِن كفِّ مَن يسقيكَ مِن فيهِ وأحداقهِ
وانظر إلى الأيكةِ فى بُردِه ولاحظِ البدرَ بأطواقه
وقد بدا السروُ على نهرهِ كخائضٍ شمَّر عن ساقه[٧٥]

كان الأندلسى يختار عادة الحدائق والأشجار والمياه الجارية إطارًا لمتعته، وهنا نلتقى من جديد مع حبه المتميز للطبيعة. يقول الأمير رفيع الدولة ابن المعتصم إلى صديقه أبى الأعلى:

أبا العلاء كؤوس الراحِ مُترعة وللندامى سرورٌ فى تعاطيها
وللغصونِ تثنٍّ فوقها طربًا وللحمائمِ سجعٌ فى أعاليها
فاشرب على النهرِ من صهباء صافيةٍ كأنما عُصِرتْ من خدِّ ساقيها[٧٦]

وأحيانا يكون المكان قاربا يتهادى على صفحة الوادى الكبير أو إبْرُه حيث ينتظم الرفاق فى اجتماعاتهم البهيجة، ونعتقد أنه يكفى فيما يتصل بهذا الموضوع أن نعود إلى القصائد التى استلهمت الحدائق، وأشرنا إليها بمناسبة الحديث عن الوديان والمياه الجارية.

وكان الشراب يكثر ليلا، علانية أو سرا فى بيت، وكل شىء مهيأ لكى يستطيع المدعوون أن يطلقوا العنان لأهوائهم، والصورة الأكثر ترددا فى أوصاف الشعراء هى ما تصنعه الخمر فى الكأس الشفافة، والسراج الذى يضىء ليل الشاربين، حتى عندما تكون المصابيح منطفئة. يقول أبوعيسى بن لَبون:

يا ربَّ ليلٍ شربنا فيه صافيةً حمراء فى لونها تنْفى التباريحا
ترى الفَراشَ على الأكواس ساقطةً كأنما أبصرتْ منها مصابيحا[٧٧]

وهنا نجازف مرة أخرى بذكر أبيات سبق أن أوردناها بمناسبة وصف الليل، إذ يذكر لنا أبو محمد بن السيد البطليوسى مقطوعة يسمو فيها أصيلا إلى حد ما، عن سهرة خمرية طالت وامتدت حتى مطلع الفجر:

يا ربَّ ليلٍ قد هتكتُ حجابَهُ بمُدامةٍ وقَّادةٍ كالكوكبِ
يسعى بها أحوى جفونٍ كأنها من خدِّهِ ورُضابِ فيه الأشنب
بدران: بدرٌ قد أمنتُ غروبَه يسعى ببدرٍ جانحٍ للمغرب
فإذا نعمتُ برشفِ بدرٍ غاربٍ فانعم برشفةِ طالعٍ لم يغرب
حتى ترى زُهْرَ النجومِ كأنها حول المجرّةِ رَبْربٌ فى مشرب

---

(٧٤) من الرمل، نفح ٤٣٣/١.
(٧٥) من السريع، نفح ٤٤٢/٣، وانظر فيما سبق ص ١٧١ من هذا الكتاب.
(٧٦) من البسيط، الحلة ٩٤/٢، وأبحاث ص ١ ص ١١١.
(٧٧) من البسيط، القلائد ٦٠، والحلة ١٧٠/٢.

والليلُ مُنْحفِزٌ يطير غرابه والصبح يطرده بباز أشهب[٧٨]

ويرى أبو إسحاق بن خَيّرة الصباغ أن الاستيقاظ بعد سهرة شراب امتدت، كمن بُعث وفى فمه طعم الرماد:

ربَّ ليلٍ طالٍ لاصُبْحَ له ذى نجومٍ أقسمتْ أنْ لاتغورْ
قد هتكْنا جُنْحه من فَلَق من خمورٍ ووجوهٍ كالبدور
إذْ بدتْ تشبهها فى كأسها نارُ إبراهيمَ فى بَرْدٍ ونور
صرعتْنا إذ علوْنا ظَهْرها فى ميادين التصابى والسرور
وكأنّا حين قُمْنا معشرٌ نشِروا بعد مماتٍ من قبور[٧٩]

وهذه المقطوعة التى ذكرناها تعرض لموضوعٍ يتردد كثيرا فى الأدب العربى، فى المشرق والمغرب على السواء، ولكن «كأس الصباح» التى احتفى بها المشارقة، لها – طبقا لما يقوله الشعراء – مذاق يفضل البقية كلها، وجعلت المعتضد يقول:

اشربْ على وَجْهِ الصباحِ وانظر إلى نَوْر الأقاحِ
واعلم بأنّك جاهل ما لم تقلْ بالإصطباحِ
فالدهر شيءٌ باردٌ إن لم تسخِّنْه بِراح[٨٠]

ويبدأ ابن عمار قصيدته فى مدح المعتضد قائلا:

أدِرِ الزجاجةَ فالنسيم قد انبرى والنجمُ قد صرف العِنان عن السُّرىَ
والصبحُ قد أهدى لنا كافورَه لمّا استردَّ الليلُ منّا العنبرا[٨١]

ويجعل ابن الزقاق، وهو شاعر الطبيعة، زهور الحدائق تشارك الشاربين فى الاصطباح:

رقّ النسيمُ وراقَ الروضُ بالزهَرِ فنبِّهِ الكأسَ والإبريق بالوتَرِ
ما العيش إلا اصطباحُ الراحِ أوشنبٌ يُغنى عن الراح من سلسالِ ذى أشرِ
قل للكواعبِ غضّى للكرى مُقَلًا فأعين الزهْرِ أولى منكِ بالسهرِ
وللصباحِ ألَا فانشرْ رداء سنًا هذا الدجى قد طوته راحةُ السحَرِ
وقام بالقهوةِ الصهباء ذو هَيَفٍ يكاد مِعْطفُهُ يَنقدُّ بالنظرِ
يطفو عليها إذا ما شجَّها دُرَرٌ تخالُها اختُلستْ من ثغرِهِ الخَصرِ
والكأسُ من كفِّه بالراحِ محدقةٌ كهالةٍ أحدقتْ فى الأفقِ بالقمر[٨٢]

---

(٧٨) من الكامل، نفح ١/٦٤٦ و ٤/٧٢.

(٧٩) من الرمل، نفح ٣/٤٨٥.

(٨٠) من الكامل، الذخيرة ٢/٣٠، وعنها فى «بنو عباد» ١/٢٤٥ و ٢٦٨ وترجم الأبيات بتصرف فون شاك، ترجمة باليرا، فى شعر العرب وفنهم ١/٢٠٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٧٧ رقم ١.

(٨١) من الكامل، القلائد ٩٦، والمعجب ١٦٥، وترجمته ٩٨، وقد ترجم فنيان «النجم» بكلمة Les Pléiades. وانظر فيما سبق ص ١٦٩ – ١٧٠ من هذا الكتاب.

(٨٢) من البسيط، نفح ٣/٢٩٠.

ويحدّد ابنُ مقانا في قصيدته التي يمدح بها إدريس بن يحيى الحمودي أن الخمر يجب أن تُشرب صباحا قبل أن ينادي المؤذن للصلاة، ويؤكد في الوقت نفسه على الصفات الثلاث التي يجب أن تقدر في الخمر الجيدة:

قد بدالي وضحُ الصبح المبينْ ... فاسْقنيها قبل تكبير الأذِينْ
أسقنيها مُزّةً مشمولةً ... لبِثَتْ في دِنّها بِضْع سنين[٨٣]

وتذكرنا هذه الأبيات بتعليق عبد الرحمن شَنْجول عندما سمع المؤذّن ينادي ذات يوم من فوق المئذنة: «حيّ على الصلاة» قال: «لو قلت حيّ على الكأس لكان خيرا لك». ويقول أيضا أبو مروان عبد الملك بن غصن في نغمة ساخرة:

وقام داعي السرور يدعو ... حيٌّ على الدنّ وانتهابه
وتاه فيه النديمُ ممّا ... يزدحمُ الناسُ عند بابه[٨٥]

وكثيرا ما يشير الشعر الأندلسي، ومثله المشرقي إلى الأطعمة اللذيذة التي تقدّم للشاربين. وهناك كلمة عامة تطلق عليها وهي النّقل[٨٦]، ولا تعني الحلوى والفطائر فحسب، وإنما تتضمن الفاكهة أيضا، مجفّفة أو طازجة[٨٧]، وحتى الخضر مثل: الخرشوف والفول. يقول ابن شهيد عن الخرشوف ولم يكن يقدّرها كثيرا:

نُقْلُ السخيفِ المائق الجهولِ ... وأَنْقُلُ قومٍ نازحي العقولِ
أقسمتُ لا أُطعِمُها أكيلي ... ولا طعِمْتُها على شَمولي[٨٨]

ويقول الشعراء العشاق أن نقولهم هي القبلات التي يأخذونها من حبيباتهم. يقول محمد بن الحسن بن الكتاني:

ألا قد هجرْنا الهجرَ واتصل لوصْلُ ... وباتْ ليالي البين واجتمع الشَّمْلُ
فسُعْدى نديمي، والمدامة ريقُها ... ووجنتها روضي، وتقبيلها النُّقْلُ[٨٩]

ويصوّر ابن خفاجة الهواية نفسها، ما زجا بها ذكرياته عن الزهور:

ونُقْلي أقاحُ الثغرِ أو سوسن الطُّلى ... ونرجِسةُ الأجفانِ أو وردةُ الخدِّ[٩٠]

---

(٨٣) من الرمل، نفح ٤٣٣/١، البيتان ٦ و٧.

(٨٤) ابن عذارى، البيان ٦٨/٣، والنويري، القسم الذي طبعة راميرو من نهاية الأرب بعنوان: تاريخ إسبانيا، ٢٢٩، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٨١ – ٢٨٢.

(٨٥) من البسيط، نفح ٤٢٣/٣.

(٨٦) ونذكر في هذا المقام «المزة» التركي و Las tapas الإسبانية، وعن ضبط «نقل» بضم النون أو فتحها، والأولى عامية، انظر: لسان العرب ٢٠٠/١٤، فهو يقول: والعامة تضمها، والجاحظ، البخلاء ١٨٦/١، والأب أنستاس الكرملي في المقتطف، يولية ١٩٤٤، ص ١٧٨، وهو يرى أنها جاءت من الكلمة اللاتينية nuclus، وإذن يكون ضمها في العربية هو الأقرب إلى أصلها.

(٨٧) ابن المعتز في كتابه فصول التمائل في تباشير السرور يفرق بين النقل الرطب والنقل اليابس، ص ٨٤ – ٩٠.

(٨٨) من الرجز، ابن ظافر، بدائع البداهة ٣٠٥، ونفح ٢٤٦/٣، والضبي، البغية ٥٧، وانظر فيما سبق ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٨٩) من الطويل، نفح ٣٠٨/٤.

(٩٠) من الطويل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢٧٨، ص ٢٤٨.

ولكن هذه الفكرة سبق بها المشارقةُ الأندلسيين، وبخاصة أبو نواس، ومن ثم يبدو لنا من غير المفيد أن نلح عليها، ومع ذلك فالمتوكل أمير بطليوس يستخدم فكرة «النقل» فى المغامرات الحربية:

وكيف وراحى تُرْسُ كلِّ غريبةٍ ... ووِرْدُ التُّقى شميٌّ وحربُ العدا نُقْلى[٩١]

لقد وصف شعراءُ الأندلس الخمرَ فى صورٍ ذكية أحيانا ولكن من لديه معرفة بالشعر المشرقى يلحظ أن الأصالة تنحسر فى أشياء قليلة جدا، وشكلية خاصة، فهم يكتفون بأن يقولوا فى كلمات أخرى ما عبر عنه شعراء العصر العباسى بطريقة ممتازة. وعندما يصف حسام الدولة بن رزين الخمر بأنها شىء روحى فإنما يذكرنا بأبى نواس:

أدِرْها مُدامًا كالغزالةِ مُزّةً ... تبينُ لرائيها وتأبى على اللمس

وتبدو إلى الأبصار دون تجسُّمٍ ... على أنّها تخفى على الذهن والحس

إذا شعشعتْ فى الكأسِ خلْتَ حَبابَها ... لآلئَ قد رُفّعن فى لُبّةِ الشمس

موكَّلةٌ بالهمّ تهزم جيشه ... بجيشِ الأمانى والمسرّة والأنس

فإنْ شئتَ قلْ فيها أرقّ من الهوا ... وإنْ شئتَ قل فيها أرقّ من النفس[٩٢]

ونقدّر أكثر أبيات أبى محمد بن السيد البطليوسى التى يشبه فيها الإبريق بكائن حى:

كأنّما الإبريقُ حين قرْقرا ... قد أمّ لَثْم الكائنِ حين قَغَرا

وَحْشيّةٌ ظلّتْ تناغى جُؤذَرا ... تُرضِعه الدرَّ ويرْنو حذرا[٩٣]

ورغم كل البراعة التى أظهرها شعراء الأندلس فإن القصيدة الخمرية، فى خطوطها العامة، تبدو تقليدا للقصيدة المشرقية، ولقد شرب الأندلسيون الخمر، لا شك فى هذا، ولكن عندما تغنوا بعصير بنت الكرم عالجوا موضوعا أدبيا فيه عناصر تقليدية كثيرة. وذلك على النقيض من الموسيقا والغناء والرقص، فقد أظهر فيها الشعر الأندلسى، وهو مدين للشعر المشرقى دائما، على الأقل ميلا إلى التحرر فى الأشكال الخارجية.

●●●

وتقدم لنا علبه العاج القادمة من دير ليير Leyer، والمحفوظة حاليا فى كنيسة بنبلونة[٩٤]، فى أحد أوجهها أكثر المشاهد أصالة، حيث نرى فرقة موسيقية من ثلاثة أشخاص جالسين: الموسيقىّ الذى على الشمال عازف أو عازفة، على شبابة من قصبتين منفصلتين، والذى فى الوسط، وذهب القفل برأسه،

(٩١) من الطويل، القلائد ٤١، والحلة ٢/١٠٥.

(٩٢) من الطويل، الذخيرة ٣/١١٤، والحلة ٢/١١٢ ووازنه بأبى نواس فى أبيات همزية القافية، من البسيط، الديوان طبعة أصف، ص ٢٣٤.

(٩٣) من الرجز، نفح ١/٦٥٠.

(٩٤) هذه العلبة مهداة إلى المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر، بخليفة والده فى الحجابة، وتحمل تاريخ ٣٩٥ = ١٠٠٥، انظر: خ. فرانديس، العاجيات والكهرمانيات الإسبانية ص ٥٧ - ٧٧، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٢، والنقوش العربية فى إسبانيا جـ ١ رقم ٢٠٤، الشكل ١٨٩. وميننديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ١/٨٩، وعن حياة السيد، فى مجلة أوكيدنت، رقم ٣٢، فبراير ١٩٢٦، ص ١٦٢، وتوماس أرنولد وجيوم، تراث الإسلام ص ١٤٢، صورة رقم ٦٣.

● قلت: كان ذلك عندما حرر المؤلف كتابه، أمّا الآن فقد نقلت هذه العلبة إلى متحف نبرة، ومقره فى بنبلونة أيضا (المترجم).

يعزف على العود فيما يبدو، والثالث وهو أشد تلفا من الآخرين، رافع ذراعيه مثل الأول، ولكن لا يمكن القطع ما إذا كان يحمل في يديه شبابة أو طبلة. وأشياء أخرى من العاج، أقدم من علبة بنبلونة أو أحدث، تقدم لنا صورا لموسيقيين. ولكن أيًّا منها لا يقدم الفنان بصفته هذه، وإنما يوجد في جمع من الشخصيات من طبقة النبلاء أو الأمراء أو الفرسان يستمعون إلى الموسيقى ويواصلون الشراب[٩٥]. فهي إذن موضوعات تقليدية ساسانية، وربما كانت ذات أصل أسيوى، وعرضها حضور ما كان ليسترعى اهتمامنا لولا أنها شهد صدق على ما يؤكد الشعر لنا من حب الأندلسيين للموسيقا.

وفي هذا المجال، كما هو الحال في الخمر أيضا، نلحظ أن التحريم، والمدافعين عن الدين الإسلامى لم يكن لهم تأثير كبير[٩٦]، فالموسيقا، كالخمر، قاسم مشترك في كل الحفلات والأفراح. وكانت تربية الفتيات تتضمن تعليمهن الموسيقى، وتدريبهن عمليا لعزف على العود والرباب وأدوات موسيقية أخرى[٩٧]. وكان من عادة بعض الأسر القرطبية أن يجعلن الفتيات يغنين بالتناوب في حفلاتهم الخاصة، ويعبر أبو محمد بن مالك، دون أدنى شك عن روح الفنان الأندلسى حين يقول:

لا تَلُمني بأنْ طربتُ لشجْوٍ ... يبعثُ الأنسَ فالكريمُ طروبُ
ليس شقُّ الجيوبِ حقًّا علينا ... إنما الشأن أن تُشقَّ القلوب[٩٩]

ولم يكن حب الموسيقا وقفا على الرجال النبلاء، كما يقول ابن مالك، وإنما كان القاسم المشترك بين الناس جميعا، فالحكام، شأن القواد والحرفيين والشعراء، كانوا مفتونين بها صبابة، وبعضهم لم يقف عند حد الاستمتاع بها، وإنما كانوا موسيقيين فعلا، ليس عمليا فحسب، وإنما في المجال النظرى أيضا. وكان أبو عبد الله بن الحداد شاعر المرية يرى في الشعر شيئا آخر غير الوزن يقتصر على أنغام متوالية طويلة أو قصيرة، وإنما لكنشف فيه الموسيقا، وعالج هذه الفكرة في بعض كتبه. ونالت شهرة عريضة فيما يقول ابن بسام[١٠٠]. وحالة ابن باجة معروفة أيضا، فلم يكن فيلسوفا وشاعرا فحسب، وإنما مؤلف موسيقيّ أيضا[١٠١]. ألم تطور الموشحات ويزدهر الزجل في القرن الحادى عشر، وكلاهما

---

(٩٥) حول علبتين أخريين أسطوانيين في متحف اللوفر انظر: ج. فرانديس، المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٢ والشكل ١١، وص ٧٩ - ٨٠، والشكل ١٦ رقم ٢

(٩٦) تقدم الفقرة التالية رتيقة، وهي ما يقوله سيدى خليل بمناسبة استخدام الآلات الموسيقية في حفلات الزواج: «لا يحرم استخدام الغربال، حتى لو قام به رجل، فيما يتصل بالطبل والمزهر، بعضهم يراه جائزا والآخرون يرونه مكروه. ورأى ثالث يجيز الطبل فقط. وابن كنانة يجيز استخدام الزمارة والبوق»، انظر: سيدى خليل، الزواج والطلاق، ترجمة فينان ٨٧. يرى ابن حزم أن الغناء والموسيقا مباحين، انظر: مخطوطة القسطنطينية وتحليل أسين بلاثيوس لها في مجلة الأندلس، المجلد الثانى عدد ١٩٣٤، العدد ١ ص ٣٥ - ١٢٦.

(٩٧) وهذا ما تشير إليه رواية قرطبية، تلم بترجمتها من العربية إلى العجمية أحد الموريسكيين في القرن الثانى عشر، انظر: نصوص عجمية، نشرها خيل ورببيرا وساستيث، ص ٩٩ - ٥ ٦.

(٩٨) ابن حزم، طوق الحمامة ١٤٥، وترجمة نيكل ٤٣، وطبعة برشيه ٧٨ - ٨١.

(٩٩) من الخفيف، القلائد ١٧٠، نفح ٦٧٥/٣.

(١٠٠) الذخيرة، ق ١، المجلد الثانى، ص ٢٠١ طبعة القاهرة.

(١٠١) القلائد ٣٠١ و ٣٠٥، وابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٩٣/٣، وترجمة دى سلان ٤٢٦/٣. وقد ألف أيضا عالم من سرقسطة يدعى الحمّار كتابا عن الموسقا. انظر: صاعد الأندلسى طبقات الأمم، طبعة شيخو ٦٨، وترجمة بلاشير ١٢٩.

قصائد أُبدعت قصدا لتغنّى[١٠٢]؟ وكان كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى مناط التقليد فى إسبانيا[١٠٣]. ولكن هذه المؤلفات ضاعت، وإذا أردنا الحصول على بعض المعلومات الحية عن الموسيقا فى القرن الحادى عشر فعلينا أن نلجأ إلى الشعر.

يمدنا الشعر ببعض المعلومات عن الآلات الموسيقية المستخدمة، وبكل وضوح كان العود أكثرها استخداما، وكان الرشيد بن المعتمد يفضل العزف عليه دون غيره[١٠٤]، وأرسل المعتمد أبياتا من الشعر إلى صديق له يطلب منه عودا، إذ كان يعتقد أن الموسيقا وحدها هى القادرة على إيقاظ الندامىَ وقد أنامهم الشراب[١٠٥]، وأبو عامر بن ينق يرجو هندا جارية أبى محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبى أن تجئ ومعها عودها:

يـا هندُ هـل لك فى زيـارةِ فتيةٍ نبـوا المحارم غيرَ شُرْبِ السلسـلِ
سمعوا البلابلَ قد شـدَوْا فتذكَّـروا نغماتِ عودِك فى الثقيل الأوّلِ[١٠٦]

وكانت أوتار العود تستأثر بالاهتمام الأكبر، ومن المعروف أن العود البدائى كان له أربعة أوتار: الزير والمَثْنى والمثْلث والبَمّ، وكان زرياب هو الذى أضاف إليه وترا خامسا، ولكن اسمه غير معروف لنا[١٠٧]. يقول أبو محمد بن السِّيد البطليوسى:

كـأنّ المثـانىَ والمثـالث هيّجـتْ سروری ولم أسمع غناءً ولا ضربًا[١٠٨]

ويأسى ابن عمار على الوشايات التى أساءت إليه عند سيده المعتمد، ويكتب:

ولكنْ ظنـونٌ سـاعـدتْـها نمـائمٌ كما ساعدتْ صوتَ المثانى المَثالثُ

ألا يمكن أن نعتبر أنفسنا مسموحا لنا أن نعتقد فى ضوء هذه الأشعار بأن الانسجام، أو على الأقل التطابق بين الرابع والخامس، كان معروفا لدى الأندلسيين؟. ولكن نادرا ما يذكر الشعراء المِزهر. يقول المعتمد:

وإذا تـغـنّـتْ هــذه فى مِـزْهــرٍ لم تألُ تلكَ على التريك غناءَ[١١٠]

(١٠٢) دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٩/٣ – ٨٥١، وكتب المادة ابن شنب، وهى عن الموشحات، وابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٩٠/٣ – ٤٣٤، وترجمة دى سلان ٤٣٢/٣.

(١٠٣) انظر فيما سبق ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(١٠٤) الحلة، ٦٨/٢، وبنو عباد ٧١/٢.

(١٠٥) خريدة القصر، فى «بنو عباد» ٣٩٤/١ – ٤١٣.

(١٠٦) من الكامل، نفح ٢٩٣/٤، وفون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب وفنهم ١٤٤/١، وحول أنواع الموسيقا المختلفة انظر فيما سيأتى ص ٣٣٤ من هذا الكتاب.

(١٠٧) نفح ١٢٦/٣، ودبجا، مقدمة الطبعة الأوربية، ٧١/١، وخوارزمى، مفتاح العلوم ١٣٧.

(١٠٨) من الطويل، القلائد ١٩٥، وهى صدى للمتنبى يصف شعب بوان، البيت ٣٤، الديوان، طبعة البرقوقى ٤٨٩/٢.

(١٠٩) من الطويل، الحلة ١٤٣/٢، فى «بنو عباد» ١٠٦/٢. ويوجد تعبير «المثانى والمثالث» فى النثر بكثرة، انظر: القلائد ٦ و ١٨٤، ونفح ٦٤٠/١، و ٦٢٤/١ طبع أوربا، ونادرا تعبير «المثالث والأزير»، انظر: الذخيرة ١٤/١، وعنها فى «بنو عباد» ٤١/٣. وكما هو معروف فإن كلمة «مثانى» تعنى أيضا آيات سورة الفاتحة السبع، وهى السورة الأولى من القرآن، انظر: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٢٣/٣، وترجمة دى سلان ٣٦١/٣، والقرآن الكريم، سورة الحجر، الآية ٨٧، وسورة الزمر، الآية ٢٣.

(١١٠) انظر فيما سبق ص ٣١٣ من هذا الكتاب.

ويشير أبو مروان بن رزين إلى المزمار حين ردّ على أبي جعفر بن سعدون، يقول:

إذا قلتَ لم ينطقْ فصيحٌ مدرّبٌ ولا ساغ فى سَمْعٍ غناءٌ ولا زمر[١١١]

ولكنهم لا يذكرون من آلات لقرع ولا واحدة[١١٢]، فقد كانوا بعامة يعتبرون الطبل فنا متدنيا، يصلح لتسلية العامة فى تجمعات الأسواق الصاخبة. ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا غضب ولد على ابنه حين عرف أنه تزوج على غير رغبة منه بامرأة لا تليق بحاله، وصار يضرب معها بالدف علانية، فكتب إليه أبوه:

أما كفاكَ الزنا ارتكابًا وشربُ مشمولةُ الحميَّا
حتى ضربتَ الدفوف جهرًا وقلتَ للشرّ جِئْ إليَّا[١١٣]

يتيح لنا الشعر إذن أن نؤكد أن الموسيقا التى أحبها الأندلسيون كانت حضرية فى جوهرها، لا تستخدم آلات الضرب، لأنها تعبر هذه بالغة الصخب[١١٤]. ولابد أن البربر صنهاجيين وزناتيين هم الذين أحضروا الطبل معهم، وبقى وقفا على القرع، ولم يدخل المدن إلا لتسلية العامة[١١٥]، وأصبح ذلك مؤكدا منذ مطلع القرن الثانى عشر بفقرات من ديوان ابن قزمان، حيث يتحدث الشاعر عن النقرة، وهى نوع من الطبل، وكدف، وهو طبل صغير والشيز والبنديْر والزمير والطبل[١١٦].

● ● ●

رأينا فيما سبق أن ابن يَنّق يتحدث عن الثقيل الأول الى تؤديه هند فى فتنة بالغة، وهذه الطريقة

---

(١١١) من الطويل، القلائد ٥٣، وأعمال الأعلام ٢٠٧، وانظر أيضا فيما سبق ص ٣١٢ من هذا الكتاب. وقد حذ على ملوك الطوائف حب سماع الزمر. وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار من أواخر الأمويين يستعمل، طبقا لرواية ابن عذارى مؤلف البيان المغرب، مئة خابية من الخمر، ومئة بوق للزمر، ومئة عود للضرب. انظر: البيان ٨٠/٣، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩١. ولا نعرف اسم الشبّابة التى من قصبتين (ويسميها الإغريق aulos) التى توجد مرسومة على علبة العاج فى بنبلونة، والتى نراها مرة أخرى فى المشهد رقم ١٠٤٧. انظر: مينديث بيدال، شعر الجوّالين، ص ٣١٥.

(١١٢) يتحدث ابن حمديس فى إحدى قصائده عن راقصة تدق بيدها على الطار، ولكننا على التأكيد بصدد راقصة مغربية. انظر: الديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧١، وانظر فيما سيأتى من هذا الكتاب ص ٣٤١ رقم ١٥٣.

(١١٣) من البسيط، نفح ٧١/٤.

(١١٤) هناك نص نثرى فى حدائق الأفراح للشروانى، يشير إلى أن رحالة مشرقيا وصل مالقة عام ٤٠٦ = ١٠١٥، لم يستطع أن ينام رغم تعبه للضجيج الذى يحدثه العود والطنبور والمعزف والمزمار، طبعة القاهرة ص ١٤٢. وانظر: خوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ص ٦١، والموسيقا العربية ١٣٩.

(١١٥) الشقندى فى رسالته فضل الأندلس، فى نفح ٢١٣/٣، قدم لنا قائمة بالآلات الموسيقية التى كانت مستخدمة فى إسبانيا فى القرن الثانى عشر، ولا نجد فيها غير آلات الأوتار والنفخ، وفيما يرى المؤلف فإن آلات الضرب خاصة بالأفريقيين. وحول هذا النص من رسالة الشقندى، انظر: غرسية غومث، ترجمة هذه الرسالة ص ٩٠. وانظر بخاصة الأب أنستاس الكرملى، فى المقتبس ٤٣٥/١، ونقل المقال كرد على فى مجلة المجمع العربى فى دمشق عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١. وانظر له أيضا: غابر الأندلس وحاضرها ص ٩٢ - ٩٣، وغرائب الغرب ١٧٠/٢. وانظر أيضا: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٥٣/٢ و ٣٦٠، وترجمة دى سلان ٤١١/٢ و ٤٢٠.

(١١٦) الديوان، القطعة ١٢، الدور ٦، والقطعة ١٤٧، الدور ٥.

التى لا نعرف عنها شيئا[١١٧] لابد أن يكون قد حملها إلى إسبانيا زرياب وآخرون كثيرون مثله. وكان الغناء المدنى (نسبة إلى المدينة) يحظى بين الأندلسيين بإقبال كبير. يقول المعتمد:

أتـتْـكَ أمُّ الحـسَـنِ تـشـدو بـصـوتٍ حَـسَـنِ
تمـدُّ فى ألحـانِها مـدَّ الـغـنـاءِ المـدنى[١١٨]

يمكن الظن أن الغناء على شرف المدينة كان يتميز بتعاقب النغمات السريع فى المقطع الواحد، وهو ما يذكرنا بهديل البلابل، ولكنه يسمى أيضا بالغناء الحجازى[١١٩]، نسبة إلى الحجاز حيث توجد الأماكن الإسلامية المقدسة، ونعرف أن الأربعة المغنيين الكبار فى المدينة هم: مَعبد وابن السُّريْج وابن مُحرز والغريض[١٢٠]. وتكثر الإشارات إلى الغريض ومعبد، يقول حسام الدولة بن رزين:

وغنَّتْ بـه وُرقُ الحمائمِ حـولنا غناءً يُنسِّينا الغريضَ ومعبدًا[١٢١]

وحفظ لنا التاريخ أسماء بعض الفنانين الذين برعوا فى بلاطات ملوك الطوائف، ولكنهم أبعد من أن يقتربوا من الشهرة التى نالها زرياب فى القرن التاسع. فكان الصقلى فى بلاط المعتمد[١٢٢]، واستقدم المتوكل أمير بطليوس أبا يوسف، ووصل فى يوم مطير[١٢٣]، وخلال حفلات العذار التى أقامها المأمون أمير طليطلة اضطلع اليهودى دانى بإبهاج المدعوِّين مع فرقته[١٢٤]، وفى بلاط العلىّ بالله أمير مالقة كانوا يستمتعون بأغانى الحمامى وابنه محمد[١٢٥]. ويذكر ابن بسام موسيقيا أصله من المهدية فى أفريقية يدعى عتيقا المغنى، ولكننا لا نعرف أى بلاط بين ملوك الطوائف احتفى به أو عاش فيه[١٢٦]. وثمة فقرة فى الذخيرة تتصل بمعركة قنتيش تسمح لنا أن نعتقد أنه كانت فى قرطبة فرقة من

---

(١١٧) حول الإيقاع والأنغام فى الموسيقا العربية القديمة انظر: بيرسيفال، نوادر الأخبار عن كبار الموسيقيين العرب، فى المجلة الأسيوية، عام ١٨٧٣، السلسلة ٧، المجلد ٢، ص ٥٩٠، والخوارزمى، مفتاح العلوم ص ١٤٠، والمسعودى، مروج الذهب ٨/١٠٠ وما بعدها، وخوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ٤٣ - ٤٦، والموسيقا العربية ١٢٢ - ١٢٣.

(١١٨) من الرجز، الذخيرة ٢/٣٠، وبنو عباد ١/٢٤٦ - ٢٦٩، وانظر فيما سبق ص ٢٢١ من هذا الكتاب.

(١١٩) القلائد ١٧٥: أبو القاسم بن السقاط أرسل دعوة يقول فيها: لسماع الغناء الحجازى، وهذه الطريقة لا تزال حية حتى اليوم فى المغرب ومصر.

(١٢٠) فارمر، دائرة المعارف الإسلامية ٤/١٢٤٠ و ٢/٤٤٧ و ٣/٦٤، وتكملتها ٨٦. يقول يزيد الثانى ابن عبد الملك لمعبد: «أجد فى أغانيك بعض المتانة والقوة اللتين لا توجدان فى أغانى ابن سُريج الذى ظهرت أغانيه أكثر انحناء وليناء». انظر: الأغانى، فى المجلة الأسيوية، عام ١٨٧٣، ط ٧ جـ ٢ ص ٤٨٧ من الأغانى.

(١٢١) من الطويل، الحلة ٢/١١١، القلائد ٥٣، نفح ١/٦٦٩.

(١٢٢) الحلة ٢/٥٤، وبنو عباد ٢/٦٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨١، ويسميه المقرى فى نفح الطيب ٤/٩٦، السّوسى (من مدينة سوسة فى فارس أو من السوس منطقة فى المغرب).

(١٢٣) القلائد ٤٣، ونفح ١/٦٦٣، والحلة ٢/١٠٦، والذخيرة ١/٩١٧.

(١٢٤) الذخيرة ٤/١٣٦، ونذكر أن الموسيقى الذى كان مكلفا باستقبال زرياب عند وصوله إلى الجزيرة الخضراء كان موسيقيا يهوديا يدعى منصور اليهودى. انظر: نفح ٣/١٢٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ١ ص ٣١١.

(١٢٥) الذخيرة ١/٨٦٣.

(١٢٦) الذخيرة ١/٨٥٩.

الطنبوريين على رأسها قَنْبوط الملهى وزربوط المغنى، وكلاهما قتل فى المعركة، وأقام أصحابهما عليهما مأتما مشهودا بعد الحادثة[١٢٧].

●●●

ومن الضرورى أنْ نوضح أن الأندلسيين كانوا حتى القرن العاشر يستقْدمون القيان، مغنين وموسيقيين، من المشرق، وبخاصة من المدينة وبغداد[١٢٨]، ولكن ابتداء من القرن الحادى عشر سوف يتم تكوين الفنانين والفنانات فى إسبانيه، وأحيانا فى شمال أفريقيا، وقد تلقى **المعتمد** مغنية بربرية هدية من يوسف بن تاشفين، وكانت نهايتها مأسوية كما ذكرنا[١٢٩]، وحين تذكر الأمير نفسه لحظاته السعيدة فى شلب أنشد:

وليلٍ بسدّ النهرِ لهو قطعتُه — بذات سوارٍ مثل منعطفِ النهرِ
تضتْ بُردَها عن غصنِ بانٍ مُنعّمٍ — نضيرٍ كما انشقّ الكِمامُ عن الزهْرِ
وباتتْ تُسقّيني المدام بِلحظها — فمنْ كأسها حيناً، وحيناً من الثغرِ
وتطربنى أوتارهـا، وكأننى — سمعتُ بأوتار الطُّلى نَغَم البُتْرِ[١٣٠]

وهؤلاء المغنيات البيض رفيقات الأنس والمتعة، هنّ أسيرات مسيحيات، ظل **المعتمد** يتذكرهن حتى وهو أسير فى أغمات، يقول:

مِن بعد كلِّ عزيزةٍ روميةٍ — تُخزى الحمائمَ فى ذُرى الأغصانِ[١٣١]

وفى قرطبة حيث يوجد نوع من أكاديميات الموسيقا، كانت تُقدم للجوارى الموسيقيات والمغنيات الدروس الأكثر صقلا وانتقاء، والمعارف الموسيقية الأشد تنوعا ورقيا، واشتهر ابن الكتانى، وهو طبيب ثرثار، فى القرن الحادى عشر بتلميذته اللائى كان يحسن إعدادهن، ويبيعهن بأثمان غالية مُبالغ فيها، والصفحة التى يروى فيها بنغمة متعالية. وثرثرة تنضح ادعاء، كيف يعدهن ليصبحن نجمات تستحق أن نأتى عليها كاملة:

«.. فأنا منبه الحجارة، فضلا عن أهل القدامة والجهالة، واعتبرْ ذلك بأن فى ملكى الآن أربعَ روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات، أسْطرلابيات معدّلات نجوميات نحويات عروضيات أديبات خطاطيات. تدل على ذلك لمن جهلهنّ الدواوين الكبار التى ظهرتْ بخطوطهن فى معانى القرآن وغريبه وغير ذلك من فنونه، وعموم العرب

---

(١٢٧) الذخيرة ٤٤/١.

(١٢٨) مثلا: فى عصر عبد الرحمن الثانى المتوفى ٢٣٨ = ٨٥٢، جاءت فضل وعلم من المدينة، وقمر، وسبق أن تحدثنا عنها ص ٤٥ فى هذا الكتاب من بغداد، وكانت حال قمر مثيرة للغاية، فهى من الباسك فى شمال شرقى إسبانيا، وقعت أسيرة، وحملت شابة إلى المدينة لتتعلم فى فن الموسيقا والغناء والرقص، ثم عادت إلى إسبانيا وهى فى أوج اكتمالها ونضجها فنانة. انظر: نفح ١٤٠/٣. وبنات زرياب وتلميذاته أصلهن من بغداد، انظر: نفح ١٢٢/٣ وما بعدها.

(١٢٩) انظر فيما سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(١٣٠) من الطويل، الديوان ص ١٢، والقلائد ٥ - ٦، وبنو عباد ٣٩/١ وترجمتها ٨٤، وانظر أيضا الأبيات نونية القافية، ومن بحر الكامل، فى القلائد ٢٦، وبنو عباد ٦٥/١، ونفح ٢١٩/٤، وص ١٣٤ و٣١٧ وفيما سبق من هذا الكتاب.

(١٣١) من الكامل، الذخيرة ٧٤/٢، وبنو عباد ٣١٨/١ و ٣٦٣.

من الأنواء والأعاريض والأنحاء، وكتب المنطق والهندسة وسائر أنواع الفلسفة، وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ويضبطنه فهيا لمعانيه ولكثرة تكرارهنّ فيه، وفى هذا أعظم الشهود أنى واحد عصرى ونسيج وحدى، وأنى أفنيت الزمان تجربة، والدهر تبصرة، فاعرفْ - أعزّك الله - قدرى، ووفّنى قسطى، ولا تطمعْ أن تظفر بعالم مثلى، أو متفرغ فضولى شبهى، ولو طفت الآفاق، ومشيت العراق، من زقاق إلى زقاق»[١٣٢].

وإحدى المغنيات اللائى ربّاهنّ وباعها إلى هذيل بن رزين أمير السهلة بثلاثة آلاف دينار (ستون ألف فرنك ذهبا) كانت شيئا رائعا فيها يقول ابن بسام:

«كانت واحدة القيان فى وقتها، لا نظير لها فى معناها، لم ير أخف منها روحا، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناء، ولا أجود كتابة، ولا أملح خطا، ولا أبرع أدبا، ولا أحضر شاهدا على سائر ما تحسنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه، إلى الشروع فى علم صالح من الطب ينبسط بها القول فى المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلى الصناعة، إلى حركة بديعة فى معالجة صناعة الثقاف[١٣٣]، والمجاولة بالحجَفَة والمعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عديل. وابتاع إليها كثيرا من المحسنات المشهورات بالتجريد[١٣٤]، طلبهنّ بكل جهة، فكانت ستارته فى ذاك أرفع ستائر الملوك بالأندلس»[١٣٥].

ويشير ابن بسام فى نهاية النص الذى أوردنا إلى أن الموسيقيات والمغنيات اللائى كن فى حوزة الشخصية نفسها كن يتجمعن فى فرقة حملت اسم «الستارة»، أخذا من كلمة الستارة، وكانت تستخدم كما فى المشرق، لسترهن عن نظرات المدعوين[١٣٦]. ويشير المعتضد إلى هذه العادة فى البيت التالى الذى يتحدث فيه عن الحمام الذى يعشش فى الأشجار:

أوراقــهــا أســتــارهــا إذا شــدت فى فــتــن[١٣٧]

---

(١٣٢) الذخيرة ٣٩١/٣ - ٣٢٠. وعن ابن الكتانى انظر فيما سبق ص ٢٢٩ الهامش رقم ٣ من هذا الكتاب، وصاعد الأندلسى، كتاب طبقات الأمم، ترجمة بلاشير ١٤٨.

(١٣٣) انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية، جـ ١ مادة «ثقف»، وربما يجب أن نقرأها «الشقاف»، أو «شقف»، ويعطيها فى المعجم معنى tympanum (أى الطبلة) و tejuela (لعبة الرمى).

(١٣٤) أتنك أنها يجب أن تقرأ التجويد بمعنى فن قراءة القرآن مضبوطا، كما فى النسخ المختلفة، و أرجح التجريد، ويمكن أن يكون معناها «لعبة السيف».

(١٣٥) الذخيرة ١١٢/٣، وفى أخبار ١٨١ - ١٨٢، ومجهول فى البيان المغرب ١٨٤/٣، وهامش ص ٣٠٨، وترجمته فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٢٠، وأعمال الأعلام ٢٠٦، ونفح ٦٩٣/١ طبعة أوربا، وعنها فى: دوزى، تكملة ١٨٥/١.

(١٣٦) فى حفلة الإعذار التى أقامها المأمون أمير طليطلة كانت هناك فرقة موسيقية تتألف من النساء، وأخرى تتألف من الرجال، ويطلق ابن حيان على الأولى تعبير «ستارة الغناء»، وعلى النساء «أهل الحجاب»، ويسمى الثانية «نوبة المغنين». انظر: الذخيرة ١٣٥/٤. وكان الرشيد بن المعتمد يملك أيضا ستارة: نفح ٩٥/٤، وعنه فى «بنو عباد» ٤٠/٢، وابن الأثير، الكامل، ترجمة فنيان، ص ٤٩١. وكان فى قصر ابن عباس وزير الصقلبى أمير المرية خمس مئة مغنية، كلهن رائعات الجمال. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٢، وفيما يتصل بالمشرق انظر: آدم متز، الحضارة الإسلامية ص ٣٧٩، وترجمة بيلا إلى الإسبانية ص ٤٧٩.

(١٣٧) من الرجز، الذخيرة ٣٠/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٦/١، ونفح ٢٤٢/٤.

ويعبر ابن عبدون عن الشيء نفسه حين يقول:

والطير فى ورق الأشجار شادية ... كأنهن قيان خلف أستار[١٣٨]

ولكن عائلة الأمير تستطيع الاستماع إلى الموسيقا والغناء دون أن يكون هناك ستارة تحول بينها وبين أن تتأمل الموسيقيات والمغنيات. يقول النحلى:

ولاعبة الوشاح كغصن بان ... لها أثر بتقطيع القلوب
إذا سوت طريق العود نقرا ... وغنت فى محب أو حبيب
فيمناها تقد بها فؤادى ... ويسراها تعد بها ذنوبى[١٣٩]

وشاعر آخر، أبو بكر محمد ابن نصر الاشبيلى، يقدم لنا معلومات عن ملابس المغنيات والموسيقيات يقول:

وكأنما تلك الرياض عرائس ... ملبوسهن معصفر ومزعفر
أو كالقيان لبسن موشى الحلى ... فلهن فى وشى اللباس تبختر[١٤٠]

ويقدم لنا ابن الزقاق المعلومة التالية عن الملابس أيضا:

تشدو ووسواس الحلى يجيبها ... مهما انثنت فى وشيها وعقودها[١٤١]

وقد اتخذ مسيحيو الشمال بعضا من العادات الاسلامية، من بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقيات والمغنيات، ويؤكد ابن الكتانى هذا الواقع، والذى تحدثنا عنه عندما أشرنا إلى أكاديميات الموسيقا فى قرطبة، ويقص علينا: «شهدت يوما مجلس العلجة (= مسيحية إسْبانية) بنت شانجه ملك لبشكنس، زوج الطاغية شانجه بن غرسية بن فرذلند – بدد الله شيعتهم – لبعض ترددنا[١٤٢] عن ثغرنا إليه فى الفتنة [عام ١١٣٢]، وفى المجلس عدة تينات مسلمات من اللواتى وهبهن له سليمان بن الحكم[١٤٣] – المتقدم ذكره صدر هذا الديوان – أيام إمارته بقرطبة، فأومأت العلجة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلى ما للريح تأتى كأنما ... يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاد أحبتى ... فأحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله أرضا حلها الاغيد الذى ... لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فرقتين فعنده ... فريق وعندى للسياق فريق[١٤٤]

---

(١٣٨) من البسيط، الذخيرة ٢/٣٠، وبنو عباد ٢٤٦/١، ومينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٩٠ رقم ٢.

(١٣٩) من الوافر، نفح ٤٤٥/٣.

(١٤٠) من الكامل، نفح ٤٨٤/٣.

(١٤١) من السريع، نفح ٤١٥/٣.

(١٤٢) لا يفهم من هذه الرحلات أنها كانت بسبب ذهابه سفيرا، وإنما – تحت ستار الطب – لكى يتاجر فى الأسيرات المسيحيات. انظر فيما سبق ص ٢٣٦ و ٢٣٧ من هذا الكتاب.

(١٤٣) شانجه بن غرسية حكم من عام ٩٩٥ إلى ١٠١٧، وحكم سليمان بن الحكم من ٣٩٩ إلى ٤٠٧ = ١٠٠٨ – ١٠١٦. انظر: مينديث بيدال، المجلة الإسبانية، مجلد ٤٠، عام ١٩٣٨، ص ٣٩٣.

(١٤٤) الأبيات من الطويل.

فأحسنت وجودت وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر[١٤٥]، فما هو إلا أن سمعت إحداهن الشعر فأرسلت عينيها كأنهما مزادتان، فرققت لها وقلت: ما أبكاك؟ قالت: هذا الشعر لأبى، وسمعته فهيج شجوى، فقلت لها: يا أمة الله، ومن أبوك؟ قالت: سليمان بن مهران السرقسطى، ولى فى هذا الاسار مدة، ولم أسمع لأهلى بعدى خبرا.

قال ابن الكنانى: فما جزعت لشىء جزعى عليها يومئذ[١٤٦].

وبعد ذلك بما يقرب من خمسين عاما، بعد أن استولى النورمانديون على بربشتر عام ٤٥٦ = ١٠٦٤، ذهب تاجر يهودى إلى هذه المدينة ليفتدى إحدى بنات الأسر الشريفة من الأسر، وكانت الأسرة قد أفلتت من المذبحة، وجاءت عند قسمة الغنائم من نصيب كونت الحامية، ويقص علينا التاجر:

جئت «بربشتر البائسة بعد الحادثة عليها، ملتمسا فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلن فى سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله الذى كان نزله فيها، واستأذنت عليه فأجده جالسا مكان رب الدار، مستوليا على فراشه، رافلا فى نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما تخلفها ربها يوم محنته، لم يتغير شىء من رياشهما وزينتهما، ووصائف على رأسه روقة، مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات لخدمته، فرحب بى، وسألنى عن قصدى، فعرفته وجهه، وأشرت له إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه، وفيهن كانت حاجتى...».

لكن الكونت رفض أن يتنازل عن الفتيات اللائى يخدمنه، وبخاصة ابنة صاحب المنزل، وله حسب فى قومه، فقد اصطفاها لنفسه لجمالها، واتخذها محظية له ثم قال: «وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة - وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العين والدها، التى كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته. يا فلانة - يناديها بلكنته - خوذى عودك فغنى زائرنا بشجوك، قال: فأخذت العود وقعدت تسويه، وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العلج، فصار من الغريب أن حث شربه عليه، وأظهر الطرب منه، فلما قطعت ويئست مما عنده، قمت منطلقا عنه، وارتدت لتجارتى سواه، فاطلعت من كثرة ما لدى القوم من السبى والمغنم ما طال عجبى منه»[١٤٧].

إن توهج اللغة العربية، وازدهار الشعر الأندلسى، لا يمكن أن يتضح بأفضل مما فى هذين النصين اللذين أتينا عليهما.

والملامح التى أشرنا إليها فى حياة الكنانى تجعلنا نميل إلى الظن بأن قرطبة بخاصة كانت المكان

---

(١٤٥) أشار دوزى فى تكملة المعاجم ٤٢٦/٢ إلى هذه الجملة الأخيرة.

(١٤٦) الذخيرة ٣١٨/٣، وينقل ابن بسام هذه الرواية عن أبى محمد بن حزم، وتوجد أبيات الشعر فى: الضبى، البغية، ترجمة رقم ٧٧٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(١٤٧) الذخيرة ١٨٧/٣ - ١٨٨، ونفح ٤٥١/٤، وترجمة دوزى لها فى أبحاث، ط ٣ جـ ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٨، ونعرف أن هذا المشهد أعطى موريس بريس مادة لموضوعه: «مسلمة شجاعة»، فى كراسات، المجلد ٤، عام ١٩٠٤ - ١٩٠٦. وانظر أيضا: ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ص ٦٠ - ٦١، ومينديث بيدال، الشعراء الجوالون وشعرهم ١٣٦ - ١٣٧.

المُهيَّأ لتربية الجوارى المخصصات لتكوين جانب من «الستارة»، أو الفريق الموسيقى التى يعمل عند الشخصيات الأندلسية، وثمة حدث يكشف بطريقته عن التنافس الذى كان قائمًا بين بنى الأفطس وبنى عباد، ويلقى فى الوقت نفسه ضوءًا قويًا على نفسية العواهل الأندلسيين، ويؤكد الشهرة التى كانت تتمتع بها المغنيات القرطبيات فى القرن الحادى عشر. ذلك أن المعتضد عندما علم بموت ابن الرميمى الوزير القرطبى بعث رسولاً يشترى له جارية الوزير. وكانت شهرتها قد طبقت الآفاق، وأراد المظفر أمير بطليوس، وكان سوء الحظ من نصيبه فى حملاته ضد المعتضد، أنْ يظهر أن هذه النكسات لا تؤثر فيه، وليقلّد خصمه، فبعث بدوره أيضًا رسولاً إلى قرطبة لكى يحصل له على موسيقيات ومغنيات، ولكنه لم يجد غير «صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما، فاشتراهما له. وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع، لقطع حيل المعتضد جميع الطرق، فأقام مدة بقرطبة» إلى أن أرسل له المظفر خيلا كثيفة، لكى يستطيع الوصول إلى بطليوس(١٤٨).

وثمة رواية أخرى تسمح لنا أنْ نؤكد بأنّ قرطبة كانت تحتكر الجوارى المغنيات، فقد تلقى أبو الوليد بن جَهْور أمير المدينة ثلاث رسائل فى يوم واحد، فيما يقول، واحدة من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوّادة، والثانية من ابن عبّاد يطلب جارية زامرة، والثالثة من سوّاجات صاحب مدينة سبتة يطلب قارئًا يقرأ القرآن، فوجه إليه من طلبة قرطبة رجلاً يعرف بعون الله بن نوح، وعجب أبو الوليد من ذلك وقال: «جاهل يطلب قارئًا، وعلماء يطلبون الأباطيل»(١٤٩).

والنتيجة التى نستخرجها مما سبق، أنه على النقيض مما كنا نعتقد حتى وقتنا هذا، لم تكن إشبيلية هى التى تحتكر المتعة والموسيقا فى القرن الحادى عشر، وإنما قرطبة. ودون شك فإن مصدر هذه الأسطورة أن عاصمة بنى عبّاد أظهرت ميلها إلى اللذائذ علانية، على حين أن قرطبة المتشدّدة فى أمور الدين عرفت كيف تفجر دون أن يكون ذلك علانية وفى وضح النهار. ومع ذلك، فإن قرطبة تشدّدت فى ميلها إلى الطهر فى القرن الثانى عشر، ولم تعد تتستّر بقناع شفاف من النفاق، على حين واصلت إشبيلية حياة الفراغ والبطالة والبهجة الصاخبة، يومها فقط نستطيع أن نعترف بصدق الفكرة التى وجهها ابن رشد إلى ابن زُهر: «إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية»(١٥٠) وهكذا أصبحت إشبيلية الوحيدة التى يمكن أن يطلق عليها «مدينة الادب واللهو والطرب»(١٥١).

لم يكن فى إسبانيا، على ما يبدو، نساء أو رجال يحترفون الرقص فحسب، والراقصات كنّ فى الوقت نفسه مغنيات وموسيقيات، ورأينا ونحن نتحدث عن ابن الكتانى مدى العناية بالتربية التى تتلقاها التلميذات فى المعاهد الموسيقية، وكانت قرطبة تحتكرها. وراقصات أبدة اللائى أشار الشقندى

---

(١٤٨) الذخيرة ٣٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٩/١، والبيان المغرب ٢١٢/٣.

(١٤٩) البيان المغرب ٢٥٠/٣.

(١٥٠) نفح ١٥٥/١ و ٤٦٣، وفون شاك ترجمة اليرا، شعر العرب وفنهم ٦٦/١. وإرنست رينان، ابن رشد والرشدية ١٢/٢. وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٢٣٤، ودوزى مقدمة طبعة نفح الطيب الأوربية ٤٠/١، وكاترسى، مذكرة عن حب الكتب عند المشارقة، ص ٧١ - ٧٢.

(١٥١) نفح ٢٠٨/١.

إلى شهرتهن فى القرن الثانى عشر لأنهن يتمتعن «بحسن الانطباع والصنعة، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك، وإخراج القروي والمرابط والمتوجه»[١٥٢]، لم يكنّ موجودات فى القرن الحادى عشر فيما يبدو، والروعة التى حققها ابن الكتانى فى قرطبة على نفس المستوى من المهارة والكفاءة، ولكن ذلك كله كان فى الغناء والموسيقا بخاصة.

لا نعرف بالدقة طبيعة الحركات التى كانت تقوم بها هؤلاء الفنانات، وهل كانت تتم فى المناديل والسيوف أم بدونها، ويسمح لنا الشعر بأن نظن، كما فى حالات أخرى كثيرة، بأنهن كنّ يتثنين إلى الخلف، دون شك[١٥٣] لكى يتظاهرن بإغماءة غرامية، يقول ابن الزقاق:

وهَويتُها سمراءَ غنّتْ وانثنتْ فنظرتُ من ورقاءَ فى أُملودها
تشدو ووسواسُ الحلىّ يجيبها مهما انثنتْ فى وشيها وعقودها
أو ليس من بِدْعِ الزمانِ حمامةٌ غنّتْ ففى طوقُها فى جيدها[١٥٤]

وعندما يصف حسام الدولة ابن رزين حديقة يقول:

إذا صافحتْه الريحُ خلْتَ غصونَه رواقصَ فى خُضْرٍ من العصْب مُيَّدًا[١٥٥]

وثمة فقرة فى مقدمة ابن خلدون[١٥٦] نفهم منها أن الراقصات كن يعلّقن الكُرَّج[١٥٧] فى ملابسهن، وتحمل سم «قباء» لتمثيل الفرسان الذين يسارعون إلى الهجوم، ويقاتلون فى التقهقر، ثم يعودون إلى المعركة من جديد، وهذا القباء يجب أن يكون، فى ضوء أوصاف الشعراء، ملابس فى شكل عباءات، يمكن أن تفتح تماما من أعلى إلى أسفل، فتسمح للراقصة بأن تظهر فجاءة عارية، مثل «زهرة توشك أن تتفتح» كما يقول المعتمد[١٥٨].

---

(١٥٢) القلقشندى، رسالة فضل الأندلس، فى نفح ٢١٧/٣، وترجمة غرسية غومث لها ١٠٧، وريبيرا، موسيقا Las Camtigas ٦١. وخير تفسير لهذه الفقرة الصعبة هو، فيما يبدو لنا، ما قدمه الأب أنستاس الكرملى، فى المقتبس ٤٣٥/١، ونقله كرد على فى مجلة المجمع العلمى فى دمشق، المجلد ٢، عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١، والإسلام والحضارة العربية ٢٣٧/١ رقم ١، وغرائب الغرب ١٧٠/٢ رقم ١.

(١٥٣) يقول ابن حمديس عن راقصة رآها فى شمال أفريقيا على التأكيد:

وراقصةٍ لقطتْ رجلُها حسابَ يدٍ نقرتْ طارها

انظر: الديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧، ص ١٥٥. وانظر فيما سبق ص ٣٣٤ رقم ١١٢ من هذا الكتاب.

(١٥٤) من السريع، نفح ٤١٥/٣.

(١٥٥) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها فى «بنو عباد» ٤٤٤/١، والحلة ١١١/٢.

(١٥٦) طبعة كاترمير ٣٦١/٢، وترجمة دى سلان ٤٢١/٢.

(١٥٧) حول هذه الأشياء انظر فيما سبق ص ٣٠٥ من هذا لكتاب، ودوزى، تكملة المعاجم العربية ٤٥٣/٢.

(١٥٨) القلائد ٦، وعنها فى «بنو عباد» ٣٩/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٩١. وانظر ص ٣٥٤ فيما سيأتى من هذا الكتاب. وسوف يصف ابن نزار فى القرن الثانى عشر تمثال راقصة يحيط بها رذاذ الماء بأنها مثل خباء، على النحو التالى:

رأيت خباءَ الماءِ ترسل ماءها فنازعها هبُّ الرياح رداءها
تطاوعه طورا وتعصيه تارة كراقصة حلّت وضمّت قباءها

من الطويل، نفح ٤٩٧/٣.

ويتضمن كتاب الأغانى (طبعة بولاق ٢٤/٧) الفقرة التالية: «خرج أهل البصرة يستسقون وخرج فيهم السيد [الحميرى] وعليه ثياب خز وجبة ومطرف وعمامة».
=

وفيما يتصل بألوان ملابس الراقصات يبدو أن اللون الأحمر كان المفضّل عندهن، أو كما يقول ابن عمار: الجمال يجب أن يرتدى ملابس حمراء[١٥٩]. ويذكر ابن عذارى وهو يتحدث عن عبد الرحمن شَنْجول هذه الفقرة المثيرة: «فافتتح شنجول أمره بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه، مع الخياليين[١٦٠] والمغنين والمضحكين، مجاهرا بالفتك وشرْب الخمر»[١٦١]. ويحدثنا المؤرخ نفسه عن أحد أواخر الأمويين، محمد بن هشام بن عبد الجبار، أنه «بعث إلى نساء كان يصاحبهنّ، منهنّ جارية أبي القاسم المصرى الخيالىّ التى يقال لها بستان، وامرأة ابن الشرح التى اسمها واجد»[١٦٢]

ولقب المصرى يقودنا إلى أصل هؤلاء الخياليين، وقد وجدنا واحدا منهم فلكيا، مصرى الأصل، إلى جانب المعتمد، وكانت لمصر علاقات وصلات فنية مع الغرب الإسلامى[١٦٣]، وظلت أرض الفراعنة فى نظر هذا الغرب أرض السحر والرقى.

يا للروعة إذن، فالذين يمارسون الألعاب اليدوية هم فى الجانب الأكبر منهم مصريون! وكانوا موضع التقدير العظيم سواء فى إشبيلية أو قرطبة أم المرية، والمقطوعة الشعرية الأكثر إثارة، وتملكها عن هؤلاء المشعوذين، هى من نظم ابن الحداد شاعر المعتصم أمير المرية. وسنرى أن تسلية الأمير لم تكن تقتصر على سماع إنشاد الشعر فحسب:

وأسمعتنا لاحنًا فتّنا	وأحضرْتنا لاعبًا ساحرًا
يُرَقّن فوق رؤوس القنى[١٦٤]	فتنظرُ ما يذهل الناظرَا
ويخطفها ذيْل سرباله	فتبصرُ طالعَها غائرا
فظاهرُها ينثنى باطنًا	وباطنها ينثنى ظاهرا[١٦٥]
وثنّاه ثانٍ لألعابه	دقائق تثنى الحجى حائرا
وفى نيّم الراحِ من سحره	خواطرُ وهْتِ الخاطرا
إذا ورد اللحظُ أثناءها	فما الوهمُ عن وِرْدها صادرا
ومن يدّع نُعماك إبداعُه	فما انفكّ عارضها ماطرا
وسرْوُكَ يجتذب المغربات	ويجعل غائبها حاضرا[١٦٦]

= وقد وصف جورج مارسيه القباء على النحو التالى «عباءة عربية وفارسية، تحيط بالقامة، ولكنها تكوّن نطاقا حول الفخذين» انظر: ملابس مسلمى الجزائر ص ٤٦.

(١٥٩) نظر فيما سبق ص ٢٨٦ من هذا الكتاب.

(١٦٠) شك فى أن هذه الكلمة نسبة إلى «خيال» بمعنى خيال الظل الصينى.

(١٦١) لبيان المغرب ٣٩/٣.

(١٦٢) لبيان المغرب ٨٠/٣.

(١٦٣) حول هذا الموضوع انظر: ج. مارسيه، لتبادل الفنى بين مصر والغرب الإسلامى، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٩، العدد ١ - ٢، عام ١٩٣٤، ص ٩٧.

(١٦٤) قرأناها «قنانى» كما فى الذخيرة، ولعل بيان (مغنيات) كما فى نفح الطيب.

(١٦٥) م أفهم معنى هذا البيت.

(١٦٦) من التقارب، الذخيرة ٧٢٢/١، وعنها ى بن ظافر، بدائع البداية ٣٦٥، ونفح ٢٦٣/٣، وأحمد ضيف، بلاغة العرب فى الأندلس، ص ١٨٨.

هذا المشعوذ، كما يشهد ابن بسام في مقدمته للأبيات السابقة، مصرى أيضا، ولحظنا فى البيت الثالث أنه يخفى زجاجات، ووصف لنا ابن بقى مشعوذين آخرين يقومون بالخدعة نفسها:

بأبى قضيبُ البانِ يثنيه الصَّبا   عِوَضَ الصَّبا فى الروضة الغنّاءِ
نادمتُه سحرًا فأمتعَ مسمعى   بترنّم كترنّم الورقاء
وكأنما أكمامه فى رقصه   تتعلّم الخفقان من أحشائى
ويمرّ يلتقط الزجاجَ بذيله   مرَّ النسيم على حبابِ الماء[١٦٧]

وهكذا فإن إسبانيا الإسلامية إذا كانت تدين للمشرق بشىء فيما يتصل بالخياليين والمشعوذين فإنما تدين به لمصر وحدها، وكل شىء أصيل فيما يتصل بالموسيقا والغناء والرقص، وأما المدينة وبغداد فقد فقدتا فى نظرها كل هيبتها، ولقد بهت زرياب فى الذاكرة، وربما نسوه تماما، وقاوموا موسيقا المغرب، وحاولت أن تفرض آلات القرع، وهى جد صاخبة بالنسبة لذوقهم. وكانوا فى هذا المجال لايزالون، فيما يبدو، يخضعون لاتجاهاتهم الذاتية الوطنية، وتدريجا أصبحت موسيقاهم شخصية، وتشكلت بخصائصهم الذاتية، طبقا لمذاقهم الخاص، ومع هدم الجسور بينهم وبين بغداد تطورت موسيقاهم مستقلة، ثم اغتنت بأشكال جديدة أكثر نعومة وأشد حيوية عن ذى قبل، وأفسحت مع الزمن مكانا أوسع للإلهام الشعبى عندما التقطت الترانيم والأغانى الإسبانية الخالصة: الموشح والزجل. ومن الحق أن الموسيقا الأندلسية فى القرن الحادى عشر أخذت تقاسيمها التى حافظت عليها فيما بعد، وأشاعتها بدورها بين المسيحيين الإسبان، وصدرتها إلى المغرب وتونس، واحتفظت حتى يومنا هذا باسمها المميز: الغناء الأندلسى أو كلام غرناطة.

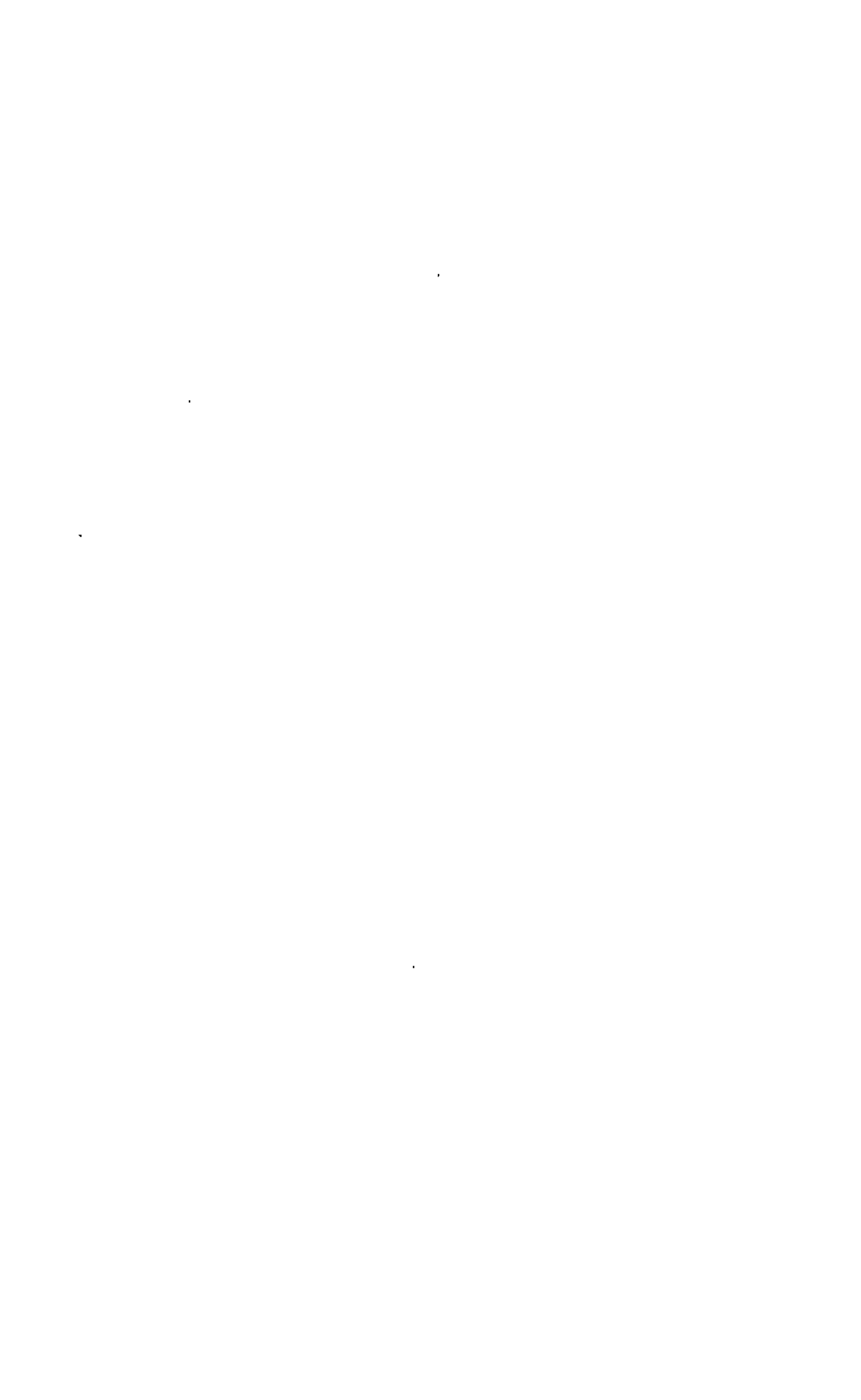
---

(١٦٧) من الكامل، القلائد ٢٨١. ويشير ابن قزمان إلى الأكمام العريضة، التى تلفها الراقصة بصاحبة الدف. انظر: الديوان، القطعة ١٤٧، الدور ٥. والرقص بالأكمام يتم فى مصر أيضا. انظر: مرسيه، صورة الإنسان والحيوان، ص ٢٥١.



البَـابُ الرابـِعُ

الحياة الداخلية



○ الفصل الأول:

المرأة والحب

تحتل المرأة والحب فى كل الموضوعات التى حلّلناها مكانا راجحا، ونجد المرأة فى وصف الطبيعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل ما يضفى الجمال على الحدائق والمياه الجارية، وزهرة أو جوهرة يمكن أن تقودنا بالضرورة إلى تشبيهها بفم الحبيبة أو خدها أو عينها أو خصالها، وحتى الألوان، وبخاصة الأحمر والأصفر من بينها، تبدو دائما وكأنها تحكم العشّاق، ومن يحبون: فالأصفر يرمز للحبيب الشاحب يضنى شكًا وطول سهاد، على حين يرمز الأحمر إلى العذراء اللعوب تتلذ بعذاب حبيبها، واللون الأصفر يشير إلى القلق كما أن الأحمر يعنى الحياء.

وفى هذا المجتمع الذى استطاع الإسلام أن يسمه بطابعه فى بعض مظاهره الخارجية، دون أن يشكّله بعمق، استطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دورا رئيسيا، أوضح مظاهره أنها استحوذت على فكر الرجل. وندر بين الأندلسيين من اعتبر المرأة كائنا شريرا ويستطيع أن ينشد مع ابن الحدّاد:

خُنْ عهدَها مثلَ ما خانتكَ مُنتصِفًا ... وامنَحْ هواها بنسيانٍ وسُلْوانِ
فالغيدُ كالروض فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ ... إنْ مَرَّ جانٍ - أتى من بعده جانِ[1]

وأقل ندرة، فى الشعر على الأقل، أولئك الذين يستنكرون الحرية التى مُنحت للمرأة، ويطالبون بأن

---

(١) من البسيط، نفح ٣/٥٠٥، ودوزى، أبحاث ط ص ١٠٦ و ط ٣ ١/٢٥٣، وقيل ابن الحداد أنشد يحيى الغزال:

يا راجيًا ودّ الغوانى ضلّة ... وفؤاده كلف بهنّ موكل
إن النساء لكالسروج حقيقة ... فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فإذا نزلت فإنّ غيرك نازل ... ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل المجتاز أصبح غاديًا ... عنه، وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها ... تدنو لأول من يمر فيأكل
اعط الشبيبة لا أبالك حقها ... منها فإن نعيمها متحول
وإذا سلبت ثيابها لم تنتفع ... عند النساء بكل ما تستبدل

من الكامل، نفح ٢//٢٥٩. وأورد برون هذه الأبيات فى كتابه «نساء عربيات» ونسبها إلى شاعر مجهول، ص٢٨٧ - ٢٨٨.

ويقول ابن قزمان أيضًا، وقد خبر كل الأنواق الرقيقة فى الحب، عن المرأة:

النساء، كما فى علمك ... الهروب منهم غنيمة
لس نرى الواحد منهم ... ما بقت فى الدنيا قيمة
وسوى تكون فى عينى ... الجديدة والقديمة
والبعيدة والقريبة ... والسمينة والدقيقة

ديوان ابن قزمان، الزجل ورقم ٨٩.

تلتزم نظاما أشد قسوة فى حياتها، مثل أبى عبد الله بن المصادف الرندى، الذى طلب من النساء ألاّ يخرجن كثيرا:

امنعْ كرائمكَ الخروجَ ولا تظهرْ لذلك وَجْهَ منبسطِ
لا تعتبرْ منهنّ مسخطةً نيلُ الرضا فى ذلك السخط
أو لسنْ مثلَ الدرِّ فى شبهٍ والدرّ من صرفٍ إلى سفط[1]

● ● ●

هذا الموقف المحدد والشاكّ من الرجل دليل واضح وحده وبنفسه على أن المرأة الأندلسية لم تكن منزوية على نحو ما تريدنا قواعد الإسلام ن نراه فى كل المسلمات، وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية. د'رمادى يتنزه فى يوم جمعة بين رياض بنى مروان فى قرطبة، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها، ولا يدعها تمضى إلاّ بعد أن يحصل منها على وعد بلقاء فى يوم الجمعة التالية[3]. وكان اسم الفتاة خَلْوة، ومن المؤكد أنها كانت ترتدى خمارا. ولئن كيف نتصور أن رجلا يستطيع أن يتحدث ردحا من الزمن إلى امرأة علانية، دون أن يتعرض لملاحظات خشنة أو غير مهذبة، لو لم يكن الجنس الضعيف يتمتع بحرية حقيقية؟.

ويقص علينا ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» مشهدا رآه فى إحدى نزهاته فى قرطبة، وهو أن ابن سهل الحاجب الصقلى كان مارا، فأخذت امرأة جماله فتتبعته، فلما اختفى فى منعطف الشارع ألقت بنفسها على الأرض تقبّل آثار خطوه[4].

ويمكن أن نشير أيضا إلى التفاتة امرأة من إشبيلية ألقت بها من أعلى نافذة فى جزيرة شَنتَبُوس على رجل كان يتنزّه فى قارب، ويتغنى بمغنى المرية:

خلِّين من وادْ ومن قوربْ ومن نزاها فى شنتبوسْ
غَرْسُ الحبقْ الذى فى دىرى أحبّ عندى من العروسْ

فأخرجت جارية رأسها وقالت له من أى بلدٍ أنت؟.

---

(٢) من الكامل، نفح ٤٣٦/٣، وفيما يرى ابن حزم، النساء «متفرغات البال من كل شىء، إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه». طوق الحمامة ص ٧٩، ترجمة نيكل ٧١، طبعة برشيه ١٢٦. وأسين بلاثيوس، ابن حزم القرطبى ٤٠/١.

(٣) انظر مقالنا عن الرمادى فى دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣، والمصادر المذكورة هناك، وذكرت أيضًا رياض بنى مروان فى البغية للضبى ٤٧٨.

(٤) طوق الحمامة ص ١٣٠ – ١٣١، وطبعة بتروف ٩٠، ومقدمته ص ٢١، وترجمة نيكل ص ١٣٩، وطبعة بيرشيه ص ١٢٦، وترجمة ل. ايكر Arabischer Provenzalischer und deuscher Minnesang ص ٢٠٦.

● قلت: هذه الفقرة ترجمة حرفية لعبارة المؤلف وهى تحتاج إلى إعادة تحرير، لأن نص عبارة ابن حزم فى طوق الحمامة: «أخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان فى غاية الجمال، فشاهده يومًا فى بعض المتنزهات ماشيًا، وامرأة خلفه تنظر إليه، فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه، فجعلت تقبل وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله».

أى أن ابن حزم كان ناقلاً ولم يكن شاهدا، وأن حداث القصة وقعت فى جزيرة صقلية الإسلامية وليس فى قرطبة (المترجم).

فقال: من المرية.

فقالت: وما أعجبك فى بلدك حتى تفضله على إشبيلية، وهو بوجه مالح وقفا أحرش[٥].

ولا يُظن أن هذه الأحداث تقع فى قرطبة وإشبيلية فحسب، وإنما حدثت فى مرسية أيضا، ففى إحدى جنأتها، فى قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواحٍ طيرها غَرِدٌ، يحكى الجنأن لمؤلف كتاب قلائد العقيان كيف استطاع أن يتأمّل معجبا «نساء ذوات شعور منشورة، وخدود غير مستورة، وقد رُفعت عنها البراقع، وما منها نظرة إلاّ ومعها سهم واقع[٦]».

ومن العادى جدا بين جمهرة الحرفيين أو الفلاحين أن ترى النساء دون خمار، وفى أشد الحالات تغطى رأسها بحجاب يترك وجهها مكشوفا، وفى ضواحى إشبيلية، فى منزه يُعرف باسم مرج الفضّة، أمعن المعتمد النظر فى غسّالة وسوف تصبح زوجته الشرعية وتحمل اسم اعتماد[٧]. وفى جولة أخرى للأمير نفسه، مع ابن عمّار، فى حىّ الجبّاسين والجيّارين من إشبيلية، التقى بامرأة ذات جمال مفرط «فكشفت وجهها، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء»[٨]. أليس هذا أيضا ما يميّز المشهد الذى نرى فيه ابن السراج المالقى، وكان يوما على نهر مالقة فمر به سرب من الملاح فيهن جارية حسناء، ظريفة النطق، تأكل باقلاء، فاعترضها، وسألها منه، فدفعته إليه، فقال بديهة:

وسربِ ملاحٍ مرَّ بى وبصاحبى … ونحن على ماءٍ يذكِّرنا عَدْنا
ويحمِلْن فولاً عندهن نظيرُه … عَوانٌ ولكنّ نوْرهُ عزَّ أن يُجْنى
فقلتُ: عسى من فولكنَّ بقيّةٌ … فقلْنَ: وأىُّ الفول ترغبه منّا؟
فقلتُ الذى تحت السراويلِ قُلْنَ لى … جَهِلتَ ولم تفهمْ مقالتَنا عَنّا
حرامٌ على من كان شيخا مُشوَّهًا … وصالُ ملاحٍ فتنَّ الشمسَ حُسْنا
وفيهنّ نشوى الطَّرفِ لم أر قبلها … من الإنْسِ شمسًا تحمل الدعصَ والغُصْنا[٩]

لكن المثل الأقوى دلالة على حرية المرأة تقدمه لنا ولادة بنت الخليفة المستكفى[١٠]، فقد اهتبلت فرصة موت والدها، فى لحظة غير متوقعة، خلال الفوضى والاضطراب الذى أدت إليه «الفتنة» لتعيش حياة متحرِّرة تماما، فأقامت «صالونا» يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة، وقد أظهرت بظرفها، واحتقارها الخمار، وجرأتها فى الحديث، وأحيانا شذوذ مواقفها، مايدل بوضوح على أنها تحرّرت تمامًا من كثير من الأوهام، وربما داخل أخبارها شىء من التزيد، وهو ما يعود إليها نفسها، ومع ذلك فإن التسامح معها بإزاء حياة من هذا اللون يعنى أن الإسلام، وهو متشدّد كثيرًا وحسّاس للغاية فيما يتصل بالمرأة، ارتخت قبضته شيئا فى الأندلس بخاصة، ومضطرون للتسليم بأن المناخ الذى أوجدته بيئة ذات عادات مسيحية أتاح للإسلام أن يصل إلى مفهوم أكثر

(٥) انظر فيما سبق ص ١٠٩ و ١١٠ و ١٢٧من هذا الكتاب. ونفح ٣٨٩/٣.

(٦) القلائد ١١٦، وعنه نقلها نفح ٦٧٣/١.

(٧) التيجانى، تحفة العروس، نقلاً عن «بنو عباد» ١٥١/٢، ونفح ٢١١/٤، وعنه فى «بنو عباد» ٢٢٥/٢.

(٨) نفح ٢٦٠/٤، وانظر فيما سبق ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(٩) الـ[illegible] ٨٨١/١، وانظر أيضًا مشاهد أخرى فى ديوان ابن قزمان، القطعة رقم ٨٧ مثلاً.

(١٠) عن ولادة انظر: أ. كور، ابن زيدون، ص ٢٢ – ٣١، والمصادر المذكورة هناك.

تحرّرا فيما يتصل بوضع المرأة[١١].

ويمكن الحكم على نحو أدق فيما يتصل بمستوى تحرر المرأة إذا أضفنا إلى هذه الصورة «المتحررة»، كما تركتنا ولّادة ندركها، صورة أخرى لجارية غلامية[١٢]، وهى معروفة فى المشرق[١٣]، ولكنها أخذت فى الأندلس ملامح متميزة، ولقد ذكرنا فيما سبق أبياتا لابن شهيد يصف فتاة قصّت شعرها،فأتت غيداء فى شكل صبى[١٤]. ونفهم من بيت فى قصيدة أبى الفضل بن شرف، أنه كانت توجد أيضا أندلسيات مسترجلات:

أشْوسُ الطرْفِ علتْـهُ نخوةٌ　　　يتهـادى كـالغـزال الخَرِقِ[١٥]

هذه الحرية التى كانت تتمتع بها الأندلسية فى المجتمع الإسبانى المسلم تتيح لنا أن نفهم على نحو أفضل وفرة القصائد التى أنشدها الشعراء، ويتغنون فيها بجمال المرأة الحسى وبصفاتها النفسية على السواء. والكثير من هذه القصائد موجه إلى مغنيات وموسيقيات دون شك، ولكن إلى جانب الأوصاف التى يحتل منها ما هو حسّى مساحة وسعة، نجد مقطوعات أخرى، ليست بأقل عددا، نلحظ خلالها إجلالا حقيقيا للمرأة لا جدال فيه، ونعتقد أن هذه الاندفاعات الغنائية، وفيها لا يكاد الهوى الحسى يطل برأسه، لا توجه فحسب إلى المرأة التى جعل منا وضعها رقيقةً مجرد جارية تخضع لكل نزوات سيدها. وقد يكون فى كل ما يقال شىء من الخيال، وهو ما لا شك فيه، أما القول بأن هذه العواطف السامية لم تكن لها أساس فى الواقع فأمر يبدو بعيد الاحتمال.

● ● ●

---

(١١) ألا يمكن أن تكون هذه الحرية نتيجة الصعوبات التى كانت تواجهها المرأة المسلمة كى تتزوج، بسبب الأعداد الكبيرة من الأسيرات والعشيقات المسيحيات اللاتى أخذن طريقهن إلى الحرم؟ انظر فيما سبق ص ٢٦٥ رقم ١٧ من هذا الكتاب.

● قلت: يريد المؤلف هنرى بيريس أن يرد حرية المرأة المسلمة فى الأندلس إلى بيئة مسيحية مؤثرة زعمها، فلنسمع ما يقوله مستشرق آخر عظيم عن وضع المرأة فى هذه البيئة الإسبانية المسيحية: «بتأثير الإسبان كانت لاترى امرأة قط فى شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى».

انظر: آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ط ٣ جـ ٢ ص ١٧٠، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م ولمعرفة رأى المسيحية فى المرأة فى العصور الوسطى، ومكانتها فى المجتمع، انظر كتابنا: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣، ص ٢٠٣ وما بعدها دار المعارف، القاهرة ١٩٨ (المترجم).

(١٢) يقول الأسعد بن بليطة فى قصيدة شهيرة له:

غلامية جاءت وقد جعل الدجى　　　لخاتم فيها فَصّ غالية خطّا
فقلت أحاجيها بما فى جفونها　　　وما فى الشفاه اللعس من حسنها المعطى
مخمرة العينين من غير سكرة　　　متى شربت ألحاظ عينيك إسفنطا
أرى نكهة المسواك فى حمر اللمى　　　وتاريك المخضر بالمسك قد خطا
عسى قزح قبلته فأخاله　　　على الشفة اللمياء قد جاء مختطا

وهى من الطويل، المطمح ٣٤٣، ونفح ٤/٥، وابن خلكان، الوفيات، ٣٦/٢، وترجمة دى سلان ١٠٣١/٣ وانظر فيما سبق ص ٢١٠ الهامش رقم ٥٠ من هذا الكتاب

(١٣) انظر المسعودى، مروج الذهب، ٢٠٤/٨، وآدم متز، الحضارة الإسلامية، ٣٣٦، والترجمة الإسبانية ٤٢٧ والترجمة العربية ١٥٩/٢.

(١٤) انظر فيما سبق ص ٣٢٧ من هذا الكتاب.

(١٥) من الرمل، نفح ٣٩٤/٣، وأبحاثه ط ١ ص ٩٢.

أن تكون الشهوات قد اختفت أمر لا يمكن البرهنة عليه، ووصف المحبوبة حسيًّا شاهد على ما نقول، ونحن هنا مضطرون للاعتراف بأن جانبا مما كان يتردد فى الشعر أكبر مما كان يجرى فى الواقع فعلا، ولهذا تكثر الذكريات الكلاسية المبهمة، صفات الغزال والمهاة والظباء وبقر الوحش الحسية وأخذت مكانا هاما[(١٦)]، وكذلك وصف التلال والرمال وما اتصل بها[(١٧)].

وقد يكون مملاً أن نأتى هنا بمختارات لكل الصور، حتى لو تنوعت، ومن ثم فأن بعض الأمثلة تكفى.

يقول محمد بن البين البطليوسى مصورًا نساءهم، ربما مع شىء من السخرية:

غصبوا الصباحَ فقسّموه خدودا ... واستنهبوا قُضُبَ الأراكِ قدودا
ورأوا حصى الياقوت دون محلّهم ... فتقلّدوا شُهُبَ النجومِ عقودا
واستودعوا حَدَقَ المها أجفانَهم ... فسبوا بهنّ ضراغمًا وأسودا
لم يكفهمّ حملُ الأسنّةِ والظُّبى ... حتى استعاروا أعينا وقدودا
وتضافروا بضفائرٍ أبدوا لنا ... ضوءَ النهار بليْلِها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ... ماءُ الحياة لو اغتدى موروداً[(١٨)]

ويوجز المعتمد فى بيت واحد من الشعر الملامح المميزة لأم عُبيْدة، المرأة التى أحبها:

هىَ الظبىُ جيدا، والغزالةُ مقلةً ... وروضُ الرُّبَى عرفًا، وغصنُ النَّقَا قدًّا[(١٩)]

هذه الصور تقدم لنا بعض المعلومات عن ملابس المرأة، وقد أفدنا منها فى التمييز بين البرد والمئزر أو الإزار، فالأول يغطىِّ الجزء الأعلى فحسب، والثانى النصف الأسفل من الجسم[(٢٠)]. وسنرى أيضا أن كلمة «وشاح» لا تعنى عند الأندلسى العصابة، وإنما تأتى فى معنى الحزام[(٢١)].

وإذا كان المثل الأعلى الكلاسيكى تعلّق بالسمراء دائما، ذات شعر أثيث أسود فاحم[(٢٢)] فقد شغف

---

(١٦) إن ألفاظ بقر الوحش والمها والجؤذر قد تصدم الغربيين كثيرًا، ولكنها ليست كذلك فيما يتصل بالإغريق، لأن Hêra آلهة الزواج عندهم توصف بأنها: «ذات العيون البقرية». انظر: الإلياذة ٥٥١/١ وما بعدها. وبوالو، تأملات نقدية حول بعض فقرات بلاغة لونجين، التأمل التاسع: «إن كلمة عجلة (بقر صغيرة) ليست جميلة فى اللغة الفرنسية، وبخاصة فى قصيدة رعوية، وكلمة بقرة لا تحتمل، حين يشبه بها الشعراء العيون».

(١٧) الصورة المثالية للمرأة العربيه فى أدق صفاتها وأسدها تفصيلاً وأكثرها استبطانا، تقدمها لنا كتب الأدب والبلاغة مثل: العقد الفريد لابن عبد ربه أو أسرار البلاغة لبهاء الدين العاملى، وهناك ترجمة فرنسية قام بها بيّرون فى كتابه «نساء عربيات» ص ٥٣٢ – ٥٣٣، ونقلها واصف بطرس غالى فى كتابه» تقاليد الفروسية عند العرب» بالفرنسية ص ٨٣ – ٨٤. واللافت للنظر أن هذه الصورة تشبه كثيرًا مانجده فى نشيد الأناشيد فى التوراة، السفر ٥ الآيات ١٠ – ١٦. وقد استخدم بهاء الدين العاملى الصورة نفسها لكى يصف نساء الحيرة، متخذًا منها مثلًا، موحيًا بأن الجنس اللطيف واحد دائمًا. انظر الكشكول ص ٧٠ – ٧١، والأرجوزة فى اثنى عشر بيتًا.

(١٨) من لكامل . نفح ٤٠٣/٣ و٤٥٣.

(١٩) من الطويل ديوان المعتمد، ونفح ٢٧٩/٤، والقلائد ١٠، وعنه فى «بنو عباد» ٤٤/١.

(٢٠) انظر فيما سبق ص ٢٨٣ من هذا الكتاب.

(٢١) ابن شرف، القلائد ٢٥٤، ونفح ٣٩٣/٣ ودوزى معجم الملابس، ٤٢٩، والترجمة العربية ٣٤٦.

(٢٢) أنظر أبيات ابن شرف فى نفح ٣٩٢/٣، ودوزى، أبحاث، ط ١ ص ٩٢.

القرن الحادي عشر كثيرا بالشقراوات[٢٣]، ذوات الشعر المقصوص[٢٤]، ولم تعد المرأة الغيداء، ذات العنق الأوزى، تفضل الوقصاء دائما، وعلى أية حال، وكما لحظ ابن حزم، كان الأمر شخصيا بحتًا[٢٥].

يمكن أن نشير إلى مشاهد عديدة نرى فيها المحب ذاهبا إلى لقاء حبيبته آناء الليل أو أطراف النهار، فى إطار مستعار من الطبيعة أو خفية فى بيت، وهذه الغنائية التى تنضح وثنية نادرا ما تصل حد التفصيل الخادش للحياء، لأن المجون ليس من الاتجاهات الأساسية فى الشعر الأندلسي على التأكيد، وبعد إثارة شهوانية سطحية يندفع الشاعر فجأة إلى غنائية سامية تظهر أن روحه ليست أسيرة ما هو مادى فحسب. يقول الخليفة عبد الرحمن الخامس الملقّب بالمستظهر بالله[٢٦]:

طال عمرُ الليلِ عندى … مُذْ تولّعتِ بصدّى
يا غزالاً نقضَ الو … دَّ ولم يوفِ بعهدى
أنسيتَ العهدَ إذْ بتْـ … ـنا على مَفْرشِ وَرْد
واجتمعنا فى وشاحٍ … وانتظمنا نظمَ عِقْد
وتعانقنا كغُصْنيْـ … ـنِ وقدّانا كقدّ
ونجوم الليل تحكى … ذهبًا فى لا زَوَرْدِ[٢٧]

ويقدم ابن عمار النصيحة التالية إلى المعتمد وكان عجلا إلى لقاء محبوبته اعتماد بعد أن أنهى إحدى حملاته:

وقبيلَ خلْع نِجادِ السيف فسعَ إلى … ذَتِ الوشاحِ وخذْ للحب بالثار
ضمًّا ولثمًا يُغنى الحلْىُ بينكما … كما تجاوبُ أطيار بأسحار[٢٨]

وفكرّ المعتمد، وقد ابتعد عن إشبيلية على رأس حملة حربية، فى إحدى نسائه فكتب إليها يقول لها: كم يتمنى لو أنه قريب منها:

فقبّلتُ ما تحت اللثام من اللمى … وعانقتُ ما فوق الوشاح من العقد[٢٩]

وصورة العناق تمثل عند الشعراء «فكرة ملحّة»، يقول ابن الزقاق:

ومرتجّةُ الأعطاف أمّا قوامُها … فلَدْنٌ، وأمّا رِدْفُها فرَداحُ
ألمّتْ فبات الليلُ من قِصرٍ بها … يطير، ولا غيرُ السرور جناح
فبت وقد زارت بأنعمِ ليلة … يعانقنى حتى الصباحِ صباح

(٢٣) انظر أبيات ابن حزم فى طوق الحمامة ص ٥٠، ترجمة نيكل ص ٤، ط برلشير ٧٤ – ٧٧، وانظر فيما سبق ص ٢٦٩ من هذا الكتاب.

(٢٤) انظر فيما سبق ص ٣٢٧ وص ٣٢٠ من هذا الكتاب.

(٢٥) طوق الحمامة ص ٥٠، وترجمة نكل ٤٠.

(٢٦) وتنسب هذه الأبيات أيضا إلى لروانى الملقب بالحجر. ويقال له البطرشك Pedra Seca

(٢٧) من الرمل، الذخيرة ٥٧/١، وبغية ١٦/٢، والنفح ٤٣٦/٢، و ٤٨٩.

(٢٨) من البسيط، الحلة ١٣٢/٢، وبنو عباد ٨٨/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٩٠

(٢٩) من الطويل، خريدة القصر نقلا عن بنوعبادة ٣٨٧/١، وديوان المعتمد ص٦، وترجمة فقرة منه فى معجم الملابس لدوزى ص٤٠٠، (والترجمة العربية ص٣٢٣).

على عاتقى من ساعديها حمائلٌ ... وفى خصرها من ساعدىّ وشاح[٣٠]

وقدّم لنا ابن بَقِىٍ أجمل صورة عن ليلة حب:

عاطيتُه والليلُ يسحبُ ذيلَهُ ... صهباءَ كالمسك الفتيق لناشقِ
وضممتُه ضمَّ الكمىِّ لسيفه ... وذؤابتاهُ حمائلٌ فى عاتقى
حتى إذا مالتْ به سنةُ الكرى ... زحزحتُه شيئًا وكان معانقى
باعدْتُه عن أضْلعٍ تشتاقه ... كى لا ينامَ على وسادٍ خافق[٣١]

وصورة ابن خفاجة أشد شهوانية:

وليلٍ تعاطيْنَا المدامَ وبيننا ... حديثٌ كما هبَّ النسيمُ على الوردِ
نعاوِدُهُ والكأسُ تعبقُ مِسْكَةً ... وأطيبُ منها ما نعيدُ وما نُبْدى[٣٢]
ونقْلى[٣٣] أقاحُ الثغرِ أو سوسنُ الطلى ... ونرجسةُ الأجفانِ أو وَرْدَةُ الخد
إلى أن سرتْ فى جسمه الكأسُ والكرى ... وما لاَ بعطفيْهِ فمال على عضدى
فأقبلتُ أستهدى لما بين أضلعى ... من الحرِّ ما بين الثنايا من البرد
وعانقته قد سلَّ من وشىِ بردهِ ... فعانقتُ منه السيفَ سلَّ من الغمد
لِليانَ مَجَسٍّ واستقامةِ قامةٍ ... وهِزَّةَ أعطافٍ وروْنَقَ إفرند
أغازل منه الغصنَ فى مَغْرِسِ النقا ... وألثمُ وجْه الشمسِ فى مطلع السعد
فإنْ لم يَكُنْها أو تكُنْهُ فإنّه ... أخوها كما قُدَّ الشراكُ من الجلد[٣٤]
تسافرُ كِلْتَا راحتىَّ بجسمه ... فطورًا إلى خِصْرٍ وطورا إلى نهد
فتهبط من كشحيه كفى تهامةً ... وتصعدُ من نهديْه أخرى إلى نجد
وإنى وقد فارقْتُهُ لمقبِّلٌ ... مواقعَ هاتيك السوالفِ من زندى[٣٥]

ونلتقي عند أبي محمد بن القبطورنُه بشيء له إيقاع آسر، متوهج ومبتهج، ذات نغم إغريقي، لم يعرفه الأدب العربي فى المشرق على ما يبدو، باستثناء قصائد عمر بن أبي ربيعة وبشار بن بُرد:

يا خليلىَّ لقلب ... نِيلَ من كل الجهاتِ
لِيِمَ إن هام بريًا ... بالبنينا والبنات

(٣٠) من الطويل، نفح ٢٩٨/٤ (الديوان ص ١٢٩).

(٣١) من الكامل، القلائد ٢٧٩، والشقندى، رسالة فى فضل الأندلس، فى نفح ٢٠٩/٣، وترجمة غرسية غومث ص ٨٨، وفون شاك، شعر العرب وفنهم، وترجمة باليرا إلى الإسبانية ١٤٠/١، وقد استشهد ديجا ببيت منها فى مقدمته بالفرنسية لطبعة النفح الأوربية، ٧٩/١.

(٣٢) وقد عبر المعتضد عن الفكرة نفسها، انظر: الحلة ٤٧/٢، وعنها نقل دوزى الأبيات فى «بنو عباد» ٥٨/٢، وهى من بحر الطويل،، وموضع الشاهد فى البيتين السابع والثامن منها.

(٣٣) عن النقل، وهو ما يؤكل رفقة الشراب، انظر فيما سبق ص ٣٣٠ من هذا الكتاب.

(٣٤) هذه الصورة الأخيرة أظنها مثلًا.

(٣٥) من الطويل، الديوان، القطعة ٢٧٨، ص ٣٤٨، نفح ٦٨٩/١، والذخيرة ٥٨٨/٣، وشاك، شعر العرب ١٣٨/١، وجونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩١، وزكى مبارك، حب ابن أبي ربيعة ص ٢٨٤.

وبأن صادتْه سمْرُ ... ـين بيضٍ خافرات
بلحاظٍ ساحراتٍ ... وجفونٍ فاترات
وبجيدِ الظبيةِ ارتا ... عتْ فظلّتْ فى التفات
وبعيْنَىْ مغزلٍ تَرْ ... عى غزالاً فى فلات
تتمشى بين أترا ... بٍ لها حورٍ لدات
وعليها الوشىُ والخزُّ ... وبُرْدَ الحبرات
راعها لمّا التقينا ... مادرتْ من فتكات
عثرتْ ذعراً فقلنا ... وا لَعًا للعاثرات
ضحكتْ عُجْبًا وقالت ... لا خصّ الفتيات
راجعيه ثم قولى ... أتِنا فى السمرات
وارقب الأعداء واحذرْ ... للعيون الناظرات
فإذا أعلقَ فيها النّومُ ... أشراك السنات
وعلا البدرُ جلابيـ ... ـب لباس الظلمات
فاطرقِ الحىَّ تجدْنا ... فى ظهورِ الحجرات[٣٦]
فالتقيْنا بعد يأسٍ ... بدليلِ النفحات
وتلازمنا عتاقًا ... كالتواء الألفات
وبثثنا بيننا شجـ ... ـوًا كنفثِ الراقيات
وبرّدْنا لوعة الحـ ... ـبّ بماء العبرات
وتشاغلْنا ولَمْ نَعْـ ... ـلَمْ بأنّ الصبح آتٍ
وبدتْ منه تباشـ ... ـيرُ مشيبٍ فى شيات[٣٧]

ونلحظ أن الشاعر نادرا ما صور حبيبته عارية. ويبدو أن الأندلسى يفضل جسدا خفرا مستورا يغذى الخيال بمزيد من أحلام اليقظة على لحم عار تلتهمه الأنظار. وتفتن روحَ الإسبانى المسلم ملابسُ المرأة شفّافة، تتيح له أن يكتشف تناسق جسمها. ولابد أن صبر الشاعر قد نفد تماما حتى يقول لحبيبته:

انزعى الوشىَ فهو يستر حُسْنًا ... لم تحزْهُ برقمهنَّ الثيابُ
ودعينى عسى أقبّل ثغرًا ... لَذّ فيه اللمى وطاب الرُّضابُ
وعجيبٌ أن تهجرينىَ ظلمًا ... وشفيعى إلى صِباكِ الشباب[٣٨]

وكما لحظنا من قبل، كانت الجوارى الراقصات والمغنيات العازفات، يرتدين ملابس شفّافة سهلة الخلع، وهى حالة جارية كانت رفيقة المعتمد فى ملذاته عندما كان عاملا على شلب:

---

(٣٦) إشارة قرآنية، سورة الحجرات الآية ٤.

(٣٧) من الرمل، القلائد ١٤٩. ويبدو أن ابن قزمان أشار إلى قصيدة ابن القبطورنة هذه فى أحد أزجاله، التى وازن بينها خوليان ريبيرا وبين قصيدة مدح برفسانية. انظر: ديوان ابن قزمان، القطعة ١٤١، وريبيرا، نبذ ومقالات ٨٦/١.

(٣٨) من الخفيف، نفح ٤٢٢/٣، وهذا الشاعر هو أبو الحسن بن شعيب.

وليلٍ بسُدّ النهرِ أُنسًا قطعتُهُ ... بذاتِ سوارٍ مثل منعطفِ النهْرِ
نَضَتْ بُردها عن غصنِ بانٍ مُنَعَّمٍ ... نضيرٍ كما انشقَّ الكمام عن الزهْرِ[٣٩]

وثمة حكاية معروفة وذائعة تصوّر لنا المعتمد وجارية له تمشى بين يديه، [وعليها قميص لا تكاد تفرّق بينه وبين جسمها، وذوائبها تخفى آثار مشيها، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه وقال:

عُلِّقتُ جائلة الوشاح غريرةً ... تختالُ بينَ أسنَّةٍ وبواتـرِ[٤٠]

وتعذّر عليه المقال، فقال لبعض الخدم القائمين على رأسه: سر إلى أبي الوليد البطليوسى المشهور بالنحلى، وخذه بإجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ، فأجابه النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه:

راقتْ محاسنُها ورقَّ أديمها ... فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلتْ كالغصن فى دِعْصِ النقا ... تلتفُّ فى وَرَقِ الشبابِ الناضرِ
يَندى بماء الوردِ مُسْبَلُ شَعْرِها ... كالطلِّ يسقطُ من جناحِ الطائرِ
تزهى برونقها وعزِّ جمالِها ... زَهْوَ المؤيِّدِ بالثناء العاطرِ
ملكٌ تضاءلت الملوك لقدرِهِ ... وعنا له صرفُ الزمانِ الجائرِ
وإذا لمحتَ جبينه ويمينه ... أبصرتَ بدرًا فوق بحرٍ زاخرِ

فلما قرأها المعتمد استحضره وقال له: أحسنت، أو كنت معنا؟]، وما كنا لنعرض لهذه القصة لولا أنها تقدّم لنا حوارا مضيئًا وممتعا يوضح معنى ظاهرى وباطنى، وقد تواجها فى هذا العصر[٤١].

ويقول ابن مالك الطغنرى عن وجه امرأة جميلة:

فقدُّهُ من رقَّةٍ مائسٌ ... وردفه من ثِقَلٍ مائجُ
كأنّ ماءَ الحسْنِ فى خدِّه ... مُدامةٌ شعشعَها المازج
عنوٰن مافى ثوبه وجهُهُ ... تشابَهَ الداخل والخارج[٤٢]

لكن ابن عبد البر لا يشاركه هذا الرأى، فبينما كان يتجول يوما فى سكة الحطابين من مدينة إشبيلية، مع ابن حزم الظاهرى، لقيهما شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد بن حزم: هذه صورة حسنة. فقال له ابن عبد البر: لم تر إلّا الوجه، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك. فقال ابن حزم ارتجالا:

وذى عَذَلٍ فيمن سبانى حسنُهُ ... يطيلُ ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجلِ وجهٍ لاح لم تر غيره ... ولم تدرِ كيف الجسمُ أنت عليل

(٣٩) من الطويل، القلائد ٦، وعنه فى «بنو عباد» ١/٣٩ و ٨٤، والحلة ٢/١٣٣، وعنها فى «بنو عباد» ١١/٨٩، ونفح ٣/١٩٣، وتاريخ مسلمى إسبانيا ٣/٩١، وغرسية غومث، ترجمة رسالة الشقندى ٥٧، وانظر فيما سبق ص ٣٤٢ من هذا الكتاب.

(٤٠) انظر: نفح ٣/٢٣٣، وابن ظافر، البدائع ص ١١٥، وابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٦ ب، والتيجانى، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٨٤ أ.

(٤١) من الكامل، نفح ٣/٢٣٤.

● تصرف بيريس فى القصة قليلًا فجعل النحلى واقفًا بباب المعتمد، وحذف بيت الشعر الذى قاله المعتمد، وهو محور القصة، واستغنى عن تعليق المعتمد على أبيات النحلى. وعدت بالقصة إلى أصلها (المترجم).

(٤٢) من السريع، الذخيرة ١/٨٠٨، والإحاطة ٢/٢٨٤.

فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئدْ   فعندىَ ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهرى وإننى   على ما أرى حتى يقوم دليل[٤٣]

●●●

ما أكثر الأشعار الخفيفة فى عذوبة اللطيفة فى دقة، الغزلة فى رقة، لا تكاد تعثر فيها على أثر للحذلقة أو التصنع! إن الروح الأندلسى يرسم نفسه جيدا فى بحثه الشائق عن الملمح الذى يخلق تصويرا قادرا على إثارة القلب، وفى الوقت نفسه يثير الخيال. يقول أبو الفضل بن شرف:

لم يبقَ للجور فى أيامهم أثرٌ   إلاّ الذى فى عيون الغيدِ من حَور[٤٤]

ولم يصوّر أحد القلق فى انتظار وصول الحبيب، فيما يبدو لنا، بأفضل مما صورته هذه الأبيات الثلاثة لأبى محمد بن سفيان:

نفسى فِداكَ وعدْتنى بزيارةٍ   فظللتُ أرقبها إلى الإمساءِ
حتى رأيتُ قسيم وجهك طالعًا   لم تنتقصه غضاضةُ استحياء
فعلمتُ أنك قد حُجبت وأنه   لو رأى وجهك ما سرى بسماء[٤٥]

ومن الإفراط أن نجد خوف الحبيب الذى يحس بالجرح من نظرات محبوبه، يقول أبو الحسن بن سراج:

لمّا تبوّأ من فؤادى منزلاً   وغدا يسلّط مُقْلَتَيْه عليْهِ
ناديته مسترحمًا من زفرةٍ   أفضتْ بأسرار الضمير إليه
رفقًا بمنزلك الذى تحتله   يامن يخرّب بيته بيديه[٤٦]

وقسوة المحبوب تحدث الرعد الذى يؤثر فى صحة المحب، وهى فكرة ليست جديدة فى الشعر العربى، فإنّ كبار العشّاق فى صدر الإسلام مثل كُثيِّر عزة، وجميل بُثَيْنة، وعُروة عفراء، ومجنون ليلى من بينهم بخاصة، وصفوا لنا تباريح للحب فى نغم لا يبدو أن أحدا بعدهم قد فاقهم فيه، ومن هنا لا نجد تحسرات الشاعر الأندلسى ذات جِدَّة فهو مريض من الحب، ويذبل تدريجيا، ويشحب وجهه، وينحف جسمه من الأرق والصوم، وعندئذ يقول ابن اللّبانة:

صرفَ الهوى جسمى شبيهَ خيالِه   مِن فرطِ خِفّته وفرطِ خفائه[٤٧]

أو يقول:

ولى نفسٌ يخفى ويخفتُ رِقّةً   ولكن جسمى منه أخْفى وأخْفَتُ[٤٨]

---

(٤٣) من الطويل، نفح ٨٢/٢.
(٤٤) من البسيط نفح ٣٩٦/٣، ويحاب ط ١ ص ٩٥.
(٤٥) من الكامل، القلائد ١٣٩.
(٤٦) من الكامل، القلائد ٢٠٢ و٢٠٣.
(٤٧) من الكامل، المعجب ١٥٤، ترجمة ١٣٠.
(٤٨) من الطويل، المعجب ١٥٣، وترجمة ١٢٩.

لا نرى فيها يقول غير التصنّع، لأننا لا نعرف شيئا عن حياته العاطفية وعلى النقيض منه، يثيرنا ابن زيدون بعمق، لأن الآلام التى عاناها بسبب هجْر ولّادة له، كانت تعبيرا عن شعور حقيقى، وجسّمها فى نغم صادق مثير:

هـل تذكـرون غريبـا عـادهُ شَجَنُ   من ذِكـركم وجفا أجفـانَه الـوسنُ
يخفى لـواعجهَ والشـوقُ يفضحُـهُ   فقد تساوى لديه السرُّ والعلن[٤٩]

يميّز هذه اللواعج عادة قلق السهر الذى يجعل المحب، حتى وهو قريب من محبوبه، لا يستمتع بسعادته تماما، ولا يستطيع أن ينسى آلامه الماضية، ويبدو له الحاضر غير مؤكد. ألَا يجب عليه أن يخشى تقلّب محبوبه؟ إنّ اللحظة التى يمكن أن يجنيها سعادة يسمّمها هذا القلق، وربما كان هذا وهمًا منه لا يقوم على أساس. يقول أبو الحسن بن الحاج:

وهبتُ لهـا نَفْسًـا عـلىَّ كـريمـةً   وقـد عَلِمتُ أن الضنـانـة بـالنفسِ
أعالجُ منها السخطَ فى حالـة الرضـا   ولا أعدمُ الإيحاشَ فى ساعة الأنسِ[٥٠]

ويصوّر أبو الفضل بن شرف هذا القلق على نحو أفضل:

وقـد حمّـلتُ عبءَ الحبِ ضَعفى   كحمْـلِ الخصْـرِ للكفْـلِ الرداحِ
أحـنّ إلى رضـاك وفيـه بُـرْئـى   كـما حنَّ العـليـل إلى الصبـاح
وقـد أحـللتُ حبَّـك مـن فؤادى   محـلَّ المـالِ من أيـدى الشحـاح
سأفـزعُ فى هـواكَ لحسْن صبرى   كما فـزع الجبـان إلى السـلاح[٥١]

ويعبّر أبو الحسن اللُّورَقى عن الرعب نفسه:

أذوبُ اشتيـاقًـا يـوم يحجبُ شخصَهُ   وإنّى عـلى ريْب الـزمـان لقـاسى
وأذعـرُ منـه هيبـةً وهـو المنى   كما يـذعـرُ المخمورَ أولُ كـاسِ[٥٢]

●●●

النغمة الأصيلة حقا فى هذا القلق، وربما ليست كاملة، نجدها فى تصوير الموت إلى جانب الحب، ويعرف الشعر المشرقى عددا من شهداء الحب، وتناول هذا الموضوع أيضا، ولكن ليس بهذه القوة أبدا، فيما يبدو لى، والتى تضفى على الموت وجودا حقيقيا. يقول أبو القاسم بن العطار:

بين الهوى والـردى فى لحظه نسبُ   هذى القلوبُ وهذى الأعينُ الدعُجُ
بين الورى وصروفِ الدهرِ ملحمةٌ   وإنما الشيبُ فى هاماتهم رَهَجُ[٥٣]

---

(٤٩) من البسيط، المعجب ١١٠، وترجمته ٩٣، الديوان ص ١٦٢.
(٥٠) من الطويل، القلائد ١٣٤.
(٥١) من الوافر، القلائد ٢٥٦.
(٥٢) من الطويل، نفح ٤/١٠٣.
(٥٣) من البسيط، القلائد ٢٨٧، البيتان ٣ و ٨.

ويقول الأعمى التطيلي:

هو الهوى وقديما كنتُ حذرهُ   السقْمُ موردُه والموتُ مصدرُه[٥٤]

ويرى ابن شُهيد أن آلام الحب أشد رعبا من حسرات الموت:

ألمتُ بالحبِّ حتى لو دنا أجلي   لَمَا وجدتُ لطعم الموتِ من ألمِ[٥٥]

والموت يترصّد ليتمكّن من العاشق أمرضه الحب، يقول أبو العباس اللص لمحبوبته:

وقائلةٍ والضَّنَى شاملي   علامَ سهرتَ ولم ترقدِ
وقد ذابَ جسمك فوقَ الفرا   شِ حتى خَفيتَ على العوَّدِ
فقلتُ: كيف أرى نائمًا   ورائي المنيَّةُ بالمرصدِ[٥٦]

ويذكرنا الرمادي فى أبياته الحيّة ببعض ملامح الشاعر الفرنسى فيّون:

ومن شجنى تهمى السحابُ وتذرفُ   ومن جزعى تبكى الحمام وتهتفُ
كأن السحابَ الواكفاتِ غواسلى   وتلك على فَقْدى نوائحُ هُتَّفُ[٥٧]

وثمة مثل أندلسى يقول: «تذكَّر غائبا تره»[٥٨]، ويؤكد ذلكِ ابن الحداد فيقول:

أتركُ من أهوى وأمضي كمدًا   والله ما أمضي وقلْبى معى
ولا نأى شخصُك عن نظرى   حينًا ولا نطقُك عن مسمعى[٥٩]

ولا يدهشنا أن نجد عند شاعر الحيل الذى أصبح مطروقا فى أيامنا، ويعبِّر عن مرارة الهجر. يقول الطُّرطوشيّ:

يقولون ثكلى ومن لم يَذقْ   فراقَ الأحبَّةِ لم يَثْكلِ
لقد جرَّعتنى ليالى الفراقِ   كؤوسا أمرَّ من الحنظلِ[٦٠]

ولكن المحبّين العاشقين حقًّا هم الذين يرون فى تأثيرات الهجر المشئومة خيرا، يقول الرشيد بن المعتمد:

لولا الرجاءُ بأنْ يُعجِّلَ بيننا   وَشْكُ التلاقى لا شتهيْتُ مماتى[٦١]

---

(٥٤) من البسيط، القلائد ٢٧٤.

(٥٥) من البسيط، المطمح ١٩١، والديوان القطعة ٦١، ص ١٥١.

(٥٦) من المتقارب، نفح ١١٢/٤.

(٥٧) من الطويل، المطمح ٣٢٠، ونفح ـ/٣٩.

● فيّون فرانسوا .Villon, F (١٤٣١ - ١٤٦٣م) عاش حياة مغامرة، وركب كل الأخطار والأهوال، ويعد أول شاعر غنائى فرنسى عظيم (المترجم).

(٥٨) نفح ١١٣/٤ و ١٦٠/٤ و ٢٣/٤.

(٥٩) من السريع، المطمح ٣٤٠. وذكرنا فى سبق ص ٢٩ بمناسبة الحديث عن التماثيل الشخصية أبياتًا تعبر عن الفكرة نفسها.

(٦٠) من المتقارب، نفح ٨٦/٢.

(٦١) الحلة ٦٩/٢، و «بنو عباد» ٦٣/٢.

وكان الموت حاضرا فى فكر ابن زيدون دائما، حتى أصبح خاطرا ملحاً، لا يمكن أن يمضى دون أن يدع تأثيره فينا، يقول فى ولاّدة:

تـالـلّهِ، لـو حلف الـعـشّـاق أنّهـمـو موتى من الوجْدِ يومَ البين ما حنثـوا
قـومٌ إذاهُجـروا من بعـد مـا وُصلوا مـاتوا، فـإن عاد مَن يهـوونه بُعثـوا
تـرى المحبين صـرعى فى عِـراصهمُ كفتيـة الكهفِ ما يـدرون مـا لبثـوا[٦٢]

ولكن أحدا لم يعبِّر عن خيبة الأمل بأفضل مما عبّر عنها أبو حفص بن برد عندما يقول لتلك التى سوف تهجره:

يـا من حُـرمتُ لـذاذتى بـسيـره هذى النوى قد صعّرتْ لى خدّها
زوّدْ جفـونى من جمـالـك نـظرةً والله يَعلمُ إنْ رأيتُـكِ بعـدهـا[٦٣]

يمكن القول إن الشعر المشرقى، ونجرؤ على أن نضيف والشعر ذو الإلهام المسيحى فى العصور الوسطى، لا ينطوى على إيقاع أشد إثارة للتعبير عن ألم الهجر مثل ما أوردنا.

ذلك أن المعاناة، فيما يبدو، تمد الحب بطاقة لا مناص منها، أو كما يقول ابن عقانا: «إن السقام والضنى دين العاشقين»، ولا شىء يستطيع أن يقى منها، لأن الحب فى ذاته شىء قدرى، وقوته تضرب خبط عشواء، على غير هدى أو بصيرة، وقد نادم المنصور بن أبى عامر يوما أبا المغيرة بن حزم فى منية السرور بالزاهرة، وغنّتهم جارية تسمّى أنس القلوب فتغازلا شعرا ملوّ حين، أبو المغيرة والجارية، وأحس بذلك المنصور فغضب عليهما غضبا شديدا، فاعتذر أبو المغيرة: «الله قدّر هذا ولم يكن باختيارى»![٦٥].

ويمكن أن نضيف إلى مفهوم الحب هذا وهو إغريقى فى بعض جوانبه، ونجده فى إسبانيا والمشرق على السواء[٦٦]، نظرية أخرى عرفتها إسبانيا الإسلامية، ترى فى الحب قوة سحرية تمارسها الجفون الفاتكات خلال النظر، وعن الفكر يصدر سحر النهى الذى يمر عبر العيون[٦٧]. وإذا كان الشعراء لا يتحدثون غالبا عن غيره فلأنهم يخشون هذه القوة الخفية، والتى لن تكون السحر الحلال، ويجدون شاهد صدق فى أبيات ابن اللّبانة التالية:

يـامَن رشقتُ إلى السُّلُوِّ فـردّنى سبقتْ جفونُك كلَّ سهمٍ يُرشقُ •
لو فى يدى سحرٌ وعندى أخْذةٌ لجعلتُ قلبـكَ بعضَ حين يعشق

(٦٢) من البسيط، الديوان ١٧٦، والمعجب ١١٠، وترجمته ٩٣.

(٦٣) من الكامل المطمح ٢٠٨، ونفح ٥٤٦/٣. والبيت الأخير منها قلّده أبو الحسن الحصرى فى قصيدته الشهيّرة: ياليل الصبا! فى البيت الثامن عشر منها حيث يقول:

(٦٤) نفح ٤٣٣/١.

(٦٥) من الخفيف، وانظر القصة كاملة فى نفح ٦١٧/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٧٣، وفون شاك، شعر العرب فى إسبانيا وصقلية ١٥٠/١.

● ترجمته العربية قيد الصدور، وقمت أنا بها (المترجم).

(٦٦) ماسينيون، الحلاج ١٧١/١ وما بعدها.

(٦٧) نفح ٥٠٩/٣، والفكرة مأخوذة من بيتى شعر لأبى عبد الله اللوشى.

لتذوقَ ما قد ذقتُ من لم الجوى ... وترقَّ لى مما تـراه وتُشفقْ[٦٨]

والفكرة التالية من ابن شهيد.

ألفيتُ من أخْتِتو لـه ... وتلوتُ من سُورِ العزائمْ[٦٩]

* * *

تظهر الروايات السابقة بقدر كاف قوة المشاعر العاطفية في قلوب الأندلسيين، وبعضهم تركنا نلمح نوعا من العبادة يستسلم فيها الرجل لعاشق إلى سيدة أفكاره، ونتناول الآن هذا الموضوع بطريقة خاصة. وقد عبّر الشعراء المشارقة عن الأفكار نفسها، نقول ذلك ونفكر فى العباس بن الأحنف بخاصة[٧٠] ، وعاش فى عصر هارون الرشيد، ولكنّها لم تكن أبدا فيما يبدو بمثل هذه القوة، ولا بذات الكثرة، وليس لها نفس العـمية. أما هنا فى الحقيقة، وفى نطاق القرن الذى تدرسه، فتكثر هذه القصائد بقدر يتطلب أن نفرزها وأن ننتقى من بينها، دون أن نتأكد تمامًا أن ما تركناه ليس له نفس قيمة الشعر الذى اخترناه ووردناه.

إن العاشق الجديد بهذا الاسم يعلن نفسه عبدًا لمن يحب، وخضوع الحر جميل مملوكٌ للحب، كما يقول الحكم الربضى:

ظـلَّ من فِـرْطِ حبِّـه مملوكًـا ... ولقـد كان قبـل ذاك مليكًـا[٧١]

ويصور ابن زيدون حالته الشعورية القلقة، ويبدو أنها ملمحه المميز:

بَينى وبينـكَ مـالـوشئتَ لم يضـعِ ... سرٌّ إذا ذاعت الأسرارُ لم يَـذعِ

يـابـائعًـا حـظَّهُ متى ولـو بُـذلتْ ... لِىَ الحيـاةُ بحظِّى منـه لم أبـع

يكفيـكَ أنّك إنْ حمّلتَ قلبىَ مـا ... لم تستـطعْهُ قلوبُ النـاسِ يَستطع

تِهْ أحتـملْ واستطِلْ أصبرْ، وعزَّ أهُنْ ... وولِّ أُقبلْ، وقُلْ أسمعْ، ومُرْ أطع[٧٢]

ومن الذى يشك فى أن العاشق يصبح عبدًا حين يقرأ الأبيات التالية للخليفة الأموى عبد الرحمن المستظهر بالله، والذى أراد أن يتزوج من حبيبة ابنة عمه سليمان المستعين فقال يخاطب زوجة عمه شنف:

جعلتُ لها شـرطًـا علىّ عبُّـدى ... وسقتُ إليها فى الهوى مهجتى مَهْرا[٧٣]

---

(٦٨) من الكامل، المعجب ١٥٢، وترجمته ١٢٨.

(٦٩) من مجزوء الكامل، الديوان ١٥٧، الذخيرة ٢٠١/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب ٤٥.

(٧٠) عن العباس بن الأحنف، انظر: جه حى، العباس بن الأحنف، فى مجلة «إسلاميكا»، المجلد ٢، عام ١٩٢٦، ص ٢٧١ - ٣٠٧، وص رقم ١٢١ من هذا الكتاب. ونجد أفكارا مشابهة عند بعض كبار الشعراء مثل المتنبى، ولكننا لن ندرسها لذاتها، وإنما نجعل منها مدخلا للمديح والرثاء. انظر: بلاشير، أبو الطيب المتنبى، ص ٤٩ القطعة ١٤ البيت ١٠.

(٧١) من الخفيف، الحلة ٤٩/١، البيان المغرب ٨٢/٢ النص العربى، والترجمة ١٣٠، وأعمال الأعلام ١٧، وأخبار مجموعة ١٣٤.

(٧٢) من البسيط، الديوان ١٦٩، والمعجب ١٠٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٣/١ النص العربى، وترجمة دى سلان ١٢٤/١، والضبى البغية ١٧٤.

(٧٣) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والحلة ١٤/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ويقول فى بيت آخر:

وهبت لــه روحى ومُلكى ومهـجتى ونفسى، ولا شىء أعز من النفس(٧٤)

ويقول ابن بقى:

إنْ كنتَ تجهـل أنِّى عبـد مملكـةٍ مُـرنى بما شئتَ آتيـه وامتثـلُ(٧٥)

وكما يقول ابن الملح، فإن العاشق كالعبد يجب ألاّ يوشوش متململاً من الصعاب التى يعانى منها:

مبـتـدعُ الخـلقِ لاكـفـاء لــه يعـدّ شكـوى صبـابتى رفثـا(٧٦)

وإذا لم يستطع أن يسعد بتأمل حبيبته فسوف يكفيه بهجة أن يسمع دبيب صوتها. يقول أبو بكر بن رُحيم:

لا تُسميـه فـإنّــه نــزعتْ بــه تلك الخـلالُ إلى هواك نِـزاعًا(٧٧)

وسوف يكون حظه من البهجة أكبر كثيرًا إذا استطاع أن ينال منها سلامًا باليد أو الشفتين، يقول المعتمد:

أسـفـى! أودُّ ولا أُود، وأغـتــدى وأروحُ، أحفظ عهدَ مَن قد ضيّعَا
مـا كـان ظنىٍّ أنْ أجـودَ بمهجتى حبًّـا، وأقنـعَ بـالسـلام فـأُمنعـا
يا هاجـرى، وقد اشتفيتم فـارفقوا وهبُوا لعثرةِ عاشقٍ لكمُ «لعا»(٧٨)

ويقول ابن زيدون عن نفسه:

كفـانَا من الـوصلِ التحيّـةُ خُلسةً فيـومئُ طـرفٌ أو بنـانٌ مـطرّفٌ(٧٩)

وفى انتظار الحبيبة يتلمس الشاعر أى إشارة تنبئ بقرب وصولها. يقول الطرطوشى:

أقلّبُ طـرْفى فى السـماءِ تــردُّدًا لعلىِّ أرى النجم الذى أنت تنظرُ
وأستعرضُ الركبانَ من كلِّ وِجْهةٍ لعـلىّ بمن قد شمَّ عـرفكَ أظْفـر
وأستقبـل الأرواحَ عنـد هُبـوبهـا لعـلّ نسيمَ الـريـح عنـك يُخـبّر
وأمشى ومـالى فى الطريق مـآربٌ عسى نغمةٌ باسم الحبيب ستُذْكر
وألمحُ من ألقاهُ من غـير حاجـةٍ عسى لمحةٌ من نورِ وجهك تُسفر(٨٠)

ومن هنا ليس بين الرغبة أو التحمس لكل ما يمس المحبوب أو يحيط به غير خطوة واحدة. وقد نظم الأندلسيون فيما يتصل بهذا المعنى قصائد ذات حنان عذب، والقصائد الرعوية الإغريقية وحدها،

(٧٤) من الطويل، الحلة ١٦/٢.

(٧٥) من البسيط، القلائد ٢٨١.

(٧٦) من المنسرح، القلائد ١٨٨.

(٧٧) من الكامل، القلائد ١٢٤.

(٧٨) من الكامل، خريدة القصر فى «بنو عباد» ٣٩٢/١، ٤١٠، ٤١١، والديوان ص ٢٠.

(٧٩) من الطويل، الديوان ٤٨٤، البيت ٢١، وكور، ابن زيدون، ص ١٠١. وهذه الأبيات تذكرنا بفقرة وردت فى كتاب الحياة الجديدة لدانتى: «حيّتنى بحرارة بالغة، حتى أنتنى، فى لحظة ما، اعتقدت أننى فى عالم السعادة الحقة». الفصل الثانى، تحقيق ميكيل بيباربى، فلورنسة، عام ١٩٣٢، ص ١١ - ١٢.

(٨٠) من الطويل، نفح ٨٥/٢، فون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب ١٢١/١.

هى التى أتاحت لنا قبلهم، فرصة الإعجاب بها. ولنذكر مثلاً هذه الفقرة عن Daphnis et Chloe وهى تقول: آه!، حالمة بدافنيس، ألست أنا نَايَهُ كي استقبل نفخه، كم أتمنى أن أكون مِعْزته، وأن يكون هو مرعاى»[٨١].

إن الموضوع الذى يمكن أن ندعوه: «ياليتنى!..» عرضوا له بكثرة فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر، يقول ابن سارة مثلاً

إنِّى لمن يَحظى بقربك حاسدٌ ونواظرى يَحسُدْن فيك رِقاعى[٨٢]

ولكن الموضوع الحقيقى دخل العربية عن طريق الحرف «ليت»، وهو يعنى التمنى فيما يقول النحاة، أى لرغبة والشوق. يقول ابن الدباغ:

يا ليْتنى الطيرُ فى كفّيكَ مطعمُهُ وشربهُ حين يَظْما من ثَناياتَا[٨٣]

ويقول نِسِّيم الإسرائيلى بدوره:

يا ليتنى كنتُ طيرًا أطيرُ حتى أراكا
بِنْ تبدَّلتَ غيرى أو لم تحلْ عن هواكا[٨٤]

وتمنّى المعتمد أن يكون رسالة عاشقة:

حسدتُ كتابى على فوزه بإبصاره الغرَّةَ الزاهرَهْ
فياليت شخصى يكون الكتا بَ، فتلحظُه المقلةُ الساحرهْ[٨٥]

ونختم الفقرة بمثالين، أولهما من أبى الفضل الدارمى:

ظبْىٌ إذا حرّكَ أصداغَهُ لم يلتفتْ خَلْقٌ إلى العطرِ
غَنَّى بشعرى منشدًا لَيْتنى اللـ ـفظُ الذى أودعته شعرى
فكلّما كرَّر إنشادهُ قبَّلتُهُ فيهِ ولم يدرِ[٨٦]

والمثل الثانى من ابن حزم ويضر لنا لونًا متميزًا وملمحًا خاصًا من الحب العميق:

وَددتُ أنّ القلب شُقَّ بمديةٍ وأُدخلْتِ فيه ثم أُطبِقَ فى صدرى
فأصبحتِ فيه لا تحلّين غيرَه إلى مُقتضى يوم القيامةِ والحشر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمُتْ سكنْتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَمِ القبرِ[٨٧]

* * *

(٨١) Longus, Daphnis et Chloé, Livre I, chap. XIV, parag. 3 (éd. Guillaume Budé, P. 12) CF. aussi Les Anacréontigues, Trad. Meunier, 159, oda XX: «sur une Jeune Fille».

(٨٢) من الكامل، القلائد ٢٦٠.

(٨٣) من البسيط الذخيرة ٣/٣١٦.

(٨٤) من امجتث، نفح ٣/٥٢٢.

(٨٥) من امتقارب، الديوان ١٣.

(٨٦) من السريع، نفح ٣/١١٧.

(٨٧) من الطويل، طوق الحمامة ٩٣، ترجمة نيكل ٩٠، طبعة برشيه ١٦٠.

ولكنها ليست ألاما دائما فيما يتصل بالمحب، وقد عبّر الأعمى التطيلي في روعة بالغة عن هذين الشعورين اللذين ينتابان الشاعر العاشق:

تـأمّـلتنى أمّ المـجـد قـائـلةً … بِن أراكَ أسير الوجْدِ والطربِ[٨٨]

وكلمة «وَجْد» توجد في أبيات من الشعر لا تحصى، وتعنى «تباريح الحب، أو الحب المؤلم Amour douloureux»[٨٩]، أو كلمة «طرب» ومرادفاتها مثل: فرَح وسرور ومسرة. ولقد تحدثنا عن الوجد بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة، ونذكر الآن بعض الأمثلة لتوضيح الطرب[٩٠] الذى يجتاح الشاعر أمام فكرة العودة لرؤية حبيبته. فهذه الحالة من الابتهاج، ومن إطراء إمكانات العاشق، لم يعبر عنها أحد فيما نرى بأفضل مما صنع الأندلسيون، مما يضفى على قصائدهم مذاقا خاصا.

يقول ابن عمار موجّها حديثه إلى قينة جميلة:

نفسى - وإنْ عذّبْتِها - تهواكِ … ويهـزُّهـا طـربٌ إلى لُقيـاكِ[٩١]

ويقول رفيع الدولة بن المعتصم:

حبيبٌ إذا ينأى عن العين شخصُهُ … يكـاد فؤادى أن يـطير من البـيْن

ويسكن ما بين الضلوعِ إذا بـدا … كأنّ على قلبى تمـائمَ من عينى[٩٢]

وأظهر لنا ابن خفاجة من خلال إحدى قصائده: كم هو مثير لمن الحياة عنده لا تعنى شيئا غير المتعة، وقد استرد سمعته أمام أعيننا بهذه الأبيات:

لقد زار مَن أهوى على غير موعدٍ … فعـانيتُ بَـدْر التِّمِّ ذاك التـلاقيا

وعـاتبتـهُ والعتبُ يحلو حـديثـهُ … وقد بلغتْ روحى لديه التراقيا[٩٣]

فلمّا اجتمعنـا قلتُ من فرحى بـه … من الشعـرِ بيتا والـدموعُ سـواقيا

وقـد يجمـع الله الشتيتـين بعـدمـا … يـظنّانِ كـلَّ الـظن ألاّ تـلاقيا[٩٤]

ولكن الأبيات الأقوى تعبيرا فيما يتصل بهذا الأمر هى التى نظمتها امرأة، هى أم الهنا. هل يمكن أن يدهشنا هذا؟:

جـاء الكتـابُ من الحبيب بـأنّـه … سيـزورنى فـاستعبـرتْ أجـفـانى

---

(٨٨) من البسيط، الذخيرة ٧٣٦/٢، وعنه نقلها أحمد ضيف فى بلاغة العرب فى الأندلس ١٦٦.

(٨٩) أشار نيكل فى ترجمته لطوق الحمامة إلى المرات التى وردت فيها كلمة «وجد» فى أشعار ابن حزم، فهى فى النص العربى الذى نشره فى الصفحات: ٣٩، ٤٢، ٦٢، ٧٤. وفى الترجمة فى الصفحات: ٦١، ٦٤، ٩٦، ١١٤، وغيرها. وفى الهوامش ص ٢٢٩ و ٢٣١ وغيرها.

(٩٠) وهذا ما يدعوه شعراء التروبادور joy، انظر بخاصة: كوهين، تاريخ العصر الوسيط، المجلد ٨، ص ٢١٧ - ٢١٨. وفن العصر الوسيط، ص ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٢. وجانروا، شعر التروبادور الغنائى ٧٤/١.

(٩١) من الكامل، الحلة ١٦٤/٢، وفى التصويبات من طبعة دوزى ص ١١٤ أنّ القينة تسمى طرب.

(٩٢) من الطويل، المطمح ٢٢٤، والحلة ٩٤/٢.

(٩٣) التراقى جمع ترقوة، وهى عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق.

(٩٤) من الطويل، الديوان، القطعة ٢٤٠ ص ٣٦٥، ونفح ٢٩٨/٣ و Ecker, Arabischer... Minnesang, 178.

● قلت: البيت الأخير لقيس بن الملوح مجنون ليلى (المترجم).

غلب السرورُ علىّ حتى إنّه ... من عظم فرطِ مسرَّتى أبكانى
يا عينُ صار الدمعُ عندك عادةً ... تبكين فى فرحٍ وفى أحزان
فاستقبلى بالبشرِ يومَ تمائِه ... ودعى الدموعَ لليلةِ الهجران[٩٥]

رأينا فى السطور السابقة كيف يعتبر الشاعر العاشق نفسهَ عبدًا لمحبوبه، وأنه يمضى إلى أقصى الخيال فى تبعيته، حتى إنه ينادى حبيبته بلفظ سيدى أو مولاى. ويستخدمون هاتين الكلمتين كثيرا، وبخاصة ابن حزم[٩٦]، ونلحظ ذلك عند ابن زيدون[٩٧] أيضا.

ومن الغريب أن نلحظ أن ذلك يأتى فى صيغة المذكر وليس فى صيغة المؤنث، ولكن من الشائع المعروف أن الشعراء يستخدمون ضمير المذكر كما يستخدمون ضمير المؤنث تماما، ليتحدثوا عن الشخص الذى يحبونه، مما يصعب معه التمييز بين الأبيات التى تشير إلى مذكر وتلك التى غايتها المرأة[٩٩]. ومع ذلك كثيرا ما يستخدم شاعر ضمير المؤنث دون أن يذكر اسم المحبوبة[١٠٠]، وأحيانا يقدم لنا الاسم ملغزا. يقول عبد الله بن عبد العزيز المروانى ويقال له: البِطْرَشك Pedra Seca بالعجمية (ومعناها الحجر اليابس):

ومن لا أُسمّيه مخافةَ عَتْبِهِ ... على أنّ قلبى مستهامٌ بحبِّهِ
وبعض اسمِهِ حاءٌ وبا [....] ... حروفٌ طواها [....]
عليه سلامُ الله منى مُردَّدًا ... سلامَ محبٍّ جاد فيه بقلبِهِ[١٠١]

ويقول ابن زيدون:

لسْنا نسمّيك إجلالاً وتكرِمةً ... وقدرُك المُعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردتِ وما شوركتِ فى صفةٍ ... فحسبُنا الوصف إيضاحًا وتبيينا[١٠٢]

---

(٩٥) من الكامل، نفح ٢٩٢/٤.

(٩٦) انظر: طوق الحمامة طبعة نيكل ص ٤٤، ٤٨، ٥٧، ٦٢، ٩٠، ٩٤، وترجمته ص ٧٤، ٨٨، ٩٦، ١٣٨، ١٤٤، وطبعة برشيه ص ١٢٠، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٧٠، ١٧١، ٢٤٨، ٢٤٥، ٢٥٨، ٢٥٩.

(٩٧) الديوان ص ٤٨ ونفح ٢٢٨١/٣، حيث يقول:

الدهر عبدى لمّا ... أصبحت فى الحب عبدك

وترجمها كور فى كتابه عن ابن زيدون ٥٢، _ Ecker فى المصدر الذى أشرنا إليه فيما سبق ص ٥٨.

(٩٨) وهو ميسمح لنا إلا نعتبرها منذ اللحظة معادلا لكلمة midons عند شعراء التروبادور.

(٩٩) انظر عن هذا الموضوع ملاحظات J. Humbert فى المختارات العربية، ص ٢٠٤ - ٢٠٦. ودى سلان، ملاحظات عن المعنى المجازى لبعض الكلمات التى توجد فى أشعر العربى، ص ١٧٥ و ١٧٨. ونيكل فى مقدمته لترجمة طوق الحمامة ص ١٠٢ و ١١٧ و ١١٨. وبيجا، وهدبا فى «الجغرافيون العرب»، السلسلة الخامسة، المجلد الخامس، عام ١٨٥٥، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(١٠٠) أى أن الأفعال والصفات مؤنثة، ترتبط باسم مؤنث مضمر، وهو تقليد قديم عند شعراء العرب، انظر مثلا: النابغة الجعدى فى الأغانى، ٥/١٨، والعباس بن الأحنف فى الأغانى ١٧/١٨. و ج. هل فى إسلاميكا المجلد ٢، عام ١٩٢٦، ص ٢٧٦. ونيكل، كتاب الزهرة ٣١٢، ومقدمته لديوان ابن قزمان ص ٤٧ و ٤٨.

(١٠١) من الطويل، الحلة ٢١٧/١. ولم يستطع دوزى أن يقيم بناء البيت الثانى.

(١٠٢) من البسيط، الديوان ١٤٥، ترجمة كور ص ٧٢.

ويتخذ ابن الحداد الموقف نفسه:

صنتُ اسمَ إلْفِي فـدأبًا لا أسمِّيـه ... ولا أزال بـألغـازى أعمِّيـهِ[١٠٣]

ولكننا نعرف أنه لم يكن يتصرف بمثل هذه الطريقة دائما، على الأقل فيما يتصل بالفتاة النصرانية التي ألهمته أجمل قصائده، والاسم الفاتن الذى أعطاه لها نُويْرة، يوجد فى كل القصائد التى خصّها بها، ونويرة ليس اسمها الحقيقى[١٠٤] فيما يبدو، ولم يرد ابن اللبّانة أن يظهر لنا اسم الفتاة النصرانية التي أحبّها فى ميورقة:

أأنت عن النعمان أم عن قَيْصرِ ... مـن رَامـةٍ أو رومـةٍ لا علمَ لى[١٠٥]

وقد التزم الأمراء أنفسهم قانون الصمت هذا، ولكنهم لا يخجلون من الخروج عليه، وكان المعتمد إذا ذكر أحيانا زوجته المفضله يكنيها أمّ الربيع[١٠٦]. لكنه لم يتردد فى ذكر اسمها بكل حروفه: اعتماد، سواء فى قصائد إذا قرئ الحرف الأوّل من أول كل بيتٍ فيها كوّن الاسم[١٠٧]، أو كاملا فى بيت من الشعر[١٠٨]، وصنع الشىء نفسه مع محظياته أيضًا. فعرفنا بهنّ: سِحْر، وجوهرة، ووداد[١٠٩].

●●●

وتندهش من كثرة تحدُّث الشعراء عن شخصية تظهر دائما لتعكر صفوهم، وهو الرقيب. هل يتصل هذا بواقع اجتماعى؟ ذلك ما نحاول أن نتبيّنه بمساعدة بعض الإشارات الواردة فى الشعر. يقول المعتمد:

ثـلاثـةٌ مَنَعَتْهـا عـن زيـارتِنـا ... خوْفَ الرقيب وخوفَ الحاسدِ الحَنِق[١١٠]

ويقول المعتمد نفسه فى مكان آخر:

داری ثـلاثتـه بلطْفِ ثـلاثـةٍ ... فتنى بـذاك رقيبـه لم يشعـر:

أسـرارَهُ بتـسـتُّرٍ، وأوارَه ... بتصـبرٍ، وخيـالَـه بتـوقـر[١١١]

كيف يمكن أن يشعر أمير مثل المعتمد بالخوف على محبوبه من الرقيب والواشى؟. سؤال يمكن أن يعرض لنا دون أن نكون مطالبين بالرد عليه الآن.

---

(١٠٣) من البسيط، الذخيرة ٧٠٦/١.

(١٠٤) وهو Senhal عند شعراء التروبادور، ويقول ابن بسام إن الاسم الحقيقى لهذه الفتاة المسيحية هو: جميلة، ولا نستطيع أن نقرر أى اسم رومانثى كان يختفى وراء هذه الكلمة. انظر: ابن بسم، الذخيرة ٧٠٨/١.

(١٠٥) من الكامل، المعجب ١٥١، الترجمة ١٢٧، ورامة اسم منطقة فى الجزيرة العربية مشهورة بغزلانها.

(١٠٦) من الطويل، الديوان ص ١٩، وفى الحلة جـ ٢ ص ٦٠، ٦٢، ٦. وفى «بنو عباد» ٦٩/٢.

(١٠٧) من المتقارب، الديوان ص ٨، الحلة ٦١/٢، وقد ترجمها دوزى إلى الفرنسية بالطريقة نفسها فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٨٩.

(١٠٨) من الكامل، الديوان ص ٢٣، ومن الطويل، الديوان ص ١٠.

(١٠٩) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩٥ - ٩٦، والمصادر المذكورة هناك.

(١١٠) من البسيط، نفح ٤٢٩/٣، وانظر فيما سبق ص ٢٧٨ من هذا الكتاب.

(١١١) من الكامل، خريدة القصر فى «بنو عباد» ٣٨٩/١، والديوان ١٢.

فى الأبيات التالية يوجه ابن شعار نداءه إلى قينة تدعى طرب:

نفسى وإنْ عذَّبْتِها تهواكِ ... ويهزُّها طربٌ إلى لُقياك
عجبًا لهذا الوصل أصبح بيننا ... متعذِّرًا ومُناىَ فيه مناكِ
ما بالُ قلبى حين رامَك لم ينلْ ... ولقد ترومُك مُقلتى فتراكِ
ليت الرقيبَ إذا التقينا لم يكنْ ... فأنالَ ريًّا من لذيذِ لَماك[١١٢]

هناك يمكن الظن أن الرقيب هو مولى القينة، والوحيد الذى يستطيع أن يحول بينها وبين حبيبها.

وثمة مثل ثالث، وأخير، يسمح لنا أن نحدِّد بدقة من تكون هذه الشخصية الغامضة، فقد وصف لنا ابن عبدون انطباعاته عن اليوم الذى خرجت فيه مجموعة من النساء فى رحلة، يقول:

أذهبنَ من فَرَقِ الفراقِ نفوسًا ... ونثرنْ من دُرِّ الدموعِ نفيسا
فتَبِعْتُها نظرَ الشجىِّ فحدَّقتْ ... رقباؤها نحوى عيونًا شُوسا

أليس الرقباء فى هذه الحالة هم الأزواج؟.

نستطيع من الأمثلة التى سبقت أن ستنتج منطقيًا أن الرقيب هو الرجل الذى له الولاية الأولى على المرأة طبقًا للشريعة الإسلامية، وهو الزوج غالبًا عندما تكون المرأة حرّة، وأحيانًا مولاها عندما تكون قيْنة، ولكن ما أخاف المعتمد، دون أدنى شك، زوجٌ غيور. وهكذا فى هذا المجتمع الإسلامى، البالغ الصرامة فيما يتصل بالزوجات الشرعيات، فإن المرأة المتزوجة تتلقى التكريم من رجل ليس زوجها. هل ما يقوله الشعراء محض خيال، أم على النقيض، كانوا يفعلون عكس العادات الجارية؟ نميل إلى الاعتقاد بأن ما قالوه لم يكن كله لعبة خيال منهم، وهنا نجد برهانًا آخر على الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة الأندلسية فى القرن الحادى عشر.

ولكن الرقيب فيما يرى ابن حزم يمكن أن يكون مجرد فضولى، أو منافس، أو رقيب بأجر من قبل السيد[١١٤].

والرقيب بمعناه الحرفى «العاسّ»، وجمعه «العسس»، وهو ما يمكن أن نجده فى بيت من الشعر عند أبى عامر بن شهيد، يقول:

ولَما تملأ من سُكْرِهِ ... ونام ونامتْ عيونُ العسسْ[١١٥]

---

(١١٢) الحلة ١٦٤/٢، وفى التصويبات من طبعة دوزى ١١٤، وقد ذكرنا البيت الأول فقط ص ٣٦٣ من هذا الكتاب.

(١١٣) من الكامل. نفح ٣٠٥/٤.

(١١٤) طوق الحمامة ص ٨٠ – ٨٢، وفى ترجمة نيكل ٧٣ – ٧٦، وفى طبعة برشيه ١٢٨ – ١٣٥، وترجمة Ecker ص ٢٣ – ٢٦. ويظنون أن الرقيب قريب من معنى gardador عند شعراء التروبادور. انظر: نيكل فى مقدمته لترجمة طوق الحمامة ص ١٠٢، والهامش رقم ١١٧، ومجلة Archivum Romanicum، المجلد ١٩، العدد ٢، أبريل – يونية ١٩٣٥ ص ٧. وكلمة Lauzengier عند شعراء التروبادور أيضا. انظر Ecker فى المصدر نفسه ص ٢٨ – ٢٩، وف. ج. كوهين فى فن العصر الوسيط، ص ٣٥٨ و ٣٦٨ و ٣٧٤. وجانرو، شعر التروبادور الغنائى ١، ٧٤.

(١١٥) من المتقارب، الشقندى، رسالة فى فضل الأندلس، نفح ١٩٨/٣، وترجمة غرسية غومث لها ص ٦٦، وابن سعيد، عنوان المرقصات ٥٩، و Ecker، المصدر المذكور ص ١٩١، وثمة حكاية مثيرة أوردها لنا ابن حزم ومؤداها أن العسس كانوا ينصرفون فى ساعة معينة من الليل، وأن سيدة البيت أرادت أن تغتنم وحدتها، لأن زوجها كان خارج البيت لأمر مهم، لكى توقع فى حبائلها ضيفا بالغ الشباب والجمال. أنظر: طوق الحمامة ص٦-٢. ترجمة نيكل، طبعه برشيه ٢٧٤.

وإذا كان المحب غيورا على محبوبه، فهو أيضًا غيور من سعادته، ويقال أن المعتضد[١١٦] كان غيورًا جدًا، ويقول أبو حفص بن بُرد:

قلْبى وقلبُـكَ لا محالــةَ واحــدٌ ... شهِـدتْ بـذلـك بيننـا الألحــاظُ
فتعـال فلْنَغِظْ الحسـودَ بـوصلنـا ... إنّ الحسود بمثل ذاك يغاظ[١١٧]

والشخصية الأخرى التى تلعب دورا هاما، بعد الرقيب، فى حياة العشّاق هو الواشى، وهو الذى يحاول التفرقة بين المتحابين منتقصًا الرجل أمام المرأة، يقول ابن زيدون:

لَمّـا اتّصلْتِ اتصالَ الخِلْب بـالكَبِدِ ... ثم امتزجْتِ امتزاجَ الروح بالجسدِ
ساءَ الوشاةَ مكانى مِنـكِ، واتقدتْ ... فى صدرِ كلِّ عدوٍّ جمرةُ الحسد[١١٨]

وإذا كان الواشى يحاول أن يثير الحبيبة ضد الحبيب، فإن العاذل تحت قناع الناصح المخلص يحلم بأن يلعب الدور نفسه إلى جانب المحب، ومن جانب آخر فإن هذا الدور يمكن أن يقوم به رجل أو امرأة على السواء. يقول ابن مقانا:

وأُنــاجـى فى الــدجـى عــاذلـتى ... وَيْكِ لا أسمع قَـوْلَ العاذلـيْن[١١٩]

والرجل المشتعل حبًا بصدق لا يأخذ فى الاعتبار المذمّات والنقائص التى يوجهها العاذل إلى محبوبه، يقول إبراهيم الحجارى، جدّ الحجارى المؤرخ صاحب «المسهب».

كُنْ كـما شئتَ إنّنى لا أحـولُ ... غيرُ مصغٍ لما يقول العـذولُ[١٢٠]

إن خضوع الشاعر للحب لا يتطلب بالضرورة أن يتخلى نهائيًا عن كل قدراته أمام طغيان المحبوب.

ومن الضرورى أن نوضح أن الكلمات التى تعبّر عن تحكيم الحب، أو تدخّل قانون الحب، تتردّد بكثرة عند شعراء مثل: الرمادى وابن عمّار والمعتمد ورفيع الدولة فى صيغة: حَكَمَ بين وبين، أو حكم الهوى بالعدل، أو حكّمه فى مهجتى حسنه، أو حكم الحب، أو دين الهوى.

---

(١١٦) من الطويل، الحلة ٢/٤٤، وبنو عباد ٢/٥٧.

(١١٧) من الكامل، نفح ٣/٥٤٥، وانظر أيضا طوق الحمامة ص ٩٧ وترجمة نيكل ٩٦، وطبعة برشيه ١٧٠، ويقابل كلمة الحسود لفظ enuejos عند شعراء التروبادور.

(١١٨) من البسيط، الديوان ١٦٨. وكان أبو الصلت أكثر صراحة حيث يقول:

قـالـوا: ثنى عنـك بعد البشـر صفحتـه ... فـهـل أصـاخ إلى الـواشـى فـغـيّـرهُ
فـقـلت: لا بـل درى وجـدى بـعـارضـه ... فـردّ صـفـحـتـه عـمـدا لأبـصـره

وهى من البسيط، نفح ٣/٤٨١.

وعن الواشى بعامة، والمقارنة بينه وبين Lau Zemgier عند شعراء التروبادور انظر: طوق الحمامة ص ٨٣، وترجمة نيكل ص ٢٧٧، وطبعة برشيه ص ١٣٤، وترجمة Ecker ص ٤٢، وبلاشير، أبو الطيب المتنبى ص ٤٩، والهامش رقم ١.

(١١٩) من الرمل، نفح ١/٤٣٣.

(١٢٠) من الخفيف، نفح ٣/٤٢٥، وعن العاذل انظر: طوق الحمامة ص ٧٦، وترجمة نيكل ٦٧، وطبعة برشيه ١١٨، وEcker Arabischer... Minnesang ص ٤٩، ور. باسيه، بردة الشيخ البوصيرى ص ١١. ويتحدث ابن قزمان كثيرا عن العاذل أيضا. انظر: ديوان ابن قزمان، طبعة نيكل، القصائد ١٣ و٣٢ و٤٦ و٦١.

وإذا كان لشاعر المشرقى العبّاس بن الأحنف، المتوفى نحو ١٩١ = ٨٠٦، وجد التعبير الذى اشتهر: سلطان الهوى[١٢١]، فإنه لم يبغ حد تشخيص الحب كما فعل الشعراء الأندلسيون، فأوجد أبو عامر بن مسلمة تعبير «مَلِك الصِّبا»[١٢٢]، وابن خفاجة «داعى الصِّبا»[١٢٣]، وابن حمديس «ملك الهوى»[١٢٤] ولم يذهبوا بعيدًا جدًا فيبتدعوا إله الحب.

لقد تمثّلوا الحب ملكًا يستطيع أن ينير الأمور بعدل، ولكنه لايمكن أبدا أن يصل إلى حكم نهائي يسعد الطرفين، حتى عندما يكون المحب هو الذى طلب التحكيم، ويعرف سلفًا أنه سوف يكون مدانًا طبقًا لحكم الهوى، وقد ردّ الخليفة سليمان المستعين على أبيات العباس بن الأحنف التى يتحدث فيها عن سلطان الهوى. يقول:

حاكمتُ فيهنّ السلوَّ إلى الضَّنى ... فقضى بسلطانٍ على سلطان
لا تعذلوا ملكًا تذلّل لهوى ... ذلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثان[١٢٥]

وقد أظهر أبو القاسم بن العطار أن عدالة الحب تختلف عن عدالة البشر، لأن الأولى تنهض على مفاهيم ثقافية خالصة، على حين أن الأخيرة تقوم على النقل. يقول:

دينُ الهوى شرعُهُ عقلٌ بلا كُتبِ ... كما مسائله ليستْ لها حُجج
لاالعدلُ يدخل فى سمعِ المشوقِ ولا ... شخصُ السلوّ على باب الهوى يلج[١٢٦]

● ● ●

وبدل أن يستند الشعراء إلى جوهر الحب فضّلوا أن يخضعوا حالاتهم لرجال مثلهم، وكنهم بحكم وظائفهم متمكنين تمامًا فى البحث عن الحلول الأقرب إلى العقل والقانون، وأعنى بهم الفقهاء. وكان القاضى منذر بن سعيد البلوطى، المتوفى ٣٥٥ = ٩٦٦ أول من يُستشار فى مثل هذا النوع من القضايا، فيما يبدو[١٢٧]، وفى مطلع القرن الحادى عشر سأل أبو الفضل الدارمى فى بلاط المأمون بن

(١٢١) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٦٢. وتنسب أيضا إلى هارون الرشيد. وانظر أيضا: الحلة ٢/٩، والبيان المغرب ١١٨/٢، والمعجب ٤٦، وترجمته ٣٨، وأعمال الأعلام ١٢٢، ونفح ٤٣٠/١، وريبيراء موسيقا مدائح العذراء ٨٧. ويوجد هذا التعبير عند الجاحظ فى البيان والتبيين، طبعة السندوبى ١٧٠/١، ويقول: «قال ربانى: القلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى، ومدخل خدع الشيطان خفىّ».

(١٢٢) من الكامل المطمح ٢٠٦، ونفح ٥٤٥/٣.

(١٢٣) الديوان، القطعة ١٦٥، ص ٢١٩، البيت رقم ٣٠، نفح ٥٣٩/١ البيت ١٣.

(١٢٤) الديوان، ص ١٥٥، القطعة ١١٠، البيت ١٩.

(١٢٥) من الكامل، المعجب ٤٥، وترجمته إلى الفرنسية ٣٨، والحلة ٩/٢، والذخيرة ٤٧/١، والبيان المغرب ١١٨/٣، وأعمال الأعلام ١٢٢.

(١٢٦) من البسيط. القلائد ٢٨٧

(١٢٧) نفح ٢٢/٢. وكان أحد الأدباء قد كتب إليه فى هذه القضية بهذين البيتين، وهما من السريع:

مسألة جئتك مستفتيا ... عنها، وأنت العالم المستشارْ
علام تحمر وجوه الظبا ... وأوجه العشّاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله:

احمرّ وجه الظبى إذ لحظه ... سيف على العشاق فيه احورارْ
واصفر وجه الصبّ مذ نأى ... والشمس تبقى للمغيب اصفرار

ذى النون أمير طليطلة أسرة الأمير عن موضوع الورود التى تتفتح فى وجنة المحبوب بتأثير نظرات المحب:

يـزرع وردًا نـاضـرًا نـاظـرى فى وَجْنـةٍ كـالقمـر الـطالـعِ
أمـنـعُ أنْ أقـطفَ أزهـارَهُ فى سُنّـةِ المتبـوع والـتـابـع
فـلِمْ منعتـمْ شفـتى قَـطْفَـهـا والحكـمُ أنّ الـزرعَ لـلزارع(١٢٨)

وكانت هناك أربع إجابات فى الحقيقة عن حالة الحب هذه، ولو أنها جاءت متأخرة، مستخدمين حِيَل فتوى فقهية غرامية، مع احتفاظهم دائمًا بالإيقاع الممتاز للحوار الأكثر أدبًا. وقد وصلنا من إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر فتويان، الأولى أصدرها ابن حزم، وكان يعتبر فى ذلك الوقت الفقيه الأكثر علمًا فى الفقه والحب على السواء، ولن نذكر له إلا هذا البيت:

أيحـرمُ أن نـالـنى قـبـلةً غـزالٌ تـرشفُ فيـه الغـزل؟

ويرد ابن حزم فى نفس الإيقاع خفيف الدم، وبنفس القدر من الأبيات التى تضمنت السؤال، ولن نذكر إلا البيتين الأخيرين منها، لأنها، فيما نرى، يشيران إلى بعض الفقهاء الأكثر شهرة فى الغرب الإسلامى:

ففى أخْـذِ أشهب عـن مـالـكٍ عن ابنِ شهـابٍ عنِ الغـير قُـلْ
بـتـرْكِ الخـلافِ عـلى جمعـهـم عـلى أنّ ذلكَ حـلٌ وبـل(١٢٩)

والاستشارة الثانية أعلنها شاعر مجهول من الأندلس(١٣٠)، وتقدم بالسؤال مباشرة إلى محبوبه:

ألحـاظـكُمْ تجـرحُـنـا فى الحـشـا ولحـظُنـا يجـرحـكـم فى الخـدودْ
جُـرْحٌ بجـرحٍ فـاجعلوا ذا بـذا فـما الذى أوجبَ جـرحَ الصـدود(١٣١)

وقد تولت الرد عليه امرأة: ولّادة بنت المستكفى:

أوجَـبـهُ مِـنّـىَ يـا سـيّـدى جرحٌ بخدٍّ ليس فيـه الجحـود
وأنـتَ فـيـمـا قـلتَـه مُـدّعٍ فأين ما قُلتَ وأين الشهـود(١٣٢)

هذا الحوار حول الحب فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى لابد أن يدفعنا إلى التفكير فى «محاكم الحب» التى ازدهرت فى فرنسا فيما بعد.

● ● ●

---

(١٢٨) من السريع، نفح ١١٢/٣، و167 - Ecker, Arabisch er... Mimme sang, 166

(١٢٩) من المتقارب، نفح ١٦٠/٤.

(١٣٠) ينسبها نفح ١١٥/٤ - ١١٦ إلى شاعر من الجزيرة الخضراء أو إلى ابن شرف، وينسبها ابن دحية إلى أمة العزيز الشريفة الحسيبة، المطرب ص ٦، وعنه نقلها نفح ١٦٩/٤.

(١٣١) نظر المصادر التى فى الهامش السابق.

(١٣٢) من السريع، نسب ابن بسام هذه الأبيات لولادة، وكذلك دوزى فى فهرس المخطوطات العربية فى مكتبة أكاديميه Lugduno Batavae ٢٤٥/١، وعنه نقلها ليرتشوندى وسيمونيت، فى «منتخبات عربية» ص ١٢٦، القطعة ١٣٨، ونسبها نفح الطيب ١٧٠/٤ إلى أبى الفضل قاسم العقبانى وكان معاصرا للمقرى.

لو لم تختلط اندفاعات الشعراء نحو من يحبون باهتمامات شهوانية لبدت رائعة للغاية، ولكن يجب أن نعترف بأن الكثيرين منهم كانوا يرون أن المتعة الحقيقية الوحيدة التى يبحثون هى التمتع بحضور المحبوب. وهذه العفة، وهى الملمح الوحيد الدال على احترام الرجل للمرأة التى يفكر فيها، تجدها موقفا طبيعيا عند بعض شعرائنا الأندلسيين، وفى القرن العاشر الميلادى قال أبو عمر بن فرج الجيانى:

وطـائعةِ الـوصالِ عففتُ عنها ... وما الشيطان فيها بـالمُطاعِ
بدتْ فى الليل سافرةً فـباتتْ ... دياجى الليلِ سافرة القناع
وما من لحظةٍ إلّا وفيـها ... إلى فتن القلوبِ لها دواعى
فملّكتُ النّهى جمحاتِ شوقى ... لأجرى بالعفافِ على طباعى
وبتُّ بها مبيتَ الطفلِ يظما ... فيمنعه الفِطامُ من الرّضاع
كذاك الروضُ ليس به لمثلى ... سوى نظرٍ وشمٍّ من متاع
ولستُ من السوائمِ مهملاتٍ ... فأتخذ الرياضَ من المراعى[١٣٣]

وفى القرن الحادى عشر، على الرغم من ارتخاء العادات، وربما بسبب سهولة تحقيق اثم، أعطى الإسبانى المسلم الانطباع بأنه يشتاق ى لحظة حب عفيف مصقول، ليس فيها مكان لغير القلب والروح، ويشبّه أبو الفضل بن شرف حبيبته بالحديقة:

إنْ نلتُ ريّاه لم أطمع بطعمه ... لأنّ روضَ الصّبا نوْرٌ بلا ثمرِ[١٣٤]

وعندما وصف ابن الأبار الخولانى ليه أمضاها رفقة محبوبه يقول فى أبيات تذكّرنا بأبيات ابن فرج الجيانى:

أردتُ توسيده خدّى وقلّ له ... فقال: كفُّكَ عندى أفضلُ وسِّدِ
فباتَ فى حرمٍ لا غدرَ يذعرُه ... وبتُّ ظمآنَ لم أصْدُرْ ولم أرِدِ
تحيّرَ الليلُ منه أين مطلعه ... أما درى الليلُ أنّ البدر فى عَضُدى[١٣٥]

وقدّم لنا ابن خفاجة الأسباب الخلقية لعفته:

فإننى والعفافُ من شِيمى ... آبى الدنايا وأعشقُ الحسنا[١٣٦]

أليس من الأفضل أن يحل اتحاد الأرواح من خلال الفكر حال اليقظة، وفى الأحلام أثناء النوم، محل الصلة الحسيّة؟ إن ابن حزم يدرك الحب على هذه الطريقة:

---

(١٣٣) منن الوافر، المطمح ٣٣٥، والشقندى، رسالة فى فضائل الأندلس، فى نفح الطيب ١٩٦/٣، وترجمة غرسيه غومث لها ص ٦٣، وأوردها نفح الطيب مستقلة مرة أخرى ٤٣٧/٣ ومرة ثالثة فى ٤٦/٤. وردد الجيانى الفكرة نفسها فى قصدة أخرى من الوافر، توجد فى االمطمح ٣٣٥، وأوردها نفح لطيب مرتين، الأولى فى ٤٣٧/٣ والثانية فى ٤٨/٤.

(١٣٤) من البسط، القلائد ٢٥٤

(١٣٥) من البسيط، ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤٤/٦، وترجمة دى سلان ١٢٥/١، الأبيات: ٦ و٧ و٨.

(١٣٦) من المنسرح، الديوان، القطعة ٧١، ص ١٢٢، وما نفهمه من ابن خفاجة يسمح لنا أن نقرر بأن «العفاف» فيما يراه، وآخرون كثيرون، ليس الامتناع الكامل، أى «العفة» كما نفهمها نحن طبقا للمفاهيم الغربية، وإنما تعنى الإخلاص للمرأة نفسها وواحدة.

أغارُ عليكِ من إدراكِ طرْفى — وأشفقُ أنْ يذيبك لمسُ كفِّى
فأمتنعُ اللقاءَ حذارَ هذا — وأعتمد التلاقى حين أُغْفى
فروحى إن أنَمْ بكِ ذو انفرادٍ — من الأعضاءِ مُستترٌ ومخفى
ووصلُ الروحِ ألطفُ فيك وقعًا — من الجسم المواصلِ ألفَ ضِعْف(١٣٧)

هل نحن بصدد الحب الأفلاطونى، أو على الأقل الحب العذرى، والذى يُنسب إلى قبيلة بنى عُذرة العربية فى شبه الجزيرة العربية(١٣٨)؟. يمكن القول إن الأمر على هذا النحو لأن ابن سارة يستخدم الكلمتين معا، العذرى والعفاف، لكى يحدّد فكره:

وزائرٍ زار فى ليلٍ بِكِلَّمتهِ — فقام عندى إلى صُبْحٍ كغرَّتِهِ
نادمتهُ والهوى العذرىُّ ثالثُنا — والرَّاحُ تنضحُ فى عقلى كغُلّتهِ
لَمَّا تناولَ منها فوق حاجته — ومالَ كالغصنِ محتاجًا لنومته
عففتُ عنه عفافَ الحىِّ مقتدرًا — وعفّةُ المرءِ فَضْلٌ عند قدرتهِ(١٣٩)

وقد ذهب الأندلسيون بعبادة المرأة إلى حد بعيد جدا، ويمكن القول بحق أن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدّلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا فى أنفسهم علاقتهم بها، لكى يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية، أو إن شئت الدقة لتكون أكثر فطنة، وألطف رقة، وأروع تهذيبا، وأصقل ذوقا. هل لنا الحق أن ننطق كلمة «عفيف مهذب Courtoisie» أمام هذا الاحترام الفروسىّ للمرأة؟. الحق أننا نجد فى تقدير المرأة هذا عناصر كثيرة من الحب المهذب كما حلله ديبين فى دراسة قريبة(١٤٠): لقاء حار، وقِرى للضيف، ووفاء وإخلاص، وحلاوة وبهجة وحب، ولكن عبثا نبحث عن التناقض بين الحب المهذب والمتدنّى كما هو فى العصر المسيحى الوسيط. والنماذج المحمودة فى أسبانيا الإسلامية ليست ميزة للطبقة المتميزة، أنها تمتد فى كل مكان، وتظهر عفويا، ملونة هنا وهناك بالسخرية البريئة، وبالتربية المصقولة، وليست مفرطة فى المجاملة أبدا. وهذا شيء مؤكد، حتى أن

(١٣٧) من الوافر. الطوق ١٣٢، ترجمة نيكل ١٤١، طبعة برشيه ٢٥٢، وفيما يرى ابن داود الأصفهانى وقد سبق ابن حزم، فإن المثل الأعلى للحب، كما أظهر ماسينيون، ليس فى الملكية المشتركة التى تجمع بين جسدين، وإنما فى التخلى المتبادل حيث تخلد الرغبة. الحلاج ص ١٨٠.

(١٣٨) انظر حول هذا الموضوع الأب لامنس، مهد الإسلام ١٨٩/١ و ٢٨٩. وبخاصة ماسينيون، الحلاج، وقد ألفه عام ١٩١٤ ونشره عام ١٩٢٦، ص ١٧٣ و١٧٩ و٦٩١، الهامش رقم ٤ و٧٩٧ الهامش رقم ٤. وقد أوضح ماسينيون أن نظرية «الحب الأفلاطونى». (وكانت موضع نقد الجاحظ منذ مولدها...)، وقد تلقاها ابن حزم من المذهب الظاهرى لمؤسسه ابن داود، أخذ بها بعض علماء العقيدة الآخرون، وبخاصة الأحناف». وفى إسبانيا لابد أن هذا الحب كان بين أسباب عنصرية أخرى. انظر: آسين بلاثيوس، ابن حزم ٤٨/١ – ٦٣.

● لتكملة الفكرة يمكن العودة إلى كتابى: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣ ص ١٨٩ – ٢٠٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١. (المترجم).

(١٣٩) من البسيط. ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٣٧ ب. ولم نجد تعبير الحب «العذرى» إلاّ مرة واحدة فقط فى بيت لابن قمر من شعراء القرن التاسع الميلادى، فى نفح الطيب ١٤١/٣. ويسخر ابن قزمان فى أحد أزجاله من الحب الأفلاطونى. الديوان، القطعة رقم ١٢٣ الدور ٣.

(١٤٠) هـ ديبين، الحب العفيف فى العصور الوسطى، باريس ١٩٣٦.

الأندلسيين ليست لديهم كلمة أخرى للتعبير عن لطف العادات هذا، وعن هذه النزعة الطبيعية، وهي الظَّرْف أو الأدب، وكلاهما قديم، وكانا يعبر ن في القرون الإسلامية الأولى، بعد أن استقرت حضارة الإسلام في المدن، عن فكرة الأناقة الطبيعية، وقد امتزجت بالمعارف المتنوعة التي تقبّل فكر، حيا وذهنا حاضرا. يقول صاحب لسان العرب اعتمدا على لغوي قديم: الظريف مشتق من الظَّرْف بمعنى الوعاء، أي كما لو كان الإنسان يستخدم وعاء للأدب ومكارم الأخلاق[١٤١]. يبين المؤلف نفسه، في الوقت ذاته، أن ذلك لا يطلق فقط على لشبان والشابات، إذ يمكن أن يكون المرء في الأندلس ظريفا في أية مرحلة من مراحل العمر، أي «رجلا عفيفا ومهذبًا» وبخاصة حين يفرق بوضوح بين الأسلوب والتوْق في الأفعال الأكثر جمالا ونزاهة، حينئذ يمكن أن يستحق هذا الوصف. ويحكى الحصري أيضا، وكان أعمى، قصة ليلة أمضاها مع صديقته:

قـالتْ: وهبتـكَ مهجتي فـخُـذِ ودعِ الفـراشَ ونَمْ علـى فخـذي
وثنتْ إلى مثـلِ الكثيبِ يـدي فـأجبتـهـا نعم الأريكـةُ ذي
وهممت لـكـن قـال لي أدبي: بـاللَّهِ من شيطانها استعـذ
قـالتْ: عففتَ فعفتَ، قلتْ لهـا: مُـذْ شِبتُ بـاللذاتِ لم ألـذ[١٤٢]

ويجعل الأعمى التطيلي صديقته، وهو يسر إليها خجلا بما يعاني، تقول:

فأعرضتْ ثم قالت: قد أسأتَ بنا ظنًّا. أيجملُ هـذا من ذوي الأدبِ

وهو لا يتردد أن يؤكد:

لـلَّهِ مثِـلِيَ مـا أدْنى سـجـيّـتَـهُ من المعالي وأنآهـا عن الرِّيَبِ[١٤٣]

ثم، أليس مارسمه الخليفة المستظهر بالله في البيت التالي من الشعر، وقد توجّه به إلى ابنة عمه حبيبة، صورة موجزة للرجل العفيف:

جمـالٌ وآدابٌ وخُـلْق مُـوطَّـأ ولفظٌ إذا ما شئتِ أسمعكِ السِّحْرا[١٤٤]

وبالأدب والظرف حاول ابن زيدون أن يصف نفسه:

لا افـتـنـانٌ كـافـتـتـاني في حُـلَى الـظُّرفِ الحِـسانِ
خـصَّـني بـالأدب الـلَّـ ـه فـأغـلى فـيـه شـاني
خـاطـرى أنـفـذُ - مهـما قيسَ - من حدِّ السنان[١٤٥]

إن الحب الذي رأينا في التحاليل السابقة بعض ملامحه المميزة يظل وصفه ناقصا إذا لم نعرض لما

---

(١٤١) لسان العرب ١٣٣/١١، وعن المعنى الدقيق لمكارم الأخلاق انظر: دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، الكتب ٢ ص ٣، وكتب المادة بشر فارس.

(١٤٢) من الكامل، الذخيرة ١٤١/٢ و١٤٢، والصفدي، نكت الهميان ص ٧٣.

(١٤٣) من البسيط، أحمد ضيف، بلاغة العرب ص ١٦٦.

(١٤٤) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والحلة ١٤/٢ وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣٢٥.

(١٤٥) من الرمل، الديوان ٥٩٥، وانظر أمثلة أخرى لكلمة ظرف فيما سبق ص ٢٥ و ٦٧ و ١٥٧ وفيما بعد، ص ٣٨٩ من هذا الكتاب.

يمكن أن يكون النقطة الجوهرية، أريد أن أقول قيمته تشريفا. لأن الألم الذي يحسه المحب لا يذهب عبثا، والعبودية التي يخضع لها الرجل الحر قوة قادرة على كل شيء وليست ذِلّة، يقول الخليفة سليمان المستعين:

لاتَعذلوا ملكًا تذلَّل للهوى ذُلُّ الهوى عزٌّ وملكٌ ثانِ[١٤٦]

إن الحب يمحو الفوارق الطبقية، ويرفع العامة إلى مستوى الخاصة، ويجعل من المحب المغمور النسب في مستوى نبل سيدة أفكاره، وما من أحد يمكن أن يعبّر عن خصائص هذا الحب المشرّف مثل ابن زيدون الذى أحب ولّادة بنت الخليفة المستكفى:

ماضرَّ أنْ لم نكنْ أكفاءَه شرفًا وفى المودَّةِ كافٍ من تكافينا[١٤٧]

ويمضى ابن عمار بعيدا فى محاولته التقاط نفس الجوهر فى عظمة الحب:

جاءهُ الهوى - فاستشعروه - عارُهُ ونعيمُه - فاستعذبوه - أوارُهُ
لا تطلبوا فى الحبِّ عزًّا إنما عُبْدانُه فى حُكْمِه أحرارُه[١٤٨]

ألا يعنى ذلك، فى ضوء هذه المقابلة المدهشة، أن الألم والتذلُّل يشرفان الرجل المحب، وأننا لا نقع فى الغواية حين نرى فيه مفهوما مسيحيا؟. إن الشعر الأندلسى، فى بعض مجالاته، ذو إيقاع خاص به يجهله المشرق، وبرهنا على ذلك فى مناسبات عديدة، ورغم أنه يقلّد الأدب العربى فى أشكاله التى تعود إلى العصر الجاهلى أو القرون الإسلامية الأولى حاول أن يؤكد أصالته بطريقة نوعية، حين يعبر عن مشاعر أهله وأفكارهم، وسنرى مزيدا من هذه المظاهر فى الفصول التالية.

●●●

لا تقدم الصفحات السابقة غير جوانب الحب الرئيسية، كما هو حقا وكما يدركه الرجال. ويمكن أن نسأل، وهو سؤال مشروع، عما إذا كانت المرأة لم تعبر بنفسها عن فكرها حول شعور، هو بطبيعته، يمسهن بعنف أقوى وعمق أشد.

يمكن أن نوضح، فى المقام الأول، أن الشاعرات الأندلسيات، وكن كثيرات بدءا من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر، عكسن بصدق الأفكار الاجتماعية والدينية التى كانت سائدة فى عصرهن، وحتى نهاية القرن العاشر كن يشغلن أنفسهنّ بالعلوم اللغوية أو الدينية، وكان من بينهن فقيهات وزاهدات، والأغلبية منهن عملت فى كتابه المصاحف[١٤٩]، ذلك أنّ العادات فى قرن كان فيه على المنصور نفسه أن ينحنى أمام الفقهاء ما كانت تسمح للمرأة أن تستجيب مصوّرة ما تراه يتفق مع طبيعتها، وأن تعبر عن المشاعر التى تحس بها فى عفوية كاملة ومرغوبة. وأمّا فى القرن الحادى عشر فكانت المرأة تهدف إلى أن تحتل مكانا فى الصف الأول من المجتمع، وقد جعل منها ازدهار الشعر

(١٤٦) انظر ص ٣٦٨ من هذا الكتاب، الهامش رقم ١٢٥.
(١٤٧) من البسيط، الديوان ص ١٤٥، البيت ٣٩ من النونية، وكور، ابن زيدون ص ٧٢.
(١٤٨) من الكامل، المعجب ١١٢، وترجمته ٩٥
(١٤٩) كان بالربض الشرقى من قرطبة منه وسبعون امرأة، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى. انظر: المعجب ص ٣٧٢، وترجمته ص ٣١٥.

العاطفى كائنا ناضجا ومثاليا، وأظهرلنا أن امرأة الأندلسية، رغم أنها منفية فى الحريم وأنها تتمتع بحرية نسبية، كانت تشعر مثل الرجال تقريبا، تطالب مثلهم بحقها فى الحياة. ولم يكن لدى ولادة، كما رأينا، أية أسباب تجعلها تحسد الحرية التى يعيشها عشاقها، كابن زيدون وابن عبدوس. وأحيانا كانت الكلمات التى توجهها إليهم تشهد لها بحرية تكاد تكون تامة فى مواجهة «الجنس الخشن». وعلاقتها بامرأة أخرى، هى مهجة، وليس هناك أدنى شك فى هذا، إذ تشهد عليه بعض أبيات شعرها[١٥٠]، تظهر أنها كانت تسخر من المواضعات الاجتماعية القائمة. هل يمكن أن يكون الحب فى نظر امرأة رجلة مثل ولادة شيئا آخر غير الحب المادى؟. وعندما بدأت علاقاتها بابن زيدون عبرت عن انفعال قوى ومتوهج، فهل كانت تومئ إلى السعادة التى تحلم بها فعلا ولكنها تتخفى وراءه؟:

ترقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتى ... فإنِّى رأيتُ الليلَ أكتمَ للسرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ ... وبالبدرِ لم يطلعْ وبالنجم لم يَسِرِ[١٥١]

ثم نحن بإزاء عاشقة تظهر الغيرة من هوى عابر لابن زيدون مع جارية سوداء لها[١٥٢]، ولم تلبث أن فاض بها الملل، ولكى تقطع ولادة القصة بين أملها بلغ بها الحد أن تكتب أبياتا من الشعر غير محتشمة، وهى تظهر، ربما أوضح من علاقاتها غير السوية، الحرية التى كانت تحتفظ بها لنفسها أمام الجنس الخشن[١٥٣].

وقد أظهرت مهجة صديقة ولادة الخشونة نفسها فى علاقاتها مع الرجال، ووجدت فى ولادة أستاذة جيدة[١٥٤]. ووراء هؤلاء المسترجلات اللائى أعطين قليلا من قلوبهن مجموعة من النساء يتجسد فيهن حقا لطف الأندلسيات وفتنتهن.

لقد ذكرنا فيما سبق أبياتا لأم الهنا[١٥٥] تختلط فيها البهجة بالدموع، وهى شاهد صدق على أن شعورها كان فى قمته، وابنة المعتصم صاحب المرية الأميرة أم الكرام، التى عشقت فتى جميلا من دانية يدعى السمّار، أى بائع القرنفل، أو صانعه أو الحداد الذى يصنع المسامير، وهى تعبر عن حبها فى كلمات بسيطة ولكنها مثيرة:

يا معشرَ الناسِ ألا فاعجبوا ... مما جنَتْه لوعةُ الحبِّ
لولاه لم ينزل ببدرِ الدجى ... من أفقهِ العلوىِّ للتربِ
حسبى بمن أهواهُ لو أنهُ ... فارقنى تابعهُ قلبى[١٥٦]

وقد تركت لنا أم العلاء بنت يوسف الحجارية بعض المقطعات الشعرية، وفى بعضها تقع يدنا على دلالها امرأة، حين ترد فى الحقيقة على رجل أشيب عشقها وطلب الزواج منها:

---

(١٥٠) نفح ٢٩٣/٤، و٦٣٣/٢ والهامش e من الطبعة الأوربية.
(١٥١) من الطويل، كور، ابن زيدون ٢٣، ونفح ٢٠٦/٤.
(١٥٢) كور، المصدر السابق ٢٨، ونفح ٢٠٥/٤، وص ٢٣٩ فيما سبق من هذا الكتاب.
(١٥٣) كور، المصدر السابق، ص ٤٩ – ٥٠ فى الهامش.
(١٥٤) نفح ٢٩٩٣/٤، وهنا شاعرة أخرى من غرناطة تحمل الاسم نفسه، نفح ٢٨٧/٤.
(١٥٥) انظر فيما سبق ص ٣٦٣ من هذا الكتاب.
(١٥٦) من السريع، نفح ١٧٠/٤، وانظر أحاث لدوزى ط ١ جـ ١ ص ٢٦٤، وفون شاك، شعر العرب ١٣١/١.

الشيبُ لا يُخدعِ فيه الصِّبايا   بحيلةٍ فاسمعْ إلى نُصحي
فلا تكنْ أجهلَ من فى الورى   يبيتُ فى الجهل كما يُضحى[١٥٧]

ونجد حرارة العاطفة قوية عنده حَمْدة بنت زياد المؤدب، من وادى آش، تقول:

ولّما أبى الواشون إلاّ فراقنا   ومالهمْ عندى وعندكَ من ثارِ
وشنّوا على أسماعنا كلَّ غارةٍ   وقلَّ حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوْتهمُ من مُقلتيكَ وأدمعى   ومن نفسى بالسيفِ والسيلِ والنارِ[١٥٨]

وفى بلاط بنى عباد نرى من الضرورى أن نشير إلى أسماء ثلاث نسوة: العبّادية، والرميكية أو اعتماد، و بثينة، أمّا العبادية فهى جارية قدّمها مجاهد أمير دانية إلى المعتضد، وكانت «أديبة ظريفة، كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة»[١٥٩]، تقول الشعر فى سهولة، ولكن البيت الوحيد الذى نظمتْه ووصلنا، عندما كان الأمير نائمًا إلى جوارها، لا يظهر لنا شيئًا متميزًا من ذكائها[١٦٠].

وقد أصبحت الرميكية زوج المعتمد، وأخذت اسم اعتماد، وأضحت شاعرة ممتازة، ولكن البيت الوحيد الذى وصلنا من أبداعها موضع شك كبير فى صحة نسبته إليها[١٦١]. ولم تكتب بثينة ابنة المعتمد عن زوجه اعتماد أكثر من أحد عشر بيتًا، ثابتة التعبير، رصينة الإيقاع، وكانت كافية لتخليدها. وبعد سقوط إشبيلية فى يد المرابطين حاولت الهروب، ولكنها وقعت فى يد رجل يجهل حالها، فباعها إلى تاجر، وفكّر هذا فى أن يقدّمها أمة إلى ابنه، ولكن الفتاة الشجاعة، وقد رأت شرف من أخذها وصلاحه، قررت أخيرًا أن تقول لهم من هى، وقالت: لا أحلّ لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبى بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، وانتظار جوابه، فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

لا تنكروا أنى سُبيت وأننى   بِنتٌ لملكٍ من بنى عبّاد
فخرجت هاربةً فحازنىَ امرؤٌ   لم يأتِ فى إعجاله بسداد
إذ باعنى بيعَ العبيد فضمّنى   من صاننى إلاّ من الأنكاد

(١٥٧) من السريع، نفح ١٦٩/٤، وكانت تعرف أيضا كيف تصوغ قصائد المديح. لمعرفة المزيد عنها انظر: نفح ١٦٩/٤ وزينب فواز، الدر المنثور، ٥٤، ول. جونثالبو، فى مجلة أرشيبوس، عام ١٩٠٥ رقم ٩ و١٠ ص ٢٠٨ و٢٠٩، وجونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب الأندلسى، ص ٥٦.

(١٥٨) من الطويل، نفح ٢٨٧/٤، وعن حمدة وكنّا قد ذكرنا لها أبياتا فيما سبق ص ١٤٢ من هذا الكتاب عن وصف وادى آش انظر: نفح ٢٨٧/٤، وابن الأبار، كتاب التكملة رقم ٢١٢٠ ص ٧٤٦٧، والضبى، البغية ص ٥٣٠ رقم ١٥٨٧، والإحاطة ٢١٦/٢، وابن شاكر لكتبى، فوات الوفيات ١٤٧/١، وزينب فواز، المصدر المذكور سابقا ١٧٠ - ١٧١، ول. جونثالبو، المصدر السابق ٣٧٧، وهـ. سوفير، رحلة وزير مغربى فى إسبانيا ١٦٩٠ - ١٦٩١ ص ٣٦ - ٣٨، وجونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب الأندلسى ٩٦، وسيمونيت، وصف مملكة غرناطة ص ٢١٠.

(١٥٩) كانت الوحيدة التى عرفت اسم «الفحصة» التى تظهر فى الخدين عند الضحك.

(١٦٠) نفح ٢٨٣/٤، ونقلها بنو عباد ٢٣٦/٢، وابن الأبار، التكملة، فى الملحق الذى نشر فى مدريد رقم ٢٨٧٠، وزينب فواز، المصدر السابق لها ٣٢٧. ول. جونثالبو، مصدره السابق ص ٢٠٣.

(١٦١) بنو عباد ١٥١/٢ و٢٢٥ و٢٢٦ وبخاصة الجزء الثالث ص ٢٤٠ و٢٤٢، وانظر ما سبق من هذا الكتاب ص١٨٤ والهامش رقم ٥.

وأرادني لنكـاحِ نـجـلٍ صـاهـرٍ ... حَسنِ الخـلائق من بـني الأنجـاد
ومضى إليكَ يسوم رأيَك في لرضىً ... ولأنتَ تنـظرُ في طـريقِ رتـادي
فعسـاكَ يـا أبتي تعـرّفني بـهِ ... إن كـان ممـن يُـرتجـى لـودادِ
وعسى رميكيـةُ الملوك بفضـلها ... تـدعـو لنـا بـاليمن والإسعـاد[١٦٢]

«فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات، واقع في شراك الكروب والأزمات، سرّ هو وأمّها بحياتها»، وإذا كانت ابنته بثينة قد تزوجت من رجل دونها طبقة ومستوى، فقد احتفظت على لأقل بنبل روحها.

كما استطعنا أن نلحظ، لم تضف المرأة شيئًا هامًا إلى معرفتنا بالحب في القرن الحدى عشر، والأشعار التي نظمتها مهما كانت قليلة، وهي على أية حال كثيرة بالنسبة إلى القرن العاشر الذي لا يعرف كثيرًا منهن، ليست سيئة المستوى، وأظهر بعضهن عاطفة ملتهبة ومتميزة، وأسهمن بخاصة في دعم الفكرة التي أخذنا بها عن حرية امرأة، وكل هؤلاء الأندلسيات أظهرن شخصية حازمة، ومبادأة ما كان يمكن لها أن تظهر أو تعبر عن غسها، لو لم يكن المجتمع يسمح بذلك. إنهن نتاج عصرهن تمامًا!. ومن الحق أن المكان الذي احتلته يعود فضله، في الجانب الأكبر منه، إلى عبادة أرجل لها، يؤديها في محرابها، وهي عبادة ما كان يمكن أن تصل إليها دون جهد من جانبها، بزيادة ثقافتها، وصقل فكرها، والتسامي بقلبها.

---

(١٦٢) من الكامل، صرفنا النظر عن أربعة أبيات بإرادتنا، انظر نفح ٢/٢٨٤، ونسخها بنو عباد ٢/١٥٣، وزينب فواز، المصدر السابق ٨٩، ول. جونثالبو، المصدر السابق ص ٢٠٤.

○ الفصل الثانى:

الإنسان: نفسيته وفلسفته

لكى نتعرف على الأسباب التى تدفع الإنسان إلى العمل، وبخاصة فى عصر كان الشعر فيه، على ما يبدو، التعبير الأساسى عن فكر الشعب، علينا أن نعود إلى القصائد التى نظمها الشعراء تحت تأثير الأحداث مباشرة، وفى مواجهة الشخصيات والممثلين الذين قاموا فيها بدور إيجابى. وإلى جانب الشعر نجد المذكرت كتلك التى كتبها الأمير الزيرى عبد الله[1] فهى ذات قيمة كبيرة للغاية، ولكن مثلها مع الأسف الشديد قليل جدا فى الأدب العربى، وبخاصة فى القرن الحادى عشر فى إسبانيا الإسلامية. أى أضواء كانت ستلقيها هذه المذكرات، حتى لو أخذنا فى الحسبان طابعها الذاتى، وبالتالى انحيازها، فى عصر كالذى ندرسه، حيث يحاول الإنسان بفعل الظروف التاريخية نفسها أن يُحقق ذاته ما أمكن.

يعوضنا الشعر فى جانب منه عن غيبة الوثائق النثرية، ونستطيع من خلال القصائد الشعرية، وهى أحيانا أظهر تعبيرا من الاعترافات، أن نحصل على بعض الملامح الأساسية لنفسية الأمراء الأندلسيين فى القرن الحادى عشر الميلادى.

● ● ●

لقد تطور نموذج السيد العظيم، دون شك، بين القرنين التاسع والحادى عشر، ولقد كان سعيد بن جودى[2] يمثل الإنسان الكامل فى إسبانيا لحظة الصراع بين اليمنيين والمعدِّين، وبين المسلمين والإسبان، وتفرَّد فى زمانه بعشر خصال لا يُدفع عنها كما يقول ابن الأبار: الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والطعن والضرب والرماية[3].

ولم يجمع ملوك الطوائف هذه الصفات كلها أبدا، وإنما كانت لهم بعضها أو كانت مختلفة عندهم، أو سيطرتْ عليهم بسبب نموها المفرط، على حين أنها كانت ثانوية عند سعيد بن جودى. يقول القاضى أبو القاسم العبّادى جد المعتمد فى قصيدة:

فما المجدُ إلاّ فى ضلوعىَ كامنٌ ... ولا الجودُ إلاّ من يمينىَ ثائر
فجيش العلا ما بين جنبى جائلٌ ... وبحرُ الندى ما بين كفّىَ زاخر[4]

---

(١) انظر: ليفى بروفنسال، مذكرات عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، المقدمة والنص والترجمة فى مجلة الأندلس المجلد ٣، العدد ١، سنة ١٩٣٥، والمجلد ٤، العدد ١، سنة ١٩٣٦.

(٢) عن سعيد بن جودى انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨ و ٣٢ و ٣٤ – ٣٨ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٩٥، والمصادر المذكورة هناك.

(٣) ابن الأبار، الحلة ١٥٥/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٣٥، وابن حيان، المقتبس، طبعة الأب أنتونيا ص ٣٠.

(٤) من الطويل، الحلة ٣٨/٢، وبنو عباد ٤٧/٢.

ويصرح المعتضد والد المعتمد:

حميتُ ذِمارَ المجدِ بالبيضِ والسُمْرِ وقصّرتُ أعمارَ العداةِ على قَسْرِ
ووسّعتُ سُبْلَ الجود طبعًا وصنعةً لأشياءَ فى العلياءَ ضاقَ بها صدرى
فلا مجدَ للإنسانِ ما كان ضدُّهُ يشاركُهُ فى الدهرِ بالنّهى والأمر(٥)

ويشير المعتضد فى البيت الأخير إلى أن الطموح يمكن أيضا أن يكون صفة لأى أمير. وفى الحق ما من أحد فى عصره كان يستطيع مثله أن يشعر بمثل هذا التوتر الكبير، ألم يكن يطمح فى أن يجمع كل شبه الجزيرة تحت صولجانه؟ حتى اللّذات لم تستطع أن تثنيه عن خططه ومشاريعه:

أنام وما قلبى عنِ المجد نائمُ وإن فؤادى بالمعالى لهائمُ
وإن قعدتْ بى عِلّةٌ عن طِلابها فإنّ اجتهادى فى الطلاب لدائم
يعزّ على نفسى إذا رمتُ راحةً براحٍ، فتثنينى الطباعُ الكرائم
وأسهر ليلى مفكّرًا غير طاعمٍ وغيرى على العِلّات شبعانُ نائم
ينادى اجتهادى أن أحسّ بفترةٍ: ألا أين يا عبادُ تلك العزائم
فتهتزّ آمالى وتقوى عزيمتى وتُذكرنى لذّاتهنّ الهزائم(٦)

ولننظر أيضا إلى المزيد من أشعاره فهى بالغة التمييز:

لعمرِكَ إنى بالمُدامةِ نزّالُ وإنى لما يهوى النُدامى نَفّالُ
قسمتُ زمانى بين كدٍّ وراحةٍ: فللرأى أسحارٌ، وللطيب آصالُ
فأمسى على اللذاتِ واللهوِ عاكفًا وأُضحى بساحاتِ الرئاسةِ أختالُ
ولستُ - على الإدمان - أغفلُ بُغيتى من المجدِ، إنّى فى المعالى لمحتالُ(٧)

وهذا البيت أيضا:

أغارُ على معنى الرئاسةِ إنّنى على كلّ حُسْنٍ فى الزمانِ غيورُ(٨)

هذا الطموح المتطرف لا نجده إلا عند المعتضد، وأما المعتمد، ومشى على خطى أبيه. فقد كان أكثر اعتدالا فى رغباته، وعند ما يشيد بنفسه فى أشعاره يعود إلى الصفات المعروفة من الشجاعة والجود. والأشعار الأقوى تعبيرا فيما يتصل بهذين الموضوعين نظمها وهو أسير فى أغمات. فقد أشاد بمغامراته الحربية وسخائه على من كانوا يعرفون كيف يعزفون على إيقاع مدائحه:

قُبّح الدهرُ فماذا صنعا كلّما أعطى نفيسًا نزعا

(٥) من الطويل، الحلة ٢/٤٣، وبنو عباد ٣/٤٦.

(٦) من الطويل، الحلة ٢/٤٥، وبنو عباد ٣/٥٠.

(٧) من الطويل، الحلة ٢/٤٦، وبنو عباد ٢/٥٠. توجد إشارة إلى هذه الأبيات الأربعة فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٤٤: تنظيمه القوى يجعله كفئا على التساوى للذات والعمل، بد من الشراب وعامل لا يمل، ويمضى من اللذات واللهو إلى ساحة المجد، ويحب أن يفنى فى مشاغله أسيرا، ولكن بعد الجهد المعجز الذى يبذله لكى يعوض الوقت الذى أفناه فى اللذات كان يحتاج إلى النشوة، وتوضى من جديد، لكى يجدّد قواه. نظر فيما سبق ص ٣١٨ من هذا الكتاب.

(٨) من الطويل، الحلة ٢/٤٤، وبنو عباد ٢/٥٠.

قد هوى ظلما بمن عادته ... أنْ ينادى كلٌّ من يهوى لَعاَ!
مَن إذا الغيثُ همى منهمرا ... أخجلتْهُ كفه فانقطعا
مَن غمامُ الجودِ مِن راحته ... عصفتْ ريحٌ به فانقشعا
مَن إذا قيل الخنا صُمَّ وإنْ ... نطق العافون همسًا سمِعا
قلْ لمن يطمعُ فى نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راحَ لا يملك إلاّ دعوة: ... جبرَ اللهُ العُفاةَ الضُيّعا[٩]

الملامح التى انتهينا من تحليلها: الكرم والشجاعة يمكن أن تكون تقليدية للغاية، لأنها تُنسب أيضا إلى الأبطال العرب. وأماَّ ما هو أندلسى خالص فإدراك وزن الأشياء الفكرية وحبّها.

وتكشف لنا حالة الراضى بن المعتمد، وأشرنا فيما سبق إلى أنه أوضح الأمثلة للأنسية التى شهدها القرن الحادى عشر، عن تطور هذه الصفات إلى أبعد مدى[١٠]. وقد أراد والده أن يكلفه بقيادة حملة حربية على مدينة لورقة، ولكن الراضى ولد مدلل، فتظاهر بالمرض، وغاضت فيه العزة العربية، وبين رعب القتال والافتتان بالدراسة والقراءة فضّل الثانية دون تردّد. وقبل والده العذر، دون أن ينخدع بالأسباب التى أبداها ابنه. كيف يعرّض ابنه الغالى لمتاعب الحروب وهذا الابن يجد لذة ومتعة فى العمل الثقافى حتى وهو مريض؟. وإذن فليكن المُعتدّ ابنه الأصغر سنا، هو الذى يوضع على رأس الجيش، ولسوء الحظ فإن الهزيمة كانت من نصيبه، وبلغت أخبارها المعتمد بعد قليل[١١]. ورغم ذلك ظل يحقد على الراضى زمنا، ولو أن هذا استطاع أخيرا أن يجعل والده يلين نحوه. وقد سخر المعتمد من هذا الأمير المسالم، وخصه بالأبيات التالية، وهى ذات إيقاع ساخر، وتشبه إلى حد ما قصائدنا البطولية الهزلية، وتلقى ضوءا كاشفا على المزاج الجديد، وسوف يصبح فيما يبدو، السائدَ بين الأجيال الجديدة من الأمراء الأندلسيين خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر:

المُلكُ فى طىِّ الدفاترْ ... فتخَلَّ عن قَوْدِ العساكرْ
طفْ بالسرير مُسلِّمًا ... وارجعْ لتوديع المنابر
وازحفْ إلى جيش المعا ... رفِ تقهرِ الحَبرَ المقامر
واطعنْ بأطرافِ اليرا ... ع - نُصرتَ! - فى ثغرِ المحابر
واضربْ بسكّين الدوا ... ةِ مكانَ ماضى الحدّ باتر
أو لستَ رَسْطَالَيس إنْ ... ذُكِرَ الفلاسفةُ الأكابر
وأبو حنيفةَ ساقطٌ ... فى الرأى حين تكون حاضر
وكذاك إنْ ذُكر الخلي ... لُ فأنتَ نحوىٌّ وشاعر
مَنْ هُرمُسٌ من سيبوي ... هِ مَن ابن فورك[١٢] إذ تُناظر
هذى المكارمُ قد حَوَيـ ... تَ فكنْ لمن حاباك شاكر

(٩) من الرمل، المعجب ١٤٥، وترجمته ص ١٢٣.
(١٠) انظر فيما سبق ص ٤٣ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٨٠.
(١١) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٣٢.
(١٢) عن هذا العالم اللغوى انظر: ابن خلكان، وفيات، طبعة دى سلان، ٦٧٥/١ وما بعدها.

واقـعـدْ فـإنّـك طـاعـمٌ كـاسٍ وقل: هـل مِن مفـاخـر
لحجبـتُ وجـهَ رضـاى عنـ ـكَ وكنتَ قـد تلقاهُ سـائـر
لا يـسـتـقـرُّ مـكـانـهُ وأبـوكَ كـالـضـرغـامِ خـادر
هـلّا اقـتـديـتَ بـفـعـلهِ وأطـعـتْـهُ إذ ذاك آمـر
قـد كـان أبصـرَ بـالـعـوا قـبِ والمـواردِ والمـصـادر

وقد اندهش الراضى من ايقاع هذ الأبيات الظريف، وهى أكثر إثارة مما فى ظاهرها، فرد عليه بقصيدة طويلة، نجتزئ منها هذه الأبيات:

مـولايَ! قـد أصبحتُ كـافـرْ بجميـع مـا تحـوى الـدفـاتـرْ
وفـللتُ سـكـينَ الـدوا ةِ وظلْـلتُ لـلأقـلام كـاسـر
وعـلمـتُ أنّ المـلكَ مـا بـين الأسـنّـةِ والـبـوانـر
والمـجـدُ والـعـليـاءُ فى ضـرْبِ العساكـر بـالعسـاكـر
لا ضـربُ أقـوالٍ بـأقـ ـوالٍ ضـعيـفـات مـنـاكـر
قـد كنتُ أحـسبُ مِن سفـا هٍ أنها أصـلُ المـفـاخـر
فـإذا بهـا فـرعٌ لهـا والجـهـل لـلإنـسـان عـاذر
لا يـدركُ الـشـرفَ الـفـتى إلّا بـعـسّـالٍ وبـاتـر
وهـجـرتُ مَـن سـمّـيـتـهـمْ وجـحـدتُ أنهم أكـابـر[١٣]

قد يكون الراضى صادقًا فى هذه اللحظة عندما يعلن أنّ مجد الحروب هو الشيء الوحيد الجدير بأمير. ولكننا نشك فى أنه تخلّى عن دراسته المحببة إليه إلى الأبد، لأن التخلى عن النحو والشعر والفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات شىء كان يبدو فوق طاقته. إن الشجاعة فيما يرى هذا الأمير المثقف، وكان أندلسيا أكثر من أبيه، أصبحت فىَ المرتبة الثانية، ويبدو أن الأمر كان كذلك بالنسبة لكثيرين من ملوك الطوائف الصغار فى شبه الجزيرة.

لكن صغار ملوك الطوائف هؤلاء، عبروا فى لحظات الشدة، أو النفى الإجبارى، حين بدّدت شملهم سيوف المرابطين، بأفضل طريقة عن عمق شخصيتهم الحقيقية، فى أشعارهم الناضحة بالحنين.

ويسترعى الانتباه حقًا أنهم عرفوا كيف يحتفظون فى هذه الظروف الصعبة من حياتهم بالطوابع الأرستقراطية، ورباطة جأش كريمة: فالتهذيب، وآداب السلوك، شىء فطرى فيهم، ولنستمع إلى حسرات رفيع الدولة ابن المعتصم .قد استأذن يومًا على أحد وجوه دولة المرابطين، فقال أحد جلسائه: «تلك أمة قد خلت»، استحقاراً له، واستثقالاً للإذن له، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه:

خـلتْ أمّتى لـكنّ ذاتى لم تخـلُ وفى الفرعِ ما يُغنى إذا ذهب الأصلُ
ومـا ضرّكمْ لـو قلتم قولَ مـاجدٍ يكـون له فيـها يجىء بـه الفضـل
وكـلّ إناءٍ بـالذى فيـه راشـحٌ[١٤] وهـل يمنح الـزنبورُ مـامجّهُ النحـل

(١٣) من مجزوء الكامل، القلائد ٣٤ – ٣٦ وعنه نقلها نفح ٢٥٣/٤، وبنو عباد ١٧٣/١، والتيجانى، ملك شاعر ١٥٩.
(١٤) وهو مثل عربى، انظر: الميدانى، معجم الأمثال ٩٢/٢.

سأصرفُ وجهى عن جنابٍ تحلّهُ ... ولو لم تكن إلّا إلى وجهك السُّبل
فما موضعٌ تحتلهُ بمرفّعٍ ... ولا يرتضى فيه مقالٌ ولا فِعْل
وقد كنتَ ذا عذْلٍ لعلك ترعوى ... ولكن بأرباب العُلا يجملُ العذل[١٥]

هذا الإيقاع الرصين فى توجيه النقد، واللطف الذى ظل رقيقًا حتى فى لحظات الشدة، يوقظ فينا صدى لا نجده عادة فى الشعر المشرقى، ألا يشعرنا بغوايةٍ أن نرى فيه شيئًا مسيحيا؟. على أية حال سوف نعود إلى هذا الموضوع فى مناسبات أخرى.

وإذا كان من الصعب علينا أن نعود فنجد العزة العربية، وهى صفة جوهرية فى سكان الصحراء طبقًا لشهادة المؤلفين الذين ينتمون أصلاً إلى هذه البلاد، فى هذا الأمير الأندلسى المنفى فى المغرب، فسوف يكلفنا أيضًا كثيرًا من الجهد أن نتبيّن فى الجود المتحفظ الذى اتسم به المعتضد وبقية ملوك الطوائف الصغار السخاء المدهش الذى اشتهر به حاتم الطائى، يقول المعتضد:

لعمـرُكَ ما الإسـرافُ فىَّ طبيعـةٌ ... ولكنّ طبعَ البخلِ عندىَ كالحتفِ[١٦]

وقد أبدى خيران الصقلى الذى حكم المرية قبل بنى صمادح ملاحظة شبيهة نجدها عند مؤرخ عربى، فاستخدم كلمة «قصد» ليعبر بالدقة عن موقف معتدل، أى اقتصادى، وهى تبعد عن السخاء بنفس القدر الذى يبعدها عن البخل، يقول عنه: «وكان مذهبه فى الجود قصدا، لم يشتهر بكرم ولا وُسم بلوم»[١٧].

الطريق الوسط، كما نرى، هو الأفضل، ومعه مظاهر الجود تسعد صاحب الجود دون أن تفلس الخزانة، هل الإسبانى المسلم الوحيد الذى يستحق لقب بخيل؟[١٨] إن أبا الحزم جهور بن محمد أمير قرطبة، طبقًا لابن حيان: «تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد، والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا، ولكمل لو أن بشراً يكمل»[١٩].

وملوك الطوائف الصغار الذين من أصل بربرى ولكنهم تأنّدَ لُسوا لم يكونوا بمنجاة من هذا النقد. لم يكن إسماعيل بن ذى النون أمير طليطلة، ولا هذيل بن رزين أمير السهلة أسخياء إلّا عندما تكون اللحظة مناسبة[٢٠]، وحفيد هذا الأخير وخليفته فى الإمارة حسام الدولة، مروان بن رزين، كان مع ذلك يزهو فى قصائده، مثل المعتضد تمامًا، بأنه جواد:

إليكم فإنّى فى الوغى والندى فتىً ... هو البحر إنْ أعطى وإنْ صال فالدهر[٢١]

---

(١٥) من الطويل، نفح ٣/٣٧٠، وفى أبحاث ط ١ ص ١٢٨، و ط ٣ جـ ١ ص ٢٧٦.

(١٦) من الطويل، الحلة ٢/٤٤، وبنو عباد ٢/٥٠.

(١٧) أعمال الأعلام ٢٦٢.

(١٨) ثمة أمير أموى إسبانى ينحدر من الحكم الربضى وكان يعيش فى عصر المنصور، وهو عبد الله بن عبد العزيز، لُقِّبَ باللفظ الرومانثى بِطْرَ شَكّ Piedra Seca، ومعناها «الحجر اليابس» وذلك لبخله، انظر: الحلة ١/٢١٥، وأبحاث ط ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤، وط ٣ جـ ١، الملحق ص ٣٠، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٣٤، ودييبرا، نبذ ومقالات ١/٣٠.

(١٩) الحلة ٢/٣١، والبيان المغرب ٣/١٨٦.

(٢٠) البيان ٣/١٨٢، الحلة ٢/١١٠، والذخيرة ٣/١١١، وأعمال الأعلام ٢٠٥.

(٢١) من الطويل، الحلة ٢/١١٠.

ويقول فى مكان آخر:

فاهدمْ بناءَ البخلِ وارفُضْ به من هدم البخلِ بنى مجدَه
لا عاش إلاّ جائعًا نائعًا من عاش فى أمواله وحده[٢٢]

وله أيضًا:

فمَن يرمْ جاهدًا إدراك منزلتى فلْيحكنِي فى الندى والسيف والقمِ[٢٣]

أكيدا، لم يكن حسام الدولة عندما نظم هذه الأبيات يتذكر معلم الكتّاب البائس الذى طلب منه لتحسين حاله أن يأذن له فى الجمع بين أمرين لا يتأتّى الجمع بينهما: أن يؤم الناس فى مسجدين مختلفين وأن يعلّم الأطفال، فأجابه:

أيُطيقُ تأديبًا وعقدَ إمامةٍ فى مسجدينِ وجامعٍ إنسانُ؟
اثبتْ على إحدى المراتب لا تزِدْ فمن الزيادة يُتقّى النقصان[٢٤]

لقد أصبح البخل الذى كان يبدو فى نظر العرب أيام الجاهلية وفجر الإسلام أقبح العيوب يمثّل فى إسبانيا جانبًا من شخصية الإسبانى المسلم، فيما يبدو، ولكنا دون شك لسنا بصدد هذا الشح الذى يرفض رفضًا قاطعًا أى عمل طيب، ولقد كان المعتضد و ابن رزين يعرفان كيف يسخوان حين يشعران بالسعادة الغامرة عندما يستمعان إلى شاعر، أو يرضيان عن مهمة تمت على الوجه الأكمل، أو خدمة قُدِّمت لهما، ولكن: هل هذا هو الكرم العربى، الذى لا يعتبر المنحة أجرا أبدا، وإنما عطاءٌ حبًا فى العطاء ليس إلا!. والحق أن العربى فى سخائه يندفع تلقائيًا. أما هنا فى إسبانيا الإسلامية فهو صفة مصحوبة بالتفكير والحساب، وعلى أية حال فإن المشرق عرف أيضًا شخصيات من هؤلاء الذين يُعتبر البخل إحدى صفاتهم، ولا نعدم مؤلفين احتفوا بهم بنفس القدر الذى سجلوا به الشجاعة وربما كان من الأمانة أن نوضح أن هؤلاء البخلاء ليسوا عربًا، وإنما أعاجم من أصل فارسى[٢٥]. وهذا يدعم ما سبق أن قلناه أن سكان إسبانيا الإسلامية كانوا شيئًا آخر غير العرب، ويبدو أن إطر ء البخل، والإشادة بالكرم المحسوب، ليست باختصار إلا أحد جوانب قضية الشعوبية فيما يبدو.

وثمة ملمح آخر لشخصية الأندلسى دعم بها الشعر الأندلسى إلى النور، وهو ليس عربى الجوهر أيضا، وأعنى به القسوة، ويقدم لنا المعتضد مثلا واضحًا ومثيرًا، فشخصيته المليئة بالشك والقساوة[٢٦] سيطرت، إلى جانب طموحاته، على كل سياسته، ويشبهه أحد المؤلفين بأسد «يلزم عِرِّيسَتَهُ يدبر داخلها أموره» لقواده[٢٧]. وقد أمر بقتل الشاعر أبى حفص عمر بن حسن الهوزنى لأنه انتقد أعماله،

---

(٢٢) من السريع، الحلة ١١١/٢.

(٢٣) من البسيط، الحلة ١١١/٢.

(٢٤) من الكامل - الحلة ١١٤/٢.

(٢٥) مثل سهل بن هارون، انظر: النويرى، نهاية الأدب ٣١٨/٣ - ٣٢٧، وانظر أيضا: ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٣٣/٣ وما بعدها، والجاحظ، البخلاء، طبعة ليدن ص ٦٥.

(٢٦) الذخيرة ٢٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٢/١.

(٢٧) الذخيرة ٢٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٣/١.

وانتقم من أعمى لاذ منه بمكة وأخذ بها يدعو عليه، وروى لنا عبد الواحد المراكشي قصته كاملة:

[«كان هذا الرجل من بادية إشبيلية، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال هذا الرجل الأعمى. وذهب باقي ماله حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حُقًا فيه دنانير مطليّة بالسم، وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة وسلّم عليه عنا. فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحُقّ، فحين وصل مكة لقى الأعمى ودفع إليه الحق، وقال: هذا من عند المعتضد، فأنكر ذلك الأعمى، وقال: كيف يظلمنى بإشبيلية ويتصدّق عليّ بالحجاز؟ فلم يزل الرجل يخفّضه إلى أن سكن وأخذ الحُقّ، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه، وجعل يقلّب سائرها بيده إلى أن تمكن منه السم، فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز»][٢٩].

وأثار أبو محمد بن عبد البر غضبه لأسباب لا نزال نجهلها، ولم ينج من الموت إلا بفضل والده أبي عمر[٣٠]. أمّا ملوك الطوائف الصغار من البربر الذين بيّتوا النية على «ذبحه مثل كبش سمين» عندما يقبل ضيافتهم، فقد دعاهم إلى حفل إعذار، ولإدخال البهجة عليهم صحبهم إلى الحمام حيث ذُبحوا[٣١]، وعندما شك فى أن ابنه إسماعيل يتآمر عليه لإزاحته عن العرش ذبحه بيديه[٣٢]

لقد وجد المعتضد فى شخص مُدّعى الخلافة المهدى، محمد بن عبد الجبار، أستاذا فى القسوة، وقد تحدثنا عن هذا بمناسبة أحداث الفتنة فى مطلع القرن الحادى عشر. ألم يكن من عادة المهدى حين كان لاجئا فى مدينة سالم أن يضع فى حديقة معلّقة تعلو جانب النهر، أمام القصر، جماجم أعدائه الذين قتلهم قائده الصقلبىّ الخصىّ واضح، ويتخذ منها أصصا لغرس الزهور؟. ويقول المؤرخون إن موجة عارمة من السعادة كانت تغمره وهو يتأمل هذه الحديقة العجيبة، وفيها نظم الشاعر صاعد بن الحسن البغدادى الأبيات التالية:

جلاءُ العين مُبْهجةُ النفوسِ ... حدائقُ أطلعتْ ثمرَ الرؤوسِ
هناك الله مهدىَّ المساعي ... جَنى الهامات من تلك الغروس
فلم أرَ قبلها وحشًا جميلًا ... كريهةً رُوائهِ أُنسُ الأنيس
نماذا يملأ الأسماعَ منها ... إذا مُلِئَتْ من انباءِ الطروس[٣٣]

ولابد أن المعتضد وجد هذه الفكرة الذكيّة جديرة بالتقليد فخطّط مِثْل المهدى الأموى حديقة تكون أصصها من الجماجم، ولتبلغ منتهى الصقل والدقة علّق فى التجويف المناسب فى أذن كل جمجمة

(٢٨) نفح ٩٣/٢، وعنه فى «بنو عباد» ٢١٩/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٨٠.
(٢٩) المعجب ٩٧، وترجمته ٨٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٤٧.
● أوجز المؤلف القصة، وجئت بها كاملة لطرافتها (المترجم).
(٣٠) القلائد ٨١.
(٣١) تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٥٧.
(٣٢) تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٦٦، والبيان المغرب ٢٤٤/٣.
(٣٣) من الوافر، الذخيرة ٢٧/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٤/١، وترجمتها ٢٦٥، والحلة فى «بنو عباد» ٦٠/٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٩١.

بطاقة حتى تأخذ فى مجموعها شكل حديقة نباتية. وكان ذلك قليلا فيما يرى، ولم يكن يروى متعته القاسية إلا أن يتأمل وحيدا، بعيدا عن نظرات الآخرين، الجماجم المحفوظة فى الأحقاق، وكانت لأعدائه من البربر من ذوى المناصب الكبيرة الذين انتصر عليهم، ومن بينهم كل بنى بِرْزال أمراء قرمونة[٣٤]، وفى هذه الحديقة الشبيهة بالمقبرة نظم الأبيات التالية:

غرستُ أشجارَها مُستجزِلَ لثمرِ … زُهْرُ الأسنَّةِ فى الهيجْا غدتْ زَهْرى
إلّا تجلَّلْتُهُ بالصارم الذَّكَرِ … ما إنْ ذكرتُ لها من مَعْرَكٍ خللٍ
يا قاتلَ الناسِ بالأجناد والفِكَرِ[٣٥] … حتى غدوْتُ وأعدائى تخاصِبنى:

وقد أشاد ابن عمّار على غرار صاعد بأميره فى المقطوعة التالية، وسبق أن ذكرنا بيتا منها بمناسبة الحديث عن يهود غرناطة:

إلّا اليهودَ وإنْ تَسمَّوْا بَرْبرَا … شَقيتْ بسيفك أمّةٌ لم تعتقدْ
لمّا رأيتَ الغصنَ يُعشق مُثمِرا … أثمرتَ رُمحك مِن رءوس كُماتِهم
لمّا عَهدْتَ الحسْنَ يلبس أحمرا[٣٦] … وخضبْتَ سيفَك من دماءِ نُحورهم

وماذا عن المعتمد؟ أحقا لم يأخذ من والده إلّا القليل كما يدعون؟. ليس موضع شك أن أول شيء قام به بعد تولّيه الإمارة كان هدم الحديقة الشهيرة، ولكن المؤرخين يؤكدون أنه احتفظ بهذه الأحقاق، ولم يرفض متعة أن يضيف إليها بعض رءوس البربر، فقد وجدوا فيها أحد رؤسائهم، وقد أظهر البربر الذين تَأنْدَلُسوا وكانوا يرافقون الجيش المرابطى بغضا عميقا للمعتمد[٣٧].

هل كان المعتمد، وهو أكثر صقلا، يخفى قسوته[٣٨]؟. إن كل ما نعرف عنه أن الغضب عندما يجتاحه يمكن أن يجرح إنسانا بأن يقذفه بدواة حبر فى رأسه، أو أن يرمى بمغنية بربرية فى النهر لإنّها غنت بما أحبطه[٣٩]، ونعرف من بيت شعر لابن وهبون أنه قتل بيديه وزيره المقرب إليه: ابن عمّار[٤٠].

---

(٣٤) الذخيرة ٢٧/٢ و ٢٨، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٢/١، والترجمة ص ٢٦٢، والبيان المغرب ٢٠٥/٣، والمعجب ٩٨، وترجمته ٨٢، والحلة ٥٠/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٦٠/٢، وأعمال الأعلام ١٥٥، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٤٩. وقد تصرف على بن حمود بالطريقة نفسها فيما يتصل بالخليفة سيمان وابنيه. [هكذا فى الأصل، والحق أنها أخوه وأبوه - للترجم] انظر: الذخيرة ٤٢/١، والبيان المغرب ١١٧/٣. وتوجد فى المشرق سوابق لهذه العادة الغريبة، فقد كان عند الخليفة العباسى المنصور، المتوفى ١٥٨هـ = ٧٧٥م، حجرة خاصة يحتفظ فيها برؤوس العلويين. انظر: الطبرى، ٤٤٥/٣، وجود فروى - دوميين، مسالك الأبصار للعمرى ص ٢٦٤.

(٣٥) من بحر البسيط. الحلة ٤٥/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٥١/٢.

(٣٦) القلائد ٩٧، وعنه نقلها نفح ٦٥٦/١، والمعجب ١١٦، وترجمته ٩٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٦٣، حيث يوجد البيت الأول فقط، وانظر فيما سبق ص٤٢ و٢٨٥ من هذا الكتاب.

(٣٧) الذخيرة ٢٨/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٤/١، والبيان ٢٠٦/٣.

(٣٨) الرءوس المقطوعة الموضوعة على أعمدة تمثل مظهر ضروريا للسلطة الملكية، وبخاصة بعد سحق الفتن والاضطرابات، وتوضع عادة فى مكان عام، وبخاصة فوق الأبواب الرئيسية للمدن لكى يراها الناس كافة.

(٣٩) انظر فيما سبق ص ١٩ و ٢٤١ الهامش رقم ٦٨ من هذا الكتاب.

(٤٠) انظر فيما سبق ص ٩٥ من هذا الكتاب.

يوجد في هؤلاء الناس، حتى من تلقوا منهم تربية عالية، عمق همجي، يجعلنا نفكر في أولئك الأمراء من مسيحيي العصور الوسطى، ووصلنا اشتهارهم بالقسوة، وليس عسيرا أن نجد بين ملوك ليون وقشتالة ونبرّة وأرغون وبرشلونة في القرن الحادى عشر بعض النماذج، وليس لديهم شيء يمكن أن يحسدهم عليه ملوك إسبانيا الإسلامية.

ربما كان من الضرورى هنا أن نفكر في التأثير البربرى، وحالة هذيل بن رزين أمير السهلة هى النموذج الوضح فيما يتصل بهذا الأمر. ألم يقتل أمّه في لحظة غضب؟[٤١]. وكانت تجتاح حفيده حسام الدولة، أبا مروان بن رزين، في جوانبه الخشنة نوبات من الغضب الجارف ترعب ندماءه[٤٢]، وحين دبّر عليه صهره عبيدالله، وأراد اغتياله مع طائفة من رجاله ليرث مكانه، أحضره لدعوة احتفل فيها مع جماعة، فلما أمكنتهم الغِرّة فيه بأخذ الشراب منه، وثبوا عليه، وخبطوه بسيوفهم حتى أثخنوه جراحا، واتفق أن كانت أخته حاضرة – وهى زوج عبيد الله هذا – فصعدت إلى عِلية هناك وصرخت: «واقتيلاه!». فتبادر الناس لمعرفة القصة، ودخلوا على أبي مروان وبه رمق، فأرادوا قتل قاتليه بأجمعهم، فأمرهم بترك صهره وابنه والقبض عليهما، ولم يزل يعالج من جراحه إلى أن برئ وصح، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه وسُملت عيناه وصلب، وأمر بقطع رجل ابنه، وخلىَّ سبيله[٤٣].

كان حسام الدولة يتسم بالقسوة عند معاقبة أحد من أهله الثائرين عليه، ولكنه فيما يبدو كان يتدرج في العقوبة تبعا لأهمية الخطأ المرتكب طبقا لقانون الثأر البربرى[٤٤]. وقد أتى في بيت من الشعر على الصفات الخمس التى تودى الحياة أو الموت:

أنا مَلْكٌ تجمّعتْ فىْ خمسٌ ... كلُّها للأنام مُحْيى مُميتُ
هى: ذهنٌ وحكمةٌ ومضاءٌ ... وكلامٌ فى وقته وسُكُوت[٤٥]

ويمكن أن نضيف إليها صفة سادسة: القسوة!

يقدم لنا باديس بن حبوس النموذج الكامل للقسوة البربرية، ويقول عنه دوزى: «دائما لا يرحم في انتقامه، ويتحرك في حراسة جلادين، ويعاقب التعساء الذين تواتيهم الغطرسة فيتمردون عليه، بالنار والحديد والدفن»[٤٦]. ومع ذلك كانت هناك ظلال فارقة بين باديس والمعتضد، «فعلى حين كان الأول في هيجان غضبه الأعمى يقضى على ضحاياه بيده، نادرا ما كان المعتضد يغتصب وظيفة الجلّاد»[٤٧].

---

(٤١) الذخيرة ١١١/٣، وأعمال الأعلام ٢٠٦. وقد رأينا فيما سبق ص ٣٨٢ من هذا الكتاب أنه اشتهر بالبخل.
(٤٢) القلائد ٥١.
(٤٣) هذا الحدث وقع عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠م، انظر الحلة ١١٤/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.
(٤٤) يمكن القول أيضا بأنه كان يطبق القرآن الكريم، سورة الصافات ولكن الآية القرآنية لا تمتد إلى غير أعداء الله.
(٤٥) من الخفيف. الحلة ١١٠/٢.
(٤٦) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٧٠.
(٤٧) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٤٩. وكان ماكسن أمير غرناطة يترك كلابه المدربة تمزق المحكوم عليهم بالإعدام، وقد أعدت خصيصا لهذا العمل الهمجى. انظر ليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، في مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٢، عام ١٩٣٥، ص ٢٥٦ رقم ٣٤.

هذه الهمجية، وتلحظها فى الأمراء بخاصة، كانت رفيقا للسلطة لا ينفصل، وإذا اعتدلت عند الأندلسيين، أو البربر الذين تَأَنْدَلُسوا، فإنها لم تبلغ حد الاختفاء أبدا. وقد حاول ابن سعيد أن يحدد هذه الخاصية البربرية وأن يفسّرها، يقول: «والإقليم الثالث هو صاحب سفك الدماء، والحسد، والحقد والغل، وما يتبع ذلك» ويضيف القلقشندى، وهو الذى نقل لنا رأى ابن سعيد: «إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام المريخية على زعمهم، فإن للمغرب الأقصى من ذلك الحظ الوافى، لاسيما فى جهة السوس وجبال دَرَن، فإن قتل الإنسان عندهم كذبح العصفور، قال: وكم قتيل قُتل عندهم على كلمة، وهم بالقتل يفتخرون. ثم قال: إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنمس المفرط، والمحاققة، وقلة التغاضى، والتهور، والمفاتنة»[٤٨].

ليس ملائما فيما نرى أن نلح كثيرا على التأثير الهمجى الذى استطاع الأفارقة أن يمارسوه على الإسبان المسلمين، ذلك أن القسوة إحدى مظاهر الشخصية البربرية ولكنها ليست السمة الأساسية فيها، أضف إلى ذلك إنها نوع من الإحساس بالعدل يتسم بالتطرف، ولكنه دون شك ليس سمة حضارية، لأن العدالة الفردية، فى مجتمع تحكمه الشرطة، يجب أن تختفى أمام السلطة المكلفة بحفظ الأمن، ويجب على المعتدَى عليه أن يلجأ إلى القضاء ليعوضه عن الآلام التى تعرّض لها.

هذه الهمجية، فى قمة توهج الحضارة الإسبانية فى القرن الحادى عشر، تثير بالضرورة كثيرا من الدهشة، ومهما كانت خارجة عن المألوف فإنها تشكّل ظهر لوحة لن نستطيع إخفاءها عن الأنظار إذا أردنا أن نعرف ما إذا كان الشعب الإسبانى المسلم يدين فى تطور بعض صفاته، أو نموّ بعض عيوبه، إلى تأثيرات أجنبية.

● ● ●

خير من قصائد مديح الأمراء أو اعترافاتهم، ولا تمجّد فى مجملها غير الصفات، أو ما كان يعتبر كذلك فى القرن الحادى عشر، قصائد الهجاء، لأنها تبرز العيوب والأخطاء، وتكشف شجاعة، وفى سخرية أحيانا، النقائص الخُلُقية، وتنقل إلينا نفسية الشعب الأندلسى فى هذا الوقت بالذات، ومراجعة هذا الموضوع بخاصة تجعلنا ندرك الدوافع التى تحدّد أفعال الإنسان بعامة، وهى تحتفظ فى إسبانيا بشيء من طابع ساحر إلى حد ما، وكان من سماتها فى المشرق، وظل الشعر دائما مرعبا، وبخاصة عندما يجيء هجاء لاذعا. يقول أبو تمام الحجّام:

وبـارد الشعـرِ لم يؤلم بـه ولقـد ... أضـرّ منـه جميـعَ النـاسِ واعتـزلا
كـأنّـه الصُّـلّ لا تؤذيـه ريقتـهُ ... حتى إذا مجُّهـا فى غيـره تتـلا[٤٩]

---

(٤٨) القلقشندى، صبح الأعشى ١٧٨/٥. وعن قسوة البربر انظر أيضا: ابن الفقيه الهمدانى، كتاب البلدان، فى مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٥ ص ٤٨ و المكتبة العربية الفرنسية المجلد ٦، طبع النص وترجمه الحاج صدوق، ص ٤٠ - ٤١، والهامش ٧٢ ص ١١١، والمقدسى، أحسن التقاسيم، فى المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٣ ص ٢٤٣، وفى المكتبة العربية الفرنسية، المجلد ٩، النص والترجمة التى قام بها شارل بيلا، ص ٥٨ - ٦١، والنويرى، نهاية الأدب، ط ٢ جـ ١ ص ٢٨٢، والفيومى، المصباح المنير، ط ٦، عام ١٩٢٥ ص ٦٠ وما بعدها، مادة بربر.

(٤٩) من البسيط، نفح ٤١٨/٣.

نعرف لدور الذى يمثله النقد فى حياة الشعراء والكتّاب، وكان يتم غالبا فى مواجهة من يهمهم الأمر، ويجىء نثرا على الدوام، والهجاء على النقيض من ذلك، يجىء مكثفا فى بيت من الشعر، أو مقطوعة من عدة أبيات، ويندفع بسرعة البرق، ويطير من فم إلى فم، وترسم حدة المعنى صورة هزلية عمادها الكلمة، وتسهم فى سرعة النجاح، ووصلتنا بهذه الطريقة المختصرة، والمثل الواضح لها هجائيات شاعر أندلسى عرضنا له أكثر من مرة هو: السُّمَيْسر[٥٠].

يرتبط الشعراء قليلا أو كثيرا بالسياسة، ويملأ الحقد داخلهم حين لا ينالون ما كانوا يتوقعون، فيهاجمون الأقوياء دون أن يخشوا شيئا[٥١]، وقد حرؤ عبد الجليل بن وهبون أن يقول عن المعتمد:

قلَّ الوفاءُ فما تلقاهُ فى أحدٍ ... ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالِ
وصار عندهمُ عنقاءَ مُغْرِبةٍ ... أو مثلَ ما حدّثوا عن ألف مثقال[٥٢]

ووجّه أبو مروان ابن الغُصن الهجاء اللاذع التالى إلى المأمون أمير طليطلة:

تلقَّبتَ بالمأمون ظلمًا، وإننى ... لآمنُ كلبًا حيث لست مؤمَّنَهْ
حرامٌ عليه أن يجود ببشره ... وأمّا الندى فاندبْ هنالك مدفَنَه
سطور المخازى دون أبوابِ قصرهِ ... بحجابه للقاصدين مُعَنْوَنَه[٥٣]

فسجنه، ولكنه أفلت من غضب الأمير بمعجزة.

وهجا الشعراءُ الفقهاءَ أيضا، واتهموهم بأنهم ذوو نفوس جشعة بخاصة، ومرتشون. ونستطيع القول بأن هذا الكلام لا ينقصه الأساس الذى ينهض عليه، ويشبههم أبو إسحاق الإلبيرى، ويعرفهم جيدا لأنه فقيه مثلهم، بأنهم مثل الذئاب:

ألَا حَيِّ العُقابَ[٥٤] وقاطنيه ... وقلْ أهلًا به وبزائريه
حللتُ به فنفّس ما بنفسى ... وأنسنى فما استوحشتُ فيهِ
وكم ذئبٍ يجاوِرُه ولاكنْ ... رأيتُ الذئبَ أسلم من فقيه
ولم أجزعْ لفقدِ أخٍ لأنّى ... رأيتُ المرءَ يُؤتى من أخيه[٥٥]

وأصاب جشعهم حتى النصارى، وهو ما يؤكده ابن خفاجة:

درسوا العلومَ ليملكوا بجدالهمْ ... فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسِ

---

(٥٠) أخذها من كتاب عنوانه: «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض» وترجمه دوزى إلى الفرنسية على النحو التالى:
"Le remède Contre les maladies; reputation usurpées réduttes à leur Juste valeur"
انظر: نفح ١٠٨/٤، وأبحاث ط ١ ص ١٠٨ وط ٣ جـ ١ ص ٢٦١.

(٥١) فى القرن الماضى وصف إبراهيم بن أدريس الحسنى، فى أبيات له، المنصور بن أبى عامر بأنه «أحدب» مرة، وأنه ثعلب ثانية، وبأنه «قرد أشهب» مرة أخرى. انظر: البيان المغرب ٣٠١/٢، والحلة ٢٢٧/١، ونفح ٢٢٧/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٤٣، وانظر فيما سبق ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.

(٥٢) من البسيط، المعجب ١٠٢، وترجمته ٨٧، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٩٣.

(٥٣) من الطويل، نفح ٣٦٣/٣.

(٥٤) جبل قريب من إلبيرة. انظر: أبحاث ط ١ ص ٢٨٥ هامش ٣.

(٥٥) من الوافر، الإحاطة فى «أبحاث» لدوزى ط ٣ جـ ١ ص ٢٨٦، والملحق ص ٦٢، والديوان، القصيدة رقم ١٩.

وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً في أخْذِ مالِ مساجدٍ وكنائس[٥٦]

وقد صدم فكرهم الملتوى ونفاقهم شعراء مطلع القرن الحادى عشر، يقول عبادة بن ماء السماء:

وكأنّ الخِيرىَّ فى كُتْمِه الطِّيـ ـبَ فقيهٌ مُغرىً بطول رياءِ
يُظهرُ الزهدَ بالنهارِ وعسى فاتكًا ليلَهُ مع الظرفاء[٥٧]

كان سلطانُ المال فى عصر ينضح قلقا، ويدفع الناس إلى التمتع بالحياة عجلين وفى شراهة، الباعث الإساسى فى ميل عدد كبير من الشعراء إلى الزهد، فجاء عملهم هذا ردّ فعل ضد لا أخلاقية العصر، يقول أبو عيسى بن عمران يصف سلطان المال فى عصره:

ما للتجاربِ من مدىً والمرءُ منها فى ازدِيادْ
قد كنتُ أحسبُ ذا العُلا مَن حاز علمًا واستفاد
فإذا الفقيهُ بغير ما لٍ كالخباءِ بلا عماد
شرفُ الفتى بنضارهِ إنّ الفقيرَ أخو الجماد
ما العلمُ إلّا جوهرٌ قد بيعَ فى سوق الكساد[٥٨]

وينسبون الأبيات التالية إلى الطرطوشى:

إذا كنتَ فى حاجةٍ مُرسلًا وأنت بإنجازها مُغرمُ
فأرسِلْ بأكْمهَ جلّابة به صَمَمٌ أغْطشَ أبْكم
ودعْ عنك كلَّ رسولٍ سوى رسولٍ يقال لهُ الدرهم[٥٩]

وكان سخط ابن الحاج عميقا عندما رأى انهيار القيم:

كفى حَزَنًا أنّ المشارعَ جمّةٌ وعندى إليها غُلّةٌ وأُوامُ
ومن نكدِ الأيامِ أن يَعدم الغنى كريمٌ وأنّ المكثرين لئام[٦٠]

ونجد الشكوى نفسها عند ابن سارة ويرهن على أن الجهل يجذب الغنى كما تجذب حجار المغنطيس الحديد[٦١]. ونجد الشيء نفسه عند أبى بكر بن رُحيم الذى ينعى «عصرا يحط من قدر الأشخاص ذوى الأفكار العالية، ويرفع من قدر ذوى النفوس الضعيفة، والحالات الدنيا»[٦٢].

لم يكن المجتمع كله فاسدًا بهذا القدر، فنحن جميعا نعرف ردّ أبى محمد بن هود الجدامى المتسم

---

(٥٦) من الكامل، الديوان، القطعة ٣٠٥، ص ٣٦٦.

(٥٧) انظر ص ١٥٥ – ١٥٦ فيما سبق من هذا الكتاب. وقد التقط ابن قزمان الفكرة نفسها حرفيا تقريبا، فى زجله رقم ١٤٣، الدور ٣، انظر ديوانه ص ٣١٩ و ٤٣٨ – ٤٣٩، طبعة نيكل.

(٥٨) من الكامل، نفح ٥٩٨/٣.

(٥٩) من المتقارب، نفح ٨٥/٢.

(٦٠) من الطويل، نفح ٤٦٢/٣ – ٤٦٣، والقلائد ١٤٤.

(٦١) القلائد ٢٧٠.

(٦٢) القلائد ١٢٠.

بالشموخ، حين عيّنه المتوكل عاملا على لشبونة. فقد سأله شاعر عما اكتسبه فى ولايته، فردّ عليه: «ثناءٌ يبقى ما بقيت»[٦٣].

إجمالاً، لم يكن إنسان القرن الحادى عشر يوحى بثقةٍ كبيرة فى نفوس المفكرين والأخلاقيين، ويقدم لنا الحُميدى، ورحل كثيراً، النصيحة التالية:

لقـاءُ النـاسِ ليس يُفيـد شيئًـا ‏ ‏ سوى الهذيانِ من قيلٍ وقـالِ
فـأقللْ من لقـاء النـاس إلاّ ‏ ‏ لأخْـذِ العلم أوإصلاحِ حـالِ[٦٤]

ومثل أبى إسحاق الإلبيرى يفضل أبو بكر بن عطية الذئاب على البشر:

كُنْ بـذئبٍ صائـدٍ مستأنسًـا ‏ ‏ وإذا أبصرتَ إنسانًـا ففِرْ[٦٥]

ونجد مثل هذا التفكير المر عند محمد بن الحسن الجبلى:

وما الأُنسُ بالناس الذين عهدتُهُمْ ‏ ‏ بـأُنسٍ ولكنّ فقْـد رؤيتهم أُنسُ
إذا سلمتْ نفسى ودينىَ منهـمُ ‏ ‏ فحسبىَ أنّ العرضَ منى لهم ترس[٦٦]

ويقول أبو القاسم محمد بن نُصير:

مضتْ أعمـارُنـا ومضتْ سِنـونـا ‏ ‏ فلم تـظفـر بـذى ثقـةٍ يـدانِ
وجـرّبنـا الـزمـانَ فلم يُفـدنـا ‏ ‏ سوى التخويفِ من أهل الزمانِ[٦٧]

من السهل علينا أن نورد شواهد كثيرة ولكننا نكتفى بذكر بعض أبيات السميسر، وهو خير من عكس فكر معاصريه فيما نرى:

تحفَّظْ من ثيابكَ ثم صُنْهـا[٦٨] ‏ ‏ وإلاّ سـوف تلبسهـا حـدادَا
وميِّـزْ فى زمانـك كلَّ حِـبْرٍ ‏ ‏ ونـاظـرْ أهله تَسُـدِ العبـادا
وظُنَّ بسـائـر الأجنـاس خيـراً ‏ ‏ وأمـا جـنسُ آدمَ فـالبـعـادا
أرادونى بـجـمـعـهـمُ فـردُّوا ‏ ‏ على الأعقاب قد نكصوا فرادى
وعـادوا بعـد ذا إخـوانَ صِـدْقٍ ‏ ‏ كبعض عقاربٍ رجعتْ جرادا[٦٩]

---

(٦٣) الحلة ١٦٦/٢. ‏ ‏ (٦٤) من الوافر، نفح ٥٣٥/١.

(٦٥) من الرمل، القلائد ٢٠٧، ونفح ٥٢٤/٢.

(٦٦) من الطويل، نفح ١٠/٤، والضبى، البغية ٥٨. ويقول الغزال المتوفى ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م عن المشارقة:

مـا أرى هـهـنـا مـن الـنـاس إلاّ ‏ ‏ ثـعـلبًـا يـطلب الـدجـاج وذيـبـا
أو شـبـيـهـا بـالقط ألقى بعينيْـــــه إلى فـارة يـريـد الـوثـوبـا

وهى من المنسرح، نفح ٢٥٧/٢.

(٦٧) من الوافر، نفح ١١٤/٤. ‏ ‏ (٦٨) يريد أن يقول: تحفّظ من صحبة السوء.

(٦٩) من الوافر، نفح ٢٩١/٣، ولم يكن الزبيدى، وهو من القرن العاشر، بأفضل اعتقادا فى الناس منه:

أشـعـرن قـلبـك يـاسـا ‏ ‏ لـيس هـذا الـنـاس نـاسـا
ذهـب الإبـريـز مـنهـم ‏ ‏ فـبـقـوا بـعـد نـحـاسـا
سـامـريـيـن يـقـولـو ‏ ‏ ن جـمـيـعـا لا مـسـاسـا

و«سامريين» إشارة إلى ما ورد فى القرآن الكريم سورة طه الآية ٩٥. والأبيات من الرمل، نفح ٤٧٥/٣.

ولكن بعض الشعراء لا يبلغ بهم الحال حد التعميم المتسرع، وهو لا يطابق الواقع تماما كما نتوقع، يقول الأعمى التطيلي:

والناسُ كالناسِ إلَّا أن تجرِّبهم ... وللبصيرةِ حكمٌ ليس للبصرِ
كالأيكِ مشتبهاتٌ في منابتها ... وإنما يقع التفضيل في الثمر(٧٠)

ويعبر أبو عبد الله بن الصفّار عن الفكرة نفسها، متخذا المثل من الأحجار:

لا تحسبِ الناسَ سواءً متى ... ما اشتبهوا فالناسُ أطوارُ
وانظر إلى الأحجارِ في بعضها ... ماءٌ، وبعضٌ ضمنهُ نارُ(٧١)

ويتذكر أبو الحسن الحصرى طبيعة الإنسان، فيعطى نفسه الحق أن يصرح:

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ ... من خشنِ الطبعِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ تشكّى الرِجْلُ منه الوجى ... وإثمدٌ يُجعَلُ في الأعينِ(٧٢)

بعض الشعراء نفسيتهم بسيطة، ويرون من العبث أن نختبر الناس، ويكفى أن ننظر إلى مظهرهم الخارجى، ويقولون إن الأشخاص القصيرى القامة أكثر الناس سوءًا إجمالاً(٧٣)، وأن ضخام الأجسام صغارُ الرءوس، بلهاءُ العقول(٧٤).

لكنْ، لا السوء ولا البلاهة أثّرا في الأندلسيين على ما يبدو مثل ما أثّرت فيهم خيانة الأصدقاء، لقد غرق القرن الحادى عشر في الشراهة والطمع، يثيرهما تفتت الأراضى، والثراء السريع عن طريق المغامرة، إلى جانب الطموح الذى يدفع كل حاكم إلى ممارسة سياسة تتسم بالمكر والدهاء والمساومة، وأدى ذلك كله إلى ازدهار الخيانة علنا، وقد شك المعتضد في ابنه إبراهيم، وأعلن ابن عمار استقلاله ضد سيده المعتمد، وعلى امتداد كل هذا العصر يمكن أن نجد الكثير من الغدر والخيانة.

يقول المعتصم وقد خدعه ابن عمار:

وزهّدنى في الناسِ معرفتى بهم ... وطولُ اختبارى صاحبًا بعد صاحبِ
فلم ترنى الأيامُ خِلًّا تسرُّنى ... مباديه إلَّا ساءنى في العواقب
ولا قلتُ أرجوه لدفعِ ملمّةٍ ... من الدهرِ إلَّا كان إحدى النوائب(٧٥)

ويعبر ابن الحاج اللورقى عن الفكرة نفسها بطريقة أعمق:

كلُّ مَن تهوى صديقٌ محضُ ... لكَ ما لا تتّقى أو ترتجى
فإذا حاولتَ نصرًا أو جدا ... لم تقف إلَّا بباب مرتجِ(٧٦)

---

(٧٠) من البسيط، نفح ٣٢١/٤.
(٧١) من السريع، نفح ٣٠٦/٤.
(٧٢) من السريع، نفح ١٥٥/٢ و٣٠٦/٤، وابن سعيد، عنوان المرقصات، طبعة بغداد، ص ٣.
(٧٣) انظر أبيات أبي تمام الحجام في نفح ٤١٧/٣ و ١٥٧/٤.
(٧٤) انظر أبيات ابن شرف، وابن خفاجة، وغيرهم، في نفح ٣٧١/٣.
(٧٥) من الطويل، القلائد ٤٩، والحلة ٨٤/٢.
(٧٦) من الرمل، القلائد ١٤٣.

هل يدهشنا بعد ذلك أن نجد فى صور هؤلاء الشعراء تشبيه الصداقة بنبات يتوقع الناس منه فاكهة عذبة، فإذا به لا يثمر غير الحنظل[٧٧]؟، وفيما يرى الكثيرون أليس حقا أنّ:

ألَا إنّمـا الـدنيـا كـراحٍ عتيقـةٍ ... أراد مُـديـروهـا بهـا جَلَبَ الأُنْسِ
فـلما أداروهـا أثـارتْ حـقـودهـمْ ... فعاد الذى راموا من الأنس بالعكس[٧٨]

ألا يدهشنا بعد كل الذى قلناه أن شاعرا مثل أبى الفضل بن شرف ينشد:

إذا مـا عـدوّكَ يـومـا سـما ... إلى رُتـبـةٍ لم تُـطِقْ نَـقْـضَـهـا
فـقـبِّـلْ ولا تـأنـفـنْ كـفَّـهُ ... إذا أنتَ لم تسـتـطعْ عضَّـهـا[٧٩]

هل يستطيع أحد أن يعبر عن وقاحة نديم الملك وهو يتملّق سيده وقد أضمر الغدر به، مثل ما أجاد ابن شرف، ومع ذلك حاول ابن الحداد فى هجاء تلفه السخرية أن يصحّح فى تعليق رقيق وإنسانى ما رآه مغالاة فى فكر ابن شرف:

سـامحْ أخـاكَ إذا أتـاكَ بـزلّةٍ ... فـخـلوصُ شـىءٍ قلّما يـتـمـكّنُ
فى كـلِّ شـىءٍ آفـةٌ مـوجـودة ... إنّ الـسـراجَ على سناهُ يدخَنُ[٨٠]

ويرى حفيد الحاجب المصحفى، وقد قتل المنصور جده، إن من الخطر التردّد على ذوى السلطان:

ولكم حـذَّرَ الـردى فـصِمْـنـا ... لا أمـانٌ لـصـاحـب الـسـلطان
بينـا يَعتلى غـدا خـافضًـا منـ ... ـهُ اكتسـابٌ ككفَّـةِ الميـزان[٨٢]

ويقول أبو القاسم بن حسان:

فما عاشَ فى الأيّام فى حُرِّ عيشةٍ ... سوى رجل ناءٍ عن النُّهْىِ والأمرِ[٨٣]

إننا بالذوق البسيط، والطيبة والتسامح، يمكن أن نصل، إذا لم يكن إلى السعادة فعلى الأقل إلى راحة النفس، يقول ابن سارة:

ولقـد طلبتُ رضى البريّـةِ جـاهـدا ... فـإذا رضـاهمْ غـايـة لا تُـدركُ
وأرى القنـاعـة للفتى كنـزاً لـه ... والـبرُّ أفضـلُ مـا بـه يتمسـك[٨٤]

إنّ العالم الذى ينسحب من الدنيا لا يعيش فى وحدة كاملة، وإنما يحيط به أصدقاؤه من كتبه، وكان

---

(٧٧) انظر: المطمح ١٧٦، والحلة ٢/١٣٠، ونفح ٣/٥٤١، وانظر فيما سبق ص ١٨١ من هذا الكتاب.
(٧٨) من الطويل، نفح ٣/٢٢٨.
● قلت: الأبيات فى نفح الطيب منسوبة إلى أبى القاسم ابن بقى (المترجم).
(٧٩) من المتقارب، نفح ٣/٣٩٦.
(٨٠) من الكامل، نفح ٣/٥٠٤، وأبحاث ١٠٢.
(٨١) من الوافر، نفح، ٣/٥٠٢.
(٨٢) من الخفيف، نفح ١/٤٧٦.
(٨٣) من الطويل، نفح ٣/٤٧٤.
(٨٤) من الكامل، نفح ٤/٣٤٥.

حب القراءة، وحب الكتاب، من العواطف المسيطرة على الأندلسيين[٨٥]، ولم يكن أحمد بن رضى المالقى يجد التسرية عن نفسه فى النبيذ أو الموسيقا، يقول:

ليس المدامةُ مما أستريحُ له ... ولا مجاوبةُ الأوتارِ والنَّغَمِ
وإنّما لذّتى كُتْبٌ أطالعها ... وخادمى أبدا فى نُصرتى قلمى[٨٦]

لقد أحب الأندلسيون الكتب، واتخذوا منها أصدقاء، يقول ابن الحداد:

ذهب الناسُ فانفرادى أنيسي ... وكتابى مُحدِّثى وجليسى
صاحبٌ قد أمنتُ منه ملالاً ... واختلالا وكلُّ خَلْقٍ بئيس
ليس فى نوعه بحىٍّ ولكنْ ... يلتقى الحىُّ منه بالمرمُرس[٨٧]

ونستطيع أن نفضى بسرّنا إلى كتاب كما نفعل مع أى صديق حقيقى، يقول أبو القاسم البلوى الإشبيلى:

أما فى الدهرِ من أُفشى إليه ... بأسرارى فيؤنسُ بالجواب
يئستُ من الأنامِ فما جليسٌ ... يعزّ على نهاىَ سوى كتابى[٨٨]

وفيما يرى أبوعيسى بن لبون فإنّ مثله الأعلى أن يعيش in angello cum Libello.

نفضتُ كفّى عن الدنيا وقلت لها: ... إليكِ عنّى فما فى الحق أغتبنُ
مِن كسر بيتىَ لى روضٌ ومن كتبى ... جليسُ صِدْقٍ على الأسرارِ مؤتمن
أدرى به ما جرى فى الدهرِ من خبرٍ ... فعنده الحقُّ مسطورٌ ومختزن
وما مصابى سوى موتى ويدفننى ... قومٌ ومالهم علمٌ بمن دفنوا[٨٩]

ما أشدّ ما يشعر به هؤلاء الناس من ألم، عندما يضطرهم البؤس إلى بيع كتبهم[٩٠]! وهل نتصور مدى شعورهم بالإحباط عندما تحرق كتبهم لأسباب دينية؟ إنّ محاكمة الكتب دينيًا لم تكن من سمات عصر المنصور وحده[٩١]، ففى قمة القرن الحادى عشر رى ابن حزم أيضًا كتبه التى من تأليفه تحرق

(٨٥) عن هواة جمع الكتب من الأندلسيين انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ص ٢٣٣ – ٢٣٤، وخوليان ريبيرا، هواة الكتب والمكتبات فى إسبانيا الإسلامية فى «نبذ ومقالات» ١٨١/١ – ٢٢٨، وكاترمير، دراسة عن الغرام بالكتب عند المشارقة، فى المجلة الأسيوية، السلسلة ٣، المجلد ٦، عام ١٨٣٨، ص ٣٥ – ٧٨.

● ترجمت دراسة ريبيرا عن الكتب مع دراسات أخرى ونشرتها بعنوان: «التربية الإسلامية فى الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية»، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١. (المترجم).

(٨٦) من البسيط، نفح ٣٢٥/٣.

(٨٧) من الخفيف، نفح ١١٥/٤.

(٨٨) من الوافر، نفح ٣٢٥/٣.

(٨٩) من البسيط، القلائد ١٠٢، والحلة ١٧١/٢، ونفح ٩٧/٣ه، وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.

(٩٠) لم يقلق ابن عباس وزير زهير الصقلبى أمير المرية عندما سجنه باديس بن حبوس أمير غرناطة، إلاّ خوفا على كتبه. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ٢٧.

(٩١) انظر: نفح ١٣٦/١ طبعة أوربا، صاعد الأندلسى، طبقات الأمم، طبعة شيخو ٦٦، وترجمة بلاشير لها ص ١٢٥، والبيان المغرب ٣١٥/٢ و٤٨٧ – ٤٨٨، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٢٥.

بأمر ابن عباد[٩٢]، ربما بتحريض من فقهاء المالكية الذين كانوا يمقتون ابن حزم الظاهرى، أى كلمات نبيلة أسمعها الناس يومها:

فإنْ تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذى ... تضمنّه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى ... وينزلُ إنْ أنزلْ ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رقٍ وكاغدٍ ... وقولوا بعلم كى يرى الناسُ من يدرى
وإلّا فعودوا فى المكاتب بَدْأةً ... فكم دون ما تبغون لله من ستر[٩٣]

إذا تعمّقنا فى دراسة الروح الأندلسى فسوف نلحظ أن صورة عاشق الحياة البهجة، المولع بالفنون والمنغمس فى اللذات، سوف تتلاشى تدريجًا، لأنها لا تعبر عن الواقع. ألم يخدعنا مؤلفو المختارات الأدبية، ومؤرخو الأدب حين تعمدوا ألا يوردوا فى مؤلفاتهم سوى أبيات الشعر التى تشيد بالحياة، وتتغنى بمتع الخمر والموسيقا؟، وحين نتمعن هذه المختارات الأدبية والدواوين فسوف نجد أن الشعر الجاد كثير، ويعدل الشعر اللاهى فى كثرته، وقاله الشعراء أنفسهم الذين تغنّوا بالنبيذ أو فلسفوه، وما ذكرناه من أبيات فيما سبق كاف للبرهنة على ما نقول، فهؤلاء الشعراء أنفسهم حين عركتهم الحياة فى الحقيقة، وأنضجهم الزمن، أصبحوا أكثر اتزانًا، وتناولوا فى قصائدهم موضوع حب الحياة من زاوية مختلفة تمامًا، فهم يتحدثون عن ظهور الشيب، والإعراض عن الدنيا، وما يشير إليه كل هذا.

ونستطيع أن نجمع مختارات من الأشعار التى تصوّر الشيب فى الشرق والغرب[٩٤]، فإنها تملأ ديوانا بأكمله، وعندما يضحك المشيب بالرأس فذلك بمثابة تحذير بأن قوى الإنسان تأخذ فى السقوط، وإشارات منذرة بقدوم الموت، وتنبيه الإنسان بأن يتخلى، إن لم يكن فعل فعلا، عن ملذات الحياة، ويفكر فيما بعد الموت، وليس من الأهمية بمكان أن نأتى على هذه الأشعار، لأنها لا تفتأ تكرر فكرة واحدة، إذا لم تكن إرثًا عربيًا خالصًا فهى تنتمى إلى العمق الإنسانى المشترك، ومع ذلك، فالصورة التالية لأمير بلنسية مروان بن عبدالعزيز تقدم لنا تصويرا مباشرًا للواقع، سوف نشعر بالألم إذا مررنا به صامتين:

ولمّا رأيتُ الشيبَ أيقنتُ أنه ... نذيرٌ لجسمى بانهدام بنائه
إذا ابيضّ مخضرُّ النباتِ فإنه ... دليلٌ على استحصاده وفنائه[٩٥]

وإذا كان الأندلسيون قد طبقوا الحكمة القائلة: «يجب التسامح مع الشباب»، فقد عرفوا أيضًا، مع العمر الناضج والشيخوخة، كيف يتحكمون فى رغائبهم، ويلتزمون سلوكًا حميدًا، وتبرهن أشعار لا تحصى أن كثيرًا من هؤلاء الشعراء أمضوا شبابا غارقًا فى اللذات، وأتبعوه شيخوخة بالغة

---

(٩٢) لم يحدد ابن بسام الذى أورد لنا الخبر أى بنى عباد يعنى، ومن المؤكد أنه يعنى المعتضد. الذخيرة ١٧١/١.

(٩٣) من الطويل الذخيرة ١٧١/١، وياقوت، إرشاد الأريب ٩٥/٥، والإحاطة ١٦٦/٤، ونفح ٨٢/٢ و١٩٢/٣، رأسين بلاثيوس، ابن حزم القرطبى، ٢٣٥/١، وكارًا دى فو، مفكرو الإسلام ٣٣٤/٣، وتوجد أيضا أبيات عن بيع الكتب فى نفح الطيب، ٥٢٦/٢ طبعة أوربا، وهى من بحر الكامل، ولكنها لكاتب من المهدية، هو: أبو الحسن بن الحداد.

(٩٤) فيما يتصل بالمشرق توجد أشعار كثيرة فى ابن الشجرى، والحماسة طبعة ف فرنكوف، ٢٣٩ – ٢٤٧، والنويرى، نهاية الأرب، ٢٢/٢ – ٢٩، وعن الغرب الإسلامى انظر: نفح ١١٨/١ – ١٢١.

(٩٥) من الطويل، نفح ٤٠٨/٣.

الاتزان[٩٦]، بل ذهبوا إلى ماهو أبعد من هذا، فتنكروا لكل حماقاتهم شبابا، إن الشيخ عندنا ينظر وراءه مبتسمًا، يودّع أعوامًا خاليات من الهموم، ولكن الأندلسيين على النقيض، نجد عندهم الرغبة قوية فى تحطيم كل شىء، والحرص الشديد على محو كل الذكريات التى ارتبطت بهذه الفترة من العمر، بعيدة وسيئة فى ذاتها. ومثل هذا الموقف يعتبر تطوّرا طبيعيًا فى الإنسان، ولكن الظروف هى التى تحدد طبيعة هذا التطور فى الجانب الأكبر منه، وفى القرن العاشر الميلادى نظم ابن عبد ربه فى نهاية حياته جملة قصائد أسماها الممحصات، لكى يرتدّ عن كل بيت قاله فى شبابه[٩٧]، وفى القرن الحادى عشر ذهب الشعراء بهذا التخلىّ إلى أبعد من ذلك بكثير، فدمّروا مجموعات شعرهم التى تعود إلى مرحلة المراهقة أو الشباب، كما لو كانت شاهدا بغيضا على مشاعرهم العابثة، وحياتهم التى أضاعوها هباء، ولا يذهب بنا الظن أن هذا حدث فقط فى نهاية القرن الحادى عشر مع مجىء المرابطين الذى فرضوا موجة من التطهر فوق إسبانيا الإسلامية[٩٨]، لأن هذا حدث فى عصر ملوك الطوائف أيضا، وطبقًا لكل الاحتمالات فنحن لا نعرف شيئًا أبدا عن القصائد التى نظمها ابن عمار فى فترة شبابه، ولكى لا نذكر أكثر من شاهد، فكل دواوين القرن الحادى عشر نادرة جدًا[٩٩].

هذا الندم على ماضٍ مخجل، مصحوبٌ باندفاع قوى نحو التقوى وخشية الله، حمل اسم الزهد، وموضوعه الأساسى أن ملذّات الحياة قصيرة الأجل، وعلينا أن نفكر فى الخالق وأن نخشى الله[١٠٠] يقول أبو الوليد الباجى:

إذا كنتُ أعلم علمَ اليقين ... بأنّ جميع حياتى كساعهْ
فلِمْ لا أكون ضنينًا بها ... وأجعلها فى صلاحٍ وطاعهْ[١٠١]

الجهلاء وحدهم هم الذين يعطون الحياة الدنيا قيمة، علامَ يتنازعون فى الأرض إلّا على غنيمة تدعو إلى السخرية[١٠٢]؟! يقول المعتمد نفسه:

---

(٩٦) تجمعها كتب الأدب تحت عنوان: «الزهد». انظر: نفح ٣١٥/٤ - ٣٤٩. وفيما يتصل بالمشرق انظر ابن قتيبة بخاصة، عيون الأخبار، طبعة القاهرة ٢٦١/٢ - ٣٣٢.

(٩٧) انظر: المطمح ٢٧٠ وما بعدها، والثعالبى، يتيمة الدهر ٤١٢/١ - ٤١٣، وابن دحية، المطرب ١٥١ - ١٢٦. ويستخدم ابن عبد ربه فى ممحصاته نفس البحر ونفس القافية اللذين استخدمهما فى القصائد التى يريد أن يمحوها وأحيانا نجد كلمة «مكفرات» بدل «ممحصات».

(٩٨) وحتى ابن قزمان فى أواخر حياته قال:

قد تاب ابن قزمان: طوبى له إن دام
قد كانت أيامه أعياد فى الأيام
بعد الطبل والدف وقتل الأكمام
من سمع الأذان يهبط ويطلع
إمام فى مسجد صار، يسجد ويركع

الديوان، الزجل ١٤٧، الدورة، ص ٣٢٦.

(٩٩) لا نستطيع أن نذكر دواوين وصلتنا كاملة غير دواوين: ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حمديس.

(١٠٠) الأبيات لأبى عمر بن عبد البر، فى المطمح ٢٩٦، ونفح ٢٨/٤.

(١٠١) من المتقارب، القلائد ١٠١، نفح ١٤/٢.

(١٠٢) القلائد ٢٦١، ونفح ١١٧/٤ و٣٤٥، والأبيات لابن سارة.

أرى الدنيا الدنيَّة لا تواتى فأجمل فى التصرّف والطِّلاب
ولا يغرُرْكَ منها حُسْنُ بُرْدٍ له عَلمانِ مِن ذَهَبِ الذُّهاب
فأوّلها رجاءٌ من سرابٍ وآخِرُها رداءٌ من تراب(١٠٣)

والمؤمن الصادق الإيمان يجب ألّا يبحث عن الثراء، وإنّما عليه أن يتمنى الفقر، وقد ذاعت شهرة أبى إسحاق الإلبيرى بسبب قصائده الزهدية، «فلا تجد حادى جنازة، ولا مُذكّر مأدبة، ولا واعظًا، إلّا وهو مكثر منه»(١٠٤)، ويقول أبو عمران المارتلى:

لا تبْكِ ثوبَك إنْ أبليتَ جِدّتَهُ وابكِ الذى أبْلتِ الأيامُ من بدنكْ
ولا تكونَنّ مختالًا بجدّتِهِ فربما كان هذا الثوب من كفنِكْ
ولا تعفْهُ إذا أبصرتَهُ دنِسًا فإنّما اكتسبَ الأوساخَ من درنكْ(١٠٥)

وبعض الزاهدين يثيرون الدهشة، وبخاصة عبر القرن الحادى عشر، وساد الاعتقاد بأنه زاخر بالحفلات المستمرة يقيمها ملوك الطوائف، ونذكر من ذلك المروانى المدعو «بكار»، وعاش مع زوجه وابنه الوحيد فى ضواحى لشبونة، منقطعا للصلاة والتأمل، ويتعيّش من صيد السمك على شاطئ لإطلنطى، وراغبا فى التكفير عن خطاياه خرج للجهاد مشاركا فى صفوف المتطوعة الذاهبة لقتال النصارى، ولم يعد من رحلته هذه أبدا(١٠٦)، أو ذلك الأديب العالم الذى عاش فى سرقسطة، وأصبح اسمه مشهورا فى كل شبه جزيرة إيبريا بفضل الرسائل التى وجهها إلى كبار الكتاب فى عصره، وأعنى به ابن الدباغ. وقد وجه إليه أبو الفضل بن حسداى رسالة يقول فيها عنه: «... فالسلام عليك يا أيها الناسك المتصوف(١٠٧)، والمتبتل المتقشف، الذى أقصر لـمّا أبصر، وفضّل نور الحقيقة، على نوْر الحديقة، فقطع العلائق، وهجر الخلائق، فأنت ممن تقول، ما لا تدركه الألباب والعقول: أخذ منى أنا، فبقيت بلا أنا، فبوجهك يستسقى الغمام، وببركة دعائك تستشفى الآلام، فإنك الرجل الزاهد والمرابط المجاهد»(١٠٨). وهذا فيما نعتقد أحد الشواهد النادرة على وجود الزهّاد والمتصوّفة فى إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولا تعود فى شىء على ما يبدو للفوران الدينى الذى أثاره المرابطون(١٠٩).

أمّا الأسباب التى حدّدت أو أسرعت بحركة هذه الحمية، فيما يبدو، ولا نعرف من مظاهرها إلّا

(١٠٣) من الوافر، الحلة ٦٧/٢، وبنو عباد ٧١/٢

(١٠٤) الإحاطة فى أبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٨٥.

● لم أستطع الاهتداء إلى هذه الفقرة فى الإحاطة طبعة محمد عبدالله عنان (المترجم).

(١٠٥) من البسيط، نفح ٢٢٥/٣.

(١٠٦) قص لنا تاريخه مؤلف مجهول فى كتاب يسمى «السقط» وقد احتفظ لنا نفح الطيب ٣٣٤/٣ بفقرات منه.

(١٠٧) من الضرورى أن تبرز فى رسالة هذا الكاتب، اليهودى الأصل، كلمات اتخذها بعض المؤلفين فيما بعد عناوين لكتبهم التى ترجموا فيها للصوفيين المغاربة، مثل: كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف لابن الزيات التادلى، المتوفى ٦٢٧ أو ٦٢٨ هـ = ١١٢٩ أو ١١٣١م

(١٠٨) الذخيرة ٢٨٦/٣.

(١٠٩) انظر: ألفردبيل، التصوف فى الغرب الإسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، فى حوليات معهد الدراسات الشرقية، كلية الآداب فى جامعة الجزائر، المجلد الأول ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٤٥ وما بعدها. وقد رأينا كيف أشار ابن خفاجة وهو يصف الجبل إلى الزهاد الذين اتخذوه مقاما. انظر فيما سبق ص ١٤٣ من هذا الكتاب.

بعضا متناثرا ومنعزلا فى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر[١١٠]، فيجب أن نبحث عنها فى عدم استقرار الثروات، وفى قلق العصر، وفى الدراسات التأملية، باطنية ونظرية، وقد انغمس فيها الإسبان المسلمون بكل حريّة، وعينا أيضا أن نبحث عنها فى مشاهد الأطلال التى تعرض لعيونهم فى كل لحظة، عقب الحروب بين الأندلسيين والبربر[١١١]. إنها ردّ فعل ضد عدم الاكتراث السائد فى لحظة تعدد فيها هجوم النصارى، وفى كل يوم يشتد ضراوة، وأيضا يجب ألا نستغرب من انطواء الأرواح على نفسها، جريحة فى ضميرها الدينى، وفى كرامتها الوطنية[١١٢].

●●●

لا يدهشنا إذن أن الأندلسيين جميعا لم يلتزموا بدقة القانون الطبيعى الذى يريد الشيبة لاهية، والشيخوخة فاضلة، وحالة أبى الحسن عبد الملك بن عيّاش الجابرى ليست بالضرورة حالة منفردة:

عصيتُ هوى نفسى صغيرا وعندما رمتنى الليالى بالمشيب وبالكبر
أطعتُ الهوى، عكس القضية ليتنى خُلقتُ كبيرا وانتقلتُ إلى الصغر[١١٣]

وثمة شاعر آخر، انغمس كلية فى متعة الشراب، رغم تقدمه فى السنّ، ويقول: «أريد أن أحد الأمل فى نفس اليأس»[١١٤].

وإذا كان بعضهم واصل انغماسه فى الملذّات فلأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ويريدون أن يعتصروا حياتهم حتى آخر قطرة، يقول ابن خفاجة:

هجودٌ ولا غيرَ الترب حَشِيَّةٌ لجنْبٍ ولا غيرَ القبور قِبابُ[١١٥]

ويقول ابن خَيْرة الصبّاغ:

فاشربْ ولذَّ بجنّةٍ واطربْ فإنّ العمرَ فائت[١١٦]

وأوشك ابن بِقَى أن ينكر بعث الأجساد:

ما أحسنَ العيشَ لو أنّ الفتى أبدًا كالبدر يرجو تمامًا بعد نُقصان
إذ لا سبيل إلى تخليد مأثرةٍ إذ لا سبيلَ إلى تخليد جُثمان[١١٧]

ويلحّ غموض الموت على عقول بعض المفكرين، حتى أن أبا بكر محمد بن يحيى الشلطيشى لا يعتقد فى الحياة الأخرى:

---

(١١٠) انظر فيما سبق ص ٢٣ الهامش رقم ٤٠ من هذا الكتاب، نقلا من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب عن طبقات المجتمع الأندلسى المختلفة، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم ص ٦٨، وترجمة بلاشير ١٢٨.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١١٥ من هذا الكتاب.

(١١٢) انظر فيما سبق ص ٩٢ من هذا الكتاب أبيات ابن العسال عن إستيلاء النورمان على بربشتر.

(١١٣) من الطويل، نفح ٤/٣٢٧. إلحق أن ابنه أبا الحسن علنا قال بيتا مفردا فى معنى ذلك، وهو

هنيئا له إذا لم يكن كابنه الذى أطاع الهوى فى حالتيه وما اعتبر

(١١٤) نفح ١١/١٨٣ طبعة أوربا. (١١٥) من الطويل، الديوان، القطعة ١٦٥ ص ٢١٨، ونفح ١/٥٣٩.

(١١٦) من الكامل، انظر فيما سبق ص ٢٠٩ و٢١٠ الهامش رقم ٤٠ من هذا الكتاب وص ٣٢٦ الهامش رقم ٢٥.

(١١٧) من البسيط، نفح ٣/٥٩٦.

وفاةُ المرءِ سرٌّ لم يُكاشف ولم تثبتْ حقيقتَه درايَهْ
سيفنى كلُّ ذى شبحٍ ونفسٍ وتلتحقُ النهايةُ بالبدايهْ
وينصدعُ الجميعُ إلى صدوعٍ تعود به البريّةُ كالبُرايَه
كأنّ مصائبَ الدنيا سهامٌ لها الأيّامُ أغراضُ الرمايه
فنلْ ما شئتَ إنّ الفقرحدٌّ وعشْ ماشئت إنّ الموت غايه[١١٨]

جاء إلحاد القرن الحادى عشر نتيجة الدراسات العلمية دون شك، وازدهرت بحرية تامة فى إسبانيا الإسلامية خلال حكم ملوك الطوائف، ولدينا شاهد على ذلك فى فيلسوف جامع فى هذا العصر، هو صاعد الطليطلى[١١٩] الأندلسى، يقول فى كتابه طبقات الأمم:

«وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد فى أعلاق من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدى الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامر وأظهر أيضًا كل من كان عنده من الرعية شىء منها ما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين فى طلب العلم القديم شيئًا فشيئًا، وقواعد الطوائف تتمصر قليلًا إلى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس فى إباحة تلك العلوم، والإعراض عن تحجير طلبها، إلى أن زهد الملوك فى هذه العلوم وغيرها».

وإذا كان ابن حزم شكا من تعصّب المعتضد[١٢٠]، فقد وجد ملاذا فى دانية عند مجاهد أميرها، ووزيره أبو العباس بن رشيق، وفى هذا البلاط استطاع أن يناظر أبا الوليد الباجى عن الفقه وأصول الدين[١٢١].

وكان بوسع أبى الوليد الوقّشى أن يعلن فى بيتين متكاملين من الشعر أن الدراسات الدينية والعلمية لا تفيد الإنسان فى شىء، لأنّ حقيقة ما وراء الطبيعة، وهى ضرورية لنجاة الإنسان، والعلم الحقيقى الوحيد، من المستحيل الوصول إليها، وأمّا العلوم الإنسانية، وإنْ أمكن تحصيلها، فشىء تافه وعبث وباطل:

برّح بى أنّ علومَ الورى اثنان ما إن فيهما من مزيدْ
حقيقةٌ يُعجزُ تحصيلُها وباطلٌ تحصيله لا يفيد[١٢٢]

ممّا جعل صديقا لأبى محمد بن السِّيد البطليوسى يتهم أبا الوليد الوقشى بالهرطقة، بعد عشر سنوات من نظمه هذين البيتين، وأثار بين هذين الصديقين جدلًا، وأوضحنا أهميته من قريب[١٢٣].

---

(١١٨) من الوافر، نفح ٤/١٠.

(١١٩) صاعد الطليطلى، طبقات الأمم، طبعة شيخو ٦٧، ترجمة بلاشير ١٢٧. وانظر أيضا: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ جـ ٣ ص ١٣٥، وأبحاث ط ١ ص ٤ هامش ١.

(١٢٠) انظر ص ٣٩٣ – ٣٩٤ فيما سبق من هذا الكتاب.

(١٢١) انظر: الحلة ١٢٨/٢، وانظر أيضا ص ٧٠ فيما سبق.

(١٢٢) من السريع، نفح ١٣٧/٤ و ٣٠٦.

(١٢٣) انظر: أسين بلاثيوس، موضوع الحاجة إلى الوحى فى الإسلام وعند المدرسيين، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٢، عام ١٩٣٥، ص ٣٦٨ – ٣٧٤ و ٣٨٠ – ٣٨٩.

وثمة قصيدة لابن السيد هذا، تجعلنا نظن أن بعض الفلاسفة فى عصره كانوا ينكرون التوحيد، يقول فى بيت منها:

وللعقـل عُبّـادٌ وللنـفس شيعـةٌ ... وكلُّهم عن منهجِ الحق حائدُ[١٢٤]

وأراد أبو الحسن رشيد بن سليمان أن يمدح أبا عيسى بن لُبُون على شعره، فتجرؤ على أن يقول:

نَـظْمٌ وعيشُكَ لـو غدا نثرًا لما ... قـدّرتُـه إلاّ من التنـزيـل[١٢٥]

وأى مسلم مستقيم يعتبر مثل هذا الفرض كفرا، حتى لو كان غير حقيقى. وإذا كان الكتاب الموحى به موضع حوار، فيمكن القول أن الحديث لم ينج من فكر الباحثين الناقد. يقول أندلسى:

أرى الخيرَ فى الدنيا يقلُّ كثيرهُ ... وينقص نقصًا والحديث يزيدُ
فلو كان خيرًا كان كالخير كله ... ولكنّ شيطانَ الحديثِ مَريد
ولابن مُعَيْنٍ فى الرجالِ مقالةٌ ... سيُسألُ عنها والمليك شهيد
فإنْ يكُ حقًا قولُه فهى غِيبةٌ ... وإنْ يكُ زورًا فالقصاصُ شديد[١٢٦]

وقد ردّ عليه أبو عبدالله الحميدى، المتوفى عام ٤٨٨ = ١٠٩٥، وهو مؤرخ مُحدِّث[١٢٧]، يقول:

وإنّى إلى إبطالِ قولِكَ قاصدٌ ... ولى من شهادات النصوصِ جنودُ
إذا لم يكن خيرًا كلامُ نبيّنا ... لديك فإنّ الخير منك بعيد
وأقبحِ شىءٍ أنْ جعلتَ لما أتى ... عن اللهِ شيطانًا وذاك شديد
ومازلتَ فى ذكرِ الزيادة مُعجبا ... بها تبدئُ التلبيسَ ثم تعيد
كلامُ رسولِ الله وحىٌ ومن يَرُمْ ... زيادة شىءٍ فهو فيه عنيد[١٢٨]

مثل هذا الهجوم كان يشكّل خطرا على صاحبه فى أزمان أخرى[١٢٩]، أما الآن فليست إلاّ موضع نقاش بين رجال الدين، ومع أنها غالبا ما تكون غير وديّة، لكنها لا تبلغ حد الكراهية أو القتل أبدا.

أما الأبيات الشعرية التى تقول إن عبادة النبيذ وأداء الصلاة يمكن أن يتعايشا تماما[١٣٠]، وأن تناول الخمر صباحا لا يحول مطلقا دون أن يلبى شاربها نداء المؤذن[١٣١]، فليست إلاّ نزوة شاعر. ولكن،

---

(١٢٤) من الطويل، القلائد ١٩٥ – ١٩٦، وتحتوى القصيدة على ستة عشر بيتا.

(١٢٥) من الكامل، القلائد ١٠٠.

(١٢٦) ابن معين محدّث معاصر فيما يبدو، انظر: نفح ٢٧٨/١ و ٨/٣ و ٣٣٨/٤.

(١٢٧) اشتهر الحميدى بكتابه «جذوة المقتبس» بخاصة، وهو مجموعة من التراجم للعلماء، وجل ما فيه نقله عنه من جاء بعده من العلماء، ممن ألفوا فى مثل هذا اللون من الكتب، مثل: الصلة لابن بشكوال، ويقول الحميدى:

الناس نبت، وأرباب القلوب لهم ... روض، وأهل الحديث الماء والزهرُ
من كان قول رسول الله حاكمه ... فلا شهود له إلاّ الألى ذكروا

وهى من البسيط، نفح ٢٣٧/٤.

(١٢٨) من الطويل، نفح ٢٣٨/٤.

(١٢٩) عندما تحدث ابن طلحة بسوء عن رمضان فى بعض أبياته حكم عليه بالموت، عام ٦٣١هـ=١٢٣٤م. انظر: نفح٣٠٩/٣.

(١٣٠) ثمة أبيات للرمادى عن هذا الموضوع فى المطمح، ونفح وهى من الخفيف.

(١٣١) انظر ص ٣٢٩ فيما سبق من هذا الكتاب.

أيحملهم حب الحياة بعيدا، أكثر مما يجب، فيقول ابن اليسع صباح موقعة الزلاقة، وكان يوم جمعة:

عطِشتُ أبا بكرٍ وكفّاكَ دِيمةٌ وذبتُ اشتياقًا والمزار قريبُ
فخفّفْ ولو بعض الذي أنا واجدٌ فليس بحقٍ أن يُضاع غريب
ووفِّرْ لنا من تلك حظًّا نرى بها نشاوَى وبعدُ الغزْوِ سوف نئوب(١٣٢)

ولعب طائف الشك بفكر ابن عمّار أحيانا، وشاهدنا على ذلك حين توجه إلى المسجد مع المعتمد فى يوم جمعة، وسمع الصديقان المؤذن يدعو للصلاة، فارتجل المعتمد البيت التالى، وطلب من ابن عمار أن يجيزه، قال المعتمد: هذا المؤذّنُ قد بدا بأذانِهِ

فقال ابن عمار: يرجو بذاكَ العفوَ من رحمانِهِ

فقال المعتمد: طوبى له من شاهدٍ بحقيقةٍ

فقال ابن عمار: إن كان عَقْدِ ضميره كلسانِهِ

●●●

إن الشك الذى أوضحنا بعض مظاهره لم يكن شائعا كما يمكن أن يظن، لأن الأندلسى يحتفظ فى أعماق روحه بإيمان بالله القوى الرحيم، وإذا كان الأندلسى المسلم يثق فى رحمة الخالق الرحمن الرحيم، فإنه يعتقد أيضا – ونرى فى هذا بقايا مفاهيم مشرقية – أن الدهر أو الزمن سيضطلع، قبل أو بعد، بإقامة العدل الذى انتهكه الناس، يقول أحد الشعراء:

إذا ماجنى يومًا عليك جنايةً ظلومٌ يدقّ السمرَ بأسًا ويقصفُ
فلا تنتقم يومًا عليه بماجنى وكِلْ أمرهُ للدهرِ فالدهرُ منصف(١٣٤)

إنّ أحد الانطباعات السائدة التى نخرج بها من قراءة الشعر الأندلسى أنّ الإنسان مهما كان الوضع الذى ينتمى إليه، يعى ضعفه. يقول بكّار المروانى: «إن هذه القلوب المخلاة لله كالوَرق التى جفّت، وهى مستعدة لهبوب الرياح»(١٣٥)، وكل أفكاره وأعماله يجمّلها الخشوع، ويعطّرها التواضع، ويجب أن يكون واعيا بتفاهة الأشياء، وأن يعرف كيف يظهر التواضع فى أيام الرخاء. يقول السميسر:

هُنْ إذا ما نلتَ حظًّا فأخو العقل يهونُ
فمتى حطّك دهرٌ فكما كنتَ تكون(١٣٦)

ويقدم لنا الشاعر نفسه النصيحة التالية، وفيها يدعو إلى التخلى عن الطموح:

إذا شئتَ إبقاء أحوالِكا فلا تُجْرِ جاهًا على بالكا
وكن كالطريقِ لمجتازها يمرُّ وأنتَ على حالكا(١٣٧)

---

(١٣٢) من بحر الطويل، القلائد ١٧٠، والحلة ١٧٤/٢.

(١٣٣) من الكامل، خريدة القصر، وبنو عباد ٣٨٤/١، والحلة ٥٥/٢، وبنو عباد نقلا عن الحلة ٦٣/٢، ونفح ٦١٦/٣، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٣ ص ٨٤.

(١٣٤) من الطويل، نفح ٣٤٣/٤.

(١٣٥) نفح ٣٣٦/٢.

(١٣٦) من الرمل، نفح ١١٧/٤.

(١٣٧) من السريع، نفح ١١٧/٤.

(١٣٨) من البسيط، القلائد ٢٥٥.

ويقول أبو الفضل بن شرف:

إنّي وإنْ غـرّني نيـل المنى لأرى ... حرصَ الفتى خلّةً زيدتْ إلى العدم(١٣٨)

وقد لحظ الأعمى التطيلي «أن الثراء مصدر كثير من الهموم»(١٣٩). وكان ابن بُرطُلّه يرى الخمول شرطا فى السعادة، يقول:

لـلـهِ مـا ألـقـاه مـن هِمَّـةٍ ... لا تـرتضى إلّا السُّهـا مـنـزلا
ومـن خـمـولٍ كـلّـما رمـت أنْ ... أسمو به بين الورى قال لا(١٤٠)

وما أروعها حكمة ينثرها أبو إسحاق الإلبيرى فى الأبيات التالية:

قـالـوا: ألا تـستجـدّ بيتًـا ... تعجب من حسنـه البيـوتْ
فـقـلت: مـا ذلـكـم صـوابٌ ... حـفـشٌ كـثـيـر لـمـن يموت
لـولا شـتـاءٌ ولـفْـحُ قـيظٍ ... وخـوفُ لصٍّ وحـفـظُ قـوت
ونِـسْـوةٍ يـبـتـغـين سـتـرًا ... بنيتُ بُنيـانَ عنكبـوت(١٤١)

وبعض الأندلسيين من ذوى الأرواح العالية يخجلون من مراتب المجد التى يبلغونها، ولذلك يعتذرون عنها، كما لو كانوا بصدد إهانة بأمثالهم، يقول ابن حزم:

لاتَـلُـمـنى لأنّ سَـبْـقـةَ لحظٍ ... فـاتَ إدراكُـهـا ذوى الألـبـاب
يسبقُ الكلبُ وَثْبةَ الليثِ فى العَدْ ... وِ ويعلو النُّخالُ فوق اللباب(١٤٢)

ويتمنى ابن حزم لو أن العالَم كله كان فى تواضعه:

لايَشْمتنْ حاسدِى إن نكبةٌ عرضتْ ... فـالدهرُ ليس عـلى حـالٍ بمتّرِكِ
ذو الفضل كالتبرِ طورًا تحت مِيقَعةٍ ... وتارةً فى ذُرى تاجٍ على مَلِك(١٤٣)

ومع ذلك، لا يمكن القول بأن العجب قد اختفى تماما عند الأندلسيين، فقاضى بلنسية ابن جحّاف، الذى أحرقه السِّيد، يقول وقد أخذته عزة النفس، فى اللحظة التى حدّس فيها، دون شك، بأن موته أصبح شيئا مقررا:

لئن كـان الـزمـانُ أرادَ حـطّىِ ... وحـاربـنى بـأنـيـاب وظُـفْـرِ
كـفـانى أنْ تصـافـيَنى المعـالى ... وإنْ عـاديْـتِـنى يـا أمَّ دَفْـر
فـما اعـتزَّ اللئيمُ وإنَ تسـامى ... ولا هـانَ الكـريمُ بغـير وَفْـرِ(١٤٤)

(١٣٨) من البسيط، القلائد ٢٥٥.　(١٣٩) القلائد ٢٧٦.

(١٤٠) من السريع، نفح ٤٦٣/٣.

(١٤١) من البسيط، الديوان، القصيدة رقم ١٣. وكلمة «حفش» التى فى البيت الثانى يوجد مكانها «عش» فى نفح الطيب ٤٩١/٣، وأبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٧٢.

(١٤٢) من الخفيف، نفح ٨٤/٢.

(١٤٣) من البسيط، نفح ٨٢/٢ والمعجب ٤٨، وترجمته ٤١، وياقوت، معجم البلدان ٩١/٥، وأسين بلاثيوس، ابن حزم القرطبى ٢٣٩/١، ويعطى دوزى، فى رسالة إلى فليشر ٦١ - ٦٣، معنى «مطرقة» معتمدا على أمثال غير مقنعة لنا.

(١٤٤) من الوافر، نفح ٣٠٩/٤.

وقد احتفظ المعتمد بعزة نفسه حتى فى اللحظة التى أخذ فيها طريقه إلى المنفى، ولكنه لم يلبث أن أفسح المجال لشعور متواضع جدا، عبر عنه بكلمة «الحياء»، ويمكن أن نترجمها بمعنى آخر غير الحياء أو الخجل، مثل «الاحتشام» أو «الاحترام»، لأنه أدق فى التعبير عما يريده فى هذا المجال، يقول وقد تعرض له شعراء طنجة وهو فى طريقه إلى المنفى:

لـولا الحيـاء وعِـزّةٌ لَخْـمـيَّـةٌ ... طىّ الحشا ساواهمُ فى المطلبِ (١٤٥)

نعم، كل شىء زائل، ولكن ثمة شعورا باقيا على الأقل، اسمه المودة، يدقّ القلب، وقد ندعوه صداقة أو حنانا. أى إيقاع بالغ الإثارة نجده عند بعضهم، عندما تضطرهم الظروف إلى ترك نسائهم وأبنائهم، وبخاصة فى ظروف «الفتنة» الصعبة●. يقول ابن درّاج، متحدثا عن زوجه:

ولمـا تـدانتْ للوداعِ وقـد هفـا ... بـصـبْـرىَ مـنـهـا أَنّـةٌ وزفـيـرُ
تنـاشـدُنى عهـدَ المودّة والهـوى ... وفى المهدِ مبغومُ النداء صغيرُ (١٤٦)

وقد عبرّ ابن أبى عبدة عن تعاسته لفراق أحبّته الأعزّاء عليه:

تـذكّرتُهُم والنـأى قـد حـال دونهم ... ولم أنْسَ لكنْ أوقـد القلبَ لافـحُ
وممّـا شجـانى هـاتفٌ فـوق أيكـةٍ ... ينـوح ولم يعلمْ بمـا هـو نـائـح
فـقـلتُ اتئـدْ يـكـفيـك أنّىَ نـازحٌ ... وأن الـذى أهـواهُ عـنىَ نـازح
ولى صِبْيـةٌ مِثـلَ الفـراخِ بـقفْـرَةٍ ... مضى حـاضنـاهـا فـاطّحتْهـا الطـوائـح
فـمن لـصغـارٍ بَـعْـد فقـدِ أبـيـهـم ... سوى سانحٍ فى الدهرِ لو عنَّ سانح (١٤٧)

ولم يكن المعتمد وهو يقاتل فى الزلّاقة يفكرّ فى غير ابنه أبى هشام:

أبـا هـاشمٍ هشّمْتنى الشفـارْ ... فـلله صـبـرى لـذاكَ الأوارْ
ذكـرتُ شخَيْـصَـكَ مـا بينهـا ... فـلم يُثـنِنى حبُّـه للفـرار (١٤٨)

وألهمت الصداقة الشعراء أبياتا جميلة، يقول غانم الغرناطى متأثرا بكلمات نُسبت إلى الخليل بن أحمد: «ما تضايق سَمّ الخياط بمتحابين، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين»:

صَـيرِّ فؤادَك للمحبوب منـزلـة ... سَمُّ الخِيـاط مجـالٌ للمحبّـيْن
ولا تسـامحْ بغيضًـا فى معـاشـرةٍ ... فقلّما تسـعُ الدنيـا بغيضـيْن (١٤٩)

---

(١٤٥) من الكامل، الذخيرة ٦٧/٢، وبنو عباد ٣١٤/١، والمعجب ١٤٥، وترجمته ١٢٣.

(١٤٦) انظر: الديوان ص ٢٥٠، وبلاشير، حياة أندلسى شاعر مترسل وأعماله: ابن دراج القسطلى، مجلة هسبيريس ١٩٢٣، المجلد ١٦، ص ١٠٣، وانظر نفح ١٩٥/٣، والأبيات من الطويل.

● عن «الفتنة» ظروفها وأحداثها وتفصيلاتها، انظر: الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص ١٠٦ وما بعدها، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ (المترجم).

(١٤٧) من الطويل، المطمح ٢١٣، وعنه نقلها نفح ٥٤٨/٣.

(١٤٨) من المتقارب، الذخيرة ٧٣/٢، وبنو عباد ٣١٧/١ و ٣٦٢.

(١٤٩) من المنسرح، نفح ٢٦٥/٣.

وأقلّ مبالغةً مما سبق جاء قول أبي الفضل الدارمي:

بين كريمين منزلٌ واسعٌ والودُّ حالٌ تقرّبُ الشاسعْ
والبيتُ إنْ ضاقَ عن ثمانيةٍ متسعٌ بالوداد للتاسع[١٥٠]

والصداقة تعين المرء على اقتحام كل الصعاب، حُكي أنّ ابن حزم قصد أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقيه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال، وقال: يا سيدي، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم! فأنشده ابن حزم بديهة:

فلو كانت الدنيا دُوَيْنك لُجَّةً وفي الجوّ صَعْقٌ دائمٌ وحريقُ
لسهّلَ وُدّي فيك نحوك مسلكًا ولم يتعذّر لي إليك طريق[١٥١]

ولا يمكن الترحيب بمقدم صديق بطريقة أقوى حنانا بمثل ما فعل ابن اليسع مرحبا بابن عمار:

لمّا دنوْتَ وعندي حظ من الشوق وافِ
قدّمتُ قلبي قبلي فصنه حتى أوافي[١٥٢]

ولا تتجلى مظاهر الصداقة بأفضل مما تتجلى في القرى، يقدمونه لشخص محترم، ولم يكن الأندلسيون يتقيدون، فيما يبدو، باستضافة ضيوفهم ثلاثة أيام فحسب، كما يوصي الحديث. وقد شكا ابن الحاج اللورقي أن المعتمد استضافه ثلاثة شهور دون أن يلقاه[١٥٣]، ويستطيع الضيف العابر أن يبقى كل الزمن الذي يريد، ويعتبرون وجوده نعمة وبركة، وبخاصة إذا كانت تربطه بمضيفه صداقة وطيدة. أية روعة تحمل كلمات ابن الحاج اللورقي - وأجرؤ على أن أصفها بمسيحية - تلك التي يقول فيها:

عجبًا لمن طلبَ المحامد وهو يمنع ما لديْهِ
ولباسطٍ آماله في المجد لم يبسط يديْه
لِمَ لا أُحِبُّ الضيفَ أو أرتاح من طربٍ إليه
والضيفُ يأكل رزقَه عندي، ويحمدني عليه[١٥٤]

● ● ●

يكمن سر النفس الأندلسية، إذا تأمّلناه جيدا، في الإحساس بالقلق، والشعور بالكآبة أمام الحياة، والإسباني المسلم لا يبلغ في الاستمتاع بالسعادة قمتها، لا في الحب ولا في العلاقات اليومية مع أترابه[١٥٥]. ولقد أتينا على أمثلة كثيرة لذلك، وإليك المزيد منها لمزيد من توضيح هذا الميل الطبيعي

---

(١٥٠) من المنسرح، نفح ١١٣/٣.

(١٥١) من الطويل، نفح ٨٣/٢.

(١٥٢) من المجتث، الحلة، ١٧٤/٢.

(١٥٣) انظر فيما سبق ص ٧٣ من هذا الكتاب.

(١٥٤) من مجزوء الكامل، القلائد ١٤٢، ونفح ٥٩٦/٣.

(١٥٥) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بني نصر في غرناطة هذه الكلمات المميزة في مذكراته: «كان بطبعه غرقا في القلق والسوداء»، انظر طبعة ليفي بروفنسال، فصلة، النص العربي ص ١٦٢، والترجمة ١٦٩.

إلى القلق. صاح المعتمد ذات ليلة فى هدوء حدائق البحيرة الكبرى:

أيـا نفسُ لا تجزعى واصبرى ... وإلّا فـإنّ الهـوى مُـتـلفُ
حبيبٌ جفـاكِ وقلبٌ عصاك ... ولاحٍ لحـاكِ ولا يُـنـصـف
شجونٌ مَنَعْنَ الجفون الكرى ... وعـوّضْنهـا أدمعًا تـنـزف[١٥٦]

وتعطى الحياة، نتيجة عدم الرضا المستقر فى القلب، انطباعًا حزينا. يقول ابن السمّاك:

وكم راغبٍ فى موضع لا ينالُه ... وأمسيتُ منه مثل يونسَ فى اليمِّ
بهذا قضى الرحمن فى كل ساخطٍ ... يموت على كرهٍ ويحيا على رَغم[١٥٧]

ويأخذ القلق عند بعضهم صورة الرغبة الدائمة فى التنقل بلا توقف. يقول أبو عيسى بن لبون:

ذرونى أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها ... لأشفيَ نفسى أو أموتَ بـدائى
فلستُ ككلب السوءِ يُرضيه مربضٌ ... وعظْمٌ، ولكنى عقابُ سماء
تحوم لكيما يدرك الخصبَ حومها ... أمامَ أمامى أو وراءَ ورائى
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لى تنكّرتْ ... شددْتُ إلى أخرى مَطيَّ إبائى
وسرتُ ولا ألوى على متعذّرٍ ... وصمّمتُ لا أصغى إلى النصحاء
كشمسٍ تبدّتْ للعيون بمشرقٍ ... صبحًا، وفى غرْبٍ أصيلَ مساء[١٥٨]

ورغائب المرء هى التى تودى به إلى لتعاسة والبؤس. يقول الأعمى التطيلى:

تنافسَ الناسُ فى الدنيا وقد علموا ... أنْ سوف تقتلهم لذّاتُها بددا
قل للمحدِّث عن لقمان أو لُبدٍ ... لم يترك الدهرُ لقمانًا ولا لبدًا[١٥٩]
وللذى همُّهُ البنيانُ يرفعهُ ... إنّ الردى لم يغادرْ فى الثرى أحدا
ما لابن آدم لا تفنى مطامعه ... يرجو غدًا وعسى أن لا يعيش غدا[١٦٠]

نجد فى الأبيات التى مرت صدى فلسفة «المدرسيين» تنضح إحباطا، ويقول ابن حزم فى فطنة مدهشة، تظهر كل ما يتسم به فكره من عمق نفسى:

هل الدهرُ إلّا ما عرفْنا وأنكرنْ ... فجائعهُ تبقى ولذّاتهُ تفنى
إذا مكنتْ فيه مسرّةُ ساعةٍ ... تولّتْ كمرّ الطرفِ واستخلفتْ حُزنا

---

(١٥٦) من المتقارب. الديوان ٢١، القلائد ٩، وعنها فى «بنو عباد» ١/٣٤ و ٩٨، ونفح ٢٨٠/٤. وعن البحيرة الكبرى انظر ص ١٢٦ فيما سبق من هذا الكتاب، والهامش رقم ٩٩.

(١٥٧) من الطويل. نفح ٣١٥/٣.

● قلت: فى الأصل الفرنسى «ابن السمان»، ولكن فى المصدر الذى أحالنا عليه المؤلف «ابن السماك» (المترجم).

(١٥٨) من الطويل. القلائد ١٠٢، والذخيرة ١٠٨/٣، والحلة ١٦٨/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٢٥ - ٥٢٧.

(١٥٩) لقمان شخصية أسطورية من الوثنية العربية، حياته تعدل حياة النسر سبع مرات. ولبد اسم آخر نسر رباه لقمان؛ انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٦/٣ - ٣٩. كتب المادة هلر.

(١٦٠) من البسيط. نفح ٣٢١/٤.

إلى تبعاتٍ فى المعادِ وموقفٍ   نودّ إليه أنّنا لم نكنْ كنّا
حصلْنا على همٍ وإثمٍ وحسرةٍ   وفات الذى كُنّا نلذّ به عنّا
حنينٌ لما ولىّ، وشغلٌ بما أتى   وهمٌ بها يَغشَىَ فعينُك لا تهنا
كأنّ الذى كنّا نسرّ بكونهِ   إذا حقّقته النفسُ لفظٌ بلا معنى(١٦١)

لقد أتيحت لنا الفرصة حين تحدثنا عن الأعياد الدينية كى نظهر أن الإسبانى المسلم كان يحتفل بأعياد النيروز والمهرجان، وحتى عيد الفصح، فى انتظام وحماسة لا يقلان عن احتفاله بالعيدين الإسلامين الخالصين: عيد الفطر وعيد الأضحى، فلا يدهشنا إذن أن نجد شاعرة تسمى نزهون بنت القلاعى تصور لنا فى أبيات من الشعر اللحظات البهجة التى أمضتها مع صديقا لها ليلة الأحد(١٦٢)، وهو لا تعنى، فيما يحتمل، يوم السبت ليلة الأحد، كما هو فى المفهوم السامى، وإنما يوم الأحد، ليلة الاثنين.

ولا يدهشنا فى شىء أن يشير الشعراء إلى شخصيات التوراة، لأن القرآن يضم جانبا لا بأس به من الأنبياء والرسل الذين سبقوا المسيح مفصلا إلى حد ما. ونلحظ أن هذا يحدث بخاصة حين يعبرون عن آلامهم، وعندما يتذكر المعتصم أن ابنه سجين فى غرناطة يصرخ مستسلما:

لئن كنتُ يعقوبَ فى حزنهِ   ويوسفَ أنتَ فصبرٌ جميلُ(١٦٣)

نستطيع القول أن الأدباء المسلمين لم يكونوا يعرفون التوراة من خلال القرآن فحسب ولابد أن بينهم من كان يقرأ العهد القديم، لا فى نصه الأصلى وإنما فى ترجماته العربية، وحالة ابن حزم هى الأكثر إقناعا فيما يتصل بهذا الأمر(١٦٤)، وكان قرّاء الإنجيل كثيرون، ويقول ابن حزم إنه قرأ فى الإنجيل هذه الفقرة: «لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده»(١٦٥).

وإذا كان بعضهم ظل مسجونا داخل رموز الأناجيل، فإن آخرين تعمّقوا معانيها، مثل ابن الجد عندما كتب إلى ابن القروى، وهو من أصل يهودى كما نعرف:

---

(١٦١) من الطويل، مطمح ٢٨١، والضبى، بغية ٤٠٤، رقم ١٢٠٤، وابن بشكول، الصلة ص ٤٠٩، رقم ٨٨٨، والمعجب ٤٧، وترجمته ٤٠.

(١٦٢) نفح ٢٩٨/٤.

● أميل إلى الأخذ بالمفهوم الشرقى لأن إسبانيا المسيحية اليوم، وتخلف فيها كثير من التقاليد الإسلامية، تكون عند ما تكون احتفاء واحتفالا وبهجة وصخبا يوم السبت ليلة الأحد، أى ليلة الأحد بالمفهوم السامى، على حين تكون ليلة الأحد عشية الاثنين بالمفهوم الأوربى، هادئة ساكنة نسبيا، لأن الناس يأوون إلى بيوتهم مبكرين استعدادا لعملهم فى الصباح. (المترجم).

(١٦٣) من المتقارب، الحلة ٨٩/٢، وأبحاث ط ص ١٢٠ - ١٢١، والطبعة الثالثة ٢٧٠/١.

(١٦٤) انظر مثلا طوق الحمامة ص ٢٤: «وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنما لابن خاله...»، وانظر ترجمة نيكل ص ١١ - ١٢، وطبعة برشيه ٢٤ - ٢٥.

(١٦٥) نفح ١٦٦/٣، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٧٦. وبما أن هذه الجملة ليست فى الإنجيل الذى بين أيدينا بنصها حرفيا، فمن المرجح أن ابن حزم كان يستخدمه مترجما.

وقد أوضح أسين بلاثيوس أن ابن حزم يستخدم فى كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» نصوصا من الأناجيل الاربعة فى دقة بالغة، معتمدا على ترجمة عربية تمت بما هو مؤكد تقريبا من الترجمة اللاتينية التى كانت شائعة على أيامه. انظر: ابن حزم القرطبى ٤٨/٢.

هلَّا عذرتَ على البطالة أهلها ... ورأيتَ رأيًا فى المدام أصيلا
هى ما علمتَ فإن عرتْك جهالةٌ ... فاستفسرنْ من سرها الإنجيلا(١٦٦)

ويمكن أن نرى فى هذا البيت إشارة إلى سر استحالة الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه طبقا لإنجيل يوحنا المعمدان.

وأما الإشارات المتعدّدة إلى مريم العذراء والمسيح فهى ذات طابع إسلامى ومسيحى فى الوقت نفسه، يقول الخليفة الأموى المهدى، وقد بعث إلى مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى بدنانير وكتب إليها:

أشبهتِ مريم العذراء فى ورعٍ ... وفقتِ خنساءَ فى الأشعار والمثل(١٦٧)

والمسيح هو النبى الذى أتى بالمعجزات بمجرد لمس المرضى(١٦٨) . ويعبر ابن سارة عندما طلب النجدة من القاضى أبى أمية على النحو التالى:

فما جئت جالينوس مستشفيا به ... ولا علّنى حيث المسيح بن مريما(١٦٩)

ولكن المسيح بخاصة يبدو نبيا تجسّد فيه الخير والتسامح ونجرؤ على أن نقول والبرّ La Chanté، ولو أن هذه الكلمة ليس لها ما يقابلها فى العربية بدقة، وقد كتب المعتمد إلى والده خوفا من غضبه بعد إخفاقه أمام مالقة يقول:

مولاى أشكو إليك داءً ... أصبح قلبى به جريحاً
سخطك قد زادنى سقاما ... فابعث إلىّ الرضى مسيحا(١٧٠)

وفيما نرى فإن الراضى بن المعتمد يتحدث عن امرأة أحبها كما لو كانت ملاكا طيبا، طبقا للمفهوم المسيحى:

يا قمرًا أصبح لى مالكًا ... لا تتركنى هكذا هالكاً
رِقّ على قلبِ العميد الذى ... يودّ لو يجرى على بالكا
حَسُنتَ فى خَلْق وخُلْقٍ فلِمَ ... رضيتَ بالقبح لأفعالكا(١٧١)

وإذا كان الأندلسيون يظهرون فى عداوتهم شيئا إنسانيا عميقا فإنما يعود ذلك بخاصة إلى استسلامهم للقدر، وهو استسلام يشوبه القلق والحزن. وإذا كان المعتمد قد احتفظ فى التاريخ بشخصية مؤثرة للغاية، فإن ذلك لا يعود إلى قصائد الحب أو الخمر التى أبدعها، بقدر ما يعود إلى تأثر

---

(١٦٦) من الكامل، الذخيرة ٥٦٢/٢، وانظر فيما سبق ص ٢٤٥ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٨٤.

(١٦٧) من البسيط نفح ٢٩١/٤.

(١٦٨) نفح ٢٠٥/٣.

(١٦٩) من الطويل، القلائد ٢٦٣.

(١٧٠) من البسيط، الديوان ٣٣، والقلائد ١٩، وعنها فى «بنو عباد» ٥٣/١ و ١٣٤، وخريدة القصر، فى «بنو عباد» ٣٨٦/١، والحلة ٥٩/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٦٧/٢ و ٦٨، ونفح ٩٢/٤.

(١٧١) من السريع، خريدة القصر، جـ ٢ من قسم شعراء المغرب والأندلس، طبعة تونس ١٩٧١، ص ٤٧، وعنها فى «بنو عباد» ٤١٩/١.

الناس بتلك الأشعار التي نظمها في المنفى، ونشعر لحظة قراءتها كم كان قلبه كبيرا، وأي شعور طيب كان يكنه لعائلته وأصدقائه الذين ظلوا أوفياء له[١٧٢]. ونجد عظمة الروح نفسها عند أبناء المعتمد، وكان عليهم أن يبحثوا عن ملاذ في بجاية قريبا من الحماديين، يقول أحدهم، وهو عز الدولة:

لكَ الحمدُ بعد الملكِ أصبحتُ خاملاً   بأرضِ اغترابٍ لا أُمِرُّ ولا أُحلي
وقد أصدأتْ فيها الجذاذة أَنْمُلي   كما نسيتْ ركضَ الجيادِ بها رِجْلي
فلا مِسْمعي يُصغي لنغمةِ شاعرٍ   وكفِّيَ لا تمتدّ يومًا إلى بذلِ[١٧٣]

وما يدهشنا في هذا الخضوع أنه لا ينقص من قدْر مَن يقبله أو اتصف به، ويمكن أن نقول مع شاتوبريان دون أن نمسّ حرفية نصه تقريبا: «كان التواضع يعني الخسّة عند العرب القدامى، والكِبر يعني العظمة، وعلى النقيض بين الإسبان المسلمين في القرن الحادي عشر[١٧٤]، فإن الكِبْر أول الآثام، والتواضع من أعظم الفضائل»[١٧٥].

●●●

لا يزال لدينا بعد جانب من الروح الأندلسي بالغ الأهمية، وأعني به تساميهم في التعادي، وقدرتهم على امتصاص الألم. فقد ظل الروح الأندلسي مؤمنا جِذْريا، ويرى في الألم تطهير النفس وسموًا بها، ولم يبلغ به الحال أبدا درجة الإحباط أو الانتحار.

والانتحار لا يحدث كثيرا في الإسلام[١٧٦]، وفي إسبانيا القرن الحادي عشر لا نستطيع أن نذكر غير محاولة في لحظة إحباط، حين أمسكوا عبد الرحمن شنجول، واقتادوه إلى المهدي فأخرج من نعله خنجرا ليقتل به نفسه، ولكنهم تدخلوا للحيلولة دون ذلك في الوقت المناسب[١٧٧].

ويزعم بعض المؤرخين أن الفكرة نفسها راودت المعتمد عندما استولى المرابطون على إشبيلية، وأرغموه على التسليم بلا شروط، ولكنه صرف النظر عن خطته تقى وخشية من الله[١٧٨].

---

(١٧٢) عن هذا الموضوع انظر: نفح ١١٦/٤ و ٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤. والقلائد ١٢ و ٢٥ و ٢٨، وعنه في «بنو عباد» ٤٨/١ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٨، والذخيرة ٦٢/٢، وفي «بنو عباد» ٣١٧/١، والحلة ٦٧/٢، والمعجب ١٥٦، وترجمته ١٣٠.

(١٧٣) من الطويل، نفح ٣٦٨/٣، وأبحاث ط ٢ ص ١٢٥. وتوجد صورة نثرية لهذا الأمير كتبها ابن اللبانة في نفح ٣٦٨/٢. وترجمها دوزي في أبحاث ط ١ ص ١٢٦ - ١٢٧ وط ٣ جـ ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(١٧٤) شاتوبريان استخدم هنا لفظ «المسيحيين».

(١٧٥) عبقرية المسيحية، طبعة جارنييه ١٩٤/٢.

(١٧٦) عن هذا الموضوع انظر: مصطفى جواد، المتحررون في الجاهلية والإسلام، في مجلة الهلال، المجلد ٤٢، فبراير ١٩٣٤، ص ٤٧٥ - ٤٧٨. والنويري، نهاية الأرب ١٨٢/٢ - ١٨٤ (الانتحار من أجل الحب).

(١٧٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ جـ ٢ ص ٢٨٩. وتذكر أيضا حالة ابن سبعين المرسي المثيرة، وقد انتحر في القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي، بأن فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفى، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ٥١٦/١. ودبجا، مدخل لطبعة نفح الطيب الأوربية ٥١/١. ومهرن، رسائل الفيلسوف الصوفي ابن سبعين ٣٥٠. وأماري، مسائل فلسفية، في المجلة الأسيوية، السلسلة الخامسة، المجلد ١ عام ١٨٥٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧. ماسنيون، مجموعة من النصوص غير المنشورة ١٢٣. وج. س. كولين، المقصد، ترجمة مع تعليقات ص ١٨١.

(١٧٨) وقد ردّ على الذين خوفوه من الاستسلام:

وألذ من طعم الخضوع على فمي السمُّ النقيع =

ويقدم أبو عامر بن شهيد من النصف الأول من القرن الحادى عشر، فقد توفى عام ٤٣٦ = ١٠٣٥، وأتيحت لنا الفرصة أن نذكره أكثر من مرة، الشخصيةَ الأقوى تمثيلا لإنكار الذات المتسم بالبطولة، فقد منعه الفالج من الحركة، ولم يكن يرى أصدقاءه إلاّ وهو فى محفة. أى ألم يجب أن نتصوره لهذا الرجل، وكان فى هذه اللحظة قد ودّع كل نشاط بدنى، ولكن عقله ولسانه ظلاّ سليمين، وما هو أروع، وساوى أكثر، أن قلبه احتفظ بكل طيبته الطبيعية، ولم يتخل عنه أصدقاؤه أبدا، وكان بالنسبة لهم سقراط الجديد، يجتمعون حوله ليتحدث إليهم عن النشاط الذى يجب على الرجل النبيل حقا أن يحتفظ به أمام الألم:

إنّ الكريمَ إذا نابتْهُ مَخْمصةٌ ... أبدى إلى الناس رِيًّا وهو ظمآنُ
يحنى الضلوعَ على مثل اللظى حُرقًا ... والوجهُ غَمْرٌ بماءِ البِشْرِ ملآن[(١٧٩)]

وقد يتغلب عليه اليأس عندما يكون وحيدا، ولكنه ما أسرع مايسترد الأمل:

أنوحُ على نفسى وأندبُ نُبْلَهَا ... إذا أنا فى الضرّاء أزمعتُ قتلها
رضيتُ قضاءَ الله فى كل حالةٍ ... علىَّ وأحكامًا تيقّنتُ عدلها
أظلُّ قعيدَ الدار تَجْنُبُنِى العصا ... على ضعفِ ساقٍ أوهنَ السقمِ رِجْلها
فمن مبلغ الفتيانِ أنّ أخاهمُ ... أخوفَتْكةٍ شنعاءَ ما كان شَكْلها[(١٨٠)]

نشعر مع هذه الأبيات بحدة معاناة الشاعر ، ورغم ذلك ظل محتفظًا بشبابه، وقريبًا جدا من نهاية حياته أحسّ ابن شهيد وقد طهّره الألم، أنه محمول نحو آفاق من الطمأنينة الهادئة، وجعله هذا الصعود ينسى آلامه، ويواجه الموت هادئًا، وكانت كلماته الأخيرة لأبى محمد بن حزم، وهو الذى تلقى، فيما يبدو، آخر رغباته شاعرًا، أحب الكلام الفخيم والموسيقا بقوة، ومؤمنا أيضا يثق فى رحمة الله:

ولمّا رأيتُ العيشَ ولىَّ برأسهِ ... وأيقنتُ أنّ الموتَ لاشكَّ لاحقى
تمنيتُ أنى ساكنٌ فى غيابةٍ ... بأعلى مهبِّ الريح فى رأس شاهق
أذرُّ سقيط الحبِّ فى فضل عيشةٍ ... وحيدًا وحَسْىُ الماءِ ثَنْىُ المفالق[(١٨١)]
خليلىّ من ذاق المنيّة مرّةً ... فقد ذقتها خمسين قولةَ صادق
كأنىَ وقد حان ارتحالىَ لم أفزْ ... قديمًا من الدنيا بلمحة بارق
فمن مُبلغٍ عنّى ابن حزم وكان لى ... يدًا فى ملمّاتى وعند مضايقى

= والبيت من الكامل. انظر: القلائد ٢٢، وبنو عباد ٣٠٢/١، ونفح ٢٧٧/٤، والمعجب ١٤١، وترجمته ١٢١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٥٠.

(١٧٩) من البسيط. المطمح ١٩٠، ونفح ٦٢٢/١.

(١٨٠) من الطويل. الذخيرة ٣٢٨/١.

(١٨١) هذا البيت ترجمته تقريبية، ويبدو أن النص أصابه تحريف سواء فى الذخيرة أو النفح.

● المؤلف معه حق، فقد ورد البيت فى النفح على النحو التالى:

أرد سقيط الطل فى فضل عيشتى ... وحيدا وأحسو الماء ثنى المعالق

على حين سقط فى الطبعة الأولى للقسم الأول من الذخيرة، وجاء فى طبعة إحسان عباس مصوبا دون أن يشير إلى ما اعتمد على طبعة الديوان. والبيت فيه كما أتينا به فى النص أعلاه (المترجم).

عليك سلامُ الله إنّى مفارقٌ وحسبُكَ زادًا من حبيبٍ مفارق
فلا تنسَ تأبينى إذا ما فقدْتنى وتذكارَ أيامى وفضلَ خلائقى
فلى فى ادكارِى بعد موتىَ راحةٌ فلا تمنعونيها عُلالةَ زاهق
وإنى لأرجو الله فيما تقدمتْ ذنوبى به مما درى من حقائقى[١٨٢]

●●●

إن الموت كالحب أمدّنا بحصاد وفير من القطع الشعرية التى تكشف لنا شيئًا عن الروح الأندلسى، وتستحق شواهد القبور دراسة فى المقام الأول، لأنها توضح تطور الفكر بصورة ظاهرة ودقيقة بين القرنين العاشر والحادى عشر: ما أبعد الفارق بين الشاهد الذى على قبر المنصور[١٨٣] يضج زهوا وكبرا وتعاليًا والأبيات التى تطلب الرحمة من المارة ونجدها فى نهاية القرن الحادى عشر[١٨٤]! وتأمّلات الأحياء، فى المقام الثانى، تلقى ضوءا على نفسية الذين يحضرون الجنازات، ويبيّن أبو إسحاق الإلبيرى عدم اهتمام الحاضرين، بعامة، بالشخص الذى يدفنونه:

تمرُّ لِداتى واحدًا بعدَ واحدِ وأعلمُ أنى بعدَهم غيرُ خالدِ
وأحملُ موتاهم وأشهدُ دفنَهم كأنّى بعيدٌ عنهمُ غير شاهد
فها أنا فى علمى لهم وجهالتى كمستيقظٍ يرنو بمقلةِ راقد[١٨٥]

ولكن القصائد التى تصوّر حالة الفزع الشديد من الموت لحظة الاحتضار ذات دلالة أقوى فيما نرى، وإذا كان الموت تحرراً فإننا لا نحصل عليه دون نضال[١٨٦]. يقول ابن زيدون:

حياةُ الورى نَهْجٌ إلى الموتِ مَهْيَعٌ لهم فيه إيضاعٌ كما يُوضِعُ السَّفْرُ
إذا الموتُ أضحى قصْرَ كلِّ مُعَمَّرٍ فإنّ سواءً طال أو قَصُرَ العمْر[١٨٧]

وبعضهم كان الموت يثير فيه الرعب والفزع، يقول عبد الحق الإشبيلى:

قالوا: صفِ الموتَ ياهذا وشدّتَهُ فقلت، وامتدَّ منّى عندها الصوتْ
يكفيكُمُ منه أنّ الناسَ إنْ وصفوا أمرًا يُروِّعهم قالوا هو الموت[١٨٨]

وفيما يرى أبو الفضل بن شرف، فإن سكرات الموت مفزعة، ولكنّها ليست بشئ إذا قسناها بالوحدة التى يتركنا فيها الأصدقاء:

---

(١٨٢) من الطويل، المطمح ٢٠٠، وعنه نقله نفح ٣٦٢/٣، والذخيرة ٣٢٩/١، والديوان ١٣٣. ويذكر ابن قزمان الأبيات ٨ - ١٢ من هذه القصيدة فى زجله رقم ٩٠ الدور ٦.

(١٨٣) انظر هذا الشاهد فى: الإحاطة ١٠٨/٢، ونفح ٣٩٨/١، و ١٨٩/٣، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٢٦٤، والحلة ٢٧٣/١، وغرسية غومث، ترجمة رسالة فضائل أهل الأندلس ٤٦.

(١٨٤) انظر مثلا، نفح ٣٤٠/٤، والقلائد ٢٦٩.

(١٨٥) من الطويل، نفح ١١٣/٤، وأبحاث ط ٣ جـ ١ ص ٢٩١، والديوان، القطعة ٢٧.

(١٨٦) ومع ذلك كتب ابن حزم رسالة يظهر فيها أن الموت ليس مؤلما فى حد ذاته، انظر: أسين بلاثيوس، مجلة الأندلس، المجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٢٠ - ٢٤.

(١٨٧) من الطويل، الديوان ٥٤٠، وكور، ابن زيدون ٩٠ - ٩١، وهنرى ماسيه، فى مجلة هيسبيريس، عام ١٩٢١، ص ١٩١.

(١٨٨) من البسيط، نفح ٣١٥/٤.

لعمرُكَ ما حَصَلْتُ على خطيرٍ من الدنيا ولا أدركتُ شيّا
وها أنا خارجٌ منها سليبًا أقلّبُ نادمًا كِلْتا يَدَيّا
وأبكى ثم أعلم أنّ مَبْكا يَ لا يُجدى فأمسحُ مقلتيّا
ولم أجزعْ لهولِ الموتِ لكنْ بكيتُ لقلّةِ الباكى عليّا[189]

وعاش أبو الفضل بن الأعلم الشنتمرى وفكرة الموت تلح عليه. وكانت اللحظة التى تفارق فيها الروحُ الجسدَ تبدو مؤلمة:

الموتُ يشغلُ ذِكرهُ عن كلِّ معلومٍ سواهْ
فاعمرْ له رَبْعَ ادّكا رِكَ بالعشيَّةِ والغداه
واكحلْ به طرْفَ اعتبا رِكَ طول أيّام الحياه
قبل ارتكاضِ النفس ما بين الترائبِ واللهاه[190]

إن الموت بمظاهره المتعدّدة يفرض على الإنسان فكرة أنه موجود فعلًا، ولقد رأينا بعض أمثلة له ونحن نتحدث عن الحب، وبعض الشعراء يتذكرون القرآن، فلا يتصورون الموت إلا ملاكًا يرسله الله إنذارًا بالآخرة[191]. وهم يسمونه «داعى الردى» أو «داعى الموت»[192]، يقول ابن خفاجة:

دعا بهمُ داعى الردى فكأنّما تبارت بهم خيْلٌ هُناك عِرابُ[193]

وفكرة الملاك تحمل فكرة الطائر الذى يحوم فى الجو، ثم فكرة الموت الجاثم. يقول ابن خفاجة:

وهل مُهجةُ الإنسانِ إلا طريدةٌ تحوم عليها للحِمام عُقابُ[194]

والموت فيما يرى ابن عبد الصمد موجود غير مرئى، لا نعرف الشكل الذى يمكن أن يأتى فيه، ولكنه يناديه، كما لو كان يطلب منه أن يفسّر له سرّ قوته: يقول فى رثائه للمعتمد:

يا موتُ لم تتركْ حنيفًا مسلمًا صعْبَ اللقاءِ على ذوى الألحادِ
يا موت لم تشفق لغربته ولم تَرَ ما تخلّفه من الأولاد
يا موت كيف رأيتَ صبر محمدٍ قبل احتلالك كان فى استعداد[195]

وفيما يرى ابن درّاج القسطلّى، فإن أيادى الموت جشعة، تريد أن تأخذ دائمًا:

هو الموتُ يصدعُ شَمْلَ الجميع ويكسو الربوعَ ثيابَ العفاءِ
ألم تر كيف استباحتْ يداه كريم الملوكِ وعِلْقَ النساءِ

---

(١٨٩) من الوافر. نفح ٢٢٩/٣.
(١٩٠) من الكامل. المطمح ٣٠٦. وعنه نقلها نفح ٣١/٤.
(١٩١) القرآن الكريم، سورة طه، الآية ١٠٨. وسورة القمر، الآية ٦ و ٧ و ٨. والداعى هو إسرافيل.
(١٩٢) انظر الحلة ١٥٨/١. وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ جـ ٢ ص ٣٧ والبيت لسعيد بن جودى.
(١٩٣) من الطويل. الديوان. القطعة ١٦٥. ص ٢١٨. ونفح ٥٣٩/١
(١٩٤) نفس المصدر الذى فى الهامش السابق. القطعة ١٦٥، ص ٢١٧.
(١٩٥) من الكامل. أعمال الأعلام ١٦٩ - ١٧٠.

هو الرزءُ ألوى بعزمِ القلوبِ ... مصابًا وأودَى بحسنِ العزاء[١٩٦]

وأخيرًا توصل شاعر إلى الموازنة العقرية التالية، إذ أخذنا فى الحسبان العصر الذى قيلت فيه. يقول أبو محمد عبد الوهاب المالقى:

الموتُ حصّادٌ بلا منحلٍ ... يسطو على القاطن والمجتلى
لا يقبل العذرَ على حالةٍ ... ما كان من مُشكلٍ أو مِنْ جلى[١٩٧]

إن أى شاعر أندلسي لا يستطيع أن يظهر بأفضل من هذه الأبيات، كيف يستطيع الخيال الخصب أن يصنع من واقع عادى، نلحظه فى حياة الحقل اليومية، صورة جذابة بالغة الروعة والجمال.

(١٩٦) انظر: بلاشير، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، وهى من بحر المتقارب، وفى: الثعالبى يتيمة الدهر ٤٤٣/١. والديوان ٩٩.

(١٩٧) من السريع، نفح ٣٢٨/٤.

خـــاتمـة

كان القرن الحادى عشر فيما يتصل بالشعر الإسبانى العصر الذى انتشر فيه إلى أبعد مدى، وحقّق جمالاً أعلى مراتبه، وقد جعلت منه الظروف السياسية شعر بلاط، وعاش فى رعاية الملوك للفنون الجميلة، ومع ذلك فإن موضوعات المديح التقليدية م تستطع أن تحول دون تناوله العديد من الملاحظات المأخوذة من الواقع. ومن ثم فهو لا يعكس بدقة كافية حياة الشاعر أو الأمير نفسه فحسب، وإنما يصوِّر أيضا مختلف طبقات المجتمع، وإذا لم يلق عليها ضوءا كافيا فقد أسهم فى تصوير كثير من جوانب وجود الإسبان المسلمين فى العصر الوسيط، وهو ما يضفى عليه قيمة توثيقية لا يمكن إنكارها.

لا تزال حياة الأندلسيين الاجتماعية والخاصة تبدو لنا مشبَعة بالتقاليد المشرقية، عربية وفارسية، فقد أمدت إيران دون شك الطبقات الحاكمة فى إسبانيا، ككل بقية العالم الإسلامى، بملامحها الحضارية، ولكن هذا البلد الغربى الذى أصبح مسلما ترك بدوره طابعه القوى على كل ما ورثه عن المشرق، إذ أن أغلبية سكانه من الإسبان، سواء من سكن منهم الريف أو المدن، لا بطرائقهم الزراعية وممارساتهم الفعلية، وتقنياتهم الحرفية، وإيقاع حفلاتهم فحسب، وإنما أيضا فى إبداعاتهم الشعرية واهتماماتهم الخلقية والثقافية.

إننا نستطيع فى الحقيقة من خلال ظواهر الشعر الأندلسى الأكثر تميزًا فى القرن الحادى عشر، وفى ضوء الموضوعات التى عالجها الشعراء من شتى الطبقات، أن نتعرف إلى حبهم العميق للطبيعة، وقد أضافوا إليه لونا من الحزن بالغ الخصوصية والمذاق.

مصدر حب الطبيعة عندهم، دون شك، أن معظم الشعراء أصولهم ريفية، ويعطى إبداعهم انطباعا بأن قصائدهم «رعوية» إلى مدى كبير، السماء فيها صافية أو مسحبة، والحقول والحدائق والزهور والمياه الهادئة أو الجارية تحتل المقام الأول، ونحن نجد الكثير من التصنع فى التعبير عن هذه المشاعر، وهو أمر يعود، دون شك، إلى أن مناهج التدريس تركت بصمات بالغة العمق فى حياة الشعراء، فلا يمكن رفضها جملة، على أن إحساسهم بالطبيعة لم يكن فى أية لحظة على أنها مجرّد زخرفة، وأن الأشجار والزهور فيها أوراق مرسومة. ونسخها كما هى لا يعنى استبعاد الانطباع الشخصى، ولا يصل أبدا إلى حد وأد الخيال الخصيب الذى يستخرج عصارته الأكثر غزارة من الواقع أو يحول دون أن يكون بالغ الدقة، والتقاليد الأدبية فيها تجارى نوعية الخيال نفسها، وثمة ضرورة حيوية تدفعها إلى أن تمنح الطبيعة المكان الأكثر اتساعًا.

يبلغ استلطاف الطبيعة عند بعض الشعراء درجة الحب الخالص، أو الاندماج الكامل، ولكن الجانب الأكبر لم يكن يرى فى الحقول والحدائق أكثر من الإطار الذى يضع لذائذه فى داخله، ولا يبحثون عن الطبيعة ليمجدوا إخفاقاتهم الغرامية أو ليهدهدوا من تمرّد قلب جريح أدمته مظالم الناس، وإنما لكى يجدوا فيها متعة حسية أو معنوية طبقا لمشاعرهم الداخلية.

ومشاهد الطبيعة التى تتفق أكثر من غيرها مع أمزجتهم فنانين ليست المعتمة أو المرعبة، وإنما تلك التى تسرّب الحب إلى أعماقهم، ويصبغونها بألوان من شعر الخمر واللهو، وليست لوحات دقيقة وإنما أقرب إلى أن تكون رسما مجملا، ولا كلمات صاخبة، وإنما إيقاع مبطّن بالحزن والألم. ولم يجد الصيف بأضوائه الساطعة مكانا فى أشعارهم، فهم يفضلون الربيع، ولكن التجديد الذى يبشر به هذا الفصل لا يثير أحاسيسهم أو مشاعرهم بقوة. إنهم شعراء الأصيل والليل والفجر، ولم يحدث أن تغنوا أبدا بمنتصف النهار الساطع. وإذا تخلوا لحظة عن حلاوة الحياة فلأنهم يحبون الهدوء والوحدة فيما يبدو، ويستطيعون حتى لو كانوا وسط رفاقهم فى الشراب أن يستغرقوا فى أنفسهم، وأن يواصلوا لحظاتهم يحلمون: الموسيقا والغناء والرقص ونظم الشعر، أو إنشاده إذا شئت، وكل ذلك يتلاقى مع انفصالهم عن الواقع حولهم. ويشعرون فى أعماقهم أن اللذة لن تكون أبدا خالصة، ويعتريهم قلق يفسد عليهم كل تلك الأعمال التى هى تكريم للحياة، وذلك نادر ما نلحظه عن المشارقة. ولقد جعلت الظروف السياسية أمر الثروات غير مستقر، وحياة البلاطات الصغيرة اللامعة تتناثر عبر الأندلس كله يمكن ألّا تكون غدا، وثمة شىء يوجد فى أعماقهم مثل شعور دفين غامض، يحول بينهم وبين التمتع الكامل ببهجة الوجود، وهذا الشىء ليس بالدقة تشاؤما ولا حزنا. ويمكن القول إذا فكرنا فى موقفهم المتواضع أمام المرأة بخاصة، وفى مفهوم الحب عندهم وهو خاص إلى حد بعيد، أنهم مسيحيون فى بعض الجوانب: فى إطراء الضعيف، واستثمار القيم الثقافية والخلقية، كما أن صفات الحلاوة والتواضع والحنان والتأمل والحلم حلّت مكان فضائل القوة والعمل، وهى المثل الأعلى فى المجتمع العربى فى الإسلام. وحاولوا أن يكونوا قمة فى الإنسانية، وطوّروا كل قدراتهم، وأفسحوا فى الوقت نفسه أرحب مكان للقلب، لا للفكر أو الإرادة.

هل يمكن الحديث حقا عن تأثير أصولهم البعيدة؟. ما قلناه عن جنس كان فى طور التكوين فى القرن الحادى عشر الميلادى، مع غلبة الدم الإيبرى الرومانى يسمح لنا أن نرى فى سكان الأندلس امتدادا للعنصر القديم غير المهاجر، دون أن نرفض فى تعميم بالغ العجلة فكرة الإضافات المشرقية الخاصة.

لم يحمل البربر معهم غير مفهوم عن الحياة بالكاد نلمس له أثرا، وكان عمليا ونفعيا، وأمّا تأثيرهم فى الشعر فلا شىء فيما يبدو. وعلى النقيض كان العنصر اليهودى المسيحى، ويمكن القول إنه ذو أهمية كبرى، ونجد طابعه قويا فى الاحتفاء العارض بمتع الحياة النابع من قلق يصطدم مع الموروث الشرقى الواضح ذى الأصل الوثنى. ويمكن أن ننسب للعنصر اليهودى دورا راجحا فى توجيه المشاعر، وإلى حد ما فى التعبير الأدبى، وإذا كان التشاؤم وهو عزيز على العنصر اليهودى لم يغزهم كلية فعلى الأقل لوّن قوى الروح بحب الجهد والبحث والواجب.

إن هذا الخلق المخيِّب للآمال، والذى يعرف مع ذلك كيف يلهو ويستمتع فى المناسبات تحقق فى إسبانيا الإسلام، طبقا لتعبير أنخل جانيبيت فى صورة «صبر طبيعى وإنسانى»، وليس ذلك إلّا امتدادًا لفكرة سنيكا، وهى سلتية إيبرية فى نوعها، ووجدت أجمل تشخيص لها، وأصفاه أيضا، فى ابن شهيد فى مطلع القرن الحادى عشر.

لكى نحيط بالواقع عن قرب، يمكن أن تقول، فيما اعتقد إن الإسبانى المسلم فى القرن الحادى عشر، قدّم لنا فى شعره مزاجا مثيرا خليطا من القديم والحديث، من الكلاسى والرومانسى، ومن الشهوانى والصوفى، والأول من هذه الميول يدين بها لثقافته، وهى عربية خالصة فى أعماقها. وأمام المشاهد التى تعرض له لم يستطع روحه الحسّاس أن يتخلص نهائيا لا من الفقرات التى يلمحها خلال شعر القدامى، أو من المشاعر المحسوسة من قراءة أعمال الخالدين فى الماضى. وتمارس الذاكرة عليه تأثيرا طاغيا فيتذكر ما قرأ حتى أمام المشاهد الجديدة وحتى تحت تأثير الانفعال الشخصى. والأندلسى الأكثر تحررا من التربية المدرسية لم يتحرر نهائيا من قيود فنى الشعر والبلاغة القديمين، ويبلغ التقليد فى بعضها حدا ظاهرا للغاية ويذهب بكل قيمة العمل. ولكنه استطاع فى الأغلب أن يوفق بنسب متساوية بين واقعه إنسانا حسّاسا وبلاغيا واسع الثقافة، وفى أحسن الأحوال تسود الفطرة، يضيئها فكر جسور.

أحيانا نجد عندهم غنائية مرتبكة، ولكنها أبدا ليست مختنقة بفن شعرى لا يناسب فيما يبدو التعبير عن مفاهيم تختلف عن تلك التى رأت النور لأول مرة فى الجزيرة العربية. وعرفوا فى روعة كيف يستفيدون من الصور والكلمات والأفكار التى تناسب أمزجتهم الشخصية وعصرهم والوسط الذى يعيشون فيه.

وحين نجد فى أشعارهم إشارات كثيرة إلى الجواهر الثمينة فليس ذلك لأنهم مثل المشارقة، يميلون فطريا إلى جوامد العالم الذى يحيط بهم، وإنما لأنهم يشعرون بحب لا يقهر للترف والثروة، أو لأنهم يمارسون استمتاعًا رقيقا وعميقا فى بيئة بالغة الروعة والجمال، وباختصار هم يرون هذه الأشياء الصناعية ضرورة لابد منها لحياتهم وحب الجواهر هذا ليس أدبيا خالصا فى العمق، وإنما يرتبط بالدقة بتقدم الحضارة فى هذا القرن الحادى عشر الذى يسمح باستخدام تماثيل من المرمر، ونحتها أحيانا، ونَقْش بفن عظيم على الأحجار والمعادن الكريمة والجواهر والعاج فى دقة وشفافية، ونَسج أنسجة رقيقة وفخيمة.

ولكنهم شعروا أمام تعقيدات الحياة المتزايدة – وهذا هو بالدقة ما يميزهم أكثر عن أسلافهم، مشارقة أو غربيين – بما دفع فى أفكارهم بمفاهيم جديدة: تشخيص القوى الطبيعية فى شعرهم، وهى الملاحظة الأكبر قوة والأعمق أصالة. وبتأثير عبقريتهم الخالقة بدت الأساطير وحب الموت والشباب والربيع والبهجة والألم كما لو كانت كائنات حية، وغريزيا أضفوا على الأشياء ثوبا إنسانيا، وجعلوا لها مشاعر، وحتى الذكريات يبعثونها من تصوير الماضى دقيقا ومكثفا. وفى هذه النقطة يفترقون عن الشعراء المشارقة، الذين يرون المشاعر التى انتابتهم عبر أيام خلت مجرد أفكار خالصة، أو موضوعا فلسفيا تجريديا.

وبعد كل الذى قلناه فإن قضية اللغة وسيلة تعبير لابد أن تفرض نفسها فى جانب لا يترك إثارة شىء من الدهشة بسبب غياب المنطق. حقّا لماذا بدا لكل الشعراء سواء كانوا من أصول مسيحية أو يهودية أو مشرقية، أن اللغة العربية هى الأكثر مناسبة للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وهى تختلف كثيرا، من وجهات نظر عديدة، عن المفاهيم المشرقية؟. لقد كانت الأمة الإسبانية فى طور التكوين فى

القرن الحادى عشر، وحين تمزج بين العناصر المختلفة فى شبه الجزيرة فإنما تستهدف التغريب كلية، ومع ذلك واصلت سيرها مشرقية باستخدام اللغة العربية لغة حضارة فى كل المجالات. ومع ذلك، فمن المعقول أن نفكر أنه مع تطور معنى طموحاتها العنصرية كان من الضرورى أن ترفض كل ما هو أجنبى عنها، وإذا لم ترفضه كلية تمثلته لكى تثرى به، وبهذه الطريقة يمكنها أن تنقذ، تحت أكثر من عنوان، ما يمكن أن نعتبره الظاهرة الأكثر حيوية فى وجودها وهو: اللغة.

ومن المؤكد أن العربية، وهى منذ اللحظة الأولى لغة حضارة، لم تجد فى إسبانيا لغة عليها أن تدخل فى صراع معها، إذ هى مركب إلى دين فرض نفسه فى الحال، ولغة إدارة تستلهم مفاهيم كتب مقدّس نزل فى اللغة العربية، وتأصلت فى البلد بهذه الطريقة، وكان من الصعب اجتثاثها حتى خلال قرون الاسترداد المسيحية. وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة ملحوظة لا يمكن أن نمر بها صامتين، حتى لو اعترفنا أن هذه اللغة لم تستطيع أن تقضى على اللغات واللهجات التى وجدتها لحظة وصولها إلى شبه الجزيرة الإيبرية، ولا القضاء نهائيا على التى أدخلت خلال قرون الفتح الأولى، ولا بد أن نعترف أن عالميتها واقع معجز: من جانب، بعد أن استقرت فى الأراضى الإسلامية انتشرت فى البلاد المسيحية التى على الحدود، والقصائد التى حملها الشعراء الجوّالون، وبخاصة الـيان المغنيات أسهمت فى انتشارها. وإذا لم تكن فى هذا الشكل – ودائما فيه شىء من الغموض – مفهومة تماما، ولا مُتَمَثَّلة كلية، فعلى الأقل مارست تأثيرا لاشك فيه، لأنها لكى تحقق غاياتها فتنة وإغراء أضافت إلى سحر الكلمات الموقعة فتنة الانسجام الموسيقى.

لكن الشعراء، ومن المهم أن نؤكد على ذلك، عبّروا فى لغة عربية، وأخذوا كثيرا من الكتّاب العرب المشارقة، ولم يقفوا عند حد نقل الصور والأفكار حرفيا، وأخذوها استعارة، وإنما على النقيض أعادوا تشكيلها مستجيبين لميولهم وأمزجتهم الداخلية، وعندما صنعوا هذا طبّقوا عليها النظرة الغربية. وإذا نظرنا إلى الشعر الأندلسى من هذه الزاوية، فإن دراسة التأثير الذى مارسته القصيدة الأندلسية فى القرن الحادى عشر على قصائد شعراء التروبا دور لن يكون مشكلة عبثية لا يمكن حلها. لقد حملت العلوم العربية التقنية إلى شبه جزيرة إيبريا، ولكن سبانيا أعطت العبقرية.

ماذا كان قدر القصيدة العربية التقليدية التى وصلت إلى القرن الحادى عشر منطوية على كثير من التفاؤل فى إمكان المعادلة بين المطامح الوطنية والعلوم المشرقية؟. بفضل تقسيم الدولة إلى إمارات صغيرة متعادية ازدهر الجنس الذى كان فى طور التكوين فى ظل نظام تمتع بحرية واسعة فى العقائد والعادات، وكل مطالب القلب والفكر. وتحت حكم المرابطين واصل الشعر سيره فى خصائصه المتنوعة نفسها طوال نصف قرن من الزمان، وعندما فقدت الأجيال الجديدة كل صلتها بنظام ملوك الطوائف حاولوا أن يعدوا فى أجل مناخ لا يفهمون عناصره الحقيقية. ولم يعد الشعراء حينئذ إلا مقلدين، وعندما كانوا يبذلون جهدهم – وعبثا يفعلون! – لكى يبعثوا الماضى من خلال ذكريات عصر عاداته أنيقة، وثقافته مصقولة، ويحنون إليها متألمين، أسهموا فى بعث شعاع هذا الجانب النوعى من الحضارة الأندلسية خارج إسبانيا.

كشّاف عام

● يتضمن الأعلام الواردة فى النص، بما فيها أبيات الشعر، وفى الهوامش إذا تضمن الهامش نصا أو حدثا أو معلومة فيها شىء منها، ولم يكن مجرد إشارة إلى مصدر، سواء كانت أسماء أشخاص أم قبائل أم بلاد وأمكنة، أم غيرها

● وهى مرتبة هجائيا دون اعتبار أداة التعريف «أل»، ولا «أبو» أو «ابن» أو «ابنة» أو «بنت» أو «بنو»، ويجىء الترتيب بحسب الحرف الوارد بعدها.

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ز)

(ش)

(ص)

(غ)

(ى)

المصادر والمراجع

نشر هنرى بيريس كتابه هذا لأول مرة عام ١٩٣٧، وفى عام ١٩٥٣ ظهرت طبعته الثانية، وبين الطبعة الأولى والثانية ظهر كثير من المصادر والمراجع المتصلة بموضوعه، لا فى العربية فحسب، وإنما فى اللغات الأجنبية أيضا، وطُبع بعض ما استخدمه مخطوطا، وقد أضاف بيريس، كما نفهم من مقدمته، كل ما ظهر إلى قائمة المصادر، لكنه لم يغير الإحالات التى فى الهوامش، بأسفل كل صفحة، وأبقاها إجمالا كما كانت عليه فى الطبعة الأولى.

وبعد عام ١٩٥٣ ظهرت أيضا أعمال أخرى عربية وأجنبية تتصل بالفترة التى درسها، وتستحق الإشارة إليها، على الأقل العربية منها.

وقد رأينا أن نبقى على قائمة مصادر المؤلف كما هى، وأن تنقلها فى حروفها اللاتينية، ولغاتها الأجنبية، وأن نفيد من تقدم وسائل التصوير والطباعة، تفاديا لأخطاء محتملة فى الجمع والطبع، ولحروف ذات هيئات مختلفة لا تتيسر لنا فى المطبعة العربية حتى الآن، أو لا تتوفر إلا بعد جهد ومشقة بالغين، وربما كان أشدها صعوبة كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية، حين يتطلب الأمر ذلك.

وقد رأيت من المفيد أن أضيف إلى ما أتى به المؤلف من مصادر ومراجع، الجديد الذى ظهر فى اللغة العربية، مما يتصل بالفترة التى درسها:

- ابن الأبار، الحلة السيراء، فى مجلدين، القاهرة، ١٩٦٣.
- الأعمى التطيلى، ديوانه، بيروت، ١٩٦٣.
- ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، نشرها إحسان عباس فى ٨ مجلدات، ١٩٧٩، ورغم المآخذ الكثيرة عليها، والأخطاء التى وقعت فيها فأنها سدت فراغا فى المكتبة الأندلسية، وأغنت عن العديد من مخطوطاتها المتناثرة فى مختلف مكتبات العالم، وكان اعتمادنا عليها.
- الثعالبى، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، والقسم الرابع منها خاص بالأندلس، وأفضل طبعاتها تلك التى نشرها محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٦.
- حازم القرطاجنى، المقصورة، تحقيق محمد مهدى علام، حولية كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٥٣ - ١٩٥٤.

– الديوان، تحقيق عثمان الكعاك بيروت، ١٩٦٤.

– منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.

- ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والآلاف، تحقيق الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥، وكان اعتمادنا فى الإحالات عليه.

– الأخلاق والسير فى مداواة النفوس، تحقيق الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

– جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢.

● ابن حمديس، الديوان، بيروت ١٩٦٠.

● ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد على شوابكة، بيروت، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.

● ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، فى أربعة أجزاء، القاهرة، ١٣٧٥ = ١٩٥٥ إلى ١٣٩٧ = ١٩٧٧، وكان اعتمادنا عليه.

– أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، نشره ليفى بروفنسال بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، بيروت ١٩٥٦. وكان اعتمادنا عليه.

● ابن خفاجة، الديوان، تحقيق سيد غازى، وهو مثال للعمل العلمى المنهجى الرفيع المستوى، فقد ضبط النص، وألحق به فهارس تحليلية شاملة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩، وكان اعتمادنا عليه.

● ابن دحية، المطرب فى أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الإبيارى، وحامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوى، القاهرة، ١٩٥٤، وكان اعتمادنا عليه.

● ابن درّاج الديوان، تحقيق محمود على مكى، دمشق ١٩٧٣، وكان اعتمادنا عليه.

● ابن الزقاق، الديوان، تحقيق عفيفة محمود ديرانى، بيروت، ١٩٦٤.

● ابن زيدون، الديوان، تحقيق وشرح على عبد العظيم، وهو تحقيق جيد، وعليه كان اعتمادنا، القاهرة ١٩٥٧.

● ابن سعيد، على بن موسى، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق عبد المتعال القاضى، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٧٣ م.

– المغرب فى حلى المغرب، تحقيق شوقى ضيف، فى مجلدين، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٥٥.

● ابن شهيد، الديوان، جمع وتحقيق يعقوب زكى، القاهرة، ١٩٦٥.

● عبد الواحد المراكشى، المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨ = ١٩٤٩، وكان اعتمادنا عليها، والطبعة الثانية ١٣٨٢ = ١٩٦٣.

● العماد الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقى، وعلى عبد العظيم، وهو الجزء الخاص بشعراء صقلية والمغرب والأندلس، فى ثلاثة أجزاء، القاهرة بلا تاريخ.

● ابن قزمان، الديوان، نشره فى حروف لاتينية، وترجمه، ودرسه، إميليو غرسية غومث، فى ٣ مجلدات، مدريد، ١٩٧٢.

– ونشره فى الحروف العربية، ودرسه عروضيا، فيدريكو كورينتى دى قرطبة، مدريد ١٩٨٠.

● المعتمد، الديوان، جمع وتحقيق أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥٥ م وكان اعتمادنا عليه.

● المَقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشره إحسان عباس، فى ٨ مجلدات، بيروت ١٣٨٨ = ١٩٦٨، ويتميز بفهارسه المختلفة عن الطبعات السابقة، وعليه كان اعتمادنا.

فى أحايين قليلة جدا كان يصعب علينا إلى درجة الاستحالة الوصول إلى المخطوطة، أولا نتوصل إلى النص نفسه فى هامش المؤلف، فى الطبعات التى بين أيدينا، فأبقيت على إشارة المؤلف إلى المصدر، فى الطبعة التى اعتمد عليها، وأشرت إلى ذلك. وبداهة فإن الكثير من المصادر العربية التى اعتمد عليها المؤلف كان اعتمادنا أيضا عليها نفسها، رغم ندرتها، لأنها لم تحقق، أو لم تنشر ثانية، ولم يحتج هذا الأمر إلى إشارة منا.

بقى أن أشير إلى أن المؤلف أتى، تبعا للطريقة الفرنسية، بقائمة المصادر فى أول الكتاب، وأتينا بها طبقا للتقاليد العربية فى آخره.

المترجم



BIBLIOGRAPHIE

Abbad. : Dozy, *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1846-1863, 3 vol.

— V. 'Imâd ad-Dîn al-Iṣfahânî.

'Abd al-Ḥaqq al-Bâdisî, *al-Maqṣad* (*Vie des saints du Rif*), trad. annotée par G. S. Colin (*Archives marocaines*, vol XXVI), Paris, 1926.

'Abd Allâh le Zîride, *Mémoires* : Texte arabe et trad. française avec une introduction et un glossaire par E. Lév.-Provençal, in *al-Andalus*, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344 ; Vol. IV, fasc. 1 (1936), pp. 29-145.

'Abd al-Wahhâb (Ḥ. Ḥ.), *Le développement de la musique arabe en Orient, Espagne et Tunisie*, in *Revue tunisienne*, t. 25 (1918), pp. 106-117.

— V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî.

'Abduh ad-Dimašqî (Muḥammad Munîr). V. 'Amr ibn Kulṯûm ; at-Tibrîzî.

Abdul-Wahab. V. 'Abd al-Wahhâb.

Abel (L.). V. Abû Miḥǧân.

al-Abšîhî, *al-Mustaṭraf fî kull fann mustaẓraf*, texte arabe, le Caire, 1330, 2 vol. ; trad. française par G. Rat, Paris-Toulon, 1902, 2 vol.

Abu-l-'Alâ' al-Ma'arrî : v. al-Ma'arrî.

Abû Bakr al-Mâlikî. V. al-Mâlikî.

Abû Dâûd al-Iṣfahânî, *Kitâb az-Zahra* (Première moitié), éd. par A. R. Nykl et Ibrâhîm Ṭûqân, Chicago, 1932.

Abu-l-Faraǧ al-Iṣbahânî, *Kitâb al-Aġânî*, Bûlâq, 1285, 20 vol ; éd. Sâsî, le Caire, 1322-1323, 21 vol. ; éd. de *Dâr al-kutub al-miṣriyya*, le Caire, 1345 = 1927 sq.

Abu-l-Fidâ', *al-Muḫtaṣar fî aḫbâr al-bašar*, le Caire, 1325, 4 vol.

— *Taqwîm al-buldân. Géographie*, texte arabe par Reinaud et de Slane, Paris, 1840 ; trad. française par Reinaud et St.-Guyard, 2 parties en 3 vol., Paris, 1848-1883.

Abû Ḥâmid al-Andalusî al-Ġarnâṭî, *Tuḥfat al-albâb wa-nuḫbat al-a'ǧâb*, éd. G. Ferrand, in *J. A.*, 1925, t. 207, pp. 1-304.

Abû Isḥâq de Elvira, *Dîwân*, éd. E. García Gómez, Madrid-Grenade, 1944.

Abû Miḥǧân aṯ-Ṯaqafî, *Dîwân*, éd. L. Abel, Leyde, 1887.

Abû Nuwâs, *Dîwân*, éd. I. Aṣâf, le Caire, 1898 . éd. Maḥmûd Kâmil Farîd, le Caire, 1351 = 1932.

Abu-l-Qâsim al-Garnâṭî, *Raf' al-ḥuǧub al-mastûra fî maḥâsin al-maqṣûra*, Commentaire de la Maqṣûra d'Ibn Ḥâzim al-Qarṭaǧannî, le Caire, 1344, 2 vol.

Abû Rahâb (Ḥassân), *al-Ġazal 'ind al-'Arab*, Le Caire, 1366 = 1947.

Abû Tammâm, *Dîwân*, éd. de Beyrouth, 1323 = 1905.

Abu-l-Walîd al-Ḥimyarî, *Al-Badî' fî waṣf ar-rabî'*, Ms. de l'Escurial, n° 353 ; éd. avec les voyelles essentielles et l'indication des folios du manuscrit, et précédé d'une Introduction en arabe et en français, par H. Pérès (Collection de Textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines. — Vol. IX), Rabat, 1940.

Adier (G. J.), *The poetry of the Arabs of Spain*, New-York, 1867.

Aḫbâr Maǧmû'a, publ., trad et ann. par E. Lafuente y Alcantara, Madrid, 1867.

Ahlwardt (W.), *The Divans of the Six ancient Arabic poets*, Londres, 1870 (en abrégé : Ahlwardt, *Six Divans*).

Alarcón. V. Ibn al-Abbâr et *Miscelanea*.

Alcocer Martinez (R.P. Dom R.), *La corporacion de los poetas en la España musulmana*, Madrid, 1940.

'Alî (Zâhid). V. Ibn Hâni'.

Allouche (I. S.), Compte rendu de la 1re éd. de *La Poésie andalouse*, dans *Hespéris* (Rabat), 1er trimestre 1939, pp. 105-108.

— V. *al-Ḥulal al-mawšiyya*.

Alonso (Amado), *Correspondencias arabigoespañolas*, in *R.F.E.*, VIII 1946, pp. 30-43 ; 57-60.

Alonso (Damaso), *Cancioncillas « De Amigo » mozarabes* (*Primavera temprana de la lirica europea*), in *R.F.E.*, XXXIII, 1949, pp. 297-349.

Altamira y Crevea, *Historia de España y de la civilización española*, 3e éd., Barcelone, 1913, 4 vol.

Amari (M.), *Questions philosophiques adressées aux savants musulmans par l'Empereur Frédéric II*, in *J. A.*, 5e série, t. I (1853), 240-274.

— V. *Bibliotheca arabo-sicula* ; *Centenario*.

Ambar (Mohamed Abd El Hamid), *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours*, Thèse inédite de l'Université de Paris, 1947.

L'Ame de l'Iran, par un Groupe d'écrivains, sous la direction de René Grousset, Louis Massignon et Henri Massé, Paris, 1951.

al-'Amilî (Bahâ' ad-Dîn), *Asrâr al-balâġa* (à la suite du *Kitâb al-Miḫlât* du même auteur), le Caire, 1317.

— *al-Kaškûl*, le Caire, 1329.

Amîn (Aḥmad), *Ḍuḥâ al-islâm*, le Caire, t. I, 1351 = 1933 ; t. II, 1353 = 1935 ; t. III, 1355 = 1936.

'Amr ibn Kulṯûm, *Mu'allaqa*, in at-Tibrîzî, *al-Qaṣâ'id al-'ašr*, éd. Muḥammad Munîr 'Abduh ad-Dimašqî, le Caire, 1343.

Anacréontiques, trad. M. Meunier, Paris, 1932.

Anal. ou *Analectes*, V. al-Maqqarî, *Nafḥ aṭ-ṭîb*, éd. de Leyde.

Anastase (le P.), art. in *al-Muqtabas*, I, 435.

Al-Andalus. V. 'Abd Allâh le Zîride ; Asin Palacios ; Ibn Ḥazm ; Lévi-Provençal ; Stern.

al-'Anîsî al-Ḥalabî al-Lubnânî (Ṭûbiyâ), *Tafsîr al-alfâẓ ad-daḫîla fî-l-luġat al-'arabiyya*, 2e éd. rev. par Yûsuf Tûmâ al-Bustânî, le Caire, 1932.

Annales de l'Institut d'Etudes Occitanes (Toulouse). V. Morère.

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. Faculté des Lettres de l'Université d'Alger. V. Bel ; Benhamouda ; Blachère ; Marçais (G.).

Annales du Musée Guimet. Bibliothèque d'études. V. Gaudefroy-Demombynes.

Anonyme. V. *Una crónica anónima*...

Antuña (Melchior M.), *La corte literaria de Alháquem II en Córdoba*, in *Religión y Cultura*, 1929.

— *Sevilla y sus monumentos árabes*, Escorial, 1930.

— V. Ibn Ḥaiyân.

Archives marocaines. V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bâdisî ; an-Nâṣirî as-Salâwî.

Archivum romanicum. V. Nykl.

'Arîb. V. Dozy, *Corrections*.

Arnold (Th.) et Guillaume (A.), *The Legacy of Islam*, Oxford, 1931.

Ars Islamica. V. Creswell.

al-A'šâ, *Dîwân*, éd. R. Geyer (*Gibb. Memorial, New Series*, vol. VI), Londres, 1928.

— *Mu'allaqa* (*Waddi' Hurairata*), in at-Tibrîzî, *al-Qaṣâ'id al-'ašr* et éd. Geyer, *Zwei Gedichte von al-A'šâ*, Vienne, 1905-1919.

Aṣâf (Iskandar). V. Abû Nuwâs.

Asin Palacios (M.), *Abenházam de Córdoba y su historia de las ideas religiosas*, Madrid, t. I-II, 1927-1928.

— *Abenmasarra y su escuela. Origenes de la filosofia hispano-musulmana*, Madrid, 1914.

— *Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazm*, in *Al-Andalus*, II, (1934), fasc. I, pp. 1-56.

— *La tesis de la necesidad de la revelación en el Islam y en la escolástica*, in *al-Andalus*, III, fasc. 2 (1935), pp. 345-389.

— *Obras escógidas*, Madrid, 1946-1948, 2 vol.

'Aṭiyya al-Lubnânî (Rašîd). V. al-Buḥturî.

Badâ'i' : Ibn Ẓâfir, *Badâ'i' al-badâ'ih*, Bûlâq, 1278.

B.A.F. (*Bibliothèque Arabe-Française*, Alger). V. al-Muqaddasî.

B.A.H. : *Bibliotheca arabico-hispana*. V. aḍ-Ḍabbî ; Ibn al-Abbâr ; Ibn Baškuwâl ; Ibn Ḫair.

al-Bakrî, *Description de l'Afrique septentrionale*, texte arabe par de Slane, 2e éd., Alger, 1911 ; trad. française par de Slane, revue par Fagnan, 2e éd., Alger, 1913.

Ballesteros y Beretta (A.), *Historia de España y su influencia en la historia universal*, Barcelone, 1918-1936, 8 tomes en 9 vol.

Ballot (M. J.). V. Salles.

Bammate (Haïdar), (Georges Rivoire), *Visages de l'Islam*, Lausanne-Paris, 1946.

Barbi (M.), V. Dante.

Barbier de Meynard, *Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes* (Extraits trad. de Yâqût, *Mu'ǧam al-buldân*), Paris, 1861.

— V. al-Mas'ûdî.

al-Barqûqî ('Abd ar-Raḥmân), *Ḥaḍârat al-'Arab fi-l-Andalus*, le Caire, 1341 = 1923.

— V. Ḥassân ibn Ṯâbit ; al-Mutanabbî.

Barrès (M.), *La musulmane courageuse*, in *Cahiers*, t. IV (1904-1906), pp. 224-267.

Barthélemy (Abbé), *Voyage du jeune Anacharsis en Grèce*, Paris, 1788.

al-Bârûdî, *Muḫtârât*, le Caire, 1327-1329, 4 vol.

B.A.S. (*Bibliothèque arabo-sicula*). V. Amari.

Basset (R.), *La Bordah du Cheikh El Bousiri* (*Bibliothèque orientale elzévirienne*, t. LXIX), Paris, 1894.

— *La littérature populaire berbère et arabe dans le Maghreb et chez les Maures d'Espagne*, in *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915, pp. 27-63.

— *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915.

— *Hercule et Mahomet*, in *Journal des Savants*, 1903.

Bataillon (Marcel), Compte rendu de la 1re éd. de *La poésie andalouse*, in *Bulletin Hispanique*, tome XLI (1939), pp. 187-191.

al-Batanûnî (Muḥammad Labib), *Riḥlat al-Andalus*, le Caire, 1927.

al-Bayân. V. Ibn ʿIḏârî.

B.E.A. (*Bulletin des Etudes Arabes*, Alger). V. Brunschvig ; Renaud ; Bencheneb (S.).

Beaumier. V. Ibn Abi Zarʿ.

Bel (A.), *Inscriptions arabes de Fès*, in *J. A.*, 1917-1919, tirage à part, Paris, 1919.

— *Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les Musulmans maghribins*, in *Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes*, Alger, 1905, pp. 49-98.

— *Le sûfisme en Occident musulman au XIIe et au XIIIe siècle de J. C.*, in *Annales de l'Institut d'études orientales... d'Alger*, I, 1934-1935, pp. 145-161.

— *La religion musulmane en Berbérie. Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse*, tome I (seul paru), Paris, 1938.

— V. Ibn al-Abbâr.

B.E.L.O.V. : *Bibliothèque de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. W. Marçais.

Ben Cheneb (Muḥammad). V. *aḏ-Ḏaḫîra as-saniyya* ; Ibn al-Abbâr.

Bencheneb (S.), *Sabaniya*, in *B.E.A.*, nº 21 (janv.-fév. 1945), pp. 6-7.

Benhamouda (A.), *Les noms arabes des étoiles (essai d'identification)*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, Tome IX (1951), pp. 76-210.

Bercher (Léon). V. Goldziher ; Ibn Ḥamdîs ; Ibn Ḥazm.

Bergua (José), *Psicologia del pueblo español*, Madrid, 1934.

Berr (H.), V. Réau (L.) et Cohen (G.).

Bertrand (Louis), *Histoire d'Espagne*, Paris, 1932.

B. G. A. : *Bibliotheca geographorum arabicorum*. V. Ibn Ḥawqal ; al-Muqaddasî ; al-Yaʿqûbî.

B. I. A. O. : *Bulletin de l'Institut d'archéologie orientale du Caire*. V. Zakî(A.).

Bibliotheca arabico-hispana (en abrégé : *B.A.H.*) V. Codera ; Aḍ-Ḍabbi ; Ibn al-Abbâr ; Ibn Baškuwal ; Ibn Ḫair.

Bibliotheca arabo-sicula (en abrégé : *B.A.S.*), par Michele Amari : textes arabes, Leipzig, 1857, 1 vol. ; traduction italienne, Turin-Milan, 1880-1881, 2 vol.

— V. Amari.

Bibliotheca Geographorum Arabicorum (en abrégé) : (*B.G.A.*). V. Ibn Ḥawqal ; Al-Muqaddasî ; Al-Ya'qûbî.

Bibliothèque Arabe-Française (en abrégé : *B.A.F.*). V. Al-Muqaddasî.

Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes. V. Šaraf ad-Dîn Râmî.

Bibliothèque des géographes arabes. V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî.

Bibliothèque orientale elzévirienne. V. Basset (R.) ; Sauvaire (H).

Bishr Farès. V. Fâris (Bišr).

Blachère (R.). *Le poète arabe al-Mutanabbî et l'Occident musulman*, in *R.E.I.*, année 1929, Cahier I, pp. 127-135.

— *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X^e siècle. Ṣâ'id de Baġdâd*, in *Hespéris*, t. X, 1930, pp. 15-36.

— *Un poète arabe du IV^e siècle de l'hégire (X^e siècle de J. C.) : Abou ṭ-Ṭayyib al-Motanabbî (Essai d'histoire littéraire)*, Paris, 1935. En abrégé : Blachère, *Abou ṭ Ṭayyib al-Motanabbî*.

— *La vie et l'œuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrâǧ al-Qasṭallî*, in *Hespéris*, t. XVI (1923), pp. 99-121.

— *Vue d'ensemble sur la poétique classique des Arabes*, in *R.E.S.*, 1938, I, 18 pages.

— *Les principaux thèmes de la poésie érotique au siècle des Umayyades de Damas*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, tome V, 1939-1941, pp. 82-128.

— *Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle de J.-C.*, tome I^{er}, Paris, 1952.

— *La vie et l'œuvre d'Abou ṭ-Ṭayyib al-Mutanabbî*, in *Al-Mutanabbî. Recueil publié à l'occasion de son Millénaire* (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1936, pp. 45-79.

— V. Ṣâ'id al-Andalusî ; al-Qur'ân.

Boileau, *Réflexions critiques sur quelques passages du rhéteur Longin* (*Œuvres complètes de Boileau*, éd. Garnier), Paris, 1870-1873.

Boissonnade (P.), *Du nouveau sur la chanson de Roland*, Paris, 1923.

Boletin de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba. V. Castejón ; García Gómez ; González Palencia.

Boletin de la real Academia española. V. Olivier Asín.

Brockelmann (Carl), *Geschichte der arabischen Litteratur*, Weimar-Berlin, 1898-1902, 2 vol. ; *Supplément*, Leiden, 1937-1938-1942, 3 vol. ; *Geschichte der arabischen Litteratur*, 2^e éd., Leiden, 1943-1949, 2 vol.

Brunot (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé* (*P.I.H.E.M.*, t. V), Paris, 1921.

— *Textes arabes de Rabat*, t. I, (*P.I.H.E.M.*, t. XX), Paris, 1931.

Brunschvig (Robert), *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle : 'Abd al-Basîṭ b. Ḫalîl et Adorne* (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales. . d'Alger. — Vol: VII), Paris, 1936.

— *La Berbérie orientale sous les Ḥafṣides des origines à la fin du XVe siècle* (Publications de l'institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol. VIII), Paris, 1940-1947, 2 vol.

— *Ibn Burt'ulo*, in *B.E.A.*, n° 22 (mars-avril 1945), pp. 59-60.

al-Buḫârî, *Ṣaḥîḥ*. *Les traditions islamiques*, trad. O. Houdas et W. Marçais (*P. E. L. O. V.*, 4e série, t. III-IV), Paris 1903-1914, 4 vol.

al-Buḥturî, *Dîwân*, éd. Rašîd 'Aṭiyya al-Lubnânî, Beyrouth, 1911.

Bulletin de l'Académie royale de Belgique. V. Cohen (G.).

Bulletin des Etudes Arabes (en abrégé : *B.E.A.*). V. Brunschvig ; Renaud.

Bulletin Hispanique. V. Bataillon.

Bulletin de l'Institut d'Archéologie Orientale du Caire (en abrégé :*B.I.A.O.*). V. Zaki (A.).

al-Bustânî (Buṭrus). V. Ibn Šuhaid.

al-Bustânî (Karam). V. Ibn Zaidûn.

al-Bustânî (Yûsuf Tûmâ). V. al-'Anîsî.

Byzantion. V. Marçais (G.).

Cahiers du Sud (*Les*). V. *Le Génie d'Oc*.

Le Calendrier de Cordoue de l'année 961, texte arabe et ancienne trad. latine publiés par R. Dozy, Leyde, 1873.

Campaner y Fuertes (A.), *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las Islas Baleares*, Palma, 1888.

Canard (Marius). V. aṣ-Ṣûlî.

Candolle (Alphonse de), *Origine des plantes cultivées*, Paris, 1883.

Carra de Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*, Paris, 1921-1926, 5 vol.

Casiri, *Bibliotheca arabico-hispana Escurialensis*, Madrid, 1760-1770, 2 vol.

Castejón (R.), *Córdoba califal*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII (1929), n° 25, pp. 255-339.

Castries (H. de), V. at-Tamgrûtî.

Caussin de Perceval, *Notices anecdotiques sur les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'islamisme*, in *J. A.*, 1873 (7e série, t. II), pp. 397-592.

Cavaignac (E.). V. Gaudefroy-Demombynes et Platonov.

Cenival (Pierre de), *La légende du juif Ibn Mech'al et la fête des Tolba à Fès*, in *Hespéris*, V. (1925), pp. 137-218.

Centenario della nascita de Michele Amari, Palerme, 1910, 2 vol. En abrégé : *Centenario de Amari*.

Chanson de Roland, 7e éd. par Léon Gautier, Paris, 1880.

Chateaubriand, *Le génie du christianisme*, éd. Garnier, Paris, 1859-1861 12 vol.

Cheikho (L.), *Poètes arabes chrétiens avant l'Islâm*, Beyrouth, 1890, 6 fasc.
— V. Ṣâ'id al-Andalusî.

Clément-Mullet, *Essai sur la minéralogie arabe*, in *J. A.*, 6e série, t. XI (1868), pp. 20-37.

Codera. V. *B.A.H.* ; aḍ-Ḍabbî ; Ibn al-Abbâr, Ibn Baškuwâl.

Cohen (Gustave), *Le problème des origines arabes de la poésie provençale médiévale*, in *Bulletin de l'Académie royale de Belgique* (*Classe des Lettres*), Bruxelles, 1946 (5e série, tome XXXII), pp. 266-278.
- V. Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.) ; Réau (L.).

Colección Labor. V. Ferrandis ; Gonzalez Palencia.

Colección de Manuales Hispania. V. Ribera.

Colin (G. S.), *Un document nouveau sur l'arabe dialectal d'Occident au XIIe siècle* (*'irâd al-luâl min inšâd aḍ-ḍawâl*, d'Ibn Ḫâtima), in *Hespéris*, XII (1931), pp. 1-32.
— *Quelques poètes arabes d'Occident au XIVe siècle* (d'après les *Masâlik al-abṣâr*, d'Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî, Ms. de la Bibliothèque Nationale de Paris, no 2327), in *Hespéris*, tome XII (1931), fasc. II, pp. 241-247.
— *Latin* SIGILLATUS *roman* SIGLATON *et* ESCARLAT, in *Romania*, t. LVI, no 222, avril 1930, pp. 178-190 ; no 223, juillet 1930, p. 418.
— *La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe*, in *Hespéris*, t. XIV, fasc. I (1932), pp. 22-60.
— *L'origine des norias à Fès*, in *Hespéris*, t. XVI, fasc 1-2 (1933), pp. 156-157.
— V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bâdisî ; an-Nâṣirî ; as-Saqaṭî.

Collection « Hespéris ». V. Di Giacomo.

Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines. V. Abu-l-Walîd al-Ḥimyarî ; Ibn al-Ḫaṭîb ; *al-Ḥulal al-mawšiyya* ; *Mafâḫir al-Barbar*.

Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane, V. Massignon.

El Conde Lucanor, de Don Juan Manuel, avec un prologue et des notes de F. J. Sanchez Canton (Biblioteca Calleja, Segunda Serie), Madrid, 1920.

Contreras (R.), *Etude descriptive des monuments arabes de Grenade, Séville et Cordoue, c'est-à-dire l'Alhambra, l'Alcazar et la Grande Mosquée d'Occident*, 4e éd., Madrid, 1889.

Corrections : Dozy, *Corrections sur les textes du Bayáno 'l-Mogrib d'Ibn-Adhârî (de Maroc), des fragments de la Chronique d'Arib (de Cordoue) et du Hollato's-Siyarâ d'Ibno-'l-Abbár*, Leyde, 1883.

Cour (A.), *La dynastie marocaine des Beni Waṭṭâs*, Constantine, 1920.

— *De l'opinion d'Ibn al-Ḫaṭîb sur les ouvrages d'Ibn Ḫâqân considérés comme source historique*, in *Mélanges René Basset*, Paris, t. II, 1925, pp. 17-32.

— *Un poète arabe d'Andalousie : Ibn Zaidoûn*, Constantine, 1920. En abrégé : Cour, *Ibn Zaidoûn*.

Creswell (K.A.C.), *The Lawfulness of Painting in Early Islam*, in *Ars Islamica* (University of Michigan), Vol. XI-XII (1946), pp. 159-166.

aḍ-Ḍabbî, *Buġyat al-multamis fî ta'rîḫ riǧâl al-Andalus* (*B. A. H.*, t. III), éd. Codera, Madrid, 1885.

aḏ-Ḏaḫîrat as-saniyya (*Le trésor magnifique*). *Chronique anonyme des Mérinides*, texte arabe publié par M. Ben Cheneb (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. LVII), Alger, 1339 = 1920-1921.

Ḍaif (A.), *Balâġat al-'Arab fi-l-Andalus*, le Caire, 1342 = 1924.

Dante, *Vita nuova*, éd. critique par Michele Barbi, Florence, 1932.

Defrémery. V. Ibn Baṭṭûṭa.

Dermenghem (Emile), *Les plus beaux textes arabes* [traduits en français], Paris, 1951.

Diehl (Ch.) et Marçais (G.), *Le monde oriental de* 395 *à* 1081 (*Histoire générale*, publiée sous la direction de G. Glotz. *Histoire du Moyen Age*, t. III), Paris, 1936.

Dierx (G.), *Die arabische Kultur in mittelalterischen Spanien*, Hambourg, 1887.

Di Giacomo (Louis) *Une poétesse grenadine du temps des Almohades : Ḥafṣa bint al-Ḥâjj* (Collection « Hespéris ». — No X), Paris, 1949.

ad-Dimašqî, *Nuḫbat ad-dahr fî 'aǧâ'ib al-barr wa-l-baḥr*, texte arabe par A. F. Mehren, Saint-Pétersbourg, 1866 ; trad. française par le même, *Manuel de la Cosmographie du Moyen Age*, Copenhague, 1874. En abrégé : ad-Dimašqî, *Cosmographie*.

Doutté (E.), *Merrâkech*, Paris, 1905.

Dozy (R.), *Catalogus codicum orientalium bibliothecae Academiae Lugduno-Batavae*, Leyde, 1851-1877, 6 vol.

— *Corrections*. V. *Corrections*.

— *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845. En abrégé : Dozy. *Vêtements*.

— *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711-1110), nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévi-Provençal, Leyde, 1932, 3 vol. En abrégé : *H. M. E*[2].

— *Lettre à M. Fleischer contenant des remarques critiques et explicatives sur le texte d'al-Makkari*, Leyde, 1871. En abrégé Dozy, *Lettre à Fleischere*

— *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1re éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2e éd., 1860, 2 vol. ; 3e éd., 1881, 2 vol. En abrégé : *Recherches*[1], *Recherches*[2], *Recherches*[3].

— *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1846-1853, 3 vol. En abrégé : *Abbad*.

— *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde-Paris, 2e éd., 1927. En abrégé : Dozy, *Suppl*.

— V. *Abbad*. ; *le Calendrier de Cordoue* ; Ibn al-Abbâr, *al-Ḥulla* ; Ibn Badrûn ; Ibn 'Iḏârî ; Ibn al-Idrîsî ; al-Marrâkûšî.

Dozy (R.) et Engelmann (W. H.), *Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, Leyde, 1869.

Dugat (G.), *Hodba, un poète arabe du Ier siècle de l'hégire*, in *J. A.*, 5e série, t. V (1855), 360-385.

— *Introduction aux Analectes* d'al-Maqqarî, t. I, Leyde, 1855.

— *Poésies arabes. Essai de traduction en vers français de maouals et autres pièces inédites*, in *J. A.*, 4e série, t. 16 (1850), 329-344.

Dupin (H.), *La courtoisie au Moyen Age*, Paris, 1931.

Dureau de la Malle, *Climatologie comparée de l'Italie et de l'Andalousi anciennes et modernes*, Paris, 1849.

Ecker (L.), *Arabischer, provenzalischer und deutscher Minnesang*, Berne et Leipzig, 1934.

Eguilaz y Yanguas (L.), *Origen de las ciudades Garnata é Illiberri y de la Alhambra*, in *Homenaje a Codera*, pp. 333-338.

Eguilaz y Yanguas (L.), *Poesia histórica, lírica y descriptiva de los Arabes andaluces*, Madrid, 1864.

Ehrenpreis (M.). *Le pays entre Orient et Occident*, Paris, 1930.

Elisséeff (Nikita), *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits. Essai de classification*, Beyrouth, 1949.

Encyclopédie de l'Islâm, Leyde-Paris, 1908-1934, 1934-1938, 4 vol. et 1 suppl.

Estudios dedicados a Ramon Menéndez Pidal. V. Lévi-Provençal.

Evans (Joan). V. Roques (M.).

L'Evolution de l'Humanité. V. Berr (H.) ; Réau (L.) et Cohen (G.).

Exploration scientifique de l'Algérie. V. Ibn Abî Dînâr.

Fagnan (E.), *Extraits inédits relatifs au Maghreb (Géographie et Histoire)*, Alger, 1924.

— *Le signe distinctif des Juifs au Maghreb*, in *Revue des Etudes juives*, t. 28 (1894), pp. 294-298.

— V. al-Bakrî ; Ḫalîl ; Ibn al-Aṯîr ; Ibn ʿIḏârî ; *al-Istibṣâr* ; al-Marrâkušî ; Ibn Faḍl Allâh al-ʿUmarî.

al-Farazdaq, *Diwân*, éd. Boucher, Paris, 1870-1875, 4 tomes.

Farès (Bishr). V. Fâris (Bišr).

Farîd (Maḥmûd Kâmil). V. Abû Nuwâs.

Fâris (Bišr), *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Etudes de sociologie*, Paris, 1932.

— Compte rendu de la 1re éd. de la *Poésie andalouse*, in *al-Muqtaṭaf* (Le Caire), mai 1938, pp. 596-7.

Fatḥ Allâh (Ḥamza), *al-Mawâhib al-fatḥiyya fî ʿulûm al-luġat al-ʿarabiyya* le Caire, 1313-1326, 2 vol.

al-Fath ibn Ḫâqân, *Qalâʾid al-ʿiqyân*, Bûlâq, 1283 ; Marseille-Paris, 1277 = 1860. Nous citons de préférence l'éd. de Bûlâq, plus complète que celle de Marseille-Paris. En abrégé : *Qal.* ou *Qalâʾid*.

— *Maṭmaḥ al-anfus wa-masraḥ al-taʾannus fî mulaḥ ahl al-Andalus*, Constantinople, 1302. En abrégé : *Maṭmaḥ*.

Fawwâz (Zainab), *ad-Durr al-manṯûr fî ṭabaqât rabbât al-ḫudûr*, Bûlâq, 1312.

al-Fayyûmî, *al-Miṣbâḥ al-munîr*, Le Caire, 6e éd., 1925.

Fernández y Gonzalez (F.) *La influencia de las lenguas y literaturas orientales en la nuestra* (Discours à l'Académie espagnole), Madrid, 1894.

— V. Menéndez y Pelayo.

Ferrand (G.), V. Abû Ḥâmid ; Ibn Faḍl Allâh al-ʿUmarî.

Ferrandis (J.), *Marfiles y azabaches españoles* (*Colección Labor*, nos 159-160), Barcelone-Buenos-Aires, 1928.

al-Fîrûzâbâdî, *al-Qâmûs al-muḥîṭ*, le Caire, 1330, 4 vol.

Fouillée (A.), *Esquisse psychologique des peuples européens*, Paris, 1903.

Freytag, *Arabum proverbia*, Bonn-s-Rhin, 1838, 3 vol.

Funck-Brentano (F.), *La Renaissance*, Paris, 1935.

Gabrieli (Francesco), *Storia e civiltà musulmana*, Naples, 1947.

— *Ibn Hamdîs*, Mazara, 1948.

— *Arabi di Sicilia e Arabi di Spagna*, in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 27-46.
— *Studi di Storia Musulmana*. 1940-1950, in *Rivista Storica Italiana*, Naples, 1950.
— *Sicilia e Spagna nella vita e nella poesia di Ibn Hamdîs*, in *Miscellanea G. Galbiati*, Milan, 1951.
— V. Ibn 'Abdûn ; Ibn Ḥazm.

al-Ǧâḥiẓ, *al-Bayân wa-t-tabyîn*, éd. as-Sandûbî, le Caire, 1345 = 1927, 3 vol.
— *Kitâb al-Buḫalâ'*, éd. Van Vloten, Leyde, 1900.
— al-Buḫalâ', éd. critique annotée par Ṭâhâ al-Ḥâǧirî, Le Caire, 1948.
— *Le Livre des Avares*, trad. française avec une introduction et des notes par Charles Pellat (Islam d'Hier et d'Ajourd'hui. — Vol. X), Paris, 1951.
— *Maǧmû' ar-rasâ'il*, le Caire, 1324 ; éd. Van Vloten, *Tria opuscula*, Leyde, 1903, éd. as-Sandûbî, *Rasâ'il*, le Caire, 1352 = 1933.

García Gómez (E.), *Bagdâd y los reinos de Taifas*, in *Revista de Occidente*, t. 127, janvier 1934, pp. 1-22.
— *Elogio del islam español* (trad. espagnole de l'arabe. V. aš-Šaqundî) *Publicaciones de las escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Série B, n° 2), Madrid-Grenade, 1934.

— *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2e éd., Madrid, 1940.
— *Poetas musulmanes cordobeses*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII, n° 25 (1929), pp. 145-176.
— *Una obra importante sobre la poesía arabigoandaluza*, C. R. de *La Poésie andalouse*, 1re éd., in *al-Andalus*, Vol. IV (1939), fasc. 2, pp. 233-316.
— *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2e éd., 1940 ; 3e éd., 1943
— *Qasîdas de Andalucía, puestas en verso castellano*, Madrid, 1940.
— *Cinco poetas musulmanes. Biografías y estudios*, Madrid, 1944.
— *Nuevos testimonios sobre « el odio a Sevilla » de los poetas musulmanes*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. I, pp. 143-148.
— *La poésie politique sous le Califat de Cordoue*, in *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1949, pp. 5-11.
— *Nuevas observaciones sobre las « Jaryas » romances en muwaššaḥas hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 157-177.
— *Mas sobre las « jaryas » romances en « muwaššaḥas » hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. 2, pp. 409-417.

— *Quelques aspects esthétiques de la poésie arabe*, in *Conférences du Lundi-Université de Bordeaux*, Bordeaux, 1940, 12 pages.

— *Poesia arábigoandaluza. Breve sintesis historica*, Madrid, 1952.

— *Introduccion a la traduccion del Libro El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Amantes, de Ibn Hazm de Cordoba*, Madrid, 1952, pp. 1-62.

— V. *Una cronica* ; Ibn Ḥazm ; Ibn Sa'îd ; E. Lévi-Provençal et Oliver Asin.

Gaspar Remiro (M.), *Presentimiento y juicio de los Moros españoles sobre la caida imminente de Granada y su reino en poder de los Cristianos*, in *Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino*, année 1911, t. I, fasc. 3, pp. 149-153.

— V. an-Nuwairî.

Gaudefroy-Demombynes. *Une lettre de Saladin au calife almohade*, in *Mélanges René Basset*, t. II, Paris, 1925, pp. 279-304.

— *Le pèlerinage à la Mekke. Etude d'histoire religieuse* (*Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'études*, t. 33), Paris, 1923.

— *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes*, Paris, 1923.

— *Sur le cheval-jupon et el-kurraj*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, pp. 155-160.

— V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umârî ; Ibn Jobair ; Ibn Qutaiba ; *Mélanges William Marçais.*

Gaudefroy-Demombynes et Platonov, *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades* (*Histoire du monde* publiée sous la direction de E. Cavaignac, t. VII[1]), Paris, 1931.

Gauthier (Léon), *La racine arabe « ḥakama » et ses dérivés*, in *Homenaje a Codera*, Zaragoza, 1904 pp. 435-454.

— *Introduction à l'étude de la philosophie musulmane. L'esprit sémitique et l'esprit aryen. La philosophie grecque et la religion de l'Islam* (Collection de la Revue de Monde Musulman), Paris, 1923.

— *Ibn Rochd* (*Averroès*) (Collection « Les Grands Philosophes »), Paris, 1948.

— V. Ibn Ṭufail.

Gautier (E. F.), *L'islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927 ; 2e éd. : *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs*, Paris, 1937.

— *Mœurs et coutumes des Musulmans*, Paris, 1931.

Gautier (Léon). V. *Chanson de Roland.*

Gayangos (P. de), *The History of the Mohamedan Dynasties in Spain*, Londres, 1840-1843, 2 vol. (trad. des passages historiques d'al-Maqqarî, *Nafḥ aṭ-ṭîb*).

— V. Ibn al-Qûṭiyya.

al-Ġazzâl, *Natîğat al-iğtihâd fi-l-muhâdana wa-l-ğihâd*, ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger, n° 1738 ; éd. A. Bustânî, Larache, 1941.

Le Génie d'Oc et l'Homme méditerranéen. Etudes et Poèmes, Marseille, Les Cahiers du Sud, 4e éd., 1944.

Geyer (R.). V. al-A'šâ.

Ghali (Wacyf Boutros). V. Wacyf Boutros Ghali.

Gibb Memorial. New Series. V. al-A'šâ ; Yâqût.

Gil (P.), Ribera (J.), Sanchez (M.), *Colección de textos aljamiados*, Saragosse, 1888.

Glotz (Gustave). V. Diehl et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).

de Goeje, *Glossaire de la Riḥla* d'Ibn Ğubair, Leyde, 1907.

— V. Ibn Ğubair ; Ibn Qutaiba ; al-Idrîsî ; al-Muqaddasî ; Muslim ibn al-Walîd ; aṭ-Ṭabarî.

Goldziher (I.). *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889-1890, 2 vol.

— *Die Su'ûbijja unter den Muhammedanern in Spanien*, in *Z.D.M.G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-618 : Fragments de la *Risâla* d'Ibn Ġarsiya.

— *Etudes sur la Tradition Islamique*, extraites du Tome II des *Muhammedanische Studien*, traduites par Léon Bercher, Paris, 1952.

Gómez Móreno (M.), *Iglesias mozárabes. Arte español de los siglos IX a XI*, Madrid, 1919, 2 vol.

González Palencia (A.), *El amor platónico en la corte de los Califas* (*Boletin de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Cordoba*, année 1929, pp. 1-25, Cordoue, 1929.

— *Historia de la España musulmana* (*Colección Labor*, n° 69), Barcelone-Buenos-Aires, 3e éd., 1932.

— *Historia de la literatura arábigo-española* (*Colección Labor*, nos 164-165), Barcelone-Buenos-Aires, 2e éd., 1945.

— *El Islam y Occidente*, Madrid, 1931.

— *Los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII*, Madrid, 1926-1930, 4 vol.

— *Moros y cristianos*, Madrid, 1945.

— V. Ibn al-Abbâr ; *Miscelanea*.

Gonzalvo (L.), *Avance para un estudio de las poetisas musulmanas de España*,

in *Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos*, Madrid, 1905, Nos 8, 9-10, 11-12. En abrégé : *Poetisas musulmanas*.

Graetz (H.), *Les Juifs d'Espagne (945-1205)*, trad. G. Stenne, Paris, 1872.

Grousset (R.). V. *L'âme de l'Iran*.

Guillaume (A.). V. Arnold (Th).

Guinard (P.). V. Petit-Dutaillis.

Gunzburg (David de). V. Ibn Quzmân.

al-Ǧurǧânî (Abu-l-ʿAbbâs), *al-Muntaḫab min kināyât al-udabâ' wa-išârât al-bulaġâ'*, le Caire, 1326 = 1908.

Guyard (St.). V. Abu-l-Fidâ'.

al-Ġuzûlî, *Maṭâliʿ al-budûr fî manâzil as-surûr*, Bûlâq, 1299, 2 vol.

al-Ḫafâǧî, *Šifâ' al-ġalîl fîmâ fî kalâm al-ʿArab min ad-daḫîl*, le Caire, 1325.

Ḫalîfa (ʿAbd ar-Raḥmân). V. Ibn Zaidûn.

Ḫalîl (Sayyidî), *Mariage et répudiation*, trad. Fagnan, Alger, 1909.

Hartmann (M.), *Das arabische Strophengedicht. I. Das Muwaššaḥ*, Weimar, 1897.

Ḥassân ibn Ṯâbit, *Dîwân*, éd. al-Barqûqî, le Caire, 1347 = 1929.

al-Ḥâtimî, *ar-Risâlat al-ḥâtimiyya*, in *at-Tuḥfat al-bahiyya*, Constantinople, 1302 ; éd. O. Rescher, in *Islamica*, II (1926), fasc. 3, p. 439 sq.; éd. F. E. al-Bustânî, Beyrouth, 1931.

Hautecœur (L.). V. Wiet.

al-Ḫawârizmî. V. al-Ḫuwârazmî.

Al-Ḥâzimî, *Kitâb al-Faiṣal*, extraits dans al-Maqqarî, *Analectes*, et Yâqût, *Muʿǧam al-buldân*.

Hell (J.), *al-ʿAbbâs ibn al-Aḥnaf*, in *Islamica*, t. II (1926), pp. 271-307.

Hespéris. V. Blachère ; Cenival (P. de) ; Colin (G. S.) ; Di Giacomo ; Lévi-Provençal ; Luya ; Marçais (G.) ; Massé ; Pérès.

al-Ḥiǧârî, *al-Mushib fî aḫbâr al-Maġrib*, Extraits in *Analectes*.

al-Hilâl. V. Zakî (A.).

Histoire Générale (publiée sous la direction de G. Glotz). V. Diehl (Ch.) et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).

Histoire du Monde (publiée sous la direction de E. Cavaignac). V. Gaudefroy Demombynes et Platonov.

H. M. E.[2] V. Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*.

Homenaje a D. Francisco Codera, Saragosse, 1904. En abrégé : *Homenaje a Codera*.

Homenaje a Codera. V. Eguilaz y Yanguas ; Gauthier (L.) ; Zakî (A.).

Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal, Madrid, 1925, 3 vol. V. Tallgren.

Hoogwliet (M.), *Specimem e litteris orientalibus, exhibens diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia et de Ibn Abduno poeta...*, Leyde, 1839.

Huart (Cl.). V. Šaraf ad-Dîn Râmi.

al-Ḥulal al-mawšiyya fî ḏikr al-aḫbar al-marrâkušiyya, éd. de Tunis, 1329 ; éd. Allouche (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol VI), Rabat, 1936.

al-Ḥulla. V. Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*.

Humbert (J.), *Anthologie arabe*, Paris, 1819.

Ḥusain (Ṭâhâ), *Fi-l-adab al-ǧâhilî*, Le Caire, 1345-1927 ; 4e éd., 1947.

— *Ḥadîṯ al-arbi'â'*, Le Caire, 1937-1945, 3 vol.

al-Ḫušanî, *Historia de los Jueces de Cordoba*, texte arabe et trad. esp. par J. Ribera, Madrid, 1914. En abrégé : al-Ḫušanî, *Jueces*,

al-Ḥuṣrî (Abu-l-Ḥasan), *Yâ laila-ṣ-Ṣabb !*, éd. Muḥyî ad-Dîn Riḍâ, le Caire, 1343 = 1924.

al-Ḥuṣrî (Abû Isḥâq), *Zahr al-âdâb wa-ṯamar al-albâb*, éd. Zakî Mubârak, le Caire, 1344 = 1925, 4 vol.

Al-Ḫuwârazmî, *Mafâtîḥ al-'ulûm*, éd. G. Van Vloten, Leyde, 1895 ; éd. du Caire, 1342.

Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*, Extraits :
in Dozy, *Notices*, pp. 30-260 ;
in Dozy, *Abbad.*, II, 46-123 ;
in Dozy, *Recherches*[1], passim ; *Recherches*[3], passim ;
in Dozy, *Corrections*, pp. 81, 98-105, 112-123 ;
in M. J. Müller, *Beiträge*, pp. 161-360 ;
in Amari, *Bibliotheca arabo-sicula*, pp. 327-332.

— *I'tâb al-kuttâb*, ms. de l'Escurial, no 1731 ; ms. de Rabat, no 409 ; ms. de Londres (British Museum), no 6641.

— *al-Takmila li-kitâb aṣ-Ṣila*. Extraits publiés :
par Codera, in *B. A. H.*, tomes V-VI, Madrid, 1887-1890 ;
par Alarcón et González Palencia, in *Miscelanea*, Madrid, 1915 ;
par Bel et Ben Cheneb, Alger, 1920.

Iqtiḍâb Tuḥfat al-qâdim, texte arabe publié par Alfredo Boustany, dans *Al-Machriq*, 1947, juillet-septembre, pp. 351-400 ; octobre-décembre, pp. 543-585.

Ibn 'Abd al-Barr, *Muḫtaçar ǧâmi' bayân al-'ilm*, le Caire, 1320.

Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarî, *ar-Rawḍ al-mi'ṭâr fî ḫabar al-akṭâr* : *La*

Péninsule ibérique au Moyen Age, texte arabe et traduction française annotée, par E. Lévi-Provençal, Leiden, 1938.

Ibn 'Abd Rabbih al-Andalusî, *al-'Iqd al-farîd*, Bûlâq, 1293, 3 vol. ; éd. critique par A. Amin, A. az-Zîn et I. al-Abyârî, Le Caire, 1357-1369= 1938-1950, 6 vol.

Ibn 'Abdûn, *Traité de Ḥisba : Un document sur la vie urbaine et les corps de métier à Séville au début du XII^e siècle*, publié avec une introduction et un glossaire par E. Lévi-Provençal, in *J. A.*, avril-juin 1934, pp. 177-299.

— trad. française avec une Introduction et des Notes par E. Lévi-Provençal, sous le titre : *Séville musulmane au début du XII^e siècle : Le Traité d'Ibn 'Abdûn* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. Vol. II), Paris, 1947.

— trad. italienne annotée par F. Gabrieli, sous le titre : *Il trattato censorio di Ibn 'Abdûn sul buon governo di Siviglia*, in *Rendiconti della R. Academia nazionale dei Lincei, Classe di Scienze morali, storiche e filologiche*, Serie Sesta, Vol. XI, fasc. 11-12, nov.-dic. 1935, pp. 878-935.

— V. Ibn Badrûn.

Ibn Abî 'Awn, *Kitâb al-Tašbîhât*, éd. annotée par M. Abdul Mu'id Khan (*Gibb Memorial-N.S.* — Vol. 17), Londres, 1950.

Ibn Abî Dînâr, *Kitâb al-mu'nis fî aḫbâr Ifriqiya wa-Tûnis*, 2^e éd., Tunis, 1350 ; trad. franç. par Pellissier et Rémusat (*Exploration scientifique de l'Algérie*, t. VI), Paris, 1845.

Ibn Abî Ḥağala. *Kitâb sukkardân as-Sulṭân*, en marge d'al-'Amilî, *Asrâr al-balâġa*, à la suite d'al-Amilî, *Kitâb al-miḫlâṭ*, le Caire, 1317.

Ibn Abî Zar', *Rawḍ al-Qirṭâs*, texte arabe et trad. latine par Tornberg, Upsal, 1843-1846, 2 vol. ; trad. Beaumier, Paris, 1860. En abrégé : *al-Qirṭâs*.

Ibn 'Adhârî (pour Ibn 'Iḏârî). V. *Corrections* de Dozy ; Ibn 'Iḏârî.

Ibn al-'Arabî, *Muḥâḍarât al-abrâr wa-musâmarât al-aḫyâr fi-l-adabiyyât wa-n-nawâdir wa-l-aḫbâr*, le Caire, 1324-1325, 2 vol.

Ibn al-Aṯîr, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, trad. Fagnan, Alger, 1901.

— *al-Kâmil fi-t-ta'rîḫ* : *Chronicon*, éd. par Tornberg, Leyde et Upsal, 1850-1874, 12 vol.

Ibn Badrûn, *Šarḥ Qaṣîdat Ibn 'Abdûn : Commentaire historique du poème d'Ibn 'Abdoûn*, éd. par Dozy, Leyde, 1846.

Ibn al-Baiṭâr, *Ğâmi' mufradât al-adwiya wa-l-aġḏiya : Traité des Simples*,

trad. par Lucien Leclerc, in *Notices et Extraits*, t. XXIII, XXV et XXVI, Paris, 1877-1883.

Ibn Baškuwâl, *aṣ-Ṣila*, éd. par Codera (*B. A. H.*, t. I-II), Madrid, 1882-1883.

Ibn Bassâm, *ad-Ḏaḫîra fî maḥâsin ahl al-ǧazîra* ;

T. I : ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, nº 3321 ;

— : ms. de la Bibliothèque du Protectorat de Rabat (non inventorie) ;

— : ms. de M. Lévi-Provençal ;

T. II : ms. d'Oxford ; Extraits in *Abbad*, I, 189-379 ;

— : ms. d'Oxford : copie à la Bibliothèque nationale de Paris, nº 322; ms. de Tunis, Mosquée Zaitûna.

T. III : ms. de Gotha ;

— ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

T. IV : ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

Extraits des quatre tomes dans un ms. de M. Lévi-Provençal.

— éd. du Caire, en cours de publication, sous la direction de 'Abd al-Ḥamîd al-'Ibâdî, 'Abd al-Wahhâb 'Azzâm, Ṭâhâ Ḥusain et E. Lévi-Provençal, Vol. I, tome 1, 1358 = 1939 ; Vol. I, tome 2, 1361 = 1942 ; Vol. IV, tome 1, 1364 = 1945.

Ibn Baṭṭûṭa, *Riḥla* : *Voyages*, texte arabe et trad. française par Ch. Defrémery et Dr. B. R. Sanguinetti, Paris, 1853-1859, 5 vol.

Ibn Diḥya, *al-Muṭrib fî aš'âr ahl al-Maġrib*, ms du British Museum, nº 1631.

Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî, *Masâlik al-abṣâr* : *t. I, l'Afrique, moins l'Egypte*, trad. annotée par Gaudefroy-Demombynes (*Bibliothèque des Géographes arabes*, publiée sous la direction de G. Ferrand, t. II), Paris, 1927 ;

— *Masâlik al-abṣâr* : Analyse par A. Zakî, in *Homenaje a Codera*, pp. 465-473.

— *Extrait* : *Waṣf Ifrîqiya wa-l-Andalus*, par Ḥ. Ḥ. 'Abd al-Wahhâb, Tunis, s. d.

— *Extraits*, trad. par Fagnan, in *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, pp. 69-120.

— V. Colin (G. S.).

Ibn Ġarsiya, *ar-Risâla aš-šu'ûbiyya*, extraits par I. Goldziher, in *Z.D.M.G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-617.

Ibn Ġâlib, *Farḥat al-Anfus*, extraits in *Analectes*.

Ibn Ǧubair, *Riḥla* : *Travels*, ed. de Goeje, Leyde, 1907.

V Ibn Jobair.

Ibn Guzmân. V. Ibn Quzmân.

Ibn Ḫafâğa, *Dîwân*, le Caire, 1286, t. I (seul paru).

— *Šiʿr*, éd. voyellée et annotée, par Karam al-Bustânî, Beyrouth, 1951 (mêmes poèmes que l'éd. du Caire, 1286).

— *Dîwân*, texte complet, ms. personnel.

Ibn Ḫair (Abû Bakr), *Fahrasat mâ rawâh 'an šuyûḫih min ad-dawâwîn al-muṣannafa fî ḍurûb al-ʿilm wa-anwâʿ al-maʿârif : Index librorum de diversis scientiarum ordinibus quos a magistris didicit*, éd. par J. Ribera Tarrago (*B. A. H.*, t. IX-X), Saragosse, 1894-1895. — En abrégé : Ibn Ḫair, *Index*.

Ibn Ḥaiyân, *al-Muqtabis*. Tome Troisième. *Chronique du règne du Calife umaiyade 'Abd Allâh à Cordoue*, texte arabe, éd. par le P. Melchor M. Antuña, Paris, 1937.

Ibn Ḫaldûn, *Kitâb al-ʿIbar wa-dîwân al-mubtada' wa-l-ḫabar fî ayyâm al-ʿArab wa-l-ʿAğam wa-l-Barbar wa-man ʿâṣarahum min ḏawî as-sulṭân al-akbar*, Bûlâq, 1284, 7 vol. En abrégé : Ibn Ḫaldûn, *Kitâb al-ʿIbar*.

— *Histoire des Berbères* (Extraits du *Kitâb al-ʿIbar*), texte arabe par de Slane, Paris, 1847-1851, 2 vol. ; trad. française par de Slane, Paris, 1852-1856, 4 vol. ; 2e éd. en cours de publication, Paris, 1925 sq. (3 vol. parus).

— *al-Muqaddima : les Prolégomènes*, texte arabe par Quatremère (in *Notices et Extraits*, vol. 16-17-18), Paris, 1858-1868 ; ed. de Beyrouth, 3e éd., 1900 ; du Caire, s. d. ; trad. française par de Slane (in *Notices et Extraits*, vol. 19-20-21), Paris, 1862-1868.

— *at-Taʿrîf wa'r-Riḥla ġarbᵃⁿ wa-šarqᵃⁿ*, éd. critique par Muḥammad ibn Tâwit aṭ-Ṭanğî. Le Caire, 1370 = 1951.

Ibn Ḫallikân, *Wafayât al-aʿyân*, texte arabe, le Caire, 1310, 2 vol., trad. anglaise par de Slane, Paris-Londres, 1843-1871, 4 vol.

— autre éd. au Caire, 1367 = 1948, 6 vol. ;

Ibn Ḥamdîs, *Dîwân : Il Canzoniere*, éd. par Schiaparelli, Rome, 1897.

— *Le palais d'al-Mansour à Bougie*, poème traduit en français par L. Bercher, in *Revue Tunisienne*, tome 29 (1922), pp. 50-56.

Ibn Hâni', *Dîwân*, éd. de Beyrouth, 1326 ; éd. par Zâhid 'Alî, le Caire, 1934.

Ibn Ḫâqân. V. al-Fatḥ ibn Ḫâqân.

Ibn al-Ḫaṭîb (Lisân ad-Dîn), *Aʿmâl al-aʿlâm fîman buyiʿa qabl al-iḥtilâm min mulûk al-islâm wa-mâ yağurr ḏalik min šuğûn al-kalâm* : ms. de la Bibliothèque nationale d'Alger, no 1617.

— *Histoire de l'Espagne musulmane* extraite du *Kitâb Aʿmâl al-Aʿlâm*,

texte arabe publié avec introduction et index, par E. Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol. III), Rabat, 1934. En abrégé : *A'mâl.*

— *al-Iḥâṭa fi aḫbâr Ġarnâṭa*, le Caire, 1319, 2 vol. ; ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, n° 3347.

— *al-Lamḥat al-badriyya fi-d-dawlat an-naṣriyya*, le Caire, 1347.

Ibn Ḫâtima. V. Colin (G. S.).

Ibn Ḥawqal, *Kitâb al-masâlik wa-l-mamâlik* (*B. G. A.*, t. II), Leyde, 1873 ; 2e éd., par J. H. Kramers, Leyde, 1938, 2 vol.

— *Description de l'Afrique*, traduction française par De Slane, in *J. A.*, 3e série, tome 13 (1842), pp. 153-196 ; 209-258.

Ibn Ḥayyân. : V. Ibn Ḥaiyân.

Ibn Ḥâzim al-Qarṭâǧannî. V. Abu-l-Qâsim al Ġarnâṭi.

Ibn Ḥazm, *Risâla*, in *Analectes*, II, pp. 109-121.

— *Ǧamharat ansâb al-'Arab*, ms. de Paris, Bibliothèque nationale, n° 5829 ; ms. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, n° 365.

— *Ǧamharat ansâb al-'Arab* (Collection : Ḏaḫâ'ir al-'Arab. — Vol. II), éd. critique par E. Lévi-Provençal, Le Caire, 1368 = 1948.

— *Tawq al-ḥamâma fi-l-ulfa wa-l-ullâf*, texte arabe par Pétrof, Leyde, 1914 ; autre éd. à Damas, 1349.

— trad. anglaise, par A. R. Nykl, *The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, Paris, 1931 ;

— trad. italienne, par Fr. Gabrieli, *Il Collare della Colomba sull'Amore e gli Amanti*, Bari (Italia), 1949 ;

— trad. française, par L. Bercher *Le Collier du Pigeon ou de l'Amour et des Amants* (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. VIII), Alger, 1949 ;

— trad. espagnole, par E. Garcia Gómez, *El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Amantes*, Madrid, 1952.

— V. Asín Palacios.

Ibn Hišâm al-Baṣrî, *Sîrat ar-Rasûl*, Le Caire, 1329, 3 vol. ; éd. de Gottingen, par G. Wüstenfeld, 1858-1860, 2 vol.

Ibn Huḏail al-Andalusî, *Ḥilyat al-fursân wa-ši'âr aš-šuǧ'ân*, texte arabe lithographié, Paris, 1921 ; trad. française annotée par Louis Mercier, *La parure des cavaliers et l'insigne des preux*, Paris, 1924.

Ibn 'Iḏârî, *al-Bayân al-muġrib fi aḫbâr al-Maġrib*, t. I-II, texte arabe par Dozy, Leyde, 1848-1851, trad. française, par Fagnan, Alger, 1901-1904 ; t. III, texte arabe par Lévi-Provençal (*Textes arabes relatifs à l'Histoire*

de l'Occident musulman, vol. II), Paris, 1930 ; trad. française des 37 premières pages, avec quelques coupures, par Lévi-Provençal, in *H. M. E.*³, t. III, pp. 185-214. — N^elle^ éd. du texte arabe par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal, Leiden, 1948-1951, 2 vol. parus.

— V. *Corrections...* de Dozy.

Ibn Jobair, *Voyages*, traduits et annotés par Maurice Gaudefroy-Demombynes (Documents relatifs à l'histoire des Croisades, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. — Vol. IV-V), Paris, 1949-1951, 2 vol. à pagination unique.

Ibn Kardabûs, *al-Iktifâ' fî aḫbâr al-ḫulafâ'*, extraits in *Abbad.*, II, II-27.

Ibn Luyûn, *Lamḥ as-siḥr min Rûḥ aš-šiʿr*, mṣ. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, nº 1033.

Ibn Manẓûr, *Lisân al-ʿArab*, Bûlâq, 1300-1308, 20 vol.

Ibn al-Mawâʿînî, *Raiḥân al-albâb wa-raiʿân aš-šabâb*, extraits in *Abbad.*, II, 1-10.

Ibn al-Muʿtazz, *Dîwân*, Beyrouth, 1331.

— *Fuṣûl al-tamâṯîl fî tabâšîr as-surûr*, Le Caire, 1344 = 1925.

Ibn al-Qifṭî, *Ta'rîḫ al-ḥukamâ'*, éd. par J. Lippert, Leipzig, 1903.

Ibn Qutaiba, *aš-Šiʿr wa-š-šuʿarâ'*, éd. par de Goeje, Leyde, 1904.

— *ʿUyûn al-aḫbâr*, le Caire, 1343-1349 = 1925-1930, 4 vol.

— *Muqaddimat Kitâb aš-šiʿr wa'š-šuʿarâ'* : *Introduction au Livre de la Poésie et des Poètes* (Collection arabe de l'Association Guillaume Budé), texte arabe avec Introduction, Traduction et Commentaire, par Gaudefroy-Demombynes, Paris, 1947.

Ibn al-Qûṭiyya, *Historia de la conquista de España*, texte établi par Gayangos, trad. espagnole par J. Ribera, Madrid, 1926.

Ibn Quzmân, *Dîwân* : *Cancionero*, texte arabe publié en phototypie par D. de Gunzburg, fasc. 1 (seul paru), Berlin, 1896 ; en transcription, précédé d'une étude et suivi d'une trad. partielle, par A. R. Nykl (*Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Serie A, nº 1), Madrid-Grenade, 1933.

Ibn Rašîq, *al-ʿUmda*, le Caire, 1325 = 1907, 2 tomes en 1 vol.

Ibn ar-Rûmî, *Dîwân* : *Extraits choisis* par Kâmil Kîlânî, le Caire, 1342 = 1924, 3 tomes en 1 vol.

— *Dîwân*, éd. critique par Muḥammad Šarîf Salîm, Le Caire, 1917-1922, 2 vol. (rimes *â* à *ḥâ'*).

Ibn aš-Šaǧarî, *al-Ḥamâsa*, éd. par F. Krenkow, Hyderabad (Dekkan), 1345.

Ibn Sahl, *Dîwân al-aḥkâm al-kubrâ*, ms. d'Alger, Bibl. nationale, nº 1332.

Ibn Sa'îd al-Maġribî, *'Unwân al-murqiṣât wa l-muṭribât*, Bûlâq, 1286 ; *Modèles de vers « à danser et à rire »*, texte et traduction annotée par A. Mahdad (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. IV), Alger, 1949.

— *Râyât al-mubarrizîn wa-ġâyât al-mumayyizîn : El Libro de las Banderas de los Campeones*, éd. et trad. par E. Garcia Gómez, Madrid, 1942.

Ibn Šâkir al-Kutubî, *Fawât al-Wafayât*, Bûlâq, 1283, 2 vol.

Ibn Sanâ' al-Mulk, *Dâr aṭ-Ṭirâz : Poétique du Muwaššaḥ*, éd. critique par Jawdat Rikabi, Damas, 1949.

Ibn aš-Šiḥna, *ad-Durr al-muntaḫab fî ta'rîḫ Ḥalab : Les perles choisies. Matériaux pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, trad. française par J. Sauvaget (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1933.

Ibn Šuhaid (Abû 'Amir) al-Andalusî, *Risâlat at-tawâbi' wa'z-zawâbi'*, éd. par Buṭrus al-Bustânî, Beyrouth, 1951.

Ibn Thofail, *Hayy ben Yaqdhân : Roman philosophique*, édition critique du texte arabe avec traduction française annotée, 2e éd., par Léon Gauthier (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol. III), Beyrouth, 1936.

Ibn Ya'îš, *Šarḥ al-Mufaṣṣal*, éd. par Jahn, Leipzig, 1882-1886.

Ibn Ẓâfir, *Badâ'i' al-badâ'ih*, Bûlâq, 1278.

Ibn Zaidûn, *Diwân*, éd. par Kâmil Kîlânî et 'Abd ar-Raḥmân Ḫalîfa, le Caire, 1351 = 1932 ; éd. par Karam al-Bustânî, Beyrouth, 1951.

Ibn Zâkûr, *Šarḥ Qalâ'id al-'iqyân*, ms. personnel.

al-Ibšîhî, V. al-Abšîhî.

Idris (H. R.), *Contribution à l'histoire de l'Ifrîkiya. Tableau de la vie intellectuelle et administrative à Kairouan sous les Aġlabites et les Fatimites (quatre premiers siècles de l'hégire) d'après le Riyâḍ En Nufûs de Abû Bakr El Mâlikî*, in *R. E. I.*, 1935, cahier II, p. 105-178 ; cahier III, p. 273-305 ; 1936, cahier I, p. 45-104.

al-Idrîsî, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, texte arabe et trad. française par Dozy et de Goeje, Leyde, 1866.

al-Iktifâ' fî aḫbâr al-ḫulafâ' : V. Ibn Kardabûs.

'Imâd ad-Dîn al-Iṣfahânî, *Ḫarîdat al-qaṣr wa-jarîdat ahl al-'aṣr*, ms. de Paris, Bibl. nationale, nos 3330-3331 ; Extraits in *Abbad.*, I, 383-423.

Imru'l-Qais, *Diwân*, éd. par as-Sandûbî, Le Caire, 1349 = 1930.

Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. V. Blachère ; Levi-Provençal ; Pellat.

L'Islam et l'Occident. Cahiers du Sud; Paris, 1947.

Islamica. V. Hell ; al-Ḥâtimi.

al-Istibṣâr fî 'aǧâ'ib al-amṣâr, texte arabe par Kremer, Vienne, 1852 ; trad. française par Fagnan, Constantine, 1900.

J. A. : *Journal asiatique*. V. Abû Ḥâmid al-Andalusî ; Amari ; Bel ; Caussin de Perceval ; Clément-Mullet ; Dugat ; Ibn 'Abdûn ; Lammens ; Mehren ; Munk ; Quatremère ; de Slane ; at-Tiǧânî.

Jahn. V. Ibn Ya'îš.

Jeanroy (A.), *La poésie lyrique des Troubadours*, Toulouse-Paris, 1934, 2 vol.

Joret (Ch.), *La rose dans l'antiquité et au moyen âge*, Paris, 1892.

— *Les plantes dans l'antiquité et le moyen âge*, Paris, 1897, 2 vol.

Journal des Savants. V. Basset (R.) ; Marçais (G.).

al-Kâtib al-Miṣrî. V. Lévi-Provençal.

al-Kattânî (Muhammad ibn Ǧa'far ibn Idrîs), *Salwat al-anfâs wa-muḥâdaṯat al-akyâs biman uqbira min al-'ulamâ wa-ṣ-ṣulaḥâ' bi-Fâs*, Fès, 1316, 3 vol.

Kilânî (Kâmil), *Naẓarât fî ta'rîḫ al-adab al-andalusî*, le Caire, 1342 = 1924.

— V. Ibn ar-Rûmî ; Ibn Zaidûn.

Kînâny (A. Kh.), *The Development of Gazal im Arabic Literature (Pre-Islamic and Early Islamic Periods)*, Damas, 1951.

Kramers (J. H.). V. Ibn Ḥawqal.

Kratchkowsky (I.), Compte rendu de la 1re éd. de *La Poésie andalouse*, in *L'Orientalisme soviétique*, Moscou-Léningrad, Tome III (1945), pp.288-291.

Kremer (F. von). V. *al-Istibṣâr*.

Krenkow (F.). V. Ibn aš-Saǧarî.

Kurd 'Alî (M.), *Ġâbir al-Andalus wa-ḥâḍiruhâ*, le Caire, 1341 = 1923.

— *Ġarâ'ib al-Ġarb*, le Caire, 2e éd., 1341 = 1923.

— *al-Islâm wa-l-ḥaḍâral al-'arabiyya*, le Caire, 1934-1936, 2 vol.

— *al-Qadîm wa-l-ḥadîṯ*, le Caire, 1343 = 1925.

— *Rasâ'il al-bulaǧâ'*, le Caire, 1331 = 1913.

Lafuente y Alcantara (E.). V. *Aḫbâr Maǧmû'a*.

Lammens (H.), *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, in *J. A.*, 11e série, t. VI (1915), pp. 239-279.

— *Le berceau de l'Islam*, t. I, Rome, 1914.

— *Etudes sur le règne du calife omaiyade Mu'âwia Ier*, in *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth*, t. II, 1907.

Laoust (E.), *Mots et choses berbères. Notes de linguistique et d'ethnographie. Dialectes du Maroc*, Paris, 1920.

Leclerc (L.). V. Ibn al-Baiṭâr.

Le Gentil (P.), *A propos de la « strophe zéjelesque »*, in *Revue des Langues Romanes*, Tome LXX, 1949, pp. 119-134.

Léon l'Africain, *Description de l'Afrique, tierce partie du monde*, éd. par Schefer, Paris, 1896-1898, 3 vol.

Lerchundi (J.) et Simonet (J.), *Crestomatia arábigo-española*, Grenade, 1881.

Lévi-Provençal (E.), *Alphonse VI et la prise de Tolède* (1085), in *Hespéris*, XII (1931), pp. 33-49; reproduit dans *Islam d'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 109-135.

— *L'Espagne musulmane au Xe siècle. Institutions et vie sociale*, Paris, 1932.

— *Fragments d'une chronique des Mulûk aṭ-Ṭawâ'if*, texte arabe in *al-Bayân*, t. III, pp. 289-316; trad. française in *H. M. E.*², t. III, Appendice II, 215-235.

— *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922.

— *Inscriptions arabes d'Espagne*, avec quarante-quatre planches en phototypie, Leyde-Paris, 1931, 2 vol.

— *Un nouveau texte d'histoire mérinide : le Musnad d'Ibn Marzûq*, in *Hespéris*, V (1925), pp. 1-82.

— *Sur de nouveaux manuscrits de la Ḏaḫîra d'Ibn Bassâm*, in *Hespéris*, XVI (1933), pp. 158-161.

— *Un texte inédit sur l'histoire de l'Espagne musulmane dans la seconde moitié du XIe siècle, les Mémoires de 'Abd Allâh, dernier roi zîride de Grenade*, fragments publiés d'après le manuscrit de la Bibliothèque d'al-Qarawîyin à Fès, avec une introduction et une traduction française, in *Al-Andalus*, Madrid-Grenade, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344 ; vol. IV, fasc. II (1936), pp. 29-145.

— *Poésie arabe d'Espagne et poésie d'Europe médiévale*, dans *Islam d'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 281-304.

— *Turâṯ al-Andalus*, en arabe, in *al-Kâtib al-Miṣrî*, Le Caire, janvier 1947, pp. 611-623 ; en français, sous le titre : *Le rôle spirituel de l'Espagne musulmane*, dans *Islam et Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 305-318.

— *Islam d'Occident. Etudes d'histoire médiévale* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. VII), Paris, 1948.

— *Glanures cidiennes. Lettre à D. Ramon Menendez Pidal*, in *Estudios dedicados a Menendez Pidal*, Madrid, 1950, 11 pages.

— *Le rôle de la Marche supérieure dans l'histoire politique de l'Espagne califienne*, in *Pireneos*, Zaragoza, 1950, 18 pages.

— *En relisant le « Collier de la Colombe »*, in *Al-Andalus*, Madrid, Vol. XV (1950), fasc. 2, pp. 335-375.

— *Histoire de l'Espagne musulmane.* — I. *La conquête et l'Emirat hispano-umaiyade* (710-912). — II. *Le Califat umaiyade de Cordoue* (912-1031), 2e éd., Paris-Leiden, 1950, 2 vol. — III. *Le siècle du Califat de Cordoue*, Paris, 1953.

— V. 'Abd Allâh le Zîride ; Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarî ; Ibn 'Abdûn ; Ibn Bassâm ; Ibn al-Ḫaṭîb ; Ibn Ḥazm ; Ibn 'Iḏârî ; *Mafâḫir al-Barbar* ; as-Saqaṭî ; *Una cronica anonima*.

E. Lévi-Provençal, E. García Gómez y J. Oliver Asín, *Novedades sobre la Batalla llamada de Al-Zallâqa* (1086), in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 111-155.

Lippert (J.). V. Ibn al-Qifṭî.

Lisân : Ibn Manẓûr, *Lisân al-'Arab*, Bûlâq, 1300-1308, 20 vol.

Longus, *Daphnis et Chloé*, éd. des Belles-Lettres, Paris, 1934.

Luya (A.). V. aš-Šaqundî.

al-Ma'arrî (Abu-l-'Alâ'), *Risâlat al-ġufrân*, Le Caire, 1325-1907. ; éd. critique par Bint aš-Šâṭi' (Ḏaḫâ'ir al-'Arab. — Vol. IV), Le Caire, 1950.

Machuel (L.), *Les auteurs arabes*, in *Lectures littéraires. Pages choisies des grands écrivains*, coll. publiée par A. Colin, Paris, 1912.

Mahdad (A.). V. Ibn Sa'îd ; Ṣafwân ibn Idrîs.

Mafâḫir al-Barbar, Fragments historiques sur les Berbères au moyen âge, éd. par Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines*, Vol. I), Rabat, 1934.

Maǧmû'a adabiyya, Constantinople, 1302. V. as-Suyûṭî.

Magnin (Ch.), *Hrosvita*, in *Revue des Deux-Mondes*, 15 novembre 1839.

al-Maidânî, *Magma' al-amṯâl*, Bûlâq, 1284, 2 vol.

al-Maimanî ar-Râǧakûtî, *an-Nutaf min ši'r Ibn Rašîq wa-zamîlih Ibn Šaraf*, le Caire, 1343.

al-Mâlikî (Abû Bakr), *Kitâb Riyâḍ an-Nufûs*, éd. par Ḥusain Mu'nis, Le Caire, 1951.

— V. Idrîs (H. R.).

Malo de Molina, *Rodrigo el Campeador*, Madrid, 1857.

Ma'n ibn Aws, *Diwân*, éd. par Schwarz, Leipzig, 1903 ; éd. par Kamâl Muṣṭafâ, le Caire, 1927.

Manuel (D. Juan). V. *El Conde Lucanor*.

al-Maqdisî. V. al-Muqaddasî.

al-Maqqarî, *Azhâr ar-riyâḍ fî aḫbâr al-qâḍî 'Iyâḍ*, Tunis, 1322, t. I (seul paru) ; Le Caire, 1358 = 1939, 3 vol.

— *Nafḥ aṭ-ṭīb min ġusn al-Andalus ar-raṭīb wa-ḏikr wazīrihā Lisān ad-Dīn Ibn al-Ḫaṭīb*, Bûlâq, 1279 (= 1862), 4 vol. ; le Caire, 1302 (= 1884), 4 vol ; Leyde, 1855-1861 : 2 vol. (1re moitié seulement). En abrégé : éd. du Caire : *Nafḥ aṭ-ṭīb* ; éd. de Leyde : *Anal.* ou *Analectes*. — Ed. par M. Muḥyî ad-Dîn 'Abd al-Ḥamîd, Le Caire, 1367 = 1949, 10 vol.

— V. Dugat ; Gayangos ; Massé.

al-Maqrîzî. V. Quatremère.

Marçais (G.), *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle*, Constantine-Paris, 1913.

— *Le costume musulman d'Alger* (1830-1930) (*Collection du Centenaire de l'Algérie. Archéologie et Histoire*), Paris, 1930.

— *Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam occidental*, in *Hespéris*, XIX, fasc. 1-2 (1934), pp. 95-106.

— *Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fâtimite conservés au Musée du Caire*, in *Mélanges Maspero*, vol. III (*M.I.F.A.O. du Caire*, t. LXVIII), pp. 241-257.

— *Manuel d'art musulman. L'architecture. Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Paris, 1926-1927, 2 vol.

— *Note sur les ribâts en Berbérie*, in *Mélanges René Basset*, Paris, 1925, t. II, 395-430.

— *La question des images dans l'art musulman*, in *Byzantion*, t. VIII, fasc. I (1932), pp. 161-183.

— *Sur un bas-relief musulman du Musée Stéphane Gsell*, in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales... d'Alger*, t. I (année 1934-1935), Paris, 1935, pp. 162-175.

— *La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age* (Les Grandes Crises de l'Histoire), Paris, 1946.

— *La poésie andalouse au XIe siècle*, Compte rendu de la 1re éd. de *La poésie andalouse*, in *Journal des Savants* (Paris), janvier-février 1939, pp. 14-30.

Marçais (G.), V. Diehl (Ch.).

Marçais (W.), *Le dialecte arabe parlé à Tlemcen* (*Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger*, t. XXVI), Paris, 1902.

— *Observations sur le texte du « Ṭawq al-ḥamâma »* (*« le Collier de la colombe »*) *d'Ibn Ḥazm* in *Mémorial Henri Basset*, t. II, Paris, 1928, pp. 59-98.

— *Textes arabes de Takroûna* (*B. E. L. O. V.*, t. VIII), Paris, 1925.

— V. at-Tiǧânî.

Marçais (W. et G.), *Les monuments arabes de Tlemcen*, Paris, 1903.

Mármol Carvajal, *Historia del rebelión y castigo de los Moriscos del Reyno de Granada*, Madrid, 1797, 2 vol.

al-Marrâkušî ('Abd al-Wâḥid), *al-Mu'ǧib fî talḫîṣ ta'rîḫ al-Maǧrib*, texte arabe par Dozy, Leyde, 2e éd., 1881 ; éd. du Caire, 1324 = 1906 ; trad. française par Fagnan, *Histoire des Almohades*, in *Revue africaine*, 1891-1893, tirage à part, Alger, 1893. En abrégé : al-Marrâkušî, *Hist. Almoh.*

Martinenche (E.), *Propos d'Espagne*, Paris, 1905.

Martino (P.). *L'Orient dans la littérature française au XVIIe et au XVIIIe siècle*, Paris, 1906.

Maspero (Jean) et Wiet (Gaston), *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte*, in *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, Vol. XXXVI, Le Caire, 1914-1919.

Massé (H.). *Un chapitre des Analectes d'al-Maqqarî sur la littérature descriptive chez les Arabes*, in *Mélanges René Basset*, t. I, Paris, 1923, pp. 235-258.

— *Les épopées persanes. Firdousi et l'épopée nationale*, Paris, 1935.

— *Ibn Zaidûn*, in *Hespéris*, t. I (1921), pp. 183-193.

— *Anthologie persane (XIe-XIXe siècles)*, Paris, 1950.

— V. *L'âme de l'Iran.*

Massignon (L.), *Les méthodes de réalisation artistique des peuples de l'Islam*, in *Syria*, 1921, pp. 5-22.

— *La passion d'al-Ḥosayn-ibn-Manṣoûr al-Ḥallâj martyr mystique de l'Islam exécuté à Bagdad le 26 mars 922. Etude d'histoire religieuse*, Paris, 1922. En abregé : Massignon, *al-Ḥallâj*.

— *Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, réunis, classés, annotés et publiés* (*Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane*, t. I), Paris, 1929.

— *Recherches sur Shushtarî, poète andalou enterré à Damiette*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, pp. 251-276.

— V. *L'âme de l'Iran.*

al-Mas'ûdî, *Murûǧ aḏ-ḏahab : les Prairies d'or*, texte arabe et trad. française par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1872-1877, 9 vol.

Maṭmaḥ : V. al-Fatḥ ibn Ḫâqân, *Maṭmaḥ al-anfus...*

Mehren (A. F.), *Correspondance du philosophe soufi Ibn Sab'in Abd oul-Haqq avec l'empereur Frédéric II de Hohenstaufen*, in *J. A.*, 7e série, t. IV (1879), pp. 341-454.

— V. ad-Dimašqî.

Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth. V. Lammens.

Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Le Caire, 1935-1945.

Mélanges Maspero. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Mélanges René Basset. V. Cour ; Gaudefroy-Demombynes ; Marçais (G.) ; Massé.

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (en abrégé : *M. I. F. A. O.*) Marçais (G.) ; Pérès.

Memorial Henri Basset. V. Marçais (W.).

Memorias de la Real Academia de la Historia. V. Simonet.

Mendoza y Bobadilla, *El tizón de la Nobleza española y sambenitos de sus linajes*, Barcelone, 1880.

Menéndez y Pelayo (M.), *De las influencias semiticas en la literatura española* C. R. d'une étude de Fr. Fernández y Gonzalez — v. ce nom —), in *Obras completas. Estudios de critica literaria*, 2^e éd., in *Colección de escritores castellanos*, t. 106, Madrid, 1912.

Menéndez Pidal (R.), *La España del Cid*, Madrid, 1929, 2 vol.

— *Obras*. T. II : *Historia y epopeya*, Madrid, 1934.

— *Origenes del español*, 2^e éd., Madrid, 1929.

— *Poesía juglaresca y juglares*, Madrid, 1924.

— *De la vida del Cid*, in *Revista de Occidente*, n^o 32 (février 1926).

— *Poesia árabe y poesía europea* (Coleccion Austral. — N^o 140), Madrid, 1941.

— *Cantos romanicos andalusiés (continuadores de una lirica latina vulgar)*, in *Boletin de la Real Academia Española*, Tome XXXI, Cuaderno CXXXIII, Madrid, 1951.

— V. *Primera crónica general de España*.

Mercier (Louis). V. Ibn Huḏail al-Andalusî.

Meunier (M.). V. *Anacréontiques*.

Mez (A.), *Die Renaissance des Islâms*, Heidelberg, 1922 ; trad. espagnole par Salvador Vila, *El Renacimiento del Islâm* (*Publicaciones de las Escuelas de Estudios árabes de Madrid y Granada*, Série A, n^o 4), Madrid-Grenade, 1936 ; — Trad. arabe par Muḥammad 'Abd al-Hâdî Abû Rîda, Le Caire, 1947-1948, 2 vol.

M. I. F. A. O. : *Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire*. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Migeon (G.), *Manuel d'art musulman. Arts plastiques et industriels*, Paris, 1927, 2 vol.

Mihyâr ad-Dailamî, *Dîwân*, le Caire, 1344-1350 = 1925-1931, 4 vol.

Millas Vallicrosa (José M.), *La poesia sagrada hebraicoespañola*, Madrid, 1940 ; 2e éd., 1949.

— *Tres poligrafos judaicos en la corte de los Tuchibies de Zaragoza*, Barcelona, 1948.

— *La traduccion castellana del «Tratado de Agricultura» de Ibn Baṣṣâl*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1948), fasc. 2, pp. 347-430.

— *La traduccion castellana del « Tratado de Agricultura » de Ibn Wâfid*, in *Al-Andalus*, Vol. III (1943), fasc. 2, pp. 281-332.

Miscelanea de estudios y textos árabes, Madrid, 1915. En abrégé : *Miscelanea*. V. Ibn al-Abbâr.

Monchicourt (Ch.), *Mœurs indigènes. Les rogations pour la pluie (Thlob en nô)*, in *Revue tunisienne*, t. 22 (1915), 65-81.

Morère (M.), *Les données historiques de l'influence de la poésie andalouse sur la lyrique des Troubadours*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Occitanes*, No 7 (1er mai 1951), pp. 48-60.

Motylinski (A. de C.). V. Muḥammad al-Muqrî.

Mubârak (Zakî), *Ḥubb Ibn Abî Rabî'a wa-ši'ruh*, le Caire, 3e éd., 1919.

— *al-Muwâzana bain aš-šu'arâ'*, Le Caire, 1344 = 1926.

— *La prose arabe au IVe siècle de l'hégire (Xe siècle)*, Paris, 1931.

— *an-Naṯr al-fannî fi-l-qarn ar-râbi'*, le Caire, 1352 = 1934, 2 vol.

Mubârak (Zakî). V. al-Ḥuṣrî (Abû Isḥâq).

Mudawwar (Ǧamil), *Ḥaḍârat al-islâm fî Dâr as-salâm*, Beyrouth, 1re éd., 1888 ; 2e éd., 1905 ; 3e éd., 1932.

Muḥammad al-Muqrî, *Ta'rîf manâzil al-qamar. Les mansions lunaires des Arabes*, texte arabe en vers, trad. et annoté par A. de C. Motylinski, Alger, 1899.

Müller (M. J.), *Beiträge zur Geschichte der westlichen Araber*, Munich, 1866-1878.

— V. Ibn al-Abbâr, *al-Ḥulla*.

Munier (H.) et Wiet (G.), *L'Egypte byzantine et musulmane (Précis de l'Histoire d'Egypte*, t. II), le Caire, 1932.

Mu'nis (Ḥusain). V. al-Mâlikî.

Munk (S.), *Notice sur Abou'-l-Wâlîd Merwân Ibn Djanah et sur quelques autres grammairiens hébreux du Xe et du XIe siècle*, in J. A., 4e série, t. 16, (1850), pp. 201-247.

al-Muqaddasî, *Aḥsan at-taqâsim fî ma'rifat al-aqâlîm. Descriptio imperii moslemici*, éd. par de Goeje, in *B. G. A.*, t. III, 2e éd., Leyde, 1906.

— *Description de l'Occident musulman au Xe siècle*, texte arabe et trad. française annotée par Ch. Pellat (Bibliothèque arabe-française. — Vol. IX), Alger, 1950.

Al-Muqtabas, V. Anastase.

Muslim ibn al-Walîd, *Dîwân*, éd. par de Goeje, Leyde, 1875.

Muṣṭafâ (Kamâl). V. Ma'n ibn Aws.

al-Mutalammis, *Dîwân*, éd. par Vollers, Leipzig, 1903.

al-Mu'tamid, *Si'r* (à la suite d'Ibn Zaidûn, *Dîwân*), le Caire, 1351 = 1932.

— V. Smith.

al-Mutanabbî, *Dîwân*, avec le commentaire d'al-Ukbarî, Bûlâq, 1287, 2 vol. ; éd. annotée par al-Barqûqî, le Caire, 1348 = 1930 ; éd. Ṣâdir, Beyrouth, 1926.

— V. Blachère.

an-Nâṣirî as-Salâwî, *al-Istiqṣâ li-aḫbâr duwal al-Maġrib al-aqṣâ*, le Caire, 1312, trad. française :

Tome I, par A. Graulle, in *Archives marocaines*, t. XXX (1923) ;

A. Graulle et G. S. Colin, in *Archives marocaines*, t. XXXI (1925) ;

Tome II, par I. Hamet, in *Archives marocaines*, t. XXXII (1927), t. XXXIII (1934) ;

Tome III, par Maḥammad en-Nâcirî, in *Archives Marocaines*, t. XXXIV (1936) ;

Tome IV, par E. Fumey, in *Archives marocaines*, t. IX-X (1906-1907).

an-Nawâǧî, *Ḥalbat al-kumait*, le Caire, 1299.

N. B. A. E. : *Nueva Biblioteca de autores españoles*. V. *Primera crónica general de España*.

Nicholson (R.), *A literary History of the Arabs*, Londres, 1914.

Nöldeke (Th.), *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin, 1890.

Notices et Extraits. V. Ibn al-Baiṭâr ; Ibn Ḫaldûn.

an-Nuwairî, *Nihâyat al-arab fî funûn al-adab*, éd. du Caire, 1923-1949 (15 vol. parus).

— *Historia de los Musulmanes de España y Africa* (Extrait de la *Nihâyat al-arab*), texte arabe et trad. espagnole par Gaspar Remiro (*Revista del centro de Estudios históricos de Granada y su Reino*), Grenade, 1917-1919, 2 vol.

Nykl (A. R.), *A Book containing the Risâla known as The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, trad. anglaise du *Ṭawq al-ḥamâma* d'Ibn Ḥazm avec une Introduction, Paris, 193 .

— *La poesía a ambos lados del Pirineo hacia el año* 1100, in *Al-Andalus*, Vol. I (1933), fasc. 2, pp. 355-408.

— *Hispano-arabic Poetry and its relations with the Old Provençal Troubadours*, Baltimore, 1946.

— *Muḫtârât min aš-ši'r al-andalusî*, Beyrouth, 1949.

— V. Abû Dâûd ; Ibn Ḥazm ; Ibn Quzmân.

Oliver Asín (J.), *Origen árabe de rebato, arrobda y sus homónimos. Contribución al estudio de la historia medieval de la táctica militar y de su léxico peninsular* (*Boletín de la real Academia española*, année XV, t. XI, pp. 347-395, 496-542), Madrid, 1928.

— V. Lévi-Provençal et García Gómez.

Osma y Scull (G. J.), *Catálogo de azabaches compostelanos, precedido de apuntes sobre los amuletos contra el ojo, las imágenes del apostol-romero y la cofradía de los azabacheros de Santiago*, Madrid, 1916.

Pavet de Courteille. V. al-Mas'ûdî.

Pellissier et Rémusat. V. Ibn Abî Dînâr.

P. E. L. O. V. : *Publications de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. al-Buḫârî.

Pérès (H.), *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de* 1610 *à* 1930 (*Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. VI), Paris, 1937.

— *Le Kitâb al-imâma wa's-siyâsa et la réception des poètes par le khalife omeyyade 'Umar ibn 'Abd al-'Azîz d'après Ibn Qutaiba*, in *Revue tunisienne*, n^os 19-20 (1934), pp. 317-335.

— *Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes*, in *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, le Caire, 1937, p. 225-239.

— *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades*, in *Hespéris*, t. XVIII-((993)), pp. 9-40.

— *La poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des troubadours*, dans *L'Islam et l'Occident*. — *Cahiers du Sud*, Marseille-Paris, 1947, pp. 107-130.

— V. Abu-l-Walîd al-Ḥimyarî.

Perron (Dr.), *Femmes arabes avant et depuis l'islamisme*, Paris et Alger, 1858.

Petit-Dutaillis (Ch.) et Guinard (P.), *L'essor des Etats d'Occident* (*France, Angleterre, Péninsule ibérique*), in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz. *Histoire du Moyen âge*, t. IV, 2^e partie Paris, 1937.

Pétrof. V. Ibn Ḥazm.

P. I. H. E. M. : *Publications de l'Institut des Hautes Etudes marocaines*. V.

Brunot ; Renaud et Colin ; Ṣâ'id al-Andalusî ; as-Saqaṭî ; Terrasse.

Pireneos. V. Lévi-Provençal.

Pirenne (H.), Cohen (G.), Focillon (H.), *La civilisation occidentale au Moyen âge, du XIe au milieu du XVe siècle*, in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz, *Histoire du Moyen âge*, t. VIII, Paris, 1933.

Platonov. V. Gaudefroy-Demombynes.

Plus beaux textes arabes (Les), présentés par E. Dermenghem, Paris, 1951.

Pons Boigues (F.), *Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles*, Madrid, 1898. En abrégé : Pons Boigues, *Ensayo*.

Prieto y Vives (A.), *Los reyes de taifas. Estudio histórico-numismatico de los musulmanes españoles en el siglo V de la hégira (XI de J. C.)*, Madrid 1926.

Primera crónica general de España, éd. par R. Menéndez Pidal, in *N. B. A. E.*, t. V, Madrid, 1906.

Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada, Serie A ; Serie B. V. Ibn Quzmân ; Mez-Vila ; García Gómez ; aš-Saqundî.

Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes (en abrégé : *P. E. L. O. V.*). V. al-Buḫârî et Houdas et Marçais (W.).

Publications de la Faculté des Lettres d'Alger. V. *aḏ-Ḏaḫîra as-saniyya*; Marçais (W.).

Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger. V. Brunschvig , L. Gauthier ; Pérès.

Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. V. al-Ya'qûbî et Wiet.

Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines (en abrégé : *P. I. H. E. M.*). V. Brunot ; Renaud et Colin (G. S.) ; Ṣâ'id al-Andalusî ; as-Saqaṭî ; Terrasse.

Qal. ou *Qalâ'id* : al-Fatḥ ibn Ḫâqân, *Qalâ'id al-'iqyân*, Bûlâq, 1283.

al-Qalqašandî, *Ṣubḥ al-a'šâ fî ṣinâ'at al-inšâ*, le Caire, 1331-1338 = 1913-1920. En abrégé : al-Qalqašandî, *Ṣubḥ*.

al-Qazwînî, *Aṯâr al-bilâd wa-aḫbâr al-'ibâd*, texte arabe par F. Wüstenfeld (*Kosmographie*, t. I), Gottingue, 1848.

al-Qirṭâs. V. Ibn Abî Zar'.

Quatremère, *Histoire des Mongols de la Perse*, Paris, 1836.

— *Histoire des Sultans Mamlouks écrite en arabe par... Makrizi*, traduite en français, Paris, 1837-1845, 2 vol. en 4 parties. En abrégé : Quatremère, *Mamelouks*.

— *Mémoire sur le goût des livres chez les Orientaux*, in *J. A.*, 3e série, t. VI (1838), pp. 35-78 et dans *Mélanges d'histoire et de philologie orientale*, Paris, sd. [1857] ; pp. 1-39.

— V. Ibn Ḫaldûn.

Al-Qur'ân, texte arabe constituant la *Vulgate du Qur'ân*, éd. du Caire, 1342 = 1923 (2e éd., 1353 = 1934) ; éd. de Flügel, revue par G. M. Redslob, Leipzig, 1922.

— Traduction française par R. Blachère, sous le titre *Le Coran, traduction selon un essai de reclassement des Sourates* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. III-IV-V), Paris, 1947-1951, 3 vol.

al-Qurašî (Abû Zaid), *Ǧamharat aš'âr al-'Arab*, Bûlâq, 1038.

R. A. A. D. : *Revue de l'Académie arabe de Damas.*

Raiḥân al-albâb wa-rai'ân aš-šabâb. V. Ibn al-Mawâ'înî.

Rat (G.). V. al-Abšîhî.

Raux (A.). V. aṭ-Ṭuġrâ'î.

Réau (L.) et Cohen (G.), *L'art du moyen âge*. (*Arts Plastiques — Art Littéraire*), in *L'évolution de l'humanité*, dirigée par H. Berr, no 40, Paris, 1935.

Recherches[1], *Recherches*[2], *Recherches*[3] : Dozy, *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1re éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2e éd., 1860, 2 vol. ; 3e éd., 1881, 2 vol.

Recueil de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes. V. Bel.

R. E. I. : *Revue des études islamiques*. V. Blachère ; Idris.

Reinaud. V. Abu-l-Fidâ'.

Religión y Cultura. V. Antuña.

Renan (E.), *Averroès et l'averroïsme*, 3e éd., Paris, 1925.

Renaud (H.P.J.), *Sur la date du Nairûz en Espagne musulmane*, in *Bulletin des Etudes Arabes*, No 15 (nov.-déc. 1943), pp. 143-144.

Renaud (Dr. H. P. J.) et Colin (G. S.), *Tuḥfat al-aḥbâb* (*P. I. H. E.M.*, t. XXIV), Paris, 1934.

Rescher (O.). V. al-Ḥâtimî.

Revista de Archivos. V. Gonzalvo.

Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino. V. Gaspar Remiro ; an-Nuwairî.

Revista de Filologia Espanola (en abrégé : *R. F. E.*). V. Alonso (A.) ; Alonso (D.).

Revista de Occidente. V. García Gómez ; Menéndez Pidal.

Revue de l'Académie Arabe de Damas (en abrégé *R. A. A. D.*).
Revue des Deux-Mondes. V. Magnin.
Revue des Etudes Islamiques (en abrégé : *R. E. I.*). V. Blachère ; Idris.
Revue des Etudes juives. V. Fagnan.
Revue des Etudes Sémitiques. V. Blachère.
Revue tunisienne. V. 'Abd al-Wahhâb ; Bercher ; Monchicourt ; Pérès.
R. F. E. (*Revista de Filologia Española*). V. Alonso (Amado); Alonso (Damaso).
Ribera (J.), *Disertaciones y Opúsculos*, Madrid, 1928, 2 vol.
— *Historia de la música árabe medieval y su influencia en la española* (*Colección de Manuales Hispania*, vol. I, Serie G), Madrid, 1927.
— *La música de las Cantigas*, Madrid, 1922, 2 vol.
— V. Gil ; al-Ḫušanî ; Ibn Ḫair ; Ibn al-Qûṭiyya.
Riḍâ (Muḥyî ad-Dîn). V. al-Ḥuṣrî (Abu-l-Ḥasan).
Rifâ'î (A. F.), *Aṣr al-Ma'mûn*, le Caire, 1346 = 1927, 3 vol.
— V. Yâqût.
Rikabi (Jawdat), *La poésie profane sous les Ayyûbides et ses principaux représentants*, Paris, 1949.
— V. Ibn Sanâ' al-Mulk.
Romania. V. Colin (G. S.).
Roques (Mario), *Préface à « La civilisation en France au Moyen Age »* de Joan Evans, Paris, 1930, pp. 5-10.

Rousseau (Alphonse), *Le Parnasse oriental ou Dictionnaire historique et critique des meilleurs poètes anciens et modernes de l'Orient*, Alger, 1841.
— V. at-Tiğânî.

Ṣâdir. V. al-Mutanabbî.
aṣ-Ṣafadî, *Nakt al-himyân fî nukat al-'umyân*, éd. par A. Zakî, le Caire, 1329 = 1911.
— V. Zakî (A.).
Ṣafwân ibn Idrîs al-Mursî, *Zâd al-musâfir wa-ġurrat muḥayyâ al-adab as-sâfir*, ms. de l'Escurial, nº 355 ; éd. par A. Mahdad, Beyrouth, 1938.
Ṣâ'id al-Andalusî, *Ṭabaqât al-umam*, texte arabe par L. Cheikho, Beyrouth, 1912; trad. française par R. Blachère (*P.I.H.E.M.*, t. XXVIII), Paris, 1935.

Salles (G.) et Ballot (M. J.), *Les collections de l'Orient musulman*, Paris, 1928.
aṣ-Ṣanawbarî, *ar-Rawḍiyyât*, éd. par Muḥammad Ṭabbâḫ, Alep, 1351 = 1932.
Sánchez (M.). V. Gil.

Sánchez Albornoz (C.), *Estampas de la vida en León hace mil años*, Madrid, 1928.
— y Viñas (A.), *Lecturas de historia de España*, Madrid, 1929.
Sánchez Cantón (F. J.). V. *El Conde Lucanor.*
as-Sandûbî (Ḥasan), *Adab al-Ǧâḥiẓ*, le Caire, 1350 = 1931.
— V. al-Ǧâḥiẓ ; Imru'l-Qais.
Sanguinetti. V. Ibn Baṭṭûṭa.
as-Saqaṭî, *Un manuel hispanique de Ḥisba*. Texte arabe publié avec une introduction, des notes linguistiques et un glossaire, par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal (*P.I.H.E.M.*, t. XXI), Paris, 1931.
aš-Šaqundî, *Risâla fî faḍl al-Andalus*, texte arabe in *Analectes*, t. II, pp. 126-150 ; trad. espagnole par E. García Gómez, *Elógio del Islâm español*, Madrid-Grenade, 1934 ; trad. française par A. Luya, in *Hespéris*, t. 22 (1935), fasc. 2, pp. 143-181.
Šaraf ad-Dîn Râmî, *Anîs al-'uššâq. Traité des termes figurés relatifs à la description de la beauté*, trad. du persan et annoté par Cl. Huart (*Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes*, t. XXV), Paris, 1875.
aš-Šarîf al-Ǧarnâṭî, *Raf' al-ḥuǧub al-mastûra fî maḥâsin al-Maqṣûra*, le Caire, 1344, 2 vol.
aš-Šarîšî, *Šarḥ maqâmât al-Ḥarîrî*, le Caire, 1314, 2 vol.
Sauvaget (J.). Ibn aš-Šiḥna.
Sauvaire (H.), *Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain* (1690-1691) (*Bibliothèque orientale elzévirienne*. — Tome XXXIX), Paris, 1884.
Schack (Fr. von), *Poesía y arte de los Arabes en España y Sicilia*, trad. espagnole par J. Valera, 3e éd., Séville, 1881, 3 vol. En abrégé : Schack-Valera, *Poesía y arte*.
Schefer. V. Léon l'Africain.
Schiaparelli. V. Ibn Ḥamdîs ; *Vocabulista in arabico*.
Schwarz. V. Ma'n ibn Aws.
Schwarzlose (F. W.), *Die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt*, Leipzig, 1886.
Seybold, *Hispano-arabica*, in *Z. D. M. G.*, t. 63 (1909), pp. 350-364.
Simonet (F. J.), *Descripción del reino de Granada bajo la dominación de los Naseritas sacada de los autores arabes, y seguida del texto inédito de Mohammed Ibn Aljatib*, Madrid, 1861.
— *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los Mozárabes precedido de un estudio sobre el dialecto hispano-mozárabe*, Madrid, 1888.
— *Historia de los Mozárabes de España deducida de los mejores y mas autén-*

ticos testimonios de los escritores cristianos y árabes (*Memorias de la real Academia de la Historia*, t. XIII), Madrid, 1897-1903.
— *El siglo de oro de la literatura arabigo-española*, Grenade, 1867.
aš-Širwânî, *Ḥadîqat al-afrâḥ*, le Caire, 1298.
Slane (de), *Observations sur le sens figuré de certains mots qui se rencontrent souvent dans la poésie arabe*, in *J. A.*, 3e série, t. VII, (1839), pp.169-178.
— V. Abu-l-Fidâ' ; al-Bakrî ; Ibn Ḫaldûn ; Ibn Ḫallikân.
Smith (Dulcie Laurence), *The Poems of Mu'tamid King of Seville rendered into english verse, with an introduction*, Londres, 1915.
Stenne (G.). V. Graetz.
Stern (S. M.), *Les vers finaux en espagnol dans les muwaššaḥs hispanohébraïques*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1948), fasc. 2, pp. 299-346.
— *Un muwaššaḥ arabe avec terminaison espagnole*, in *Al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. I, pp. 214-218.
aṣ-Ṣûlî (Muḥammad ibn Yaḥyâ), *Akhbâr ar-Râḍî Billâh wa'l-Muttaqî Billâh* (*Histoire de la dynastie 'abbâside de 322 à 333/934 à 944*), traduit de l'arabe par M. Canard (*Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*. — Vol. XI-XII), Alger, 1946-1950, 2 vol.
as-Suyûṭî, *Buġyat al-wu'ât fî ṭabaqât al-luġawiyyîn wa-n-nuḥât*, le Caire, 1326.
— *Raṣf al-la'âl fî waṣf al-hilâl*, in *Maǧmû'a adabiyya*, Constantinople, 1302.
Syr'a. V. Massignon.
aṯ-Ṯa'âlibî, *Ṯimâr al-qulûb fi-l-muḍâf wa-l-mansûb*, le Caire, 1326.
— *Yatîmat ad-dahr fî šu'arâ' ahl al-'aṣr*, Damas, 1304, 4 vol. ; le Caire, 1352 = 1934, 4 vol.
aṭ-Ṭabarî, *Annales* (*Aḫbâr ar-rusul wa-l-mulûk*), éd. par de Goeje, Leyde, 1879-1901, 15 vol.
Ṭabbâḫ (Muḥ. Râġib). V. aṣ-Ṣanawbarî.
Tâǧ al-'arûs : az-Zabîdî, *Tâǧ al-'arûs min ǧawâhir al-Qâmûs*, le Caire, 1306-1307, 10 vol.
Ṭaha Ḥusain. V. Ḥusain (Ṭâhâ).
Tallgren (O. J.), *Los nombres árabes de las estrellas y la transcripción alfonsina*, in *Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal*, t. II, Madrid, pp. 633-718. En abrégé : Tallgren, *Estrellas*.
at-Tamgrûtî, *an-Nafḥat al-miskiyya fi-s-sifârat at-turkiyya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, 1589-1591*, trad. et annotée par H. de Castries, Paris, 1929.
Tedjini (B.), *A travers l'Andalousie musulmane. Un Roi-Poète ou El-Mo'tamid ibn Abbad, Prince de Séville*, Casablanca, 1939. —

En abrégé : Tedjini, *Un Roi-Poète.*

Terrasse (H.), *L'art hispano-mauresque des origines au* XIII[e] *siècle* (*P. I. H. E. M.*, t. XXV), Paris, 1932.

— *Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca, 1949-1950, 2 vol..

Textes arabes relatifs à l'histoire de l'Occident musulman. V. Ibn 'Iḏârî.

at-Tibrîzî, *al-Qaṣâ'id al-'ašr*, éd. Muḥammad Munîr 'Abduh ad-Dimašqî, le Caire, 1343.

— V. al-A'šâ.

at-Tiğânî (Abû Muḥammad 'Abd Allâh), *Riḥla*, texte arabe par W. Marçais, Tunis, 1345 = 1927 ; trad. française par A. Rousseau, in *J. A.*, 4[e] série, t. XX (1852), pp. 57-208 ; 5[e] série, t. I (1853), pp. 101-168, 354-425.

— *Tuḥfat al-'arûs wa-nuzhat an-nufûs*, le Caire, 1301 ; extraits in *Abbad.*, II, 139-155 ; m. d'Alger, Bibliothèque nationale, n° 1784.

aṭ-Ṭiğnarî, *Zahr al-bustân wa-nuzhat al-aḏhân*, ms. de la Section sociologique de la Direction des Affaires indigènes au Maroc.

Tornberg. V. Ibn Abî Zar' ; Ibn al-Aṯîr.

aṭ-Ṭuġrâ'î, *Lâmiyyat al-'ağam*, texte et trad. annotée par A. Raux, Paris, 1903.

al-Tuḥfat al-bahiyya. V. al-Ḥâtimî.

Ṭûqân (Ibrâhîm). V. Abû Dâûd.

Tuulio (M. O. J.), *Ibn Quzmân, poète bilingue*, Helsinki, 1941.

al-'Ukbarî. V. al-Mutanabbî.

al-'Umarî. V. Ibn Faḍl Allâh ; Gaudefroy-Demombynes.

Una cronica anónima de 'Abd ar-Raḥmân III al-Nâṣir, texte établi et traduit en espagnol avec Introduction, notes et index, par E. Lévi-Provençal et E. García Gómez, Madrid-Granada, 1950.

Valera (J.). V. Schack (F. von).

Vernet (Juan), *El valle del Ebro como nexo entre Oriente y Ocidente*, in *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona*, XXIII, 2°, 1950, pp. 249-286.

Vila (Salvador). V. Mez (A.).

Viñas (A.). V. Sánchez Albornoz (C.).

Vloten (Van). V. al-Ğâḥiẓ ; al-Ḫuwârazmî.

Vocabulista in arabico, publié par G. Schiaparelli, Florence, 1871. En abrégé : *Vocabulista.*

Vollers. V. al-Mutalammis.

Wacyf Boutros Ghali, *La tradition chevaleresque des Arabes*, Paris, 1919.

Weijers (H. E.), *Specimen criticum, exhibens locos Ibn Khacanis de Ibn Zeidouno...*, Leyde, 1831. En abrégé : Weijers, *Specimen de Ibn Zeidouno*.

Wiet (G.). V. Maspero (J.) ; Munier ; al-Ya'qûbî.

Wiet (G.) et Hautecœur (L.), *Les mosquées du Caire*, Paris, 1932, 2 vol.

Wüstenfeld (F.). V. Ibn Hišâm al-Başrî ; al-Qazwînî ; Yâqût.

al-Ya'qûbî, *Kitâb al-buldân* (*B. G. A.*, t. VIII), Leyde, 2e éd., 1892.

— *Les Pays*, traduit en français par Gaston Wiet (*Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. — Textes et traductions d'auteurs orientaux.* — Tome Ier), Le Caire, 1937.

Yâqût, *Iršâd al-arîb ilâ ma'rifat al-adîb* = *Țabaqât al-udabâ'* ou *Mu'ğam al-udabâ'* (*Gibb Memorial, Old Series*, t. VI), éd. par D. S. Margoliouth, Londres, 1907-1926, 7 vol. ; 2e éd. par Aḥmad Farîd Rifâ'î, Le Caire, 1355-1357 = 1936-1938, 20 vol.

— *Mu'ğam al-buldân*, texte arabe par Wüstenfeld, Leipzig, 1866-1873, 6 vol.

— V. Barbier de Meynard.

az-Zabîdî. V. *Tâğ al-'Arûs*.

Zâhid 'Alî. V. Ibn Hâni'.

Zakî (Aḥmad), *Mudun al-fann fî bilâd al-Andalus*, in *al-Hilâl*, 43e année, décembre 1934 à mai 1935.

— *Notice sur les couleurs nationales de l'Egypte musulmane*, in *B. I. F. A. O. du Caire*, 1921, pp. 1-35.

— *Safadi. Dictionnaire biographique des Aveugles illustres de l'Orient. Notice bibliographique et analytique*, le Caire, 1911.

— V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî ; aṣ-Ṣafadî.

Zakî Mubârak. V. Mubârak (Zakî).

az-Zamaḫšarî, *al-Mufaṣṣal*, éd. du Caire, 1323.

— V. Ibn Ya'îš.

Zayyât (Ḥabîb), *Mu'ğam al-marâkib wa's-sufun fî'l-Islâm* (*Répertoire des noms de vaisseaux et d'embarcations en Islâm*), in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 321-364.

— *Luġat al-ḥaḍâra* (*Les néologismes arabes au début de l'Islâm*), in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 516-523 ; janvier-mars 1951, pp. 7-9.

Z. D. M. G. : *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*.

— V. Goldziher; Ibn Ġarsiya ; Seybold.

المحتوى

صفحة

صفحة

الباب الرابع

الحياة الداخلية



كتب أخرى للمترجم

- **أمرؤ القيس : حياته وشعره.**
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

- **دراسات فى مصادر الأدب.**
الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

- **ملحمة السيد: دراسة مقارنة.**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣

- **مع شعر الأندلس والمتنبى.**
ترجمة كتاب المستشرق الاسبانى غرسيه غومث، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

- **بابلو نيرودا: شاعر الحب والنضال.**
كتاب روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤ (نفد وتعاد طباعته الآن).

- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة.**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢

- **الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.**
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

- **فى الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية.**
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨

- **دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة.**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧

- **القصة القصيرة: دراسة ومختارات.**
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨

- **الشعر العربى المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته.**
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠

● **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.**
للمستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

● **الحضارة العربية فى إسبانيا.**
للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، دارالمعارف، القاهرة ١٩٨٥.

● **التربية الإسلامية فى الأندلس.**
للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دارالمعارف القاهرة ١٩٨٠.

● **طوق الحمامة لأبن حزم.**
تحقيق وتوثيق وتقديم، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥

● **الأخلاق والسير فى مداوة النفوس لابن حزم.**
تحقيق وتقديم وتعليق، دارالمعرف، القاهرة ١٩٨٢.

● **الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف.**
للمستشرق الفرنسى هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠.

● **تطوير مناهج تعليم القراءة فى مراحل التعليم العام فى الوطن العربى (بالاشتراك).**
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٦.

كتب تحت الطبع :

● **مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن.**

● **الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية من البداية حتى النهاية.**
للمستشرق الألمانى فون شاك.

● **الحب عند دانتى وابن حزم، دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى.**

SYSTÈME DE TRANSCRIPTION

َ *a*; ُ *u*; ِ *i*		ط	*ṭ*
finale ou sans voyelle	'	ظ	*ẓ*
ء initiale vocalisée	*a, u, i*	ع	'
ء interne vocalisée	*'a, 'u, 'i*	غ	*ġ*
ا de prolongation	*â*	ف	*f*
ب	*b*	ق	*q*
ت	*t*	ك	*k*
ث	*ṯ*	ل	*l*
ج	*ǧ*	م	*m*
ح	*ḥ*	ن	*n*
خ	*ḫ*	ه	*h*
د	*d*	و semi-voyelle et diphtongue	*w*
ذ	*ḏ*	و de prolongation	*û*
ر	*r*	ي semi-voyelle	*y*
ز	*z*	ي diphtongue	*i*
س	*s*	ي de prolongation	*î*
ش	*š*	ى	*â*
ص	*ṣ*	ة (absolu) *a*; (en liaison)	*at*
ض	*ḍ*		

Article : isolé ou non précédé d'une voyelle de prolongation : *al-*, *aṭ-*, *aṯ-*, etc.

Article : précédé d'un mot d'une syllabe avec voyelle simple ou de prolongation : *-l-*, *-ṭ-*, *-ṯ-*, etc.

N. B. — Les syllabes عا ، عو et عي au début d'une phrase ont été transcrites par 'A, 'U et 'I.

PUBLICATIONS DE L'INSTITUT D'ETUDES ORIENTALES
FACULTÉ DES LETTRES D'ALGER
V

LA POÉSIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE

AU XI^e SIÈCLE

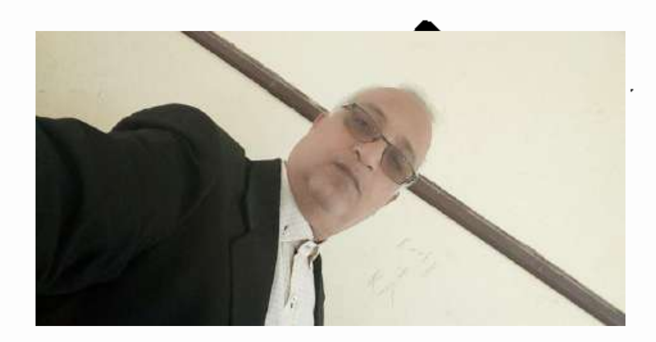
SES ASPECTS GÉNÉRAUX
SES PRINCIPAUX THÈMES
ET SA VALEUR DOCUMENTAIRE

Deuxième édition revue et corrigée

PAR

Henri PÉRÈS

Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger



LIBRAIRIE D'AMÉRIQUE ET D'ORIENT
ADRIEN-MAISONNEUVE
11, rue Saint-Sulpice - PARIS (VI^e)
—
1953